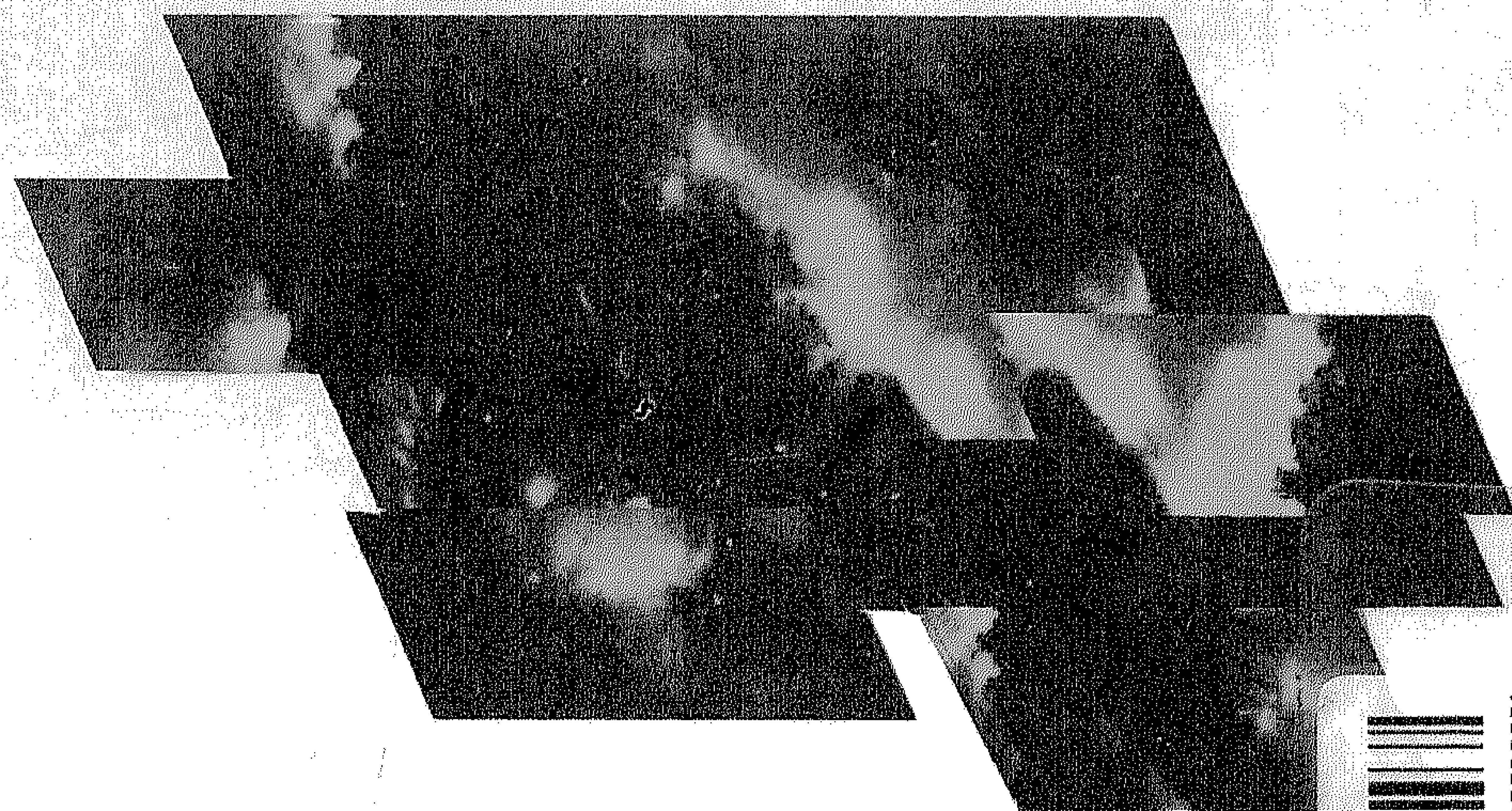
تأليف
يان دوبراتشينسكي

أصداء الزمن

الكنيسة وكفاحها من أجل الوجود
(الصراعات الداخلية والخارجية)



ترجمة
د. كبرو لحدو

أصـــداء الـزمـــن

العنوان الأصلي للكتاب

GŁOSY CZASU

....

اسم المؤلف

JAN DOBRACZQNSKI

دار الحصاد للنشر والتوزيع
سـورية - دمشـق
برامكة - جانب وكالة سانا
هاتف ، فاكس : ٢٢٤٦٣٢٦
ص . ب : ٤٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٥

يان دوبراتشينسكي

أصــداء الـزمــن

الكنيسة وكفاحها من أجل الوجود

(الصراعات الداخلية والخارجية)

ترجمة : د . كبرو لحدو

«تعرفون أن تميزوا وجه السماء وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون»

(متّى : ١٦ : ٣)

الفصل الأول

الكنيـــسة في السراديـــب

ـ المسيحية تخرج عن إطار الموسوية

حَجَّ البابا **بولس السادس** في كانون الأول من عام ١٩٦٤ إلى الأرض المقدسة . وهي الرحلة الأولى في التاريخ التي يغادر فيها البابا حدود أوروبا ، وكانت في الآن ذاته زيارة للأماكن التي ولدت فيها المسيحية .

من المحتمل أن يكون **بطرس البابا الأول** ـ قد غادر **فلسطين** في الأربعينات بعد الميلاد ليؤسس عاصمة كنيسة المسيح في **روما** ـ عاصمة العالم آنذاك . اقتضى الأمر مرور مايقربُ من ألفيْ عام ليقوم خليفته أسقف روما ، وهو البابا الستون بعد المئتين[1] بالعودة إلى الأرض المقدسة ثانية . غادر بطرس **فلسطين** كشخص مجهول وغير ذي شأن ، ولم يكن سوى عدد محدود من الناس يعرف أنه زعيم طائفة قد يبلغ تعداد أنصارها بضعة من الآلاف . بينما جاء بولس إلى عمان كرأس للكنيسة التي يتجاوز عدد أتباعها الستمئة مليون من المؤمنين ، وهو في الواقع رئيس أصغر دولة في العالم ، لكنه يحظى بإحترام فائق ، فقد هرع مئات الآلا ف من المسيحيين وغير المسيحيين لإستقباله ، أما نبأ رحلته فقد أضحى الخبر الأكثر إثارة للإهتمام في كافة المطبوعات المنشورة في أرجاء المعمورة .

ماهي الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك ، حينما غادر بابا الكنيسة الأول الأرض المقدسة ؟

---

(١) ـ نلاحظ بعض الفروقات في حساب عدد البابوات في مختلف المراجع . والرقم المعطى هنا مأخوذ عن Breviarium Fidei الصادر في **بوزنان** عام ١٩٦٤ .

صُلبَ يسوع على الأرجح عام ٣٣م . وفي العام ذاته تم حلول الروح القدس فنجم عن ذلك إنتشار مجموعة صغيرة من الرسل والتلامذة لممارسة العمل التبشيري في كافة أنحاء العالم .

وقد كتب يوحنا الثالث والعشرون فيما بعد : «أدى حلول الروح القدس فيهم إلى اكتساب إرث يسوع ـ المهلهل وغير الراسخ حتى ذلك الحين ـ طابع الكاثوليكية ـ الجامعة التي بفضلها تجاوز كل الحدود» . وآنئذ لاحت في الأفق شخصية رسول الأمم العظيمة ، الفريسي المهتدي ـ **بولس** .

تعد رحلة القديس بولس عملية زرع عظيمة للحقائق الإنجيلية ، ولكنها ليست الوحيدة . فعلى طول ساحل المتوسط ينشط مبشرون آخرون حاملين معهم النبأ السار . وقد سمحت الحياة المزدهرة والمفعمة بالنشاط التجاري لإستفادتها من «السلم الرومانية» بالسفر . تنقل المبشرون على طول الساحل المتوسطي بحراً في معظم الأحيان ، وبراً في أحيان أخرى . ووصلوا إلى المدن والمستوطنات الواقعة داخل حدود الإمبراطورية ، وتجاوزوا هذه الحدود أحياناً . باشرت مراكز الحياة المسيحية التي أسسوها الإتصال ببعضها متبادلة الرسائل ومقدمة العون المادي . وكانت هذه الأوساط في البداية يهودية صرفة ، حيث بدا معتنقو الدين الجديد بالنسبة للمراقب الخارجي مجرد «طائفة» يهودية ، «هرطقة» في أحضان الموسوية . ولكن تأثير الديانتين كان مختلفاً تماماً .

الحقيقة أن عملية الهداية اليهودية المعتمدة على ضم الوثنيين إلى عداد معتنقي الديانة اليهودية ، كانت منتشرة . لكن «المهتدين» لم يلعبوا سوى دور الضيوف أو الأصدقاء ؛ ولم يتحولوا يوماً إلى أتباع يهوه الكاملي الحقوق ، ولم يُسمح لهم بالمشاركة في الصلاة العامة وفي تقديم الأضحيات . بينما اختلف الأمر جذرياً لدى المسيحيين ، حيث اكتسبت ديانتهم منذ البداية طابعاً عالمياً ، محطمة أطر الديانة الشعوبية الضيقة .

كانت أولوية القديس بطرس قضية أساسية منذ البدء . نشأت الجماعات المسيحية في كل مكان ، لكنها جميعاً شعرت بارتباطها بالشخص الذي أوكل إليه **يسوع** رعاية قطيعه . وسوف يُطلب من بطرس إتخاذ القرار والبت بقضيتين رئيسيتن ناجمتين عن شمولية المسيحية : الأولى جواز إدخال الوثنيين إلى المسيحية ، وبعد حل هذه المعضلة تبرز القضية الثانية المتعلقة بماهية الشروط المفروضة على الوافدين إلى الديانة الجديدة من الأوساط الوثنية .

طُرحت المشكلة الأولى وتمَّ حلها في بادئ الأمر بالنسبة لأهالي **السامرة** . فقد أدت الإضطهادات التي انفجرت في **أورشليم** وأسفرت عن موت القديس **استفانوس** إلى لجوء عدد كبير من المسيحيين إلى السامرة . وعلى الرغم من العداء القائم بين اليهود والسامريين ، بدأ احد الشمامسة من رفاق استفانوس ويدعى **فيليبس** بنشر تعاليم **يسوع** بين سكان هذه

المنطقة الذين كانوا محط كراهية معتنقي الموسوية . ولما علم **بطرس ويوحنا** بهداية أعداد كبيرة منهم : قدم كلاهما إلى السامرة وباركا عمل فيليبس ، وباللجوء إلى طقس «وضع الأيادي» أحلا نعمة الروح القدس على المهتدين الجدد .

ماالذي يجب أن نفهمه من عبارة «وضع الأيادي» ؟ كانت هذه قبل كل شيء ـ ولاتزال حتى اليوم ـ صيغة لمنح أسرار الكهنوت . وكانت تعني في بعض الأحيان تكليف أحدهم بمهمة ما . أما هنا فكانت بالطبع تعني منح البركة .

التقى فيليبس ـ المبشر الأول بين الوثنيين ـ بدوره على الطريق بين أورشليم **وغزة** الوزير القائم على خزائن ملكة **الحبشة** ، وبعد حديث قصير معه شرح له خلاله الحقائق الإنجيلية وعمَّده . كانت **الحبشة** آنذاك دولة محايدة محافظة على استقلالها تحت الحماية الرومانية ، وهي ليست **الحبشة** بمفهومها الجغرافي المعاصر بقدر ماهي **السودان** ، ولذلك فإن الدلائل تشير إلى أنَّ الوزير المذكور كان من ذوي البشرة السوداء . وفي هذا الإفتراض فخر للمسيحيين الأفارقة ، لأن المسيحية بتعاليمها جاءت إلى سكان أفريقيا السوداء قبل غيرهم من الشعوب .

لم يكن هذا آخر إنجازات فيليبس : فقد توجه إلى **اشدود** على ساحل البحر المتوسط حيث بشر **بالإنجيل** . ولما كانت المدينة **إغريقية فلسطينية** ولم يقطنها سوى عدد محدود من اليهود ـ يمكننا أن نتوقع بأن معظم مستمعيه كانوا من الوثنيين أيضاً .

ولكن بالرغم من أن فيليبس هو رسول الوثنيين الأول ، فإن المبدع الحقيقي لشمولية المسيحية سيصبح بولس . وعنه يحدث **يسوع** حنانيا **الدمشقي** قائلاً : «لأن هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني اسرائيل» (أعمال ٩ : ١٥) .

وفي تلك الأثناء بالذات ظهرت قضية **كرنيليوس** قائد المئة في **قيصرية** ، وهو الضابط الروماني المعروف بأعماله الصالحة ، والذي يرجح بأنه من المهتدين إلى اليهودية . ولما استدعي **بطرس** إلى **كرنيليوس** تأكد من ان الروح القدس قد حلَّ على الضابط وعلى محيطه الوثني (إن رؤية «حلول الروح القدس» هذه التي أشير إليها مراراً في أعمال الرسل كانت ظاهرة مميزة لمسيحية المرحلة المبكرة : أبرز الله النعمة التي فاضت على الإنسان عبر تجليات خارجية : كالقدرة على التنبؤ ، والمعرفة الخارقة للغة مجهولة من قبل ، وأشياء أخرى مشابهة ؛ لأن الإيمان المهلهل في تلك الأزمنة تطلب ترسيخاً لم نعد بحاجة إليه (اليوم) . اتضح لبطرس بجلاء تام أن **يسوع** راغب في ضم الوثنيين أيضاً إلى صفوف المؤمنين به . فلم يتردد في أن يوصي بتعميد كرنيليوس .

ولكن معارضة جادة وُجِدَتْ في أوساط المسيحيين مناهضة قبول الوثنيين في الكنيسة . ولدى عَودته إلى أورشليم اضطر بطرس لتبرير موقفه وقد أبهجت كلماته قلوب البعض ، بينما

أغضبت آخرين . وظهرت في الوسط المسيحي مجموعة عُرِفَتْ بإسم «المتهودين» لم تكن راغبة في رؤية مسيحيين من أصول غير يهودية .

وبالرغم من رغبة ونشاط هذه الجماعة اتسع إطار المسيحية لجماهير غفيرة من الإغريق والسوريين ، والأفارقة . وبعد فترة وجيزة سوف تؤسس في **انطاكية** أول جماعة غير يهودية . وهنا ستظهر للمرة الأولى كلمة «مسيحيين» . وسيقوم كل من **برنابا** وبولس بدعم الجماعة الإنطاكية بتعاليمها وبالرغم من انها كانت تفخر بمعلميها من امثال **سمعان** الذي يدعى **نيجر** ، **ولوكيوس** القيراوني ، **ومناين**

انطلق بولس وبرنابا بعد إقامتهما في **انطاكية** ببضعة أعوام في رحلة تبشيرية . ولما عادا منها كان في وسعهما القول : « . . . بكل ماصنع الله معهما وانه فتح للأمم باب الإيمان» (أعمال : ١٤ : ٢٧) .

ـ المجمع الكنسي المسكوني الأول

برزت مشكلة جديدة مرتبطة بهداية الوثنيين . فبعد عودة بطرس من لقائه مع كرنيليوس وما صرَّح به بهذا الخصوص ، اتضح بما لايدع مجالاً للشك أن أبواب الكنيسة مشرعة أمام جميع الراغبين في المعمودية . ولكن المعضلة الجديدة ارتبطت بموضوع إدخال الوثنيين إلى الكنيسة على أساس قبول تعاليم **يسوع** والمعمودية فحسب ، أم إلزامهم علاوة على ذلك بالتقيد بالناموس الموسوي الذي كان المسيحيون ـ اليهود لايزالون ملتزمين به .

كانت الخلافات بين أنصار الموقفين حادة إلى حدٍ دفع بكل من بولس وبرنابا للذهاب إلى أورشليم وعرض القضية على بطرس والرسل والمشايخ .

تظهر في أعمال الرسل كلمة «مشايخ» وتشير إلى وجود مجموعة من المختارين ، جماعة من أقرب مساعدي الرسل ، أوكلت إليها ممارسة طقوس العبادة . وهؤلاء هم الممثلون الأوائل لسلك الكهنوت .

اعتبر لقاء **بولس وبرنابا** مع **بطرس ويعقوب الصغير** الذي ترأس الجماعة المسيحية في أورشليم آنذاك (لايرد ذكر الآخرين في أعمال الرسل ؛ **فيعقوب** الكبير قتل من قبل بأمر من **هيرودس** ، ويمكن الإفتراض بأن الرسل الآخرين كانوا في مهمات تبشيرية ، ولن نعرف شيئاً محدداً عن مصائرهم اللاحقة) ، والمشايخ المتواجدين في أورشليم بمثابة المجمع الكنسي المسكوني الأول ، وقد تم عام ٤٩م (ووفقاً لبعض المصادر عام ٥١م) . وانعقد بالإضافة إلى هذا المجمع ٢١ مجمعاً كنسياً مسكونياً بما في ذلك المجمع الكنسي الفاتيكاني الثاني . وهذه المجامع لقاءات الأساقفة (ليس الأساقفة وحدهم) من كافة أنحاء العالم برئاسة البابا للتباحث

في قضايا الكنيسة عامة . تستخدم في اللغة البولونية (وهذا مالانجده في اللغات الأخرى) كلمتان للتعبير عن هذه اللقاءات : Synod وتستخدم للتعبير عن اجتماع رجال الدين لأبرشية واحدة ، أو لدولة ، أو لمقاطعة : Sobor وتشير إلى المجمع الكنسي العام أوالمسكوني . ولذلك سوف نلحق كلمة المسكوني بعبارة المجمع الكنسي في الحالة الثانية .

تقرر بنتيجة مداولات مجمع أورشليم أن يعفى الوافدون من الأوساط الوثنية من التقيد بتعاليم الناموس الموسوي ، باستثناء الإمتناع عن تناول الأطعمة المضحى بها للآلهة (إذ أمكن تفسير ذلك بأنه اعتراف رسمي بالوثنية) ، والزنى (وذلك لوجود العهر المقدس الذي ارتبط ببعض الديانات الشرقية) ، والمخنوقة والدم . أما بالنسبة للمسيحيين ـ اليهود فقد ظل الإلتزام بكافة تعاليم الناموس الموسوي مفروضاً عليهم .

بعد فترة وجيزة من انعقاد المجمع الكنسي في أورشليم سافر بطرس إلى **انطاكية** . وخلال إقامته فيها ، عاشر ـ مثلما فعل بولس من قبل ـ المهتدين الوثنيين ، وأقام في منازلهم وتناول الطعام معهم . ولما جاءه من **اورشليم** أناس بعث بهم الرسول يعقوب ، لاحظ بطرس استياءهم من تصرفاته ، فعمد على تغيير سلوكه وراح يبتعد عن المهتدين الوثنيين عائداً إلى التقيد الصارم «بالطهارة الموسوية» ، واقتدى به برنابا أيضاً .

لم تكمن في سلوكية بطرس رغبة في التراجع عن القاعدة التي أُقِرَّتْ حول قبول الوثنيين واعفائهم من عملية الختان ، بل كان هذا نتيجة لامنطقية ناجمة عن النتيجة اللامنطقية لوجود نوعين من القوانين . كان لمقررات المجمع الكنسي أن تتسم بطابع مرحلي فقط ـ وهكذا فهمها بولس ـ لأن عدد اليهود تضاءل تدريجياً في الجماعات التي تعامل معها بولس ، وفقدت نواميس العهد القديم معناها ، بينما ظلت تفرق بين المؤمنين بلا مبرر . ولذلك قام بولس بتأنيب الرسول بطرس علناً على سلوكه .

نستسقي معلوماتنا عن هذا الحدث من رسالة بولس إلى غلاطية . لايشير رسول الوثنيين في الرسالة إلى النهاية التي آلت إليها هذه القضيةو ولكن الرسالة ذاتها (المدونة في الأعوام ٤٩ ـ ٥٢) . والتعاليم التي تضمنتها تبدو وكأنها تؤكد حقيقة اعتراف بطرس بسلامة موقف بولس . علماً أن هذا لم يكن بمثابة قطيعة تامة مع القواعد المرحلية التي أقرها المجمع . تطورت أسس شمولية المسيحية ببطء . أما بطرس الذي كان رأس الكنيسة فقد سمح لبولس ببعض الحرية في المناطق التي مارس نشاطه التبشيري فيها ، مؤجلاً تطبيق هذه القاعدة في المناطق التي شكل فيها المسيحيون ـ اليهود الغالبية . وسوف نلاحظ هذا النوع من الحذر مراراً في عمل الكنيسة لمواجهة التغيرات التي تأتي بها الحياة

ـ بطرس وبولس في روما

سيلتقي الرسولان بعد فترة وجيزة من ذلك الحين في **روما** .

قدم بولس إلى **روما** في ربيع عام ٦١ كَمُعْتَقَل مستأنف للمحكمة الإمبراطورية . نعرف انه غادر **روما** بعد ذلك ، ولما عاد إليها ثانية ، اعتقل وحكم عليه بالموت ، وقتل .

أما عن مجيء بطرس إلى روما ، فتاريخه غير معروف بدقة . والتقاليد التي تؤكد أن بطرس شغل منصب أسقف **روما** لمدة ربع قرن غير مستندة إلى أية معطيات تاريخية . فلو افترضنا جدلاً أنه وصل إلى **روما** للمرة الأولى عام ٣٩ ـ وهذا الموعد يبدو مبكراً جداً ـ فإنه بكل تأكيد لم يُقم هناك طيلة الوقت لأننا نجده فيما بعد في **انطاكية** وأورشليم ، **وقيصرية** ، وَلَدَّه ، ويافا . كما ان رسالة القديس بولس إلى أهل **رومية** في عام ٥٨م ، وكذلك الوصف الذي نجده في أعمال الرسل لإقامته في **روما** في الأعوام ٦١ ـ ٦٢م لايشيران إلى وجود بطرس في عاصمة الإمبراطورية آنذاك . حدد **يوسيبوس** من **قيصرية** (في كتابه «تاريخ الكنيسة» الذي يعود إلى مطلع القرن الرابع) عام ٤٢م موعداً لمجيء بطرس إلى روما . وكتب **لكتانيوس** (المؤرخ الذي عاش في مرحلة أبكر) أن بطرس كان موجوداً عندما آل العرش إلى **نيرون** ونعرف أن **نيرون** تولى العرش عام ٥٤م .

ليس في فهم سبب مجئ بطرس إلى **روما** أي تعقيد . فلقطع الصلة بين المسيحية والموسوية ، وتحويلها إلى عالمية ـ جامعة ، توجّب غرسها في الموقع الذي شكل عاصمة العالم آنذاك . وكانت **روما** بمثابة هذا الموقع ، ففيها التقت خيوط الحياة في الإمبراطورية ، وتداخلت قضايا **أوروبا** ، وأفريقيا وآسيا بالقدر الذي بسطت **روما** نفوذها عليها . يقول المؤرخ **دانيلو** J. Danielou في هذا الصدد : «كانت القطيعة مع أورشليم ، أي مع الوسط الإسرائيلي القديم ، قطيعة مع الحقبة المنتهية . . . كانت أورشليم رمزاً لرابطةلاهوتية مع قوم محدد . استقر بطرس في **روما** ـ لأن **روما** كانت آنذاك مدينة الشعوب ؛ وكان في وسعه التوقف على نحو مشابه في بكين أو شيكاغو . فـ**روما** هي رمز الشعوب . وأسقف **روما** هو أسقف الشعوب» .

جاء بطرس إلى **روما** وعاش فيها لردح من الزمن ، قام بإدارة أمور الجماعة المسيحية في روما ، وكان أسقفاً لها . اجتمع هذان المنصبان : وكالة **المسيح** وأسقفية **روما** معاً ، وبقياهكذا فيما بعد . وفي هذا الصدد كتب **دالمِه** O. Dalmais : «يعتبر كل خليفة لبطرس Confessio Petri مقراً له ، وهو المكان الذي أراق فيه بطرس دمه من أجل المسيح . لم يرغب البابا في فقدان هذا القرب المادي . واعتقد جميع خلفاء بطرس أن من واجبهم البقاء هناك» .

لاشك بأن بطرس وجد لدى قدومه إلى **روما** جماعة مسيحية مستوطنة هناك ، وفي

هذا الصدد يقول **جاكوين** A. M Jaccquin : «لاشك بأن الجماعة كانت كبيرةالعدد ؛ وانتمى أفرادها إلى مختلف الأعراق وانحدروا من شتى الأوساط ، وهذا مايثبته مايزيد عن عشرين من الأسماء التي أوردها القديس بولس ، كانوا من الفلسطينيين ، والآسيوين ، والإغريق ؛ العديد منهم من العبيد ، والكثرة من العبيد المعتوقين . . . وإلى جانب عامة الناس بعض ممثلي الطبقة الأرستقراطية» . ولاشك بأن معظم المؤمنين كانوا من اليهود .

بلغ تعداد اليهود في **روما** آنذاك مايقارب الثلاثين ألفاً (ويقدر هارناك Harnack عددهم في الإمبراطورية بأربعة ملايين ، منهم نصف مليون في فلسطين) كان نفوذهم واسعاً . ويعود الفضل في امتيازاتهم إلى **يوليوس قيصر** ، حاميهم الكبير .

سكنوا مختلف أحياء المدينة ، ولكن تجمعاتهم الأساسية كانت في Transtevere وحول Porta capena . أما ديناميتهم التجارية بالإضافة إلى مهاراتهم الحرفية ، واعتناقهم لإحدى الديانات الشرقية التي لاقت رواجاً كبيراً في **روما** آنذاك ، فقد فسحت أمامهم المجال وفتحت الأبواب أمامهم إلى الأوساط الأرستقراطية . وانضم عدد كبير من سيدات الأسر النبيلة إلى فئة «مهتديات البوابة» أي أنهن اعتنقن الموسوية جزئياً . قام **تيبيريوس** عام ١٩م بنفي أربعة آلاف من يهود **روما** إلى سردينيا . ولكن اليهود تمكنوا من استعادة مواقعهم وامتيازاتهم في عهد **كاليغولا** .

سادت أوضاع مشابهة في مطلع عهد الإمبراطور **كلوديوس** . ولكننا نجد أن كلوديوس طرد اليهود من **روما** عام ٤٩م أو ٥٠م ، وهذا مايؤكده المؤرخ **سفيتونيوس** Swetonius وذلك لأنهم «أثاروا الشعب باستمرار ، يحرضهم شخص يدعى **كريستوس**» (كلوديس XXV) .

أيعقل أن تطرد من **روما** مجموعة بشرية يتجاوز تعدادها الثلاثين ألفاً بعد أن كانت مستقرة ، مقتنية لثروات طائلة ومساكن وورش ؟ والجواب هو النفي حكماً . فالطرد لم يشمل جميع اليهود ، وذلك الكريستوس المشار إليه هو المسيح بلاشك . لابد وأنه حدثت نزاعات بين اليهود ـ المسيحيين واليهود ـ الموسويين .

وكان اليهود ـ الموسويون أقوى نفوذاً في روما ، فاستغلوا هذا النفوذ لإستصدار مرسوم يقضي بإبعاد اليهود ـ المسيحيين عن **روما** ـ ويرجح أن يكون بطرس قد أبعد معهم مرحلياً من روما .

لكن الجماعة المسيحية صمدت . ويعتقد أن ملامحها قد تغيرت في تلك المرحلة ، إذ لم يعد اليهود يشكلون فيها الغالبية . ويحتمل أيضاً حدوث نزاع في أحضان الجماعة بين الموسويين السابقين والوثنيين السابقين ، وهذا ماتشير إليه بعض النبرات في رسالة بولس إلى أهل رومية . بدأ صراع عظيم بين «المتهودين» وأنصار «الشمولية المسيحية» .

يحاول بعض الكتاب من غير الكاثوليك البرهنة على أن القديس بطرس لم يتواجد يوماً ما في روما ، ويستندون في ذلك إلى عدم إشارة العهد الجديد للموضوع . ولكننا في الواقع نعثر حتى على صفحات العهد الجديد على مايدل على وجوده هناك . فرسالة بطرس الأولى التي يتحدث فيها عن بدء الإضطهادات تنتهي بالعبارات التالية : «تسلم عليكم الكنيسة التي في بابل» ـ أعتقد أنه لامجال للشك في أن هذا الإسم الرمزي يشير إلى كنيسة روما .

ولكن لاشك في أن هذه الإشارة بمفردها ثانوية وغير كافية أو مقنعة لأن تبنى عليها قناعاتنا عن تواجد القديس بطرس في **روما** وموته هناك .

يقول العالم المتخصص بتاريخ **روما** وآثارها البروفسور **كاركوبينو** J. carcopino : «قبيل الإكتشافات الأركيولوجية ، تحدثت التقاليد التاريخية عن دفن القديس بطرس في روما ، مستندة بذلك إلى نصوص متناقضة فيما بينها ظاهرياً . . . فمن ناحية تؤكد رسالة كاهن يدعى **غايوس** Gajos دُوِّنَتْ مابين نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث ، على وجود «نصب» Trophy الرسل (النصب ـ علامات النصر ـ عبر المسيحيون الأوائل بهذه الكلمات عن قبور الشهداء) ، مؤسسي كنيسة **روما** على الطريق الأوستية وفي الفاتيكان . . . ومن ناحية أخرى ، بموضع سجل قبورالشهداء المعروف بإسم Depositio Martyrum الذي ينتهي بموت البابا سلفستر في الحادي والثلاثين من كانون الثاني لعام ثلاثمائة وخمسة و وثلاثين ، قبر القديس بطرس وبولس بعيداً ، على الميل الثالثة من الطريق الأبية ، في المكان المعروف باسم كتاكومباس Catacumbas حيث تنتصب اليوم كنيسة القديس سيبستيان Sebestian ، والتي عُرفت حتى القرن الخامس بباسيلقا الرسل . وبالإضافة إلى ذلك ، تقدس الطقوس يوم التاسع والعشرين من حزيران كذكرى سنوية «لولادتهما للسماء» dies natalis ، أي إستشهادهما مؤكدة أن الإحتفال كان يقام في هذاا لمكان بالذات منذ أن كان تسكوس Tuscus وباسس Basus قنصلين ، أي منذ عام ٢٥٨م ، وهو العام الذي اشتدت فيه وطأة اضطهادات الإمبراطور **فاليريان** «Valerian» .

أثبتت دراسة الحفريات الأركيولوجية في **روما** صحة التقليدين ، وألغت في الوقت ذاته التناقضات القائمة بينهما . فوفقاً لرسالة غايوس ، استقر جثمان القديس بولس قبل عام ٢٠٠م في قبر على الطريق الأوستية ، بينما كان قبر القديس بطرس على هضبة الفاتيكان . كانت هذه مقبرة وثنية ، ويرجح أنه لم تتوفر الإمكانية لدفن القديس في مكان آخر ، حيث كانت في الآن ذاته مقبرة للفقراء . لكن الإمبراطور هدريان قام في الأعوام ١١٧ ـ ١٣٨م ببناء ضريحه على مقربة منها (قصر الملاك القديس حالياً) ، مما أدى إلى تحول مقبرة الفاتيكان إلى مقبرة الأرستقراطية الرومانية . وشيدت يوماً بعد يوم فوق قبور عامة الناس القديمة أضرحه فخمة لأسر أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان . أضحت زيارة قبر القديس بطرس في تلك الظروف صعبة جداً ، وخاصة بعد تصعيد الإضطهادات . ولذلك قامت الجماعة المسيحية من

منطلق الحرص على بقايا جثمان القديس بنقلها حوالي عام ٢٥٨ إلى كتاكومباس علىالطريق الأبِّية ، ونقلت آنذاك جثمان القديس بولس إلى المكان ذاته . وُضعت بقايا القديسين في مخبأ ثلاثي تحت الأرض ، حيث يحتمل أن يكون في بقايا مسكن لجأ إليه القديسان أو ربما بطرس وحده - خلال حياتهما . أما في نظر كيرشنباوم O. Kirschenbaum فقد نقلت إلى كتاكومباس جمجمة القديس بطرس فقط ، بينما ظلت بقية هيكله العظمي في القبر القديم .

بوشر في عام ٣٢٢ بعد انقضاء مرحلة الإضطهادات الرهيبة ، بتشييد الباسيليقا الأولى على هضبة الفاتيكان . واجه الإمبراطور **قسطنطين** صعوبات كبيرة بسبب اختياره لهذا المكان بالذات . فكان لابد من هدم المقبرة الرائعة العائدة للأسر الأرستقراطية الرومانية ، والبناء خارج أسوار المدينة التي شيدها الامبراطور **أورليان** من قبل . لم تردع هذه الصعوبات قسطنطين ، وهذا مايؤكد اقتناعه بأنه يقوم بالبناء في موقع قبر القديس بطرس . وفي عام ٣٣٦ نُقل جثمان القديس بطرس إلى الباسيليقا الجديدة بينما نُقلت بقايا القديس بولس إلى الباسيليقا المشيدة علىالطريق **الأوستية** .

أدت هجمات **القوط الغربيين** Visigoths على **روما** عام ٤١٠م بقيادة ألاريك Alaric ، والوندال Vandals عام ٤٥٥ بقيادة **غنينز يريك** Genseric **والقوط الشرقيين** Ostrogoths في الأعوام ٥٣٧ - ٥٥٢ ، **والمسلمين** في آب ٨٤٦ ، إلى إلحاق أضرار جسيمة بالباسيلقا أضحى معها العثور على مكان القبر أمراً صعباً ، وخاصة أنه قد أخفي بحذر شديد على ما يبدو من قبل **غريغوري** الكبير بعد هجمات القوطيين . بقي الأمر على هذا النحو إلى أن بوشر بأعمال التنقيب الأركيولوجية في سنوات الحرب العالمية الثانية ومابعدها بناء على رغبة البابا بيوس الثاني عشر Pius XII ،حيث أثبتت بما لايدع مجالاً للشك وجود قبر القديس بطرس فعلاً تحت مايعرف بكرسي اعتراف القديس بطرس في الباسيليقا الفاتيكانية . ولكن لم يعثر فيه على بقايا جثمان القديس . وفي الوقت ذاته تم العثور على مقربة من القبر داخل مايدعى «بالسور الأحمر» على مخبأ . وعلى المخبأ دُونت عبارة «بطرس موجود هنا» Petrus en esti . تم العثور في المخبأ على عظام بشرية وعلى بقايا ساميت Smite . أكد الأنثربولوجيون أن العظام هي بقايا هيكل عظمي لرجل مربوع يتراوح طوله بين ١٦٥ - ١٦٧ سم ، توفي عن عمر يتراوح بين ٦٠ - ٧٢ عاماً . أما الساميت فهو ثمين جداً (من خيوط ذهبية حقيقية) وقديم جداً . وتعتقد العالمة التي قامت بهذا الإكتشاف وهي البروفسورة **مرغريت غواردوتشي** M. Guarducci بأن العظام جزء من الهيكل العظمي للقديس بطرس ، وذلك دون أي مجال للشك .

ـ نيرون وبداية الإضطهادات

لاشك بأن مرسوم **كلوديوس** كان بمثابة أول إضطهاد للمسيحيين . لكن الإضطهادات الفعلية بدأت فيما بعد .

في تموز عام ٦٤م ، في عهد الإمبراطور **نيرون** ، شبَّ في **روما** حريق هائل ، التهمت النيران المدينة ؛ ومن أحيائها الأربعة عشر . «لم يسلم كلياً سوى أربعة فقط. هذا ما أورده **تاسيتوس** tacitus وَدُمِّرَت ثلاثة منها بصورة نهائية ، أما في السبعة الأخرى فلم تبق سوى آثار لاتذكر من المباني» . سكن في المدينة العملاقة آنذاك مايزيد عن مليون نسمة ، عاش منهم مالايقل عن ثمانمائة ألف على نفقة الإمبراطور على نحو مستمر ، يخدمونه بتصفيقهم وصراخهم أثناء توزيع الغذاء وإقامة الألعاب . ولكن هذا الحشد المتسكع الذي اعتاد على الحياة اليسيرة ، تحول تحت ظروف البؤس إلى عصابة متمردة . وقد انصب اهتمام نيرون المهرج أكثر من كونه إمبراطوراً على إرضاء أهواء الشارع الروماني .

أهو نيرون الذي أمر بحرق المدينة ؟ هذه قضية ظلَّت غامضة ولم توضح بصورة نهائية أبداً . فإلى جانب طموحاته في التمثيل ، أراد الإمبراطور أن يكون بانياً ، ولايستبعد أن تولد في رأسه المجنون فكرة حرق **روما** بهدف بناء مدينة جديدة على انقاضها ، وهذا ماحدث فعلاً . فقد أعاد الإمبراطور بناء المدينة «ليس كما حدث بعد الحريق الغالّي ، دون تخطيط وتنظيم ، وإنما بأرتال منتظمة من المساكن ، بشوارع عريضة ، وإرتفاعات محددة للمباني ، بأقنية مفتوحة وأقواس» . هذا ما يؤكده المؤرخ تاسيتوس . ولكن عندما انتشرت في أوساط من شردهم الحريق شائعة قائلة بأن الإمبراطور هو مسبب الحريق ، ثارت موجة من الحقد ، وأراد نيرون مقاومتها والتخفيف من تأثيرها ، وذلك بارشاد ولفت الأنظار إلى مسببي الحريق الحقيقيين ـ وفق إدعائه .

كانت زوجة نيرون **بوبيا** Poppea (التي تزوجها بعد قتل **أكتافيا** Octavia) من «مهتديات البوابة» ، وهذا مايشير إليه المؤرخ اليهودي **يوسف فلافيوس** (Ant. jud. XX, 8) ويحتمل أن تكون هي ـ كما ورد في كتاب **شينكيفيتيش** Sienkiewicz بعنوان Quo Vadis ـ التي لفتت أنظار نيرون إلى المسيحيين . وفي محاولة منه لتبرئة نفسه ، أقدم نيرون كما يقول تاسيتوس على «كشف المذنبين ، وعرض لأقسى العقوبات أولئك الذين كانوا مكروهين بسبب معاصيهم ، والذين أطلق على جماعاتهم اسم المسيحيين . بداية هذه التسمية أعطاها في حينه **كريستوس** (المسيح) الذي حكم عليه **بيلاطس** النبطي بالموت في عهد **تيبيريوس** ، والآن أطلق العنان مجدداً للمعتقدات الخرافية المهلكة التي أخمدت في حينه ، ليس في اليهودية وحدها . . . وإنما في العاصمة أيضاً . . . ولذلك ألقي القبض أولاً على مَنْ اعتنقوا

١ ـ الإمبراطورية الرومانية

OCEAN ATLANTYCKI
MORZE PÓŁNOCNE
MORZE BAŁTYCKIE
MORZE CZARNE
MORZE KASPIJSKIE
UGROFINOWIE
GERMANIE PÓŁNOCNI
PIKTOWIE
SZKOCI
York
BRYTANIA
JUTOWIE
DANOWIE
FRYZOWIE
SASI
LONGOBARDOWIE
TURYNGOWIE
BURGUNDOWIE
BAWARZY
WANDALOWIE
KWADOWIE
GEPIDZI
WIZYGOCI
OSTROGOCI
HERULOWIE
ALANOWIE
HUNOWIE
BAŁTOWIE
SŁOWIANIE
GALIA
Paryż (Lutecja)
Trewir
Ren
Recja
Noryk
Panonia
ILIRIA
Dunaj
Dniestr
Dniepr
Wisła
Wołga
Sirmium
Vienne
Mediolan
ITALIA
Dalmacja
Korsyka
Sardynia
Rzym
Sycylia
HISZPANIA
Tarragona
Luzytania
Betyka
Sewilla
Baleary
Mauretania
Numidia
Kartagina
AFRYKA
Trypolitania
Cyrenaika
Libia
Aleksandria
EGIPT
Nil
Tebaida
Syene
Sardyka (Sofia)
Mezja
DACJA
TRACJA
Konstantynopol
Tessaloniki
MACEDONIA
Epir
Achaja
Kreta
AZJA
Efez
Bitynia
Galacja
Kapadocja
PONT
Armenia
Cezareja
Cylicja
Cypr
Syria
Antiochia
Palmira
WSCHÓD
Palestyna
Arabia
Petra
IMPERIUM PERSKIE SASANIDÓW
Eufrat
Tygrys
Ktezyfon
Babilon
ARABOWIE
Zwrotnik Raka
0 — 750 km

الأمبراطورية الغربية
(روما)

الأمبراطورية الشرقية
(القسطنطينية)

مقر أبرشية
مقر والي الولاية
الحدود اللغوية (اللغة اللاتينية ـ اللغة الإغريقية)
الارقام العربية تُبيِّن الأعوام

هذا المذهب علناً ، ومن ثم على أعداد كبيرة أخرى استناداً إلى اعترافاتهم ، وقد ثبتت عليهم ليس جريمة الحرق وحدها ، بل الكراهية للجنس البشري أيضاً) (الحوليات ـ ١٥) .

بينما كتب سفيتونيوس بإختصار : «عوقب بالتعذيب المسيحيون معتنقو معتقد خرافي إجرامي جديد» (Nero XVI) .

تبدو نظرة تاسيتوس الذي عبر في جميع مؤلفاته ـ كما يقول C. N. ochrane ـ عن «ازدراء أرستقراطي بالعامة» مفهومة هنا ، إذ مَثَّل المسيحيين العامة . ولكن كلماته تتضمن بالرغم من ذلك تهماً عمدت الدعاية الرسمية على إشاعتها في محاولة منها لتصوير «الطائفة» المسؤولة عن حرق المدينة بالصورة الملائمة .

كان «الإلحاد» من وجهة نظر التشريع الروماني من أخطر التهم . وبما أن المسيحيين رفضوا تأليه الإمبراطور وامتنعوا عن تكريمه كإله ، اعتبروا «كفاراً» . كان اليهود أيضاً من الموحدين في واقع الأمر ولم يتوقوا بدورهم لرؤية الإمبراطور إلهاً ، ولكنهم عوملوا بشيء من التسامح لأن ديانتهم كانت مقصورة على فئة معينة محدودة من الناس . أما معتنقو المسيحية الشاملة فقد صنفوا أعداء لعبادة القيصر .

يحتمل وجود أسباب أخرى دعت للنفور من المسيحيين . فالانحلال الخلقي الذي سقط فيه المجتمع ا لروماني كان بلاشك دافعاً لإنطلاق صرخات الإستنكار من حناجر المسيحيين ويرجح أن يكون الكثيرون منهم قد وجدوا في حريق روما نوعاً من العقاب الإلهي . كما يحتمل شيوع أقوال بين المسيحيين قبل نشوب الحريق ، تحدثت عن أن الله سيحرق المدينة كما احرق سدوم عمورة من قبل ؟ وقد يكون اندلاع الحريق في نظر العديد من المسيحيين بمثابة حلول يوم الدينونة أو عقاب على الآثام ؟ ولاغرابة في أن تتحول مثل هذه الآراء التي أصغى إليها المخبرون وحوروها ، إلى تهمة «كراهية الجنس البشري» . أما السرية التي أحيطت بها طقوس العبادة المسيحية والفقرات المسموعة عن «تناول جسد الرب وشرب دمه» . فقد أمكن لها أن تفسح المجال أمام تهمة السحر ، وتناول اللحوم البشرية ، ومختلف الإنحرافات الأخرى .

بدأت مرحلة الإضطهادات الدموية . ويرجح أن يكون القديس بطرس قد وقع بين أيدي المضطهدين في موجة الإعتقالات الأولى . أما التقاليد فتؤكد على انه لقي حتفه على خشبة الصليب . سقط الشهداء في سيرك بُني على عجل فوق هضبة الفاتيكان لهذا الغرض خصيصاً . لم يكن بولس في تلك الأثناء موجوداً في روما . إذ تمَّ الإفراج عنه قبل ذلك الحين بقرار من محكمة روما ، وانطلق في رحلة تبشيرية جديدة وصل خلالها إلى اسبانيا . لكنه عاد إلى **روما** ثانية وهناك قُطع رأسه بالسيف عام ٦٧م كما يعتقد وكما يليق بمواطن روماني .

أما عيد «الولادة للسماء» الذي أسلفنا ذكره ، فكان مجرد ذكرى لنقل رفاة الشهيد إلى قبر مشترك في كتاكومباس على الطريق الأبّية .

ـ اضطهادات القرنين الأول والثاني :

لانعرف فيما إذا كان اضطهاد نيرون قد أدى مباشرة إلى استصدار قوانين مناهضة للمسيحية شملت الإمبراطورية بأسرها . ولكن قاعدة عُممت تقول : «يُحظر اعتناق المسيحية» CHristianos esse non licet . وكانت تعني أن مجرد اعتناق المسيحية يجعل الفرد مجرماً في نظرالقانون . ومن الناحية الشكلية ، استوجب الأمر أن تكون هذه القاعدة سارية المفعول في جميع أنحاء الإمبراطورية ، أما الإلتزام بها فكان من الناحية العملية معتمداً على السلطات المحلية وعلى العلاقات السائدة في المنطقة المعنية . ولذلك نجد الإضطهادات خلال القرنين الأول والثاني تظهر حيناً وتختفي في حين آخر ، أما خطر القوانين النافذة والرعب الناجم عنها فقد ظلَّ قائماً بإستمرار .

سيكون المُضطَهِدِ الثاني بعد **نيرون** الإمبراطور **دوميتيان** Domitian . سوف يعثر على بعض **أفراد** أسرة يسوع ، وتحديداً على أحفاد يعقوب الصغير ، لكنه سيطلق سراحهم بعد رؤية أيادي الزراع اليهود المتواضعة ، مقتنعاً بأنهم لايمكن أن يشكلوا خطراً على الإمبراطورية . ومع ذلك ، أطلق العنان في **روما** لموجة من الإضطهادات الدموية ، وقد أقلقته حقيقة دخول الديانة الجديدة إلى منازل بعض الأسر الأرستقراطية . وسيحكم بالموت أنذاك على آخرين من بينهم ابن عم الإمبراطور **فلافيوس كليمنس** المتهم «بالإلحاد» . وكذلك على «العديد من المواطنين الذين التزموا بالتقاليد اليهودية» كما يقول **دون كاسيوس** . وعلى الرغم من أنه لم يُشَرْ بوضوح إلى المسيحية . لايشك بأنها كانت هي المعنية .

توفي دوميتيان عام ٩٦م . وظهرت خلال فترة حكم خلفائه بعض الإضطهادات ـ لكنها كانت نادرة على أي حال . لم يكن **تراجان** Trajan حاكماً دموياً ، وهذا مايتجلى بوضوح في رده على حاكم **بيتينيا** Bitynia على سؤال حول كيفية التعامل مع المسيحيين . يُذّكر الإمبراطور ذلك الحاكم ، وهو **بلينيوس** Plinius الملقب بالأصغر ، بالقوانين النافذة المناهضة للمسيحية ، ولكنه يشير إلى أنه لايتوجب بذل جهود خاصة للبحث عن المسيحيين ، ويجب الإفراج عنهم في كل مرة ينكر المتهم بإعتناقه المسيحية التهمة ، كما يتوجب إهمال الإتهامات الموجهة من أشخاص مجهولين .

ستكون نظرة خليفة تراجان لهذا الموضوع شبيهة بنظرته . فقد كتب **هدريان** Hadrian عام ١٢٥ في رسالة إلى **مينوتيوس فوندانوس** Minutius Fundanus حاكم آسيا

قائلاً : «اذا اتهمهم أحدٌ ما «أي المسيحيين» وثبت لك بأنهم تصرفوا بما يتعارض والقانون ، فعاقبهم وفق أخطائهم . ولكن ، بحق هرقل ، إذا كانت التهمة زوراً ، فعاقب المُتهم بكل ماتقتضيه العدالة من قسوة» .

لم يكن موقف الإمبراطور أنطونينوس Antoninus من المسيحيين سيئاًو لكنه لم يبدل شيئاً في القانون . وبقيت امكانية توجيه التهم للمسيحيين قائمة . وعندما توجه إليهم التهم ولم ينكروا إيمانهم ، كان يُحكم عليهم بالموت . استمرت الحال على هذا النحو طيلة فترة حكمه التي امتدت مابين ١٣٨ - ١٦١ . ولم يطرأ تغير في الأوضاع في عهد **ماركس أوريليوس** Marcus Aurelius (١٦١ - ١٨٠) .

تبدلت الأحوال إبان عهد **كومودس** Comodus خليفة ماركس أوريليوس وابنه ، ويعود الفضل في ذلك إلى محظية الإمبراطور **مارتيا** Martia التي كانت مسيحية ، أو ربما متعاطفة مع المسيحيين . سيقوم كومودس بإلغاء الإضطهادات رسمياً ، وسوف تستمر فترة التسامح هذه حتى عام ٢٠٢م .

يمكن إجمال القول بأنه بعد موجة الإضطهادات الدموية في عهد كل من نيرون ودوميتيان ، ساد هدوء نسبي . ظلت المسيحية آنذاك ديانة محظورة ، لكن الإضطهادات تقوم فقط نتيجة التهم والشكاوى الخاصة (حظر الإمبراطور **نيرفا** Nerva إتهام المسيحيين في أواخر القرن الأول) . لم يعد النزاع مع معتنقي الموسوية خطراً على المسيحيين في تلك المرحلة ، لأن اليهود - بعد الحرب اليهودية وحرق أورشليم - فقدوا امتيازاتهم في الإمبراطورية ، والأهم من ذلك ، أن تمرداتهم المستمرة وثوراتهم بالإضافة إلى الشكوك الدائرة حول إحتمال تحالفهم مع **البارثيين** ، ولَّدت انطباعاً بأنهم أعداء الإمبراطورية .فأصبح في وسع المسيحيين الإطمئنان بعض الشيء وعدم توقع الخطر من جانبهم ، وخاصة بعد أن تبدلت النظرة إلى المسيحيين على أنهم مجرد طائفة يهودية .

ينظر عموماً إلى فترة حكم انطونينوس وخلفائه على أنها عصرالرفاهية والسلم ، والعودة إلى سيادة القانون ، والنظرة الإنسانية للحياة . وقد يبالغ **جيبون** E. Gibbon في وصفه لها بقوله : «انها أسعد وأنجح مرحلة في تاريخ الجنس البشري» . ولكنها على أي حال مرحلة لم تجد فيها الإضطهادات الدينية مكاناً لنفسها .

ستنفجر الإضطهادات مجدداً في عهد **سبتيميوس** سيفيرا Septymius Sewera لكنها ستتخذ عندئذ طابعاً جديداً . وسوف نعود للحديث عنها فيما بعد .

ـ المسيحيون في فلسطين

بعد مرحلة الهدوء القصيرة الأمد التي تلت موت **هيرودس أغريبا** عام ٤٤ ، عانت الجماعة المسيحية في **فلسطين** من مرحلة إضطهاد جديدة . وليس المقصود هنا الإضطهادات التي أثارتها السلطات الرومانية ، وإنما ماقام به المعبد ، والصدوقيون ، والفريسون الذين ارتفع شأنهم ، وكذلك المواطنون الذين تم تحريضهم وإثارتهم ضد المسيحيين . أما إدارة الرسول **يعقوب الصغير** الذي حظي بتقدير واحترام عامَّين ، فقد صعَّدت حقد الأعداء . توفي الحاكم **فيستوس** Festus الذي أرسل **بولس** إلى **دمشق** عام ٦٢ . وتأخر خليفته **ألبينوس** Albinus في المجيء . فانتهز الفرصة **حنانيا** رئيس الأساقفة (وهو ابن حنانيا المعروف في محاكمة المسيح) لدعوة السنهدرين للإجتماع ، والحكم على يعقوب بالموت بتهمة التجديف على الناموس الموسوي .

لم يلقَ تصرف حنانينا **إلفردي** استحساناً لدى الرومان ، **فَعُزِلَ** علي أثره رئيس الكهنة من منصبه . لكن التوتر العام ساد في أنحاء **فلسطين** وتصعدت حدته عاماً بعد عام . واتضح أن كلاً من ألبينوس وخليفته **جيسيوس فلوروس** Gessius Florus كانا وحشيين وقاما بنهب الولاية التي وُلّيا عليها بلا رحمة . أثار هذا حالة غليان عامة . وردَّ اليهود على ارهاب الموظفين الرومان بإرهاب مماثل بعد أن سيطر الفريسيون عليهم . وفي نهاية المطاف تفجرت انتفاضة علنية ضد الرومان .

إن مايثير الدهشة انه في الشرق عموماً ، وبروايات مختلفة ، ظهرت منذ أمد بعيد أسطورة عن مجيء حاكم للعالم . وجدت هذه الأسطورة طريقها إلى روما ، ولاشك أنها أثرت على عقل نيرون الذي كان يميل للفنتازيا ، لكنها في المقام الأول تأصلت بجذور عميقة في اليهودية ، حيث تمَّ تضخيمها بالرؤى اليهودية كالتي وردت في **سفر عزرا** ، وسفر هُوشع ، وغيرهما . وقد كتب المؤرخ اليهودي **يوسف فلافيوس** بهذا الصدد : «إن أهم ما دفع اليهود للإنتفاضة هي النبؤات الثنائية المعنى التي تتغنى بمجيئ ذلك الذي سيحكم العالم من بلدهم» . ولاشك بأن يوسف هذا ، الوصولي البارع ، قد نقل مضمون هذه النبوة إلى **فسبازيان** Vespasian ، لكن قادة الإنتفاضة **يوحنا** وشيمون وأليعازر رأوا انفسهم في هذا الدور .

تلاشت أوهام الخلاص بسرعة وبصورة محزنة . فعندما تبين عدم جدوى حملة والي **سوريا** سيستيوس غالوس Cestius Gallus ، كلف نيرون القائد فسبازيان بإعادة الهدوء إلى فلسطين . فباشر فسبازيان بإحتلال البلاد ببطء وإنتظام ، محطماً أوكار المقاومة ، مرغماً قوى المنتفضين الرئيسة ـ المتناحرة والمتخاصمة فيما بينها ـ على الإندحار والتراجع نحو أورشليم .

توفي نيرون عام ٦٩ والحملة كانت لاتزال مستمرة ، فنودي بالقائد فسبازيان امبراطوراً ، حيث توجه إلىروما موكلاً قيادة الحملة لإبنه **تيتوس** Titus أحكمت جيوش تيتوس الحصار الحديدي على المدينة المقدسة ، وقد استمر بضعة من أشهر . تعرض سكان المدينة المسجونون داخل أسوارها للموت جوعاً ، بينما تابع قادة الإنتفاضة صراعهم المرير فيما بينهم . وفي نهاية المطاف سقطت المدينة وأضحت عرضة للدمار التام . أما المعبد ـ مفخرة **هيرودس** الكبير ـ فقد التهمته النيران وأحالته أنقاضاً . ولم يسلم منه سوى جزء صغير لايزال قائماً حتى اليوم «حائط المبكى» ، اعتاد المحافظون من اليهود علىالتقاليد القديمة أن يبكوا بجواره . وقبل أن تلتهم النيران المعبد ، دخل تيتوس «قدس الأقداس» ليشاهد المكان الذي لم يسمح برؤيته سوى لرئيس الكهنة بينما انهمك جنوده في نهب مستلزمات طقوس العبادة من المعبد ، وفي مقدمتها الشمعدان السباعي الأذرع الذائع الصيت . يؤكد يوسف فلافيوس أنه تم اقتياد سبعة وتسعين ألفاً من اليهود للأسر ، بينما أسفر الحصار عن موت «مليون ومئة ألف معظمهم من اليهود ، إذ توافد آنذاك المؤمنون من جميع أنحاء البلاد إلى العاصمة بمناسبة عيد «الفطير» ، وهناك باغتتهم الحرب ، وفي مثل ذلك الإزدحام كان لابد من انتشار الأوبئة ، ومن ثم المجاعة التي لامفر منها» (De Bello Judico) . سقطت **اورشليم** في اليوم «الثامن من شهر Gorpajos » ، أي في أيلول عام ٧٠ . «بعث فسبازيان بأوامره القاضية ببيع كامل الأرض اليهودية . ورفض إعادة إعمار المدينة . . . واقتصر على اقطاع ثمانمئة من الجنود الذين أثبتوا جدارة عالية أرضاً في منطقة عمواص . . . وفرض على جميع اليهود حيثما وُجدوا ضريبة مقدارها درهمين على الرأس» (المرجع السابق نفسه) . أما انتصار تيتوس فقد خلده قوس النصر المنتصب على الحافة الجنوبية للساحة الرئيسة في روما .

لم يكن في المدينة المحاصرة مسيحيون ، إذ أنهم فروا منها في اللحظة الملائمة متذكرين نبوة **يسوع** ولجؤوا إلى **بيلا** Pella على الضفة الأخرى لنهر **الأردن** ، حيث تأسست الكنيسة المسيحية الوحيدة التي كان جميع أفرادها من المتنصرين اليهود . وكان **سيمون خليفة يعقوب** المنحدر بدوره من نسل **داوود** الذي صُلب فيما بعد عام ١٠٧ بعد أن ناهز المئة والعشرين من العمر .

قرر الإمبراطور **هدريان** إعادة بناء المدينة المقدسة ، أو بالأحرى بناء مدينة وثنية فوق أنقاضها ، أطلق عليها اسم Aelia capitolina . وبوشر بتشييد معبد **جوبتر** في مكان المعبد القديم ، ومعبد **فينيرا** Venera على الجلجلة . هبَّ اليهود المستاؤون من تدنيس مدينتهم للإنتفاض مجدداً عام ١٣٠ بقيادة باركوشبا (قامت انتفاضة أخرى على نطاق ضيق عام ١١٥) . لكن الإنتفاضة سُحقت بصورة دموية ، ومُنع اليهود بعد ذلك من الإقتراب من المدينة الجديدة .

إنتقل مركز الحياة الدينية اليهودية إلى **طبريا** . وهنا ظهر الجزء الأول من **التلمود** —

الميشنا ـ وهو مجموعة من القواعد الناظمة لحياة اليهود التقليديين . قطع الموسويون الذين منيوا بخيبة أمل مريعة نتيجة الكارثة التي حلّت بهم ، وعدم مجئ المسيح الظافر ، صلتهم باليهود ـ المسيحيين نهائياً . وهكذا انفصلت الجماعة المسيحية في بيلا عن المجتمع اليهودي وعن الجماعات المسيحية الأخرى في الوقت ذاته ، لأنها بقيت في نظرهم جماعة متجانسة مؤلفة من اليهود .

أما في (القدس Aelia) فقد نشأت جماعة مسيحية ، تجند أعضاؤها من سكان المدينة السوريين والإغريق .

ظهرت بين الجماعات المسيحية المتباعدة أكثر فأكثر ، وبين المركز اليهودي التقليدي في طبريا ، طوائف احتفظت ببعض سمات المسيحية أو الموسوية ، ومنهم : الإيبيونيون والإسينيون . شكلت الطائفة الأولى جماعة مسيحية منشقة ، حافظت بعناد على الإلتزام بنواميس العهد القديم ؛ بينما كانت المجموعة الثانية من المو سويين غير التقليديين ، الباحثين عن الله عن طريق حياة الزهد ، ولذلك كانوا شبيهين أحياناً (ظاهرياً فقط) بالمسيحيين .

ـ المسيحيون في روما بعد موت القديس بطرس

لم تفلح الإضطهادات التي أثارها نيرون في القضاء على الجماعة المسيحية الرومانية ؛ لابل علىالعكس ، فقد دفعتها للتلاحم والتعاضد أكثر فأكثر . ومرت فترة طويلة لم يسمع خلالها شيء عن الخلافات مع (المتهودين) .

خلف **لينوس** Linus القديس بطرس في منصب أسقف **روما** ، وجاء بعده **كليت** Clet أو (آناكليت) . أما الرابع من حيث التسلسل فهو **كليمنس** Clemens ، ويرجح أن تكون ولايته قد امتدت في الفترة مابين عامي ٩٢ ـ ١٠١ . يحتمل أن يكون كليمتس نفس الشخص الذي أشار إليه القديس بولس في رسالته إلى الفيليبيين على انه مساعده .

يعتبر كليمنس محرر رسالة (أو ربما اثنتين) إلى الكورنثيين . وتعد رسالته الأولى إليهم بمثابة وثيقة بالغة الأهمية . وتكمن أهميتها قبل أي شيء آخر في أن كليمنس كأسقف لكنيسة **روما** يجد نفسه مخولاً للتدخل في قضية التمرد ضد المشايخ في كنيسة كورنثة . وهكذا تثبت هذه الوثيقة الهامة أنه في أواخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني تأكدت أولوية كنيسة **روما** وخلفاء القديس بطرس ؛ فلأساقفة **روما** السلطة العليا على الجماعات المسيحية الأخرى .

تخبرنا هذه الرسالة بالإضافة إلى ذلك عن إقامة بطرس في روما ، وعن رحلة بولس التبشيرية إلى اسبانيا ، وعن الأمور التنظيمية ، والإيمان ، والصلاة ، في الكنيسة الأولية . غالباً

مايستشهد كليمنس بنصوص الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ وبرسائل القديس بولس ، بينما نجده يسرد النصوص الإنجيلية بأسلوب شبه عشوائي ؛ ولاغرابة في ذلك ، لأن الأسفار المقدسة القانونية لم تكن قد اعتمدت بعد في ذلك الحين . توجد رسالة أخرى إلى الكورنثيين ينسبها البعض للقديس كليمنس ، لكن فريقاً كبيراً من الباحثين يعارض ذلك .

برحيل القديس كليمنس يختفي على مايبدو آخر مساعدي الرسل الذين عاصروهم . ولايعرف شيء عن الباباوات الذين جاؤوا بعده سوى الأسماء ، وهم : **إيفاريست** Evaryst **ألكسندر** ALexander ، **سكستوس** Sycstus ، **تيلسفور** Telesfor (الذي يلقبه القديس **إيرينيو** الذي عاش بعده بأعوام قليلة «بالشهيد الممتلئ نعمة») ، يليه **هيجينيوس** Hyginus ، **بيوس** Pius ، **أنيسيتوس** Anicetus ، **سوتير** Soter ، **إيليوتر** Eleuter . نعرف شيئاً أكثر عن البابا **فيكتور** Victor آخر باباوات تلك المرحلة .

إبان ولاية أنيسيتوس ، وفي العام ١٥٤ تحديداً قام بزيارة **روما** أسقف **سميرنا** العجوز **بوليكارب** الذي حظي بنفوذ وتكريم كبيرين في الكنيسة لكونه تلميذ الرسول **يوحنا** . تعد زيارة رجل يتمتع بكل هذا التقدير إلى **روما** برهاناً جديداً على الأولوية التي تميزت بها روما ، حيث قصدها ليعرض على البابا قضية النزاع القائم بين المسيحيين في الشرق . وقد دار الخلاف حول تحديد موعد **عيد الفصح** .

احتفل الآسيويون بالعيد مثلما فعل اليهود : أثناء تمام البدر من الشهر الأول ، أي الرابع عشر من نيسان ؛ أما في الغرب فقد تم الإحتفال به في الأحد الأول بعد الرابع عشر من نيسان . ولكن الخلاف ظلَّ قائماً بالرغم من التكريم الهائل الذي لقيه بوليكارب من البابا .

تعرضت الجماعة المسيحية في **روما** لأكبر الخسائر أثناء الإضطهادات التي هبت رياحها في عهد **ماركوس أو ريليوس** . فعندئذ استشهدت مع آخرين الأرملة التقية **فيليسيتا** مع أبنائها السبعة ، وكذلك **جوستين** الملقب «بالفيلسوف» ، وهو الكاتب ـ الفيلسوف مؤسس مدرسة خاصة به . وقد أعدم بالسيف مع ستة من تلامذته عام ١٦٦ .

جاءت ولاية البابوين **إيليوتر وفيكتور** في مرحلة التسامح النسبي في عهد الامبراطور **كومودس** . وبفضل تدخل **مارتيا** ، حصل البابا فيكتور على موافقة القيصر بإعادة المسيحيين المنفيين إلى مناجم سردينيا ، وكان البابا المقبل **كاليكست** بين العائدين .

برز الخلاف حول موعد عيد الفصح مجدداً في عهد البابا فيكتور . أراد فيكتور وضع حد نهائي للنزاع ، وقرر إلقاء الحرم الكنسي على الجماعات المسيحية الآسيوية التي تعارض قبول التقاليد الرومانية . لكن وساطة عدد من الأساقفة وعلى رأسهم **إيرينيوس** أسقف **ليون** ، منعت البابا من اتخاذ مثل هذاالقرار المجحف ، ودفعت الكنائس الآسيوية للتراجع عن تقاليدها عن طريق الحوار الهادئ .

ـ المسيحيون في البلدان الأوروبية الأخرى

لم يقتصر وجود الجماعات المسيحية في **إيطاليا** على **روما** وحدها . فقبل فترة قصيرة من الزمن كشفت الحفريات الأركيولوجية في **هيركولانم** النقاب عن حجرة تصدّر الصليب أحد جدرانها . كما تتوفر معطيات عن تواجد المسيحيين في **بوتيولا** ، حيث خرجوا لإستقبال بولس القادم إلى إيطاليا . وانعقد عام ٢٥٠ مجمع كنسي في **روما** شارك في أعماله ستون أسقفاً ، لم يكونوا جميعهم من أساقفة إيطاليا .

ظهرت الميسحية في **وادي الدودان** في **غالة** في مرحلة مبكرة نسبياً . وقد انتشرت هناك مستوطنات اغريقية وسورية متعددة ، وفي أوساطها نشأت الجماعات المسيحية . تتزايد المعلومات عن المسيحيين في بلاد الغال بسبب الإضطهادات الدموية التي دارت رحاها في **ليون** وغيرها من المدن . لم تكن السلطات هي التي أثارت الإضطهادات ، وإنما السكان المحليون الذين تميزوا بتقيدهم المفرط بالقانون وتعلقهم بروما . فعندما تسربت المعلومات عن منازل المسيحيين بواسطة خدمهم الوثنيين الذين أكدوا رفض المسيحيين تقديم الأضاحي الإلهية للقيصر ، انقض عليهم الجمهور وجرهم إلى موظفي القيصر . لم يتسرع هؤلاء بإصدار أحكام الإعدام ، وقام الوالي بإستشارةالإمبراطور ماركوس أوريليوس . لكن ردَّ القيصر كان حازماً على شكوك الوالي ، وجاء على هيئة مرسوم يقضي بأن يعاقب بصراحة جميع «الذين يسببون الهلع لذوي العقول المستثارة بيسر ، من خلال المعتقدات الخرافية» . لم يفهم الفيلسوف الرواقي (أي الامبراطور) قضية الإيمان المسيحي بالحياة الآخرة ، على الرغم من ان آراءه الأخلاقية غالباً ماتبدو قريبة من المسيحية وقد كتب في يومياته أثناء حملته العسكرية على قبائل **الكواد والماركومان** : «ما أعظم الطمأنينة التي يشعر بها مَنْ لايكترث بأقوال وأفعال أقربائه ، وينصبُّ اهتمامه على مايفعله هو ليكون تقياً وعادلاً (التأملات ـ الجزءالرابع) . شعر بنفور من المسيحيين ـ وقد يكون السبب في ذلك تلك القصة الذائعة الصيت التي يمكن رؤيتها على المنحوتات البارزة المحفورة على العمود المنتصب حتى اليوم في Piazza Colonna في روما . وهو نصب تذكاري وضعه ماركوس أوريليوس لتخليد ذكرى حملته الظافرة على بلاد الكواد (الحملة التي قادها ماركوس اوريليوس بنفسه للقضاء على الجرمان على ضفاف نهر الدانوب ، وتأسيس مقاطعة رومانية جديدة أطلق عليها اسم **سارماتيا** ؛ وصلت الفصائل الرومانية الخفيفة إلى كل من **سيريت وبروت** ، أما المقاطعة فكان لها ان تضم كامل **بولونيا** الصغرى **وشلونصك** ـ كانت بولونيا الجنوبية على وشك أن تدخل في حدود الإمبراطورية !) . وفي أحد أيام الحملة وجد الجيش الإمبراطوري نفسه في منطقة خالية من

المياه كلياً . نفقت الجياد والدواب ، وخارت قوى الجنود ، وعلى المرتفعات المجاورة تربص الأعداء . وبغتة - وكأنه بمعجزة - هطلت أمطار غزيرة . مَنْ الذي قام بهذه المعجزة ؟ الساحر المصري في حاشية الإمبراطور ، أم جنود الفيلق الثاني عشر المعروف بإسم فولميناتا (أي «الصاعقة» ؛ وقد أطلقت هذه التسمية على الفيلق من قبل ، حيث شارك في حصار أورشليم) الذين كانوا بغالبيتهم من المسيحيين ؟ اعتقد المسيحيون ان الفضل في الظاهرة - المعجزة يعود لهم ، وقام **أبوليناريس** أسقف **هيرابوليس** بالإشارة إلى الحدث في رسالة موجهة إلى الإمبراطور ، راجياً فيها حماية المسيحيين . كما أشار مسيحيون آخرون من أمثال **أثيناغوراس** و**ميليتون** إلى هذه الرواية في شكاويهم الموجهة للإمبراطور أثناء اضطهاد المسيحيين . لكن مواقفهم أسفرت عن نتائج سلبية . فقد شعر الحاكم المستبد - بالرغم من ميوله الفلسفية - بالقلق من جراء وجود «طائفة» لديها مَنْ يدافع عنها ، لديها - كما يمكن قوله باستخدام مصطلحات اليوم - مثقفيها وممثليها في صفوف الجيش . وهكذا تحول ضرب المسيحيين بناء على أوامره في **ليون** إلى سلسلة من **الإضطهادات** الدموية ، الرسمية في هذه المرة . لانعرف فيما إذا لقي قتلى المسيحيين حتفهم في المدرج الذي يتم الكشف عن أنقاضه على سفح Fourvier ، أم في مكان آخر وراء نهر **السين** وفقاً لبعض الفرضيات . وأثناء هذه الإضطهادات استشهد **بوتينوس** أسقف **ليون** ، و**سانكتوس** ، شماس **فين** ، و**أتالوس** الطبيب ، و**ألكسندر** والجارية **بلاندينا** .

كان مسيحيو **ليون** من الفريجيين ، وكانوا على اتصال بوطنهم . لم يتوقفوا عن كتابة الرسائل إلى فريجيا حتى بعد اعتقالهم . وقد نقلها كاهن من **ليون** يدعى **إيرينيوس** .

كان **إيرينيوس** آسيوياً بدوره . ولكنه أثناء عمله في **غالة** ، كان أول من التفت إلى السكان المحليين ، وهو أول من باشر باستخدام اللغة «الهمجية» السلتية في نشر التعاليم .

عاد إيرينيوس ثانية إلى بلاد الغال فيما بعد ، وأصبح أسقفاً لمدينة ليون . ذاع صيته كمؤلف قدير . وقاوم الغنوصية - وهي إحدى الهرطقات المسيحية الأولى . بشر بالحقائق والأسرار العظيمة بلغة مبسطة . لنشاطه دور كبير في إعادة إحياء الجماعات التي أهلكت أثناء الإضطهادات في **ليون** و**فين** ، و**أرليس** ، و**مرسيليا** ، وكذلك في إزدهار أولى الجماعات المسيحية السلتية والجرمانية .

لاتتوفر لدينا أية معطيات عن مسيحيي **إسبانيا** و**بريطانيا** بإستثناء معلومة تشير إلى ظهور الجماعات المسيحية هناك في مرحلة مبكرة جداً . فعن بريطانيا يقول **ترتليان** حوالي عام ٢٠٠ : «أرض البريطانيين العصية على الرومان ، خاضعة ليسوع» . أما في **دلماسيا** ، فقد نشأت في **سالونا** أسقفية ينسب تأسيسها إلى **تيتوس** تلميذ الرسول بولس .

ـ المسيحيون في أفريقيا

تناثرت جماعات مسيحية متعددة على طول الساحل الشمالي لأفريقيا . **فكنيسة الإسكندرية** تتباهى بتأسيسها على يد القديس **مرقس** . وفي الوقت ذاته تأسست كنيسة **قرطاجنة** ـ المركز التجاري الكبير . وبين أبرز مسيحيي القرن الأول يدور الحديث غالباً عن سكان **ليبيا** . فعندما كتب القديس مرقس في انجيله عن **سمعان القيرواني** الذي أُرغم على حمل صليب يسوع ، أضاف أنه كان والد **ألكسندر و روفس** (مرقس ١٥ : ١٢) . أما القديس بولس في رسالته إلى رومية فيطلب قائلاً : «سلموا على روفس المختار في الرب وعلى أمه أمي» (رميه ١٦ : ١٣) . وإذا علمنا أن مرقس كان سكرتير بطرس عندما بشر القديس في روما ، لن نشك بأن المعني هنا هي الأسرة ذاتها ، وأنها أسرة سمعان القيرواني . يحتمل أن يكون القيروانيون أفارقة من ذوي البشرة السوداء ، وغالباً مايعود المسيحيون الأفارقة إلى هذه الفرضية .

أعطت أفريقيا الكنيسة أحد كبار المدافعين عنها ، وهو **ترتليان** . إذ تبدأ الآن مرحلة الجدل .

لم يعد الإعتماد في محاربة المسيحية على اصدار القوانين المناهضة لها مجدياً . فالإضطهادات غالباً ما أدت إلى نتائج عكسية : تزايد عدد المسيحيين ولم ينخفض ، وتعمقت المشكلة . أضحت التهم الساذجة الموجهة للمسيحيين في بادئ الأمر غير كافية ، لأن أعداداً أكبر من ممثلي الفئات الجادة في المجتمع الروماني بدأت بالإقتراب من الدين الجديد يوماً بعد يوم . ولهذا السبب باشر الفلاسفة ، والخطباء ، والأدباء الوثنيون بشن حرب على المسيحية . هاجم **الكَلَبيُ كريسينتيوس** في كتاباته القديس **جوستين** . ولما عجز عن التغلب عليه في النقاش ، لجأ إلى القضاء بشكاوى رسمية . وحارب الخطيب الافريقي **فرونتون** المسيحيين بتوجيه الشتائم أكثر مما حاربها بالحجج . كان **لوسيان الساموساتي** وحده يبدو أكثر حنكة بين الخصوم . وهو بدوره فنان أكثر من كونه فيلسوفاً ، وقد اقتصر في مقالته المعروفة باسم **بيركرينوس** PEREGRINUS على السخرية . أصبح **سيلوس** فيما بعد الخصم الحقيقي الخطر الوحيد ، ويرجح بأنه ينحدر في أصله من **الإسكندرية** . وهو كاتب جاد وموهوب ، ذو طاقات لاتنفذ ، مطّلع على المسيحية بصورة حسنة ، ضليع بأسفار العهدين القديم والجديد ، وعلى إطلاع تام بمضمون الأسفار غير القانونية (لم يكن هناك قانون بعد في ذلك الحين ، أي قائمة رسمية بالأسفار التي اعترف بها بأنها كتبت بإلهام من الروح القدس) . لم ينكر الوجود التاريخي لشخص المسيح ، ووصفه بأنه «قصير القامة ، وغير حسن الوجه» . اتهم المسيحيين بالحماقة والخداع ، ولكنه اعترف بوجود أفراد بينهم «من ذوي السلوك النبيل ، ولاتنقصهم الحنكة لأن يتستروا بقناع من الإستعارات المجازية إذا ما

أُحرجوا» . وعلى الرغم من محاولته إهمال المسيحيين والحط من أهميتهم بقوله : «وإذا بقي منهم عدد محدود مختفياً ، فإن البحث عنهم لايزال جارياً ، وسوف يتم سوقهم إلى الموت عمّا قريب» . يُستشف من مؤلفه هذا (وهو على أي حال الوحيد الذي نعرفه) خوفه من أن الإمبراطورية وهي مهددة من كافة الجهات بالخطر الهمجي ، يمكن أن تجد في المسيحية عدواً داخلياً خطراً .

وقف في مواجهة الكتاب الذين هاجموا المسيحيين عدد من المفكرين المسيحيين الذين أطلق عليهم اسم المدافعين ، وكانت كتاباتهم محطَّ اهتمام بالغ .

تعد فترة حكم الأنطونيين مرحلة الإستغراق في المناظرات الكلامية المعبرَّ عنها بلغة رائعة .

كانت الدفاعات اليهودية سباقة على الدفاعات المسيحية ، حيث قام كل من فيلون ويوسف فلافيوس بالدفاع عن الموسوية أمام هجمات الكتاب الوثنيين . واقتداء بهذا النموذج ، أقبل الكتاب المسيحيون ـ ومعظمهم من العلمانيين ـ بنشر دفاعاتهم ، وقد تصدرهم بفضل أسلوبه الرائع (أوكتافيوس) وهذا الدفاع محاورة للمحامي المنحدر من أصول افريقية **ماركوس فيليكس** . ومن بين مدافعي تلك المرحلة تجدر الإشارة إلى : مؤلف مقالة بعنوان «رسالة إلى ديوجين» و هو مجهول (كان ديوجين مدرس ماركوس أوريليوس) ؛ والقديس جوستين الذي أسلفنا ذكره ، وتلميذه تاتسيان ، أثيناغوارس (الذي أشرنا إلى أنه بعث بدفاعه إلى الإمبراطور ماركوس أوريليوس) ، ثيوفيل الأنطاكي ، كوادراتس ، كلوديوس ، أبوليناري ، ميليتون السرديسي ، والسيناتور أبولونيوس ، وغيرهم . ولكن أكثرهم شهرة بدينامية كتاباته ونزعته الجدلية ، كان **ترتليان** .

كان كوينتوس سيبتميوس فلورنس **ترتليان** (حوالي ١٦٠ ـ حوالي ٢٢٥) محامياً ، ومن ثم كاهناً مسيحياً في قرطاجنة على الأرجح . ألَّف **ترتليان** عدة مقالات ، أشهرها مقالة بعنوان APOLOGETIC الذائعة الصيت ، والمحررة بصيغة دفاع قضائي . حاول **ترتليان** في مقالته هذه مواجهة كافة التهم الموجهة للمسيحيين ، منتقلاً من الدفاع إلى الهجوم . سخر من آلهة الوثنيين ، وأبرز لاأخلاقيتهم بالمقارنة مع الموقف الأخلاقي العميق للعبادة المسيحية . دافع عن المسيحيين ضد التهمة الموجهة لهم كأعداء للامبراطورية . وقد كتب : يكرم المسيحيون الامبراطور ويخدمونه ، ويصلون لأجله . «نثمن في الأباطرة إرادة الله الذي رفعهم فوق الشعوب . . . وهكذا ، لأنه امبراطورنا ، نعمل جاهدين من أجل نجاحه ونطلب له هذا لنجاح من القادر على منحه . . . ننسب جلال الامبراطور لله . . لأننا غير قادرين على تسمية الإمبراطور إلها (Apol. 30,1 - 33,2 - 3) .

كان لمقالات **ترتليان** كبير الأثر علىالكتابات المسيحية . لكن **ترتليان** ذاته انحرف

بسبب حماسه الشديد والمتهور، فابتعد عن الوحدة المسيحية، وارتبط بالطائفة **المونتانية**.

أما **الكنيسة الإسكندرية** فقد تطورت بصورة رائعة خلال القرن الثاني. كانت الإسكندرية مدينة الغليان الفكري الفاعل: فهنا نشأت التيارات الفلسفية والفكرية، حيث لعبت مختلف العوامل دوراً مساعداً. **فمصر** كانت ملتقى الأعراق، والقوميات، والحضارات، والديانات، وبهذا الصدد يقول **جاكوين**: «امتزج الشرق هنا بالغرب، وتداخلت النظم القادمة من بلاد **فارس والهند** مع الإرث **الهلنستي**». والحقيقة أن «ضرباً من الشكية كان قاسماً لكافة العبادات، وهو ثمرة الحياة **الكوزموبوليتانية** والثراء. وقد عجز بعض المسيحيين عن مقاومة اغراء الإنغماس في هذا التيار». وكتب الإمبراطور هدريان في حينه إلى سيرفيانوس قائلاً: «أعرف **مصر** برشاقتها، وحركيتها، وميلها للتأثر بكل شعار. فهنا أتباع سيرابيس مسيحيون، والذين يطلقون على أنفسهم اسم أساقفة يسوع، يمجدون سيرابيس. هنا، رؤساء المجامع اليهودية، والسامريين، والكهنة المسيحيين، جميعاً من المنجمين وقراء الغيب... المدينة ثرية وفاعلة، وما من أحد يتسكع هنا... للجميع إله واحد هو المال».

في إطار هذه المعمعة من الأفكار والآراء، والمذاهب، تطورت الفلسفة المسيحية بأسلوب مستقل ومشوّق. هنا نشأ أول «مركز علمي مسيحي»، مدرسة الإسكندرية التي قامت بالتعليم على مسؤوليتها الخاصة (وفقاً لوصف جاكوين الآنف الذكر). مؤسس المدرسة، أو ربما أحد مدرائها، هو الشكوكي المهتدي **بانتانيوس**، الذي عمل مبشراً في الشرق قبل أن ينصب اهتمامه على المدرسة، ويروى أنه بلغ الهند في رحلاته (ولكن يحتمل أن تكون هذه التسمية عند **سيوس** تعنى **العرب**ية السعيدة. وكممثل شهير لمدرسة **الاسكندرية** ذاع صيت خليفة بانتاينوس، **كليمنس الاسكندري**، مؤلف العديد من الكتب القيّمة التي يؤسف على عدم حفظها كاملة. أشرف على إدراة المدرسة لفترة وجيزة، لأنه غادر الإسكندرية عام ٢٠٢ مع بداية مرحلة الإضطهادات.

ـ المسيحيون في الشرق

تعد الجماعات المسيحية في آسيا الصغرى آنذاك الأكثر عدداً والأشد حماساً. فمن هنا من **فريجيا**، وبيتينيا، **وغلاطية**، **وليكادونية** ـ انطلق المبشرون إلى جميع أنحاء العالم الروماني. وفي عام ١١٢ ـ كما أسلفنا ـ خاطب بلينيوس الصغير والي بيتينيا الإمبراطور تراجان متسائلاً عن الطريقة التي عليه أن يتصرف بها مع المسيحيين «الكثيري العدد». كانت مدينة **هيرابوليس** مركزاً هاماً من المراكز المسيحية. وقد جمع أسقفها **بابياس** في مؤلفه «أحاديث الرب» (الذي لم تحفظ سوى أجزاء منه) عدداً كبيراً من الكلمات التي تفوه بها

يسوع ، ممن سمعوه مباشرة . ويبدو أن المجموعة أنجزت بأسلوب لاغبار عليه .

من أبرز أصدقاء الأسقف بابياس ، أسقف **شميرنا** الآنف الذكر **بوليكارب** ، الذي تميز بنفوذ هائل في الكنيسة . وقد صمدت رسالته إلى الفيليبين في وجه عوامل الزمن واستشهد كشيخ يناهز الثمانين من العمر عام ١٥٥ .

وفي **ساردس** ذاع صيت الأسقف **ميلتيون** كمدافع عن المسيحية ، واشتهر بكونه أحد أوائل الحجاج إلى الأرض المقدسة . أشار ميليتون بعد زيارته أورشليم إلى العديد من الآثار المقدسة باستثناء موقعين هما الأهم بلاشك : **الجلجلة والقبر المقدس** . ومثله يلتزم الصمت حيال هذا الموضوع عدد من الحجاج الآخرين في تلك المرحلة ، أمثال : **ألكسندر القبدوقي** **وبيونيوس السميرني** ، **وفيرميليان من قيصرية** . إن هذا الصمت مفهوم : لأن الموقعين البالغي الأهمية لدى المسيحيين كانا مغطيين كلياً بالمباني الوثنية إذ قام بناة aelia بتسوية المكان بالتراب المنقول ، حتى اختفت هضبة الجلجلة تماماً ، وعلى هذا المكان الذي تمت تسويته شُيدت المباني الحديثة . ولكن ذكرى المكان الذي احتوى قبر **يسوع** ظلّت محفوظة في أذهان المسيحيين من جيل إلى جيل .

إزدهرت الحياة المسيحية في اليونان أيضاً . فكنيسة **كورنثة** ـ بالرغم من الميل الشديد للنزاعات ـ تطورت ، بشكل خاص في ظل إدارة الأسقف **ديونوسيوس** . كان **ديونوسيوس أريو باغيتا** أول أساقفة **أثينا** ، ولانعرف عنه شيئاً سوى انه تعمَّد على يد القديس **بولس** . أما خلفه بـ**بليوس** فقد استشهد في عهد **دوميتيان** . ألحق هذا الإضطهاد أضراراً كبيرة بالجماعة ، ولم يتمكن خليفة بوبليوس المعروف باسم **كوادراتوس** ، إعادتها إلى سابق مجدها . ومن الأسباب التي أدت إلى ذلك ، تأسيس مركز جديد **للهلنستية في أثينا** بمبادرة من الإمبراطور . فبعد موت نيرون ، قام أعظم الأباطرة الهلنستين ، هدريان ، برعاية أثينا . وبالرغم من ضعف كنيسة أثينا ، كان لها مدافعين عنها ، وجهوا بدورهم كتباً للإمبراطور دفاعاً عن المسيحية ، وهم : كوادراتوس (قد يكون هو نفسه الأسقف الانف الذكر الذي عجز عن إحياء الجماعة الهرمة ، بالرغم من حماسه المتقد) ، وأرستيدس .

تواجد المسيحيون في **بونت** (على ساحل البحر الأسود) ، وبجوار **قبدوقية** أيضاً . وقد سخر **لوسيان الساموساتي** في حينه قائلاً «البلدان مليئان بالملحدين والمسيحيين» . نعلم أن الأسقف **ديونوسيوس** الكورنثي حرر رسائل إلى الكنائس في **أماستريس وبونت** . ثارت بعض القلاقل في كلتا المقاطعتين نتيجة بعض الرؤى القائلة بالحلول الوشيك لنهاية العالم . وقد تعرض المسيحيون هناك لإضطهادت دموية في أواخر القرن الثاني ، لكن هذه الإضطهادات عجزت عن سحق المسيحية ؛ وعلى العكس ، فبعد فترة وجيزة تأسست في **قيصرية** قبدوقية متروبولية كنسية ومركز كبير للحياة الدينية .

كانت **انطاكية** السورية عاصمة حقيقية للمسيحية في الشرق . يتصدر القديس **اغناطيوس ــ ثيوفور** السجل الطويل لأساقفة **انطاكية** . حكم عليه بالموت عام ١١٠ وأعدم بعد أن نُقلَ إلى **روما** بحراسة عشر جنود ، وصفهم بأنهم «أسوأ عندما يعاملون بالحسنى» . كان له أن يصبح«حنطة إلهية سُحقت إلى دقيق بأنياب الحيوانات المفترسة ، لتتحول إلى خبز المسيح الطاهر» . وفي الطريق استقبل المسيحيون في كافة المدن التي اقترب منها المحكوم عليه استقبال الظافرين ، بينما قام هو بإرسال رسائل من الطريق إلى مختلف الكنائس وضمنها تعاليم ، وتحذيرات ، وترغيباً بالصمود . ومن بين الرسائل السبع ، كتب اغناطوس أربعة إلى المسيحيين في **أفسس** ، **ومغنيزيا** ، **وترالس** ، **وروما** ، خلال استراحته القصيرة في **سمُيرنا** . والرسائل الثلاث الأخرى إلى **فيلادلفيا** ، **وسميدنا** ، وإلى الأسقف **بوليكارب** ، أثناء توقفه في ترواد . توسل القديس **اغناطيوس** طالباً من المسيحيين في **روما** عدم محاولة إنقاذه وحرمانه من الشهادة . وكتب في هذا الصدد قائلاً : «امنحوني هذه الخدمة الكبرى واسمحوا لي بأن أقدم نفسي أضحية للرب . . . اسمحوا لي أن أصبح طعاماً للحيوانات المفترسة ، لأنني لن أجد الله بغير ذلك» .

قبل وصول اغناطيوس إلى روما ، بلغه نبأ توقف اضطهادات المسيحيين التي كانت قد تفجرت في **انطاكية** .

بين أساقفة **انطاكية** الآخرين اشتهر كل من : **ثيوفيل** مؤلف ثلاث مقالات دفاعية ، **ومكسيم** ، **وسيرابيون** محرر الرسالة إلى المؤمنين في كنيسة **روسوس** في **كيليكية** ، يحذرهم فيها من الأبوكريفا المعروفة باسم «انجيل بطرس» . ليس في وسعنا اليوم أن نجزم فيما إذا كان (هذا هو رأي القس أميوت أستاذ سمينار سانت ـ سولبيس في باريس) هذه الأبوكريفا التي تصف محاكمة **يسوع** وآلامه ، ذات ميول تحريفية . لكننا نجد في انجيل بطرس هذا بعض العبارت الغريبة ، ومثال ذلك : «صمت **يسوع** المصلوب وكأنه لم يشعر بأي ألم» (١ : ١٠) . ولما هبط الظلام صرخ : «قوتي ، قوتي ، لماذا تركتيني ؟ !» (١ : ١٨) .

كان إلى الشمال الشرقي في **سوريا** دولتان غير خاضعتين للإمبراطورية ولكنهما بالرغم من ذلك تابعتين لنفوذ روما ، وهما : **أرمينيا الصغرى** ، **وأرمينيا الكبرى** . تشير التقاليد إلى أن أمير **إديسا أبجد الرابع أوك ــ كاما** (٤ق .م ـ ٥٠م) تبادل الرسائل مع **يسوع** واعتنق المسيحية . وفي حقيقة الأمر ، حدث إلتباس بينه وبين أحد خلفائه ، الأمير **أبجد التاسع بارمانو** (١٧٩ ـ ٢١٤) الذي كان العالم المسيحي **برديصان** صديقاً له ؛ وبتأثيره قام الأمير بدعم المسيحية وإلغاء العبادة الوثنية المحلية . تقول رواية أخرى أن أرمينيا عرفت المسيحية بفضل الرسول **يودا تاديوس** أو تلميذه **أديوس** ، والرسول **برتلومي** . يقال أن أديوس استشهد في منطقة **شاورشان** قرب بحيرة **وان** ، أما **برتلومي** ، فقد استشهد في **أزران** .

أحرز نشر التعاليم المسيحية في أرمينيا في أواخر القرن الثاني نجاحاً باهراً ، وخاصة في **ميليتين** (من هذه المناطق تجند أفراد فيلق الصاعقة المسيحيون أما الهداية النهائية لأرمينيا فقد تمت على يد القديس **غريغوري** المنور . انحدر **غريغوري** من أصول **بارثية** ، وترعرع في **قيصرية** قبدوقية . ومن هناك جاء إلى أرمينيا مبشراً في عهد **تيريدات** الثالث ، وكان ملاحقاً لأن تيريدات حارب المسيحية . لكن التقاليد تذكر أن تيريدات أصيب بمرض عضال ، برئ منه بمعجزة على يد **غريغوري** ، وهذا مادفع الملك لقبول طقوس المعمودية ومن ثم أقدم بنفسه على دفن رفاة الشهداء الذين قتلوا بناء على أوامره فوق جبل **آرارت** . وفي نهاية المطاف جعل من المسيحية ديناً رسمياً للدولة الأرمنية عام ٣٠١ . وإذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فإن أرمينيا هي الدولة الأولى التي اعتنقت المسيحية .

ـ المسيحية والهجوم المضاد في الشرق

بدأت مرحلة جديدة من الإضطهادات في عام ٢٠٢ واستمرت حتى عام ٣١١ .

اكتسبت الإضطهادات في هذه المرة طابعاً مختلفاً كلياً ، فقد كانت المسيحية في نظر أباطرة القرنين الأول والثاني مجرد طائفة محتقرة ، أثار وجودها بعض القلاقل . وقد تمت القاعدة النيرونية القائلة : «يحظر اعتناق المسيحية» سارية المفعول . وعلى أساسها أمكن إدانة المسيحيين وإصدار الحكم بالموت عليهم كلما رفعت شكوى ضدهم ، وكان المتَّهمون عادة من اليهود ـ الموسويين الكارهين للمسيحية والحاقدين عليها ، لأنهم نظروا إليها على أنها هرطقة في أحضان الموسوية ؛ ومن السكان الموالين للسلطات الرومانية ؛ ومن سكان مقاطعات الإمبراطورية ؛ ومن الجماعات المستفيدة مادياً من العبادات الوثنية ؛ وللأسف ، صدرت الإتهامات أحياناً من بعض المسيحيين أيضاً . يجب ألاّ نتصور بأن المجتمع المسيحي كان في مراحله المبكرة على وفاق ، ومتجانساً في كل شيء ، تربطه عرى المحبة . فالعبارة التي نقرؤها في أعمال الرسل ، والتي تؤكد أن الأعضاء الأولين للجماعة الرسولية في أورشليم «ثبتوا . . . في الروابط الأخوية» ، سيرد عليها كليمنس بمرارة بعد فترة وجيزة قائلاً : «بسبب الحسد والحقد ، عانى الإضطهاد أولئك الذين كانوا بمثابة الدعامات (الحديث عن الرسولين بطرس وبولس) الأعلى والأكثر عدالة ، واضطروا لخوض المعركة المهلكة» .

تبدلت الأحوال في القرن الثالث . فلم يعد المسيحيون طائفة مجهولة لايُعرف عنها شيء محدد بدقة ، وتتهم بممارسة نشاطات مبهمة . تسربت ، التعاليم المسيحية إلى كافة طبقات المجتمع ، ووقف إلى جانبها فلاسفة ومدافعون ، ونَبَتَ سلك إكليروس متزايد العدد باضطراد ، واعتنقها أفراد خدموا في الجيش والإدارة الحكومية وبلاط الإمبراطور . وقد كتب **ترتليان** بشيء من المغالاة ـ ولو انه ليس بدون مبررات ـ :«إننا موجودون منذ البارحة ، وها

قد ملأنا كل شيء تملكونه : المدن ، والجزر ، والبلدان الصغيرة ، ومجالس المدن ، ومعسكرات الجيش ، والنقابات في روما والمقاطعات ، والبلاط ، ومجلس الشيوخ . . . ولن تجدي نفعاً قسوتكم بكل أساليبها المبتكرة . . . يتزايد عددنا أكثر ، كلما قمتم بحصادنا . فالبذرة هي دم المسيحيين» .

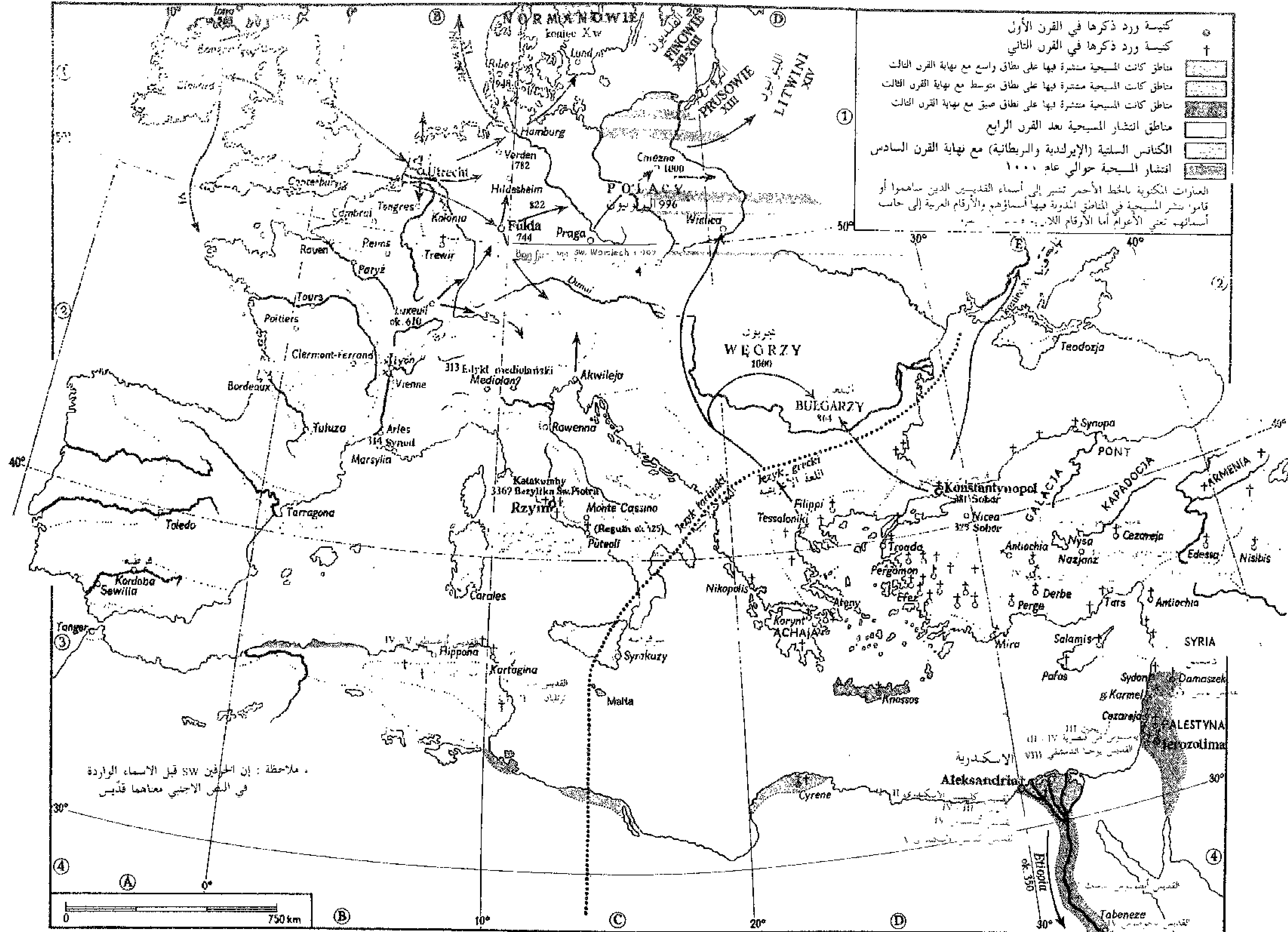
ليس دم المسيحيين بذرة فحسب . فالسرعة التي طغت فيها المسيحية على لعالم الإغريقي ـ الروماني لها أسبابها . كانت القرون السابقة مرحلة الهجمة الكبرى الإغريقية ـ الرومانية على الشرق ، والتي بلغت مداها الأقصى في عهد **الإسكندر الكبير** . ضعف تأثير هذه الهجمة قرناً بعد قرن ، حتى تلاشى إبان حكم **الانطوائيين** . ولم تعد الإمبراطورية تفكر بفتوحات جديدة ، بل اقتصرت على عملية التمثل . في هذه الأثناء بالذات ، بدأ الهجوم المضاد للشرق ، الذي اتخذ مظهراً مختلفاً تماماً . لم يستخدم الشرق السلاح في هجومه على الغرب . وقد عبَّر **توينبي** عن ذلك بقوله :

«تميزت الهجمة الاغريقية ـ الرومانية بطابع عسكري ، وسياسي ، واقتصادي ، أما الهجوم المضاد فتميز بطابع ديني . . . كان الإرهاق الناجم عن احتدام الصراعات المتكررة بين مختلف الحضارت ، أحد الأسباب التي أدت في القرن الثاني للميلاد ، إلى ولادة ذلك العدد الهائل من الديانات ، والدعاية لها . . . فالعقول المخدوعة ، والقلوب التي منيت بالخيبة ، بدت على استعداد لتقبل الإنجيل الذي كان له أن يسمو على الإدعاءات المضادة الحضارية العقيمة . . . فمع الآلهة الذين ظهروا في تلك الديانات الجديدة ، نقف أخيراً أمام ألوهيات ، نستطيع أن نضحي في سبيلها بكامل قلوبنا ، وعقولنا ، وطاقاتنا . . . ماهي ردود الفعل التي أبداها سادة العالم الكلبيون من إغريق ورومان حيال هذا الهجوم المضاد ؟ إذا أنعمنا النظر إلى قلوب الإغريق والرومان لجيل **ماركوس أوريليوس** ، سنجد فراغاً روحياً : فكما فعلنا نحن اليوم كان أسلافنا ، ممثلو الغرب ، فاتحو العالم ، قد ألقوا منذ أمد بعيد بديانة أسلافهم جانباً . . . وقام فلاسفتهم بتقييد أرواحهم بقيود القانون الطبيعي العكرة . فالإنسان المتوسط الذكاء ، الذي بلغ الأربعين من عمره ، عاش كل شيء ، ماكان ، وماهو موجود ، ومايمكن أن يكون ـ هذا ماكتبه ماركوس أوريليوس» .

منح احتكاك فراغ العالم الروماني على الصعيد الروحي مع التيار المهاجم من المعتقدات الشرقية ، المسيحية فرصة نادرة . مانؤمن به ، هو أن الديانة المسيحية ديانة إلهية ، وتشكل تجلياً حقيقياً للألوهية . ولكن الله لايخلق لديانته قوانين معجزية خاصة دون أن تتطلب الضرورة القصوى ذلك . بل يطلب إليها أن تخضع للظروف السائدة ، وتستغل الفرص المتاحة ، كما يسمح بأن تتهددها المخاطر .

ساعد تيار الهجوم الشرقي على تسريع وتيرة انتشار المسيحية في العالم الإغريقي ـ

٢ ـ توسع انتشار المسيحية



الروماني فخلال قرن ونصف تمكنت المسيحية من بلوغ أقاصي حدود الإمبراطورية ، وفي الشرق ، امتدت إلى أبعد من ذلك .

لكن مجيئها ضمن موجة عريضة من المعتقدات ، وتغلغلها في آن واحد في جميع طبقات وفئات المجتمع في الإمبراطورية ، بأعراقهم وعقلياتهم المتباينة ـ جعلاها عرضة لأن تفقد تماسكها وتجانسها في أية لحظة ، وتتفكك إلى عدد غير محدود من المعتقدات غير المترابطة مع بعضها إلا بصورة ضعيفة . أصرَّ المسيحيون ـ اليهود بإلحاح على ربط المسيحية بالموسوية ؛ بينما بحث المسيحيون ـ الهلنستيون عن وسائل لربط المسيحية بأسس الفلسفة الإغريقية ؛ أما الأفراد ذوي الميول الموجهة نحو التأملات الفكرية ، فقد بحثوا في التعاليم المسيحية «الشديدة البساطة» بالنسبة لهم ، عن أسرار مخفية تحت ستار الإستعارات المجازية ؛ وكانت متطلبات سكان أفريقيا المتعصبين عادة، من المسيحية أكثر من عادية ؛ كانت المسيحية في نظر البعض دنيوية أكثر مما يجب ، وفي نظر آخرين ، شديدة الإنفصال عن الواقع ؛ بالنسبة للبعض أقل قدسية مما يجب ، وصعبة المنال لغيرهم ؛ وحاول كل جانب تعديلها بما يتطابق ومثله الأعلى . فيا للسهولة التي كان يمكن للمسيحية أن تفقد هيئتها الحقيقية ! لم تكن قد نشأت بعد إدارة كنسية عامة ، أو قانون ، أو طقوس متجانسة ، أو عقيدة دقيقة بتفاصيلها . وفي هذا الخصوص كتب **كونغ** قائلاً :

«بنيت الكنيسة الأولية على أساس الإستقلال الذاتي للكنائس المحلية وعلى أساس التعددية في الطقوس ، واللاهوت ، والإدارة . سادت وحدة الإيمان ، والمعمودية ، والأوخارستيا ، أخلاقية انجيلية واحدة وامل مشترك . لكن هذه الوحدة الأساسية لم تنعكس في صيغة متجانسة . وأمكن لكل جماعة أن تخص نفسها بطقوسها الخاصة ، وإداراتها الخاصة ، وقانون إيمانها الخاص ، وكتبها القانونية الخاصة» .

لابد من القول بأن الحفاظ علىالوحدة في مثل تلك الظروف لم يكن بالأمر اليسير . وإذا تمت المحافظة عليها ، فإن الفضل في ذلك يعود للعناية الإلهية والإضطهادات (التي كانت نعمة مرسلة لتعضيد الكنيسة الفتية) . فالدم أقوى أنواع الملاط . قيل مرة بأن الجيش الذي يضم في صفوفه أكبر عدد من الأبطال ، هو الذي ينتصر ، والأبطال في المعايير الدينية هم القديسون . وعلى الرغم من جميع الخيانات التي حدثت ، وكل الكراهية ، وبالرغم من النزاعات الحامية الوطيس ، لم يكن للكنيسة في يوم ما كل ذلك العدد من القديسين . لقد رُفع جميع باباوات القرون الأولى إلى مصاف القديسين ، وكذلك الشهداء بأعدادهم الهائلة . كما يصنف في عداد القديسين أفراد خرجوا عن الطاعة ، كالقديس **هيبوليت** الذي أبدى إستعداداً لمحاربة البابا ، مثلما فعل القديس **سبريان** . ربما كانت الرموز ضرورية في تلك الأزمنة العصيبة ـ أزمنة الإضطهادات ـ ولذلك رُفع إلى مصاف القديسين عدد أكبر مما نجده اليوم ، حيث أضحت عملية منح القداسة شديدة التعقيد ، فلا ترفع إلى الهياكل رسمياً سوى

تماثيل عدد محدود من القديسين . ولكن بالرغم من عامل التصحيح هذا ، كانت تلك أزمنة القداسة ، وكان الدم بذرتها . بينما أضحت القداسة بذرة الكنيسة .

خرجت الكنيسة من مرحلة الإضطهادات الأولى موحدة ومؤهلة للإستمرار ، بالرغم من أن معركتها مع التناقضات الداخلية ظلت مستمرة . لم تعد مجرد طائفة ، وإنما ديانة اعتنقها الآلاف من مواطني الإمبراطورية (آنذاك ، اعتنق المسيحية مايزيد عن نصف سكان آسيا الصغرى) . وهكذا اتضح لأباطرة روما بجلاء ، بأن مصير الإمبراطورية هو بين أيدي المسيحيين .

ـ أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث

لم تعد الإمبراطورية كما كانت من قبل .

قُتل **كومودس** آخر **الأنطونيين** على يد المتآمرين ، ولقي بيرتيناكس مصرعه على يد الحرس الإمبراطوري بعد أيام من اعتلائه العرش . فبدأ الصراع على العرش بين ثلاثة من القادة ، وانتصر في نهاية المطاف **سيبتيميوس سيفير** ذو الطباع الشرسة ، الذي اشتهر بقوله مخاطباً أبناءه : «احرصوا على أن يتمكن الجنود من الإثراء ، وبوسعكم ألا تكترثوا بما تبقى !» . سقط ابنه **المجرم كركلا** أيضاً صريعاً على أيدي الحرس الإمبراطوري . ولقي **مارسينو** قائد الحرس الإمبراطوري حتفه على يد جنوده ، وقُتل كذلك **هيليوغابال** الفاسق كما قتل جنود الفيالق المتمردة **ألكسندر سيوير** . ولقي **مكسيموس** العملاق الذي بلغ طوله متران ونصف المتر ، حتفه على أيدي جنوده . ولقي **جورديانوس** مصرعه على يد قائد حرسه الخاص . وقُتل **فيليب العربي** على يد **ديسيوس** ، ولقي الأخير حتفه في الحرب مع القوطيين . وتوفي **فاليريان** كأسير مكلل بالعار لدى ملك البارثيين . أحرز **أورليان** سلسلة من انتصارات رائعة ، واستعاد السيطرة على أجزاء الإمبراطورية الشرقية المتمردة ، لكنه لقي مصرعه على يد أحد القتلة . أماخلفاؤه : **بروبوس** ، **وكاروس** ، **وكارين** ، **ونميريان** ، فقد قُتلوا جميعاً . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ **كوشران** : «استطاع امبراطور واحد من بين ستة وعشرين آنذاك ، أن يتجنب الموت قتلاً» .

استطاع **ديوقلتيانس** السيطرة على الفوضى بقبضة حديدية . لكن ديوقلتيانس لم يعد امبراطوراً رومانياً ، وإنما مستبداً شرقياً يطالب لنفسه بتكريم إلهي . نقل العاصمة إلى **نيقوميديا** . وقُسمت الإمبراطورية إلى أجزاء ، وحكمت من إثنين ، أو ثلاثة ، أو أربعة قياصرة بأن واحد .

ترافقت الفوضى التي أحاطت بالعرش الإمبراطوري مع الخطر الذي هدد حدود

الإمبراطورية . فقد خضع مارسينوس وألكسندر وجورديانوس للبارثيين ، وتعرض فاليريان للأسر من قبلهم ، وقتل ديسيوس في الحرب مع القوطيين . بينما هدد الجرمان حدود الإمبراطورية على نهري الراين والدانوب . ودمر **الفرنكونيون غالة** . لكن العدو الأكثر خطراً زحف من الشرق . فبعد الهجمة المضادة الدينية ، جاءت الهجمة المضادة العسكرية . وفي هذا الصدد كتب **غروسيه** «انتظر مؤلف الرؤيا . . في تنبؤه بموت الوحش الروماني ، الخلاص على يد الغزاة البارثين» . دفع البارثيون بجحافلهم أبعد فأبعد نحو الغرب . الحقيقة أن **ماركوس أوريليوس** تمكن من احراز نصر رائع ، ووصلت جيوشه إلى **سلوقية** على الدجلة . كما انتصر سيبتيموس سيفيرا . لكنها الانتصارات الأخيرة . تفجرت ثورة في الجانب البارثي ، حيث سادت في مقاطعة بارس (فارس حالياً) منذ مايقارب القرن ميول فارسية مناهضة للهلنستية ، وانتصر أمير هذه المقاطعة **أزدشير بن ساسان** ، وقتل الملك البارثي **أرتبان** عام ٢٢٤ . وبعد هذا النصر أعلن نفسه شاهنشاهاً ، أي ملك الملوك . عادت الأسرة الساسانية الجديدة إلى التقاليد الفارسية القديمة ، فتماسكت الدولة ، وأصبحت **الزرادشتية** الديانة الرئيسة (وهي ديانة الفرس القدماء التي أصلحها **زرادشت** ، وتعتمد على الصراع بين عنصري الخير والشر ، أو رموزد ، وآريمان) . وهكذا بدأت اضطهادات معتنقي الديانات الأخرى .

انهالت على الامبراطورية كوارث أخرى . وفي ظروف الفوضى السائدة ، تلاشت حياة الرفاه التي تميز بها عصر **الأنطونيين** . طغى التضخم على سوق المال ، وأثقل المضاربون الذين استغلوا السكان ، كاهل الحياة الإقتصادية . دمرّت غزوات الهمج مقاطعات كاملة ، وانتشرت الأوبئة مرة بعد مرة ، ولاحت أعوام الجوع في الأفق . تمرد الزراع في غالة عام ٢٨٢ ، وظهر قطاع الطرق والقراصنة على الطرق البرية والبحرية مجدداً ، بعد أن اختفوا عن الساحة لأعوام طوال . وقد كتب القديس **سبريان** يصف الأوضاع قائلاً : «أغلق قطاع الطرق الطرقات ، وقطع القراصنة المسالك البحرية ، وسادت الحرب العامة المرعبة . يجن العالم بالقتال المتبادل» .

تصعدت الفوضى نتيجة الضغط المتزايد الذي مارسته هجمة المعتقدات والأفكار الشرقية على الإمبراطورية . خارت قوى العالم الإغريقي ـ الروماني ، وأصبح عاجزاً عن صد هذا السيل الجارف ، وطغى **بانثيون** الآلهة الشرقيين ـ البدائي في معظم الأحيان ـ على الأجواء الإغريقية ـ الرومانية ، مدمراً في النتيجة التدين بأشكاله .

كانت الديانة المسيحية ، في خضم تلك الجلبة من المعتقدات المتناحرة فيما بينها ، هي الوحيدة التي تمكنت من الإحتفاظ بطاقاتها وجاذبيتها . فتطلع إليها عدد متزايد يوماً بعد يوم ، آملين منها أن تجلب الطمأنينة للنفوس المتعبة . تميزت المسيحية بدينامية الأفكار الشرقية ، وفي الوقت ذاته ـ كانت الوحيدة القادرة على استيعاب وتمثل التقاليد الإغريقية ـ الرومانية . أما

محافظتها على شموليتها فقد منحتها فرصة رائعة لأن تصبح ديناً للإمبراطورية .

اتضح لأباطرة القرن الثالث بجلاء تام ، أن المسيحية تشكل قوة كبرى داخل الإمبراطورية . فإما أن يستميلوها إلى جانبهم ، أو يعلنوا عليها حرباً لاهوادة فيها .

وهذا مايفسر قضية تعاطف سيبتيميوس سيفيرا مع المسيحيين في بادئ الأمر ، وإبقائه الكثيرين منهم في بلاطه ، وتغير موقفه بغتة في عام ٢٠٢ ، حيث أصدر مرسوماً يقضي بحظر اعتناق المسيحية .

ـ الوضع في روما

جلس على العرش البابوي بعد فيكتور كل من **زيفيرين وكاليكست** ، وقد شغل هذا الأخير لدى سلفه منصب الشماس الأول ومدير المقبرة .

اكتسبت سراديب **روما** الشهيرة أهمية خاصة بالنسبة للمسيحيين في هذه المرحلة . وهي مقابر ضخمة تحت الأرض ، منحوتة في الصخر ، وكانت أملاكاً خاصة للأسر الرومانية . وكلما اعتنقت اسرة أحد مالكي القبر المسيحية ، تحولت السراديب إلى أمكنة تضمن اللقاءات الآمنة . استغل المسيحيون فرصة صدور المرسوم الذي سمح «لجمعية المقبرة» بإدارة شؤون المقبرة وتمكنوا من الإشراف على مقبرة أسرة **كايسيليوس** . وفي ظل إدارة **كاليكست** المتميزة بحيويتها ونشاطها ، تم حفر أنفاق تحت الأرض بلغ طولها كيلومترات عديدة .

جاءت هذه الحماية في الوقت الملائم تماماً . الحقيقة أننا لانعرف شيئاً عن اضطهاد المسيحيين في **روما** في عهد سيبتيميوس سيفيرا (لاتشمل المعلومات المتوفرة لدينا سوى افريقيا الغربية ومصر) ؛ ولكن من المستبعد ألا تكون الجماعة قد تعرضت للإضطهاد نهائياً .

عندما تعرض المسيحيون مجدداً للخطر الخارجي ، برزت النزاعات ثانية في أحضان الجماعة . لقد أسلفنا الإشارة مراراً إلى تسرب بعض العقائد إلى التعاليم المسيحية . وكان هذا أمراً يستحيل تلافيه . فالمسيحية ، كانت لاتزال في صلب تيار الديانات الشرقية المهاجم . وتحول عدد من تلك المعتقدات الشرقية أثناء الإحتكاك بالهلنستية إلى تيارات فلسفية أكثر من بقائها عقائد دينية . فأصبحت بصيغتها الجديدة أشد خطراً على العقيدة المسيحية التي كانت لاتزال في طور التبلور .

برز خطر «المتهودين» في هيئة جديدة . لم يكن الهدف في هذه المرة التقيد بنواميس العهد القديم . فقد عاشت الموسوية مجدداً مرحلة نشاط محدود . وبعد عشرات الأعوام من التمردات المسلحة والتآمر وجدت فكرة الخلاص منفذاً لها في التأملات السرانية . وارتبط

انتظار مجيئ المسيح بالمثل الأعلى لحياة الزهد المدفوعة إلى أقصى حدود التطرف . وبهذه الميول «تلوث» الوسط المسيحي ، وهو الذي سيطر مجدداً على الجماعة المسيحية الرومانية في أواخر القرن الثاني . عبّرت التأملات السرانية عن نفسها في انتظار المجئ الثاني ليسوع . وفي التفكير بالعصر الذهبي» لما بعد مجئ المسيح ، وفي الأوهام المتعلقة بالعقيدة الألفية حيث يسود الروح القدس ألف عام . تداخلت قيم الزهد مع مثل القداسة السامية ، التي تعذر نيلها وأضحت مقصورة على فئات استثنائية . ظهرت طوائف ألفية ـ انتظرت قدوم الألف عام السعيدة ؛ وطوائف **الإنكراتيست** ، **والمارسيونست** ، **والمونتانيين** ـ التي طالب أفرادها بهجر الحياة الزوجية ، والامتناع عن تناول اللحوم ، والإلتزام بفروض صيام صارمة . أدى الإنغماس في السرانية إلى ظهور الغنوصية ـ وهي شريحة كاملة من الطوائف التي نظرت إلى التعاليم المسيحية نظرتها إلى مجموعة من التعاليم «البسيطة» للسذج والعامة من الناس ، والتي تتضمن الحقيقة «كامنة» ، يستشفها «المختارون» و«المطلعون» وحدهم . وغالباً ماارتبطت نشوة المعرفة السرانية للأسرار الخفية لدى الغنوصيين ، بالتجاوزات الأخلاقية .

سوف تنشأ «الملكية» من ذلك التيار المسيحي ـ اليهودي نفسه ، وتؤكد بصرامة على مبدأ وحدة الألوهية ، بحيث تتلاشى معها الفروقات بين مختلف أقانيم الثالوث الأقدس ، واعتبرت في مصطلحاتها الهرطقية مختلف الأقانيم مجرد تجسيد لصفات الألولهية المختلفة . وأخيراً ، تيار **التبني** الذي أنكر ألوهية **يسوع** ، مؤكداً أنه لم يكن سوى إنسان ، وُهب صفات إلهية أثناء معموديته .

لم تتخذ كافة هذه الميول الشرقية المنشأ طابعاً هرطقياً تاماً دوماً ، لكنها أثارت الخلافات باستمرار . وغالباً ماأدت الحرب المعلنة على أحدها إلى وقوع المتناقشين في غيرها . وكان أحد أعظم عقول تلك المرحلة ضحية لخطأ كهذا ، هو المفكر والفيلسوف **هيبوليت** . ففي ملاحقته لأنصار العقيدة **المودالية** (وهي إحدى صيغ الملكية التي أسسها سابيليو) وقع هيبوليت في خلاف مع البابا **كاليكست** ، واتهمه بالتهاون مع الشر (وتحديداً بالتسامح مع المرتدين) . وسوف يتكرر هذا الخلاف مراراً في المستقبل : فالآراء القادمة من الشرق (المبشرة «بنهاية العالم» ، وسيادة الروح القدس لمدة ألف عام) سوف تطالب أعضاء الكنيسة بصرامة أخلاقية فائقة ، و «طهارة» مطلقة . وسوف يحارب الباباوات والأساقفة هذا التطرف في المواقف مدركين ضرورة أخذ قصور الطبيعة البشرية وميلها للعثرات بعين الاعتبار .

وقد كتب **دانيلو** في هذا الصدد قائلاً : «حَلِمَ هيبوليت بكنيسة مؤلفة من حفنة من القديسين الباقين على صراع دائم مع العالم . . . ولم تكن الخلافات اللاهوتية هنا سوى ذريعة» . وخلافاً للرأي الشائع وغير المثبت ، يعتقد دانيلو أنه لامبرر لإعتبار هيبوليت باباً مضاداً ، أو حتى مجرد منشق . فبكل بساطة «كان ممثلاً للكمال الذي لم يكن في وسع السلطة الكنسية إقراره» .

تعاقب على العرش البابوي بعد كاليكست كل من **أوربان** ، **وبونتيان** . ولما انفجرت موجة الإضطهادات الجديدة ، نفي كل من بونتيان وهيبوليت إلى مناجم **سردينيا** ، واستشهدا هناك . وقد كتب هيبوليت قبيل ذلك إلى أنصاره في **روما** طالباً منهم الخضوع لخليفة بونتيان . أعيدت جثتا كليهما فيما بعد إلى **روما** بحفاوة كبيرة ، ورفع كلاهما إلى مصاف القديسين .

ستبدأ مرحلة تصعيد حدة الإضطهادات في عهد **ديسيوس** عام ٢٤٩ . وسيحاول الإمبراطور استعادة وحدة الإمبراطورية والإيمان بآلهتها القدماء . وفي هذه المرة ستعم االإضطهادات كافة أنحاء الإمبراطورية في آن واحد . وسوف يشترط علىالمسيحيين تقديم الأضاحي للآلهة . كان البابا **فابيان** (الذي خلف البابا أنتيروس) من الشهداء الأوائل . تعذر بعدها انتخاب بابا جديد لمدة ثمانية عشرة شهراً . وتزايد عدد المرتدين ، لأن الاضطهادات أثيرت على أساس محاولة تلافي «خلق الشهداء» . ولكنهم كانوا موجودين بالرغم من ذلك .

لحسن الحظ ، توقفت الاضطهادات عام ٢٥١ . وجلس **كورنيليوس** على العرش البابوي ، لكن الكاهن **نوفاتيان** ، أعلن في الوقت ذاته تقريباً نفسه بابا مضاداً . تمم نوفاتيان إنشقاقه بعقيدة ، معلناً أن كورنيليو سقط في خطيئة التسامح مع الشر . وهكذا نواجه مجدداً صراعاً بين البابا ممثل الإتجاه الواقعي ، وبين نصير متطلبات الطهارة المطلقة ، التي يبدو أنها لم تكن لدى نوفاتيان سوى غطاء وذريعة لمحاربة البابا . وقد أدان آنذاك المجمع الكنسي الذي دعى كورنيلوس لإنعقاده في روما ، نوفاتيان .

أصدر الإمبراطور **غالوس** عام ٢٥٢ مرسوماً طالب فيه جميع مواطني الإمبراطورية بتقديم القرابين للآلهة ، بغية استعطافهم لوقف الوباء الذي أهلك المدن . أدى تطبيق المرسوم إلى إثارة موجة جديدة من الإضطهادات . توفي كورنيليوس في المنفى ، كما نُفي خلفه **لوسيوس** أيضاً ، لكنه عاد إلى **روما** فيما بعد عندما ألغى فاليريان الإضطهادات في بداية عهده . جاء بعد ذلك الباباوان **اسطيفيان** **وسيكستوس** الثاني .

سرعان ماقام فاليريان بتغيير موقفه بعد أن تعاطف مع المسيحيين في بادئ الأمر . وفي عام ٢٥٧ أصدر مرسوماً أثار بموجبه موجة جديدة من الاضطهادات . كان وزير المال في عهد فاليريان رجل يدعى **ماكرون** ينتمي لطائفة وثنية سرية ، يكنُّ كراهية لاحدود لها للمسيحيين . وكانت خزانة الدولة خاوية مما أدى إلى تفاقم مشكلة التضخم . فاقترح ماكرون على الإمبراطور فكرة دعم الخزانة بمصادرة الممتلكات الكنسية .

وكانت الضربة موجهة من خلال المرسوم إلى مسؤولي الجماعات الكنسية ومساعديهم أساساً . بُوشر بنهب الممتلكات الكنسية . وتم دفن عدد من المسيحيين المختبئين في السراديب أحياءً أثناء مصادرة المقبرة . والشاب ترسيسيوس الذي كان ينقل رقاقات القربان المقدسة

للسجناء من المسيحيين لقي مصرعه .

أصدر الإمبراطور عام ٢٥٨ مرسوماً جديداً اقتضى تشديد العقوبات . داهمت الشرطة الإمبراطورية السراديب ، وباغتت البابا سيكستوس وهو يقيم القداس ، وهناك نُحِرَ . وقتل معه عدد من الشمامسة ، أولهم لورانس ، الذي استشهد بالشي على شبكة محمرة من الحديد ، لأنه قام بتوزيع أموال الكنيسة على الفقراء بدلاً من تسليمها للسلطات .

تعذر انتخاب بابا جديد لمدة سنة كاملة . وبعد ان وقع فاليريان في الأسر البارثي ، قام خلفه **غالينوس** بالغاء المرسومين المذكورين . ترافق هذا بإعادة الممتلكات المصادرة إلى الكنائس ، وتوجيه رسائل رسمية للأساقفة . لاشك بأننا نستطيع اعتبار تصرف غالينوس هذا بمثابة أول اعتراف بحقيقة وجود الكنيسة . تلت ذلك فترة أطلق عليها بعض المؤرخين اسم «السلم الصغيرة» . وفي ذلك الحين ، اعتباراً من عام ٢٥٨ وحتى عام ٣٠٣ - أي حتى لحظة وقوع اضطهادات **ديوقلتيانس** - لم تحارب الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية عملياً ، على الرغم من بقاء كافة القوانين الصادرة ضد المسيحيين نافذة المفعول ، وهذا ماأدى إلى قيام بعض الإضطهادات المحلية مرة بعد مرة . أتاحت فترة السلم للبابا **ديونيزي** فرصة تنظيم الكنيسة الرومانية ، فأنشأ خمساً وعشرين أبرشية أوكل رعايتها للكهنة . وكتب رسالة إلى أسقف **قيصرية** قبدوقية ليشد من أزره في محنته القاسية التي سببها الغزو القوطي . مارس الباباوات الذين جاؤوا بعده نشاطهم في أجواء من الحرية النسبية ، وهم : فيليكس ، **يوتيشيان** ، **كايوس** ، **مارسيلين** . فنشأت كنائس جديدة . وتواجد العلماء المسيحيون في محيط الإمبراطور .

لم ينبئ اعتلاء ديوقلتيانس عرش الإمبراطورية عام ٢٨٤ بالخطر المقبل . فقد انهمك الإمبراطور الجديد خلال السنة الأولى من حكمه في إعادة تنظيم الإمبراطورية . وقد كتب **كوشران** في هذا الصدد قائلاً : «في ظل حكم ذلك الإمبراطور - الجندي ، كانت الإمبراطورية بأكملها تعامل كمعسكر هائل» . انحدر ديوقلتيانس من طبقات «المجتمع الدنيا» ، ويقال بأنه ابن لعبد معتوق . لم يكن له مثلٌ أعلى في الحياة سوى الإرادة الصلبة والرغبة في تقوية الامبراطورية وترسيخ نفوذ الإمبراطور .

كانت الامبراطورية لاتزال مهددة من جميع الجهات : الفرس في الشرق ، والجرمان في الشمال ، وانتفاضة الزراع اليائسين في غالة ، وتمرد **الكابيليين في موريتانية** ، وظهور مطالبين بالعرش ممن رفعهم الجيش في كل من **مصر** وبريطانية . لم يكن في وسع رجل واحد تحمل مسؤولية كل ذلك ، ولذلك قام ديوقلتيانس بعد عام واحد من توليه العرش بتعيين **مكسيميان** مساعداً له ، وأوكل إليه المقاطعات الغربية من الامبراطورية . بينما اهتم بنفسه بأمور الشرق ، وبهذا الهدف نقل العاصمة إلى **نيقوديمية** . اكتسب بلاط الامبراطور خصائص

البلاطات الشرقية ، وراح يشبه بلاط الشاه الفارسي . وقد ظهرت في البلاط مراسيم معقدة .

قام كل من الحاكمين عام ٢٩٢باختيار مساعد لنفسه : **ديوقلتيانس ــ غاليريوس ، ومكسيمان ــ كونستانسيوس كلوروس . فارتفع عدد الأباطرة إلى أربعة .**

بعد تقاسم السلطة في الدولة ، صبَّ ديوقلتيانس اهتمامه على الجيش ، وعندئذ حدث الصدام الأول مع المسيحيين . فقد رفض جنود الفيالق المسيحيين الذين لم يكن عددهم قليلاً على مايدو ، تقديم القرابين للآلهة . وكان الثمن الذي دفعه معظمهم هو التجريد من الرتبة العسكرية ، والإبعاد من صفوف الجيش ؛ ولم يخلُ الأمر من الضحايا .

يرجح أن يكون ديوقلتيانس قد باشر بإضطهاد المسيحيين ، بتحريض من **غاليريوس السفاح** ، وهذا الاضطهاد هو الأفظع بين اضطهادات القرون الثلاثة الأولى ، ومما زاد في وحشيته وهمجيته ، انفجاره المباغت بعد أعوام من الهدوء ، اعتاد المسيحيون خلالها على الجهر بإيمانهم وعدم اخفائه . أصدر الامبراطور خلال عام واحد (٣٠شباط ٣٠٣ ـ ٣٠٤) أربعة مراسيم خاصة مناهضة للمسيحية . حظر الأول العبادة ، وطالب بمصادرةالكتب المقدسة ، وهدم المعابد . وأمر الثاني بإلقاء القبض على «رؤساء الكنائس» . وسمح الثالث بالإفراج عن المعتقلين شريطة أن يقدموا القرابين للآلهة . وألزم الرابع جميع مواطني الامبراطورية تحت طائلة التعذيب والموت ، أو النفي إلى المناجم ، الذي كان يعادل الموت ، بتقديم أضاحي علنية للآلهة .

كانت الاضطهادات في **روما** دموية إلى أبعد الحدود . فلم تعد السراديب تحمي أحداً بعد أن تعرفت الشرطة الامبراطورية على مواقعها . ولابد من أن عدد الضحايا كان هائلاً . توفي البابا **مارسيلين** في فترة الإضطهادات ، ولو أنه ليس بسببها على مايدو .

واستوجب الأمر انتظار أربعة أعوام لإختيار خلف له . أما بين الضحايا الكثيرة فقد كان موت طفلة في الثانية عشرة من العمر الأكثر إثارة للمشاعر . حظيت هذه الطفلة التي تدعى **آغاتا** بتكريم غير معهود في القرون المسيحية الأولى كرمز للطهارة البطولية . وفي يوم عيدها (الحادي والعشرين من كانون الثاني يبارك في ا لباسيليقا المكرسة لذكراها حملان ، ومن صوفهما ينسج رمز السلطة المتربوليتية .

بلغ مسامع المواطنين على نحو غير متوقع تماماً ، في اليوم الأول من آذار عام ٣٠٥ ، نبأ مذهل : تنحى معاً عن السلطة الإمبراطورية كل من ديوقلتيانس ومكسيميان ، متذرعين بتقدمهما في السن . بينما اختار الامبراطوران المتبقيان (أصبح غاليريوس الرئيس الأكبر) مساعدين لنفسيهما : اختار غاليريوس لنفسه **مكسيمان داي** ، واختار كلوروس مساعداً في شخص سيفيرا . بعد توقف قصير ، استلم خلاله الحكام الجدد مهامهم ، أعلن غاليريوس ومكسيميان حرباً شعواء على المسيحيين في المقاطعات التابعة لهما . أما في الغرب فقد سادت

مرحلة من الهدوء النسبي ، واتضح أن كلوروس إنسان متسامح ، ومن يدري إن لم يكن خفية متعاطفاً مع المسيحيين . ولّما توفي عام ٣٠٦ بايعت الفيالق في الغرب ابنه **قسطنطين** قيصراً . وافق غاليريوس على **قسطنطين** لكنه اعترض على سيفيرا . وفي الوقت ذاته ظهر مطالبان آخران بالعرش ، هما : مكسيميان العجوز ، الذي تعطش للسلطة مجدداً وابنه **مكسينسيوس** وهكذا أصبح عدد القياصرة ستة عوضاً عن أربعة .

اختار غاليريوس امبراطوراً آخر في الشرق هو **ليسينيوس** . بينما ثبت **قسطنطين** مواقعه في غالة . أما في **روما** فقد مارس السلطة مكسينسيوس بمشاركة والده أول الأمر ، ومن ثم بمفرده بعد إزاحة مكسيميان .

بحث مكسينسيوس الذي لم يعترف به غاليريوس عن حلفاء . ولذلك عرض على المسيحيين في **روما** التسامح الديني . علماً أنَّ حدة الإضطهادات في منطقة **روما** كانت قد تراجعت بعض الشيء قبل ذلك الحين . أمكن انتخاب بابا جديد هو **مارسيل** . أعيد بناء الأبرشيات ، وتم فتح المقابر . ولكن نزاعاً جديداً تفجر حول قضية الموقف من الرسل ، مما أدى إلى حدوث بعض الإضطرابات داخل الجماعة المسيحية ، وتدخل الشرطة ، واعتقال البابا الذي نُفي وتوفي في المنفى . انتخب **يوسيبوس** خلفاً له . وظهرت مجدداً الخلافات بين أنصار الصرامة ، المتطرفة ، وأنصار الرأفة ، أسفرت بالنتيجة عن نفي يوسيبوس إلى صقليا ، حيث توفي . وبعد عامين من الإنقطاع انتخب **ميلكياس** لمنصب البابا . وهو الذي تلقى من مكسينسيوس أمراً أعيدت بموجبه «الأماكن الكنسية» للكنيسة .

ـ الإسكندرية

سنرى الآن المجرى الذي اتخذته أحداث القرن الثالث في مختلف مقاطعات الإمبراطورية . تعطلت أعمال مدرسة الإسكندرية لبضعة أعوام بعد فرار **كليمنس (كلمنت)** . وقام بإحيائها مجدداً رجل فاق معلمه برجاحة العقل ، هو **أوريجين** ، الكاتب الذي تركت مؤلفاته بصماتها على كامل اللاهوت الإغريقي .

ولد أوريجين من أبوين مسيحيين . وسقط والده **ليونيداس** ضحية لإضطهادات عام ٢٠٣ . أما أوريجين الشجاع والمفعم بالحماس ، فكاد أن يسلم نفسه للمضطهدين كمسيحي لولا تدخل والدته . عمل أوريجين بعد استشهاد والده معلماً ، لإعالة أسرته المتعددة الأفراد . وشجعه **ديمتريوس** أسقف الإسكندرية على الاهتمام بالتعليم الديني ، لكن أوريجين لم يستمر طويلاً في امتهان التعليم الديني الأساسي ، بل عكف على دراسة فلسفية معمقة . تتلمذ لفترة من الزمن على يد **أمونيوس** أستاذ الفلسفة الأفلاطونية ، الهندوسي

الأصل ، والمسيحي على الأرجح . ثم كلفه الأسقف **ديمتريوس** بإدارة مدرسة الإسكندرية . أسفر النشاط الذي مارسه أوريجين عن نتائج باهرة ، وخاصة في مجال الأبحاث المتعلقة بدراسة الكتاب المقدس . فطاقات هذا الرجل هائلة ، ومقدرته مذهلة . كان يُكلّف يومياً سبعة أشخاص لكتابة مايمليه عليهم . وأنجز كتابة مايربو على ستمائة عمل . يُعَدُّ مُؤَلَّفُهُ «عن القواعد» بمثابة أول بحث لاهوتي شامل في الكنيسة .

لإتمام أبحاثه الخاصة بالكتاب المقدس ، سافر أوريجين مراراً إلى فلسطين ، للقاء صديقه الأسقف ألكسندر في أورشليم . وفي عام ٢٣٠ رُسم كاهناً على يد **ثيوكتيست أسقف قيصرية** ، لكن هذا الحدث أثار حفيظة **ديمتريوس** وعدم رضاه . فأوريجين في ثورة حماسه الزهدي ـ الديني طالب بالرسامة ، واعتبر الأسقف ديمتريوس أن هذا يجعله غير مستحق لنيل سر الكهنوت ، وأمره بمغادرة **الاسكندرية** . فمضى أوريجين إلى **قيصرية** ، وأسس هناك مدرسته الخاصة . اكتسب نشاطه العلمي شهرة واسعة . وقد استدعته **جوليا دومنا زوجة سيتيميوس سيفيرا ووالدة ألكسندر** سيفيرا إلى **انطاكية** لخوض نقاشات علمية معه . راسل عدداً كبيراً من الناس ، ومن بينهم الإمبراطور فيليب (الذي يحتمل أنه كان مسيحياً) ، والبابا **فابيان** . وفي عام ٢٥٥ خلال فترة اضطهادات **ديسيوس**، اعتقل أوريجين وتعرض للتعذيب . توفي في صور بعد ذلك بفترة وجيزة .

كان **أوريجين** قبل كل شيء ناقداً فذاً للكتاب المقدس ، ومدافعاً مفعماً بالحماس . اما في مجال اللاهوت فقد ابتكر نظامه الخاص به ، والمقلق بعض الشيء ، لأنه متمم ببعض التأملات المعتمدة على افتراضات مستعارة من الأفلاطونية . كما أن له خدمات جليلة في مجال تفسير الكتاب المقدس ؛ فقد كان من أنصار التيار القائل بأن لجميع الكلمات في الكتاب المقدس معانيها الخفية ؛ وغالباً ما أعار استشفاف تلك المعاني اهتماماً أكبرمن الوقوف على الحقائق التاريخية .

أضحت **مدرسة الإسكندرية** أكثر فأكثر مدرسة كنسية . وعلى الرغم من انها كانت لاتزال تحتفظ بعدد من كبار المفكرين ، بدات تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً . و من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك : تكرار الإضطهادات ، والخلافات على صعيد العقيدة ، وانتشار الأوبئة في الإسكندرية مرة بعد مرة . هبطت اضطهادات **ديسيوس** عام ٢٤٩ على الإسكندرية بكل ثقلها وتمكنت من سحق إرادة المسيحيين . وقد أفقد التعلق الشديد بالمال ـ الذي تميزت به هذه المدينة ـ سكانها المسيحيين قدرتهم علىالمقاومة . أنقذ أسقف المدينة **ديونيزي** نفسه بالفرار إلى الصحراء ، حيث بلغه النبأ مسبقاً . ولّما تمكن من العودة إليها عام ٢٥٣ ، برزت في كنيستها القضية ذاتها التي أثارها في حينه نوفاتيان في روما ، وهي قضية المرتدين الذين

أبدوا رغبة في العودة إلى أحضان الكنيسة . ارتأى ديونيزي أن يطالبوا بتوبة وتكفير معتدلين . هبت عام ٢٥٧ رياح جديدة من الإضطهادات ، ونفي ديونيزي إلى مستوطنة وثنية في ليبيا تدعى **كيفرو** . وكانت نتيجة ذلك أن نشأت في المستوطنة المذكورة جماعة مسيحية بسرعة البرق . ولّما عاد إلى الإسكندرية عام ٢٦٠ واجهه أحد الأساقفة بتهمة الجبن . فردّ ديونيزي على التهمة بدفاع مشبع بروح الإعتزاز والكرامة .

تفجرت في مرحلة الهدوء النسبي نزاعات جديدة على صعيد العقيدة . فقد طرح الأسقف **نيبوس** من Arsinoe أفكاراً جديدة فيما يتعلق بالعقيدة الألفية . واستطاع ديونيزي بالمودة والتهذيب اقناع أنصاره بالعدول عن نظرياتهم . وبعد أعوام قليلة أثير خلاف جديد أكثر جدية ، حيث أُعلن في **بينتابول** عن عقيدة تمحو الفوارق بين أقانيم الثالوث الأقدس ، مما اضطر الأسقف للتصدي لهذه العقيدة ، ولكن **روما** اتهمته بالوقوع في الخطأ النقيض ، الذي يتلخص في الفصل المبالغ به مابين الأقانيم الثلاثة وهذا ماأرغمه على دفاع جديد . لابد هنا من أن نردد مع المؤرخ **دانيلو** بأن «نهاية القرن الثالث مرحلة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ عقيدة الثالوث . فقد تطاحنت محاولات على مستوى متماثل من عدم الكمال ، للتعبير بأسلوب ملائم عن المعطيات الإنجيلية وما أوردته التقاليد» .

كان ديونيزي - بالرغم من التهم الموجهة إليه - واحداً من أشجع أساقفة الإسكندرية أو إن صحّ القول ، بطاركتها . لأن نفوذ أسقف الإسكندرية اتسع ليشمل كامل مصر ، والكثير من المقاطعات الأسقفية .

ظهرت أولى الكنائس - المباني المكرسة للعبادة - في مصر ، في أواخر القرن الثالث ، وقد شيدت بأسلوب مميز للعبادة . وإحداها ، هي باسيلقيا الإسكندرية التي شيدت في عهد الأسقف ثيوناس . قُسّمَتْ الإسكندرية إلى أبرشيات . وأوكلت إدارة واحدة منها ، هي **باوكاليس** إلى الشيخ **أريوس** الذي سنتعرف عليه عمّا قريب . كان معظم المسيحيين في **مصر** حتى ذلك الحين من مواطنيها الهلنستيين ؛ ولكن بعد ان بدأت الكنيسة بالإنتشار في الريف ، انضم إليها عدد متزايد من الأقباط ، وهم من السكان المحليين . وفي **مصر** ظهر أول المتنسكين الذين فرّوا إلى الصحراء بحثاً عن لقاء ربهم .

بعد مرحلة طويلة من الهدوء ، أضحى مرسوم ديوقلتيانس فاتحة دورة جديدة من الإضطهادات الوحشية المتكررة . يتحدث **يوسيبوس** في مؤلفه «تاريخ الكنيسة» عن موت عشرة آلاف وسط آلام «يثير مجرد وصفها رعشة» . وصعَّد مكسيميان من حدة الإضطهادات ، مبدياً وحشية خاصة تجاه النساء والفتيات . وقد لقي أسقف **الاسكندرية** بطرس حتفه أثناءها .

ـ افريقيا الغربية

تأرجحت **مصر** والإسكندرية بإتجاه الشطر الشرقي من الإمبراطورية الرومانية ، بينما مالت افريقيا وقرطاجنة إلى الشطر الغربي . وكان عود المسيحية قد صلب هنا منذ النصف الأول من القرن الثالث ، ولعب أسقف قرطاجنة دور متروبوليت ؛ وانتشرت حوله في افريقيا ، وفي نوميديا وموريتانية بضع مئات من المواقع التي كان لكل منها أسقفها (وُجدت بعض القرى التي كان لها أساقفة) .

لكن المواقف الأخلاقية للمسيحيين الأفارقة لم تكن واعدة على مايبدو ، مادام القديس **سيبريان** أسقف قرطاجنة منذ عام ٢٤٩ قد كتب عن خرافه قائلاً «لايفكر أي منهم سوى بجمع الثروة . . . الوَرع والتقي معدومان في أوساط الكهنة ، ولاطهارة في إيمان الأساقفة ، أعمال الرحمة معدومة ، وكذلك القواعد الأخلاقية» .

أما سيبريان فكان إنساناً مختلفاً عنهم ـ ولاشك بأن أمثاله لم يكونوا ندرة . انحدر من أسرة وثنية ، واعتنق المسيحية بعد تردد طويل . ورُسم كاهناً بعد ثلاثة اعوام من خضوعه لطقوس المعمودية . تميز بالصرامة والنشاط ، ولكن دون غضب وانفعال .

ما أن أصبح أسقفاً في قرطاجنة ، حتى جاءت الاضطهادات التي أثارها مرسوم ديسيوس . وعندئذ كتب سيبريان : «يريد الله أن يجرب عباده ، لأن فترة السلم الطويلة جعلتهم ينسون طاعة الله» . لكن المسيحيين في قرطاجنة لم يكونوا مستعدين لهذا الإختبار الدموي ، ولذلك وقعت حوادث ارتداد جماعية . ووقف الأسقف سيبريان أمام أحد خيارين : الموت او الفرار . وقرر الفرار مفكراً بمستقبل أبرشيته المدمرة . وقد كتب جاكوين في هذا الصدد قائلاً :«كان هذا عملاً شجاعاً : فمن الأيسر تقبل الموت السريع ، وإن كان عنيفاً ، بدلاً من تحمل الواجب المقرون بالآم خفية وطويلة» .

حدثت بعض المؤامرات في غيابه . «فالمجاهرون» ، أي المؤمنون الذين اعتقلوا أثناء الإضطهادات ، وحالفهم الحظ بإطلاق سراحهم بسلام بعد توقف الإضطهادات ، خضعوا لغطرستهم ـ مستغلين دورهم «البطولي» ـ وراحوا يقررون مَنْ من المرتدين الراغبين في العودة إلى أحضان الكنيسة ستغفر له خطيئته . كان هذا تدخلاً في شؤون الأسقف وتعدياً على صلاحياته ، حيث أنه هو الذي يحدد عادة ضرباً من التكفير والتوبة ـ في مثل هذه الحالات . ولّما عاد سيبريان إلى قرطاجنة ، دعى لانعقاد مجمع كنسي ، تقرر خلاله الموقف الذي يتوجب إتخاذه حيال المكفرين (التائبين) ، وتميز هذا الموقف بالعدل والرحمة . تمت دراسة كل حالة بصورة مستقلة . وغُضَّ الطرف عن الحالات التي تمت الردة فيها تحت خطر الموت ، أما

رجال الدين الذين ارتدوا ، فلم يسمح لهم بالعودة لممارسة صلاحياتهم حتى بعد انقضاء فترة التوبة . وكانت هذه الممارسات شبيهة بالتي اتُّبِعَتْ في روما .

لم تضع عودة سيبريان إلى قرطاجنة حداً للإنشقاق الذي بدأ يتعمق . ودعى خمسة من الأساقفة لانعقاد مجمع كنسي ، حاولوا من خلاله عزل سيبريان عن منصبه ..

أصيبت قرطاجنة في اللحظة التي جرت فيها هذه الأحداث بوباء الطاعون الذي استمر لمدة عامين . سيطر الرعب علىالسكان ، وهبّ سيبريان بنشاطه المعهود لتنظيم عملية الإغاثة . وكان المسيحيون الذين ترأسهم ملزمين بمد يد العون للوثنيين أيضاً ، دون الإكتراث بقيام الوثنيين ومطالبتهم السلطات بإضطهاد المسيحيين الذين اعتبروهم سبب الوباء الذي حلَّ بالمدينة .

أدى الحماس الذي مارس فيه سيبريان نشاطه الإجتماعي خلال عامي الوباء إلى زيادة نفوذه . وأصبح أسقف قرطاجنة رئيساً فعلياً لأساقفة افريقيا الغربية ؛ ولم يتردد المؤمنون في غالة واسبانيا في استشارته والأخذ بآرائه . تزايد نفوذ سيبريان وبلغ حداً دفع أسقف قرطاجنة المدعوم من مجمع الأساقفة الأفارقة ، لمعارضة البابا **اسطيفان** مرتين .

تعلقت القضية التي أثارت هذا الخلاف بالشكوك القائمة حول موضوع الإعتراف بشرعية المعمودية الممنوحة من قبل الهراطقة . عارضت افريقيا الاعتراف بمثل هذه المعمودية بينما اتخذ البابا والكنيسة في المناطق الأخرى موقفاً مغايراً . سمح سيبريان المجاهد الكبير في سبيل وحدة الكنيسة ، لنفسه بالإنجراف مع الرأي الإجماعي لأساقفة افريقيا . وأيده في موقفه هذا **فيرميليان** أسقف **قيصرية** في قبدوقية . حاول ديونيزي أسقف الإسكندرية لعب دور الوسيط في النزاع . ولكن البابا **اسطيفان** الحازم في مواقفه ، تسرع للأسف في القاء الحرم الكنسي على أساقفة أفريقيا .

توفي البابا اسيطفان بعد فترة وجيزة ، وانفجرت في الآن ذاته اضطهادات فاليريان . ألغى خلف **اسطيفان** البابا **سيكستوس** الثاني «المسالم الصالح» الإنشقاق . سُمِحَ لأفريقيا بالبقاء على عادتها لفترة من الزمن ، وظلت الأمور على هذا النحو حتى عام ٣١٣ ، حيث تقبل الأفارقة التقليد الروماني في المجمع الكنسي المنعقد في **أرليس** .

اضطر سيبريان لمغادرة أبرشيته نتيجة اضطهادات فاليريان ، وظل يدير أمور كنيسة قرطاجنة من منفاه في قرطبة . نُقِلَ عام ٢٥٨ إلى قرطاجنة ونُفذ فيه حكم الإعدام . واستمرت الإضطهادات الدموية لعام كامل . استشهد عشرة من الأساقفة الثمانين الذين شاركوا في أعمال المجمع الكنسي المنعقد عام ٢٥٦ . تنعمت كنيسة قرطاجنة في الفترة الواقعة مابين هذا الاضطهاد واضطهادات ديوقلتيانس بالهدوء ، الذي أفقدها للأسف تماسكها

الداخلي وقوتها . وسوف تستمر الإضطهادات من عام ٣٠٣ حتى عام ٣٠٥ ، وستكون حصيلتها أعداد كبيرة من الضحايا ، وعدداً أكبر من المرتدين .

ـ غالة واسبانيا

معلوماتنا عن المسيحية في غالة خلال القرن الثالث ضئيلة ، وهي لاتكاد تتعدى معرفة أسماء بعض الشهداء الذين سقطوا في سبيل إيمانهم ، ومنهم : **إيرينيوس** ، **أنديول** ، **فيّرول** ، **ساتورنين** ، وغيرهم . وبصورة عامة ، تفادى مسيحيّو غالة اضطهادات ديوقلتيانس ، لأن **كونستانسيوس كلوروس** كان حاكماً لها ، وهو معروف بتسامحه . كما وصلتنا إشارات إلى وجود ست عشرة كنيسة غاليّة في مطلع القرن الرابع .

أما في اسبانيا ، فيبدو وكأن المسيحيين لم يتعرضوا للإضطهاد حتى القرن الثالث . وفي أواسط هذا القرن ترد أنباء عن عدد الشهداء ، وعن حدوث عدد من الردات الهامة . ثم نسمع عن مجمع انعقد في **إلفير** عام ٣٠٠ على الأرجح . أما في عام ٣٠٣ فقد تفجرت موجة من الإضطهادات الوحشية العنيفة ، ولكنها سرعان ماتوقفت ، لأن اسبانيا ألحقت عام ٣٠٥ بالمناطق الخاضعة لحكم كلوروس .

ـ الشرق

تعرضت المقاطعات الشرقية في القرن الثالث لأعنف الإضطهادات ، ولاشك بأن السبب في ذلك هو إنتشار المسيحية فيها على نطاق أوسع بكثير مما كانت عليه الحال في الغرب ، الذي لم يشكل فيه المسيحيون سوى جماعات محدودة العدد .

أضحت **قبدوقية** آنذاك أحد أهم مراكز الحياةالمسيحية . وأدت سلسلة من الكوارث الطبيعية التي حدثت هناك في القرن الثالث ، إلى تفاقم الوضع وتعميق الكراهية التي شعر بها السكان الوثنيون نحو المسيحيين . ثم دمرّ الغزاة القوطيون ذلك الجزء من آسيا الصغرى . لكن هذا الغزو عاد ببعض الفائدة علىالمسيحية ، فقد حمل عددٌ من الأسرى الذين اقتادهم الغزاة معهم ، بذورها لغرسها بين الجرمان .

انتشرت المسيحية في **بونت** أيضاً ، ويعود الفضل في ذلك أساساً إلى **غريغوري** الملقب بصانع المعجزات . اهتدى الفيلسوف الوثني الشاب **غريغوري** بعد لقائه مع **أوريجين** . ورسم أسقفاً ل**قيصرية** الجديدة في بونت ، حيث حوّلها من مدينة لم يكن فيها سوى سبعة عشر مسيحي ، إلى مركز قوي للمسيحية . وقد نصح **غريغوري** «خرافة» خلال إضطهادات ديسيوس بالفرار ، ولجأ معهم إلىالغابات .

اعتبرت **انطاكية** نفسها العاصمة الأولى للمسيحية ـ وشكلت فعلاً أكبر تجمع للمسيحيين إلى جانب الإسكندرية . ذاع صيت **بابيلاس** أسقف **انطاكية** الذي منع عام ٢٤٤ الامبراطور **فيليب العربي** من دخول الكنيسة (الذي يحتمل أنه كان مسيحياً) ، لأنه استولى على السلطة بعد مقتل **جورديان** وتراجع الإمبراطور أمام شجاعة الأسقف .

ترأس **بولس الساموساطي** أسقفية **انطاكية** عام ٢٦٦ ، الذي حظي برعاية **زنوبيا** ملكة تدمر[1] . وأصبح وزير الخزانة لديها ، وقد تركز اهتمامه على منصبه هذا أكثر من واجباته كأسقف . كانت الآراء التي نادى بها بولس إنشقاقية إلى حد دفع أسقف **قيصرية** فيرميليان بالدعوة لعقد مجمع كنسي في **انطاكية** عام ٢٦٤ ، ومطالبة الأسقف بولس بتبرير آرائه . تمكن بولس من الدفاع عن نفسه وإثبات براءته ، ولكن بالرغم من ذلك قرر مجمع آخر انعقد عام ٢٦٨ عزله من منصبه . رفض بولس المدعوم من زنوبيا التنازل عن منصبه . وحدث أمر مذهل ، فقد احتل الامبراطور أوريليان عام ٢٧٢ **انطاكية** ، فطلب اليه المسيحيون عزل الأسقف الذي أصدر المجمع الكنسي في حينه قرار عزله ، وتعيين **تيميوس** بدلاً منه . فاتخذ أوريليان قراراً يتلخص بأن الأسقفية من حق «مَنْ عينه أساقفة ايطاليا» ـ وقام بتنحية بولس . يُنظر عادة إلى هذه القضية على أنها اعتراف من قبل الامبراطور بأولوية كنيسة روما . أما في الحقيقة فيجب أن نتذكر بأن أوريليان كان على خلاف مع الإنفصاليين الشرقيين ، وانطلاقاً من ذلك كان فَرْضَ هيمنة **روما** على أساقفة الشرق في مصلحته .

تزايدت أهمية **انطاكية** كمركز للحياةالفكرية ، وقد نافست الإسكندرية على هذا الصعيد . ومن أشهر علماء **انطاكية لوسيان** ، المفسر القدير ولكنه للأسف ابتدع نظرية خاطئة فيما يتعلق بشخص المسيح ، عمد تلميذه **آريوس** على نشرها والدعوة لها فيما بعد . توفي في سبيل إيمانه كشهيد بطل .

أما في **فلسطين** ـ إضافة إلى الجماعة اليهودية ـ المسيحية على ضفة نهر الأردن والمشار إليها آنفاً ـ فقد تزايد عدد الكنائس التي انضم إليها اليونانيون والسوريون ، في كل من **قيصرية وصيدا** وصور **وطرابلس** . وكانت أشهرها كنيسة **قيصرية** التي ظلت على علاقة وثيقة بالإسكندرية . اكتسب **بمفيليوس** البيرتي تلميذ أوريجين في **قيصرية** شهرة عالم كنسي كبير . وفي (القدس) ، كان **نرسيسوس** ذو المئة وستة عشر عاماً أسقفاً عام ٢١١ . ولّما جاء ألكسندر من قبدوقية إلى أورشليم حاجّاً ، طلب إليه سكانها البقاء في المدينة كمساعد للأسقف العجوز . ظل ألكسندر في أورشليم وأصبح أسقفاً لها لردح من الزمن ، وهو الذي

---

(١) ـ تأسست في القرن الثالث بين **روما** ومملكة الساسانيين أول دولة عربية في تدمر . كان سكان تدمر من الآراميين ، وحكامها عرباً . أول حكام تدمر هو أودينات Odenat ، وكان ابنه أودينات الثاني حليفاً لروما ، وحمل لقب ملك . أما زوجته زنوبيا فقد اختلفت مع **روما** بعد موته .

رسم أوريجين كاهناً .

وفي **نيكوبوليس** (عمواص في الكتاب المقدس) استقر وأبدع لأعوام طويلة رجل ذو شخصية طريفة ، هو الكاتب والرحالة والطبيب والفيلسوف والمؤرخ بآن واحد - **يوليوس** الافريقي . وهو مؤلف أول موسوعة .

· تلازم تطور الحياة الثقافية في المقاطعات الشرقية مع تطور الكنيسة فيها ، حيث كانت لاتزال تنعم بمرحلة «السلم الصغيرة» . ولذلك أضحت اضطهادات ديوقلتيانس تجربة مريرة للمسيحيين في هذه المقاطعات . بدأ الامبراطور اضطهاداته الوحشية التي امتدت من **بانونيا** حتى حدود **أرمينيا** ، الدولة التي شكل فيها المسيحيون غالبية السكان ، والتي نزفت دماً من جراء الاضطهادات . برهن نائب ديوقلتيانس وخليفته ، غاليريوس عن وحشية فاقت كل التصورات . لّما تنحى ديوقلتيانس عن العرش ، تابع غاليريوس أعمال الإضطهاد . ولم تقتصر هذه الإضطهادات على أنها الأعنف عبرالقرون الثلاثة الأولى ، بل استمرت لأطول فترة في الشرق . لم يصدر غاليريوس مرسوم التسامح الديني إلا في عام ٣١١ وهو مُقعد بمرض مميت . وقد اختتم المرسوم بالعبارات التالية : «يتوجب عليهم (أي على المسيحيين). مقابل عطفنا أن يتضرعوا لإلههم من أجلنا ، ومن أجل الإمبراطورية ، ومن أجل أنفسهم ، أن تبقى الجمهورية بعيدة عن المخاطر ، ليتمكنوا من العيش بأمان في منازلهم» .

توفي غاليريوس بعد أيام من صدور المرسوم . وباشر مكسيميان أعمال الإضطهاد بعد موته مجدداً . لكن أيامه كانت معدودة أيضاً : فبعد أن اختلف مع ليسينيوس ، هُزِمَ من قبله ، ويحتمل بأن يكون قد انتحر . وقبل ذلك ، اصدر بدوره مرسوماً أعلن فيه التسامح الديني .

أثبتت المسيحية أنها لاتُقْهَرْ ، علماً أن الإضطهادات المرهقة والطويلة الأمد ، التي جاءت بعد نصف قرن من الهدوء ، أدت إلى تجاوز عدد المرتدين لأعداد الشهداء بكثير . وفي هذا الصدد يقول مارُو : «انتهت أزمنة الحماس الأول لكنيسة القديسين» . لكن الكنيسة كما يقول **داوصن** : أصبحت «أعظم قوة في ثقافة المدينة الرومانية . . . ابتكرت كتابة جديدة . . . وصنفت أسس فنٍ مسيحي جديد ، والأهم من ذلك أنها خلقت مجتمعاً جديداً ، وقف نداً للنظام الإجتماعي القائم ، وراح يزيحه إلى حدٍ ما» . توجّب على كل من أراد حكم الإمبراطورية أن يتحالف مع الكنيسة ، أو أن يعاديها ويسحقها . قرر كل من مكسيميان في الشرق ومكسينسيوس في الغرب ،تحويل الحرب إلى تحالف ، ولكنهما تأخراً . سبقهما قسطنطين . ففيالقه هي التي رفعت علامة صليب المسيح على راياتها عندما هزمت قوات مكسنسيوس قرب الجسد الميلفي . وعلى أي حال ، تشير دلائل كثيرة إلى أنَّ

قسطنطين دخل **روما** وهو لايزال وثنياً يعبد أبولو ، لكنه وثني أدرك جيداً أنه لن يصبح حاكماً للإمبراطورية بدون التحالف مع المسيحية . فأحاط بتكريم مفرط الديانة التي تصور بأنها تمنح النصر لحلفائها .

ـ مرسوم ميلانو

سحرت المسيحية **قسطنطين** واجتذبته . بعد فترة وجيزة من احتلال روما ، سافر في كانون الثاني من عام ٣١٣ إلى ميلانو ، اجتمع مع ليسينيوس حاكم الشرق . اتفق كلاهما على تحالف تُوِّجَ بزواج ليسينيوس من شقيقة **قسطنطين كونستانسيا** . وأسفر هذا التحالف عن سلام على الصعيد الديني أيضاً . «تصورنا أنه من الصواب معالجة قضية عبادة الكائن الإلهي في المقام الأول ، وهذا يعني الإعتراف بحق المسيحيين والآخرين جمعياً في اعتناق دياناتهم ، ليرأف الله المقيم في السموات بنا وبجميع أتباعنا» .

جاء مرسوم ميلانو الذي أعلنه ليسينيوس في نيقوميدية بالتسامح الديني التام والكامل . وحصلت المسيحية على حقوقها كاملة غير منقوصة على قدم المساواة مع المعتقدات الأخرى . لم يمض وقت طويل حتى بدأت تلوح في الأفق دلائل تشير إلى أن المسيحية ستكون الديانة المحببة بشكل خاص لقلب قسطنطين . سوف تتلقى جميع القطعات العسكرية الراية الحاملة للصليب ، وستظهر رموز مسيحية على المصكوكات . وسوف يُقَدَّمُ للبابا قصر أسرة اللاتيران القديم ، وهو من ممتلكات **فاوستا** زوجة قسطنطين . أعلن ليسينيوس التسامح الديني في المقاطعات الشرقية أيضاً بعد إحرازه النصر على مكسيميان .

احتفظ **قسطنطين** ـ بالرغم من دعمه المسيحية ـ بمنصبه ككاهن أعلى للدين الوثني ؛ رمم المعابد القديمة ، وبنى اخرى جديدة . وقد لايكون هذا سوى حذر سياسي . كان **قسطنطين** كحاكم للشطر الغربي من الامبراطوررية حاكماً للمناطق التي لم يكن فيها المسيحيون سوى أقلية . وفي عام ٣١٤ ، وكأنه بهدف الإقتراب في مركز الحياة المسيحية ، أرغم **قسطنطين** حاكم الشرق على التخلي عن بعض المقاطعات الأوروبية التي كانت تابعة للشطر الشرقي ، وهي : اليونان ، ومقدونية ، وإيليرية ، فنشأ خلاف بين الحاكمين ، تعمق عاماً بعد عام . وكلما اتضح تعاطف **قسطنطين** مع المسيحيين ، ضعفت ميول ليسينيوس للإلتزام بقاعدة التسامح . وفي نهاية المطاف تفجرت موجة إضطهادات جديدة في الشرق . وعندئذ شنَّ **قسطنطين** حملة عسكرية ضد ليسينيوس ، وهزمه وأودعه السجن . وفي عام ٣٢٤ أصدر أوامره بخنق السجين . وهكذا أصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية .

وضعت الجريمة المرتكبة هذا المدافع المتحمس في موقف محرج ، بالرغم من محاولات مادحي الإمبراطور لتبريرها . أما **قسطنطين** يبدو وكأنه شعر بذلك فقد زاد من تعاطفه مع

المسيحيين . فنشب خلاف بينه وبين المدافعين عن القوانين الوثنية ، وتعمق هذا الخلاف عندما قرر **قسطنطين** نقل عاصمة الدولة إلى **بيزنطة** . حيكت في **روما** المؤمرات ؛ وتورط فيها ابن **قسطنطين** كريسبوس شخصياً . فأمر **قسطنطين** بقتل ابنه كريسبوس ، ثم أصدر تعليماته بقتل زوجته فاوستا أيضاً .

أثارت هذه الجرائم حفيظة والدة **قسطنطين هيلانة** ، وعارضتها بعنف ، وهي امرأة بلغت الثمانين من العمر ، ومسيحية متحمسة . وهي التي تفرض كفارة على الامبراطور : فانطلقت المرأة المسنة بنفسها ، ولكن وكأنه باسم الإمبراطور ، برحلة إلى الديار المقدسة .

زار كثير من الحجاج أورشليم قبل ذلك الحين . لكنهم كما أسلفنا عجزوا عن تكريم مكان وفاة **يسوع** وموقع قبره ، لأنَّ هضبة الجلجلة كانت مغطاة بالمباني الوثنية . ففوق الصخرة التي سُوِّيت ، أنشئت ساحة Aelia Capitolina ؛ وأصبحت المنطقة التي كانت واقعة خارج أسوار المدينة أيام المسيح ، في مركزها . لكن ذاكرة المسيحيين من أبناء المدينة ، ظلّت حيّة ، بالرغم من انهم لم يكونوا من اليهود . فَوُجِدَ بينهم من أرشد الأسقف **مكاريم** إلى المكان الصحيح . جاءت **هيلانة** معها بأموال طائلة ـ ممتلكات فاوستا ـ مزودة بموافقة الإمراطور على اجراء كافة أعمال البحث والتنقيب . تمَّ حفرالمدينة ، وانهارت المباني المشيدة في عهد هدريان . فلاحت صخرة الجلجلة تحت الساحة المحفورة . وتم العثور علىالمكان الذي نُصب فيه الصليب ، وعلى القبر المحفور قرب قاعدة الصخرة ، وعلى ثلاثة صلبان في حفرة مردومة بالتراب . أياً من هذه الصلبان كان صليب يسوع ؟ أمر الأسقف بإحضار امرأة مريضة على فراش الموت كانت في المدينة ، ولامس كل من الصلبان الثلاثة جسدها ، ولما مسه الثالث منها بُرئت من مرضها حالاً .

أمرت **هيلانة** بتجزئة خشبة الصليب إلى ثلاثة أجزاء ، خصص واحد منها لروما ، والثاني للقسطنطينية ، والثالث لأورشليم . ثم جزئت خشبة الصليب لاحقاً إلى أجزاء أصغر . ووجد فيما بعد من تفكّه قائلاً أن الأجزاء الموجودة في العالم من الصليب كافية لتركيب عدد من الصلبان وليس واحداً فقط . أما في واقع الأمر فقد تم إحصاء جميع الأجزاء المعروفة ، وتبين بأنها لاتكفي لأكثر من تركيب صليب واحد يبلغ ارتفاعه متران ونصف المتر .

أصدرت **هيلانة** أوامرها ببناء ثلاث كنائس فوق الأماكن المقدسة المكتشفة : **كنيسة الآلام وكنيسة الصليب** ، **وكنيسة القيامة** . هُدِّمَتْ هذه الكنائس الثلاث فيما بعد من قبل **الفرس** : أما الآن فتغطي الباسيلقيا التي شيدها الصليبيون موقع الكنائس الثلاث . كما شيدت معابد على **جبل الزيتون** وفي **بيت لحم** أيضاً .

عثرت **هيلانة** على عدد آخر من الآثار المقدسة . نقلت قسماً منها معها إلى روما ،

ووجد القسم الآخر طريقة إليها فيما بعد . وتوفيت الإمبراطورة الشيخة بعد عودتها إلى **روما** بفترة وجيزة .

تعد زيارة **هيلانة** إلى **فلسطين** وإقامتها فيها نقطة إنعطاف في حياة ابنها فقد اقترب **قسطنطين** الآن من المسيحية إلى حدٍّ يجيز اعتباره مسيحياً في ذلك الحين (أما موضوع تأجيل الخضوع لطقوس المعمودية و إلى اللحظة الأخيرة و قبل الموت ، فليس بالأمر الأهم ـ لأن مثل هذه الممارسة شاعت آنذاك و بالرغم من محاربة الكنيسة لها) . وتعبر هذه الكلمات عن عواطفه : «أود حكم الشعب بسلام وبدون مراوغة ، لما فيه خير العالم بأسره وجميع الفانين . فليأخذ الذين لايزالون أسرى الأخطاء الوثنية دورهم ببهجة مع المؤمنين في سلام وأمان» .

أمر **قسطنطين** ببناء عدد من الآثار المسيحية الرائعة في **بيزنطة** التي أضحت عاصمة الامبراطورية ، وفي مقدمتها باسيليقا الحكمة المقدسة القائمة حتى اليوم (تعرف خطأ باسم كنيسة صوفيا ـ وسوء التفاهم ناجم عن ان كلمة الحكمة في اللغة اليونانية تلفظ صوفيا) ، وكنيسة الرسل القديسين التي تحتوي على ثلاثة عشر تابوت حجري Sarcophagus مزخرف للإثني عشر رسولاً ول **قسطنطين** ذاته . لكنه خصص في الوقت ذاته اعتمادات لتشييد معابد وثنية أيضاً في المدينة التي اعتبرت عاصمة للإمبراطورية منذ اليوم الحادي عشر من آيار لعام ٣٣٠ ، ومن بينها معبد الإلهة **سيريس** .

ـ الكنيسة بعد خروجها من السراديب

قبل أن نبدأ الحديث عن البوادر الأولى لحياة الكنيسة بعد تحررها من رعب الإضطهادات ، سنعود ثانية إلى الواقعة المذهلة المتعلقة في تغير دور المسيحية : فقد تحولت المسيحية من ديانة محظورة إلى ديانة مفضلة ، اعتنقها الامبراطور شخصياً ، وفرضها على الامبراطورية .

ماهي أسباب هذا التحول ؟ في نظرنا نحن المسيحيين ، يكمن السبب الأول في كون الديانة المسيحية هي الديانة الحقة . هي ديانة الإله الحقيقي ، وهي محاطة بالعناية الإلهية ، ولذلك صمدت في وجه المصاعب التي واجهتها خلال القرون الثلاثة الأولى ، بما في ذلك الصعوبات الخارجية والداخلية . نقرأ في وثائق المجمع الفاتيكاني الأول : «الكنيسة بحد ذاتها بسبب تطورها الذي اتخذ طابع المعجزة ، وقداستها اللامعهودة ، ووفرة خيراتها التي لاتنضب ـ حافز دائم للإيمان ، وشهادة دامغة على ألوهية رسالتها» .

يحدثنا انتصار الكنيسة الذي أحرزته ليس عن طريق الإنسان ، وإنما بالرغم من الضعف الإنساني ، عن ذلك الذي أوجدها وتدبر امورها . وكما يقول المثل الإسباني ، فإن الله يكتب

باستقامة على الخطوط المنحنية .

تعد معجزة حياة الكنيسة ـ لأن ماحدث خلال القرون الثلاث الأولى للمسيحية هو من المنظور التاريخي معجزة حقيقية ـ بالنسبة للمسيحيين دعامة وسنداً لهم في إيمانهم . الحقيقة أن الإيمان يتطلب ثقة بالوعد الإلهي ، لكن هذه المعجزة عون لنا في ضعفنا على هيئة براهين تاريخية .

ففي مقاطعة نائية من الامبراطورية الشاسعة التي تجاوز عدد مواطنيها الستين مليوناً ، والتي تميز أسلوب حكمها بالمرونة ، واعتنقت ديانة خاصة بها ، ظهرت ديانة جديدة ، كان أول معتنقيها أناساً بسطاء ، أميين ، اعتبروا خارجين على ديانة اخرى محلية وأصبحوا محطَّ كراهية الوسط الذي عاشوا فيه . لكنهم لم يسمحوا لأنفسهم بأن تسحقهم الإضطهادات . غادروا البلاد التي وُلدت فيها الديانة الجديدة ، وحملوها معهم نحو الغرب ، إلى المقاطعات المركزية من الإمبراطورية ، وصولاً إلى عاصمتها .

الديانة الجديدة صعبة بالرغم من مظاهر البساطة فيها . فهي لاتطالب بالمعرفة ، وإنما بتقبل نمط جديد من الحياة ، مغاير لنمط الحياة المتفسخ ، العابث في الرفاهية التي ضمنتها الإمبراطورية . لاتعترف بالديانة الرسمية ، وترفض البحث عن حلول توفيقية معها . جاءت في واقع الأمر ضمن موجة واسعة من المعتقدات الشرقية الأخرى التي أثارت اهتمام العالم الإغريقي ـ الروماني ، لكنها حافظت على موقفها المستقل خلال مسيرتها ضمن هذه الموجة . عارضت بإصرارا جميع الصيغ التوفيقية ، وتطلعت من ناحية أخرى إلى الإنفصال التام عن الشعوبية اليهودية الضيقة . وهذا الطموح إلى الاستقلال هو في الأساس شيء أعظم بكثير من الصمود في وجه الإضطهادات . فقد كان خطر تحول المسيحية إلى صيغة جديدة للديانة اليهودية ، منافسة للموسوية (كما حدث للمذهب الإيسيني المعروف من حفريات كمران) أكبر بكثير مما نتصوره اليوم . لاشك بأن النزاع بين التطلعات الجامعة للمسيحية ، وبين الميول المسيحية ـ اليهودية كان السبب في حدوث الموجات الأولى من الاضطهادات ؛ بما في ذلك اضطهادات سيبتيموس سيفيرا الذي رأى في المسيحيين طليعة يهودية ـ خلاصية شعوبية . ليست العقائد الغنوصية (الغنوسطية) بخطر أقل شأناً (البحث عن مضامين سحرية في اللاهوت) ، وكذلك الانكارتيه والأوهام الرؤوية (التي عكست الأوهام الخلاصية اليهودية الخائبة منقولة إلى المسيحية) . مزقت جميع هذه الميول الشرقية ـ ذات الطابع اليهودي جزئياً ـ المسيحية من الداخل . ومن ناحية ثانية ، كلما انغمس المسيحيون بصورة أقوى في العالم الهلنستي ، تأثر الفكر المسيحي بالفلسفة الإغريقية بصيغتها الجديدة وهي الأفلاطونية المحدثة .

تزامنت مرحلة ظهور المسيحية مع فترة تراجع الفكر الإغريقي وما رافقه من انحلال أخلاقي . لكن تيار المعتقدات الشرقية الذي كان محركاً للمسيحية ، ساعد على إحياء الفكر

الهيلنستي ، لأن المعتقدات الشرقية بدأت تتخذ صيغة فلسفة منبعثة لدى احتكاكها بالهلنستية . ففي القرن الثاني «المفلسف» والمولع بالحكمة والخطابة ، تعرضت المسيحية لخطر الإنصراف عن الحقيقة التاريخية ، والوقوع في دوامة التاملات الفكرية البعيدة عن الحياة اليومية .

لكن المسيحية لم يكن لها ان تكون مجرد فلسفة. وهذا أيضاً عامل مساعد على حدوث الإضطهادات . وجدت المسيحية خلال القرنين الأول والثاني مكاناً لها في الإمبراطورية كديانة يهودية . وليس كديانة جامعة . وفي القرن الثالث أمكن لها ان تجد مكاناً كنظام فلسفي ، وليس كديانة تضم كافة طبقات المجتمع ، لها بنيتها الخاصة الموحدة . توجب على المسيحية ان تقاوم الخطرين وتستمر في البقاء . قابل الأساقفة بما يشبه الإجماع وفي الآن ذاته **ترتليان** وهيبوبيت «المثالية» بديانة «للجميع» ، تأخذ بعين الإعتبار الضعف الذي تتميز به الطبيعة البشرية ، ولكنها مزودة بالوسائل الضرورية لإعادة بناء **الفرد** الذي سقط على الصعيد الأخلاقي .

حافظت الكنيسة على وحدتها على صعيد العقيدة ، من خلال معركة مستمرة مع هذه الصعوبات . أما على الصعيد التنظيمي ، فكانت كنيسة القرون الثلاثة الأولى كنيسة تباينات محلية كبيرة في مجال العبادة والطقوس .

ـ تنظيم الكنيسة

اعتمدت هيكلية الكنيسة على الجماعات المسيحية المنفردة ، المعروفة أيضاً بإسم الكنائس ، والتي كان مؤسسوها الأولون في معظم الأحيان الرسل أنفسهم أو أقرب مساعديهم . شكلت الجماعات جيوباً داخل كتلة السكان الوثنيين ، ولكنها بالرغم من عزلتها حافظت على الوحدة المتماسكة فيما بينها . فقد ظلَّ المسيحيون الأوائل على اتصال مستمر بيعضهم ، تبادلوا الرسائل ، واخبروا بعضهم عن شتى الأحداث . تنقل المعلمون ـ الأنبياء الجوالون بين الجماعات بصورة دائمة ، ولكن تطلب الأمر «اختبارهم» ، لأنهم كانوا أحياناً من حاملي الأفكار الخاطئة . وترتسم ملامح نوع من الثنوية بين الأساقفة ـ رؤساء الجماعات وبين الأنبياء ، ولكنها سرعان ماتزول مع إختفاء الأنبياء . فأيام المسيحية المبكرة هي عصر الكاريزمات العظيمة المتكررة : ينشط الروح القدس بصورة مباشرة من خلال بعض الناس . ولكن ما أن صَلُبَ عود الكنيسة ، حتى أضحت الكاريزمات ظاهرة نادرة . وهذا مايتكرر مراراً في تاريخ الكنيسة : فما دام المؤمنون ضعفاء ، يعضِّد الله إيمانهم بالمعجزات . ولكن عهد المعجزات المرئية ينتهي ، ولم يعد الإيمان بحاجة إلى سند وتدعيم ، ويحل تأثير النعمة

الخفية في القلوب محلَّ النعمة العلنية .

يعتقد **دانيلو** بوجود بنيتين مختلفتين عن بعضهما بعض الشيء في ا لجماعات الكنسية الأولى . ففي الشرق ، يحاط الأسقف بمجموعة من المشايخ الذين ترأسهم . وتُسيَّر أمور الجماعة من قبل هذه الجماعة بصورة جماعية إلى حد ما . أما في ا لجماعات الغربية التبشيرية ، فإن سلطة الأسقف تتخذ طابعاً فردياً . للأسقف مساعدون هم الشمامسة منفذو إرادته . تشير بعض المعلومات إلى وجود الشمامسة في الشرق أيضاً - وفي بعض الأحيان الشماسات . أما ان يكون الشمامسة آنذاك علمانيين أم رجال دين ، فتبقى قضية مفتوحة قابلة للجدل . نعرف أنهم مفوضون بممارسة بعض الوظائف في مجال القضايا الدنيوية : رعاية أموال الجماعة ، تقديم العون المادي للفقراء ، العناية بدور الصلاة ، والمقابر . . . الخ .

ربما ناب في بداية الأمر عن رئيس الجماعة ، أي الأسقف ، الشيخ في النشاطات الدينية الصرفة ، والشماس في الأنشطة العلمانية . ومع مرور الزمن أضحت مرتبة الشماس روحية (كهنوتية) دنيا . وفي أواسط القرن الثالث نصادف عدة مراتب للشمامسة ، ومنهم المحاضر ، وكاتب الرقى ، والبواب ، والمرتل ، ودافن الموتى . كان البوابون بمثابة جماعة قائمة على حفظ النظام . وفي أواسط القرن الرابع ، اعتبر دافنو الموتى والمرتلون أيضاً بمثابة مراتب في السلطة الكنسية .

انْتُخِبَ الأساقفة من قبل أعضاء الجماعة . وآلت هذه القضية فيما بعد لرجال الدين . ومنذ القرن الرابع لم يعد في وسع أسقف واحد رسامة أسقف جديد ؛ حيث تطلب الأمر وجود مالايقل عن أسقفين مشاركين في الرسامة . وبما أن لكل جماعة أسقفها ، فإن عددهم كبير جداً . وقد وُجِدَ مايسمى بأسقف القرية . خضع الأساقفة في منطقة معينة لسلطة المتروبوليت . ففي ايطاليا أسقف **روما** هو المتروبوليت ، وهو في **مصر** أسقف **الإسكندرية** ، وفي افريقيا الشمالية أسقف **قرطاجنة** ، وفي سورية أسقف **انطاكية** . وفي أواخر القرن الرابع يصبح أسقف **القسطنطينية المتروبوليت** الأحدث عهداً .

نشأت الأبرشيات الأولى في المدن الكبيرة : في الإسكندرية ، وفي روما . وفي بداية الأمر ، ترأس الأبرشية شماس - فهذا مجرد تقسيم إداري . ثم يحلُّ المشايخ محل الشمامسة ، وتصبح الأبرشية خلية أساسية في حياة الكنيسة . وهكذا تهبط الجماعات الصغيرة إلى مرتبة الأبرشية ويقلُّ عدد الأساقفة .

بين المتروبوليات الكنسية الثلاث القديمة ، وهي : روما ، والإسكندرية ، **وانطاكية** ، كان لروما الأولوية منذ البداية ، وهي أولوية لايرقى لها الشك ، وليست رمزية فحسب ، بل متميزة على صعيد العقيدة . فإلى **روما** يرفع الأساقفة القضايا المتنازع عليها . لكنها لم تصبح

بعد المجلس المسلكي الأعلى ؛ إذ يعيّن الأساقفة ويعزلون عن مناصبهم بدون قرار من روما .

ـ الحياة الدينية

ظهرت في بادئ الأمر فروقات كبيرة في الصيغ التي اتخذتها الأسرار المقدسة بين مختلف الجماعات المسيحية . فالمعمودية أحد الأسرار الغني بمراسيمه . إذ نقرأ فيما يُعرف «بتعاليم الإثني عشر رسولاً» (DIDACHE) : «عمّدوا بهذا الأسلوب . . . بإسم الآب والإبن والروح القدس ؛ في المياه الجارية . وإذا لم تتوفر لديك مياه جارية ، عمّد في مياه أخرى ، وإذا تعذّر في المياه الباردة ، ففي الدافئة ، وإذا لم تتوفر هذه أو تلك ، صب الماء ثلاث مرات على الرأس : باسم الآب والإبن والروح القدس . وليصم قبل العماد ، المعمّد ، والمتعمّد ، ومن يستطع من الآخرين» (٧، ١-٤) ، تمّتّ المعمودية إذن بغطس الجسم كاملاً في المياه على نحو أساسي . وترافق هذا بمراسيم إضافية : المسح بالزيت المقدس ورسم شارة الصليب . قُدِّمتْ للمعمدين الجدد بعد خروجهم من المياه أثواب بيضاء وأكاليل من الورق (ربما حصلت العذارى وحدهن على ذلك) . جاء بعد ذلك تقديم مياه الشرب للمعمَّد الجديد ، ومن ثم الحليب والعسل . وأخيراً التعليم ، الذي تلته الذبيحة الأوخارستية ، أي القداس . تضمنت المراسيم أيضاً طقس «وضع الأيدي» من قبل الأسقف . وكان هذا ببساطة رشماً ، منح في بادئ الأمر مع المعمودية ؛ تم العماد الإحتفالي في الغرب مع الفجر بصورة أساسية ، قبيل عيد القيامة ؛ وفي الشرق أيضاً مع الفجر (أما في **سوريا** ففي العصر) ، قبيل عيد التجلي . قام المشايخ والشمامسة بمنح سر المعمودية ، أما طقس وضع الأيدي فكان مقصوراً على الأسقف شخصياً .

لم يمنح سر المعمودية مباشرة لمن أبدى رغبة في اعتناق المسيحية ، إذ سبقته فترة تمهيدية ، وهي ماتعرف بمرحلة تلقي المعلومات الدينية ، أي «بداية الحياة المسيحية» وفقاً لقول **ترتليان** . استمرت فترة التعليم السابقة للمعمودية ثلاثة أعوام ـ علماً أن امكانية اختصارها أو تمديدها كانت قائمة . تلقى المتنصرون الجدد خلالها التعاليم الضرورية ، وعكفوا على الصوم والصلاة . أما أهم حقائق الدين الملخصة في رمز قصير ، فقد أعطيت للمتنصرين في نهاية المرحلة شريطة حفظ السر لئلا يتسرب إلى الوثنيين (يرجح أن الهدف من ذلك كان عدم اعطاء الوثنيين مادة للسخرية من حقائق الإيمان ، أما في حالات الحوار المفتوح ، كما حدث في مؤلف **ترتليان** Apoloegtic ، فقد تم الحديث عنها صراحة) . لم تكن للرمز الذي توجب على المتنصر حفظه عن ظهر قلب صيغة واحدة ، لكنه تضمن دوماً : اعترافاً بالإيمان بالثالوث المقدس ، وبقيامة المسيح ، وبالكنيسة . لم يكن للمتنصرين الجدد الحق بالمشاركة في الذبيحة

الأوخارستية حتى لحظة العماد ؛ حيث توجب عليهم مغادرة الإجتماع بعد الصلاة والتعليم .

أُطْلِقَ على سر التوبة في بادئ الأمر اسم سر «المصالحة» ، أي إعادة المؤمنين الذين وقعوا في الخطيئة إلى الكنيسة . سادت خلال حقبة من الزمن قناعة بأن الإنسان الذي نال سر المعمودية لايمكن أن يقع في الخطيئة ـ وإذا ماارتكب إثماً يسقط من عضوية الكنيسة نهائياً . لكن هذه القناعة تراجعت أمام الإعتقاد ببقاء الميل إلى الشر في الإنسان حتى بعد المعمودية ، ومع ذلك يبقى ابن الكنيسة ، مادام مستعداً للخضوع للكفارة المحددة له . عارض هذه القاعدة أنصار الطهارة والصرامة . وفي أحضان الكنيسة نفسها ، طالب بعض المتشددين بمعاملة قاسية للخطاة . واعتقدوا بأن الإنسان يستطيع نيل الغفران مرة واحدة فقط ، وأن بعض الخطايا كالزنى ، والقتل ، والردة ، لاتغفر إطلاقاً . أما موقف الأساقفة ، فكان مغايراً عموماً . وأقروا قاعدة تطلب من الخاطئ التوبة ، والكفارة الصارمة أحياناً ، والعلنية في غير مرة ، ولكنه يستطيع دوماً أن ينال الغفران . وفي هذا الصدد كتب **جاكوين** قائلاً : «يجب رفض القناعة بفرض الكفارة العلنية دوماً ، إذ لم تفرض إلا في حالات إستثنائية فقط» . كانت هناك أربع مراتب للتائبين : ١ ــ **المتوسلين** ـ الذي حُظرَ عليهم دخول الكنيسة ، وكان في وسعهم أن يصلوا أمام العتبة ، ٢ ــ **المستمعين** ـ الذين سمح لهم بدخولها ، ولكن لسماع التعاليم فقط ، ٣ ــ **الساجدين** ـ الذين تمكنوا من المشاركة في ا لقداس ، ولكنهم أُلزموا بالسجود طيلة الوقت ، ٤ ــ **المشاركين** ـ الذين مُنعوا فقط من تناول القربان المقدس .

نجد بعض الآراء الصارمة فيما يتعلق بالخطاة في مؤلف شيق يعود إلى تلك المرحلة ، يعرف بإسم «كتاب هيرماس» . ظهر هذا العمل في روما في أواسط القرن الثاني ، وتم التعامل معه بجدية غير معهودة . قرئت مقتطفات منه أثناء القداس «كدروس» . اكتشف **موراتوري** L. A. Muratory مدير المكتبة الأمبروزية في القرن الثاني عشر مؤلفاً من القرن الثاني لم يعرف من قَبلُ ، ويعرف اليوم نسبة إلى مكتشفه بـ « جزء موراتوري» (جزء ، لأنه مجرد جزء من كل أكبر) . تشير هذه الوثيقة (التي تُنسب كتابتها إلى القديس هيبوليت) إلى أسفار العهد الجديد التي اعتبرت «مقدسة» آنذاك ـ أي كانت بمثابة الكتب القانونية (وهي تكاد أن تكون مطابقة تماماً لما أقره المجمع الكنسي التريديني) . كما تورد بعض الأعمال غير القانونية ، ومنها «كتاب هيرماس» الذي نقرأ عنه : «كتبه قبل فترة قصيرة ، في أيامنا ، في مدينة روما ، هيرماس ، في الوقت الذي جلس فيه على الكرسي الرسولي في مدينة روما ، شُقيقه الأسقف بيوس ، ولذلك فإن قراءته ممكنة في الحقيقة ، ولكن لايجوز تقديمه للناس في الكنيسة مدرجاً في عداد الأنبياء الذين عددهم محدود ومغلق ، أو في عداد الرسل» .

يتألف عمل هيرماس من سلسلة من الرؤى ، والوصايا ، والتشبيهات ، التي أبرزها على

هيئة صور وحوارات بين المؤلف وبين ملاك التوبة . يمكن وصفه كعمل أدبي ـ مجازي . تجد الكنيسة في جميع هذه الصور مصورة غالباً علىهيئة برج ـ والمسيحيين كحجارة صالحة للبناء أو مرفوضة . أما الإستعارة المتكررة فهي الحجارة المنحوته ، التي تعد صورة للتوبة . نقرأ في مؤلف هيرماس : «بالنسبة للذين آمنوا . . . لا توجد كفارة عن الخطايا ، توجد بالنسبة لهم مغفرة الآثام المقترفة سابقاً فقط . . . فبعد ذلك الإختيار العظيم والمقدس ، إذا سمح أي كان لنفسه بأن يغويه الشيطان للوقوع في الخطيئة ، يكون في وسعه التكفير عنها مرة واحدة فقط» . «المرتدون وخونة الكنيسة . . . الذين بخطاياهم دنسوا اسم الرب . . . ضاعوا إلى الأبد في نظر الله» .

تثبت أقوال هيرماس أن مثل هذه الآراء كانت سائدة في الكنيسة . وعلى هذا الصعيد يمكن فهم النزاع الذي نشأ حول قضية المرتدين أثناء الإضطهادات ، والذين أبدوا رغبة في العودة إلى أحضان الكنيسة بعد توقفها . وسوف يكون هذا النزاع بمثابة الجمرة التي ألهبت إنشقاق الدوناتيين .

وكما أن الإعتقاد بأن جميع أعمال التكفير كانت علنية آنذاك ، خاطئ ، فإن الإعتقاد بعلنية عملية الإعتراف بالخطايا خاطئ أيضاً . فقد ارتبطت القضيتان ببعض الحالات الإستثنائية فقط . ومنذ القرن الثاني لم يعد حق الإصغاء إلى الإعترافات مقصوراً على الأسقف وحده ، بل انتقل إلى المشايخ العاديين أيضاً . أما في الشرق فقد كُلِّفَ كاهن خاص بالنظر في الخطايا . منح الكاهن ا لغفران بوضع الأيدي وترديد عبارة غير محددة بدقة .

ماهي صيغة القداس في تلك الحقبة ؟ أقيم القداس في المساكن الخاصة . إذ لانسمع عن دور الصلاة الأولى إلا في بداية القرن الثالث ، ومن الصعب أن نسميها كنائساً . أقدم معبد معروف (قبل عام ٢٥٦) مكتشف بين حفريات **دورا أوربوس** يبدو كمنزل سكني عادي . ولاتظهر الكنائس الأولى ذات الشكل العمراني المتميز إلا في مرحلة «السلم الصغيرة» .

القداس الأولي هو تمجيد القربان المقدس قبل كل شيء . وقد أقيم أيام الآحاد فقط على مايبدو ، وأقامه الأسقف أو كاهن مخوَّل بذلك في حال غيابه . لم يرتَدِ المشرف على القداس أية أثواب طقسية خاصة ، وأنجز الاحتفال الديني بثوبه العادي . بدأ القداس بصلاة الشكر التي تضمنت وصف العشاء الرباني ، قام بتلاوتها القائم بالقدس دون التقيد بنص محدد ، وذلك باللغة اليونانية . (ظهرت اللاتينية بعد عام ٢٥٠) . ثم تمّ منح القربان المقدس ، الذي لم يكن رقاقة ، وإنما خبزاً عادياً وضعه الكاهن في راحة يد المتقدم للتناول . وصف القديس جوستين قداساًكهذا . ونجد وصفاً أكثر تفصيلاً في كتب الصلاة الرومانية

للقديس هيبوليت .

يبدو وكأن القداس بدأ في مرحلة مبكرة بتقليد النماذج السائدة في المعابد اليهودية . تخبرنا رسالة بلينيوس عن ترتيل أناشيد «قبل الفجر» . وقد أورد المؤلف المعروف بإسم «تعاليم الإثني عشر رسولاً» : «في يوم الرب ، اجتمعوا ، واكسروا الخبز ، واشكروا ، معترفين بخطاياكم أولاً» (١٤ : ١) . وهكذا يتم «الإعتراف بالخطايا» ـ الذي لاصلة له بسر التوبة ـ ومن ثم الصلاة والموعظة . رُتِّلت أيضاً الترانيم ، وقُرِئت مقتطفات من العهد القديم ، ومن رسائل بولس ، والقديس كليمنس ، ومقتطفات أخرى من كتاب هيرماس . جاء بعد ذلك التعليم ، وقبلة السلام وبوشر بالصلوات الأوخارستية .

ليس كتاب هيبوليت المشار إليه سابقاً الوحيد من نوعه . فقد ظهرت في المناطق التابعة لبطريركي الإسكندرية وانطاكية طقوس صلاة مختلفة بعض الشيء ، تعرف بالنموذج السوري والمصري (القبطي) .

أقيم القداس كما أسلفنا ، يوم الأحد . وفي افريقيا وحدها أقيم في يومي الأربعاء والجمعة أيضاً . أما في روما والإسكندرية ، فقد أقيمت في الأيام الأخرى صلوات لم تتضمن الصلاة الأوخارستية . ومن هذه القداديس ، ظهرت صلوات لبعض الساعات في اليوم لمن لم يتمكن من المشاركة بها (سُمِّيَتْ فيما بعد بالساعات القانونية) ، تُليت كصلوات طوعية خاصة . وفي القرن الرابع تظل هذه الصلوات طوعية ، لكنها تصبح عامة .

كان الصيام من الممارسات الدينية الدالَّة على الورع منذ أقدم الأيام . صام المسيحيون أيام الأربعاء والجمعة ، والسبت في بعض الأحيان (ولكن حتى ساعات الظهيرة المبكرة فقط) . كان هناك صيام آخر في مرحلة ماقبل عيد القيامة لمدة يومين فقط .

أما في الإسكندرية فقد استمر لمدة أسبوع كامل (لم يسمح بتناول أو شرب أي شيء في يومي الجمعة العظيمة وسبت النور) .

ـ قدِّيسو القرون الأولى

يتضمن نص القداس قائمة مزدوجة بأسماء القديسين . الأولى ـ هي القائمة الموجودة في البداية ، في الصلاة التي تُستهل بالكلمات التالية : « Communicantes et memoriam venerantes» ، وتورد أسماء : العذراء مريم ، والقديس بطرس ، والقديس بولس ، والرسل العشر الآخرين (بدون ذكر اسم متى) . يلي ذلك أسماء خمسة باباوات ، هم : لينوس ، وكليت ، وكليمنت ، وسيكستوس ، وكورنيليوس . ومن ثم الأسقف سبريان ، والشماس

لورانس ، وكذلك العلمانين **كرنيروغون** ، شهيد **أكويليا** ؛ **وكوسما ودامياِن** ، الطبيبان **العرب**يان . يرجح أن تكون هذه القائمة قد تُمِّتْ على نحو تدريجي ، حتى أُغلقت باسم البابا **غريغوري** الأول .

توجد القائمة الثانية بعد الذكرى من أجل الموتى . وهنا يرد ذكر أسماء خمسة عشر من القديسين . تُفْتَتَحُ القائمة بإسم **يوحنا** المعمدان ، يليه : **استفانوس** ؛ **ومتى** الرسول ؛ والبابا **الكسندر** ؛ والشيخ **مارسلين** ؛ وبطرس **المفسر** ؛ **وبرنابا** رفيق القديس **بولس** ؛ **واغناطيوس** أسقف **انطاكية** . بعد الشهداء تأتي أسماء الشهيدات : **فيليستيا وبيربيتوا** المستشهدتين في **قرطاجنة** ، **آغاتا ولوسي** اللتين استشهدتا في صقلية ؛ الطفلة الشهيدة **أغنيشكا** ، والعذارء **سيسيليا** ، والأرملة **أنستازيا** .

ليس ماتضمنه نص الصلاة سوى عدد محدود من أسماء أشهر شهداء القرون الأولى . يكاد قديسو ذلك العصر أن يكونوا شهداء جميعاً . دفعت الإضطهادات بالكثيرين إلى الإرتداد عن الدين ، ولكن الكنيسة لم تفتقر يوماً للقديسين . وعلى أي حال ، فإن القديس شخصية مسيحية صرفة . للأديان الأخرى مؤسسوها ، ومصلحوها ، وأبطالها ، وشهداؤها ؛ ولكن القديسين ، أي الأفراد الذين أصبحوا وسطاء في صلواتنا بفضل نمط حياتهم ـ لاتعرفهم سوى الديانة المسيحية .

يتم الإصرار في المسيحية على الوساطة . فـ **يسوع** المسيح وسيط بين البشرية الآثمة وبين الإله الغاضب . ووساطته كافية لإفتداء الجنس البشري . ولكن بعض الناس ـ وفي مقدمتهم العذراء والدة الإله ـ سوف يقلدون مبادرة **يسوع** في الوساطة ، ليس لأن المبادرة قادرة على إعطاء شيء من ذاتها (وهي على أي حال من فعل النعمة) ، وإنما إنطلاقاً من الرغبة في تقليد مخلصنا . وفي هذا الصدد كتب جورنييه : «عندما تحلُّ نعمه **يسوع** عليَّ ، وأكون وفياً لها ، ستدفعني لأعمل في نطاق امكاناتي على أن تنشط من أجل خلاص العالم . فبادرة نعمة المعمودية يمكن أن تُخنق من خلال سلوكي ، ولكن هذه النعمة ، إن لم أقاومها ، ستواصل بنفسها السير نحو الكمال من خلال الأسرار الأخرى ، ولأن تحقق في حياتي نتائج شبيهة بتلك التي تطورت في روح **يسوع** المقدسة . وبما أنها افتداء في يسوع ، ستكون مشاركة بالفداء في ذاتي» .

يقول **راهنر** : القديسون هم «قوة الله المنتصرة في ضعف الإنسان» لأن «شهادة **يسوع** المصلوب لايمكن أن تكون كافية للكنيسة ، بل يجب عليها أن تستمر في إبراز الشهادة التي تمت» . الكنيسة بحاجة إلى القديسين كبراهين متجددة على الحقائق التي تنادي بها . تلتقي في القداسة نعمة عظيمة مع رغبة أعظم بهذه النعمة . لايختلف القديسون عن غيرهم من بني البشر في طبيعتهم الإنسانية : إنهم يحصلون علىمافيه الكفاية لبلوغ الخلاص . ولكنهم

يتلقون شيئاً أكثر من ذلك أيضاً : النداء اللاحق المدعوم بعون النعمة اللاحق ، إن لم يقاوموه . يلجأ الله إليهم كأصدقاء ومساعدين ، هو بحاجة لهم . هذه الحاجة غير موجودة في حقيقة الأمر . لأن الله قادر على تسيير كنيسته منتصرة دوماً دون مساعدة أي كان . لكن جوهر التعليم الإلهي كامن في الفعل من خلال الإنسان ، أي أن يصلح إنسان ما ، ماأفسده الآخرون . القديس إنسان مصطفى ، يصلح بأعماله الأخطاء والإنحرافات . يحقق الله غاياته عبر وساطتهم ، ويصل بذلك إلى ماكان عليه إنجازه بمعجزة تدخله المباشر . يقول القديس **أوغسطين** في هذا الصدد : « يقوم الله بالمعجزات إما بنفسه على نحو مباشر . . أو من خلال عباده ؛ وهذه المعجزات التي يقوم بها عبر عباده ـ إما أن يقوم بها جزئياً عبر أرواح الشهداء ، أو من خلال أناس لايزالون عائشين في الجسد . . . أو . . . عن طريق الملائكة ، الذين . . . يأمرهم بأن يتحقق مايطلبه الشهداء ، ويقال عن هذا بأنه أُنجز من قبل الشهداء» . يسمح القديسون أن يختفي في الله التاريخ ، وفي الوقت ذاته يقومون بإبرازه . وبسبب دورهم هذا في الفعل الإلهي ، ينتظرهم المجد ، الذي يجعلهم بدوره وسطاء لنا إلى قلب **يسوع** .

في الكنيسة تياران : تيار الكاريزما وتيار القداسة . الكاريزما تقدمة «اجتماعية» ، توهب للفرد من أجل منحها لغيره . القداسة نداء «فردي» غالباً بدون مهمة محددة بدقة . يمكن لأصحاب الكاريزمات الكبرى أن لايكونوا قديسين ، ويمكن للقديسين أن لايتحلوا بمواهب الكاريزما . الكاريزما نعمة تنصب بين يدي الإنسان ؛ والقداسة هي تحويل الإنسان عبر النعمة . ولكن هناك علاقة مابين هذين التيارين . يمكن لصاحب الكاريزما أن يرغب في البقاء أداة طيّعة غير فاعلة . خاضعة للمواهب التي يمتلكها ، والأسوأ من ذلك ـ قد يريد اعتبار المواهب الممنوحة له ملكاً خاصاً به . وفي أحيان أخرى تسيطر عليه كلياً وتخضعه لتأثيرها . فينشأ صراع قاتل بين عظمة الهبات وإدراك الإنسان بعدم استحقاقه لها ، صراع ينتهي إما بقداسة الإنسان ، أو بتحويله الموهبة الممنوحة له لأغراض شريرة . وعلى العكس ، فللقداسة المعاشة أيضاً نتائج «اجمتاعية» . فهي تؤثر مثل الكاريزما . تقول القديسة **تيريز** : «يقدم القديس النفع الروحي للقريب ، وهو يكاد لايدرك ذلك» . أما صاحب الكاريز ما فغالباً مايصبح مؤسساً لهرطقة بعد رفضه القداسة . والقديس العظيم ، ولو أنه لايحمل أفكاراً عظيمة ، يصبح مصلحاً على مستوى التاريخ .

القداسة في الكنيسة برهان على قداسة الكنيسة أيضاً . صُنِّفَ جميع باباوات القرون الثلاثة الأولى في عداد القديسين . كما صنف في عدادهم كثيرون من الأساقفة ، والكهنة ، والشمامسة . ولدينا من تلك الحقبة عدد لايحصى من القديسين العلمانيين . فلندرج أسماء بعضهم . الجنود : سيبستيان ، يوستاخيوس ، ورفاقه ، ترسوس ، بالماسيوس ، **تيودور** ، مينّا ، فلوريان (أحد شفعاء بولونيا منذ أن نقلت رفاته إلى بولونيا في القرن الثاني عشر ، وهي حالياً في كراكوف) نيريوس ، أخيل ، بازيليدس ، سيرين ، نابور ، نازاريوس ، بروسيس ،

مارتينيان ، رومان ، الأربعون جندياً من فيلق سيباستا . والفتية : ترسيسيوس ، سيمفوريان ، أغابيت ، بنكراسي ، أبناء القديسة فيليسيا السبعة ، وأبناء القديسة سيمغوزيا السبعة . العذارى : بيبيانا ، بربارة ، لوسي ، بريسكا ، إيمير نسيانا ، يوفيميا ، أغنيشكا ، تقلا ، كاترين ، نيمفا ، سيسيليا ، مارتينا ، دوروتي ، أبولونيا ، بيربتوا) ، بوديتسيانا ، روفينا ، سيكوندا ، براكسيدا ، كريستين ، بياتريثا ، سوزان ، والأزواج غورغونيوس وفيليسيتا ، تيبرسيوس وفاليريا ، كريزانت وداريا ، ماريوس ومارتا . . . .

كتب **ليون بلوي** : **«يوجد شيء محزن ، هو أننا لسنا قديسين»** . أما القديسة تيريز التي عاصرته ، فقالت : «كل شيء نعمة» . لقد عرَّف بلوي القداسة ، بينما كانت تيريز قديسة . قَلِقَ بلوي لعدم رؤيته القداسة ، لأنه شعر من خلال الكاريزما أن القداسة هي حياة الكنيسة ، وأن الكنيسة لم يكن لها أن توجد بدونها . ماتت تيريز مبتهجة ، مدركة أنَّ النداءات موجودة وستظل دوماً ، ولايتطلب الأمر سوى الإستجابة لها وقول : نعم - حتى تنفجر القداسة من الأرض .

الفصل الثاني

المجامع تصيغ العقائد الكنيسة

ـ الدوناتية

حصلت الكنيسة على حريتها ، وحظيت برعاية متميزة من الإمبراطور قسطنطين .

لكن المسيحية خرجت من موجة الإضطهاد الدموي الطويل الأمد مليئة بالنزاعات والتصدعات الداخلية .

برزت مجدداً القضية المأساوية المتعلقة بالموقف من Lapsi أي المرتدين أثناء الإضطهادات ، والراغبين في العودة إلى أحضان الكنيسة بعد انقضائها .

كانت الردات العلنية كثيرة . لكن الخفية منها كانت أكثر . حيث حدثت نتيجة مساومات سرية . تمكن عدد كبير من الناس التستر على إيمانهم ؛ وببساطة ، لم يُسْأَلْ عنه الكثيرون منهم . وكانت حالات كثيرة انتهت بالذين جهروا بمسيحيتهم إلى مجرد الإعتقال ولفترات قصيرة . فبدأ كثيرون من الذين أنقذوا من الموت بهذا الأسلوب بمواجهة الذين ارتدوا وهم مرغمين على تقديم إجابة صريحة حول إنتمائهم المسيحي تحت طائلة عقوبة الموت . أراد الذين سلموا بدون بطولة ، إدانة مَنْ لم يتمكنوا من خوض التجربة التي تطلبت أعلى درجات التضحية والبطولة . علماً أن صفوفهم لم تخلُ من أناس تصرفوا خلال مرحلة الإضطهاد بأسلوب مشبوه ، ومع انتهاء مرحلة الخطر ، أظهروا حماساً غير معهود ، وميلاً لإتهام الآخرين .

كانت الردات في **نوميديا** أكثر منها في أمكنة أخرى ، علماً أن سلك الكهنوت المحلي

لم يثبت جدارة . وبالرغم من ذلك ، من نوميديا بالذات وُجِّهَتْ أعنف الإتهامات إلى رئيس أساقفة **قرطاجنة مينوريوس** ، بإدعاء تحاشيه الصدام مع السلطات في مرحلة الإضطهاد بحيل سياسية . كما وُجِّهَتْ هذه الإتهامات إلى منفذ أوامر الأسقف ، الشماس **سيلسيان** . انضمت إلى مختلف أنواع المتهمين ، مجموعة من الأعداء الشخصيين للأسقف والشماس ، ومن بينهم امرأة ثرية تدعى **لوسيلا** ، كانت هي المحرض الأساسي . ولكن العقل المدبر للمجموعة كلها ، والذي مارس نشاطه خفية كان **دونات** أسقف **كاسا نيفرا** ، المقيم في قرطاجنة ، والذي كانت فضائحه أثناء الإضطهاد معروفة .

توفي مينزوريوس عام ٣١١ ، وانتخب سيليان خلفاً له . فعارض الأساقفة النوميديون انتخابه ، وعقدوا مجمعاً كنسياً محلياً قرروا فيه غيابياً عزل سيسيليان عن منصبه ، وانتخبوا بديلاً له هو **مايورين** أحد زبانية **لوسيلا** .

رفض سيسيليان التنازل عن منصبه . فاستأنف المتمردون القضية إلى **قسطنطين** الذي كان قد استولى على السلطة في الإمبراطورية . أحال الإمبراطور القضية إلى البابا ميليكيادس للنظر فيها ، فاتخذ الأخير قراراً في مجمع كنسي انعقد عام ٣١٣ في لاتيران باستبعاد التهم الموجهة إلى سيسليان ، وتثبيته في منصبه . واتخذ المجمع الكنسي الذي انعقد في أرليس القرار ذاته عام ٣١٤ . لكن أنصار دونات لجؤوا إلىالإمبراطور ثانية ، دون أن يتوقفوا عن إرسال سيل من الشكاوى . برروا تصرفاتهم مدعين أن سيسيليان «خائن» - شأنه شأن الأساقفة الذين رسموه - ولذلك فإن انتخابه غير شرعي ، لأن «الخيانة»[1] سبب كاف لمنع استلام المناصب الكنسية ، لابل تلغي المعمودية .

بعث **قسطنطين** بمبعوثية إلى افريقيا لتقصي الحقيقة . فكان رأيهم في صالح سيسيليان ، ولذلك أصدر الامبراطور الحكم الذي طالت مطالبة الدوناتيين به ، وكان ضدهم . جاء اللجوء إلى السلطة المدنية بنتائج عكسية لما توقعه الدوناتيون ، ومما زاد من خطورة الموقف أن الحكم ترافق بأوامر ترغمهم على الاستسلام بالقوة .

وللمرة الأولى في التاريخ ، أُستُلَّ سيف السلطة المدنية دفاعاً عن المسيحية ، وليس ضدها . وكان هذا بمثابة خدمة ذات نتائج خطرة قدمها الإمبراطور للكنيسة . بدأ الجيش يسترد الكنائس التي استولى عليها الدوناتيون بالقوة ؛ أُريقت الدماء وقُتل أحد الأساقفة المنشقين - فَأُعْلِنَ حالاً «شهيداً» للكنيسة الدوناتية . وتحول النزاع إلى حرب مقدسة بين «كنيسة الطاهرين» و «كنيسة الخونة» .

---

(١) - تُرجمت كلمة «خيانة» عن اللفظ اللاتيني Traditio . ولا تقابل هذه الترجمة المعنى الدقيق للكلمة اللاتينية . إذ لم تكن «الخيانة» إنكاراً للدين ، وإنما تسليم السلطات الكتب المقدسة لحرقها ، وفقاً لمرسوم ديوقليتانس .

عثر الدوناتيون على حلفاء في نوميديا . فقد انتشرت في البلاد عصابات مسلحة أطلق عليها اسم Circumcelliones . مَنْ كان هؤلاء الناس ؟ مجرمين ، لصوص ، وبرابرة ، متمردين على السلطة الرومانية ، أم زراعاً محرومين من الأرض ؟ الإحتمال المرجح هو إجتماع كل ذلك معاً . وقفت العصابات إلى جانب الدوناتيين ، وحاربت بضراوة ، مما اضطر **قسطنطين** في نهاية المطاف لإصدار مرسوم عام ٣٢١ يتسامح فيه مع المنشقين ، بعد أن كان قد تورط في حربه مع ليسيسوس آنذاك .

ظلّت الدوناتية جيباً دينياً لايستهان به في افريقيا الشمالية : ففي عام ٣٣٦، شارك مئتان وسبعون أسقفاً في المجمع الكنسي الدوناتي الذي انعقد في قرطاجنة . وهكذا وجد التعصب الإفريقي المتطرف تعبيراً له في الدوناتية .

صمد الدوناتيون الذين حاربهم بعض الأباطرة ، وآزرهم بعضهم الآخر ، حتى القرن الخامس . وتفتت الدوناتية بمرور الزمن إلى مجموعات صغيرة . حاربها القديس **أوغسطين** بالكلمة ، وَسُحِقَتْ هذه الطائفة بالغزو **الوندالي** .

ـ مجمع نيقيا

كان راعي أبرشية باوكاليس في الإسكندرية كاهناً يدعى آريوس . ولد في ليبيا ، وتتلمذ في **انطاكية** على يد الشهيد لوسيان الذائع الصيت ، الذي طرح أفكاراً تنمُّ عن شيء من التبعية في الثالوث الأقدس (اعتقد أنَّ الإله الآب كائن أسمى من الإبن) . تجلّت الآراء ذاتها في تعليم آريوس . لكنها لم تُلاَحَظْ إلا في عام ٣٢١ ، بعد ان قارب آريوس الستين من عمره .

كانت لآريوس هيئة إنسان وُلِدَ زعيماً لطائفة . فارع الطول بهي الطلعة ؛ تحفُّ به هالة من الكرامة ، والزهد ، أو القداسة بالأحرى ؛ كان له تأثير هائل على الناس المحيطين به ، وخاصة على النساء . لكن هذه المظاهر حجبت تحت ستارها الغطرسة والطموح ، وبراعة كبيرة في التصرف .

أصغى الكسندر ، أسقف الإسكندرية إلى آراء آريوس ، فلم يجد فيها سوى اعتراف شرطي بألوهية يسوع . وعرض القضية على مجمع كنسي دعاه للإنعقاد ، فأدان المجمع تعاليم آريوس بمئة صوت مقابل إثنين ، وأمر آريوس بأن يتنازل عن رئاسة الأبرشية .

لكن آريوس لم يعترف بالهزيمة ولم يستسلم . توجه إلى فلسطين ، حيث استقبله يوسيبوس أسقف **قيصرية** استقبالاً حسناً(وهو اللاهوتي ، والفيلسوف ، ومؤلف تاريخ الكنيسة المعروف) ، كذلك يوسيبوس أسقف نيقوميديا ، وهو بدوره من تلامذة لوسيان . كان لكلا

الأسقفين نفوذاً كبيراً في بلاط الامبراطور ليسينيوس ، وخاصة يوسيبوس النيقوميدي ، الذي كان كاهن الإعتراف لزوجة ليسينيوس وشقيقة **قسطنطين** كونستانسيا . عرف رجل البلاط البارع كيف يحول عاصمة الأسقفية من **بيروت** إلى أسقفية نيقوميديا ، مما أتاح له فرصة الإقامة الدائمة في البلاط الامبراطوري . باشر آريوس الذي حظي بدعم ومساندة الأسقفين بالدعوة لعقيدته ، فعثر على عدد كبير من المؤيدين . ثم سمح له ليسينيوس بالعودة إلى الإسكندرية .

آنذاك ، أحرز **قسطنطين** النصر على ليسينيوس ، ولمّا احتل المقاطعات الشرقية ، وجد **قسطنطين** ضرورة في تقصي الحقائق فيما يتعلق بقضية آريوس . ولبحث الموضوع ، بعث إلى الإسكندرية بمستشاره أوزيوس أسقف قرطبة ، وهو رجل فاضل ذو علم غزير . قيّم أوزيوس آراء آريوس على أنها هرطقة ، ولكنه أشار إلى وجود عدد كبير من المؤيدين له ، ممالايسمح بحل المشكلة من قبل مجمع كنسي محلي . فكان لابد من أن يُنظر في القضية أمام هيئة كنسية أعلى . فاتخذ الامبراطور قراراً بمشورة أوزيوس ، بالدعوة لإنعقاد مجمع كنسي مسكوني .

كتب كونغ بهذا الصدد قائلاً : «لم تتم الدعوة لأول مجمع كنسي مسكوني في تاريخ الكنيسة بمبادرة من رؤسائها ، وإنما بمبادرة من حكومة وثنية ، متمثلة في شخص الامبراطور الذي كان لايزال وثنياً ، ويتمتع بلقب ، ووظيفة ، ونفوذ الكاهن الأعلى» .

شعر **قسطنطين** ببعض النفور من **روما** بسبب الأصوات المعادية التي سرت في المدنية ، عندما انتشر فيها خبر عزم الامبراطور على نقل العاصمة إلى **بيزنطة** . لفت الشرق الذي كان مركز الحياة الفكرية آنذاك إنتباه الامبراطور وشدّه إليه . عاش المسيحيون في الغرب بوفاق مع السكان الذين اعتنقوا الديانة الوثنية «الرسمية» القديمة ، وكل من الجانبين منغمس بالقدر ذاته في تيار الثقافة اللاتينية ، وفي التقيد الحرفي بالقانون الروماني . أما في الشرق ، فقد ظلّت الهلنستية على صراع دائم مع المؤثرات الشرقية : نشأت نظم فلسفية ، وتلاقت الأفكار والآراء . تراجع القانون أمام السلطة الشمولية والنظام البوليسي . وتحولت المسيحية ، وهي المفضلة لدى قسطنطين ، إلى ديانة حكومية . لم يقتصر **قسطنطين** على حماية المسيحية ، وغمرها بعطفه ، ومنحها الامتيازات ، فبإعتناقه المسيحية ، كما يقول مارو «اعتبر نفسه زعيماً للشعب المسيحي ، موسى جديد ، داوُد جديد واقف على رأس اسرائيل حقيقة في عهد جديد» . وحاول المادحون في أروقة البلاط إقناعه بأنه «الكاهن الأعلى» للمسيحية .

لكن **قسطنطين** لم يذهب إلى هذا الحد ، وترك الوظائف الكهنوتية للكهنة . بينما أخضع كامل حياة الكنيسة لإرادته . لم يفكر بانتظار مبادرة **روما** والبابا سلفستر الأول الذي خلف ميليكادس . فاهتم بنفسه بالدعوة لإنعقاد المجمع .

أثبت تصرف الإمبراطور هذا أنه مصيب وضروري ، بالرغم مما فيه من غطرسة . فهرطقة أريوس هددت الكنيسة الفتية بمخاطر أشد جسامة مما يمكن تصوره اليوم . فلاهوت الكنيسة لم يكن قد تشكل بعد ، وبدا كل شيء هلامياً . دعت الضرورة أن تترسخ التعاليم في شكل ملائم . وخاصة في الشرق ، حيث ظلّت العقائد ، والفلسفات ، والديانات الغربية فاعلة ومهددة باصطفائيتها . اصطدم كل تعريف بمعارضة ، ولوحظ نقص في المصطلحات الملائمة ؛ أما المستعار منها من الفلسفة الوثنية ، فغالباً ماكان متعدد المعاني .

وعلى أي حال لم تكن تعاليم آريوس سوى رد فعل على السابليانية التي انتشرت على نطاق واسع ، ورأت في الثالوث الأقدس مجرد تجلٍ ثلاثي للإله ذاته . لكن آريوس ذهب إلى أبعد ممايجب في تطرفه برأيه ، فمن خلال تأكيده علىالتمايز بين الآب والابن ، نسب صفة الألوهية التامة للآب وحده ، وذهب اتباعه إلى أبعد من ذلك أيضاً . وأدى الجدل الحامي الوطيس إلى أن يُنْسَبَ لآريوس أكثر مما نادى به . فلم يعد الهدف إدانة عقيدة آريوس أو إعادة الإعتبار لها ، وإنما التحديد الدقيق لماهية الثالوث الأقدس . أما البت في مثل هذا الموضوع ، فهو من حق المجمع المسكوني وحده .

بعث **قسطنطين** برسائل إلى جميع الأساقفة يدعوهم فيها للحضور إلى نيقيا ، عارضاً عليهم البريد الإمبراطوري كوسيلة للنقل . افتتحت أعمال المجمع في العشرين من أيار عام ٣٢٥ ، وشارك في أعماله مايقارب الثلاثمئة أسقفاً[1] معظمهم من أساقفة الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، إذ لانعرف سوى أسماء خمسة قدموا من الغرب ، لم يشارك البابا في أعمال المجمع ، بل مثَّله كاهنان من روما .

ضمّ المجمع بين الآباء الذين شاركوا في أعماله جماعة من أتباع آريوس ومن حلفائهم وهم أنصار تعاليم لوسيان ، وفي مقدمتهم يوسيبوس النيقوميدي ، وجماعة من المعتدلين بقيادة يوسيبوس أسقف **قيصرية** . أما خصومهم ، فكانوا : ألكسندر أسقف الإسكندرية ، والشماس أثناسيوس ، الذي سيخلفه عمّا قريب ، وكذلك أوزيوس القرطبي . ومنهم أيضاً : اسطيتاوس الانطاكي ومارسيلي من أنقرة ، اللذين عارضا عقيدة آريوس ، لكنهما عبَّرا عن موقف متطرف قريب من العقيدة السابليانية .

دافع عن آريوس عشرون من آباء المجمع فقط ، وأدينت تعاليمه . تمَّ الإنتقال بعد ذلك إلى الصيغة المقترحة من قبل يوسيبوس أسقف **قيصرية** العقيدة الثالوث الأقدس . تم تغيير المشروع الأول ـ الذي اتخذ بمرور الزمن الصيغة الحالية للعقيدة في قانون الإيمان ـ أثناء النقاش . وتضمن النص عبارات رافضة بآن واحد للعقيدتين الآريانية والسابليانية «أؤمن . . .

---

(١) ـ يشير القديس أثناسيوس إلى تواجد ٣١٨ أسقفاً . ولكن هذا الرقم رمزي على ما يبدو ، وهو متوافق مع عدد خدم **ابراهيم** الذين حاربوا معه دفاعاً عن **لوط** .

وبرب واحد **يسوع** المسيح ، ابن الله الوحيد . . . نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب . . .

عارض اثنان فقط من الأساقفة المصريين اعتماد هذه الصيغة . فاعتبر **قسطنطين** القرار صادراً بالإجماع : «نقبل حكم خالق الكل . . . فما اعتبره ثلاثمئة أسقف خيراً ، لايختلف عن حكم الله ، لأن الروح القدس مقيم في عقول هؤلاء الناس العظماء ويعكس إرادة الله» . استقبلت كلمات الامبراطور بالتصفيق ، وحكم الامبراطور على الأسقفين الليبيين (المصريين) بالنفي إلى إيليريا . ولما حاول يوسيبوس النقوميدي وأسقفان آخران سحب تواقيعهم عن الوثيقة بعد مضي ثلاثة أشهر ، واجهتهم أحكام مشابهة بالنفي .

يبدو للوهلة الأولى أن **قسطنطين** أبعد الخطر المحدق بالكنيسة بإصداره هذه الأحكام الصارمة . لكنَّ ماحدث ، هو عكس ذلك . إذ لم يمضِ أكثر من ثلاثة أعوام من الزمن ، حتى عاد المنفيّون من منفاهم ؛ وعاد يوسيبوس إلى موقعه المتميز في بلاط الامبراطور .

ـ الأزمة الأريانية

كان لشقيقة **قسطنطين** تأثير كبير عليه ، وكان يوسيبوس النيقوميدي كاهن اعتراف كونستانيا المحبب ، وهي التي حصلت من الامبراطور على قرارا عودته من المنفى .

ساعدت استعادة يوسيبوس لموقعه المتميز في البلاط أنصار آريوس على البدء بهجوم جديد . يُشَكُّ هنا فيما إذا كانت صيغة العقيدة هي السبب الرئيس للتصدع الذي كان له أن يستمر طيلة قرون كاملة . أشرنا سابقاً إلى موقف **قسطنطين** الذي اعتبر نفسه «زعيماً» للمسيحية . أغدق الهبات على الكنيسة ، وعاقب أعداءها . افتقرت الامبراطورية لديانة رسمية ، وحدد الامبراطور في مخططه لتوحيد الامبراطورية المسيحية لهذا الدور . ولكن أياً كانت المسيحية الحقة ؟ كان **قسطنطين** شاهداً على نزاع لم يدرك جوهره ، ولم يكن في وسعه فهمه . تعاظم نفوذ أتباع آريوس في الشرق ، بينما كان نفوذهم في الغرب ضئيلاً أو معدوماً بالأحرى ولكن المقاطعات الغربية كانت في نظر الامبراطور همجية ، وليس لديها ماتقوله في هذا الصدد . وقد تفاقم الأمر هناك إلى حد لم يعد في وسعهم فهم اللغة الاغريقية التي تمتّ فيها النقاشات اللاهوتية في الشرق ! كان أوزيوس القرطبي ممثل الغرب الوحيد عملياً ، بينما تباهى الشرق بالكثير من ممثليه ، وفي مقدمتهم يوسيبوس النيقوميدي ، ويوسيبوس أسقف **قيصرية** ـ كلاهما من المقربين إلى بلاط قسطنطين . وقد بذل كلاهما جهداً كبيراً لإقناع الإمبراطور بأن العقيدة المعتمدة ليست خاطئة في واقع الأمر ، ولكن صياغتها غير موفقة ؛ ويمكن أن تؤول هذه الصيغة بصورة خطرة ، تهدد بذلك الوحدة الكنسية بدلاً من أن ترسخها .

وصف **داوصن** موقف أنصار آريوس بأنه «واقعية سطحية» . وربما كان واقعية تكتيكية . فقد كان هدف كلا اليوسيبوسين ومَنْ تحالف معهما انتصار صيغتهما قبل أي شيء آخر ، وفرضها على الكنيسة برمتها ، وإثبات حقيقة وجود مركز الفكر المسيحي لديهم ، وليس في روما ، التي كانت في نظر هؤلاء الإغريق ذوى الثقافة الرفيعة رمزاً للجهل والظلام . رغبوا في الحصول على حرية تامة في خلق العقيدة الكنسية . لم يعترفوا بهذا الشيء بطبيعة الحال ، ولذلك اتهموا أنصار الرمز النيقي بأن صيغتهم تمزق الوحدة . وبفضل هذا الموقف ظهروا في دور الكنيسة «الرسمية» . وعلاوة على ذلك كسبوا الإمبراطور إلى جانبهم .

بعد أن استعاد يوسيبوس نفوذه في البلاط وحظي بعطف الامبراطور ، باشر حملة هادفة لإنهاء جميع الذين عارضوه وكانوا خصوماً له في مجمع نيقيا . فأسقف أنقرة مارسيلي أُرغم على الاستقالة متهماً بالميول السابليانية (ليس بدون مبرارات) . وتمَّ «التخلص» من آخرين عن طريق التقارير السياسية أو التهم ذات الطابع الأخلاقي . وبهذا الأسلوب تمكن يوسيبوس من عزل مالايقل عن عشر أساقفة عن مناصبهم .

ولكنه في نهاية المطاف واجه خصماً خطراً ، لم يكن الإنتصار عليه عن طريق التآمر بالأمر اليسير .

كان أثناسيوس أسقف الإسكندرية آنذاك ، رجلاً ذا علم غزير ، وطبع عنيف ، وطاقة لاتنضب . فقدِّيسو ذلك العصر أشخاص استثنائيون . أناس انفعاليون ، ذوي ألسنة سليطة ، ولكنهم محاربون لايعرفون الكلل في سبيل الصيغة الصحيحة للعقيدة ، ولا يعرفون معنى التنازل والحلول الوسط ، أو الانهيار مهما بلغت الصعوبات . أعلن أثناسيوس دون وجل حرباً لاهوادة فيها على المتآمرين الخاضعين لوصاية البلاط الامبراطوري .

اتهم محازبو يوسيبوس الأسقف أثناسيوس أمام مجمع صور عام ٣٣٤ بإضطهاد أتباع ميليسيوس الحرونين (ميليسيوس هو أسقف مدينة ليكوبوليس المنشق في مصر ، وقد غفر له مجمع نيقيا الخطأ الذي ارتكبه ، وسمح لأتباعه الذين التزموا بمقررات المجمع بالعودة إلى أحضان الكنيسة) ، وهذا مايحتمل أن يكون صحيحاً إذا أخذنا بعين الاعتبار طبع أثناسيوس العنيف . كما اتُهِمَ بإساءته لذكرى الامبراطورة الراحلة **هيلانة** ، والتبجح والتهديد بوقف إرسال الحبوب المصرية المخصصة للقسطنطينية ـ وهذا ماكان تلفيقاً بلا شك ، بالرغم من ان أسقف الإسكندرية ورث امتيازات رئيس الكهنة الوثني ، ومنها الإشراف على المرفأ . وسوف يتحدث أثناسيوس فيما بعد عن مجمع صور قائلاً : « أكان هذا مجمعاً ؟ كيف تجرأوا على إطلاق اسم المجمع الكنسي على إجتماع ترأسه موظف الامبراطور ؟» . لكن هذا المجمع أدان أثناسيوس ، وعزله عن منصبه الأسقفي . سافر أثناسيوس إلى القسطنطينية ليعترض على قرار المجمع ، ولكنه حصل فيها بدلاً من العدالة ، على حكم بالنفي إلى ترير .

عاد آريوس إلى **الاسكندرية** ظافراً . لكنه اصطدم هناك بعداء المسيحيين المحليين . وتصعدت حدة المعارضة عندما علم الناس أن أصدقاء آريوس يحاولون سيامته أسقفاً لمدينة **الاسكندرية** . وبهدف العثور على شخصية ذات نفوذ تدعم ترشيح آريوس ، أشاع الأريانيون بأن الناسك أنطونيوس من أنصاره .

ستكون لنا عودة للحديث عن انطونيوس لاحقاً ، إذ به تبدأ حركة هائلة لحياة الزهد والتنسك . ففي مرحلة «السلم الصغيرة» ، عندما بدأت تتلاشى ذكريات الشهداء ، انطلق أنطونيوس وهو ابن اسرة قبطية ثرية إلى الصحراء بحثاً عن الله في العزلة والتأمل . قضى أعواماً في قبر فارغ مقاوماً إغراءات تفوق طاقة الإنسان . صمد أمام كل التجارب ، وتحول إلى رمز اقتدى به الآخرون . أحاط به لفيف من التلامذة ، ونشأ أول مجمع للنساك . ثم مضى الناسك الذي كاد أن يبلغ المئة من العمر إلى الجانب الآخر من النيل ، وأمضى وقته هناك في الجبال وحيداً . ولّما بلغه نبأ محاولة الأريانيين استغلال نفوذه ضد أثناسيوس ، قدم إلى **الاسكندرية** ليعلن بأنه يقف إلى جانب الأسقف المعزول . وفي نهاية المطاف لم يصبح آريوس أسقفاً . توفي عام ٣٣٦ ، وظل اسمه مجرد رمز لحركة قادها آخرون . ودارت المعركة حول التأويل الحر للعقيدة ضد قاعدة الطاعة الجامعة أمام الحقيقة التي اعتمدتها الكنيسة .

ـ موت قسطنطين

توفي **قسطنطين** عام ٣٣٧ . وكانت فكرة الموت تراوده أكثر فأكثر خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته . وبالرغم من ذلك قام بتأجيل موضوع معموديته ، بسبب انشغاله بأمور الدولة . ولّما نصحه الأطباء بالذهاب إلى مياه **هيلينوبوليس** ، زار هناك قبر الفيلسوف الشهيد **لوسيان** ، الأب الروحي **لآريوس** . تدهورت صحة المريض ، فنقل إلى نيقوميدية ، وهناك وجد مايكفي من الوقت لأن يعمّد من قبل يوسيبوس .

تعرضت الإمبراطورية التي وحدها **قسطنطين** في حياته للتجزئة ثانية في وصيته . فكان الغرب من نصيب ابنه الأكبر **قسطنطين** الثاني ؛ والشرق من نصيب ابنه الثاني كونستانسيوس ؛ أما أصغر أبنائه كونستانت ، فكان من نصيبه الشريط الأوسط (ايطاليا ، والمقاطعات الواقعة علىالدانوب ، وافريقيا الغربية) ، كما اقتطعت بالإضافة إلى ذلك مقاطعات لأبناء شقيقة الامبراطور دلماسيوس وهانيباليان .

ولكن ما أن فارق **قسطنطين** الحياة ، حتى تفجرت ثورة البلاط . تم اغتيال أبناء شقيقة الامبراطور ، وأفراد الأسرة الفرعيين الآخرين . وبنتيجة التقسيم الجديد حكم **قسطنطين** الثاني الغرب والمقاطعات الوسطى التي كان يدير شؤونها بإسم أخيه القاصر كونستانت من الناحية الشكلية ؛ بينما بقي الشرق من نصيب كونستانسيوس .

ـ أثناسيوس وحيداً في مواجهة الجميع

أعيد أثناسيوس من المنفى نتيجة تدخل **قسطنطين** الثاني وكونستانت اللذين أدركا مدى العداء الذي أبداه المسيحيون في المقاطعات الغربية حيال الحركة الأريانية . لكنَّ قادة الحركة لم يتوقفوا عن محاولات إيذائه . فاتهموه أمام البابا يوليوس (جاء بعد مرقس الذي لم يطل عهده) . لكن البابا وقف إلى جانب أثناسيوس .

تعاظمت أهمية يوسيبوس النيقوميدي بعد أن أصبح أسقفاً للقسطنطينية . وبإفتراضه أن هذا المنصب يمنحه السلطة على المتربوليات الأخرى ، عزل أثناسيوس من منصبه الأسقفي .

لجأ أثناسيوس إلى روما . ودعى البابا لإنعقاد مجمع كنسي للنظر في القضية . لكن الأساقفة الشرقيين رفضوا المشاركة في أعماله . انعقد المجمع عام ٣٤١ ، وأعلن براءة أثناسيوس . فقام أساقفة الشرق رداً على ذلك ، بالدعوة لانعقاد مجمع كنسي في **انطاكية** في العام ذاته ، وأدانوا أثناسيوس . كما أنهم أقرّوا صيغة جديدة لقانون الإيمان ، بدت مزدوجة المعنى بوضوح تام (أنكر أصحاب الرمز الجديد تعاليم آريوس ؛ لكنهم أستغلوا هيبة لوسيان) .

توفي يوسيبوس بعد إختتام أعمال المجمع بفترة وجيزة ، وهذا ماأدى إلى إضعاف المعسكر الأرياني بصورة واضحة .

نشب صراع في الغرب بين **قسطنطين** الثاني وكونستانت ، قُتل على إثره قسطنطين ، فأصبح كونستانت حاكم الغرب برمته . لاشك في أن الامبراطور الشاب كان راغباً بصدق في تحقيق الوحدة الكنسية ، بالرغم من أنه لم يكن يفهم بدقة كنه النزاع القائم الذي مزق الكنيسة . فمارس ضغوطاً على كونستانتسيوس ، ليسمح بلقاء أساقفة الشرق والغرب في سرديكا (صوفيا) لحل الخلاف ، انعقد المجمع الكنسي في مطلع عام ٣٤٣ ، وشارك في أعماله ثمانون أسقفاً من الغرب ، والعدد ذاته من الشرق . لكنَّ أساقفة الشرق أعلنوا في الجلسة الإفتتاحية بأنهم لن يناقشوا امور العقيدة ، مالم يقر المجمع إدانة أثناسيوس التي تمت في **انطاكية** . حاول ممثلو الغرب اقناعهم بأن قضية أثناسيوس ستدرج في جدول الأعمال ، لابل لمحوا إلى أن أثناسيوس على استعداد للتنازل عن منصبه الأسقفي لما فيه خير الكنيسة ، وذلك بغض النظر عن نتائج المداولات ، بعد التوصل إلى حل فيما يتعلق بالخلاف العقائدي ، ولكن محاولاتهم لم تجد نفعاً . رفض أساقفة الشرق مجرد الاصغاء إلى ذلك ، وغادروا صوفيا خلسة ليلاً .

بعد انسحاب أساقفة الشرق ، ناقش ممثلو الغرب قضية أثناسيوس وأعلنوا براءته . كما أقروا مجموعة من ا لقوانين فيما يتعلق بمنصب الأسقف . منعوا انتقال الأساقفة من أبرشية إلى أخرى (ظلّ هذا القرارا ساري المفعول لبضعة قرون ، وكان سبباً للعديد من الخلافات) ،

وحظّروا الأسفار المتكررة للأساقفة ، وحددوا أسس الإنتخاب ، والرسامة ، والإستئناف إلى روما ؛ لكن الموضوع الأهم وهو قضية الوحدة ، فقد تعذّر على المجمع البتّ فيه وإيجاد الحل الملائم .

اتحد المسيحيون في الغرب والتفوا حول الرمز النيقي وعبارة «مساوٍ للآب في الجوهر» ؛ أما في الشرق ، فبالرغم من الإنقسام الداخلي ، اتحدت الحركة الأريانية في معركتها ضد الصيغة النيقية ، التي قابلوها بآراء مختلفة ـ منها التي انكرت ألوهية يسوع كلياً ، ومنها ماكان مراوغة نصت على عدم جواز تحديد شيء بدقة في هذه القضية .

تعاطف كونستانت مع أنصار صيغة مجمع نيقيا ، بينما وقف كونستانسيوس إلى جانب الحركة الأريانية ، حيث خضع لتأثير قادتها الممثلين بأسقفين منبانونيا هما : فالنس و أوجاسيوس . لكن وجود أبرشيتيهما في المناطق الخاضعة لحكم كونستانت حدَّ من نفوذيهما . وبفضل تدخل كونستانت عاد أثناسيوس ليترأس أسقفية الاسكندرية بعد موت أسقفها المغتصب غريغوري .

طرأت تغيرات هامة عام ٣٥٠ بعد مقتل كونستانت أثناء تمرد مغيسيوس ، الذي حاول إعلان نفسه امبراطوراً على الغرب . شنّ ، كونستانسيوس عام ٣٥٣ حملة عسكرية على مغنيسيوس وهزمه ، وبسط بذلك سلطته على كامل الامبراطورية الرومانية ، فأضحى هذا النصر نصراً للأريانية . حاول الأساقفة المناهضون لمقررات مجمع نيقيا كسب تأييد أساقفة الغرب في هذه المرة ، واتهموا المعارضين منهم «بمعارضة الوحدة» . وفي روما جلس على العرش البابوي ليبيريوس بعد رحيل يوليوس . واقترح على الامبراطور الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في أكويليا . وافق كونستانسيوس على الاقتراح ، لكنه حدد أرليس مكاناً لإنعقاد المجمع ؛ وهو المكان الذي تواجد فيه بنفسه آنذاك . جاء عدد كبير من الأساقفة من غالة للمشاركة في أعمال المجمع ، وكان الصراع القائم غريباً عنهم إلى أبعد حد ، وكانت معرفتهم محدودة ، لكنهم تميّزوا بموقفهم المفعم بالطاعة للإمبراطور . لم يكن في غالة من يعرف أثناسيوس ، كما أنهم لم يفهموا ماالذي تعنيه عبارة «مساوٍ في الجوهر» . ولمّا طالب الأسقف الأريوسي فالنس المجتمعين بإدانة أثناسيوس ، و ترافق هذا بتهديد من الامبراطور بعزل كل من يعارض عن منصبه ونفيه ، خضع الجميع بما فيهم مبعوثي البابا ، باستثناء أسقف ترير .

كان للمدافعين عن الرمز النيقي ممثلا مفعماً بالحماس هو الأسقف لوسيفيريوس من كاغلياري في سردينيا . وهو الذي أقنع البابا ليبيريوس بأن يطلب من الامبراطور الدعوة لعقد مجمع آخر ، وفي هذه المرة انعقد المجمع في ميلانو ، وحضرة ٣٥٠ أسقفاً .

لكن المجمع لم ينعقد في الكنيسة ، وإنما في القصر الامبراطوري . وفرض

كونستانسيوس إرادته على المجتمعين حالاً : أمر بإدانة أثناسيوس . وأعلن قائلاً : «إرادتي هي قانون» . وهدد قائلاً : من يعارض سينفى . لم يعارض أوامره سوى ثلاثة من الأساقفة ، ومن بينهم لوسيفيريوس الكاغلياري . نُفِيَ ثلاثتهم إلى المقاطعات الشرقية ، وأخضعوا لرقابة الأساقفة الأريانيين .

قرر **كونستانسيوس** كسر شوكة البابا أيضاً . حاول أول الأمر استمالته بالهدايا والهبات . ولّما لاحظ بأن ليبيريوس لن يتنازل (بالرغم من أنه كان يبدو خائفاً) ، حكم عليه بالنفي إلى **تراقية** . واستولى البابا المضاد **فيليكس** على أسقفية روما . جاءت الآن لحظة عزل وإبعاد آخر المدافعين عن الرمز النيقي . وفي ليلة الثامن من شباط عام ٣٥٦ ، اقتحم الجنود الكنيسة التي كان أثناسيوس يقيم فيها القداس . تمكن الأسقف من النجاة بنفسه ، لكنه أرغم على الفرار والاعتزال في الصحراء . وهكذا وجدت الكنيسة المصرية الوفية لأثناسيوس نفسها تحت رحمة الأريانيين ، الذين شرعوا بإضطهاد لايقلّ عنفاً عن إضطهادات غاليريوس . استمر الإضطهاد طيلة ثمانية أشهر ، وأدى في نهاية المطاف إلى حدوث قلاقل وفوضى عمَّت البلاد بأسرها ، دون ان يحرز النصر فيها أي من الطرفين المتحاربين ، الأريانيون أو أنصار أثناسيوس .

وفي هذه الأثناء سارع الأريانيون إلى عقد مجمع كنسي في **سيرميوم** عام ٣٥٧ ، أقرّوا فيه صيغة جديدة لقانون الإيمان ، ألغيت فيه عبارة «مساوٍ في الجوهر» على أنها لم ترد في الكتاب المقدس ، وتتجاوز حدود معرفتنا الإنسانية . وتابعت الصيغة الجديدة القول : **«الآب يفوق الابن في الموقع ، والكرامة ، والمجد»** .

أمكن تصور هزيمة الأرثوذكسية كلياً آنذاك . فقد خضعت الكنيسة بعد أقل من ٤٠ عاماً من وجودها المستقل ، لطائفة فرضت عليها عقيدتها . ووجد الذين عارضوا هذه العقيدة أنفسهم في المنفى .

لكن الأريانية المنتصرة كانت متصدعة من الداخل على صعيد العقيدة وعلى صعيد العلاقات الشخصية . لم تتوقف الطموحات والصيغ الجديدة بالظهور ، وسعت كل فئة بكل ما أتيح لها من إمكانيات لكسب ود الامبراطور ودعمه ، متهمة الفئة المنافسة بالهرطقة . وفي هذا الصدد كتب **مارّو** قائلاً : «ظهرت الصيغة تلو الصيغة وهي متناقضة فيما بينها ليس على الصعيد اللاهوتي وحده ، وإنما بسبب تردد الامبراطور قبل كل شيء» . أدت صيغ الأنوميين المتطرفة (قالوا أن طبيعة الابن تختلف كلياً عن طبيعة الآب) في المجمع الذي انعقد عام ٣٥٩ في **سيرميوم** ، إلى سيطرة جماعة توفيقية على زمام الأمور ، وقد ترأسها **باسيليوس (بازيلي)** أسقف أنقرة (رفضت هذه الجماعة عبارة «مساوٍ في الجوهر» التي أمكن أن تثير القلاقل ، لكنها تمسكت بقاعدة الشبه التام بين الآب والابن) .

حاول **باسيليوس** أن يحصل على تأييد البابا **ليبيريوس** والأسقف **أثناسيوس** للصيغة

التي اقترحها ، تنازل ليبيريوس ، واعتبر الكثيرون من المؤرخين هذا الشيء بمثابة «انهيار» البابا و«سقوطه» . ولكن يبدو وكأن موافقة البابا على صيغة باسيسليوس كانت تصرفاً عقلانياً في تلك الظروف ، فقد وُجدت الكنيسة في حالة صعبة ، وَدُفِعَتْ الارثوذكسية إلى دور الهرطقة . فتوجَّب البحث عن تفاهم مع مَنْ رفضوا الرمز النيقي ، ولكنهم لم يتخلوا عن الحقائق الجوهرية المضمنة في الرمز . اعترف **أثناسيوس** بدوره بالصيغة التوفيقية ، بعد ان اكتسب طبعه الحاد شيئاً من المرونة بنتيجة التجارب المريرة ، واستحالت رغبته في الصراع إلى تعطش للوحدة . وقد كتب في هذا الصدد قائلاً : «يجب أن لايُعَامَلَ الذين يتقبلون كل ماأُقِرَّ في مجمع نيقيا ويترددون فقط أمام عبارة «مساوٍ في الجوهر» كأعداء . أليست الكلمة شيئاً ثانوياً ، عندما يتم الاعتراف بطبيعة الشيء ؟» .

مكنَّت موافقة ليبيريوس على صيغة **باسيليوس** البابا من العودة إلى روما . وكان هناك **فيليكس** أيضاً . ونشأ وضع غريب ، حيث مارس البابا والبابا المضاد السلطة البابوية معاً في آن واحد لفترة من الزمن . لكن هذا ما أثار حنق جماهير المؤمنين فخضع فيليكس لإرادة الجماهير وغادر **روما** طواعية .

بدت الأمور وكأنها في طريقها إلى التحسن . ولكن **كونستانسيوس** للأسف فقد الثقة بغتة بمجموعة **باسيليوس** التوفيقية . واستعادت الأوساط المعادية لمقررات نيقيا مواقعها ونفوذها . وبنتيجة ذلك ظهر مشروع جديد لعقد مجمعين كنسيين بآن واحد : في **ريميني** للغرب ، وفي **سلوقية** للشرق . ومن ثم دراسة نتائج مداولات المجمعين في لقاء يحضره ممثلو الجانبين بحضور الامبراطور ، وتوحيدها . انتهت المداولات في ريميني بسرعة . ففي البدء رفض الأساقفة الصيغة التوفيقية المتفق عليها في **سيرميوم** ، والتي نصت على ان «الإبن مشابه للآب» ، وبعثوا بممثليهم إلى الامبراطور مزودين بهذا القرار . ولّما تأخر المبعوثون في العودة ، و ملَّ الأساقفة الإنتظار وهم يتعرضون للضغوط التي مارسها ممثلو الامبراطور عليهم للتراجع عن قرارهم ، خضعوا في نهايةالمطاف ، ووقعوا الصيغة التوفيقية .

أما في سلوقية فقد بدأت معركة حامية الوطيس بين أنصار شتى المقترحات . وعجزت المداولات الممتدة إلى مالا نهاية عن التوصل إلى اتخاذ أي قرار اجتمع ممثلو الشرق الذين لم يتوصلوا إلى نتيجةٍ مع ممثلي الغرب في القسطنطينية . وأمام قبول أساقفة الغرب للصيغة التوفيقية ، ظلّت النزاعات قائمة بين أنصار الصيغ الرافضة لعبارة «مساوٍ في الجوهر» . وفي نهاية المطاف هُزِمَ التيار التوفيقي الممثل بأسقف أنقرة **باسيليوس** ، وانتصرت الصيغة القائلة **بإنسانية يسوع** ، والتي رفضت جوهر المادة الإلهية بدقة . وهكذا انتصرت الأريانية مجدداً . وكما قال القديس **هيرونيم** «اكتشف العالم وهو مذعور ، انه أصبح أريانياً ، بسبب خنوع الأساقفة الذين أرعبهم خصيّو القيصر» .

ـ يوليان الجاحد

في اللحظة التي انهمك فيها الامبراطور في فرض الأريانية على الكنيسة ، انتهت مرحلة السلم التي سادت في عهد **قسطنطين** على حدود الامبراطورية . اقتحم شابور ملك الفرس **بلاد الرافدين** ، وهدد **الكواديون و السرماتيون** الحدود على نهر **الدانوب** . وقبل ذلك الحين ، وجد **كونستانسيوس** نفسه مرغماً بنتيجة الضغط الجرماني على تعيين ابن عمه **يوليان** امبراطوراً على الغرب ، علماً أنه كان محطَّ كراهيته حتى ذلك الحين ، وهو الوحيد الذي خرج سالماً من مجزرة القصر بعد رحيل قسطنطين . أثبت **يوليان** ، وعلى نحو غير متوقع ، كفاءة عالية في الحرب مع الجرمان . وطالبه كونستانيسوس عندئذ بتقديم أفضل فيالقة لزجها في حربه مع الفرس . فنادت فيالق **غالة بيوليان** «أغسطساً» ، وعلى رأسها زحف نحو الشرق طلباً للسلطة .

يصعب التكهن بنتائج المعركة لو لم يمرض **كونستانسيوس** ويفارق الحياة بغتة عام ٣٦١ قبل اصطدام الجيشين . وقد تلقى سر المعمودية قبل موته من يد أسقف **آريوسي** .

كيف لنا أن نقيِّم **كونستانسيوس** ؟ يدعوه كل من **أثناسيوس وهيلاريوس** «بالمسيح الدجّال ، والمضطهد الخفي ، والأسوأ من نيرون وديسيوس» . ولكن مالايرقى له الشك ، هو أن كونستانسيوس كان مقتنعاً بطريقته الخاصة بأنه يعمل لخير الكنيسة . لكنه أرتأى مثل والده أن تكون المسيحية ديانة رسمية في الدولة ، وأن يصبح هو «زعيماً» لهذه الديانة .

وانطلاقاً من هذا الموقف ، شنَّ **كونستانسيوس** حرباً شعواء على الوثنية . ففي عام ٣١٤ منع تحت طائلة عقوبة الموت تقديم الأضاحي الوثنية . ثم أصدر أوامراً بإغلاق المعابد ، واعتبر اللجوء لخدمات المنجمين جريمة .

لم يكن يفهم المسيحية . فالكنيسة لم تكن بحاجة لاضطهاد المعتقدات القديمة ، وخاصة بعد أن فقدت هذه الأخيرة كل جاذبيتها . كانت حرية العمل الشيء الأساسي الذي احتاجته الكنيسة ، لتتمكن بدون ضغوط خارجية من تدقيق تعاليمها ، والعمل على تحقيق التحول الجوهري في المجتمع الذي ظلَّ ملتزماً بتقاليده وأخلاقياته الوثنية بصيغة منحطة ، بالرغم من اعتناقه المسيحية . أضحى محيط الامبراطور شبيهاً ببلاط **مرزبان شرقي** . **ناقش رجال الحاشية أمور الدين وقواعده ، لكن حياتهم كانت لاأخلاقية إلى أبعد حد** . فرض القيصر العقوبات على معتنقي الوثنية ، ولكنه احتفظ لنفسه بلقب «الأزلي» . أما قصره فقد أُطلق عليه اسم «القصر المقدس» ، وقيل بأن المراسيم الامبراطورية توقع «بيد إلهية» .

أحاط الامبراطور نفسه بالآريوسسيين المتملقين ، واقتنع بدوره مافوق الإنساني ، فاعتبر المدافعين عن مقررات مجمع نيقيا «أعداء المسيحية الحقة» ، وحاربهم بصرامة مطلقة ، كسر

شوكة الكثيرين ، لكنه للأسف لم يصادف في طريقه الكثير من الشخصيات القوية الفذة .

لاشك بأنه بسلوكه هذا ، سبب للمسيحية من الأضرار أكثر ما سببه الأباطرة الذين اضطهدوها . فقدت المسيحية استقلالها في ظل حكمه ، وبإعتماده على أتباع آريوس ، فرض عليها الأريانية . ولو أنه ناصر الأرثوذكسية ، لما كان الشر الناجم عن ذلك أقل وطأة . فالمسيحية يجب ان تبنى من قبل المسحيين .

لكن الحالة تغيرت جذرياً على نحو مباغت . فقد أنقذ **يوليان** الكنيسة . يبدو هذا الكلام تناقضاً صرفاً ، لأن **يوليان** سيلقب تاريخياً بالجاحد ، و هو كذلك ، فهو الذي حاول جاهداً إعادة الإعتبار للمعتقدات الوثنية .

يعد يوليان الفيلسوف الثاني بين أباطرة الرومان بعد ماركوس أوريليوس فهو مُبَّجل أفلاطون ، والرواقي ، والزاهد في شخص واحد ، والمتحمس للأخلاقية الرومانية القديمة . نظر بشيء من الامتعاض إلى المسيحية ، لابل شعر بالكراهية نحوها .

لاشك بأن هذه المشاعر كانت وليدة تجارب الطفولة . لأن **يوليان** لم يشاهد المسيحية كما وجب أن تكون . **قسطنطين** كان في نظره فاسقاً ، وجد في المسيحية غطاء ملائماًلسلوكه . اما التناقض بين المسيحية التي اعتبر الامبراطور نفسه «زعيماً» لها وبين حياة البلاط الامبراطوري فكان أكثر من حقيقة . كماأن المسحيين الذين صادفهم **يوليوس** كانوا رمزاً للفساد . فهم من رجالات البلاط المتآمرين من أمثال **يوسيبوس النيقوميدي** ؛ والماديين الجشعين من أمثال **يوري القبدوقي** الذي عينه الآريوسيون بديلاً لأثناسيوس . كانت المسيحية التي تخاصم ممثلوها ، في نظر ذلك الفيلسوف المفكر مجرد «مذهب همجي» و «إلحاد» (فقد أمرت بعبادة (الجثث» بدلاً من عبادة الآلهة) . أما حياة الرهبنة التي بدأت تشيع ، فقد أثارت (امتعاض **يوليان** ، لأنه وجد فيها مجرد هرب من الحياة» .

اتخذ **يوليان** ظاهرياً موقف من يرغب في العودة إلى التسامح الديني الذي أقرَّه إعلان ميلانو ، لكنه حلم في واقع الأمر بإعادة الوثنية . لكن الوثنية التي أراد «بعثها» من جديد مشبعة بالزهد والسمو الفكري لم تكن لتعجب الوثنيين أيضاً ، لأن معظم الوثنيين الذين كانوا لايزالون يقومون بخدمة الآلهة ، فعلوا ذلك دون قناعة أو إيمان ، بل اختاروا الوثنية كديانة أبسط ذات متطلبات أقل .

اعتقد **يوليان** أنه بتطبيقه قاعدة التسامح التام على كافة المذاهب والطوائف ، سيتمكن من سحق المسيحية ، لأنها ستنهار نتيجة صراعاتها الداخلية . كما عمل جاهداً على بث الخلافات في صفوف المسيحيين . ولإغاظة المسيحيين أكثر ، قام بدعم اليهود وحاول إعادة بناء معبد **اورشليم** . لكن النتائج كانت عكسية تماماً . فقد استعادت المسيحية المحرومة من «رعاية» القيصر وجهها الحقيقي . فبدأت الاريانية تتراجع وتتقهقر امام الميول الهادفة للعودة

إلى العقائد المقررة .

شعر **يوليان** بالضيق من هذا الإكتشاف فألقى بأسلوب التسامح جانباً ، وانتقل إلى الحرب العلنية . وعلى الرغم من انه منع الإضطهاد مراراً ، تحول تحت تأثير الغضب إلى مضطهد . **فأثناسيوس** الذي سمح له في بادئ الأمر بالعودة إلى **الاسكندرية** (متوقعاً ان وجوده سيثير نزاعاً جديداً بين الأريوسيين وأنصار الأسقف) ، أرغم مجدداً على الفرار إلى الصحراء . أدرك **يوليان** مدى أهمية الثقافة في الحياة الدينية ، فمنع المسحيين (الذين ضمت صفوفهم العديد من المعلمين) من تعليم الفلسفة والأدب الكلاسيكي .

أراد قطع الصلة بين المسيحية وبين الأصل الاغريقي ـ الروماني ، ودفعها إلى دور العبادة «الهمجية» .

حالت الحرب دون تنفيذ مخططاته . أعدَّ جيشاً جراراً قوامه خمسة عشر ألف رجل ، وانطلق على رأسه في آذار عام ٣٦٣ لمواجهة الفرس . ونشر قبل ذلك مقالة بعنوان Contra christanos ، مفعمة بالكراهية للديانة التي احتقرها .

سقط في ساحة المعركة مصاباً بجرح قاتل . وينسب **تيودوريت** إلى **يوليان** الذي كان ينازع صرخة : «انتصرت أيها الجليلي» .

قد لاتكون هذه سوى أسطورة ، بالرغم من انها تبدو واقعية . لأن يوليان أطلق على المسيحيين دوماً اسم «الجليليين» وعلى **يسوع** اسم «الجليلي» (ربما متملقاً لليهود الذين حاباهم) . ولكن هذه الصرخة ، حقيقة كانت ام أسطورة ، عبرت عن مشاعر **يوليان** الحقيقية . أدرك الامبراطور المنازع ، وهو الرجل الحكيم ، أن المسيحية التي حاربها وسخر منها ، أصبحت قوة عظمى مجدداً ، اما الاريانية فقد تراجعت بعد ان فقدت تأييد الامبراطور ، وكشفت عن جوهرها الحقيقي : بأنها ليست رغبة لبلوغ الحقيقة ، وإنما انعكاساً لتحقيق طموحات فكرية . أضحت فلسفة الامبراطور المناهضة للمسيحية حافزاً للفلاسفة المسيحيين ، وأثارت مقالاته الجدلية جدلاً مضاداً . واكتسب عمل المؤلفين المسيحيين الابداعي طاقة جديدة . طُويت النزاعات الداخلية ، لتفسح المجال أمام دفاعات جديدة . اما الاضطهادات ، فقد بعثت رجال الكنيسة : استخلصت منهم القوة الأخلاقية التي افتقروا لها سابقاً .

ـ محاولات العودة إلى الوحدة

لم يتوقف العمل الهادف إلى إعادة الوحدة الكنسية حتى في عهد **يوليان** . فقد بادر **هيلاريوس** أسقف **بوتيرز** Poitiers بعد عودته من المنفى الى الدعوة لانعقاد مجمع كنسي في

باريس عام ٣٦٠، أيدَّ فيه أساقفة غالة مقرارات مجمع نيقيا ، بعد ان فهموا في هذه المرة جوهر الخلاف القائم . ودعا **أثناسيوس** على نحو مشابه لإنعقاد مجمع كنسي عام ٣٦٠ ، عبَّر فيه الأساقفة المصريون أيضاً عن إراداتهم في البقاء مع الرمز النيقي .

بدت الأوضاع في **انطاكية** شديدة التعقيد ، لأن أنصار مقرارات نيقيا أنفسهم شكلوا مجموعتين متناحرتين . إحداهما ـ وهي الأصغر ـ التفت حول الكاهن **باولين** ، والثانية الأكبر عدداً من الأولى بكثير ـ حول **ميليسيوس** الذي رسمه أتباع **آريوس** أسقفاً **لأنطاكية** ، وانتقل فيما بعد إلى مواقع أنصار الكنيسة الجامعة . لكن خصوم ميليسيوس اعتبروه أريانياً ، مما دفع **لوسيفيريوس** أسقف كاغلياري إلى سيامة باولين أسقفاً . وهكذا وُجد في **انطاكية** ثلاثة أساقفة في آن واحد ، حيث كان هناك أسقف أرياني أيضاً .

استولى **جوفيان** على السلطة في **روما** بعد موت يوليان ، وكان من أنصار الارثوذكسية ، فألغى حالاً المراسيم التي كان يوليان قد أصدرها ؛ لكنه انهمك في شؤون الامبراطورية ، ولم يتدخل في الخلافات القائمة بين الأريانيين وأنصار الرمز النيقي . وعلى أي حال ، توفي بعد نصف عام فقط من استلامه مقاليد الحكم ، وذلك عام ٣٦٤ . فخلفه على العرش **فالينتينيان** الذي اختار شقيقه **فالنس** امبراطوراً على المقاطعات الشرقية .

كان **فالينتينيان** من أنصار الأرثوذكسية ، وقد اضطهده يوليان بسبب ذلك . وبعد قدوم الامبراطور الجديد إلى ميلانو التي أضحت عاصمته ، أعلن أنه لايزمع التدخل في أمور الكنيسة . رغب قبل كل شيء في أن يسود الهدوء المقاطعات التابعة له ، ولذلك ترك **أوكسينسيوس** أسقفاً في ميلانو ، وهو الممثل الوحيد للأريانية في الغرب . وعلى أي حال ، فقد اعترف **أوكسينيوس** رسمياً بالرمز النيقي ، مثلما فعل الأساقفة الآخرون من في الغرب . أما **البابا ليبيريوس** (باني كنيسة العذراء المعروفة بإسم Maggiore في روما) فقد اتصل مع الأسقف أثناسيوس الذي عاد إلى الإسكندرية مجدداً ، وأصبح قائداً للحركة الأرثوذكسية ثانية .

اتخذت الأمور في الشرق منحىً مختلفاً . فقد خضع **فالنس** لتأثير أسقف القسطنطينية الأرياني **يودوكسوس** ، وأصدر امراً يلزم جميع الكنائس **بالصيغة الأريانية** المعتمدة . ولمّا انطلق لمحاربة الفرس ، زحف القيصر عبر المقاطعات الشرقية ، وقام حيثما حلَّ في طريقه بعزل الأساقفة الأوفياء للرمز النيقي عن مناصبهم . وهكذا أرغم أثناسيوس للمرة الخامسة على مغادرة **الاسكندرية** والفرار إلى الصحراء . كما أبلغ **ميليسيوس** أسقف **انطاكية** بقرار النفي (أما الأسقف **باولين** فلم يتعرض له **فالنس** ؛ ربما بسبب نفوذه المحدود في **انطاكية**) . ومع تصفية أساقفة الشرق ، سحق القيصر الأنوميين أيضاً (وهم كما نذكر ، ممثلو الجناح الأرياني المتطرف الذي أنكر ألوهية **يسوع** كلياً) .

أرغمت محاولة التمرد التي قادها بروكوب ابن عم يوليان في القسطنطينية ، **القيصر فالنس** على إلغاء حملته الموجهة ضد الفرس . وبعد العودة إلى القسطنطينية ، وبهدف إرضاء السكان قبيل تصفية الحسابات مع المتمردين ، ألغى فالنس بعض أوامره السابقة واعاد **أثناسيوس وميليسيوس** إلى منصبيهما .

اعتمد القيصر على المجموعة الأريانية «المركزية» التي مثَّلها الأسقف **يودوكسوس** وعلى يده تلقَّى فالنس سرَّ المعمودية . بينما استمر الأريانيون المعتدلون في البحث عن وسيلة للتفاهم مع أنصار مجمع نيقيا ومقرراته . لكنَّ مجمعاً كنسياً اتُفِقَ على انعقاده في **تاراس** ، لم ينعقد بسبب الحظر الذي فرضه فالنس . وعلى وجه العموم ، لم يعر القيصر القضايا الكنسية اهتماماً طيلة فترة إنشغاله بالحرب مع القوطيين الذين اقتحموا حدود مقاطعاته .

عاد الهدوء إلى المناطق الحدودية عام ٣٧٠ ، وعندئذ توجه فالنس إلى **انطاكية** حيث أراد الإقامة بصورة دائمة . ولكنه قبل ذلك ، فرض على **القسطنطينية** الأسقف الأرياني **ديموفيل** خلفاً للأسقف الراحل يودوكسوس . وقد عارض هذا القرار ثمانون من القسس وتمَّ تشتيتهم في أنحاء البلاد ، **اما الكاهن الذي ترأس هذه المجموعة ، فقد وُضع على مركب ، و أحرق مع المركب في عرض البحر بأمر من القيصر .**

ومرة أخرى قام فالنس لدى مروره بالمقاطعات الشرقية ، بإرغام أساقفة المدن التي توقَّف فيها ، على إعلان طاعتهم للصيغة الأريانية . وقد تعرض من عارض ذلك للعقاب والنفي . كما مورست أعمال عنف ، وأُريقت الدماء ، ودنِّست الهياكل ، ولم يجرؤ أحد على معارضة القيصر في كل من **غلاطية** و **بيتينيا** .

أما في **قبدوقية** فقد اعترض طريق القيصر رجل بعناد صلابة **أثناسيوس** ، هو **باسيليوس** الكبير .

ـ باسيليوس الكبير

هو أسقف **قيصرية** قبدوقية ، ابن مدرس للبلاغة ، سليل أسرة ثرية ، عاش فترة حياة النساك في الصحراء . انْتُخِبَ أسقفاً بالرغم من معارضة عدة جهات ، بعد تدخل صديقه الأسقف **غريغوري** النزينزي ذو النفوذ الهائل . عمل ابن **غريغوري** ، المسمى **غريغوري أيضاً** كاهناً إلى جانب والده . درس مع **باسيليوس** في أثينا ، ثم أقام في الصحراء . وقد عُرِفَ كشاعر ومحرر مقالات موجهة ضد **يوليان** .

عندما جاء ممثلو القيصر إلى **باسيليوس** لإرغامه ـ كما جرت العادة ـ على الاستجابة لطلبات فالنس ، رفض **باسيليوس** نداءاتهم بصورة قاطعة . والغريب في الأمر أن فالنس لم

يحاول ممارسة العنف مع الأسقف العنيد . تركه بسلام ، مثلما ترك أثناسيوس من قبل (ربما شعر القيصر المؤمن بالمعتقدات الخرافية بالخوف من الأسقف ذو النفوذ الكبير) . لكنه لم يعدل عن سياسته تجاه الآخرين .

استمرت المحاولات الهادفة لإعادة الوحدة إلى الكنيسة بالرغم من إضطهادات فالنس . وكان النزاع الذي مزّق **الاسكندرية** قضية على درجة عالية من الأهمية . فقد حظي **ميليسيوس** بتأييد غالبية المسيحيين ، وبصداقة كلٍ من **باسيليوس** و **غريغوري** النزينزي . أما **باولين** ، فقد اعتمد على دعم **روما** والأسقف **أثناسيوس** ، علماً أن الأخير اعترف بأن تنصيبه أسقفاً لم يكن شرعياً .

ولَمّا توفي **أثناسيوس** عام ٣٧٣ ، خاطب **باسيليوس** البابا (دامازي الذي خلف ليبيريوس) برسالة ، أعرب فيها عن إلتزامه بالرمز النيقي ، ودافع عن ميليسيوس . كما طالب البابا بإرسال كهنة إلى الشرق للعمل على إعادة الوحدة إلى الكنيسة . وكان رد فعل البابا مذهلاً ، فقد أهمل الرسالة واعتبرها غير كافية ، وطالب بإرسال وفد .

اعتقد **باسيليوس** أن طلب البابا «مبالغ فيه» ، لأن الوقت لم يكن ملائماً لإرسال الوفد . فقد استقر فالنس في **انطاكية** ، بينما اضطر ميليسيوس المطرود من قبله للجوء إلى أرمينيا . أما الكنائس الجامعة التابعة له ، فقد أُغلقت أو سُلِّمَتْ للأريانين . وتعرَّض أنصار الأسقف لخطر الموت . أما **باولين** الذي اعترف به البابا ومجمع **الاسكندرية** أسقفاً شرعياً ، بالرغم من انه لم يمثل سوى مجموعة صغيرة ، فقد نَعِمَ بهدوء تام .

تعرضت كنيسة **الاسكندرية** أيضاً لإضطهاد عنيف دام أربعة أعوام . لم يهاجم فالنس الأسقف أثناسيوس وهو على قيد الحياة ، ولكنه أوعز بعد وفاته مباشرة إلى السلطات المحلية بالبدء باضطهاد أنصار الارثوذكسية ، فدنست الكنائس وتعرضوا للإعتقال ، والتعذيب ، والقتل أيضاً . بينما فرَّ **بطرس** شقيق أثناسيوس الأصغر وخلفه فيما بعد إلى روما ، وامتدت الإضطهادات لتشمل كافة أنحاء مصر .

توقفت أعمال الإضطهاد بغتة بعد أن زحف القوطيون على **تراقية** وهدد الفرس **أرمينيا** . بلغت هذه الأنباء مسامع فالنس في **انطاكية** ، فغادرها إلى القسطنطينية على جناح السرعة ، ومن هناك انطلق لمواجهة القوطيين . فَهُزِمَ هزيمة نكراء على مقربة من **هدريانوبول** وقُتل عام ٣٧٨ في ساحة المعركة .

كان **باسيليوس** الذي لقَّبه المعاصرون بالكبير متروبوليت قبدوقية . وقد رسم شقيقه **غريغوري** أسقفاً على نيس ؛ كما أراد تعيين **غريغوري** النزينزي أسقفاً في ساسيم (و هذا مارفضه **غريغوري** متذرعاً بالإفتقار إلى المقدرات الإدارية) . وعلى الرغم من صحته المتوعكة ، عمل بقدر كبير من التضحية من أجل المقاطعات التابعة له . لكنه عرف طعم المرارة من جانب

مساعديه الذين كانوا جاحدين في معظم الأحيان ، وكذلك من قبل البابا الذي تعامل معه بعدم ثقة حتى النهاية ولم يعترف بالأسقف ميليسيوس الذي كان يدعمه . توفي عام ٣٧٩ مخلفاً إرثاً أدبياً لايستهان به .

ـ البابا دامازي والأسقف أمبروزي

جلس البابا الذي عجز في اللحظات المأساوية عن الاستجابة لإستغاثة مسيحيي المقاطعات الشرقية ، على العرش البابوي بعد معركة حامية الوطيس مع مرشح خصومه المنتخب في الآن ذاته ، وهو أورسين . دارت في **روما** على مدى ثلاثة أيام رحى معركة حقيقية ، أُريقت خلالها الدماء ، واحْتُلَّتْ الكنائس وكأنها قلاع .

لم يكن هذا بالتأكيد مشهداً مشجعاً بالنسبة للوثنيين الذين كانوا لايزالون يشكلون غالبية سكان روما . كما ان منظر القصر البابوي ذاته أغاظ الوثنيين ؛ إذ انه لم يكن سوى خامس البابوات الذين مارسوا عملهم بحرية ، ولكنه عاش كأمير . أغدقت عليه الأسر الرومانية الثرية الهبات ، فأصبح الشخصية الأولى في **روما** بعد أن هجرها الامبراطور . وقد يكون هذا الصعود مادفع دامازي إلى اتخاذ ذلك الموقف المتغطرس .

لم تنته المعركة مع أورسين بعد جلوس دامازي عام ٣٦٦ على العرش البابوي . فقد تحالف أورسين مع رجال أقوياء وأصحاب نفوذ ، وبفضل ذلك أفلح في البقاء في روما . واستمرت المعارك الكلامية تارة والمسلحة تارة أخرى حتى عام ٣٨١ .

قد يكون أورسين الذي بحث عن تحالفات ضد دامازي في كل مكان ، بما في ذلك التحالف مع المهرطقين ، هو السبب في ظهور جماعة اللوسيفيريين (اتباع الأسقف الراحل لوسيفيريوس في كاغلياري ، الذي اختلف مع **روما** بسبب رفضه منح الغفران للأريانيين الراغبين في العودة إلى الكنيسة ، علماً أنه دافع دفاعاً مستميتاً عن الرمز النيقي) ، والدوناتيين ، والأريانيين في روما . وتعرض البابا لهجمات مستمرة من قبلهم .

لكن البابا حظي بحليف فذ ، حليف تسلم زمام المبادرة من يده .

توفي أسقف ميلانو الأرياني عام ٣٧٤ وهو أوكسينسيوس ، واجتمع الجمهور لإنتخاب خلف له . لاح في الأفق شبح خلاف حاد بين مرشح الكنيسة الجامعة والمرشح الأرياني ، فاقتحم الكنيسة (لتهدئة الأوضاع) حاكم المقاطعة أوريليوس أمبروسيوس ، وهو الشاب الموظف الذي حظي باحترام الجميع . ولّما مرَّ وسط الحشد المهتاج ، سُمِعَ صوت طفل ينادي : «ليصبح **أمبروزي** أسقفاً !» ، وفي الحال دوَّت مئات الأصوات مرددة هذا الشعار .

لم يجدِ رفض **أمبروزي** نفعاً ، كما لم تُجْدِ محاولته في الهرب . أُرغم علىالبقاء ،

واضطر للنزول عند رغبة الجمهور . لم يكن معمداً بعد ، فتقبل سر المعمودية أولاً ، ومن ثمَّ سر الكهنوت ، ورُسِّم أسقفاً .

لم يكن في وسع أحد أن يتوقع أن انتخاب مَنْ سيصبح مستقبلاً أسقفاً سيتم بهذه الصورة الغريبة . كان أول ماقام به **أمبروزي** هو توزيع ممتلكاته على الفقراء ، وظلَّ طيلة حياته يرعى المحتاجين ؛ وسوف يقول فيما بعد : «إنه لمن العار أن توجد آنية ذهبية على المذبح ، وفي الأسر مَنْ هم بحاجة للإفتداء» . وكانت الخطة الثانية للأسقف الجديد ، هي المباشرة بدراسة لاهوتية معمقة .

كادت المعرفة الدينية حتى ذلك الحين أن تقتصر على الشرق وحده . **فباسيليوس** الكبير **وغريغوري** النوسي ، **وغريغوري** النزينزي - هم رجالات ذلك العصر . وعنهم يقول **داوصن** : «بفضل جهودهم تمكنت الكنيسة من إعطاء العقيدة المسيحية صيغة فكرية صرفة ذات عمق» .

نقل **يسوع** إلى الرسل (بصورة مباشرة أو بإلهام من الروح القدس) كل المعرفة المخصصة للبشر والمتعلقة بالألوهية . وتتضمن الأناجيل والتقليد الرسولية الوحي كله . ولكن الرسل في تقديمهم الأمانة التامة للوحي الإلهي للكنيسة الأولية ، نقلوها إليها على هيئة مجموعة من القواعد ، وليس كجملة من الأجوبة على كافة التساؤلات المحتملة والتي ستطرح عبر التاريخ . وكان على الكنيسة حفظ هذه الأمانة والإجتهاد بها . وهي المسؤولة عبر التاريخ عن تفسير تلك الحقائق والتعرف عليها تدريجياً ، بعد ان تضمنتها التعاليم الرسولية منذ البدء بصورة مستترة وغير مصاغة . وللقيام بهذا النشاط ، تملك الكنيسة نعمة الروح القدس العاملة فيها أزلياً : نور النبوة ونور الإيمان . تؤمن الكنيسة بالحقائق التي تقوم بتعريفها في اللحظة الملائمة بحكم الضرورة وإلهام النبوة .

لم تكن عقيدة «المساواة في الجوهر» شيئاً جديداً غير موجود من قبل . فالإيمان بهذه العقيدة كان قائماً دوماً في الكنيسة . وتوجب العثور على المصطلح الملائم للتعبير عنها .

وكان العثور على هذا المصطلح ، وكذلك على مبراراته المرتبطة بمنابع الإيمان ، من واجب «الأنبياء» . أما «أنبياء» تلك العصور ، فهم جيل كامل من العلماء الذين يطلق عليهم اسم آباء الكنيسة .

كاد آباء الكنيسة حتى ذلك الحين أن يظهروا في الشرق وحده . ورغب **أمبروزي** الذي تميز من قبل بغزارة علمه ، التزود بمنجزات الفكر الإغريقي . وقد تمكن هيلاريوس قبله من ان يلمع بعلمه المكتسب أثناء نفيه المتكرر إلى المقاطعات الشرقية . بينما نهل **أمبروزي** من تأملات آباء الكنيسة الشرقيين دون حاجة للسفر إلى الشرق ، وأصبح نداً لهم خلال فترة وجيزة . فربط شفافية الفكر الهلنستي بالمنطق اللاتيني ، والتأمل الفكري بضرورة الإستخدام

العملي للتأملات في حياة الكنيسة والدولة . وهكذا نجد الموظف الحكومي السابق راغباً في ربط هاتين المؤسستين معاً . ولذلك قام **أمبروزي** وليس البابا دامازي بتنظيم العلاقة بين الامبراطور والكنيسة .

توفي **فالينتينيان** عام ٣٧٥ ، وظلَّ **فالنس** في الشرق . بينما اقتسم إبنا فالينتينيان غراسيان وفالينتينيان الثاني الشطر الغربي من الامبراطورية فيما بينهما .

أوكل الأب رعاية ابنه الأكبر **غراسيان** للأسقف **أمبروزي** ، الذي أشرف على تكوين تفكير وطبع القيصر الشاب . وتحت تأثيره تخلَّى غراسيان عن لقب «الكاهن الأعلى» ، الذي كان لايزال في عداد ألقاب الامبراطور الرسمية . وفي عام ٣٨٢ أوصى بإزالة تمثال الإلهة فكتوريامن مجلس الشيوخ . وبناء على طلبه ، شرح له **أمبروزي** حقائق الدين ، وفسرَّ له فيما تكمن أخطاء الأريانيين .

بعد موت فالنس ، قام **غراسيان** بتعيين **ثيودوسيوس** عام ٣٧٩ امبراطوراً على الشرق . وبعد فترة وجيزة لقي حتفه على يد جنوده أثناء تمرد مكسيم قائد الفيالق البريطانية ، الذي أعلن نفسه حاكماً للغرب في غالة .

كان لموت **غراسيان** وقعاً مؤلماً في نفس **أمبروزي** . فأصغر الأخوين ، فالينتينيان الثاني ، ترعرع تحت رعاية والدته **جوستينا** ، المرأة الطموحة والمعادية لـ**أمبروزي** ، والخاضعة لتأثير الأريانيين . ولكنها في الوضع المأساوي الذي أسفر عنه تمرد مكسيم وهدد إبنها الثاني أيضاً بالخطر ، أخفت جوستينا مشاعرها الحقيقية نحو **أمبروزي** ، وطلبت إليه الدفاع عن قضية فالينتينيان الثاني ضد المغتصب . سافر **أمبروزي** إلى غالة ، حيث قابل مكسيم ، وحصل منه على وعود تؤكد بأنه سيترك إيطاليا وافريقيا الشمالية لفالينتينيان . وقد تعذر الحصول على أكثر من ذلك آنذاك . احاط **أمبروزي** القيصر **فالينتينيان** الثاني برعايته وأصبح القيصر الشاب تحت تأثيره مدافعاً متحمساً عن الكنيسة الجامعة . بينما اختلف الأمر بالنسبة لجوستينا ؛ فحالما اقتنعت بزوال الخطر المحدق بإبنها ، بدأت بمحاربة **أمبروزي** . بذلت قصارى جهدها للإستيلاء على بعض الكنائس في ميلانو وتسليمها للأريانيين . لكن **أمبروزي** واجه الموقف بصلابة ، بالرغم من ان **جوستينا** أصدرت امراً بنفيه . وعلى أي حال ، لم يجرؤ أحد على اعتقال الأسقف الذي تمتع بكل ذلك النفوذ .

طلب **أمبروزي** إلى المؤمنين التجمع في الكنائس المهددة ، وبقي معهم ليل نهار ، مفوتاً بذلك الفرصة على الخصم ومانعاً إياه من الإستيلاء على المعابد بالقوة . ولكي يملأ الفراغ ويشغل الساهرين في الكنائس ، أدخل عادة ترتيل المزامير التي شاعت في الشرق ، بالإضافة إلى تراتيل شديدة التعقيد .

عاد مكسيم من جديد يُهدد فالينتينيان عام ٣٨٤ . ولما عجز **أمبروزي** عن تحقيق أية

نتائج في مهمته الجديدة ، فرَّت جوستينا وابنها إلى **سالونيكي** ، ولجأت إلى **ثيودوسيوس** . واجه امبراطور الشرق مكسيم المغتصب ، وهزمه ، ثم حكم عليه بالموت عام ٣٨٨ .

توفي البابا **دامازي** قبل ذلك الحين في عام ٣٨٤ . وإذا لم يكن قد تمتع بمزايا رجل الدولة العظيم ، فقد قدَّم خدمات جليلة بتكريم ذكرى شهداء **روما** أيام الإضطهادات التي طواها النسيان لأعوام طويلة . سمح دامازي بحفظ السراديب ، ورفع العديد من الأوابد الأثرية التابعة للكنيسة الرومانية ، التي لاتقدر بثمن من الأنقاض . ومن مآثر دامازي الخالدة ، تكليف سكرتيره **هيرونيم** (أحد آباء الكنيسة) بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية .

أنتخب **سيريسيوس** خلفاً للبابا دامازي . وسوف يذيع صيته كمحرر لأولى الرسائل البابوية الرسمية Decretalia . وبهذه الرسائل طالبت العاصمة الرسولية بحقها في رئاسة الكنيسة .

ظلَّ نفوذ **أمبروزي** هائلاً ، فقد كان واعظاً قديراً أحاطته الجماهير بالتكريم . ولم يكن الوصول إليه بالأمر اليسير ، على الرغم من أن العادة السائدة في قصر الأسقف سمحت بالدخول لأي كان .

«غالباً . . . كنا نجده يقرأ صامتاً ، وليس غير ذلك . وبعد ان كنا نجلس لفترة من الزمن صامتين ـ فمن كان يجرؤ على مخاطبته وهو منهمك في المطالعة ؟ كنا نغادر دون أن نتفوه بكلمة . اعتقدنا انه لايرغب في أن يزعجه أحد عندما يستغل تلك اللحظات القليلية التي يهرب فيها من ضجيج مشاكل الناس لتنشيط ذهنه» . لم يكن **أمبروزي** يعرف شيئاً عن الحمى التي نهشت الشاب الذي جلس أمامه صامتاً ، أو عن وقوفه على «شفير الهاوية» كما اعتقد بنفسه . أما الحقيقة فكانت غير ذلك ، كان الشاب قد أنقذ نفسه ، وكان له عمّا قريب أن يصبح الأكبر بين آباء الكنيسة . كان هذا الشاب ، القديس **أوغسطين** .

ـ بدايات حياة الرهبنة

لم يكن القديس أنطونيوس الذي أسلفنا ذكره أول النساك . فقبل ذلك الحين ، نصادف أناساً يستقرون في الصحراء بحثاً عن الله في العزلة ، والصلاةو والصيام ، والزهد الصارم . وقبل أن يلجأ أنطونيوس نفسه إلى الصحراء ، أقام لردح من الزمن كتلميذ لدى ناسك مسن هناك . ثم اعتكف لفترة في قبر مهجور . واستقر بعدها لمدة عشرين عاماً بين أنقاض القلعة الرومانية بيسبير . وبعد أن أمضى طيلة هذه الفترة في العزلة ، وافق على ان يحاط بلفيف من التلامذة والأتباع . وقد سكن النساك جنباً إلى جنب ، ولكنهم لم يعيشوا حياة مشتركة جماعية .

سلك القديس باخوميوس الذي عاصر أنطونيوس طريقاً مختلفة . فبعد سبعة أعوام من العزلة ، أسس في **طيبا** ب**مصر** العليا عام ٣٢٣ أول دير معتمد على أسس الحياة الرهبانية المعاصرة .لاقى هذا النمط من حياة التقشف والزهد الجماعية قبولاً وترحيباً في أوساط المسيحيين . فبلغ عدد الرهبنات خلال فترة وجيزة عشرات الآلاف .

ظهرت الحاجة لحياة الرهبنة بعد توقف الإضطهادات الدينية . فنمط الحياة الحرّة والميسورة غالباً ، لم يعد يرضي بعض المؤمنين . ودخلت المسيحية التي نعمت برعاية القياصرة ، وماأغدقوه عليها من هبات ، مرحلة خطر جديد . لكن الخطر المحدق بها أثار ردود فعل معينة ، ستظهر دوماً عندما تصبح ظروف الحياة أكثر مواتاة .

قال يسوع : «ادخلو الباب الضّيق» (متى ، ٧ : ١٣) ، وسوف يظلُّ أتباع **يسوع** الذين يفهمون الحياة المسيحية كرغبة في الفداء ، ينظرون إلىالحياة على أنها رحمة إلهية غير محدودة .

كانت للإمتيازات التي مُنِحَتْ للكنيسة طابع خاص . فاستجابة لأوامر القيصر ، تقبل مواطنو الامبراطورية الصيغة الخارجية للديانة الجديدة ، ولكنهم عجزوا عن تقبل مضمونها ، وهذا ماينطبق على القيصر ذاته . لقد اقتصرت الديانة الرسمية الرومانية القديمة على بعض أشكال طقوس العبادة : فلم تطالب معتنقيها بمعرفة إلهية أو بنمط محدد للحياة . بينما كان الأمر مختلفاً بالنسبة للمسيحية التي فرضت أسلوب حياة خاص ، وأدخلت اخلاقية جديدة ، كما عرضت في الآن ذاته عدداً من الحقائق اللاهوتية التي توجّب على مَن تقبل سرَّ المعمودية أن يؤمن بها .

أضحت هذه المرحلة المبكرة من حياة الكنيسة الفتية عرضة لمخاطر جسيمة . فقد انتشرت المسيحية في كافة مقاطعات الامبراطورية ، وبلغ تعداد الجماعات المسيحية المتناثرة على سواحل البحر المتوسط عدة ملايين من المؤمنين . وتُعدُّ مقدرتها على الحفاظ على وحدتها في مرحلة الإضطهاد أمراً مذهلاً ، ولكنه أمر لايقل عنه إثارة للدهشة ، أن تحافظ المسيحية على هذه الوحدة في الوقت الذي اعتبر فيه عدد هائل من المسيحيين أنفسهم مؤهلين لرفع أصواتهم فيما يتعلق بالحقائق المسيحية . ومما ضاعف الخطر ، احتمال وقوف القيصر في أية لحظة إلى جانب الحقيقة الكاذبة ، مثلما حدث في حالة الأريانية . لأنه بالرغم من بعده الكبير عن المسيحية في فهمة لها ، اعتبر نفسه «زعيماً» لها .

توجّب على الكنيسة صياغة عقيدتها بأسرع مايمكن ، لتحدَّ من امكانية تدخل القيصر في السؤون الداخلية للمسيحية . وقد خدمت حقبة آباء الكنيسة هذا الغرض ، وهي الحقبة التي ستبلغ «عصرها الذهبي» خلال الأعوام التالية . لكن المعركة من اجل العقيدة الصحيحة لم تكن سهلة . فكل معركةبالنسبة للمسيحي تعدُّ خطراً ، وإن كانت من أجل أقدس القيم

.وأكثرها سمواً ، لأنها تعرّضه لخطر الغضب والقسوة وغياب المحبة . فما أكثر الكلمات المرّة التي تفوّه بها محارب رائع مثل أثناسيوس . وبكلمات تتلظى بنار الغضب انهال **هيرونيم** على خصومه . وسيدفع آخرون المخطئين إلى الهرطقة ، كما هي الحال في البريسليانية .

ظهرت حياة الرهبنة كقطب آخر للمعركة من أجل سلامة العقيدة . فإذا كان على النقاشات أن تستمر ، توجّب على عدد أكبر من الناس تكريس حياتهم للصلاة . تقتني الكنيسة كنزاً مشتركاً ، ينهل منه كل فرد ، ويتوجب عل كل فرد أن يضيف إليه .

وقد استمد المجادلون الكبار طاقاتهم من صلوات النساك المغمورين ، وعملت هذه الصلوات على تغطية ضعفهم ، ومكنّتهم من الحفاظ على المحبة في القسوة .

وعلى أي حال ، لجأ الكثيرون من آباء الكنيسة إلى تجربة حياة الرهبنة فقد كان **باسيليوس** الكبير ، **وغريغوري** النزينزي ناسكين قبل أن يصبحا أسقفين . ووضعا معاً أسس الحياة الرهبانية التي أصبحت فيما بعد قواعد عامة نافذة في الشرق والغرب على حد سواء . بدأت حياة **هيرونيم** وانتهت في الرهبنة : بدأ من الإقامة في الصحراء قرب **انطاكية** ، وانتهى بالإعتكاف في الدير في بيت لحم .

سوف يتسع مدى انتشار حياة الرهبنة **ليخرج من مصر** ويشمل العالم المسيحي بأسره . وحيثما ظهر هذا النمط من الحياة ، أحاطه الأساقفة بالرعاية ، وخاصة آباء الكنيسة . وهو الذي سيؤهل الأفراد ليصبحوا أساقفة وآباء للكنيسة . سينشأ مخطط يتكرر على النحو التالي : يلجأ الناس في بحثهم عن أسقف إلىالنساك ، ويقيم الأساقفة حول عواصمهم رهبنات ، ليتمكنوا من اللجوء إليها في لحظات فراغهم وإنتهائهم من العمل الرعوي . فقد استقر القديس مارتن في رهبنة Liguge ، وكأسقف لمدينة تور سيبحث عن ملجأ في رهبنة Marmoutier .

أسس القديس **يوحنا** كاسيان ديرين في مرسيليا . وسوف يحاول **أوغسطين** نفسه ملازمة أنصار حياة النسك لفترة من الزمن . إنَّ الصفة المميزة لآباء الكنيسة العظام الذين كادوا أن يعيشوا في مرحلة واحدة ، هي الربط مابين الحياة الأسقفية الفاعلة والتأمل الرهباني . وقد يكون هذا الإزدواج هو الذي أوجد تلك النخبة من الشخصيات الفذة . ؟

ـ القديس مارتن والبريسليانية

كان هيلاري أسقف بوتيير أكبر لاهوتي الغرب قبل مجئ **أمبروزي وأوغسطين** . فقد ساعده نفي كونستانسيوس له إلى فريجيا على التعرف على تأملات الكنيسة الشرقية وحياة الزهد . عاد من النفي عام ٣٦٠ ، وتوفي عام ٣٦٨ . ومن اعماله الكبيرة تمَّ حفظ مؤلف

عن الثالوث الأقدس .

مارتن هو أحد تلامذته ، وينحدر من أصل بانونيّ (إنه لأمر مذهل ، العدد الهائل من الشخصيات الفذة الذي أنجبته منطقة يوغسلافية الحالية آنذاك ؛ بانونيا ودلماسيا !) . كان والده جندياً ، وأصبح جندياً هو أيضاً . وفي أمينز حدثت المعجزة : قدَّم الضابط الشاب معطفه لمتسول انهكه البرد ، وفي الليلة ذاتها ظهر **يسوع** لمارتن مرتدياً المعطف الذي قدَّمه للمتسول . أذهلت الرؤيا مارتن ، فتقبل سرَّ المعمودية ، وترك الجيش ماضياً إلى هيلاري في بوتيير . أصبح مفسراً للكتاب المقدس ، ولّما نُفي هيلاري إلى الشرق ، باشر مارتن حياة الزهد . ذاع صيته في جميع الأصقاع ، ولّما دعت الضرورة لإختيار أسقف لمدينة تور ، جاء سكان المدينة بالناسك مارتن ، وأرغموه عام ٣٧٣ على قبول هذا المنصب .

ظلَّ مارتن الأسقف الإنسان الذي كانه من قبل : التواضع ذاته ، ومظهر اللباس ذاته ؛ هيبة كبيرة وتعاطف غير محدود مع الناس ؛ لقب أسقف ، ترافقه فضائل وهيئة راهب . من أعظم أعمال مارتن ، هداية الريف : فالمسيحية في غالة كانت ديانة سكان المدن وحدهم . بينما ظلَّ الريف محافظاً على وثنيته . استهل مارتن حملته التبشيرية بالمناطق المحيطة بمدينة تور ، سيراً على الأقدام أو ممتطياً أتاناً . وقد ساعدت وداعته وإحسانه على التفاف الناس حوله ، والتخلي دون مقاومة عن معتقداتهم القديمة .

ظهر في تلك الآونة في اسبانيا رجل ذو مواهب ومقدرات استثنائية يدعى **بريسليان** . أسس نموذجاً من الرهبنات تميَّز بقواعده الصارمة ، وضمَّ عدداً كبيراً من الناس بينهم أسقفان . لكن التعاليم التي نشرها بريسيليان بدت في نظر أساقفة آخرين موضع شك . وقف **إيداسيوس** أسقف **ميريدا** موقفاً معادياً من مجموعة بريسيليان ، وذلك بعنف غير عادي وغير ضروري . نظر المجمع الكنسي المنعقد في **سرقوسة** عام ٣٨٠ في قضية بريسيليان ، بعد أن وُجهت له عدة اتهامات : الصيام يوم الأحد ، وحمل القربان المقدس إلى المنزل ، ومشاركة النساء في اجتماعات الرجال واشتراكهن في الحديث والنقاش ـ لكنه لم يُدَنْ . وهذا ماشجع حلفاء بريسليان على سيامته أسقفاً في أفيلا ، حيث كان الكرسي (الأسقفي) شاغراً . حاول الأسقف ايداسيوس إتهام بريسيليان أمام القيصر غراسيان ، لكن بريسيليان حظي بدعم رئيس البلاط الامبراطوري وعاد إلى اسبانيا برئ الذمة .

تغيرت الأحوال عندما استولى مكسيم المغتصب على السلطة في غالة واسبانيا . فقد قام مكسيم بمحاكمة بريسيليان ، وحكم عليه بالتعذيب ، ومن ثمَّ بالموت . وذلك بناءً على اتهامات ايداسيوس وإيتاسيوس ، اللذين كانا بعيدين كل البعد عن التقى ، وحركتهما مشاعر الحقد والكراهية .

حاول مارتن الذي استدعي إلى ترير للمشاركة في محاكمة بريسيليان ، الدفاع عنه .

لكنه لم يفلح في تحقيق شيء ، فغادر ترير شاعراً بالضيق من حقد المتهمين .

أدى موت بريسيليان إلى تنشيط الحركة البريسيليانية في اسبانيا ، واكسبها تعاطف الجميع . قام فالينتينيان الثاني بعد استعادة السيطرة على المقاطعات الغربية بإلغاء الحكم وإعادة الإعتبار لبريسيليان ، حيث نُقِلَ رفاته بكل ما استحقه من تكريم إلى اسبانيا ، كما نفي الأسقفان ايداسيوس وإيتاسيوس .

أكان بربسيليان مهرطقاً حقاً ؟ نفى هو و اتباعه هذه التهمة بحرارة . لاشك في أنه يمكن العثور في عقيدته على آثار الغنوصية والمانوية ـ الطائفة المخيفة التي تعاظم نفوذها أكثر فأكثر . وقد أعلن مجمع براغ بعد ذلك بما يقارب القرنين (عام ٥٦٣) : «إذا آمن أحدهم بأن الأرواح البشرية أو الملائكة من الجوهر الإلهي كما يقول ماني أو بريسيليان ، فيلكن مطروداً من جماعة المؤمنين» . لكن مثل هذه الافكار يمكن أن تكون قد ألحقت بالعقيدة فيما بعد من قِبَل الذين استمروا في البريسيليانية . ومن يعرف ماالذي كان سيحصل لو عُومِلَ الناسك الإسباني بالأسلوب الذي تقتضيه الرحمة المسيحية . بعد موت بريسيليان ، شملت حركته جزءاً كبيراً من اسبانيا ، وأصبحت بمرور الزمن أقل ارثوذكسية نتيجة نبذها . أدانها مجمع سرقوسة عام ٣٩٥ . ولجأ البريسيليانيون إلى أميروزي طالبين منه الدفاع عنهم ، فوعدهم بذلك شريطة أن يتخلوا عن عبادة يربسيليان ، لكنهم لم يوافقوا على شرطه . لم يتمكن المجمع الذي انعقد في توليدو عام ٤٠٠ من حل القضية أيضاً . وظلّت البريسيليانية مستمرة مايقارب الألف وخمسمائة سنة أخرى .

لم يشارك القديس مارتن بأعمال أي مجمع آخر بعد ذلك . فقد تركت احداث مجمع ترير في ذهنه ذكريات مؤلمة . توفي عام ٣٩٧ ، وبعد وفاته مباشرة ، أصبح قبره مزاراً يحج إليه الكثيرون من المسيحيين . وكان القديس مارتن عبر قرون طويلة القديس الأكثر شعبية في كنائس غرب أوروبا .

ـ المجمع الكنسي المسكوني الثاني

حقق ثيودوسيوس آمال غراسيان في إعادة الهدوء على حدود الامبراطورية . أراد ثيودوسيوس بعد حربه الظافرة مع القوطيين اعتناق المسيحية ، وذلك على يد كاهن من الكنيسة الجامعة . فمنحه أسخوليوس أسقف سالونيكي سرَّ المعمودية ، أصدر الامبراطور مرسوماً يلزم بموجبه جميع سكان المقاطعات الشرقية بإعتناق المسيحية : «الديانة التي قام بطرس أمير الرسل بتعليمها للرومان منذ البداية ، والتي ينشرها الآن أسسقفا روما والاسكندرية دامازي وبطرس . وللكنائس التي تمجد على قدم المساواة كامل الثالوث الأقدس

وحدها الحق في حمل لقب /الكنسية الجامعة/ . ويعتبر كل من يفكر بغير ذلك **مهرطقاً** ، ويكلل بالعار ويعاقب» تعرضت الأريانية لهزيمة نكراء . ودعي الأساقفة المنفيون إلى عواصمهم في كل مكان ، واضطر الأساقفة الأريانيون للتنازل أمامهم . ظلّت الأحوال على درجة من التعقيد في **انطاكية** وحدها ، إذ كان إثنان من أساقفة الكنيسة الجامعة لايزالان في منصبيهما ، وهما : ميليسيوس المدعوم من جميع أساقفة الشرق ، وباولين المعترف به من قبل البابا وأسقف الإسكندرية بطرس (خليفة أثناسيوس) .

ظلّ أسقف القسطنطينية ديموفيل وحده أريانياً . وكان أتباع الكنيسة الجامعة هناك مضطهدين . فبعثوا بوفد إلى **غريغوري** النزينزي ليأتي إلى المدينة ويرعى أمورهم الروحية . لم يرفض **غريغوري** استغاثتهم ، واستلم كنيسة القيامة الصغيرة ، ومارس نشاطه الرعوي بالرغم من الإضطهاد الذي مارسه الأريانيون .

وعلى أي حال جاء الامبراطور ثيودوسيوس إلى القسطنطينية عام ٣٨٠ وطالب الأسقف ديموفيل بتوقيع اعتراف بالرمز النيقي . ولمّا رفض الأسقف الأمر ، قام ثيودوسيوس بعزله ، ورفع **غريغوري** النزينزي إلى منصب بطريرك العاصمة .

قرر ثيودوسيوس انهاء النزاع الذي مزّق الكنيسة ، فدعى لإنعقاد مجمع كنسي مسكوني جديد . وفي واقع الأمر ، لم يشارك في أعمال مجمع القسطنطينية التي استمرت من أيار حتى تموز عام ٣٨١ سوى أساقفة المقاطعات الشرقية (تعذر على أساقفة الغرب الحضور بسبب الوضع السياسي الحرج الناجم عن الصراع القائم بين فالينتينيان ومكسيم) . وبخصوص هذا المجمع يقول كاميلوت : «أضفى اعتراف الغرب في وقت لاحق بالمجمع صبغة المسكونية عليه ، بالرغم من أنه لم يكن مسكونياً في حقيقته أو في نواياه» . وقد صنف في عدادالمجامع المسكونية منذ أيام **غريغوري** الأول ، علماً أن المقرارات المعلنة قبل ذلك الحين في مجمع **روما** عام ٣٨٢ ، أضحت اعترافاً غير رسمي بمسكونية المجمع .

ترأس المجمع في بادئ الأمر ميليسيوس أسقف **انطاكية** (الذي رفض البابا الاعتراف به في حينه) ، لكنه توفي بعد الجلسةالافتتاحية . تولّى رئاسة المجمع بعده **غريغوري** النزينزي الذي أقرّه المجمع أسقفاً للقسطنطينية . لكن الإنقسام القائم في **انطاكية** ظلّ مستمراً ، لأن الأساقفة المؤتمرين رفضوا الاعتراف بباولين أسقفاً لـ**انطاكية** بالرغم من محاولات **غريغوري** لإقناعهم ، وانتخبوا فلافيان مساعد ميليسيوس الوفي خلفاً له . أما البابا في **روما** فقد رفض الإعتراف بهذا القرار ، وألقى الحرم الكنسي على فلافيان ، على الرغم من تأييد الكنيسة

الجامعة في **انطاكية** له . وهكذا استمر الإنشقاق المؤلم . توفي باولين عام ٣٨٨ ، وقبيل وفاته قام شخصياً بسيامة وتعيين خلفٍ لنفسه (وهذا مايتعارض مع القانون الكنسي) . وأعلن مجمع **قيصرية** عام ٣٩٤ أن الأسقف الشرعي الوحيد لِ**انطاكية** هو فلافيان ، وأُرغمت **روما** في نهاية المطاف على قبول هذا الموقف عام ٣٩٨ ، قبيل موت فلافيان بأيام قليلة .

لنعد ثانية إلى موضوع المجمع . فما أن أُعلن **غريغوري** بطريركاً على القسطنطينية ، حتى استقال من منصبه شاعراً بالضيق من المصاعب التي واجهته والهجمات التي تعرَّض لها من أساقفة مصر . فهذا «الشاعر الذي تخبط في متاهات الحياةالسياسية» . العليل والمرهق ، لم يتميز بروح من الصراع ، بل تأوه حنيناً للعزلة ، غادر القسطنطينية بعد استقالته عائداً إلى مسقط رأسه في نزينز ، وتوفي هناك عام ٣٩٠ . كان خطيباً رائعاً ، ولو أنه بشيء من المغالاة في البلاغة . دافع في جدالاته اللاهوتية عن الثالوث الأقدس بشجاعة . وهو من أوائل الذين لقبوا العذراء مريم «بوالدة الإله» .

توجَّب على المجمع انتخاب بطريرك جديد قبل بحث المواضيع الأساسية .فوقع الاختيار على نكتاريوس أحد كبار الموظفين في الامبراطورية (شأنه شأن **أمبروزي**) ، لكن نكتاريوس لم يتحلَّى بعظمة أسقف ميلانو ، كان إنساناً ضعيفاً مفتقراً إلى المعرفة .

أسفرت مداولات المجمع عن إدانة ماعُرِفَ بهرطقة المقدونين ، الذين أنكروا ألوهية الروح القدس ، كما أقَرَّ أربعة قوانين اعترف فيها بمقرارات مجمع نيقيا ، وقصر نشاط الأساقفة والمجامع الكنسية المحلية على المناطق التابعة لهم ، وأعلن أن أسقف القسطنطينية سيتمتع منذ ذلك الحين «بالمكانة الفخرية الأولى» بعد أسقف روما . كان هذا بمثابة انتقاص من أهمية أسقفية الإسكندرية التي اعتبرت أن هذه «المكانة الأولى» من حقها هي .

كان مجمع القسطنطينية بمثابة نصر علىالأريانية قبل أي شيء آخر . فقد طغت الأريانية خلال نصف القرن الذي سبقه على المسيحية ، ولم يحاربها سوى أفراد : أثناسيوس أو هيلاري . وتصور المراقب المحايد من الخارج أن الأريانية هي المذهب «الحقيقي» ، وليست الكنيسة الجامعة . ولنحاول التوقف أمام ما يلفت إليه النظر نيومان : واجهت «قناعة المسحيين العامة» الأريانية دوماً ، هذه القناعة العامة التي تشكل عاملاً بالغ الأهمية في خلق العقيدة .

هزم ثيودوسيوس كما أسلفنا المغتصب مكسيم عام ٣٨٧ ، وأعاد فالينتينيان الثاني سيادته على المقاطعات الغربية . توفيت جوستينا والدة فالينتينيان عام ٣٨٨ ، وفقد الاريانيون بموتها آخر سندٍ لهم . وهكذا لم يعد لهم نفوذ يذكر في الامبراطورية .

تفجرت في الغرب عام ٣٩٢ انتفاضة جديدة ضد فالينتينيان . فقام زعيم الفرنكونيين

القائم بخدمة الامبراطورية أربوغاست بقتل القيصر وإعطاء التاج الامبراطوري لأستاذ البلاغة يوجينيوس . ومرّة أخرى تم إحياء الوثنية في المقاطعات الغربية ، ولكن لفترة وجيزة ، فقد انتصر ثيودوسيوس على كل من أربو غاست ويوجينيوس قرب أكويليا عام ٣٩٤ وقتلهما . وتوفي بعد هذه المعركة بنصف عام .

تم تقسيم الامبراطورية مجدداً بين أبناء ثيودوسيوس ، وبصورة نهائية في هذه المرة . فكان الشرق من نصيب أركاديوس ، والغرب من نصيب هونوريوس . أخضع كلاهما بإرادة الأب لرعاية **أمبروزي** . لكن أسقف ميلانو لم يتمكن من القيام بهذا الدور ، إذ توفي عام ٣٩٧ .

كان ثيودوسيوس امبراطوراً عظيماً ومسيحياً حميماً . عمل الكثير من أجل الكنيسة ، محاولاً ألاّ يفرض عليها إرادته . لكنه كان صارماً بشكل مطلق في تصرفاته . سحق الوثنية بقوانين جائرة ، إذ كانت لاتزال موجودة . فأصدر أوامراً بإغلاق المعابد عام ٣٨٦ ؛ وفي عام ٣٩١ حظّر دخولها ؛ واعتبر الوثنية جريمة بحق الامبراطور عام ٣٩٢ . واستغلّ المسيحيون موقف الامبراطور هذا ، **وهاجموا في غير مرة المعابد الوثنية محطمين الكثير من روائع الفن التي لاتقدر بثمن .**

كان الامبراطور الرهيب في غضبه قابلاً لأن يتراجع لدى استعطافه . فقد تمكن الأسقف فلافيان من انقاذ مدينته **انطاكية** من غضب ثيودوسيوس عندما حُطمّت تماثيل الامبراطور والإمبراطورة فيها أثناء القلاقل . وخلال أعمال الشغب في سالونيكي أصدر الامبراطور الأوامر إلى جنوده لممارسة أعمال القتل الوحشي . وعندئذ وقف **أمبروزي** ضد الامبراطور ، ووجه له رسالة مشبعة بالإتهامات (لكننا لانعرف فيما إذا كانت واقعة ميلانو الشهيرة قد حدثت فعلاً ، حيث يُروى أن **أمبروزي** منع الامبراطور من دخول باسيليقا المدينة) ، وقد كتب : «إنك إنسان ، هناك مايغويك ، فتغلب عليه ! والآثام لاتغسلها سوى الندامة والدموع» . تراجع ثيودوسيوس ، وتقبل الكفارة المفروضة ، وأصدر قانوناً ينص على أن الحكم بالموت أو بمصادرة الممتلكات ، لايجوز إعلانه قبل مرور ثلاثين يوماً على صدوره ، لكي «يبقى مايكفي من الوقت للرحمة والتوبة» ، كما يقول المؤرخ .

الفصل الثالث

غزوات البرابرة

ـ الجرمان

رعى القائد الروماني المنحدر من أصل وندالي ستيليكون **أركاديوس** ، بينما أوكلت رعاية **هونوريوس** إلى الخصي **يوتروب** . فتنازع كلاهما وحاكا المؤامرات ضد بعضهما ، فأسفرت عن نتائج هزَّت الامبراطورية بأسرها .

لم تكن امبراطورية القرن الرابع دولة ذات حدود منيعة ومتماسكة داخلياً .

كانت أوروبا منذ عدة قرون بمثابة مرجل امتزجت فيه وصعدت إلى السطح مختلف الشعوب البربرية . فقد سيطر عليها خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد **السلتيون** ، وغمرتها في القرن الأول قبل الميلاد موجة الغزو الجرماني . فمن الشمال ، زحف **الفرنكونيون** ، والألمان ، **والبرغند** ، **والسكسون واللمبارديون** ، و **الوندال** ، **والقوطيون** . أفلح الرومان في صد السيل الجرماني على حدود الامبراطورية على نهري الرين والدانوب خلال ثلاثة قرون من الزمن ، ولكن ليس بصورة تامة . فقد تمكن جزء من هذه الشعوب الهمجية من التسرب إلى داخل الامبراطورية ، والإقامة فيها «كحلفاء» . كانت الامبراطورية الرومانية بحاجة إلى جيوش كثيرة ، بينما تضاءل عدد المواطنين الرومان الراغبين في العمل العسكري يوماً بعد يوم . ولذلك تمَّ تشكيل قطعات مساعدة من الهمج . فمنذ القرن الرابع سُمِحَ لهم بالخدمة في الفيالق ، وتمكن عدد كبير من القادة بلوغ أعلى المراكز في الجيش .

يمكننا أن نردد هنا مع **داوصن** : «كان استيطان الجرمان عملية تسلل تدريجي بطيئ

أكثر من كونها كارثة مباغتة . فمنذ القرن الثاني بعد الميلاد أقدمت الحكومة الرومانية على توطين أسرى الهمج في الأقاليم البعيدة عن المراكز . واستقرت في القرن الرابع أعداد ضخمة من **الجرمان** و **السرماتين** في المناطق التي تعرضت للدمار ، وخاصة في البلقان وغالة الشمالية .

كانت الشعوب الجرمانية وثنية . ولكننا منذ أيام نيقيا نلتقي بأسقف القوطيين **ثيوفيل** ، الذي سيخلفه **فولفيلا** . **وفولفيلا** هذا ، هو الحفيد الأصغر لأسرة قبدوقية مهجرة بنتيجة الغزو القوطي لآسيا الصغرى في العامين ٢٥٧ و ٢٥٨ .

كان **فولفيلا** محاضراً ، وجاء إلى القسطنطينية عام ٣٤١ ، وهناك سيم أسقفاً على يد **يوسيبوس** النيقوميدي - أسقفاً أريانياً بطبيعة الحال . ولما عاد فولفيلا إلى مواطن القوطيين ، أنجز عملاً خارقاً على صعيد التبشير : وضع أبجدية كاملة على أساس الرموز الرونية الجرمانية ، وترجم العهد الجديد وأجزاء من العهد القديم إلى للغة القوطية . ولكنه كما يقول **نيومان** «**نشر العقيدة الأريانية التي أطلع عليها في البلاط الامبراطوري**» . **وخلال فترة وجيزة نسبياً ، لاتتجاوز المئة عام ، كادت كافة الشعوب الجرمانية أن تعتنق المسيحية ، ومعها الأريانية .**

في أواخر القرن الثالث ، تعرضت القبائل الجرمانية الشرقية المرتبطة جزئياً بالشعب السرماتي الإيراني لضربات موجعة . فخلال القرون الثلاثة السابقة ، كادت آسيا برمتها ، وصولاً إلى حدود الصين ، أن تخضع لسيطرة شعب **مغولي** (أو تركي) عُرِفَ باسم **هيونغ ــ نو** (**الهونيين**) . هاجم الهونيون الامبراطورية الصينية تارة ، ولعبوا معها دور «الحلفاء» الذي لعبه الجرمان مع الرومان تارة أخرى . وفي مطلع القرن الرابع قبل الميلاد ، احتلَّ الهونيون لفترة وجيزة الصين الشمالية بقيادة **لين تسونغ** ، لكنهم أرغموا على الانسحاب فيما بعد .

اتجه قسم من الهونيين عُرف باسم الغربيين بقيادة **تشي ــ تشي** نحو بحيرة **الأرال** بعد أن تعرضوا لخسائر فادحة في صدامهم مع الجيش الصيني . وهناك غابوا عن مسرح الأحداث التاريخية لردح من الزمن . ظهروا مجدداً في القرن الرابع بعد الميلاد ، ولأسباب مجهولة اجتازوا نهري **الفولغا** و الدون بقيادة بالامير وسحقوا الآلان **السرماتيين** ، وانقضوا على الدولة التي أسسها القوط الشرقيون بين **الدانوب** و **دماسيا** . خضع القوط الشرقيون بغالبيتهم لسلطة الهونيين ، بينما هاجر القوط الغربيون (بموافقة الامبراطور) عام ٣٧٦ من المناطق المهددة إلى ميزيا[1] «كحلفاء» للإمبراطورية . لكنهم فيما بعد ، قاموا بمهاجمة مقدونية ، بالتحالف مع قسم من القوط الشرقيين والآلان السرماتيين . لقي القيصر فالنس مصرعه في حربه معهم ، لكن ثيودوسيوس تمكن من دحر الغزاة ثانية إلى ميزيا ، وعقد معاهدة جديدة معهم .

---

(١) - ميزيا أو مويزيا Moesia البلاد الواقعة ما بين الدانوب وتراقية ، وهي **بلغاريا** الشمالية حالياً .

قام وزراء **أركاديوس** من خلال صراعهم مع ستيليكون ، وبهدف التخلص من البرابرة المزعجين ، بتحريض ملك القوط الغربيين الشاب **آلاريك** على تهجير شعبه والإستيطان في إيليريا التي كانت مقاطعة تنازع عليها شطرا الامبراطورية الغربي والشرقي . استغل آلاريك هذا الاقتراح ، لكنه مضى إلى أبعد من ذلك ووصل إلى ايطاليا . تمكن ستيليكون من صد هجوم القوط الغربيين مثلما فعل مع القوط الشرقيين بقيادة **راديغوست** ، لكن لفترة ليست بطويلة . هاجم القوط الغربيون إيطاليا مجدداً . وفي الآن ذاته ، وفي ليلة الحادي والثلاثين من كانون الأول عام ٤٠٦ ، اجتازت جحافل **الوندال و الآلان** السرماتيين نهر الرين وغمرت غالة .

تطلع القديس **هيرونيم** من عزلته في بيت لحم بعينين مذعورتين إلى جميع هذه الأحداث ، وكتب قائلاً : «لايعود الفضل في بقائنا على قيد الحياة لنا ، ولم نعد بالكثيرين وإنما لرحمة الرب . فها قد استولى عدد لايحصى من الشعوب المتوحشة على غالة .

أما المساحات الواقعة بين جبال الألب والبيرينيه ، والتي يغلقها البحر ونهر الرين فقد دمرّها الكواديون ، والوندال ، والسرماتيون ، والجيبيديون ، والهيروليون ، والسكسون ، والبرغند ، والألمان . . . السيف يدمر من الخارج ، والجوع من الداخل . . . ولم يحدث كل هذا بسبب الحاكمين ، لأنهما درعان ، وإنما بسبب الخائن نصف الهمجي (يقصد هنا ستيليكون) الذي سلّح الأعداء ضدنا وعلى نفقتنا» (الرسائل ، الرسالة ١٢٣) .

ـ هيرونيم ويوحنا الذهبي الفم

اكتسب **هيرونيم** الذي ولد عام ٣٤٧ في دماسيا شهرة واسعة في البلاغة في مرحلة مبكرة من العمر . لكنه أهملها ليمارس حياة الزهد في البادية السورية . ترافقت حياة التنسك التي عاشها بتعلمه للغتين اليونانية والعبرية ، ودراسة الكتاب المقدس . سافر إلى **روما** عام ٣٨٢ يرفقه أسقف SALAMINA فاختاره البابا **دامازي** سكرتيراً له ، وشجّعه على مراجعة الترجمات اللاتينية المتوفرة للكتاب المقدس ، التي لم تكن متطابقة مع بعضها في جميع الأحيان ، ومن ثمّ تصحيحها وفقاً للنصوص الاغريقية والعبرية .

باغت موت البابا دامازي **هيرونيم** وهو منهمك في هذا العمل . كان البابا حامياً للعالم الكبير **هيرونيم** ذو المراس الصعب ، الذي اكتسب عداوة الكثيرين في روما . فقد عشق الحياة البتولية ، وانتزع عدداً من نساء الأسر الارستقراطية الرومانية من محيطهن ، ورغبهنّ في حياة الرهبنة . وكما يقول المؤرخ **تشوي** : «ساط بلا رحمة الإنحلال الخلقي في أوساط الطبقات العليا من المجتمع الروماني ، دون أن يستثني الرهبان ورجال الدين الآخرين» . بحث خصومه عن ذرائع ، واتهموه بتحريف نص الكتاب المقدس . دافع عن نفسه ، وسخر بلهجة لاذعة ممن «اعتبروا انفسهم قديسين ، لأنهم لايعرفون شيئاً» .

لم يجرؤ البابا سيريسيوس على الدفاع عنه ، ولذلك غادر **هيرونيم** «بابل» ، كما اعتاد أن يسمي روما ، وانطلق نحو الشرق برفقة شقيقه . رافقته في الآن ذاته امرأتان عظيمتان رومنسيتان ، كانتا تلميذتين وصديقتين بآن واحد ، هما **باولا** وابنتها **يوستوكيوم** . وبمساعدتهما أسس **هيرونيم** ديرين في بيت لحم ، أحدهما للرجال والثاني للنساء . استقر بنفسه في دير الرجال وعكف مجدداً على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية . أعاد الترجمة جزئياً ، وراجع الترجمات المتوفرة للأجزاء الأخرى . ويطلق علىالترجمة الكاملة للكتاب المقدس التي أنجزها **هيرونيم** اسم **فولغاتا** ، أي (ترجمة للإستخدام العام) ، وذلك منذ القرن السادس . أضفت الكنيسة على هذه الترجمة صبغة رسمية ، فتوَّجب استخدامها في الطقوس ، واعتبارها أساساً للترجمات اللاحقة إلى لغات أخرى .

اهتم **هيرونيم** بتفسير النصوص إضافة إلى عمله كمترجم ، واعتمد على تعليمات أوريجين بشكل خاص . كانت أعمال أوريجين لاتزال تحظى بتقدير هائل في الشرق ، بالرغم مما تضمنته من فقرات لا أرثوذكسية . كان إيبيفانيوس أسقف قبرص من كبار مَنْ أدانو أخطاء أوريجين ، حيث اعتبره مبدع جميع الأخطاء اللاهوتية . لكن هذا العالم الفذ والقديس بآن واحد ، كان غير متزن أحياناً في حماسه الشبيه بما قامت به محاكم التفتيش . أما **يوحنا** أسقف **أورشليم** ، وكذلك **روفين** الكاهن العالم ، وصديق **هيرونيم** ، فكان من مبجلي أعمال ابن **الاسكندرية** العظيم أوريجين (سمح روفين لنفسه بترجمة أعمال أوريجين مع حذف أو تحوير الفقرات المشكوك بها من وجهة نظر الأرثوذكسية) . حدث خلاف حاد بين الأسقفين **يوحنا** وإيبيفانيوس حول تعاليم أوريجين . وحاول ثيوفيل أسقف **الاسكندرية** تسوية النزاع ولكن دون جدوى ، حيث كان بنفسه من أنصار أوريجين . فاستقرت القضية أخيراً في روما . قرر روفين الدفاع عن أنصار تعاليم أوريجين واستشهد في دفاعاته مرة بعد مرة بأعمال **هيرونيم** . أقلق هذا الشيء أصدقاء **هيرونيم** الذين أدركوا أن الكثيرين من خصومه القدماء في **روما** يتحينون الفرصة ليلصقوا به تهمة الهرطقة . فوقف **هيرونيم** بناء على نصائحهم ضد أخطاء أوريجين بشكل حاد ، وقام جدل حام بينه وبين روفين .

انضم الأسقف ثيوفيل أيضاً إلى محاربي الأوريجينية ، متهماً جماعة النساك في نيتريا المعروفة باسم «الأخوة الطوال» ، بالتأثر بتعاليم تعدُّ هرطقة . وقف كل من **هيرونيم** و **إيبفانيوس** إلى جانب **ثيوفيل** ، لكن «الأخوة الطوال» لجأوا إلى القسطنطينية واضعين أنفسهم تحت حماية أسقفها . وكان أسقف القسطنطينية آنذاك الواعظ الانطاكي الذائع الصيت **يوحنا** وقد خلف نكتاريوس بعد أن توفي عام ٣٩٧ . وهو من أقرب مساعدي **فلافيان** ، وسوف يشتهر فيما بعد بإسم القديس **يوحنا** الذهبي الفم . احتشدت حوله جموع الناس للإصغاء لعظاته . جيئ به إلى القسطنطينية ليتمكن السكان من انتخابه بطريركاً .

مارس **يوحنا** في القسطنطينية نشاطاً غير عادي : استمرت شهرته كواعظ يهز ضمائر

المستمعين . أسس مشافي ومآوي للفقراء الذين أبدى اهتماماً بالغاً بمصيرهم . كما عمل جاهداً على رفع مستوى رجال الدين الذين زادت رغباتهم في الحياة المرفهة وتدنى سلوكهم على الصعيد الأخلاقي في عهد **نكتاريوس** . ووجد في خضم هذا العمل مايكفي من الوقت لإرسال مبشرين إلى مواطن القوطيين .

لكنه وجد خصماً في شخص الأسقف **ثيوفيل** الذي عارض في حينه انتخاب **يوحنا** بالإضافة إلى أن ثيوفيل شعر بالضيق من جراء رفع بطريركية القسطنطينية إلى مقام أعلى من مقام بطريركية **الاسكندرية** ، التي كانت حتى ذلك الحين الأولى في الشرق ، ومما لاشك فيه أن وجود شخص بنفوذ الذهبي الفم على الكرسي البطريركي في القسطنطسينية لم يكن في مصلحة ثيوفيل . كان لـ **يوحنا** أعداء في البلاط الامبراطوري أيضاً ، واستغلّ هؤلاء لحظات غيابه عن العاصمة لحياكة المؤامرات ضده . ولأسباب مجهولة ، كانت الامبراطورة **يودوكسيا** نفسها من أعدائه ، حيث أصبحت بعد موت يوتروب «الرئيسة» الفعلية للدولة إلى جانب **أركاديوس** الأخرق . وهكذا استهلت ابنة القائد الفرنكوني باتو سلسلة من الباسيليسات المتعطشات للسلطة (لُقِّبَ امبراطور الشرق بلقب **باسيليوس** ، وزوجته باسيليسا) ، اللاتي تفوقنَّ على أزواجهنَّ الضعفاء .

عندما طلب «الأخوة الطوال» حماية **يوحنا** ، لم يتوانى **ثيوفيل** في اتهام بطريرك القسطنطينية بالأوريجينية . كانت التهمة باطلة : فتعاليم **يوحنا** تميزت بطابع أخلاقي ؛ وقد تحاشى فيها التأملات اللاهوتية المعقدة ، ولكنها بالرغم من ذلك كانت خطرة . وعلاوة على ذلك جاء **إيبيفانيوس** البالغ من العمر التسعين بالتهمة إلى القسطنطينية ، وهو الرجل الي حظي بإحترام عام ، وعُرِفَ بمقاومته للأوريجينية . وكان إيبيفانيوس على وشك إلقاء الحرم الكنسي على **يوحنا** ! لو لم يكتشف في الوقت المناسب أنه زُجَّ في لعبة لها نوايا شريرة ، فغادر عندئذ القسطنطينية .

لم يَكُف ثيوفيل عن متابعة المعركة ، وقام بمحاولة جديدة لمواجهة **يوحنا** . فبعد أن علم بأن الذهبي الفم هاجم في إحدى عظاته النساء الثريات اللاتي انصب اهتمامهن علىالبهرجة أكثر من البحث عن الفضائل ، وجَّه له تهمة إهانة الأمبراطورة . وبهذه التهمة توجه إلى العاصمة ، وهناك التفَّ حوله حالاً القسس الذين عزلهم **يوحنا** عن مناصبهم بسبب تجاوزاتهم الأخلاقية .

ضمن ثيوفيل دعم البلاط ، وأحاط نفسه بخمسة وثلاثين أسقفاً ، منهم عشرون من المصريين الذين رافقوه من **الاسكندرية** ، دعى لإنعقاد مجمع في بلدة **دريس** قرب القسطنطينية . أدان المجمع **يوحنا** على أساس ارتكابه جرائم عدة ، وعُزل عن منصبه . صادق **أركاديوس** على الحكم حالاً بالرغم من معارضة سكان المدينة عموماً . سلَّم **يوحنا** نفسه

للسلطات التي نفته إلى **برينيت** في **بيتينيا** . لم يستمر نفيه سوى فترة وجيزة ، لأن الاضطرابات التي عمَّت المدينة ، بالإضافة إلى الزلزال الذي أصابها ، فُسرت من قبل الجمهور على أنها عقاب إلهي نتيجة نفي الأسقف ، وهذا مادفع الإمبراطورة لإستدعاء الذهبي الفم إلى القسطنطينية مجدداً . كانت عودة **يوحنا** بمثابة انتصار ، بالرغم من أنه تحاشى إعطاءها هذا الطابع . فرَّ ثيوفيل المذعور من المدينة ليلاً . عاد **يوحنا** ، لكنه دون جدوى طالب القيصر بالسماح له بالدعوة لإنعقاد مجمع كنسي يعيد له اعتباره .

بعد مضي شهرين على الحدث ، تقدم خصومه بتهمة جديدة . نُصب أمام باسيليقا الحكمة المقدسة تمثال للإمبراطورة ، وأدت الألعاب التي أقيمت بهذه المناسبة إلى مضايقة المصلين في الكنيسة ، فأشار **يوحنا** في عظته إلى الموضوع ، ونُقلت كلماته المحورة والمرفقة بالتعليق الملائم إلى البلاط الامبراطوري على جناح السرعة . حيكت مؤامرة جديدة : طالب **يوحنا** بمجمع كنسي ، فليكن له مايريد ! والمهم أن يشكل خصوم الذهبي الفم الأكثرية في المجمع . وهذا ماحصل فعلاً . عُزل **يوحنا** للمرة الثانية ، واقتحم الجيش الامبراطوري باسيليقا الحكمة المقدسة أثناء قداس عيد الفصح ، وطرد منها الأسقف وجمهورالمصلين . تلقى البابا **إينوسنت** (الذي خلف **أنشتازي** الأول) النبأ ، ودعى لإنعقاد مجمع كنسي في **سالونيكي** للنظر في التهم الموجهة إلى **يوحنا** ولكن دون جدوى ، لأن أركاديوس رفض الموافقة علىالطلب ، لابل أمر بإعتقال الذهبي الفم ونقله إلى نيقيا . حدثت اضطرابات عنيفة في القسطنطينية احترقت خلالها إحدى الكنائس وقصر مجلس الشيوخ ؛ لكنها أُخمدت بسرعة . وبنتيجة الضغط الذي مارسته الامبراطورة ، تمَّ انتخاب بطريرك جديد هو **أغاسيوس** شقيق **نكتاريوس** . رفض الجمهور قبول البطريرك الجديد ، وحدثت قلاقل جديدة أريقت فيها الدماء . لكن البلاط لم يتراجع ، وعلى الرغم من وفاة الامبراطورة يودوكسيا عام ٤٠٤ ، لم يلغَ الحكم الذي صدر بحق **يوحنا** .

نُقِلَ **يوحنا** من **نيقيا** إلى **كوكوزا** في **أرمينيا** . كان مريضاً وتحمل مشاق النفي بصعوبة ، لكن مفاجأة سارة انتظرته في **كوكوزا** . فما أن عَلِمَ سكان **انطاكية** بوجود واعظهم الكبير على مقربة منهم ، حتى هرع الكهنة والمؤمنون بأعداد كبيرة لزيارته في كوكوزا . كان فلافيان لايزال أسقفاً في **انطاكية** ، وهو صديق ومعلم الذهبي الفم . ولكن حشود المؤمنين لم تتوقف عن زيارة كوكوزا حتى بعد موت فلافيان وانتخاب **بورفيريوس** خلفاً له في **انطاكية** .

احتجَّ **إينوسنت** مرة أخرى على اعتقال **الذهبي الفم** ، ولّما وجد بأن هذا غير مجدٍ ، ألقى الحرم الكنسي على ثيوفيل . وانقطعت العلاقات لبضعة أعوام بين **روما** **والبطريركيات** الشرقية الثلاث : **القسطنطينية** ، **والإسكندرية** **وانطاكية** . كان هذا بمثابة علامة مميزة للتحولات الجارية . فقد تزايد عمق الهوة القائمة بين الشرق والغرب . ولم تعد الامبراطورية

دولة واحدة يدير شؤونها حاكمان ، بل تحولت إلى كيانين مستقلين عن بعضهما كلياً . وهدد هذا الإنقسام وحدة الكنيسة أيضاً ، لأن البطريركيات في الشطر الشرقي تعرضت لضغوط القيصر على نحو مباشر وخضعت لها ، كما أن القسطنطينية صمّت آذانها أمام نداءات روما .

تمكن **ثيوفيل** من التأثير على القيصر ليصدر أوامره بإبعاد **يوحنا** من كوكوزا ، حيث ظلّت جماهير الحجاج الانطاكيين تزوره . فتمّ نقل الأسقف العليل إلى بونت ، حيث توفي المنفي الضعيف عام ٤٠٧ في كنيسة صغيرة في بلدة **كوماني** .

عاش **هيرونيم** فترة اطول ، حتى عام ٤١٩ . وقبيل موته بعدة أعوام ، كاد أنصار **بيلاجيوس** أن يقتلوه ، لكنه أُنقذ ، وظلّ يمارس عمله العلمي حتى موته .

ـ الجرمان في الامبراطورية الرومانية

تركنا **آلاريك** زاحفاً على رأس القوط الغربيين نحو إيطاليا . وهنا استغلّ **ستيليكون** موت **آركاديوس** عام ٤٠٨ ، وحاول عكس اتجاه الغزو ودفع القوط الغربيين إلى الشطر الشرقي من الامبراطورية . لكن **هونوريوس** لم يلتزم بالوعود التي قدمها **ستيليكون** ، وهذا ما أغضب **آلاريك** ، فقرر الإنتقام من إيطاليا .

بعد أن أرغم **آلاريك** الامبراطور على الاحتماء بأسوار **رافينّا** بدأ بمحاصرة روما . فكّ الحصار عن **روما** بعد الحصول على فدية ، ولكنه عاد لمحاصرتها بعد مرور عامين (عام ٤١٠) نتيجة مفاوضات فاشلة مع **هونوريوس** . اقتحم الجرمان المدينة ، ومارسوا فيها لثلاثة أيام متتالية أعمال النهب والاغتصاب . ومايثير الدهشة ، أن الغزاة الهمجيين توقفوا أمام عتبات الكنائس . وفي هذا الصدد قال القديس **أوغسطين** : «ووفق التقليد الجديد . . . استمرت قسوة الغازي الوحشي . وهنا كان التخم الذي انتهى عنده جنون القتل الوحشي» . فجميع الذين تمكنوا من اللجوء إلى الكنائس سلموا ، وبغض النظر عن كونهم مسيحيين أو وثنيين .

لم يكن **إينوسنت** في **روما** لحظة احتلال المدينة : كان في رافينا ، إذ حاول اقناع القيصر بالدفاع عن المدينة . أعلن القوط الغربيون والي المدينة **أتّالوس** قيصراً ، وتابعوا زحفهم نحو الجنوب . حاولوا الوصول إلى افريقيا ، ولّما عجزوا عن تحقيق ذلك ، التفوا نحو الشمال . توفي آلاريك ، فخلفه **أتافولف** . وبين يديه وقعت **غالا بلاسيديا** شقيقة **هونوريوس** ، فوافقت بمحض إرادتها على أن تصبح زوجة لقائد القوط الغربيين . وبفضل ذلك تم التفاهم بين **هونوريوس** والقوط الغربيين . مُنِحَ **أتافولف** لقب «MILITUM MAGISTER» ، وكلف بمهمة حماية غالة الامبراطورية (أي القسم الجنوبي منها) . وبهذا الدور ظلّ القوط

الغربيون في غالة حتى عام ٤١٦ ، حيث اجتاحوا اسبانيا كجيش امبراطوري ، لحمايتها من هجمات شعوب جرمانية أخرى .

خضعت غالة الشمالية لسيطرة الفرنكونيين ، والبرغنديين . وهم من القبائل الجرمانية التي اجتازت نهر الرين عام ٤٠٦ ، وقُذف بهم إلى اسبانيا ، واستقروا هناك . وهكذا عاشت داخل حدود الامبراطورية الرومانية شعوب جرمانية عدة . علماً أن عدد الجرمان لم يكن كبيراً ، إذ لم يتجاوز الخمسة بالمئة من مجموع السكان . اضطر السكان في الامبراطورية للبحث عن «حلفاء» يقومون بحمايتهم من الجرمان الذين لم يكونوا «حلفاء» . فتوَّجب على كل مواطن دفع ثلث موارده للبرابرة . ولم يكن هذا أسوأ مافي الأمر ، فقد فضل المواطنون إعالة الهمج على تحمل الضغط الأميري المرعب الذي ساد في الامبراطورية . لكنهم في الوقت ذاته شعروا نحوهم بالكراهية والاحتقار . ففي نظر السكان الذين ترعرعوا في أجواء الثقافة اللاتينية ، واعتبروا أنفسهم ورثة التقاليد الهلنستية ـ الاغريقية العريقة ، كان الوافدون ذوي الشعر الأشقر الذين فاحت منهم روائح الشحم والثوم . تجسيداً للهمجية . ولذلك شعروا بالكراهية نحو الجرمان ، ولكنهم شعروا بالخوف منهم أيضاً . هذا بالإضافة إلى التناقض على الصعيد الديني . فجميع الغرباء الذين استوطنوا في الامبراطورية ، كانوا من معتنقي الأريانية ، وأظهروا حماساً منقطع النظير لنشر معتقداتهم . فقد قام الأسقف القوطي الغربي الأرياني **سيفيناريوس** بتعميد أتالوس الذي منحه ألاريك التاج الروماني . كما فرض القوط الغربيون «كحماة» لغالة «الامبراطورية» واسبانيا ،الأريانية على القبائل الجرمانية الأخرى . وكانت الأريانية القوطية مستندة إلى العقيدة التي صاغها فولفيلا ، ولكن الأهم من هذا ، هو أن اللغة القوطية كانت اللغة الطقسية لدى الأريانيين . وبقدر ماأحرزت الهداية القوطية نجاحاً في الأوساط الجرمانية ، بقدر مااعتبر سكان الامبراطورية القدماء الأريانية ديانة جرمانية قومية ، ووقفوا منها موقفاً معادياً . وعلى نحو مماثل ، نظر الجرمان بإزدراء إلى الكنيسة الجامعة . يقول **نيومان** في هذا الصدد :

«فهم هؤلاء المحاربون الشماليون ديانتهم بدرجة كافية لأن يكرهوا أتباع الكنيسة الجامعة . . . وكان أساقفتهم على درجة من المعرفة تمكنهم من خوض النقاشات . . . ولابد من الاشارة إلى أنهم مهما بلغوا الوحشية والاستبداد ، فقد كان القوطيون والوندال شعباً رفيع المستوى على الصعيد الأخلاقي ، وبذلك أخجلوا الكاثوليك» . وكتب سلفيانوس :

«ماالفائدة التي يمكن أن تجنى من التسمية الدينية ، ومن أن نطلق على أنفسنا اسم الكاثوليك ، ونفخر بأننا أوفياء ، ونسخر من القوط والوندال ، ونؤنبهم على أن عقيدتهم هرطقة ، بينما نعيش نحن تفاهة هرطقية ؟» .

بقدر ماكانت العلاقات في إيطاليا وغالة بين أتباع الكنيسة الجامعة (الذين لقبوا بالرومان

آنذاك) والجرمان الأريانيين معقولة إلى حدٍ ما ، بقدر ما كان الامر مخالفاً في اسبانيا ومن ثمَّ في افريقيا إذ تمَّ اضطهاد أتباع الكنيسة الجامعة ونهب الكنائس .

أدت غزوات الجرمان وتنقلاتهم إلى تدمير الامبراطورية ، وكانت المدن هي الضحايا في المقام الأول . أما في الريف ، فقد نشأت ممتلكات واسعة حاول مالكوها ضمان الأمن لسكان القرى المجاورة لقاء العمل في الأرض ؛ وهكذا ظهرت أولى بوادر النظام الإقطاعي .

عجزت الدولة عن توفير الأمن لأي كان . وأصبح الأسقف الرجل المتنفذ الوحيد : فهو الذي ينظم حين الضرورة امور الدفاع عن المدينة ، أو التفاوض مع الغزاة باسم السكان .

وفي لجّة الإغتصابات ، والحرائق ، وأعمال النهب ، والتدمير ، أضحت الكنائس والمناسك وحدها أمكنة آمنة لحفظ المخطوطات النادرة في كثير من الأحيان ، وهناك فقط أمكن حفظ نتاج العلم والمعرفة .

انسحبت الإدارة الرومانية في **غالة** من المنطقة الخاضعة لسيطرة **الفرنكونيين** الوثنيين إلى المناطق «المحمية» من قبل القوط الغربيين (التي ضمت أكويتانيا) . وأضحت **أرليس** (بدلاً من ترير) عاصمة غالة الرومانية . ولذلك زادت أهمية المدينة كعاصمة أسقفية .

أما في بريطانيا ، فقد أُلغيت عام ٤١٠ الإدارة الرومانية نهائياً . وغادرتها الفيالق المتمركزة هناك بقيادة احد المتمردين الساعين لإغتصاب التاج الروماني . وذهبت سدى محاولات البريطانيين الهادفة لصد هجمات **قبائل البيكت السلتية** من **كاليدونية** والاسكتلندنيين من إيرلندة . ويرجح ان يكونوا لأسباب دفاعية قد طلبوا مساعدة **السكسون الجرمانيين** ، و **اليوت** ، و **الانجليز** . جاء هؤلاء فعلاً ، ولكنهم احتلوا السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة بدلاً من تقديم العون ، وأسسوا دويلات صغيرة خاصة بهم . خاضوا معارك حامية مع السلتيين الوثنيين ، ودفعوا بالبريطانيين المسيحيين إلى شبه جزيرة كورنفاليا . وهكذا خيمً على بريطانية ظلام العهود الهمجية .

ـ خـذ ـ إقـرأ LEGE - TOLLE

زحف هذا الظلام على كامل أوروبا الغربية : فغالة واسبانيا أُغْرِقَتا بأمواج الهمج ، وسحق القوط الغربيون إيطاليا . وظهر مرة بعد مرة منافسون **لهونوريوس** على العرش ، فاقتصرت سلطته عملياً على إيطاليا وافريقيا وحدهما .

وبقيت افريقيا الرقعة الأخيرة من الامبراطورية الغربية التي لم تطأها الأقدام الهمجية . وفي افريقيا ذاتها ، عاش الأبرز بين شخصيات ذلك العصر ، وهو : **أوريليوس أوغسطينوس** التاغستي ـ المعروف بإسم القديس **أوغسطين** .

ولد عام ٣٥٤ في تاغستا (في نوميديا ـ المقاطعة الدائمة التمرد التي سيطر عليها الدوناتيون) ، وكان والده موظفاً صغيراً في خدمة الامبراطورية ، و وثنياً . أما والدته **مونيكا** ، فكانت مسيحية و وقديسة فيما بعد .

تلقى **أوغسطين** الشاب تعليمه في **ماديرا** في **قرطاجنة** ، وأصبح خطيبا ولكي يصبح المرء خطيباً ، لابد له من التعمق في المعرفة . لكن معرفة **أوغسطين** اختلفت عن معرفة **أمبروزي** العظيم . لأن عقلية الأخير تشكلت على أسس الفلسفة الشرقية ؛ أما **أوغسطين** فكادت معرفته باللغة الاغريقية أن تكون سطحية . وعلى أي حال لم تجتذبه الفلسفة الهلنستية . وتوجّب على المعرفة التي رغب بها أن تكون عملية ، مرتبطة ارتباطاً عضوياً بتجارب الحياة . فاوغسطين يمثل تياراً فكرياً جديداً ، غريباً على نحو تام .

بعد سنوات الدراسة الأولى ، وبعد فترة من الحياة المتحررة كلياً ، انجرف **أوغسطين** إلى **طائفة المانويين** .

لقد أشرنا سابقاً إلى المانوية . فمؤسسها هو **ماني الفارسي** الذي عاش في القرن الثالث . وديانته صورة انموذجية لَما أمكن ان تكونه المسيحية المحشورة في تيار المعتقدات الشرقية ، لو لم تتمتع بطاقة داخلية تبعدها عن كافة الأشكال التوفيقية . وقد ربط ماني في مذهبه مابين **الثنوية الذردشتية والمسيحية** . ففي رأيه :

يوجد إله واحد ، **هو الكائن الأسمى** ، وعنصران هما : **الخير الممثل بيسوع** ، **والقوة الممثلة بالشيطان** . أما العالم والإنسان ، فمزيج من العنصرين . ولبلوغ الكمال ، يجب عدم قتل أي شيء (لكي لاتقتل جزئيات عنصر الخير) ، كما يُمنع تناول اللحوم ، وممارسة الجنس والرغبة في التناسل . لكن هذه القواعد تنطبق على «الكاملين» و «المختارين» فقط ، لأنهم وحدهم يستوفون شروط ومتطلبات الديانة بصورة تامة .

المانوية في المقام الأول تجسيد جديد **للغنوصية** . فالمعرفة الدينية فيها مقصورة على المختارين وحدهم ، وهم وحدهم قادرون على الاطلاع عليها بشموليتها . وهي معرفة سرّانية خفية . أما بلوغها فمشروط بنمط حياة متقشفة إلى أبعد الحدود . كأننا نجد هنا صدى **للإسّينية** . فالكمال الذي يحققه «المختارون» ، عملية كمال بديلة عن الآخرين . ومايطلب من الجمهور الذي يفتقر للمعرفة الدينية ، هو تبجيل الذين بلغوا الكمال .

المانوية استمرار للغنوصية ، وفي الوقت ذاته إيذان بظهور ديانات جديدة . وستبدو وكأنها تجسيد لبعض الأفكار الشرقية المستندة إلى **الثنوية** و **النخبوية** . وإلى هذا الأصل تعود الفروع التالية : **الكتاريون** ، **ومحبوّ الله** وكذلك **تأملات فرسان الهيكل المشبوهة** ، ومن ثمّ **الأخوة التشيك** ، و **التيوزوفيا** المعاصرة .

لم تكن المانوية هرطقة بطبيعة الحال ، كما أنها ليست شيعة مسيحية بالرغم من اقتدائها

بالمسيحية ، فكان لها «رسلها» و «أساقفتها» ، و «معموديتها» وكذلك «أوخارستيتها» ، ولو أننا لانعرف شيئاً محدداً عنها .

قُتلَ **ماني عام ٢٧٤** بأمر من الملك الفارسي ، لكن الديانة التي أسسها طافت أرجاء المعمورة ، وتميزت بقوة انتشار مذهلة . وقد وصل المبشرون بها إلى الهند والصين ، والتيبت . وجاءت إلى الامبراطورية الرومانية مع موجة المعتقدات الشرقية ، حيث اعتنقها الكثيرون . فمذاق السّرانية فيها ، والوعود الضبابية بالكنوز الفكرية الخفية ، والعواطف الرخيصة التي أثرّت على النساء بشكل خاص ، وكذلك سهولة اعتناقها (إذا لم يطمح المرء لأن يصبح من الكاملين) ، أدت إلى اكتساب المانوية شعبية واسعة . وقد وقف أباطرة الرومان باستثناء **يوليان** الجاحد بحزم ضد المانوية . كما حارب فلاسفة الأفلاطونية المحدثة كالفلاسفة المسيحيين عقيدة ماني . وعلى الرغم من ذلك لم يكن في الإمبراطورية بقعة واحدة لم تصلها المانوية بما في ذلك روما .

كتب **أوغسطين** : «انغمست في الزيف لعشر أعوام . . . سمحت بأن أُخدع وخدعت غيري» . وقد كشفت المانوية عن نقاط ضعفها أمام هذا الباحث الدؤوب عن حقائق الحياة . لكن **أوغسطين** انتظر اللقاء مع «الأسقف » المانوي الذائع الصيت **فاوست** . وأسفر اللقاء عن خيبة أمل مريرة . ثم كتب **اوغسطين** في اعترافاته :

«الحقيقة أن هذا الرجل أذهلني بما صبّه من حماس وعواطف في حديثه . . . عرضت عليه . . . قضايا للتأمل . . . ولكنه . . رفض . . . لم يرغب في أن يخوض طواعية نقاشاً يعجز عن الخروج منه بشرف» .

اقتنع **أوغسطين** بان المانوية لن تجيب على التساؤلات التي طرحها ، فسافر إلى **روما** ومن ثم إلى ميلانو ، بعد أن ضمن وظيفة خطيب المدينة في إحدى المسابقات . وهناك قرر الإصغاء إلى عظات امبروزي وهي التي قررت مصيره اللاحق . أدرك أنه في المسيحية وحدها يستطيع العثور على الحقيقة . فتلقى سرَّ المعمودية عام ٣٨٧ . وسوف يجمع حوله لفيفاً من الأصدقاء في كاسيكاكوم قرب ميلانو ، محاولاً العيش معهم حياة النساك وهو يكتب ويناقش ويفكر .

سيعود إلى افريقيا فيما بعد . ولكن والدته توفيت في **أوستيا** قبل سفره ، والبهجة تغمر قلبها بعد رؤية التغير الذي طرأ على حياة ابنها الوحيد . زار **هيبونا** عام ٣٩١ ، فاقترحه أسقفها **فاليريوس** على سكانها واعظاً . وبعد أن سيمَ **أوغسطين** كاهناً ، واستقر في هيبونا . اتسعت شهرة مؤلفاته وتعاليمه لتشمل الكنيسة بأكملها . وبعد ذلك الحين بخمسة أعوام توفي فاليريوس ، فاختير **أوغسطين** أسقفاً للمدينة خلفاً له . كانت الكنيسة التي ترأسها صغيرة واحدة من بضع مئات من الكنائس الافريقية ، لكن عظمة الرجل فاقت العاصمة الأسقفية

المتواضعة . ومنذ عام ٤٠٠ على وجه التقريب ، يمكن اعتبار **أوغسطين** القائد الحقيقي للكنيسة في افريقيا .

سيحارب **أوغسطين** المانوية ، الديانة التي خدعته شخصياً ، والتي بتجسدات أخرى ستخدع أناساً ذوي قلوب حميمة ، وطباع عاطفية ، ولكنهم متعطشون للعظمة . سوف يشرح لأنصار المانوية دواعي ارتباطه وتعلقه بالكنيسة : «علاوة على الحكمة التي لايؤمنون بوجودها في الكنيسةالجامعة ، يربطني بها التوافق المشترك للناس والشعوب ، تربطني تلك الهيبة . . . وذلك التسلسل الكهنوتي الذي يبدأ في عاصمة الرسول بطرس . . . تربطني بها تسمية «جامعة» التي تنفرد بها هذه الكنيسة دون غيرها . . . أما بينكم . . فأسمع بمجرد وعود صاخبة بالحقيقة . . . ولكن إذا كانت هذه الحقيقة موعوداً بها ، وليست معلنة ، فلن يعدني أحد عن تلك الحقيقة التي تربط ذهني بالديانة المسيحية بروابط وثيقة» .

سوف يخوض المعركة مع الدوناتية التي كانت لاتزال موجودة في افريقيا ، والتي شكلت خطراً كبيراً بالرغم من تمزقها إلى طوائف صغيرة ، لأنها لاقت دعماً من عصابات عُرفت باسم سيركومسيليون . كانت الحجة التي واجه بها الدوناتيين (الذين كاد عدد أساقفتهم في افريقا أن يعادل عددأساقفة الكنيسة الجامعة) هي التمزق الداخلي الذي عانت منه الطوائف المهرطقة والمنشقة . وقد كتب بهذا الصدد قائلاً :

«إنهم لا يقيمون صلاتٍ معنا . . . النوفاسيانيون ، الأريانيون ، والباترياسيانيون ، والفالينتيينانيون ، والباتريسيانيون ، والأبيليتبون ، المارسيونيون ، والأفنيتيون ، وغيرهم . . . ولكنهم حيثما وجدوا ، فهناك تكون الكنيسة الجامعة أيضاً . . . ومن ناحية أخرى ، لست أنت أوسواك من الهراطقة موجوداً في كل مكان توجد فيه الكنيسة الجامعة . . .» . خاطب **أوغسطين** أنصار الدوناتية ، متجاوزاً «أساقفتها» .

كان مهدداً بالخطر ، وفي إحدى المرات لعبت الصدفة (ان صحَّ تسميتها صدفة) دوراً في نجاته من كمين نصبته له العصابات المذكورة سابقاً . وفي نهاية المطاف ، أدى تحالف الطائفة مع قطاع الطرق إلى دفع السلطات لملاحقتهم بالرغم من تدخل اوغسطين لمنع ذلك . تمَّ عقد اجتماع موسع عام ٤١١ شارك فيه أساقفة الكنيسة الجامعة و أساقفة الدوناتيين . ولّما انتهى النقاش بخسارة الدوناتيين ، أمرهم القيصر بالعودة إلى أحضان الكنيسة تحت طائلة عقوبة التهجير . التزمت الغالبية المطلقة بهذا القرار ، وبدات بعد ذلك الإضطهادات من جانب السلطات ، والعنف الدموي من جانب عصابات **السيركومسيليون** . ومع مجئ الغزو **الوندالي** ، وتحرر الدوناتيين من ضرورة العودة إلى الكنيسة ، انقسمت الطائفة وتمزقت بشكل نهائي .

أدى تدمير **آلاريك** لـ **روما** وإيطاليا إلى لجوء حشود الفارين إلى افريقيا . وقد جاء معهم

رجلان هما : **بيلاجيوس وسيليستيوس** . كان الأول راهباً من أصل بريطاني ، والثاني محامياً رومانياً ، وهو تلميذ بيلاجيوس ومن الدعاة للتعاليم التي قام بنشرها .

كتب **بابيني** عن البيلاجيانية قائلاً : «تذكرت روسو بمناسبة البيلاجيانية ، وفي الواقع لم تكن البيلاجيانية سوى تحوير مسيحي للنظرية الرواقية القديمة . . . أكدَّ البيلاجيانيون أن إرادة الإنسان قادرة على كل شيء ، وأنه يمكن بلوغ الفضيلة والخلاص بمعزل عن النعمة الإلهية . لم ينزل **يسوع** لافتدائنا من الخطيئة الأولية . . . وإنما ليعطي مثالاً معبراً عن الحياة الأكثر سمواً . . . الناس طاهرون وصالحون» .

ربما توجَّب قول شيء أكثر : كانت البيلاجيانية أول «هرطقة أوروبية» . فإذا جاز لنا أن نعتبر المانوية خلاصة المعتقدات الإصطفائية الشرقية التي طُعّمَ بها الغرب ، فإننا نجد في البيلاجيانية بوادر الإنسان الخطأ المميز للعقلية الأوروبية الغربية ، المنعكسة في القناعة المتغطرسة بأن الإنسان قادر على الصعود بقواه الخاصة من الضعف الذي أسقطته فيه الخطيئة الأولية . الإنسان قادر على كل شيء ، ويستطيع فعل كل شيء ، بمفرده ودون مساعدة من أي كان . ليس بحاجة إلى النعمة . ومجرد وجود النعمة يجرح كبرياءه .

ولكن كل شيء في تطور الإنسان الروحي مُستمد من النعمة . «**لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا**» (فيليبي ٢ ؛ ١٣) هذا مايقوله القديس **بولس** . ويرى جورنييه أنه وفقاً لتعاليم الكنيسة الجامعة «العمل الصالح ليس الله والإنسان ، النعمة والحرية فحسب ، وإنما الله عبر الإنسان ، والنعمة عبر الحرية . . . فالله لايقتصر على أن يمدَّ إليَّ يده . بل يعمل على أن أشد على اليد الممدودة إليَّ . . . والله لايخلق فيَّ الأعمال الصالحة بدوني ؛ وإنما يفعل هذا من خلالي . . . يأمرني بعمل الخير مثلما يأمر شجرة الصنوبر بإتيان الأكواز» النعمة لاتقتل الإرادة الحرة . ولايرغم الله الإنسان على شيء ، و إنما يخرج للقائه ، ويهيء الظروف الملائمة لفعل الخير . فعمل الخير إذن شيء طبيعي . ولكننا قادرون على عدم إنجازه ، وفي وسعنا مقاومة مبادرة الله بمبادراتنا . لكن مبادراتنا هذه لن تكون خيِّرة ، لأن العمل الصالح هو «تحقيق» إرادة الله . يلتقي المضرب الذي في يدنا بالكرة التي تقذفها يد الله دوماً ، ولكن في وسعنا أن لانردها . وفي وسعنا مطاردة الخيال عوضاً عن الواقع .

إن أولوية النعمة غير ملحوظة عملياً ، ومبادرة الله أسرع من أسرع إيماءاتنا . والمطلوب هو الاعتراف بها فقط ، وإرفاقها بفعل إيمان جديد . لكن الإيمان بأولوية النعمة يجرح كبرياء الإنسان المتعطش للثقة بحواسه وبمنطق تفكيره . فنحن نريد أن نرى بأن مانملكه هو من رصيدنا الخاص . لدينا طبيعة فاعلة ؛ ونرغب بأن نشعر بالسرور من نتاجنا . وهذا طموح مشروع حتى اللحظة (كما سيقول تياردي شاردان) ، التي ننسى فيها أن «الإرتقاء الواعي لذاته» هو استمرار للإرتقاء الذي يقود من النشأة الجيولوجية إلى النشأة البيولوجية ، ومن ثم

عبرالنشأة النفسية إلى NOOGNESIS .

أبحر بيلاجيوس إلى **فلسطين** بعد إقامة قصيرة في افريقيا .بينما بقي **سيليستيوس في قرطاجنة** ، وهناك نشر تعاليم أستاذه . استدعي للمثول أمام مجمع كنسي دعى لإنعقاده الأساقفة الذين أقلقتهم تعاليمه في قرطاجنة عام ٤١١ ، حيث وجّه له المجمع تنبيهاً ، ولكنه لم يدنه . كما اضطر **بيلاجيوس** لتبرير نفسه امام مجمعين كنسيين انعقدا في أورشليم وديوسبوليس عام ٤١٥ . وتمكن هو بدوره من تبرئة نفسه .

لم يشعر **أوغسطين** بالإرتياح لهذه النتائج ، فقد وجد في البيلاجيانة تجسيداً لسقوطه الذاتي . لأنه تصوَّر في وقت ما بأنه قادر علىالتخلص من الخطيئة بقدرته الذاتية وبدون عون النعمة . وبسهولة بالغة نقل نشاطه الحياتي الطبيعي إلى مجال الحياة الروحية . كان هذا ضعفاً يهدد المجتمع الجديد المتشكل في المقاطعات الغربية من الامبراطورية ، الذي كان له أن يبني أوروبا الحديثة . فواجه البيلاجيانية بعقيدة النعمة . وناشد في الوقت ذاته **هيرونيم** الذي ربطته به أواصر صداقة متينة بعد خلاف أولي لم يستمر طويلاً ، ليواجه الهرطقة المنتشرة ويقاومها في **فلسطين أيضاً** .

بحث مجمع جديد انعقد في قرطاجنة عام ٤١٦ النظريات البيلاجيانية ، ورفع القضية إلى **روما** للنظر فيها ، فأصدر البابا إينوسنت حكماً بإدانتها .

لكن البابا الجديد زوزيموس الاغريقي الأصل ، الذي خلف إينوست ، ألغى الحكم بعد الإصغاء إلى كل من **بيلاجيوس و وسيليستيوس** ودافع في رسالته الموجهة إلى أساقفة افريقيا عن رجال اعتقد بأنهم اتهموا بالهرطقة خطأ . ولّما جدَّد الأساقفة اتهاماتهم ، راح يتراجع عن قراره . أدان المجمع التالي الذي انعقد في قرطاجنة عام ٤١٧ البيلاجيانية ، وأصدر الامبراطور أمراً بطرد **بيلاجيوس وسيليستيوس** من روما . كما أدينت البيلاجيانة في الشرق من قبل المجمع المنعقد في **انطاكية** عام ٤١٨ . وانضمّ **زوزيموس** أخيراً إلى أصحاب قرار الإدانة ، وناشد «زعيما» الطائفة لأن يتوبا ، إذا رغبا في تفادي الحرم الكنيسي .

وجدت البيلاجيانية مَنْ يقف إلى جانبها ويدافع عنها . ومنهم **يوليان** أسقف **إيكلانا** . ولّما حُكم عليه بمغادرة أبرشيته بسبب دعم تعاليم مدانة ، توجه إلى الشرق ، ومن هناك خاض معركة جدلية حامية مع **أوغسطين** ، متهماً إياه بأن تعاليمه مشوبة بالمانوية . «في هذه الأثناء توفي في **روما** البابا زوزيموس ولم يكلف خلفه **بونيفاسي** (انتخب في الوقت ذاته **يولاليوس** ، لكن الامبراطور اعترف بشرعية انتخاب **بونيفاسي** ، وأبعد خصمه من روما) نفسه عناء محاربة البيلاجيانية . وهكذا استمر الجدل القائم بين يوليان **وأوغسطين** ، حتى اللحظة التي اتخذ فيها **ثيودوسيوس** الثاني امبراطور الشرق ونسطور بطريرك القسطنطينية ، قراراً بطرد يوليان وأنصاره من القسطنطينية .

وجدت البيلاجيانية أنصاراً في أوساط الأساقفة البريطانيين أيضاً ، بالإضافة إلى أن بعض آراء **أوغسطين** التي طرحها في معركته ضد البيلاجيانية ، والمتعلقة بموضوع مصير الذين لايحصلون على النعمة الضرورية للخلاص ، أثارت حفيظة واحتجاج واحد من كبار مفكري تلك الحقبة ، وهو **يوحنا كاسيان** السكوذي الأصل ، رئيس دير القديس **فيكتور قرب مرسيليا** . لكن كاسيان تفوَّه في حمأة النقاش بجملة اعتُبِرت أنها مشبعة بروح البيلاجيانية ، إذ قال : «انطلاقة الإيمان من الإنسان ، وتتمتها من الله» . استمر الجدل بعد موت القديس **أوغسطين** ، وشارك فيه عدد من المجادلين . وقد وقف **بروسبير** الأكويتاني مدافعاً عن آراء **أوغسطين** ، بينما دافع **فَنْسَنت** الليريني عن آراء كاسيان . وفي عهد البابا **سيكستوس** الثالث الذي جاء بعد سيلستين (اعتباراً من عام ٤٣٢) ، ظهرت في **روما** وثيقة مجهولة (نُسِبَتْ إلى الشماس الروماني ليون ، وهو البابا اللاحق المعروف باسم **ليون الكبير**) ، وتدافع عن أعمال القديس **أوغسطين** ، ولو أنها تشير بأسلوب رقيق للغاية إلى أن الرأي الذي عبَّر عنه مؤلف «الاعترافات» حول الجبرية ، يجب أن يُلَطَّف بعض الشيء ، لأن الله يمنح فرصة الخلاص لكل إنسان .

يمكننا القول بجرأة ، أن الفضل في إنهيار المانوية ، والدوناتية ، والبيلاجيانية ، يعود للقديس **أوغسطين** .

يُعدُّ **أوغسطين** أول كبار مفكري الغرب ، فقد كان الكتاب الآخرون لتلك المرحلة ، وإن عاشوا في الغرب ، يمثلون الفكر الإغريقي في المقام الأول . ونجدهم في أعمالهم باحثين في المعرفة العملية أكثر من كونهم ناشرين لها . ويختلف **أوغسطين** عنهم ، ففي مؤلفه «الاعترافات» ، يصبُّ اهتمامه على القضايا الأخلاقية الحياتية قبل أي شيء آخر .لأن خبرته الحياتية علمته أن الحقيقة الإلهية يتم العثور عليها عندما يحاول الإنسان أن يعيشها .

في اللحظة الحاسمة من حياته ، عندما اختار المسيحية ولم يكن قادراً بعد على تكريس نفسه لها كلياً ، تناهى إلى سمعه في عمق الحديقة التي كان جالساً فيها ، صوت طفل يغني قائلاً : «خذ - اقرأ ؛ ففتح لاشعورياً الكتاب المقدس الملقى أمامه ، ووقع بصره على كلمات رسالة **بولس إلى رومية** «لنسلك بلياقة كما في النهار ، لابالبطر والسكر ، لابالمضاجع والعهر ، لابالخصام والحسد ، بل البسوا الرب **يسوع** المسيح ولاتضعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات» (رومية : ١٣ - ١٤) . كانت هذه الكلمات حاسمة في حياة **أوغسطين** ، وكانت بمثابة الجواب والدعوة . لقد بحث وركَّز تفكيره من قبل . ولكنه أدرك في تلك اللحظة أن البحث وحده غير كافٍ . ولابد من المبادرة بكامل الحياة . يجب العثور على الحقيقة الإلهية في الذات ، هناك حيث هي موجودة . أدرك **أوغسطين** هذا الشيء وتراجع .

أما البيلاجيانية فقد خسرت المعركة في قلب **أوغسطين** قبل أن تهزم في الجدل مع يوليان . وقهر **أوغسطين** الإغراء الكامن في الرغبة بنسب كل شيء للذات .

وافته المنية وهو منهمك في العمل على مقالة جديدة ضد البيلاجيانية توفي **أوغسطين** عام ٤٣٠ في **هيبونا** في لحظة مأساوية ، حيث كانت المدينة تعاني من وطأة الحصار الوندالي منذ ثلاثة أشهر .

ـ الظلام يخيم فوق أفريقيا

رأت افريقيا الجرمان من قبل ، وتحديداً القوطيين العاملين في خدمة الامبراطورية الرومانية . ونحن نعرف أن اوغسطين خاض نقاشاً مع أسقف **أرياني** من أصل قوطي ، يدعى **مكسيميان** ، وذلك عام ٤٢٨ .

ونشأت عام ٤٢٣ خلافات بين **بونيفاسيوس** والي افريقيا **وأيسيوس** الجرماني الأصل ، وهو القائد الذي لعب دوراً بالغ الأهيمة في البلاط الامبراطوري . بعد وفاة القيصر **هونوريوس** ، استولت شقيقته **غالا بلاسيديا** على السلطة (كانت أولاً زوجة قائد القوط الغربيين **أتافولف** ، ومن ثمَّ زوجة كونستانسيوس حاكم المملكة ، بعد وفاة الأول) ،ومارستها باسم ابنها **فالينتينيان** الثالث . وجه **أيسيوس** تهمة الخيانة إلى **بونيفاسيوس** ؛ وانطلقت إلى افريقيا حملة عسكرية بقيادة **سيغسفولت** . فاستعان **بونيفاسيوس** بالوندال لمواجهة الجيوش الامبراطورية . واجتاز الوندال بقيادة ملكهم المدعو **غينزيريك** مضيق **جيبرالت** ، لكنهم بدل الوقوف إلى جانب بونيفاسيوس ، تحالفوا مع البربر ، واستولوا على موريتانيا ونوميديا . وبدون جدوى حاول بونيفاسيوس صد السيل الجارف الذي هيجه بنفسه ، فاحتمى بعد هزيمته بأسوار هيبونا . حوصرت المدينة أربعة عشر شهراً ، توفي خلالها **أوغسطين** .

وفي نهاية المطاف أفلح **بونيفاسيوس** في الفرار من المدينة ، وسقطت هيبونا في أيدي الغزاة ، وأضحت عرضة للنهب والحرق .

تميز الوندال بين كافة الشعوب الجرمانية بكراهيتهم للحضارة الرومانية . فقد دمرّ غينزيريك افريقيا بشكل منظم ، منفذاً بذلك العهد الذي قطعه على نفسه بتدمير كل ماهو روماني . ولم يتمكن أحد من التصدي له ، ولذلك سقطت أفريقيا الشمالية الرومانية حتى سيرينايكا في يد الوندال . ولم يكن أي من الشعوب الجرمانية التي اعتنقت الأريانية أكثر وحشية منهم تجاه أتباع الكنيسة الجامعة . فقد دُنِّست الكنائس أو هُدِّمت ، واعتقل رجال الدين وتعرضوا للتعذيب والقتل . سُحقت الكنيسة الجامعة ، وطغت الأريانية لما يقارب المئة

عام . وخلال الثلاثين سنة الأولى لم يبق سوى ثلاثة من أساقفة الكنيسة الجامعة من أصل مئة وستين .

ـ أتيلا

ليس الجرمان وحدهم من قام بتدمير الامبراطورية .

هاجم **الهون** حوالي عام ٣٧٤ السهوب الروسية الواقعة مابين جبال الأورال والكاربات ، التي قطنها من قبل **السرماتيون** ، ومن ثم السكوذيون ، والقوط . ثم اقتحم الهون السهل الهنغاري وأخضعوا الجيبيد . انقسموا إلى ثلاثة حشود بقيادة كل من **روغيلا** ، و **موندزوك** ، و **أوكتار** . و في عام ٤٣٢ نجد على رأس قبائل الهون أبنا موندزوك : **بليدا** ، **وأتيلا** . تخلص أتيلا من شقيقه بسرعة ، وبسط سلطته علىالقبائل كلها .

أعلن أتيلا الحرب عام ٤٤١ على امبراطور الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية . فاجتازت حشود الهون التي ساندتها جموع الجرمان ، والسكوذيين ، والسلافيين المهزومة ، نهر **الدانوب** ، واقتحموا **مورافيا** ، احتلوا **نيس** ، ونهبوا **فيليبوبوليس** ودمرّوها ، وسحقوا **تراقية** . عقد امبراطور الشرق صلحاً مع أتيلا عام ٤٤٨ متنازلاً له عن ميزيا (**بلغاريا**) ، ومؤدياً له فدية ضخمة .

حشد **أتيلا** قواته مجدداً عام ٤٥١ ، واتجه نحو الشمال في هذه المرة . اجتاز نهر الرين ، واقتحم غالة . وقد قيل بأنه جاء تلبية لدعوة زعماء الفرنكونيين المتناحرين فيما بينهم . كان الغزو الهوني بمثابة موجة مرعبة وساحقة . ويعتقد أن تعداد الجيش تجاوز النصف مليون مقاتل ، فلم يصمد شيء أمام الفرسان المغول الذين آزرتهم حشود الجرمان والسلاف الهمجية . سقطت **ميتز** ، ومرَّ أتيلا بالقرب من **باريس** ، ثم توقف تحت أسوار **أورليان** . وهناك وقف السيل الهوني وجهاً لوجه أمام الجيوش الرومانية بقيادة **أيسيوس** ، معززة «بحلفائها» من القوط الغربيين . كان **أيسيوس** جرمانياً ، ومعظم جنوده من الجرمان . وعلى مقربة من **ترويس** ، دارت رحى معركة طاحنة ، وقف فيها وجهاً لوجه الجرمان الأريانيون والجرمان الوثنيون . سقط في المعركة مئة واثنان وستون ألفاً من المتحاربين ، دون أن تحسم بصورة نهائية . وانسحب أتيلا لأسباب غامضة إلى وادي الدانوب .

زحف أتيلا في العام التالي ٤٥٢ مجدداً ، متجهاً في هذه المرة إلى ايطاليا . سحق كلياً **أكويليا** التي دافع عنها القوط (أسس جزء من السكان الذين نجوا بأرواحهم مدينة جديدة هي **فينيسيا** على جزر **الأدرياتيك**) ، واحتل **ميلانو** ، **وبافيا** ، متابعاً زحفه نحو الجنوب . عجز

أيسيوس في هذه المرة عن مواجهة الغزاة ، وغادر القيصر **فالينتينيان رافينا** ليحتمي بأسوار **روما** .

خرجت مجموعة من الرجال العزّل ، وعلى رأسهم البابا **ليون** للقاء الغازي المرعب . تولى **يوليان** (الشماس السابق ، ومؤلف الأعمال الموجهة ضد نسطور ويوليان الإيكلاني) رئاسة أسقفية **روما** عام ٤٤٠ بعد **سيكستوس** الثالث . وسوف يمنحه التاريخ لقب الكبير ، والكنيسة لقب القديس . سنعود للحديث عن هذا البابا الفذ في مكان آخر ، أما الآن فنجده يقطع الطريق على أتيلا قرب **مانتوفا** .

رافق البابا رسل القيصر . خافوا من مقابلة أتيلا بمفردهم . وجاءوا له بالفدية المهينة . أهو الذهب الشيء الذي أوقف زحف أتيلا ، أم أنها هيبة الشيخ الأعزل ، الكاهن الأعلى للديانة التي كان القائد الهوني يجهلها ، والذي جاء شخصياً للتفاوض معه دون وجل ؟ تصعب الإجابة على هذا التساؤل . غادر أتيلا إيطاليا ، وأقفل عائداً إلى السهل الهنغاري ، وتوفي عام ٤٥٣ بعد عام واحد من ذلك التاريخ .

أدّى موته إلى تفكك الدولة الهونية حالاً . هزم القوط الشرقيون والجيبيديون المتمردون الهون ، وقتلوا **إيلاكا** ابن أتيلا . لعب أبناء أتيلا فيما بعد دور «حلفاء» الامبراطورية الرومانية الشرقية ، باستثناء واحد منهم هو **دينغيزيك** الذي عاد بصحبة جزء من الحشود إلىالسهوب المحيطة بالبحر الأسود . وحاول بعد بضعة أعوام مهاجمة الامبراطورية الشرقية ، لكنه هُزم ، وعُرِضَ رأسه ـ رأس ابن أتيلا ـ ! في السيرك العام سنة ٤٨٦ .

ـ نهاية الامبراطورية الغربية

قتل القيصر **فالينتينيان** بنفسه **أيسيوس** ، لأنه لم يفلح في حماية إيطاليا من غزو **أتيلا** . بينما لقي القيصر حتفه بعد عام واحد ، أي عام ٤٥٥ على يد مطالب بالعرش يدعى **بترونيوس مكسيموس** . ثم لقي القاتل مصرعه على يد الجمهور الروماني عندما حاول الفرار من المدينة قبيل الغزو الوندالي . نفّذ الوندال الذين احتلوا افريقيا من قبل ، هجوماً صاعقاً علىالمدينة . وفي هذه المرة أيضاً ، كان البابا **ليون** الرجل الوحيد الذي تقدم للتفاوض مع الغزاة . فأدت جهوده إلى أن **غينزيرك** ، الأرياني المتحمس ، وعدو كل ماهو روماني ، وعد بعدم حرق المدينة ، وبإنقاذ حياة سكانها . اقتصر الأمر على نهب المدينة ، وتدفق كنوزها إلى **قرطاجنة** . لم يرحم الوندال أحداً ، بإستثناء باسيليقا القديس بطرس ، والباسيليقا اللاتيرانية .

ظلّت **روما** بدون حاكم ، إذ لم يجرؤ أحد على اعتمار التاج الامبراطوري . بسط

تيودوريك الثاني ملك القوط الغربيين حمايته على الامبراطورية الغربية ، وأعلن **أفيسيوس** قائد الجيوش الرومانية في غالة امبراطوراً . لكن الجرماني ريسمير قائد الجيوش الامبراطورية في ايطاليا عارض ذلك . وقام هو بتعيين **مايوريانوس** قيصراً . ثم قتله بنفسه ، عندما أظهر هذا استقلالية تزيد عمّا رغب بها «حاميه» . وهكذا توالى الحكام العديمو الأهمية بسرعة ، الواحد بعد الاخر : **سيفيروس** ، **أنتيميوس** ، **أوليبريوس** ، **غاليسيريوس** . واجه امبراطور الشرق هذا الأخير بمرشحه الخاص **يوليوس نيبوس** ، وقام قائد فيلق رافينا **أوريستيس** بعزله عن العرش .

كان **أوريستيس** رومانياً . ووقع التاج بين يديه ، لكنه لم يجرؤ على الإحتفاظ به لنفسه . فاعطاه لإبنه رومولوس عام ٤٧٥ . لكن القائد الجرماني **أودواكر** خلع عن العرش الصبي الذي حمل اسم مؤسس **روما** الأسطوري ، وذلك عام ٤٧٦ ، ثم جمع الشارات الامبراطورية وأرسلها إلى القسطنطينية ، طالباً لنفسه لقب شريف روما . أهمل الامبراطور هذا الطلب ، وتركه دون إجابة .

وبذلك اختفت الامبراطورية الرومانية الشرقية من الوجود .

ـ القديس باتريك

أشرنا سابقاً إلى أن السكسون والإنجليز والجوت ، جاؤوا بقيادة **هينغست** إلى بريطانية تلبية لدعوة البريطانيين الذين أنهكتهم هجمات البيكت والاسكتلنديين . ولكنهم لم يفكروا بحماية بريطانيا ، بل أسسوا على الساحل الشرقي للجزيرة سبع دويلات خاصة بهم ، هي : **كنت** ، **سوسيكس** ، و **ويسكس** ، انجلترا الشرقية ، **ميرسيا** ، **بيرنيسيا** ، وديريا . كانت هذه دويلات حكمها الجرمان والوثنيون ، وسكنها السلتيون المسيحيون .

يقول المؤرخ **تشسترتون** : «غادرت الفيالق الرومانية بريطانية . . . لكن هذا لايعني أن الحضارة الرومانية أيضاً غادرتها» . ولم تغادرها المسيحية أيضاً . وتنسب التقاليد نشر المسيحية هناك إلى **يوسف الإنجيلي الأريماتي** ، الذي كان رسول الجزيرة . ويقول المؤرخ السابق نفسه : «تميزت المسيحية الانجليزية منذ البداية بماديتها السّرانية . . . وناضلت بضراوة من اجل القانون الطبيعي في معالجة الأمراض الملموسة بوسائل ملموسة» . شاعت على نطاق واسع الخرافات التي تحدثت عن التدين ، وكذلك تكريم آثار القديسين ، و أشهرها أسطورة عن القديس جرال . وبينما حارب الجرمان الوثنيون الاسكتلنديين الوثنيين ، تجمع معظم المسيحيين في ويلز تحت رعاية الملك **آرثر** . ثم انتقل هؤلاء المسيحيون السلتيون من ويلز وكورنواليا إلى مقاطعة في غالة عُرِفَتْ بإسم **أرموريكا** . ثم سكنوا في شبه الجزيرة البريطانية

التي تستمد اسمها من اسم سكانها الأصليين . ومع هؤلاء السكان انتقلت إلى أوروبا أساطير ساحرة عن الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة (وقد وصفتها أنديست ببراعة في مؤلفها عن الملك آرثر) .

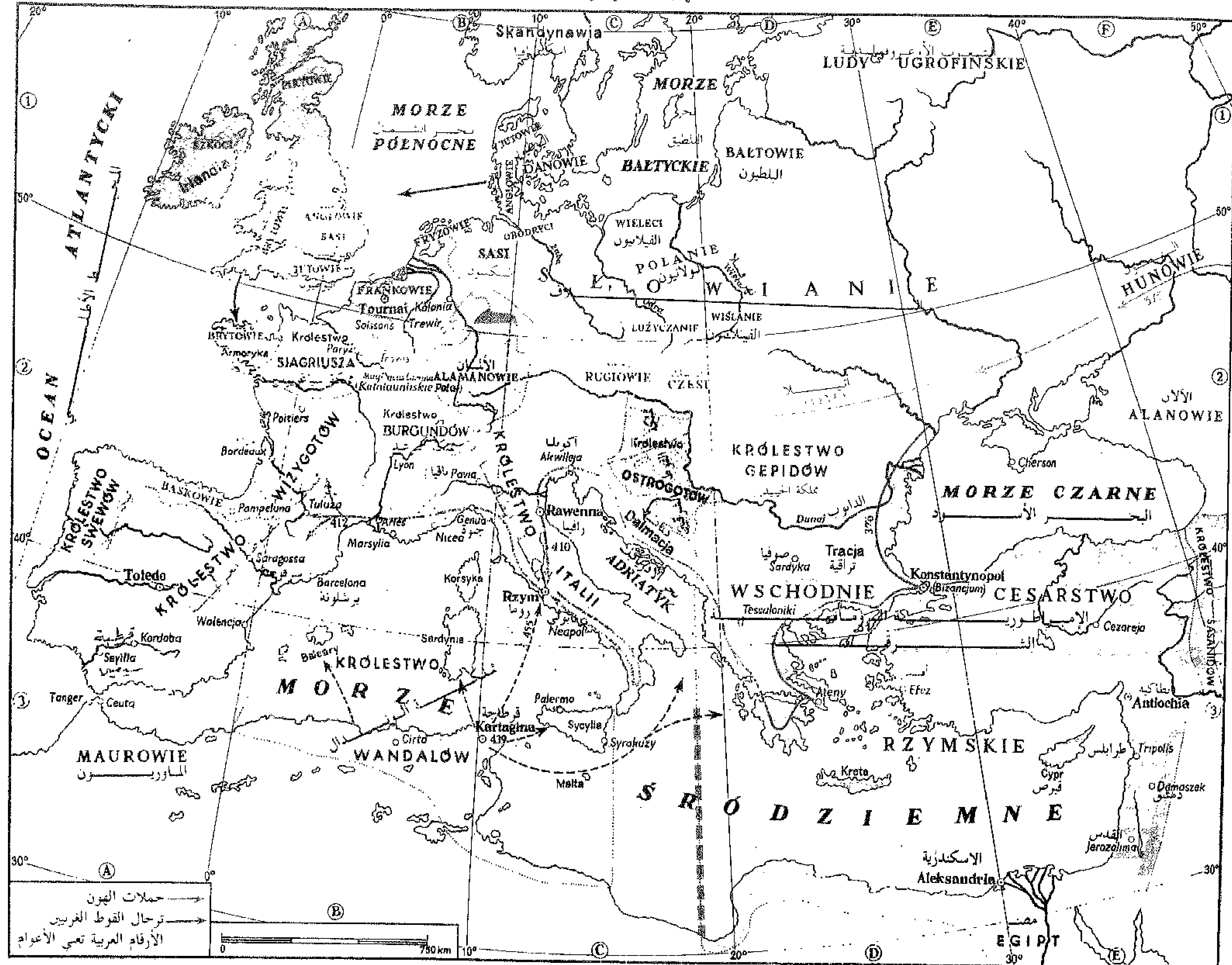
كانت للمسيحية البريطانية بنية خاصة بها . فلم تكن ديانة رسمية للدولة ، كما أنها لم تعتمد على التسلسل الهرمي لسلطة الكنيسة الذي شاع في بريطانية في العهود الرومانية . يقول دواصن :

«شكلَّت كياناً جديداً ناتجاً عن تطعيم الثقافة السلتية القبلية بالمسيحية . وقد اعتمدت هذه المنظمة على الدير المحلي أكثر من اعتمادها على النظام الأسقفي ، وبلغت أوج تطورها في ايرلندة ، وليس في بريطانية» .

بينما تسبب الاسكتلنديون الوثنيون (هذا هو الاسم الذي أطلق على سكان إيرلندة آنذاك) بنتيجة هجماتهم المتكررة على بريطانية ، في مجيء الجرمان إلى الجزيرة وسحقهم المسيحية المزدهرة هناك ، اعتنقوا فيما بعد المسيحية بفضل رجل بريطاني ، هو **باتريك** ، ابن قائد عشرة في سلاح الفرسان البريطاني ، اختطفه القراصنة الايرلنديون وهو صبي في العاشرة من العمر . أفلح الشاب بعد ستة أعوام في الهرب من الأسر . توجَّه إلى غالة وترهب في ليرنس . لكنه احتفظ بودٍ كبير لمضطهديه السابقين ؛ وغالباً ماكان يقول : «أسمع كيف تناديني ايرلندة بأصوات الأطفال الذين لم يولدوا بعد» . وفي عام ٤٣٢ عبَّر باتريك عن رغبته في العمل التبشيري في ايرلندة ، فرسم أسقفاً وأرسل من قبل البابا سيكستوس للعمل هناك .

أسفر عمله التبشيري الذي دام ثلاثون عاماً عن نتائج مذهلة .فقد تقبلت «جزيرة القراصنة» سرَّ المعمودية دون معارضة تذكر ، وبدون شهداء وتأسست أول عاصمة أسقفية في **أرماف** عام ٤٤٤ . توفي باتريك عام ٤٦١ ، وسرعان ماغطَّت إيرلندة شبكة من الأديرة ، أضحت بذرة بعث المسيحية في كامل أوروبا . كما لُقِّبَتْ بإسم «جزيرة القديسين» . إذ لم يوجد ذلك العدد من القديسين في أي مكان آخر آنذاك . ومنهم : **إيندا** ، وهو راهب من **أرانمور** ؛ **بريندان** ، مؤسس دير في **كلونفرت** ؛ **كولومب** ، مؤسس دير في **أيونا** ؛ **كولومبان** ، راهب من **بانغور** ؛ **كومغال** ، مؤسس دير **بانغور** . **أيدان** ، أسقف **فيرنس** ، **فينان** ، أسقف **ليندسفارن** ؛ و **فينيان** من **كلونارد** ؛ **فينتان** ، ناسك من **فلانان** **أسقف كيلاول** .

٣ ـ نهايـــة الإمبراطوريـــة الغربيـــة



ـ الجرمان في حركة مستمرة

استمرت عملية الهيجان التي دفعت القبائل الجرمانية إلى حركة تنقل دائمة . فقد سيطر الوندال على كامل افريقيا الشمالية وجزر البحر المتوسط : صقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، وغيرها . وخدم القوط الغربيون الامبراطورية لفترة طويلة . لكن قائدهم يوريك باشر عام ٤٦٦ بغزو شبه الجزيرة البيرينيية وغالة بهدف تأسيس دولة قوطية مستقلة . وفي عام ٤٨٠ كانت اسبانيا برمتها وغالة حتى نهري اللوار والرودان داخلة في إطار تلك المملكة . واستولى البرغند في الوقت ذاته على ليون ، مقلصين مساحة غالة الرومانية أكثر فأكثر .

ادى تفكك الدولة الهونية ، وتحرر القوط الشرقيين من نير الهون إلى زحفهم نحو الغرب . فاقتحم قسم من القوط الشرقيين **ميزيا** بقيادة **ثيودومير** واستقروا هناك ؛ بينما دخل قسم آخر بقيادة فيديمير غالة ، وانضموا إلى القوط الغربيين .

أصبح **تيودوريك** ملكاً على القوط الشرقيين في ميزيا بعد وفاة ثيودومير . وبما أنهم كانوا مصدر خطر دائم على الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، كلفهم حاكمها (بهدف اتقاء شرّهم) بمهمة انتشال **إيطاليا** من أيدي **أودواكر** . فباشر **تيودوريك** الطموح عام ٤٨٧ بتنفيذ هذه المهمة .

اتخذت العلاقة بين الجرمان الأريانيين بغالبيتهم ، وبين سكان إيطاليا أتباع الكنيسة الجامعة ، صيغاً مختلفة . وحيثما كانت هذه العلاقات حسنة ، جاء ذلك نتيجة الموقف الملائم لأتباع الكنيسة الجامعة ، وخاصة موقف الأساقفة . ففي كل مكان مثّل الكنيسة رجال من أمثال جيرمان **الأوكسيري** ؛ و **ريميجيوس** أسقف ريمس ؛ و **أفيت** أسقف **فين** ؛ و **إبيفانيوس** أسقف بافيا ، (الملقب بمهديء إيطاليا) ؛ و **ليندر** أسقف sewill ، تحلّوا بالشجاعة والرحمة بآن واحد ، وتفاوضوا بجرأة مع الأريانيين ، واهتموا بمصائر الناس ، وأعتقوا العبيد ، ولم يتوانوا عن القيام بالعمل التبشيري ، حظيت الكنيسة بالإحترام والتقدير . كما استطاع **ثيوتيم** أسقف tomi كسب ودّ وصداقة الهون ؛ ونيكتا أسقف **ريميريانا** (قرب نيس الذي أصبح مبشراً حقيقياً بين الهونيين ، والسكوذيين ، والقوطيين ، والبيسبين (شعب تراقي اشتهر بوحشيته وفقاً لما أشار إليه **هيرونيم**) .

كان القديس **سيفيرين** مثالاً رائعاً في التأثير على الشعوب الهمجية . مامن احد يعرف في الحقيقة مَن يكون . وكلّ مانعرفه أنه جاء إلى **أستور** قرب **فيندوبونا** (فيينا حالياً) حوالي ٤٥٤ . وبالرغم من بقائه علمانياً (أي لم يتقبل المسوح الكهنوتية) حتى نهاية حياته ، أطلق عليه اسم رسول نوريكا . ذاع صيته كمدافع عن السكان المعذبين ، وواعظ فذ ، ومؤسس للأديرة . كانت له هيبة عظيمة ، منعت الجرمان من ارتكاب أعمال العنف . ومن أعماله

الكثيرة المشهود لها ، اقناعه **غيزو** ملكة الرغيين بعدم فرض المعمودية الأريانية على أتباع الكنيسة الجامعة في نوريكا . توفي عام ٤٨٢ .

استوطن الفرنكونيون الوثنيون في أقصى شمال غالة ، في بلجيكا الحالية . وأقاموا علاقات حسنة مع غالة الامبراطورية لردح من الزمن لكن قائدهم **شيلديريك** بدأ عام ٤٦٩ بتحريك جيوشه نحو الجنوب . هاجم **باريس** بضع مرات ، لكن المدينة دافعت عن نفسها وصمدت بتحريض من ناسكة تدعى **جينوفيفا** ، وهي نفسها التي ناشدت الباريسيين من قبل إغلاق بوابات المدينة في وجه الهون .

قابل **شيلديريك** القديس **ريميجيوس** أسقف **ريمس** ، وترك هذا القائد أثراً عميقاً في نفسه . وقامت فيما بعد بين ابن شيلديرك وخليفته كولدويج وبين الأسقف علاقات أمتن . عمل قائد الفرنكونيين الشاب على توسيع رقعة الأراضي التي بدأ والده بإحتلالها ، حيث ضمَّ إليها المناطق المأهولة بأتباع الكنيسة الجامعة ، وادرك أنه إذا رغب في إقامة علاقات حسنة معهم ، فلا بدَّ له من أن يصبح مسيحياً كاثوليكياً ، وليس أريانياً كغيره من القادة الجرمان . وقد حاول **تيودوريك** القوطي الشرقي فرض الأريانية على الفرنكيونيين بعد زواجه من شقيقة **كولدويج** . لكن ماحصل هو العكس : تزوج كولدويج من الأميرة البرغندية **كلوتيلدا** التي كانت من أتباع الكنيسة الجامعة . وتحت تأثير زوجته ، وتأثير الأسقف ريميجيوس ، قرر الزعيم الفرنكوني تقبل سرَّ المعمودية الكاثوليكي .

اتخذ كولدويج قراراً حكيماً ، فقد اختار ديانة رعاياه المقبلين . مارس الزعماء الجرمان الآخرون العنف على السكان الرومان . بينما كسب الفرنكونيون بإعتناقهم ديانة السكان ، ودَّ وصداقة سكان غالة القدماء . وأعطى هذا التآخي الفرنكوني ـ الروماني دولة كولدويج أهمية كبرى ، ورفعها إلى المقام الأول بين الدويلات الجرمانية التي تأسست على أنقاض الامبراطورية الرومانية الغربية . وسوف تصمد عندما تنهار ممالك القوط الغربيين ، والقوط الشرقيين ، والوندال .

الفصل الرابع

الكنيسة تتمزق مجدداً

ـ نسطور

توفي امبراطور الشرق أركاديوس عام ٤٠٨ ، وخلفه على العرش ابنه **ثيودوسيوس** الثاني . تميز القيصر الجديد بطبعه السلبي ، وغالباً مانابت عنه في أمور الحكم زوجته **يودوكسيا** ، وشقيقته **بولخيريا** .

خمدت ببطء الضجة التي نجمت عن الخلاف الناشيء بين **روما** وبطريركيات الشرق الثلاث حول قضية **يوحنا** الذهبي الفم . وكان ألكسندر أسقف **انطاكية** أول من أعاد المياه إلى مجاريها مع روما ، بعد ان دوَّن اسم الذهبي الفم في سجل الصلوات التي تتلى أثناء القداس ، طالبة وساطة الذين رحلوا عن هذا العالم في القداسة . وتحت تأثيره وبنتيجة الضغط الذي مارسه سكان القسطنطينية ، حذا حذوه بطريركها أتيكوس .

أصبح **كيرلس** أسقفاً للإسكندرية ، وهو ابن شقيقة ثيوفيل الذي توفي دون ان يتصالح مع البابا في قضية إدانة **يوحنا** الذهبي الفم . كان كيرلس رجلاً شديد اللهفة والحماس وقد صُنِّف في عداد القديسين . لكنه كما يبدو لم يتمكن دوماً من الربط مابين اللهفة وبين الإتزان والوداعة في جميع الأوقات . فبعد تربعه على الكرسي البطريركي في **الاسكندرية** ، حدثت أعمال شغب عنيفة . هاجم حشد من الرهبان الموالين له الوالي الامبراطوري ؛ ثمَّ نشبت معركة بين السكان المسيحيين واليهود ؛ وأخيراً ثار المسيحيون المتعصبون ضد الوثنيين ، وارتكبت جريمة قتل بشعة ، **كانت ضحيتها عام ٤١٥ الفيلسوفة والرياضية الوثنية الذائعة**

الصيت هياتيا . لاشك بأن كيرلس كان متورطاً في النزاع القائم في حينه بين ثيوفيل **ويوحنا** الذهبي الفم . ولكننا منذ عام ٤١٨ نعثر على مراسلاته مع البابا **زوزيموس** ، ممايشير إلى أن المشكلة قد حُلَّتْ ، وأعيد التحالف القديم بين الإسكندرية وروما .

بعد وفاة أتيكوس جلس **سيزينيوس** التقي على الكرسي البطريركي في القسطنطينية ، وجاء بعده **نسطور** . كان نسطوركاهناً من اصل انطاكي ، وذاع صيته هناك كواعظ فذ . اختبر حياة الزهد أيضاً ، ممضياً بضعة أعوام في الدير . واعتقد عموماً بأن القسطنطينية تكسب في شخصه رديفاً لـ **يوحنا** الذهبي الفم .

عبَّر نسطور فور قدومه إلى القسطنطينية عن رغبته الصادقة في محاربة كافة أشكال الهرطقة . وباشر بالعمل دون تأخير : فبعد سيامته بخمسة أيام فقط ، حرَّض الجمهور على حرق معبد أرياني سرّي ؛ وانتشرت النيران لتمتد إلى منازل أخرى مما أدى إلى احتراق الحيّ بأكمله .

لكنَّ هذا الرجل المتلهف نفسه ، بدأ بعد فترة وجيزة بالدعوة لعقيدة تنمُّ عن الهرطقة . ففي البدء منع الكهنة من استخدام عبارة «والدة الإله» في وصف العذراء . أثار هذا الشيء معارضة حادة لدى جمهور المؤمنين ، لأن عبادة العذراء كانت متأصلة بجذور عميقة في القسطنطينية . وكان البطريرك السابق أتيكوس واحداً من كبار الدعاة لها ، وعلى أي حال ، كانت عبارة «والدة الإله» شائعة الإستخدام في الشرق برمته . ويعتقد بأن أسقف الإسكندرية **ألكسندر** كان أول من استخدمها . كما يمكن العثور عليها في مؤلفات **أوريجين** ، **وأثناسيوس** ، **ويوسيبوس القيصري** ، **وباسيليوس** الكبير ، **وغريغوري** النزينزي .

وعلى أي حال ، لم يكن نسطور يهدف إلى المس من كرامة العذراء ، لأنه من اوائل القائلين بحبلها دون دنس ، لكنه كان من أنصار عقيدة صاغها في **انطاكية** إثنان من المؤلفين الكبار ، ومن المتلهفين للدفاع عن الأرثوذكسية أيام الإضطهادات ، هما : **ديودور** أسقف **طرسوس** لاحقاً ، و **تيودور** أسقف **موبسويستا** في صقلية لاحقاً . وقد جاءت عقيدتهما نتيجة النقاش مع كاتب آخر لاتقل خدماته للكنيسة عمَّا قدَّماه . وهو **أبولينار اللاوديسي** صديق أثناسيوس . ففي نظر أبولينار لم يتمتع **يسوع** بطبيعة بشرية كاملة ، لأن الطبيعة البشرية خاطئة دوماً ؛ ولذلك لم يكن إنساناً بالمعنى الكامل للكلمة .

أدينت آراء أبولينار مراراً ، لكنها انبعثت من جديد وأضحت مصدر خطر علىالكنيسة في **انطاكية** . لكن **تيودور** و **ديودور** ، تجاوزا في نقاشهما معه كل الحدودو وافترضا وجود طبيعتين كاملتين وتامتين مستقلتين في **يسوع** - إلهية وبشرية وعجزا عن رؤية هاتين الطبيعتين متحدتين في شخص واحد . كان **يسوع** في نظرهما إنساناً اتحدَّ معه في لحظة معينة الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس . فهناك إذن شخصان ، اتّحدا معاً في شخص واحد فيما بعد .

وهذا ماكان يعنيه نسطور في إنكار لقب «والدة الإله» على العذراء مريم ، فمريم بالنسبة له ام يسوع ، أم المسيح لكنها لم تكن أم الإله .

أثار قرار نسطور معارضة عنيفة كما أسلفنا . ومرة أخرى جاء دور «القناعة العامة» ـ ذلك العامل الهام الذي سيبرز مراراً في الكنيسة ، مطالباً بتعريف رسمي للحقيقة المعترف بها من قبل جميع المؤمنين ، على أنها حقيقة . واجه **يوسيبوس** (وهو رجل علماني سيصبح فيما بعد أسقفاً في دوريليا) البطريرك نسطور علناً ؛ كما تظاهرت ضده جماهير الرهبان . وفي نهاية المطاف جاء صوت كيرلس الاسكندري في رسالة يقول فيها : « يجب أن نؤمن ونعلم بتصميم وحق ودون تردد ، أن ابن الله ولد بالجسد من العذراء . وتشكل الكلمة والجسد منذ لحظة التجسد كلاً واحداً ، مثلما تشكل النفس والجسد البشري إنساناً واحداً» .

كان نسطور إنساناً متلهفاً لخدمة الكنيسة بكل تاكيد ، لكنه كان سريع الغضب ، ومتغطرساً ، وشديد الإعتزاز بالنفس أيضاً . فقد اجاب على رسالة كيرلس بصيغة تنمُّ عن الامتعاض . استأنف كيرلس المهان الأمر إلى الامبراطور ؛ لكنه حصل على جواب يطالبه بعدم إثارة خلافات غير ضرورية . فاستأنف القضية عندئذ إلى روما ، حيث كان البابا **سيلستين** قد تلقى رسالة نسطور التي شرح فيها عقيدته بغطرسة ساذجة . انعقد مجمع كنسي في **روما** عام ٤٣٠ ، أدينت فيه عقيدة نسطور وطالب نسطور بالتراجع عن أخطائه تحت طائلة الحرم الكنسي . وللأسف الشديد ، ارتكب خطأ فادحاً في تكليف كيرلس بمتابعة تنفيذ توصيات المجمع . كان كيرلس بالرغم من انفعاليته الفطرية رجلاً تقياً ، وخاصة بعد ان تأثر بالراهب التقي **إيزيدور** البيلوزيمي ؛ كما أنه عبرَّ عن العقيدة المسيحية التي تعدُّ اليوم عقيدة الكنيسة ، ولكنها في ذلك الحين كانت لاتزال موضع جدل ، وخاصة بالنسبة لممثل المدرسة الإنطاكية . تجدر الإشارة هنا إلى أن مثل هذه الإستعانة ببطريرك الإسكندرية ، جرحت كرامة بطريرك القسطنطينية الذي اعتبر نفسه الرجل الأول في الكنيسة الشرقية .

وجه كيرلس دعوة تضمنت أثني عشر اقتراحاً إلى نسطور كان عليه ان يقبل بها . لكن نسطور لم يفكر بإطاعة «المصري المتغطرس» . فردَّ على مقترحات كيرلس بإقتراحات مضادة ، اتهمه فيها **بالأبولينارية** . وكانت هذه التهمة باطلة من أساسها ، ففي الحقيقة تضمنت مناقشات كيرلس مصطلح mia physis (وحدة الطبيعة) الذي استخدمه أبولينار ، لكنه حدد فيه «وحدة الكائن» أي الشخص .

ظلَّ النزاع معلقاً لأن الامبراطور أعلن عن عقد مجمع كنسي مسكوني في **أفسس** في العام التالي . واعتقد نسطور أن عقيدته ستناقش في المجمع ولن تفتقر إلى مدافعين عنها ، ولذلك غضَّ الطرف عن تهديدات روما .

ـ مجمع أفسس

انعقد المجمع المسكوني الثالث بناء على دعوة الامبراطور في اليوم السابع من حزيران عام ٤٣١ . ولكن عدد الأعضاء المشاركين في أعماله كان محدوداً في ذلك اليوم في أفسس . جاء نسطور برفقة ستة عشر أسقفاً ، وتبعه كيرلس الإسكندري محاطاً بخمسين من أساقفة مصر . بينما تأخر الأساقفة الآخرون الذين كان لهم أن يأتوا بصحبة بطريرك **انطاكية يوحنا** . أما من افريقيا التي عانت من الإجتياح الوندالي فلم يتمكن من المجيء سوى شماس واحد أرسله رئيس أساقفة قرطاجنة . وكان القديس **أوغسطين** قد رحل آنذاك . اعتذر البابا عن الحضور لكنه وعد بإرسال مبعوثين .

افتتح كيرلس الذي تشرف برئاسة المجمع أعماله يوم الثاني والعشرين من حزيران ودون ان ينتظر وصول الأعضاء الآخرين . وطرح حالاً عقيدة نسطور على بساط البحث للنظر فيها ، بينما تغيب نسطور عن الجلسة من باب الحيطة والحذر . أدينت تعاليمه : «إذا أنكر أحدهم أن عمانوئيل هو إله حق ، وأن العذراء هي والدة الله(بالجسد ، لأنها ولدت كلمة الله المتجسدة) ، فلتحل عليه اللعنة» .

أثار إقرار هذه العقيدة التي تعدُّ أولى العقائد المريمية ، بهجة لاتوصف في مدينة أفسس . فهذه المدينة التي تباهت بإقامة العذراء مريم فيها خلال الأعوام الأخيرة من حياتها (توجد رواية أخرى تقول بأن مريم عاشت وتوفيت في أورشليم ، وعندئذ نقلها **يوحنا** إلى أفسس) ، كَرَّمَتْ بشكل خاص مَنْ أريد حرمانها من لقب «والدة الإله» . وقد كتب كيرلس مخاطباً الإسكندريين : «عندما غادرنا الكنيسة ، رافقنا الأهالي إلى المنازل حاملين المشاعل . . . غرقت المدينة بالأنوار ، وتقدمتنا النساء وهنَّ يؤرجحن المباخر» .

وفي اليوم التالي وصلت إلى أفسس مجموعة كبيرة من أساقفة الشرق برفقة **يوحنا** الانطاكي ، صديق نسطور الحميم . عقد الأساقفة مجمعاً مضاداً أدانوا فيه كيرلس متهمين إياه بالأبولينارية ، وعزلوه عن منصبه . فرفع ممثلو الامبراطور الذين تواجدوا مع الأساقفة وتعاطفوا مع نسطور ، تقريراً إلى الامبراطور بهذا الخصوص ، وأعلن من جانبه بأنه لايعترف بالقرار السابق الذي أدان نسطور .

في هذه الاثناء وصل المبعوثون البابويون . ووقفوا حالاً إلى جانب كيرلس مؤيدين قرار إدانة نسطور . وفي إحدى الجلسات اللاحقة ، أدين **يوحنا** الانطاكي بالإضافة إلى ثلاثين من الأساقفة الآخرين المؤيدين له ، وعُزل **يوحنا** عن منصبه . وعندئذ أمر الامبراطور **ثيودوسيوس** الثاني بإعتقال نسطور و **كيرلس** معاً ؛ لكنه تردد بإتخاذ قرار محدد ، واعتمد بعد مرور بضعة أسابيع قرار عزل نسطور عن منصبه ، وسمح للمجمع بإنتخاب خلفٍ له ، كما أرسل نسطور

إلى دير **يوبريبيوس** قرب **انطاكية** . وبعث إلى المجمع برسالة مفعمة بالمرارة : «بما أنكم لم تعملوا على تحقيق الوحدة ، ورفضتم مناقشة القضايا موضوع الخلاف ، قررنا عودة أساقفة الشرق إلى بلدانهم وكنائسهم ، وإنهاء أعمال مجمع أفسس . . . لن ندين أساقفة الشرق مادمنا على قيد الحياة ؛ إذ لم يقنعهم أحد بحضورنا بأنهم على خطأ ، لأن أحداً لم يرغب في محاورتهم إطلاقاً . إن كنتم تريدون السلام ، وإن كنتم ترغبون فيه حقاً ، بدون نزاعات فارغة ، أخبروني بذلك . أو استعدوا للرحيل بعد تسلُّم هذه الرسالة . لاتتحمل وزر ماحصل . فالله ذاته يعلم مَنْ المسؤول» .

انعكست الحقيقة المرّة في كلمات ثيودوسيوس . فإدانة نسطور كانت صحيحة ، لكن الأساليب التي تمَّ اللجوء إليها لم تكن مسيحية . فقد كانت عقيدة الكنيسة في طور تشكلها ، وأمكن للكثيرين أن يخطئوا . أخطأ القديسون والأتقياء . وفي هذا الصدد يقول **نيومان** : «انبهر القديس **باسيليوس** لفترة بالسيمياريين ، وتأثر القديس سولبيسيوس مرحلياً بآراء بيلاجيوس ، وأصغت القديسة باولا إلى اتباع أوريجين ، ومالت له القديسة **ميلانيا** أيضاً» . وبطبيعة الحال ، وُجِدَ الدليل على الخطأ مثلما هو موجود دوماً . أمكن للجميع ان يخطئوا ، ولكنهم لم يصّروا جميعاً على الاستمرار في الخطأ . القديسون هم الذين عرفوا كيف يتراجعوا عن آرائهم أمام هيبة الكثيرين والذين ترافقت معرفتهم بالتواضع . أما مؤسسو الهرطقات ، فهم الذين حاولوا إثبات صحة آرائهم بأي ثمن .

أذنب **نسطور** ، مثلما فعل آريوس وأتباعه من قبل ، بمواقفه المتغطرسة أكثر من أخطائه المرتكبة . ولكن لابد من الإعتراف بأنهم جميعاً قوبلوا بمواقف تفتقر إلى التفهم والرحمة . ومن يدري إن كانت كلتا الهرطقتين ستتخذان هذه الأبعاد وهذه الأهمية ، فيما لو عامل المدافعون عن الارثوذكسية اخوتهم المخطئين بمحبة أكبر ؟ وخاصة ان النسطورية ارتبطت بلهفة دينية عظيمة . ولكن للأسف الشديد لم يحاول سوى عدد ضئيل من الرجال في المجمع الكنسي قهر خصومهم بالإقناع اللبق ، كما فعل **إيزيدور** الآنف الذكر .

أقام نسطور في دير **يوبريبيوس** حتى عام ٤٣٢ ، ثم انتقل إلى **البتراء** ، وفي نهاية المطاف لجأ إلى مصر . توفي عام ٤٥١ معتبراً نفسه شهيداً لقضية عادلة . أما المدافع الحميم عنه ، **يوحنا** الانطاكي وخصمه كيرلس الإسكندري ، فقد اتفقا عام ٤٣٣ ، وأدان كيرلس الأبولنيارية ، وأقر **يوحنا** عزل نسطور عن منصبه . بينما أقرّ البابا **سيكستوس** الثالث (الذي خلف سيلستين عام ٤٣٢) على نحو احتفالي قانون الإيمان بروح تعريف أفسس : «اتحد الإله ـ الكلمة عن طريق الروح الواعية بالجسد الذي اخذه عن العذراء المقدسة وغير المدنسة . ولذلك نسمي العذراء المقدسة أبداً والدة الإله theotocos ، وذلك بالمعنى الدقيق . والدة الإله لأنها ولدت الإله الواحد الأحد والرب **يسوع** المسيح» . توفي **كيرلس** الفظ بتصرفاته إلى حد ما ، والعظيم بعلمه ، والقديس في حياته اليومية ، عام ٤٤٤ . واعترفت به الكنيسة واحداً

من كبار دكاترة العلوم الكنسية .

ـ المسيحية في أرمينيا وبلاد فارس

وُجدت جماعات مسيحية كبيرة في بلاد فارس منذ أواسط القرن الثالث . وقد حظي المسيحيون في فارس بقسط وافر من التسامح الديني طالما كانت الامبراطورية الرومانية وثنية . تفجرت الإضطهادات في عهد الملك **شابور الثاني** (٣٤٠ - ٣٧٩) وراح ضحيتها ستة عشر ألف شهيد . وحورب المسيحيون كحلفاء محتملين لـ**روما** أكثر من كونهم معتنقين لديانة غير الديانة الرسمية في الدولة . يقول المؤرخ **غروسييه** في هذا الصدد : «لم يُخْفِ الكاثوليكوس سيمون بار سابا تعاطفه مع روما . بينما كان شابور الثاني يقول ، يسكن الناصريون في بلادنا ، لكن عواطفم مع القيصر ومعتنقي ديانته ، وهؤلاء هم أعداؤنا» . عقد **جَزْغَرْد** الأول (٣٩٩ - ٤٢١) صلحاً مع الامبراطورية الرومانية وأعاد التسامح الديني . فأمكن عقد مجمع كنسي في **سلوقية** عام ٤١٠ ، أقرَّ فيه الرمز النيقي . كما تمَّ تنظيم الكنيسة ، وترأسها بطريرك سلوقية الذي حمل لقب **كاثوليكوس** ، وستة متروبوليتات . تحسنت العلاقات بين المسيحيين والملك الفارسي إلى حد كبير ، فترأس الكاثوليكوس **جهبالاها** الأول الوفد الحكومي المرسل إلى القسطنطينية .

كانت الأوضاع مختلفة في **أرمينيا** ، فهي كما نذكر الدولة الأولى التي اعتنقت المسيحية . وقد خضعت للإنتداب الروماني بحكم موقعها الجغرافي على الحدود مابين **بيزنطة** وفارس . ولكن بعد أن حصن **يوليان** الجاحد حدود الامبراطورية الرومانية بصورة بطولية ، ومن ثمَّ أضحت مسيحية رغماً عنه ، سمح خليفته **جوفيان** الذي دافع عن قضايا المسيحيين ، بأن تدخل أرمينيا المسيحية بأكملها ضمن إطار نفوذ الدولة الفارسية . حكم **شابور** بالموت على حاكم أرمينيا **أرشاك الثاني** عام ٣٦٧ ، وهو من الموالين السابقين للإمبراطورية الرومانية . ثم استعاد **القيصرفالنس** السيطرة على أرمينيا ، ولكنه بدوره عزل اثنين من حكامها وقتلهما (وهكذا تأرجحت أرمينيا مابين النفوذ الروماني والفارسي ، ولكنها دوماً حُكِمَتْ من قبل ملكها الخاص المستقل نسبياً) .

بعد موت **شابور الثاني** ، جاءت حقبة السلام مع روما . وبالرغم من ذلك ، قام **ثيودوسيوس** بتوقيع معاهدتين في عامي ٣٨٧ و ٣٩٠ تنازل بموجبها عن أرمينيا ، وأخضعها للحماية الفارسية . لم يكن في وسع الدولة المسيحية آنذاك الإعتماد على مساعدة الإمبراطورية المسيحية ؛ مما اضطرها للإعتماد عى الذات ، لئلا تنهار سياسياً وتفقد ديانتها . ولحسن حظ أرمينيا كان عهد جَزغَرْد الأول مرحلة تسامح ديني كما أسلفنا .

تطورت المسيحية في أرمينيا بالرغم من الوضع السياسي الصعب . ففي ظلِّ حكم

الملك **فران ــ شابو** (٣٨٧ ـ ٤١٩) ، انتشرت المسيحية لتعمَّ البلاد كلها وفي عام ٣٦٣ احتلَّ القديس **نرسيس** الكبير منصب كاثوليكوس أرمينيا . وبعد وفاته مسموماً ، آل المنصب لإبنه **ساهاك** (اسحق) عام ٣٨٧ . فأصدر الأخير أمراً بمنع زواج الأساقفة ، وأقرَّ استقلالية الكنيسة الأرمينية . أسس عدداً من الأديرة ، وشجع الراهب القديس **مسروب** على وضع الأبجدية الأرمينية ، ثمَّ قام كلاهما معاً بترجمة الكتاب المقدس بالإضافة إلى مجموعة من الأعمال الاغريقية إلى اللغة الأرمينية ، مما أغنى الأدب الأرمني .

بدأ الحاكم الفارسي التالي **وهرام غور** بإضطهاد المسيحيين في دولته ، ولكنه عاد إلى قاعدة التسامح الديني بعد عقد معاهدة مع ثيودوسيوس الثاني عام ٤٢٢ . واستهل جزغرد الإضطهادات مجدداً عام ٤٤٩ .

كان للإضطهادات وقعاً شديداً في أرمينيا بشكل خاص . ولم يتردد الملك الفارسي في محاولة فرض المزدكية على أرمينيا . وقد لقي عندئذ حتفهم القديسون الشهداء : **أتوم غنومي** و **منجير رختوني** . أشعلت الاضطهادات الدينية في أرمينيا نيران إنتفاضة شعبية ضد الفرس ، وقد أخمدت بصورة وحشية في معركة قرب **أفارير** عام ٤٥١ ، وقُتل في المعركة القائد الأرمني **فارطان ماميكونيان** وبطريرك أرمينيا **هوسيب** الأول الذي اعتبر محرضاً علىالتمرد حيث استشهد مع جوقة من رجال الدين تحت التعذيب ، يكرِّمون اليوم باسم القديسين الليفونيين .

انتفضت أرمينيا المسيحية مرة بعد مرة من أجل حريتها السياسية والدينية بالرغم من الكارثة التي حلَّت بها . وتحسنت أوضاعها بعض الشيء عندما استقرت عام ٤٨٤ جماعة من الهون في تركستان واجتاحت المقاطعة الفارسية خراسان . وقد تعرضت الدولة الفارسية في حربها معهم لخسائر فادحة ، فاستنكفت في تلك الظروف الصعبة عن قمع الأرمن . وتمَّ الإعتراف لأرمينيا بنوع من لحكم الذاتي ؛ وأصبح قائد الثوار **واهان ماميكونيان** والياً على البلاد .وكان **أوهانيس** الأول الملقب بالتقي آنذاك كاثوليكوس أرمينيا ، حيث اختار **دوفين** عاصمة لنفسه .

في هذه الأثناء ، وبينما حصلت أرمينيا على حريتها التي طال انتظارها لها ، وصلت **النسطورية** إلى بلاد **فارس** . وقد جاءتها عبر الطريق التالية : كانت في إديسَّا بالإضافة إلى مختلف المدارس ، « مدرسة فارسية» أيضاً ، حصَّل فيها تعليمهم المسيحيون ذوو الأصل الفارسي . أشرف عليها **ماريس الموبسويستي** ، تلميذ **تيودور** وترجم أعماله إلى اللغة الفارسية . وتحت تأثيره ، خضعت المدرسة لتأثير التعاليم النسطورية ، فأغلقت لهذا السبب عام ٤٥٧ . لكنها نُقلت إلى فارس ، إلى بلدة **نصيبين** ، حيث أشرف عليها شخص يدعى **بارصوما** . وفي هذه المرة تمَّت الدعوة للنسطورية علناً . وحظي المسيحيون الذين اعتنقوها

بدعم الملك الفارسي حالاً ، بينما تعرض الملتزمون بالتعاليم الارثوذكسية للإضطهاد . **وقُتل** سبع آلاف وسبعمئة من أتباع الكنيسة الجامعة . فرضت الأقلية النسطورية عقيدتها على المسيحيين الآخرين . ورفع حظر الزواج عن القسس ، وحُظِرتْ الحياة الرهبانية . انعقد عام ٤٨٤ مجمع كنسي في **بيت لابات** أقرَّ العقيدة النسطورية . وصادق الكاثوليكوس أكاسيوس على القرار عام ٤٨٥ ، واتخذ لنفسه لقب بطريرك **بابل** المستقل . أدت هذه القطيعة مع **روما** والقسطنطينية إلى تغيير نظرة الملوك الساسانيين لرعاياهم المسيحيين . ويقول غروسييه في هذا الصدد : «أضحت النسطورية وكأنها الديانة القومية الثانية في المملكة الفارسية» .

بعد مئة عام من ذلك الحين ، أصبح عدد المقاطعات الكنسية التابعة لبطريركية بابل سبعاً وعشرين (مايزيد عن مئة أبرشية !) وهنا يقول المؤرخ **نيومان** «امتدت الجماعة من الصين إلى أورشليم ، أما عدد أفرداها . . . فقد تجاوز تعداد الكنيستين الإغريقية واللاتينية معاً» . اما المؤرخ **جيبون** فيقول :«وفقاً لرواية رحالة نسطوري ، تمَّ التبشير في القرن السادس بالمسيحية مع تحقيق نتائج جيدة بين **البكتريين** ، والهون ، والفرس ، والهندوس ، والميديين ، والعيلاميين . وكان عدد الكنائس بين الخليج الفارسي وبحر قزوين لايعد ولايحصى ، وقد تباهت هذه الكنائس بعدد أتباعها وقداسة رهبانها وشهدائها . فعلى ساحل مالابار ، وفي جزر سوقطرة وسيلان ، تزايد عدد المسيحيين ، ورسم كاثوليكوس بابل أساقفة وكهنة تلك المناطق(١) .

تغلغل المبشرون بالنسطورية إلى أعماق آسيا . وعندما زحف مغول **جينكيزخان** ، كان بينهم كثيرون من النساطرة . ومن يعرف ماهو المجرى الذي كان سيتخذه تاريخ العصر الوسيط لو اسْتُقْبِلَ هؤلاء المهرطقون المسيحيون من قبل أتباع الكنيسة الجامعة في القرن الثالث عشر بصورة مختلفة عمَّا حصل فعلاً !

ـ مجمع «القرصنة»

أدت إدانة النسطورية والكراهية للخطأ المدان ، إلى دفع بعض الناس للوقوع في هرطقة لاتقل عنها وطأة .

كان **ديوسقوروس** بطريركاً **للإسكندرية** منذ عام ٤٤٤ . وقد حرص على إقامة علاقات حسنة للغاية مع البلاط الامبراطوري الذي لعب فيه الخصِّي كريزل ليوس دوراً بالغ

---

(١) ـ خضعت الكنيسة الكلدانية عام ١٥٥٢ لروما مجدداً . ولبطريرك بابل تخضع أربع مقاطعات حوالي ربع مليون من المؤمنين) . يقام القداس وفقاً للطقس الكلداني الذي يعود إلى القرن الأول .

الاهمية من وراء الكواليس . وكان يوتيكس أرشمندريت دير القسطنطينية البالغ من العمر الثمانين ، والعدو اللدود للنسطورية ، صديقاً ومستشاراً لكلٍ منهما . لم ترِوإدانة تعاليم نسطور غلَّ يوتيكس ، فحاول من خلال نفوذه في البلاط إيذاء الأساقفة الذين تعاطفوا في حينه مع نسطور . وفي عام ٤٤٨ أصدر الامبراطور **هونوريوس** بتحريض من **كريزاليوس** مرسوماً «ضد النسطورية» ، و «للعبرة» ، عزل **ايرينيوس** أسقف صور عن منصبه ، وفي الوقت ذاته قام البطريرك **ديسقوروس** دون اكتراث ببطريك **انطاكية دومنوس** بالقاء الحرم الكنسي على **تيودوريت** أسقف قبرص ، ألمع المفسرين الإغريق لكتاب المقدس ، صديق نسطور والمدافع عنه في حينه .

أثارت هذه السلوكية معارضة حادة . فاستانف **دومنوس** القضية إلى **فلافيان** بطريرك القسطنطينية ، واتهم في الآن ذاته يوتيكس بالأبولينارية أي بإنكار طبيعة **يسوع** البشرية كلياً . جاءت مثل هذه الشكاوى من جهات أخرى ، فدعى فلافيان لإنعقاد مجمع كنسي طُلب فيه من يوتيكس شرح عقيدته وتبريرها . أعلن يوتيكس أنه في قناعته ؛ وإستناداً لِما قرأه في مؤلفات **أثناسيوس وكيرلس** ، كانت في شخص **يسوع** طبيعتان إلهية وبشرية ، لكن الإلهية احتوت البشرية فيما بعد . أدان المجمع خطاء يوتيكس الذي أُطلق عليه اسم **الوحديطبيعي** أي أن **يسوع** ذو طبيعة واحدة ؛ وحُرِّمَ يوتيكس نفسه كنسياً .

استأنف **الأرشمندريت** الحكم إلى روما ، وكان**ليون الكبير** متربعاً على العرش البابوي آنذاك . تعاطف **ليون** أول الأمر مع يوتيكس ؛ لكنه بدَّل رأيه بعد أن اطلع عن كتب على التعاليم التي نادى بها . وفي هذه الاثناء قرر الامبراطور ثيودوسيوس وجوب الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي مسكوني جديد لبحث الخلاف في وجهات النظر بين **فلافيان ويوتيكس** . ووقع الاختيار مرة أخرى على **أفسس** لإستضافة المجمع . أرسل البابا مبعوثين إلى المجمع ، وزوَّدهم برسالة تضمنت شرحاً وافياً للتعاليم الحقيقية حول طبيعتي يسوع .

افتتح المجمع في آب عام ٤٤٩ ، وشارك في أعماله مئة وخمسون من الأساقفة ترأسه **ديسقوروس** بطريرك الإسكندرية ، وأعيد الإعتبار ليوتيكس حالاً . لم يُسمح لمبعوثي البابا بالتحدث ، كما لم يُسمح لهم بقراءة الرسالة التي زوَّدهم بها البابا .

يشير وقوف هذا العدد الكبير من الأساقفة ، ومعهم بطاركة **الاسكندرية** و أورشليم **وانطاكية** (انضم دومنوس اللامنطقي في تصرفاته إلى صفوف المدافعين عن يوتيكس) إلى جانب المونوفيزية (الوحديطبيعة) ، إلى السهولة التي أمكن فيها آنذاك ارتكاب الأخطاء في الصيغ المتعلقة بقواعد الإيمان . ويمكن القول بثقة ، أن الشرق برمته أيَّد التعاليم التي صاغها الأر شمندريت العجوز .

تلت ذلك أحداث كشفت النقاب عن الموقف الحقيقي لأنصار التعاليم الجديدة ، ألغت

بذلك النجاح الذي أحرزه **ديسقوروس** . فقد جاء البطريرك الإسكندري إلى المجمع محاطاً بحشد من الرهبان المصريين . وأشرنا سابقاً إلى أن حياة التنسك والزهد وجدت في **مصر** تربة خصبة لنموها . وكان المستوى الثقافي في هذا البلد على وجه العموم أدنى منه في مقاطعات الامبراطورية الرمانية الشرقية الأخرى . شكل الرهبان المصريون كتلة شاحبة ، متعصبة ، ميّالة إلى أعمال العنف . وقد حدثت قلاقل خطرة منذ أيام كيرلس . بعد إعادة الإعتبار إلى يوتيكس ، اقترح ديسقوروس عزل فلافيان عن منصبه وإلقاء الحرم الكنسي عليه . فاقتحم حشد الرهبان الكنيسة ، وانقضوا على البطريرك الذي تعرّض للضرب ، ودخل جنود القيصر في الوقت ذاته ، واعتقلوا المعتدى عليه الذي توفي بعد فترة وجيزة . وفي خضم هذه الفوضى ، تمكن مبعوثو البابا من الفرار ، بينما هُدّدَ الأساقفة الآخرون وَأُرغِموا على توقيع وثيقة تدين فلافيان على البياض .

لم يعد هذا بمجمع كنسي . وسوف يدعوه **ليون** الكبير فيما بعد لصوصية . وعلى أي حال ، كانت موافقة الأساقفة موجودة ، وإن كانت مفروضة عليهم . وتعرضت الكنيسة مرة أخرى لخطر اعتبار العقيدة المزيفة عقيدة حقةً .

مثلما وقف أثناسيوس وحيداً ضد الأريانية في لحظة معينة ، وقف أسقف **روما** في هذه المرة بمفرده ضد الهرطقة التي أقرتها الكنيسة الشرقية بأسرها .

دعى البابا دون تأخير لإنعقاد مجمع **روما** عام ٤٤٩ ، حيث ادان أحداث **أفسس** . كما استأنف البابا القضية إلى القيصرين . لم يكن لفالينيتينان أي نفوذ في الشرق أما ثيودوسيوس ، فقد أجاب على الرسالة بملاحظة فاترة : «وفق معلوماته ، لم يحدث شيء يناقض العدالة والقانون» .

كان الإنشقاق بين الغرب والشرق معلقاً في الهواء . وكان الشرق لايزال امبراطورية ذات شأن ، شكلت الكنيسة الجامعة فيها المذهب الرسمي للدولة . أما الغرب ، فلم يكن سوى منطقة مسحوقة بأقدام البرابرة أتباع العقيدة الأريانية ، محرومة من أية حماية ، ومتروكة وشأنها . آزر **ديسقوروس** بطريرك **الاسكندرية** الامبراطور ، بينما كان **ليون** وحيداً . لكن البابا لم يتردد في الدفاع عن صفاء التعاليم وعن حقوق عاصمة **بطرس** .

حدث التغير بغتة . فقد سقط **ثيودوسيوس** عن ظهر جواده ، وتوفي عام ٤٥٠ على أثر الحادث . فتربعت على العرش شقيقته **بولخيريا** التي اتخذت من قائد الجيوش **مارسيان** البالغ من العمر ستين عاماً زوجاً لنفسها . كان كلا الزوجين إنسانين متدينين بعمق ، وراغبين في وحدة الكنيسة بصدق . اعتبر **كريزاليوس** بمثابة «الروح الشريرة» للإمبراطور الراحل ، وَحُكِمَ عليه بالموت . وبعث الزوجان برسائل إلى البابا يعبران فيها عن وفائهما . وهذا ماقام به أساقفة الشرق أيضاً ، بما في ذلك بطريرك القسطنطينية الجديد **أناثول** . واقترح القيصر الجديد على

البابا **ليون** الدعوة لإنعقاد مجمع جديد بهدف إزالة نتائج أحداث أفسس .

ـ المجمع المسكوني الرابع

ما ان حصل مارسيان على موافقة **ليون** الكبير ، حتى وجَّه الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في **نيقيا** عام ٤٥١ . أشارت الدلائل إلى أنه سيكون أكبر المجامع الكنسية حتى ذلك الحين ، إذ قدم إلى نيقيا مايزيد عن خمسمئة أسقف (وارتفع العدد فيما بعد إلى ستمئة وثلاثين) . تمَّ تمثيل الشطر الغربي من الامبراطورية بمبعوثين باباوين وأسقفين افريقيين ، ولكن تعذَّر افتتاح أعمال المجمع ، حيث استدعي القيصر إلى إيليريا بعد أن اقتحم الهون حدودها . حاول البطريرك **ديسقوروس** استغلال الموقف وألقى بالحرم الكنسي على البابا ليون . لكن اقتراحه لم يلق تأييداً ، وفقد بذلك السيطرة على المداولات .

اقترح القيصر الذي انشغل بأمور الدولة على الأساقفة الموجودين في نيقيا أن ينتقلوا إلى **خلقيدونيا** لقرب موقعها من القسطنطينية ، وهناك بدأت الإجتماعات في الثامن من تشرين الأول . ترأس مبعوثا البابا الجلسات ، وفي اليوم الأول أُدين ديسقوروس وعُزل عن منصبه البطريركي . تمت بعدئذ مناقشة تعاليم يوتيكس . ولمَّا قرأ مبعوثا البابا رسالته التي لم يسمح ديسقوروس للمجمع بالتعرف على مضمونها في أفسس ، تعالت الأصوات المفعمة بالبهجة : «هذه هي عقيدة الآباء ! هذه هي عقيدة الرسل ! هذا مانؤمن به جميعاً ! . . . تكلَّم بطرس بلسان ليون !» .

طالب القيصر المجمع بإقرار تعريف جديد ، فعارض مبعوثا البابا الأمر ، معتقدين أن اعتماد رسالة البابا من قبل المجمع يعدُّ كافياً . وقد دار نقاش مطوَّل حول هذا الموضوع . فإشارة **ليون** إلى أن **يسوع** لم يقتصر علىأن «كانت له طبيعتان» ، وإنما كان «بطبيعتين» ، وسعت مجال قانون الإيمان الذي أقرَّ في نيقيا والقسطنطينية من قبل .

ارتأى قسم من آباء المجمع المتفقين من حيث المبدأ مع آراء ليون ، عدم جواز إضافة شيء جديد إلى القانون الذي أقرَّ من قبل . حاول المبعوثان البابويان شرح الموقف وإقناع الحضور بأن الهدف ليس التغيير ، وإنما تحقيق دقة أكبر في التعريف ، وبفضل دعم القيصر ، تم اعتماد الصيغة الجديدة التي اقترحها ليون . وتضمنت أن الكنيسة «تؤمن بالمسيح الواحد ، يسوع ، الإبن الوحيد ، ذو الطبيعتين ، غير المتداخلتين ، وغير المتبدلتين ، وغير المنقسمتين ، وغير المنفصلتين ، الوحدة لم تلغ اختلاف الطبيعتين ، بل حافظت على خصائص كل طبيعة ، حيث تلتقي في شخص واحد ، وتجسد واحد» ،

أُعلنت العقيدة على نحو احتفالي في الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ٤٥١ .

حضر الإحتفال كل من الإمبراطور و الإمبراطورة ، ورحبت بهما صيحات «المجد لمارسيان ، **قسطنطين** الثاني ! المجد لبولخيريا ، **هيلانة** الجديدة !» وعلى الرغم من هذا الإندفاع ، لم تكن القضية منتهية بعد .

ـ المونوفيزية (الوحديطبيعة) تدفع إلى الإنشقاق

استمرت أعمال المجمع بعد إعلان العقيدة الجديدة ، وأقرَّ عدداً من التشريعات . اعترض مبعوثا البابا على واحد منها بعنف ، وهو القانون **الثامن والعشرين** . كان هذا القانون بمثابة محاولة جديدة للرفع من شأن بطريركية القسطنطينية ، حيث أشير في القانون المذكور إلى أنها «الثانية بعد روما» ، ولكنها سميت أيضاً «**روما** الجديدة» و «بطريركية المدينة الامبراطورية» ، ولهذا السبب كان لها ان تحصل على امتيازات كبيرة تجعلها السلطة الكنسية الأعلى في الامبراطورية الشرقية . احتجَّ المبعوثان على القانون ، واعتبرا أن مثل هذا الربط مابين السلطة الكنسية ومكان إقامة الامبراطور ، يربط الكنيسة بالسلطات الحكومية ويجعلها تابعة لها ، كما أنه يضيم البطريركيات ذات التقاليد الرسولية الأقدم .

دفع اعتراض المبعوثين البابا **ليون** للتفكير مطولاً في موضوع المصادقة على مقرارات المجمع و إضفاء صيغة المسكونية عليه . وقد طالب القيصر بهذه المصادقة على مقرارات المجمع وإضفاء صيغة المسكونية عليه . وقد طالب القيصر بهذه المصادقة . فالأحوال لم تكن تدعو للتفاؤل ، إذ أنه بالرغم من نفي ديسقوروس ويوتيكس ، كشَّرت المونوفيزية عن أنيابها . ففي أورشليم ، طرد حشد من الرهبان المتعصبين البطريرك **جوفينال** من الكنيسة (أعاد أحد القوانين التي شرَّعها المجمع لقب البطريركية إلى أسقفية أورشليم) . كما حدثت أعمال شغب في الإسكندرية ، وانتشرت شائعات حول رفض البابا لمقرارات مجمع خلقيدونيا . ولذلك أصرَّ القيصر على مطالبة البابا بالمصادقة عليها .

وجَّه البابا في نهاية المطاف عام ٤٥٣ رسائل إلى جميع الأساقفة الذين شاركوا في أعمال المجمع ، معلناً فيها عن مصادقته على مقرارات المجمع«لكن هذه المصادقة تقتصر على أمور العقيدة فقط ، التي من أجلها (يجب التأكيد على ذلك) تمَّت الدعوة لإنعقاد المجمع بأمر من الحاكم وبموافقة العاصمة الرسولية . كما تحفَّظ البابا صراحة على القانون الثامن والعشرين «يجب أن تبقى قوانين الكنيسة كما حددها بإلهام إلهي ثلاثمئة وثمانية عشر من الآباء (أي في مجمع نيقيا) . ليكفَّ الطموح الآثم عن إشتهاء ماهو للغير ، وليكفَّ أي كان عن البحث عن وسائل لرفع نفسه على حساب الآخرين» .

لم يلقَ نداء **ليون** آذاناً صاغية . فبطريرك القسطنطينية على الرغم من موافقته الظاهرية على رغبة البابا ، بدأ يستفيد عملياً من الامتيازات التي منحه إياها القانون المذكور . أرادت

القسطنطينية أن تصبح رأس الكنيسة . وبالنسبة لبطاركتها ، انحصرت المسيحية ضمن إطار حدود الإمبراطورية . بدا الغرب ضائعاً ، وتوجَّب نقل حقوق **روما** إلى المدينة الواقعة على البوسفور . فأضحت الكنيسة مهددة بأكثر من مجرد إنشقاق : العودة إلى فكرة الدين القومي المرفوضة .

توفي مارسيان عام ٤٥٧ دون أن ينجب وريثاً يخلفه على العرش . فأصبح شريف الامبراطورية **أسبار** الآلاني الأصل والأرياني المذهب صاحب القرار فيما يتعلق بمستقبل العرش ، وذلك بفضل نفوذه الهائل في القسطنطينية ، الذي لم يقل شأناً عن نفوذ **ريسيمر** في روما . «فعيَّن» **ليون** التراقي ، التريبون العادي ، امبراطوراً ، وأمر البطريرك أناتول بمسحه .

حاول **ليون** إحراز النصر على الوندال الذين احتلوا افريقيا ، ولكن دون جدوى . لم تسفر مصادقة **ليون** الكبير على مقرارات المجمع عن النتائج المتوقعة ، ولم تحقق الهدوء . فالبطريرك جوفينال لم يستعد منصبه إلا بتدخلٍ من الجيش الامبراطوري عام ٤٥٣ . وقبل أن يشق له الجنود طريقه إلى أورشليم ، أُرغموا على خوض معركة حقيقية مع الرهبان المونوفيزيين . وانتُخب مؤيد مقررات المجمع **بروتيريوس** بطريركاً في **الاسكندرية** . لم يكن يوتيكس بحد ذاته ذا شأن هنا ، وإنما أثناسيوس وكيرلس اللذين استشهد أرشمندرت القسطنطينية بآرائهما . فقد كان كل منهما مفخرة لكنيسة **الاسكندرية** ، ولم تكن الآراء التي طرحاها مجرد تعاريف مجمعية في نظر السكان ، فأنجزت الوطنية المحلية المتعصبة ماتبقى : شعرت الإسكندرية بأنَّ الخطر يتهددها من جانب القسطنطينية و**روما** بآن واحد .

تزعم المعارضة التي ناهضت البطريرك كاهن يدعى **طيموثاوس** ، لُقب بالهر (آيلوروس) ، وأسفر التمرد الشعبي في **الاسكندرية** عن قتل جنود حاميتها الذين دافعوا عن بروتيريوس . فردَّ الإمبراطور على ذلك بإرسال ألفي جندي إلى المدينة ، حيث ارتكبوا فيها اعمال عنف وحشية . ولم يتمكن بروتيريوس من ممارسة صلاحياته إلا في ظلِّ حماية رماحهم . واستغل سكان **الاسكندرية** موت مارسيان عام ٤٥٧ للقيام بإنقلاب : فطردوا بروتيريوس ، وانتخبوا طيموثاوس بطريركاً . هبَّ الجيش للدفاع عن البطريرك الشرعي ، فحدثت معارك عنيفة ، وجد معها قائد الجيوش نفسه مرغماً على التفاوض . لكنَّ المفاوضات لم تسفر عن أية نتائج ، بل حدث العكس . ففي يوم الخميس السابق لعيد الفصح اقتحم الجمهور الكنيسة التي أقام فيها بروتيريوس القداس ، فلقي مصرعه هناك .

وجد القيصر **ليون** نفسه في موقف صعب للغاية ، لأن أسبار ، الرجل المتنفذ القوي ، دعم المونوفيزيين ، وطالب القيصر بالإعتراف بطميوثاوس بطريركاً على **الاسكندرية** ، ولم يتمكن **ليون** من عزل طيموثاوس وإخراجه من الإسكندرية ونفيه إلى كيرسون إلا بعد عامين من توليه العرش وتخلصه من سيطرة أسبار ، وذلك عام ٤٥٩ . تمَّ انتخاب طيموثاوس آخر

بطريركاً للإسكندرية ، فكان وفياً لتعاليم مجمع خلقيدونيا ، لكنه حاول البقاء على وفاق مع المونوفيزيين ، خوفاً على حياته بلا شك .

أظهر زينون الإيزاوري ، صهر ليون ، تعاطفه مع المونوفيزيين ، قبل اعتلائه العرش الذي كان مخصصاً له . لم يكن رجلاً محبوباً في الامبراطورية ، ولمّا توفي ليون عام ٤٧٤ تاركاً له العرش ، أثارت فيرينا أرملة ليون انتفاضة ضده . اضطر زينون للفرار إلى إيزاورا ، فتربع على العرش بازيليسكوس شقيق فيرينا . ولكنه بدوره أظهر تعاطفاً واضحاً مع المونوفيزيين ، فقد كان من أنصار المونوفيزية فيما يتعلق بالقضايا الكنسية . وكانت الخطوة الأولى التي أقدم عليها إعادة أيلوروس من النفي . ثم أوصى بصياغة وثيقة تعرف بإسم الانسكليكون ، هي بمثابة إدانة لتعاليم ليون الكبير عن الطبيعتين ، وطالب جميع أساقفة الامبراطورية بتوقيع هذه الوثيقة . فنفّذ مالايقل عن خمسمئة أسقف أمر القيصر بطاعة تامة عمياء .

دافع بطريرك القسطنطينية أكاسيوس عن العقيدة الخلقيدونية وانتهز أيلوروس فرصة عزل أكاسيوس لأسقف أفسس بولس من منصبه ؛ فأعاد لبولس سلطته في أفسس بصفته بطريركاً على الإسكندرية . ثم دعى لإنعقاد «مايشبه» المجمع الكنسي في أفسس وقام بعزل أكاسيوس من منصب بطريرك القسطنطينية . وفي نهاية المطاف جاء إلى الاسكندرية ، وأرغم البطريرك الشرعي على الفرار . وعلى نحو مشابه اغتصب المونوفيزي بطرس العاصمة البطريركية في انطاكية ، بينما وقّعَ أنستازي بطريرك أورشليم وثيقة الامبراطور (الانسكليكون) دون معارضة .

ظلّ أكاسيوس المدافع الوحيد عن الارثوذكسية . ووقف دون وجلٍ ليقاوم الامبراطور ، فنظّمَ تمرد وتظاهرات السكان . كان بازيليسكوس حاكماً أقل شعبية من زينون نفسه ، وقد حظي أكاسيوس في معركته معه بتأييد المدينة بأكملها ، وعلى أي حال ، فقد مارس البطريرك نشاطه كسياسي وضع نصب عينيه أهدافاً محددة ، وليس كمدافع عن العقيدة . كان على علم بأن الجيوش التي أرسلها بازيليكوس لمحاربة زينون ، إنتقلت إلى معسكر الأخير . اكتسبت التظاهرات المناهضة للإمبراطور قوة متزايدة يوماً بعد يوم ، فألغى بازيليكوس وثيقته نتيجة الضغوط التي تعرض لها ، حاول كسب أكاسيوس إلى جانبه ، لكن الوقت كان متأخراً . عاد زينون إلى القسطنطينية عام ٤٧٦ ، واعتقل بازيليكوس وحكم عليه بالموت .

أضحى موقف أكاسيوس قوياً للغاية ، إذ انّ القيصر لم يتخذ أي اجراء متعلق بأمور الكنيسة إلا بمشورته . واضطر البطاركة المونوفيزيون الذين دعمهم بازيليكوس للتنازل . وكانت بطريركية الاسكندرية وحدها التي لم يرغب أكاسيوس محاربتها . فقد توفي طيموثاوس أيلوروس ، وخلفه المونوفيزي بطرس المتلعثم الذي حظي بدعم مصر قاطبة . ولم

يكن قيام تمرد في المقاطعة التي أطعمت القسطنطينية بما أنتجته من حبوب في مصلحة زينون الذي استعاد السلطة . ولتمتين العلاقة مع القيصر اكثر ، قرر أكاسيوس عام ٤٨٢ الإعتراف بشرعية سلطة البطريرك بطرس .

لكنَّ هذا كان مجرد مقدمة لعملية توحيد كبرى . أعدَّ الامبراطور زينون والبطريرك أكاسيوس وثيقة مشتركة عُرفت بإسم هينوتيكون Henoticon ، أكدَّت على «عدم الاعتراف بأي قانون إيمان» سوى الرمز النيقي ـ القسطنطيني . وقد أدانت الوثيقة كلاً من نسطور ويوتيكس ، لكنها إستشهدت بآراء كيرلس الاسكندري ، بينما التزمت الصمت فيما يتعلق بقضية الطبيعتين . فتمَّت العودة بذلك إلى موقف مجمع خلقيدونيا ، رافضة ضمناً تعليم القديس **ليون** الكبير دون الإشارة إلى ذلك صراحة . كانت الوثيقة إذن بمثابة «حل وسط» ، ومحاولة لإعادة الوحدة الدينية إلى الامبراطورية .

لم يجد مؤلفا الوثيقة التقدير الملائم لعملهما . ففي **الاسكندرية** رفض أتباع الكنيسة الجامعة والمونوفيزيون الوثيقة على حد سواء . وانقسم المونوفيزيون بسرعة إلى شيع كما حدث للأريانيين من قبل ، فكان بينهم المتطرفون والمعتدلون ، ووافق المعتدلون وحدهم على حلٍ وسط . كما رفض الجميع في **انطاكية** الوثيقة ، ففي ذلك الحين بالذات تمرَّد سكان المدينة على سلطة زينون ، وبعد إخماد التمرد ، اتُهِمَ أساقفة الكنيسة الجامعة بالتحريض على التمرد والمشاركة فيه . فقام أكاسيوس بعزلهم ، ووقع المنتخبون عوضاً عنهم الوثيقة دون اعتراض . وهذا مافعله بطريرك أورشليم أيضاً .

حاولت **روما** الإحتجاج . كان البابا العظيم قد توفي عام ٤٦١ بعد ان أنجز عملاً هائلاً . فلجهوده يعود الفضل في تصفية آخر مواقع البيلاجيانية في أكويليا ، وتحقيق النصر على مجموعة هامة من المانويين المستوطنين في روما ، ومتابعة المعركة ضد البريسيليانية في اسبانيا . لم تقتصر اهتمامات **ليون** على أمور العقيدة وحدها ، بل كرَّس الكثير من وقته لإعادة الإنضباط إلى الكنيسة . استطاع بفضلٍ تهذيبه ، وطبيعته ، وحزمه أيضاً الحدَّ من طموحات أسقف أرليس هيلاريوس الذي استغلّ منصبه كرئيس لأساقفة غالة ، وتدخل في انتخاب أساقفة المدن الأخرى ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لأثناسيوس أسقف سالونيكي الذي كان وكيلاً للبابا في إيليريا ، ومستبداً في تعامله مع الأساقفة التابعين له (جرت العادة أن يعين البابا وكيلاً له في هذه المقاطعة التي كانت واقعة على حدود الامبراطورية الغربية ، وَضُمَّتْ فيما بعد إلى الشطر الشرقي منها) . ومن خلال وكيله المرسل إلى افريقيا ، مارس عملياً سلطته على كنائسها التي عانت من القمع الوندالي وحُرِمتْ من الأساقفة . أنجز كل هذا دون أن يغادر إيطاليا التي دمرَّها الجرمان والهون دون توقف ، وحكمها دون حماية فعلية أباطرة تبدلوا كل بضعة أشهر .

تربع على العرش البابوي بعد وفاة **ليون** حتى عام ٤٦٨ هيلاري ، الذي ترأس كشماس روماني البعثة البابوية إلى المجمع «اللصوصي» في أفسس . جاء بعده سيمبليسيوس عام ٤٦٨ . حاول البابا برسائل متعددة التأثير على أكاسيوس وحثه على التوقف عن دعم بطرس المتلعثم . لكنَّ أكاسيوس مارس حيال **روما** «سياسة الصمت» فبكل بساطة أهمل الرسائل وتركها دون إجابة . تصدى البابا الجديد فيليكس (منذ عام ٤٨٣) لوثيقة الهينوتيكون ، وللإحتجاج على الوثيقة ، بعث بمبعوثيه إلى القسطنطينية . لكنهم تعرضوا هناك للإعتقال والتهديد ، وأرغموا على الاعتراف بشرعية بطرس . وعندما تلقَّى فيليكس هذه الأنباء ، عقد مجمعاً كنسياً في روما ، وألقى الحرم الكنسي على أكاسيوس . لكن بطريرك القسطنطينية لم يأبه بالحرم البابوي . شعر بأنه قوي ومدعوم من الامبراطور . أما فيليكس ، فكان في **روما** التي سيطر عليها أودواكر ، وهددها الأريانيون والبرابرة . وبإحتقار ، أمر أكاسيوس حذف إسم البابا من الصلوات التي ترد فيها أسماء آباء الكنيسة كوسطاء ، وأعلن رسمياً استقلال القسطنطينية عن روما .

ـ المونوفيزية خارج حدود الامبراطورية

أضحت أرمينيا مهددة من جديد بفقدان استقلالها . إختفت الإضطهادات الدينية مرحلياً ، لكنَّ خطر فقدان الهوية القومية هدد البلاد . فقد فرضت النسطورية الفارسية التي أصبحت الديانة الثانية في المملكة ، على المسيحيين الأرمن ، التبعية لبطريرك بابل . ومن ناحية ثانية ، أثار غياب المساعدة من جانب الامبراطورية الرومانية ، أو بالأحرى الإضطهاد الذي مارسه زينون على الصعيد القومي في المقاطعات الأرمنية القليلة التي ظلَّت ضمن إطار النفوذ البيزنطي ، نفوراً لدى الأرمن من القسطنطينية ، التي كانت ديانتها (في قناعة الأرمن) تنعكس في تعريف المجمع الخلقيدوني . وفي عملية البحث عن الإستقلال عن كلا الوسطين ، قبلت الكنيسة الأرمنية الهينوتيكون بصورة نهائية في المجمع الكنسي الذي انعقد عام ٥٠٦ في دوفين ، وهي الوثيقة التي أدانت بآن واحد النسطورية ومقرارات مجمع خلقيدونيا . وفي المجمع التالي الذي انعقد عام ٥٥٤ في دوفين قطعت أرمينيا صلتها رسمياً بالكنيسة الاغريقية . وفي هذا الصدد يقول غروسييه : «حققت بذلك استقلالها على الصعيد الروحي عن الجارين العملاقين اللذين حاولا تجريدها من هويتها القومية» .

دخلت المسيحية إلى أثيوبيا (أبيسينيا) في عهد قسطنطين . نشرها هناك في البدء رجلان شابان هما : فرومينسيوس وإيديزيوس انحدرا من صور . اختطفهما القراصنة ، وتمَّ بيعهما في بلاط الامبراطور الحبشي ، الذي تمكنا من كسبه إلى جانب المسيحية . ثم وصل فرومينسيوس إلى **الاسكندرية** ، وقابل القديس أثناسيوس الذي رسمه أسقفاً .

ارتبطت الكنيسة الاثيوبية ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة المصرية (ظلَّ رئيس الكنيسة الاثيوبية يعين من قبل بطريرك **الاسكندرية** حتى عام ١٩٥١) . كما تتوفر معلومات عن «القديسين التسعة» ، وهم من الرهبان المونوفيزيين السوريين الذين قدموا إلى اثيوبيا في أواخر القرن الخامس . ولا شك بأن «تطعيم المسيحية المحلية بالمونوفيزية من عملهم .

ومن اثيوبيا تسربت المسيحية إلى نوبيا ، وذلك بصيغتها المونوفيزية بطبيعة الحال . كما وصلت إلى بلاد الحميريين (اليمن) ، لكنها سُحقت هناك عام ٥٧٠ من قبل الفرس .

كانت المونوفيزية ديانة «حارة» وثيقة الصلة بحياة الدير ، وذلك بخلاف النسطورية «الباردة» التي تصلح للمدارس الفلسفية ، أكثر من تقديمها لجمهور المؤمنين .

أيقظت المونوفيزية روح الصلاة ، وأغنت الطقوس ، وكان لها مفكرون كبار ، عجز الخلقيدونيون عن مواجهتهم ، لأن حقبة آباء الكنيسة انتهت برحيل كيرلس **وتيودوريت** . لم يعترف المونوفيزيون عموماً بإنتمائهم إلى يوتيكس . واعتمدوا في عقيدتهم على المقارنة التي نجدها لدى العديد من آباء الكنيسة ، والتي تقول بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية تشكلان ابن الله الوحيد ، مثلما تشكل الروح والجسد إنساناً واحداً . يقول نيومان في هذا الصدد : «يمكن الإفتراض بشيء من حسن النيّة بأنهم اختلفوا مع أنصار الكنيسة الجامعة على الصعيد اللغوي فقط . . . لكنَّ رفضهم الإصغاء إلى صوت الكنيسة وإطاعته ، كان دلالة خطأ حقيقي» . أما اليوم فإن العقيدة المونوفيزية عموماً ليست سوى سوء تفاهم لغوي ، كما قال الكبوشي الإيطالي عن المونوفيزية الاثيوبية في القرن التاسع عشر .

الفصل الخامس

الكنيسة في الغرب تُخْضِعُ الجرمان

ـ تيودوريك

أراد القيصر زينون كما نذكر التخلص من القوط المستوطنين في ميزيا (**بلغاريا**) ، فأرسلهم لإنتشال **إيطاليا** من أيدي أودواكر . باشر **تيودوريك** زحفه في خريف عام ٤٨٨ ، وإجتاز جبال الألب مصطحباً معه جميع قبائل القوط الشرقيين ، ووقف في صيف العام التالي على شواطئ إيسونو . ألحق الهزيمة بأودواكر الذي تصدى له ثلاث مرات ، وتحصنَّ في نهايةالمطاف خلف أسوار رافينا مدافعاً عن نفسه لمدة عامين ونصف . اقترح عليه **تيودوريك** الإستسلام وتقاسم السلطة في إيطاليا ، ولَمّا وافق أودوكرا على الاقتراح ، قتله **تيودوريك** غدراً .

استوطن القوط الشرقيون في إيطاليا ، واستولوا على ثلث الأراضي الحكومية وثلث الممتلكات العقارية الكبرى الآخرى ، كما فعل غيرهم من الشعوب الجرمانية .

ووقف تيودوريك من الكنيسة موقفاً متسامحاً بالرغم من إعتناقه الأريانية . انتخب البابا **جيلازيوس** بعد وفاة فيليكس عام ٤٩٢ ويعتقد بأنه كان افريقياً . **أستؤنفت** بينه وبين بطريرك القسطنطينية الجديد يوفيميوس (توفي أكاسيوس عام ٤٨٩) مراسلات حذره . و عمت الكنيسة الشرقية (باستثناء الإسكندرية) رغبة في عودة الوحدة الكنسية ، لكنَّ امبراطور الشرق أنستازيوس الذي تولى العرش عام ٤٩١ عارض ذلك . أما موقفه من البابا ، فقد برز على هيئة إهمال لأسقف **روما** وازدراء به . وعلى الرغم من ذلك خاطبه جيلازيوس برسالة حميمة

معبرة عن الرغبة في انهاء الإنشقاق ، بينما كان رد الامبراطور مجرد الصمت .

بذل **جيلازيوس** ، مثلما فعل **ليون** الكبير من قبل ، جهوداً مضنية في سبيل عودة الإنضباط الكنسي الذي تراجع كثيراً إبان أعوام الحروب والإجتياحات كما انه اشتهر بتُقيه وحرصه الشديد على رعاية الفقراء . توفي عام ٤٩٦ .

تولّى العرش البابوي من بعده أنستازي الثاني . واستهلَّ بدوره ولايته بتوجيه رسالة إلى الامبراطور ، توسَّل فيها وضع حدٍ للإنشقاق . وقد أكسبته محاولاته المفعمة باللهفة لإعادة الوحدة الكنسية صفة الضعف بغير حق . توفي عام ٤٩٨ .

ظهرت معارضة في أوساط سلك الكهنوت وأعضاء مجلس الشيوخ منذ أن كان البابا **أنستازي** الثاني على قيد الحياة ، وعملت هذه المعارضة على تقسيم الأصوات أثناء انتخاب خلفه : فبينما انتخب الشماس **سيماك** بابا في الكنيسة اللاتيرانية ، انتخب أنصار المصالحة مع القطسطنطينية الكاهن **لورنس** لمنصب البابا في كنيسة العذراء الكبيرة . كانت هذه بداية ظهور حزبين ، حاول أحدهما (البيزنطي) التصالح مع الامبراطور بينما بحث الثاني عن سند في القوى المحلية . فحدثت نزاعات وصدامات في الشارع ، وفي نهاية المطاف وافق الطرفان على تحكيم **تيودوريك** . استدعى ملك القوط الذي كان لايزال في رافينَّا كلا البابوين المنتخبين ، أصغى إليهما وأصدر حكمه : سيكون سيماك بابا لأنه انتخب بغالبية الأصوات . التزم لورنس بالقرار ، إذا أنه شارك في اعمال مجمع كنسي انعقد في **روما** بعد بضعة أيام من ذلك الحين في عام ٤٩٩ . ثمَّ أصبح أسقفاً في نوكيرا . لكنَّ أثر ا لضيق ظلَّ باقياً ، وسوف يوجه لورنس بعد فترة وجيزة تهماً ذات طابع اخلاقي إلى سيماك . طالب **تيودوريك** البابا سيماك بتبرير نفسه من التهم الموجهة إليه ؛ لكن سيماك بالرغم من قراره الأولي في الإستجابة لطلب الملك ، **أقفل** عائداً ولم يتوجه إلى رافينا . اعتبر **تيودوريك** هذا الشيء بمثابة إهانة له فبعث **ببطرس** أسقف ألتينو للنظر في القضية . لكنَّ بطرس قام بالدعوة لانعقاد مجمع كنسي في **روما** لمحاكمة البابا دون أن يحاول التفاهم مع سيماك ، وذلك عام ٥٠١ . كان سيماك على استعداد للمثول أمام المجمع ، لكنَّ موكبه هوجم وهو في طريقه من باسيليقا القديس بطرس إلى كنيسة الصليب المقدس حيث انعقد المجمع ، فقتل قسم من حاشية البابا ، وأقفل سيماك عائداً للإعتكاف في الباسيلقيا .

وقع المجتمعون في الكنيسة في حيرة من امرهم . وقرروا بعد التشاور أنهم غير قادرين على محاكمة إنسان غيابياً ، وخاصة أنه كان عازماً على قبول الحكم . كما لاحظوا انه «لم تحدث من قبل سابقة من هذا النوع ، بأن يحاكم أسقف هذه المدينة من قبل مجمع كهذا» . فتركوا القضية للحكم الإلهي وغادروا روما .

ظلَّ البابا معتكفاً في باسيليقا القديس بطرس ، بينما مارس لورنس الذي نادى به أنصاره

بابا ، صلاحياته في المدينة . دارت المعارك في الشوارع ، وانتقلت الكنائس من يد فئة إلى أخرى ، وَوُزِعت في **روما** منشورات وكتب تهاجم البابا والبابا المضاد . استمرت الأحوال على هذا النحو حتى عام ٥٠٧ ، وعندئذ قرر **تيودوريك** الدفاع عن سيماك . لاشك بأن الملك القوطي مارس دوره كسياسي بارع ، كما حدث في بداية النزاع . فلم يكن أنصار لورنس ممن يؤيدونه ، لأنهم حاولوا إقامة علاقات مع القسطنطينية (ولو كان الثمن هو الاعتراف بوثيقة الهينوتيكون) ، الأمر الذي لم يرغب به **تيودوريك** إطلاقاً ، إذ أنه كان على خلاف شخصي مع الامبراطور ؛ وقد حكم البلاد من الناحية الصورية بإسم الامبراطور ، لكنه اعتبرها مُلكاً له في واقع الأمر .

بعد أن سيطر سيماك على الموقف في **روما** أخيراً ، حاول جاداً إعادة الوحدة الكنسية . عزل الامبراطور بطريريك القسطنطينية يوفيميوس الذي حاول في حينه إقامة صلاتٍ مع البابا جيلازيوس ، وظلَّ وفياً لمقرارات المجمع الخلقيدوني ، وتمّ هذا عام ٤٩٦ .

حاول خلفه مقدونيوس الدفاع عن مقرارات المجمع أيضاً ، لكنَّه كان إنساناً ضعيفاً ، وأرغمه الامبراطور على توقيع الهينوتيكون . ظلّت **الاسكندرية** عاصمة المونوفيزية الحقيقية . وكانت المونوفيزية في **انطاكية** أيضاً على درجة كافية من القوة ، بفضل فيلوكسينوس أسقف مابوغا (هيرابوليس) ، المونوفيزي المتحمس الذي شجع بطاركة **انطاكية** على الثبات في المونوفيزية . برزت ملامح خلاف بين المونوفيزيين المعتدلين ، الراغبين في عودة الوحدة الكنسية ، وبين كافة أشكال التطرف . وهكذا تفككت المونوفيزية إلى شيع وطوائف . تلّهف الكثيرون من الأساقفة الذين وضعوا تواقيعهم عى الهينوتيكون للعودة إلى الوحدة ، واعتبروا أنفسهم في أعماقهم مؤيدين لمقرارات مجمع خلقيدونيا .

لم تعد الوثيقة التوفيقية المعروفة باسم الهينوتيكون كافية بالنسبة للإمبراطور ذاته ، فقد رغب بإدانة المجمع صراحة . وأصبح مستشار الامبراطور أحد الرهبان المونوفيزيين الذي يدعى سيفيرين ، وهو في الوقت ذاته عالم ضليع ، ومدافع حقيقي وخطر عن طائفته . وبإلحاح منه عزل الامبراطور البطريك مقدونيوس ، لأن موقفه مع المونوفيزية كان ضعيفاً في نظره . وعُين عوضاً عنه الوصولي طيموثا ، بينما عيَّن سيفيرين بطريركاً في **انطاكية** . وفي مثل هذه الظروف ، عجز سيماك البابا عن تحقيق أية نتائج إيجابية . ولكنه على أي حال كتب مخاطباً الامبراطور : « ألانك امبراطور تعتقد بأنك ستنجو من دينونة الرب ؟ . . . أتريد الوقوف ضد سلطة بطرس لمجرد كونك إمبراطوراً ؟ إنك تزدري بالقديس بطرس في شخص أحد وكلائه ، لإعترافك ببطرس الإسكندري» . نجد في هذه الكلمات شيئاً يهزنا في الأعماق : فالإنسان الذي عرف كل أنواع الإساءات ، والذي اعتلى العرش البابوي بفضل تعاطف المهرطق الهمجي ، خاطب الامبراطور بمشاعر عظمة المنصب الذي شغله .

أشتهر سيماك خلال الفترة القصيرة التي جلس فيها على العرش البابوي ، بالقيام بعدد من اعمال الرحمة . مدَّ يد العون للعديد من أساقفة افريقيا المضطهدين ، وخصص مبالغ ضخمة لإفتداء السجناء . فعلى الرغم من ان البابوية لم تستفد من كرم الامبراطور ، كانت تملك أموالاً طائلة ، حصلت عليها من خلال أعوام طويلة من التقدمات والهبات التي قدَّمتها الأسر الثرية . وكانت هذه الأموال على هيئة ممتلكات عقارية شاسعة موزعة في إيطاليا ، ودلماسيا ، وصقلية ، وغالة ، وافريقيا . توفي سيماك عام ٥١٤ .

خلفه **هورمزداس** ، وبعد توَّليه العرش البابوي بأربعة أعوام ، توفي الإمبراطور **أنستازيوس** . كانت الأعوام الأخيرة من حكم الامبراطور عاصفة بشكل خاص . فمواقف بطريرك القسطنطينية الجديد أحدثت قلاقل بين السكان . كما لقي نشاط **سيفيرين** معارضة في كل مكان . فدفع عدم الارتياح العام بالقائد الروماني فيتاليان للقيام بتمرد مسلح ضد الامبراطور عام ٥١٣ ، مطالباً بإعادة الأساقفة الكاثوليك من النفي . تفاوض أنستازيوس مع المتمردين ، محاولاً كسب الوقت . وبنتيجة ضغوط فيتاليان أجرى اتصالات مع البابا وأوهمه بوعود واهية بأنه سيدعو لإنعقاد مجمع كنسي .

تربع بعد أنستازيوس على عرش الامبراطورية **جستين** ، وهو قائد الحرس الامبراطوري ، ومن أنصار الارثوذكسية الحميمين .

تبدلت الأحوال على جناح السرعة . أنكر بطريرك القسطنطينية المونوفيزية حالاً ، وانتقل إلى معسكر المدافعين عن مقرارات المجمع الخلقيدوني . بينما فرَّ سيفيرين الانطاكي إلى مصر ، أما **فيلوكسينوس** المابوغي فقد نفي إلى بفلاغونيا وهناك توفي . أعيدت العلاقات مع البابا ، وقبل بطريرك القسطنطينية جيمع شروط هورميزداس دون اعتراض . وهكذا عادت الوحدة الكنسية .

في عهد هوميزداس أقام في **روما** راهب **سكوذي** يدعى **ديونيسيوس** ، لقَّبَ نفسه تواضعاً «بالصغير» . كان مترجماً بارعاً من الاغريقية إلى اللاتينية ، وترجم بناء على طلب البابا القوانين الرسولية ، أي مقرارات المجامع الكنسية المحلية والمسكونية . وقد عُرف ديونيسيوس على نطاق اوسع من خلال التاريخ الجديد الذي وضعه . كانت الأعوام في الامبراطورية لاتزال تُحْسَبُ «منذ تأسيس روما» . وتلبية لرغبة البابا ، أعدَّ ديونيسيوس تقويماً جديداً بدأ فيه بحساب الزمن اعتبارٌ من ولادة **يسوع** (أجريت الحسابات خطأ ، لأن **يسوع** وُلد قبل ذلك الحين بستة إلى سبعة أعوام) . اتخذ ديونيسيوس من الخامس والعشرين من آذار موعداً لولادة **يسوع** (ويوم رأس السنة في الوقت نفسه) ، وهو اليوم الذي يتم فيه الإنقلاب الربيعي ويتعادل الليل والنهار . اعتمدت التقاليد السابقة تواريخ متعددة لميلاد يسوع : التاسع والعشرين من نيسان ، السادس والعشرين والثامن والعشرين من آذار . ومنذ القرن الرابع اعتبر

يوم الخامس والعشرين من آذار (بداية خلق العالم) يوم حبل العذراء ، ومن هنا كانت الولادة في الخامس والعشرين من كانون الأول . أزيح يوم رأس السنة بمرور الزمن إلى الأول من كانون الثاني (ولكن في بريطانية ظلَّ يوم رأس السنة يحتسب في الخامس والعشرين من آذار حتى أواسط القرن الثامن عشر) .

تحقق حلم **هورمزداس** في رؤية وحدة الشرق والغرب . وفي الأشهر الأخيرة من حياته (توفي عام ٥٢٣) عَلم بموت ملك الوندال ترازاموند . وتوقف خلفه **هيلديريك** عن اضطهاد الأساقفة الأفارقة .

ـ تغير سلوكية تيودوريك

خلف **يوحنا الأول** التسكاني البابا هورميزداس على العرش البابوي . وترافق انتخابه مع تغير سلوكية **تيودوريك** . فقد شعر هذا الرجل بغتة بالقلق من عودة الوحدة الكنسية ، بعد ان حافظ لفترة طويلة على موقف مفعم بالتسامح منها ، وقام بحمايتها إلى حد ما من الإنشقاق . لقد أرعب تصرف جستين ملك القوط ، وأدرك هذا السياسي المحنك حالاً مايدور وراء الكواليس . فعلى أي حال لم يكن سراً بالنسبة ل**تيودوريك** أن ابن شقيق جستين وخلفه المحتمل جستينيان ، يخطط لإعادة تنظيم بنية الامبراطورية ضمن إطار الحدود القديمة . وكان للوحدة السياسية أن تتبع الوحدة الدينية ، مما يعني امكانية ضياع إيطاليا من أيدي القوط . كان **تيودوريك** رجلاً متقدماً في السن ، ولم يكن حفيده وخلفه **أتالاريك** قد بلغ من العمر سوى بضعة أعوام .

انعكس قلق **تيودوريك** في النوبات المباغتة من تعكر مزاجه . فبدون مقدمات أصدر أوامره بإعتقال القنصل والفيلسوف الفذ **بويس** الذي حظي بإحترامه وتقديره من قبل ، متهماً إيَّاه بالخيانة . وقد كتب بويس في المعتقل في بافيا عملاً رائعاً يشع إيماناً عميقاً بعنوان De consaltione philosophiae ، قبل أن يُقتل عام ٥٢٥ .

صعَّدت الأنباء الواردة من القسطنطينية الضيق الذي شعر به **تيودوريك** أكثر فأكثر . فقد أصدر جستين أمراً بتنفيذ وتطبيق القانون القديم المتعلق بالهرطقة في أنحاء الامبراطورية . وبموجب هذا القانون صودرت الكنائس الأريانية التي استخدمها القوط العاملون في الجيش الامبراطوري ، كما مورست ضغوط على القوط لإعتناق الكاثوليكية ،

استدعى **تيودوريك** المستشيط غضباً **يوحنا الأول** إلى رافينّا ، وأصدر إليه أمراً قاطعاً بالسفر إلى القسطنطينية ، والحصول على موافقة الإمبراطور بإعادة الكنائس والأبرشيات المصادرة ، وعودة القوط الذين ارتدّوا عن الأريانية إلى أحضانها ثانية . ولم يكن أمامه مجال

للمقاومة . وكان **يوحنا الأول** أول بابا يغادر إيطاليا في رحلة عام ٥٢٤ .

اسْتُقْبِلَ البابا في القسطنطينية بحفاوة بالغة . وأقام في باسيليقا الحكمة المقدسة قداس عيد الميلاد والفصح أيضاً ، ووضع التاج الامبراطوري على رأس جستين . لم يكن هناك أي مجال لمناقشة موضوع عودة القوط إلى الأريانية من قبل البابا أو الإمبراطور ، وقد وافق الامبراطور على بعض التنازلات فقط في قضية الكنائس الأريانية ، وسمح بممارسة طقوس العبادة بحرية .

لكنَّ التنازلات التي قدمها الامبراطور لم تُرضِ **تيودوريك** . كما أنه استشاط غيظاً لدى سماع نبأ تتويج البابا للإمبراطور . فاعتقل البابا وحاشيته لدى عودتهم إلى رافينا ، ولم يغادر **يوحنا** المعتقل ، إذ وافته المنية في الثامن عشر من آيار عام ٥٢٦ وهو في معتقله .

رشَّح **تيودوريك** بنفسه **فيليكسينوس** الرابع لمنصب البابا . وبعد انتخاب البابا بما يقارب الشهر توفي الملك القوطي مخلفاً العرش لأتالاريك الذي لم يتجاوز الثامنة من العمر ، وكان لوالدته أمالاسوننا أن تحكم بإسمه .

الفصل السادس

بيزنطة تطالب بروما

ـ جستينيان

خيَّب فيليكسينوس الرابع آمال **تيودوريك** . فالحقيقة أنه حافظ على علاقات طيبة مع الملكة القوطية ، لكنَّ علاقته مع الامبراطور كانت ودّية بالقدر ذاته . توفي عام ٥٣٠ ، وقبيل وفاته أقدم على خطوة غير مألوفة ، إذ عيَّن خلفاً لنفسه وهو لايزال على قيد الحياة ، ووقع اختياره على **بونيفاسي** .

أدى هذا الشيء إلى انشقاق جديد . فقد أيَّد أنصار الحفاظ على علاقات حسنة مع القوط البابا **بونيفاسي** . كما حظي **بونيفاسي** (وهو نصف قوطي) بتأييد البلاط الملكي . لكنَّ هذا لم يرضِ الحزب الساعي لتمتين العلاقات مع **بيزنطة** . وقام هؤلاء بترشيح ديسقوروس لمنصب البابا ، وهو شماس اسكندري أيَّد مقرارات المجمع الخلقيدوني ، فَطُرِدَ في حينه من **الاسكندرية** ، وكان مقيماً في **روما** منذ أعوام طويلة . لكنَّ ديسقوروس توفي بعد بضعة أشهر ، وانتهت الأزمة إلى حين .

عيَّن **بونيفاسي** الثاني أيضاً خلفه وهو لايزال على قيد الحياةو وهو الشماس فيجيليوس . لكنَّه اعترف فيما بعد علناً بأنه تصرف بما يخالف القوانين الكنسية ، وأتلف مرسوم التعيين . توفي عام ٥٣٢ بعد مرور سنتين على سيامته .

لم يمر الإنتخاب التالي بيسر ، فقد تمَّ إحياء الصراع القديم بين الحزبين «القوطي» و «البيزنطي» . وانتخب مرشح التوجه البيزنطي في نهاية المطاف (ولكن باستخدام الرشوة) وهو

الكاهن مركوريوس الذي اختار لنفسه اسم **يوحنا الثاني** . **أمّا** عادة **تغيير** اسم البابا المنتخب **فستظهر** بشكل نهائي في القرن الحادي عشر . وفي القسطنطينية تولّى العرش **جستنيان** بعد وفاة جستين كما كان متوقعاً ، وذلك عام ٥٢٧ . وبعد أن تربع جستينيان على العرش مباشرة ، بعث إلى **يوحنا** الثاني بوفد رفيع المستوى ، كُلّفَ بأن يؤكد للبابا إقرار الامبراطور بأولوية الكنيسة الرومانية ، ورغبته في إخضاع جميع رجالات الدين في الامبراطورية لسلطة البابا . توفي **يوحنا** الثاني عام ٥٣٥ ، وخلفه على الكرسي الرسولي **أجابيت الأول** .

جرت في هذه الأثناء أحداث غير عادية داخل الأسرة القوطية الحاكمة . توفي أتالاريك عام ٥٣٤ . أرادت **أمالاسونتا المحافظة على السلطة الملكية ، فتزوجت من ابن عمها ثيودات** . لكنَّ ثيودات الذي أدرك جيداً طموحات ابنة **تيودوريك** ، اعتقلها بعد الزفاف وامر بقتلها .

برزت هذه الجريمة مطالبة جستينيان بالسلطة في إيطاليا . واحتلّت الجيوش الامبراطورية بقيادة **بيليساريوس** كلاً من **دلماسيا و صقلية** . فطالب ثيودات المُهدد البابا أجابيت بالسفر إلى القسطنطينية بهدف التفاوض مع الامبراطور .

كانت هذه الرحلة الثانية التي قام بها بابا خارج إيطاليا . استقبل البابا أجابيت في القسطنطينية بحفاوة وتكريم بالغين ، مثلما استقبل من قبل **يوحنا** الثاني ، علماً أن **تيودورا** زوجة جستينيان المناصرة للمونوفيزية ، كانت مناهضة للبابا . وحصل البابا على وعد من الامبراطور بالموافقة على عزل بطريرك القسطنطينية المونوفيزي أنتيم المقرَّب من الامبراطورة ؛ ثمَّ رسم بنفسه خلفه ميناس . لكنَّ أجابيت مرض بغتة بعد هذا الإحتفال ومات .

بعد ان بلغ نبأ وفاة أجابيت روما ، انتخب تحت تأثير ضغوط ثيودات ، مرشح الحزب القوطي **سلفيريوس** ، ابن البابا هورميزداس (انتخب الباباوات والأساقفة عادة من بين الأفراد المتزوجين قبل الرسامة ، وألزموا بالإمتناع عن الزواج بعد تسلم مهامهم) . أما في القسطنطينية فقد رشحت **تيودورا فيجيليوس** الذي كان سيخلف **بونيفاسي** في حينه . ولكن سلفيريوس كان قد تربع على العرش البابوي عندما وصل فيجيليوس إلى روما .

في هذه الأثناء ، انتقل بيليساريوس من صقلية إلى إيطاليا وباشر محاصرة نابولي . تخلّص القوط من ثيودات الخامل ، وانتخبوا **فيتيجيس** ملكاً عليهم ، حيث اخذ يستعد لخوض المعركة مع بيليساريوس . لكنَّ الأخير احتلَّ نابولي قبل ان يقف القوط لمواجهته ، واقتحم **روما** التي قرر فيتيجيس عدم الدفاع عنها بعد ان أقنعه البابا بذلك .

حمل بيليساريوس معه أمراً صريحاً من الامبراطورة بعزل البابا **سلفيريوس** . فاتهم البابا بالتآمر مع القوط ، وعزله عن منصبه ، ثم أرسلة سجيناً إلى **سوريا** . وتولى فيجيليوس مهام البابا بعد طول انتظار . بينما تنازل سلفيريوس عن التاج البابوي بعد بضعة أعوام من الأسر ،

وهو في حالة انهيار معنوي .

بعد ان استجمع القوط قواهم ، عادوا لمحاصرة بيليساريوس في روما ، واستمر الحصار عاماً كاملاً .

بعثت التغيرات التي حدثت بعد تولّي جستينيان عرش الامبراطورية الأمل في النفوس بأن موقف خلفه من القضايا الكنسية سيكون مشابهاً ، وأنه سيطلق يد الكنيسة لحل مشاكلها الداخلية بنفسها . ولكنَّ ماحدث هو عكس المتوقع . فجستينيان ، أحد أعظم أباطرة تلك المرحلة هو في واقع الأمر من المؤيدين المتلهفين للأرثوذكسية وللوحدة الكنسية ، لكنه طمح في إدارة شؤون الكنيسة والبث في الخلافات العقائدية بنفسه ، بالإضافة إلى أن زوجته **تيودورا** ، ابنة مرّوض الدببة ولاعبة المسرحيات الصامتة سابقاً ، كانت من أنصار المونوفيزية التي تعرّفت بها في مرحلة بقائها تحت رعاية الرهبان الإسكندريين .

كان ل**تيودورا** تأثير قوي على زوجها . وفي هذا الصدد تقول **كابيسوفا** «عانى جستينيان طيلة حياته من عدم القدرة على اتخاذ القرار ، متردداً في الإختيار بين الإحتمالات المتعددة . . . أما **تيودورا** فقد عرفت دوماً ماذا تريد» . وفي نهاية المطاف تمكنت **تيودورا** بفضل موقفها الشجاع في لحظة محددة ، من انقاذ عرش جستينيان . فقد انقسم سكان القسطنطينية إلى حزبين تميزا عن بعضهما باللونين الأزرق والأخضر . كانت هذه مجموعتان متخاصمتان أثناء المنافسات الرياضية في **الهيبودروم** (لكنها في الوقت نفسه كانت أحزاباً سياسية) . ضمَّ «الخضر» المونوفيزيين ، ولذلك دعمهم **أنستاسيوس** ؛ بينما تجمع مؤيدو مجمع خلقيدونيا تحت لواء «الزرق» ، أي أنهم كانوا يشكلون «الحزب الامبراطوري» آنذاك . لكن الحزبين اتحدّا عام ٥٣٢ لمواجهة الامبراطور الذي لم يكن محبوباً بسبب النظام الاميري الذي فرضه . وأصبحت صيحة «النصر» شعاراً للثوار . كان جستينيان على استعداد للفرار ، لكن **تيودورا** لم تفكر بالتنازل عن العرش . فأصدرت أوامرها إلى القائد الامبراطوري الخصي **نرسيس** لإخراج «الزرق» من التمرد ، بينما حاصر بيليساريوس الآخرين ونفَّذ مجزرة وحشية ، لقي خلالها مايربو على ثلاثين ألفاًحتفهم .

أضحى بيليساريوس منفذاً لمخطط كبير يهدف لإعادة بناء الامبراطورية الغربية . أبحر عام ٥٣٣ على رأس الجيوش الامبراطورية إلى افريقيا بهدف انتشالها من أيدي الوندال . فتمكن في معركتين قرب **ديسيوم** و **تريكامارون** من سحقهم وإزالة مملكتهم من الوجود . وباشر بيليساريوس عام ٥٣٦ حربه مع القوط من أجل إيطاليا . استمرت المعركة لأعوام عدة ، تبدَّلت خلالها الأحوال وتعرضت إيطاليا لدمار مرعب . جنَّد القادة الامبراطوريون الهون والسلافيين في جيوشهم ؛ بينما طلب القوط العون من الفرنكونيين والبرغند (نفذوا مجزرة رهيبة في ميلانو عام ٥٣٩) . منذ عام ٥٤١ ، تزعم القوط قائدهم الشاب الطموح

توتيلا ، وبفضله تمكنوا من احتلال **روما** ثانية ، وانتقموا من المدينة بطرد السكان منها وتهديم أسوارها بعد رفض الامبراطور إعطاء السلطة على إيطاليا لتوتيلا . ركزَّ بيليساريوس اهتمامه على **روما** المدمرة ، وبدأ بتحصينها مجدداً ، لكن توتيلا احتلَّ المدينة ثانية . وفي عام ٥٥٢ اقتحم **نرسيس** إيطاليا على رأس الجيوش الامبراطورية وسحق القوط (وقد لقي توتيلا حتفه في المعركة) ، وأعاد سلطة الامبراطور على شبه الجزيرة .

احتلَّت الجيوش الامبراطورية في الوقت ذاته مقاطعة **بيتيكا** (عام ٥٥١) في شبة الجزيرة البيرينية . وهكذا دخل جزء من إسبانيا على الأقل ضمن حدود الامبراطورية .

في الأعوام التي خاضت فيها الجيوش الامبراطورية معارك عنيفة من اجل استعادة مقاطعات الامبراطورية الغربية سابقاً ، صبَّ جستنيان اهتمامه على القضايا الكنسية . فقد كانت المونوفيزية المدعومة من الامبراطورة منتشرة في أرجاء الامبراطورية . وقد نعت معتنقوها أنصار مجمع خلقيدونيا بأنهم «أزلام القيصر» .

رغب جستنيان في إعادة الوحدة الكنسية عن طريق التفاهم والإقناع . وفي عام ٥٣٣ دعا في القسطنطينية لعقد اجتماع ضمَّ ستة من أساقفة الكنيسة الجامعة وستة من الأساقفة المونوفيزيين بهدف مناقشة جوانب الخلاف . لكنَّ الإجتماع لم يسفر عن أية نتائج : إذ أقنع أحد الأساقفة المونوفيزيين بالإنتقال إلى الجانب الكاثوليكي ، كما انتقل أحد الأساقفة الكاثوليك إلى الجناح المونوفيزي ، وهو **أنتيم** الذي رشحته **تيودورا** لمنصب بطريرك القسطنطينية . وكما نذكر ، فقد حصل البابا أجابيت أثناء تواجده في القسطنطينية على موافقة الامبراطور بعزل أنتيم ، ورسم ميناس بديلاً له .

أدين أنتيم بشدة من قبل مجمع كنسي انعقد عام ٥٣٦ بدعوة من ميناس ، مما اضطره للإختفاء وبدأت مرحلة محاربة المونوفيزية . ومنذ إقامة أجابيت في القسطنطينية ، اتخذ جستنيان موقفاً ثابتاً إلى جانب مقرارات مجمع خلقيدونيا ، وساعده على ذلك بيلاجيوس النائب البابوي المقيم في القسطنطينية بصورة دائمة .

لكن **تيودورا** لم تكف عن دعم المونوفيزين . وقد أشرنا إلى أنها كلَّفت بيليساريوس الذي اقترب من **روما** (وكان إلى جانبه «عميل» مخلص للإمبراطورة في شخص زوجته أنطونينا) بأن يعزل البابا سلفيريوس من منصبه بأية ذريعة كانت ، ويرفع إلى العرش البابوي فيجيليوس ، الذي اعتبرته **تيودورا** من المؤيدين للمونوفيزية . جرت الأحداث كما أرادت الامبراطورة ، لكن فيجيليوس خيَّب أملها . فالحقيقة أنه كان راغباً في الحصول على التاج البابوي بأي ثمن ، لكنه رفض أن يتحول إلى أداة طيّعة في يد الامبراطورة . وسوف يدفع غالياً ثمن هذا الخروج عن الطاعة .

ـ المجمع المسكوني الخامس

كانت قد إنتشرت في **فلسطين** منذ فترة من الزمن بعض التعاليم في أوساط الرهبان المحليين ، نادت **بفكرة وحدة الوجود** ، و **الوجود الأزلي للأرواح** ، **ونهاية الجحيم** الذي سيختفي في يوم ما وهي غير متوافقة مع التعاليم المسيحية ؛ وكل هذا إستناداً إلى آراء **أوريجين** . انتقلت هذه الأفكار من دير إلى دير . وَعَلِمَ بها السفير البابوي بيلاجيوس ، وطالب البطريرك ميناس أن يقاومها بكل حزم . رفع ميناس هذه القضية إلى الامبراطور . فبدا جستنيان وكأنه ينتظر بفارغ الصبر مثل هذه الفرصة ، ليبرز معرفته اللاهوتية الحديثة الإقتناء . فصدر عام ٥٤٣ مرسوم إمبراطوري يدين الأوريجينية . وأوصى جستنيان بالمناسبة أن يوقع جميع الأساقفة هذا المرسوم . وكان الحرم الكنسي في إنتظار المعارضين ، إذ أن الامبراطور اعتقد أنه من حقه التدخل في مجال صلاحيات السلطات الكنسية . فوضع جميع البطاركة والبابا تواقيعهم على الوثيقة .

أقام في القسطنطينية آنذاك الراهب الفلسطيني السابق وأسقف **قيصرية** قبدوقية عندئذ ، **تيودور** أسكيداس ، نصير الأوريجينية السري . تمتع أسكيداس بنفوذ واسع في البلاط الامبراطوري ، واقترح على الامبراطور المخطط التالي : لتسهيل عملية التقارب بين المونوفيزين وأنصار الكنيسة الجامعة ، يجب علىالقيصر أن يدين تعاليم كلٍ من **تيودور** الموبسويستي و **تيودوريت** و **تلميذه إيباس الإديسي** ، على أنها نسطورية . جمع أسكيداس بهذه المناسبة مقتطفات مختارة من مؤلفات الكتاب المذكورين ، بدت وكأنها نسطورية فعلاً ، وقدَّمها للإمبراطور . لم يكن هدف أسكيداس في واقع الأمر كسب ودّ المونوفيزيين لكنه توقع بان إدانة **تيودور** الذي حارب في حينه نظريات أوريجين ، سيخفف من تركيز الإمبراطور على مؤلفات الإسكندري العظيم الذي كان في حينه معلم أسكيداس .

التقط الامبرطور حالاً الفكرة المقترحة عليه . وأصدر عام ٥٤٤ مرسومه بإسم «ثلاث فقرات» الذي كان بمثابة إدانة لمؤلفات وشخص **تيودور** الموبسويستس ، وبعض مؤلفات **تيودوريت** ، ورسالة إيباس إلى الأسقف الفارسي ماريس .

اصطدم المرسوم الامبراطوري في بادىء الأمر بمعارضة عنيفة . لايُنكر أن المقتطفات التي استشهد بها أسكيداس في النص تميَّزت بطابع نسطوري ، ولكن لابد من الإشارة إلى أنَّ الكتَّاب الثلاثة رحلوا عن العالم وهم على وفاق مع الكنيسة ، بالإضافة إلى أنَّ **تيودوريت** وإيباس كانا من الموقعين على مقرارات مجمع خليقدونيا . فكوَّنت مهاجمتهم انطباعاً وكأنها مهاجمة المجمع المذكور نفسه .

لكنَّ الهدوء ساد بعد العاصفة الآتيّة . انحنى بطاركة وأساقفة الشرق أمام مطالب

الامبراطور ، ووقعوا المرسوم . لكنهم فعلوا هذا بصورة شرطية ، وتركوا القرار النهائي للبابا . وجد مرشح تيودورا السابق ، المتعطش للسلطة ، والمستعد لأن يقطع على نفسه أي عهد من أجلها ، نفسه مرغماً على اتخاذ قرار هو قرار الكنيسة برمتها .

لم يكن فيجيليوس يتوقع بأي حال ماالذي ينتظره . فقد كانت إيطاليا آنذاك في قبضة توتيلا ، لكنَّ روما بقيت تحت الحماية البيزنطية ، وارتفعت من الأنقاض شيئاً فشيئاً (سوف يحتلُّ توتيلا المدينة ثانية بعد بضعة أشهر ، وستشهد دماراً أعنف من السابق) . كان البابا برفقة حاشيته في باسيليقا القديس بطرس يصغي إلى السداسيات التي نظم فيها الشماس الروماني أراتور الليفوري أعمال الرسل ، ويقيم القداس ، عندما باغته في احد أيام عام ٥٤٥ أزلام القيصر واختطفوه من روما . كانت هذه طريقة همجية ، لكنَّ جستينيان خشي من ان يحاصر توتيلا روما في لحظة ما ، ففضل أن يكون البابا بين يديه .

لم يُسمح للبابا بإلتقاط أنفاسه إلا بعد وصوله إلى صقلية . فهناك أُعلم بما هو مطلوب منه : كان عليه أن يوقع المرسوم المذكور . عَلِمَ فيجيلوس أثناء إقامته في الجزيرة أنَّ الغرب كله مناهض للمرسوم . لأن مهاجمة الموقعين على وثائق المجمع هو هجوم على المجمع نفسه في نظر الغرب . وقد رفض السفير البابوي بيلاجيوس توقيع المرسوم ، ولذلك فرَّ من القسطنطينية متوجهاً إلى روما على جناح السرعة . لم يتمكن فيجيليوس من أن يحذو حذوه بالرغم من الخوف مما كان ينتظره في القسطنطينية ؛ فقد خضع لحراسة مشددة وأرغم على الإبحار إلى القسطنطينية للمثول أمام الامبراطور . كان يدرك جيداً منْ هو جستنيان ، ولكنه أدرك أيضاً ماينتظره إن هو تنازل أمام الامبراطور . ولم تكن هذه لحظة سهلة بالنسبة لإنسان مثله ، وجد في السلطة البابوية مجرد رمز للفخر والابهة .

وصل ثالث البابوات الذين غادروا إيطاليا إلى القسطنطينية في كانون الثاني من عام ٥٤٧ . وأعدَّ له جستنيان إستقبالاً لايقل حفاوة عمَّا لقيه الذين سبقوه . ولكن ما أن هدأت صيحات الترحيب ، حتى وجد البابا نفسه في قصر بلاسيديا بعيداً عن الناس الذين كان في وسعهم أن يساعدوه على الثبات في موقف الرفض ، محاطاً بأشخاص بذلوا قصارى جهدهم بالترغيب والترهيب في حثّه على إطاعة الامبراطور . لم يتمكن فيجيليوس من المقاومة طويلاً وفي عام ٥٤٨ وافق على إدنة «الفقرات لثلاث» ، مع بعض التحفظات التي كان لها ان تحافظ على هيبة المجمع .

لم يسفر تنازل البابا عن النتائج المتوخاة . كان الامبراطور قلقاً بسبب الإنتظار الطويل ، واستشاط أساقفة الغرب غضباً لدى سماعهم بموقف البابا . وذهب أساقفة افريقيا إلى أبعد من ذلك بكثير ، فقد ألقوا الحرم الكنسي على البابا . وعبَّر المونوفيزيون أيضاً عن عدم رضاهم ، إذ لم يقتنعوا بأن المرسوم يمكنهم من العودة إلى الوحدة الكنسية . وعلى أي حال فإن المشكلة

المونوفيزية أدت إلى نتائج أخرى أبعد مدى . **فيعقوب البرادعي** الذي سيم في القسطنطينية أسقفاً لإديسا بفضل جهود الامبراطورة **تيودورا** ، عجز عن ممارسة سلطته هناك بسبب قناعاته المونوفيزية ، وأصبح مبشراً طاف أرجاء **سوريا** مرتدياً البردعة ليؤسس كنيسة مونوفيزية مستقلة . حصلت هذه الكنيسة (ويعقوب على قيد الحياة) على بطريركين ومايزيد عن ثلاثين أسقفاً ، وسوف تستمد اسمها من اسم مؤسسها ، وسيطلق على أتباعها اسم اليعاقبة .

أمام هذا الواقع قرر جستنيان الدعوة لعقد مجمع كنسي مسكوني في القسطنطينية . وبينما كانت الدعوات قيد الإرسال ، أعدَّ أسكيداس «وثيقة اتهام» ضد **تيودور** ، **وتيودوريت** ، وإيباس .

أمَّا فيجيليوس الذي كان لايزال مقيماً في قصر بلاسيديا ، فقد غيرَّ رأيه مع سماع نبأ الدعوة لإنعقاد المجمع . ويرجح بأنه إعتقد بوجود فرق بين موافقته الشخصية على مرسوم الامبراطور وبين مصادقة البابا الرسمية على المرسوم بحضور الكنيسة قاطبة (وهذا ماسعى إليه جستينيان) . فاحتجَّ على المرسوم وهدد كل من يوافق عليه بالحرم الكنسي . أشعل هذا الشيء نار غضب جستينيان ، فأرسل جنوده إلى البابا . فرَّ فيجيليوس من القصر ولجأ إلى كنيسة القديس بطرس . لكنَّ الجنود اقتحموا المعبد ، وتشبث البابا الذي تمتع بقوة جسدية هائلة بالأعمدة المحيطة بالهيكل ، ولم يتزحزح من مكانه بالرغم من محاولة الجنود جرَّه بصورة وحشية . ودخل الكنيسة آنذاك حشد غفير من المؤمنين وقفوا دفاعاً عن البابا ، مما اضطر الجنود للإنسحاب .

قرر الامبراطور العودة إلى المفاوضات ، واستخدم رسله الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى . أصبح البابا وحيداً ومعزولاً بعد أن ارتشى المحيطون به ، فأرهقته هذه الأوضاع ، وفي أحد الأيام هرب من القسطنطينية إلى خلقيدونيا ، واعتكف هناك في كنيسة القديسة يوفيميا (التي تمت فيها مداولات المجمع) . لحق به رسل الامبراطور ، لكنَّ فيجيليوس لم يغادر المعبد بالرغم من أساليب التهديد والوعيد التي استخدمت معه . ومن معتكفه ألقى الحرم الكنسي على الأساقفة الذين وقعوا المرسوم ، وعلى البطريرك ميناس . أثار هذا ضجة كبرى ، وحاول الأساقفة المحرومون الحصول على عفو البابا . استشاط جستينيان غيظاً ، لكنَّه أضحى أقلَّ تشدداً في مفاوضاته ، وفي نهاية المطاف أقنع فيجيليوس بالعودة إلى القسطنطينية .

بدأت أعمال المجمع في الخامس من أيار عام ٥٥٣ . تجاوز عدد المشاركين المئة وخمسين أسقفاً من الشرق وستة أساقفة من افريقيا . لم يشارك في أعمال المجمع أساقفة من غالة ، واسبانيا ، وإيليريا ، ودلماسيا ، وإيطاليا ، كما رفض فيجيليوس المشاركة في المداولات .

تكلم بعد الإفتتاح مباشرة ممثل الامبراطور . اتهم جستينيان البابا بالعدول عن رأيه بعد

إدانة الكتّاب الثلاثة ، وطالب المجمع بإتخاذ القرار السليم في القضية . رفض البابا المريض آنذاك المشاركة في أعمال المجمع ، لكنّه أعدَّ وثيقة تُعرف بإسم Constitutum ، تضمنت إدانة الفقرات المشار إليها في مؤلفات **تيودور** دون إدانته شخصياً ؛ وامتنع فيجيليوس عن إدانة مؤلفات **تيودوريت** ؛ أمّا فيما يتعلق برسالة إيباس ، فقد عبَّر عن شكوكه في أصالتها .

لم تُرضِ هذه الوثيقة الامبراطور . فبعث إلى المجمع برسالة رداً عليها ، وقد ورد في رسالته : «بما أن بابا **روما** القديمة بدفاعه عن إلحاد الفقرات المذكورة ، انفصل عن الكنيسة الجامعة وابتعد عن جماعتنا . . . ارتأينا حذف إسمه من الصلوات الشفاعية ، خشية أن يعتقد بأننا موافقون على كفر نسطور **وتيودور** . . . لكننا نحافظ على الوحدة مع العاصمة الرسولية . . .» كان هذا بمثابة أمر بعزل البابا عن منصبه . قَبِلَ المجتمعون قرار الامبراطور بطاعة تامّة ، لابل أتنوا على لهفة جستينيان . ثم أدينت «الفقرات الثلاث» ، ووقع ١٦٤ أسقفاً على الوثيقة النهائية .

لكنَّ الامبراطور والآخرون جميعاً أدركوا جيداً أن هيبة المجمع لن تكون مصانة إن لم يصادق عليه البابا . ولذلك ، وبالرغم من عزل البابا عملياً ، باشر الامبراطور حملة جديدة للضغط على فيجيليوس . وفي نهاية المطاف تنازل البابا المريض والأعزل . فأدينت في وثيقته الجديدة «الفقرات الثلاث» .

أثار قرار البابا الضجة التي حاول فيجيليوس تفاديها : معارضة عامة من الغرب .وهاجم السفير البابوي السابق بيلاجيوس البابا بسلسلة من ا لرسائل موجهة إلى مختلف الكنائس .

وبالرغم من ذلك ، كانت إدانة فيجيليوس «للفقرات الثلاث» اعترافاً بشرعية المجمع المنعقد ، لذلك يُعَدُّ مجمع القسطنطينية الثاني بمثابة المجمع المسكوني الخامس .

غادر البابا المريض والمنهار نفسياً القسطنطينية في ربيع عام ٥٥٥ ، ليعود بعد غياب دام عشر أعوام إلى روما . توفي في سرقوصة في صقلية وهو في طريقه إلى روما .

ـ باسيليوس أكويميتوس

«**باسيليوس** الذي لاينام أبداً» ، هذا هو الاسم الذي أُطْلِقَ على جستينيان . بالرغم من كل الأخطاء التي ارتكبها إزاء الكنيسة ، كان امبراطوراً عظيماً ، لم يعرف معنى الكلل في نشاطه . ففي الغرب ، تمكن من استعادة جزء كبير من مقاطعات الامبراطورية الغربية ، بينما اضطر في الشرق على الاقتصار على الحرب الدفاعية . خاض مع الفرس حرباً دامت طيلة فترة حياته عملياً . الحقيقة ان الملك الفارسي **أنوشروان** عقد معاهدة سلم «أبدية» مع **بيزنطة** عام ٥٣٢ ، لكنَّ نار الحرب أُضرمت مجدداً عام ٥٤٠ . واحتلَّ الفرس **انطاكية** ، فذبحوا

السكان وهدموا المدينة . حاصروا إديسا عام ٥٤٤ ، لكنهم لم يتمكنوا من احتلالها . وعقد الطرفان اللذان أنهكتهما الحرب صلحاً عام ٥٦٢ . أضاف جستينيان فقرة إلى المعاهدة طالب فيها بالتسامح الديني التام في المملكة الفارسية مع المسيحيين . وتمَّ قبول هذا الشرط مع التحفظ على محاولة المسيحيين هداية معتنقي الزردشتية . كان المعنيون بالفقرة هم أتباع الكنيسة الجامعة ؛ لأن النساطرة حظيوا أصلاً برعاية الملك الفارسي .

ظهر السلافيون آنذاك على التخوم الشمالية للإمبراطورية . هاجموا إيليريا بضع مرات عام ٥٥٠ ، ووصلوا إلى سالونيكي . وافق جستينيان على استيطان قبيلة الأنتيين السلافية قرب مصب الدانوب ليلعبوا دور «حلفاء» **بيزنطة** . كما هاجم الهون أيضاً الإمبراطورية ، ووصلوا عام ٥٥٨ إلى أسوار القسطنطينية بقيادة **زابرغان** .

وجَّه جستينيان في سياسته الداخلية الضربة الأخيرة للوثنية التي كانت لاتزال تعشعش في أرجاء الامبراطورية . فَتَحْتَ غطاء الفلسفة الأفلاطونية المحدثة استمرت الديانة الهلنستية القديمة . أُغلقت المدارس الوثنية ، واضطر الأفلاطونيون المحدثون للإختفاء في أوساط المسيحيين . كما اضُطهدَ المانويون والسامارتيانيون (أدى تدمير معابد السامارتيانيين إلى قيام ثورة عام ٥٢٩ ، أخمدتها الجيوش الامبراطورية بصورة دموية) .

كان جستينيان بالإضافة الى ذلك من البناة العظماء . فأثناء انتفاضة «الزرق» و «الخضر» تعرضت باسيليقا الحكمة المقدسة الذائعة الصيت لبعض الأضرار . وأمر الامبراطور بإعادة بنائها ، حيث استمر العمل فيها خمسة أعوام . وأضحى المعبد تحفة معمارية حقيقية . ولّما دخلها جستينيان بعد إعادة بنائها صرخ قائلاً «تفوقت عليك ياسليمان !» .

حصلت إيطاليا بعد انتشالها من أيدي القوط علىتشريعها الخاص المعروف بإسم براغماتيك . وقد نصَّ على مشاركة الأساقفة في إدارة أمور الدولة . فكان لهم منذ ذلك الحين أن يساهموا في انتخاب مسؤولي المقاطعات والمدن . أما الدافع إلى ذلك ، فكان بالإضافة إلى مشاعر الامبراطور الدينية الصادقة بلا شك ، متمثلاً في قدرة الأساقفة القائمين على إدارة الممتلكات الكنسية الضخمة على المحافظة على هيبتهم ومساعدة السكان المهددين في أزمة الحرب والقلاقل الإجتماعية . وضع جستينيان بإقراره لهذا الوضع أسس الدولة الكنسية المقبلة . لاشك بأنَّ مثل هذه العلاقة الوثيقة بين السلطة الكنسية والإدارة الحكومية لم تكن ظاهرة صحية ؛ فمن خلال تدخل الأساقفة في شؤون الدولة ، تمَّ تخويل الامبراطور وموظفيه بالتدخل في شؤون الكنيسة . ولكن لابد من الأخذ بعين الإعتبار أن الأوضاع كانت استثنائية . إذ لم يكن بديل عن المنظمة الكنسية للمحافظة على مكتسبات **روما** الحضارية والثقافية ، ضمن إطار الدولة التي سحقتها ضربات البرابرة . تلاشت الإمبراطورية الغربية ، لكنَّ الكنيسة احتضنت مجمل الثراء الروحي الروماني . وفي هذا الصدد يقول **داوصن** :

«ترك انهيار النظام السياسي للإمبراطورية الرومانية فراغاً هائلاً ، عجز أي من ملوك أو قادة البرابرة عن ملئه ؛ فملأته الكنيسة التي لعبت دور معلّم ومشرّع الشعوب الجديدة» .

أدرك جستينيان الذي أخضع الكنيسة في الشرق لإرادته ، أنه لابدَّ وأن تتخذ الأمور في الغرب هذا المنحى .

تأثر جستينيان في الأشهر الأخيرة من حياته بأسقف Joppa الذي نادى بآراء مناهضة للمونوفيزية . فأصدر بنتيجة ذلك مرسوما أثار معارضة حادة من قبل بطريركي القسطنطينية و**انطاكية** . ولاشك بأنهما كانا سيتحملان نتائج معارضتهما لولا وفاة جستينيان عام ٥٦٥ . كانت **تيودورا** قد توفيت قبله عام ٥٤٨ ، لكن نفوذها ظلَّ قائماً . ولذلك تولى العرش مرشحها جستين الثاني رئيس البلاط ، ابن شقيقة جستينيان المتزوج من إبنة شقيقة **تيودورا** .

ـ الخلافة بعد فيجيليوس

انْتُخِبَ السفير البابوي السابق في القسطنطينية **بيلاجيوس** خليفة للبابا فيجيليوس . الحقيقة أن **بيلاجيوس** كان من كبار المناهضين لمرسوم «الفقرات الثلاث» ولهذا السبب هاجم في مقالاته البابا السابق ، ولكنه أبدى استعداداً للدفاع عن المرسوم بعد انتخابه . وقد برر موقفه بقوله : «ألم تكن الغالبية التي أعماها الجهل تعارض الحقيقة في هذه القضية ؟ . . . لكنَّ الله برحمته الواسعة جاء لإنقاذ كنيسته . . . عدلوا عن آرائهم . . . ونادوا بما حاربوه من قبل . فهل أعارض بمفردي ، أنا الشماس البسيط ، الحقيقة التي عاد الآخرون إليها ؟ أقادرٌ انا على التذرع بالجهل ، وقد تكشفت الحقيقة أمامي ساطعة ؟» .

بالرغم مما تضمنته هذه الكلمات من تواضع ، فإن الأوضاع لم تستتب ببساطة . لأن المؤلفين الثلاثة الذين أدينت فقرات من مؤلفاتهم كانوا في نظر الغرب بمثابة الرمز لمجمع خلقيدونيا . وإذا أمكن استغلال إدانة الأفكار النسطورية في تهدئة العلاقات الكنسية في الشرق ، فإن الإدانة أثارت في الغرب المعارضة والإحتجاج ، وخاصة بسبب عدم الثقة بالإمبراطور البيزنطي . كما هي الأحوال دوماً ، تمَّ التنازع على أسماء الناس ، وليس على آرائهم الحقيقية التي لايشك بأن معظم الذين تجادلوا حولها لم يكونوا على إطلاع حسن عليها . ومن وجهة النظر هذه كان بيلاجيوس محقاً «فالجهل أعمى الغالبية» .

لم يُجْدِ نفعاً تبرير البابا الذي أدلى في حفل سيامته ، والذي صرَّح فيه بأنه مع الإعتراف بكافة المجامع المسكونية ، وأنه يعتبر جميع الذين يعترفون بتلك المجامع من الكاثوليك الحقيقيين ، «وعلى نحو خاص الأسقفين المبجلين **تيودوريت** وإيباس» . وبدون جدوى أيضاً وقف بعد بضعة أيام على منبر باسيليقا القديس بطرس وأقسم على نحو احتفالي بانه لن يخون

العقيدة أبداً ، ففي تسكانيا قام عدد من الأساقفة بشطب إسمه من الصلوات ، وحدث إنشقاق فعلي في ميلانو ؛ وذهب **باولين** أسقف **أكويليا** إلى أبعد من ذلك ، لأنه لم يتوقف عند قطع العلاقات مع روما ، بل لقب نفسه **ببطريك إستريا وفينيسيا** المستقل .

بذل بيلاجيوس جهوداً حثيثة لإزالة هذا التمزق . وَكُتِبَ له التوفيق أخيراً في توحيد إيطاليا ، باستثناء ميلانو واكويليا اللتين بقيتا منشقتين . توفي البابا عام ٥٦١ مخلفاً ذكرى رجل حارب **السيمونية** (ظاهرة شراء المناصب الكنسية بالمال) بضراوة .

جاء بعده البابا **يوحنا** الثالث . ومرّت بضعة أشهر قبل أن يصادق الامبراطور جستينيان على انتخابه ، إذ أنه احتفظ لنفسه بحق المصادقة على الاختيار . اهتم **يوحنا** الثالث في المقام الأول بإعادة بناء **روما** وترميمها . لكنّ كارثة جديدة حلت بإيطاليا وأوقفت اعماله . تمثلّت هذه المرة في الغزو **اللمباردي** .

ـ الأفاريون واللمبارد

اجتاحت قبائل **تو ـــ كيو** التركية في أواسط القرن السادس منغوليا التي حكمتها قبيلة **زدان ـــ زوان** المنغولية . واستولى الخان **بومين** على السلطة العليا في البلاد . انقسمت الامبراطورية التركية بعد موته إلى إمارتين : شرقية عاصمتها **كراكورم** ، وغربية . . احتك الترك الغربيون مع الهون الذين هزموا الفرس قبل قرن من الزمن كما ذكرنا . أما الآن ، فقد تحالف الملك الفارسي **كسرى** مع الترك لتوجيه ضربة للهون (عام ٥٦٥) . تعرَّض الهون لهزيمة نكراء ، وفرّت فلولهم نحو الغرب ، حيث عُرفوا بالأفاريين .

هاجم الأفاريون المملكة الفرنكونية من قبل ، لكنهم هُزموا عام ٥٦١ على صفاف نهر **لابا** . وبعد أن هزموا أخيراً على يد الترك ، أصبحوا «حلفاء» للإمبراطورية واستقروا على ضفاف نهر الدانوب . وحاولوا مجدداً مهاجمة الفرنكونيين عام ٥٦٨ وأحرزوا بعض الإنتصارات ، لابل أرغموا الفرنكونيين على دفع الجزية . تحالف الخان الأفاري بايان عام ٥٦٧ مع الجرمان **اللمبارديين** ضد الجرمان **الجيبيديين** ، فقضى الأفاريون واللمبارديون على الجيبيديين ، ثم احتلَّ الأفاريون الأرض التي استوطنها الجيبيديون (هنغاريا الحالية) . اما اللمبارديون فقد استغلوا ضعف الامبراطورية الرومانية بعد موت جستينيان وزحفوا على إيطاليا ، ويرجح ان يكون الدافع إلى ذلك هو الإبتعاد عن الحلفاء الخطرين .

زحف ملك اللمبارديين ألبوين عام ٥٦٨ على رأس سيل من مقاتليه على المنبسط الباداني . فسقطت **فيسينزا** ، و **فيرونا** ، و **ميلانو** . بينما صمدت **بافيا** ثلاثة أعوام ، ولما سقطت عام ٥٧٢ أصبحت عاصمة ألبوين . وخلال أربعة أعوام فقط ، سقطت إيطاليا

الشمالية كلّها في أيدي اللمبارديين ، بدءاً من جبال الألب حتى الجبال الأبينية . وقد كتب **غريغوري** الأول بعد فترة وجيزة :

«مرة أخرى فرغت المدن من السكان ، وَدُمِّرَتْ القلاع ، وأحرقت الكنائس ، وهُدمت الأديرة ؛ لم يبق أحد في الريف لزراعة الأرض ، واستحالت الأرض الزراعية بوراً ، فرَّ أصحابها ، وأضحت الأماكن التي سكنها الناس من قبل مرتعاً للحيوانات البرية» .

تعرضت الكنيسة مجدداً لإضطهادات عنيفة ، لأن معظم الغزاة كانوا من الوثنيين أو الأريانيين ، اختفت أبرشيات كاملة من الوجود ، وَقُتِلَ رجال سلك الاكليروس . قام الامبراطور البيزنطي بعدة محاولات لكسر شوكة اللمبارديين ، ولكن دون جدوى . كما عجزت حملات الفرنكونيين التي شُنَّت بتحريض من الامبراطور على محتلي إيطاليا ، عن تحقيق شيء ملموس .

اقتصر الحدث الإيجابي الوحيد في تلك الفترة المأساوية على عودة ميلانو إلى الوحدة الكنسية عام ٥٧٤ ، بينما ظلّت أكويليا منشقة . حاصر اللمبارديون روما عام ٥٧٥ في عهد البابا **بنديكت الأول** الذي خلف **يوحنا** الثالث . وتربع **بيلاجيوس الثاني** القوطي الأصل على العرش البابوي عام ٥٧٩ أثناء الحصار .

لم يَشعَ البابا الجديد للحصول على مصادقة الامبراطور على انتخابه . بدأ حالاً بالتفاوض مع المحاصرين ، وأقنعهم بقوة الذهب بفك الحصار . كما حاول أن يضمن لإيطاليا مساعدة الفرنكونيين .

بعد فيضان التيبر عام ٥٨٩ انتشر الوباء في روما . توفي البابا عام ٥٩٠ ، وكان من أوائل الضحايا . خلفه الشماس **غريغوري** ، الذي سيعرف بإسم **غريغوري** الكبير فيما بعد ، وهو أحد اعظم الباباوات في ذلك العصر إلى جانب **ليون الكبير** . فهو الذي أنقذ الكنيسة وجعلها قادرة على القيام بمهامها في الأزمنة الحديثة .

انحدر **غريغوري** من أسرة رومانية عريقة ، انتمى إليها البابا **فيليكسينوس الثالث** أيضاً ، وكذلك **أغابيت** . ويحتمل أن يكون من احفاد فيليكسينوس الثالث المباشرين ، لأن الأخير كان متزوجاً قبل أن ينتخب لمنصب البابا .

ـ خلفاء جستنيان

كان جستين **الثاني** رجلاً ضعيفاً حكمت عنه زوجته عملياً .

بدأت الحدود الشمالية للإمبراطورية في عهده تتهشم بصورة تدعو للقلق تحت تأثير

ضغط الحشود السلافية الزاحفة نحو الجنوب . كتب **ليخ سبلافينسكي** قائلاً :

«يجب البحث عن الموطن الأول للسلافيين في الأراضي الواقعة مابين مواطن الجرمان والبلطيين . وبما ان العلم يؤكد على أن المواطن الأولية للجرمان تقع على **المجرى** الأسفل لنهر **لابا** في **يوتلانديا** واسكندنافيا الجنوبية ، والمواطن البلطية القديمة تقع في المناطق مابين وادي نهر **النيمن** ونهر **أوكا** ؛ تكون منطقة وادي كل من نهري **أودرا** و**فيسلا** موقعاً لمواطن السلافين القدماء» .

استوطنت القبائل السلافية هناك قبل قرون من ذلك الحين . مرّت القبائل الجرمانية في تجوالها عبر هذه المنطقة كالسهم عبر كدس من القش ، وكذلك عَبَرها الهون والأفاريون .

يُعتقد ان السلافيين عاشوا في مناطق شاسعة بكثافة سكانية منخفضة ، تربطهم ببعضهم علاقات قبلية دون أن تبني تجمعات ذات طابع دولي . ودفع مرور شعوب أخرى عبر المنطقة السلافيين في مرحلة لاحقة لإقامة علاقات على مستوى أعلى لأسباب دفاعية . ويرجح أن تكون هذه الهجرات قد دفعت السكان السلافيين لبدء زحفهم الكبير .

زحف السلافيون في إتجاهات ثلاثة : الشرق ، والغرب ، والجنوب . وكانت حركتهم نحو الغرب هي الأسرع . بلغ السلافيون خلال القرنين الخامس والسادس ضفاف نهر لابا ، وفي القرن السابع غطت جحافلهم **مكليمبورغيا** . بدأت فيما بعد هجرة السلافيين الجماعية نحو الجنوب بإتجاه شبه جزيرة البلقان . وقد ساروا على طريقين : على طول نهر الدنيبر ، خارج قوس جبال الكاربات نحو مصب نهر الدانوب ؛ وعبر البوابة المورافية . ويعود تاريخ المستوطنة السلافية الأولى في **مورافيا** إلى اوخر القرن الخامس .

بعد توجه اللمبارديين إلى إيطاليا ، حدثت «فجوة ديمغرافية» هائلة في المناطق التي شغلوها من قبل ، عجز الأفاريون عن ملئها ؛ فبدأت تغمرها حشود السلافيين . تقابل السلاف الغربيون والأفاريون ، وأسفرت هذه اللقاءات عن تحالفات كان الهدف منها اقتحام حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية . لكنَّ هذه اللقاءات لم تخلُ من النزاعات أيضاً .

دخل جستين الثاني في حرب جديدة مع الفرس بدلاً من حماية الحدود على نهر الدانوب . بدأت الحرب بالمساعدة التي قدَّمها للإنتفاضة الشعبية الأرمنية عام ٥٧٢ .وأثبت الفرس في هذه الحرب بأنهم الأقوى ، فاحتلَّ ملكهم **كسرى** القلعة البيزنطية **دارا** (التي كانت تدافع عن حدود الإمبراطورية في بلاد الرافدين) . واقتحم **قبدوقية** عام ٥٧٥ ، وأضرم النار في **سيباستي** ، لكنه هُزِمَ فيما بعد في **ميليتين** .

قاد الجيوش الامبراطورية في هذه الحرب القائد البارع **تيبيريوس** . وأوكل إليه جستين الثاني مهمة حماية الحدود الشرقية للبلاد ، كما منحه لقب **سيزار** . بينما ركز هو إهتمامه على الأمور الكنسية ومثل سلفه تأثر بزوجته التي حاولت دعم المونوفيزية بشتى الوسائل . ومن

هنا كانت سياسة جستين الثاني مهزوزة وغير ثابتة . فبعد توليه العرش مباشرة دعا أتباع الكنيسة الجامعة والمونوفيزيين إلى اجتماع مشترك في القسطنطينية (عام ٥٦٦) . لم يسفر المؤتمر عن أية نتائج ، بالرغم من ان اجتماعاته امتدت على مدى عام كامل . لم يشعر جستين بالضيق من جراء ذلك ، وقام باستدعاء المونوفيزيين وحدهم في المرة الثانية إلى اجتماع في **كالينيك** عام ٥٦٧ .

وعرض ممثل الامبراطور تنازلات بعيدة المدى على المؤتمرين ، كانت من الناحية العملية بمثابة عودة إلى الوثيقة الآنفة الذكر والمعروفة بإسم **الهينوتيكون** لكنَّ الرهبان المونوفيزيين المتعصبين رفضوا مقترحات جستين الثاني ، وقاطعوا الإجتماع . و في هذه المرة انتقل الامبراطور إلى أسلوب التهديد ، والضغط ، والاضطهاد . فأغلقت الكنائس المونوفيزية في القسطنطينية ، واعْتُقِلَ رجال الدين . لكنَّ المونوفيزيين في **ومصر** وسورية لم يفكروا بالإستسلام أبداً .

أصيب جستين الثاني في هذه الأثناء بمرض عقلي . واستغلت إحدى لحظات استعادة الامبراطور لوعيه لإقناعه بالتنازل عن العرش **لتبيريوس** . تولى تيبيريوس أمور السلطة ، موكلاً قيادة الجيش للقبدوقي **موريسيوس** . توفي جستين الثاني عام ٥٧٨ ، ورحل تيبيريوس بعده بأربعة أعوام ، فتربع على العرش بعده **موريسيوس** .

كان موريسيوس رجلاً طموحاً وابتسم له الحظ . تفجرت الثورة في بلاد فارس ، وقتل المتمردون الملك هرمز الرابع . فلجأ ابنه كسرى الثاني المهدد بالقتل أيضاً إلى طلب العون من الامبراطورية البيزنطية ، عارضاً لقاء ذلك شروطاً ملائمة للسلم والتحالف . تمَّ قبول العرض ، ووجهت القوى المشتركة الامبراطورية و الأرمنية الضربة القاضية للمتمردين . ثم عقدت معاهدة سلام عام ٥٩١ ، تنازل كسرى الثاني بموجبها للإمبراطورية عن أرمينيا حتى بحيرة وان .

صبَّ موريسيوس اهتمامه على تنظيم الدولة بعد تحرره من مشكلة الحرب في الشرق . أما في الشطر الغربي من الامبراطورية فقد نشأت **اكسرخيتان** (تمتع الاكسرخس بسلطة مشابهة لسطلة القياصرة السابقين من الناحية الإدارية و العسكرية) ، هما : **رافينا و قرطاجنة** .

قرر الامبراطور أخيراً تصفية الحسابات مع اللمبارديين . ولتحقيق ذلك ، تحالف مع الفرنكونيين . لقد أشرنا إلى أن **كلودويج** ملك الفرنكونيين تقبل سرَّ المعمودية على أيدي ممثلي الكنيسة الجامعة ، وهذا ماأكسبه ودَّ وتعاطف السكان السلتيين ـ اللاتين في غالة ،والسلطة الكنسية الموجودة في **غالة** ، وتمكن بفضل ذلك من الاستمرار في توسيع رقعة دولته . فاحتل عام ٥٠٧ **أكويتانيا** (الجزء الجنوبي الغربي من غالة) ، باستثناء **بروفانسيا** ، وانتزع هذه المقاطعة من أيدي القوط الغربيين . وحصل على لقب فخري من الامبراطور ، فأصبح «قنصل

الامبراطورية» . دارت حروب بين أبنائه بعد وفاته ، وفي نهاية المطاف أصبح **كلوتار** عام ٥٥٨ الحاكم الوحيد للبلاد الفرنكونية . استغَّل قبل ذلك الحين التعاطف الذي أبداه البرغند الكاثوليك نحو الأريانيين ، فهاجم وضمَّ **برغنديا** إلى دولته . كما استولى على **بروفانسيا** وانتشلها من أيدي القوط الشرقيين ، ومن ثمَّ حثَّ الخطى نحو الشرق . اجتاز الفرنكونيون نهر **الرين** ، واجتاحوا مملكة التورينغيين ، ووصلوا إلى حدود الامبراطورية .

أصبح الفرنكونيون من أقوى الدول الجرمانية ، وكان رعايا الدولة من أتباع الكنيسة الجامعة . ولكنَّ أبناء **كلوتار** تقاسموا المملكة فيما بينهم بعد وفاته عام ٥٦١ . فظهرت إلى حيزِّ الوجود ثلاث دول فرنكونية هي : ١ ـ **أوسترازيا** ، الجزء الشمالي الشرقي من **غالة** مع **بلجيكا** الحالية ، والمنطقة الواقعة على نهر الرين ، و **توزينغيا** ، وكانت عاصمتها **ميتز** ، وقد حكمها **سيجيبرت** . ٢ ـ **نيوستريا** ، الجزء الشمالي الغربي من غالة ، وحكمها **شيلبيريك** . ٣ ـ **برغنديا** ، التي حكمها **جونترام** . بينما ظلَّت أكويتانيا مقاطعة مشتركة ، للحكام الثلاثة حقوق فيها .

كان سيجيبرت متزوجاً من ابنة ملك القوط الشرقيين **برونهيلدا** ، و **شيلبيريك** من شقيقتها غالسوينتا . قتل شيلبيريك زوجته ، وتزوج من إحدى سراريه المدعوة **فريدغوندا** . فأقسمت برونهيلدا أن تنتقم لشقيقتها ، وأثارت حرباً بين الأخوين سيجيبرت وشيلبيريك . انتصر سيجيبرت ، لكنه قُتل في المعركة . فورثت برونهيلدا وابنها **شيلدبرت** عرش أوسترازيا ، ومعها رغبتها غير المشبعة في الإنتقام . كان شيلبيريك حاكماًدموياً وعنيداً لايستسلم للهزيمة . وقد أطلق عليه **غريغوري** من تور اسم «نيرون وهيرودس» حقبته . وكتب **داوصن** :

ظلَّ الملوك الميروفينيون (انتمى حكام فرنكونيا إلى ميروفيوس ، ومن هنا اسم الأسرة الحاكمة) برابرة بالرغم من اعتناقهم المسيحية . والأهم من ذلك ، أنهم بقدر ما ابتعدوا عن التقاليد القبلية القديمة والملكية الجرمانية ، أصبحوا أكثر وحشية ، وغدراً ، وأكثر قابلية للإرتشاء . أما الكنيسة ، فقد وقعت في حالة تبعية أكبر لأولئك الهمج» .

حققت برونهيلدا غايتها في نهاية المطاف ، وقُتل شيلبيريك . تمكن ابنها شيلدبرت من توحيد تسعة أعشار مملكة **كلوتار** السابقة وإخضاعها لسلطته ، لأن جونترام الذي لم ينجب وريثاً للعرش ، سلَّمه برغنديا وأكويتانيا بعد موته . **أما لوتار** ابن فريدغوندا فقد ظلَّ يحكم مقاطعة صغيرة قرب روين .

بعد موت شيلدبرت جُزئت الدولة وتقاسمها أبناؤه : أخذ ثيودبرت أوسترازيا ، وأخذ تيودوريك برغنديا . توفيت فريدغوندا عام ٥٩١ ، لكنَّ برونهيلدا طاردت إبنها بما تَجمَّع في قلبها من حقد . وبالرغم من ذلك وجدت نفسها فيما بعد في وضع مأساوي ، حيث بدأ

أحفادها حرباً فيما بينهم . انتصر تيودوريك ووحد فرنكونياو وتوفي عام ٦١٣ . حاولت برونهيلدا أن ترفع على العرش حفيدها الأصغر (ابن تيودوريك) سيجيبرت ، لكن أشراف الفرنكونيين بقيادة بيبين وأرنولف أسقف ميتز عارضوا المشروع بسبب ماشعروا به من ضيق من الملكة الدموية . فاستدعي **لوتار** ليتربع على العرش الفرنكوني . ووقعت برونهيلدا بين يدي ابن فريدغوندا الذي أذاقها الويلات خلال ثلاثة أيام قبل أن يقرر قتلها في نهاية المطاف .

استجاب **لوتار** لمطالب الأشراف الذين أوصلوه إلى سدة الحكم ، فاقتطع أوسترازيا من مملكته ليجعل منها مملكة مستقلة تولى حكمها ابنه داغوبرت . وبعد موت **لوتار** عام ٦٢٩ أصبح داغوبرت ملك فرنكونيا ، بينما استولى بيبين على السطلة في أوسترازيا ، حيث كان يحتل منصب القهرمان Majoordomo في البلاط الملكي .

لقد استبقنا الأحداث بعض الشيء : ففي عام ٥٦٦ مُنيَ سيجيبرت بهزيمة على يد الأفاريين وأُرغم على دفع غرامة . وليتحرر من هذه التبعية ، تحالف مع الامبراطورية البيزنطية . وأعطى هذا التحالف ثماره عام ٦٠٠ ، حيث اصطدم موريسيوس مع الأفاريين وشتتهم على ضفاف نهر سيزا ، وسقط في المعركة مايزيد عن ثلاثين ألفاً من الأفاريين وحلفائهم السلاف .

لكنَّ نجاحات موريسيوس العسكرية توقفت بسبب تمرد الجيوش المحاربة في بانونيا ضد الأفاريين ، والثورة التي تفجرت عام ٦٠٢ في القسطنطينية .

تلقى أسقف **روما** نبأ التمرد معلقاً عليه بالكلمات التالية :

«المجد لله في الكلي ، الذي يغير الأزمنة وينقل الممالك كما يقول الكتاب . . . بمشيئة الله الكلي القدرة غير المُدْرَكَةِ ، تتبدل السلطات في الحياة الدنيا ، وبغتة ، بينما يستحق الكثيرون العقاب على آثامهم ، يترقى أحدهم ليضغط نيره الثقيل أعناق رعاياه ، الأمر الذي شهدناه عبر زمن طويل من معاناتنا» .

الفصل السابع

هداية الجرمان وإنقاذ شمولية الكنيسة

ـ القديس عريغوري الكبير

عندما كتب البابا **غريغوري** الأول هذه الكلمات إلى القائد **فوكاس** Focas الذي نادت به الجيوش المتمردة امبراطوراً ، لم يكن يعرف بطبيعة الحال شيئاً عن الموت الوحشي الذي لقيه موريسيوس وابناءه على يده ، أو عمَّن يكون الامبراطور الجديد أصلاً .

وُلِدَ **غريغوري** عام ٥٤٠ ، وفي عام ٥٧٢ أصبح والي Preefect **روما** . ثمَّ استقال من هذه الوظيفة ليعتكف في الدير . وموَّل بناء عدد من الأديرة من الأموال التي حصل عليها من جراء بيع ممتلكاته ، ومنها دير القديس **أندري في كويليو** Coelio في روما ، حيث انتسب إليه شخصياً .

لم تبرح الرغبة في الهدوء والزهد والتأمل قلب **غريغوري** . لكنَّ بيلاجيوس الثاني أوعز إليه عام ٥٧٩ بمغادرة الدير ، وأرسله سفيراً له إلى القسطنطينية . ظلَّ **غريغوري** في العاصمة حتى عام ٥٨٥ ، واضطر بعد عودته للبقاء في الخدمة البابوية . أما بعد موت بيلاجيوس ، فقد انتخبت لمنصب البابا بصيحة واحدة . كان هذا بمثابة صدمة **لغريغوري** . حاول التملص بشتى الوسائل من هذا الإختيار ، ولكن دون جدوى . ولما خضع للأمر الواقع في نهاية المطاف وَقَبِلَ بإنتخابه ، كتب إلى أصدقائه قائلاً : «تحت ستار وظيفة الأسقف ، عدت إلى الحياة الدنيوية التي أخدم فيها كلَّ هذه المشاغل الأرضية ، والتي ـ على ماأذكر ـ لم أخدمها قط خلال حياتي العلمانية . فقدت المباهج السامية التي كانت تتدفق من سكينتي» (من رسالة

إلى ثيوكريستا شقيقة الامبراطور) . «بسبب آثامي ، أُلقِي بي في دوامة الأشغال ، وكأنني في المنفى ، في منأى عن وجه الرب .» (من رسالة إلى نرسيس Narsis) .

بالرغم من موقفه العدائي من الحياة الفاعلة والنشطة ، فقد أصبح رمزاً للحيوية والنشاط عندما وُضع على المحك . حيث تطلبت المرحلة ذلك الدور الفاعل . فمرة أخرى ، وكما حدث مراراً قبل ذلك . اقتربت اللحظة الحاسمة ـ أن تكون أو لاتكون ـ في حياة الكنيسة .

كانت المسيحية الديانة الرسمية في الامبراطورية الرومانية منذ مايقارب الثلاثمئة عام . واعتادت أن تربط مصيرها بمصير الامبراطورية . بينما أدى مجيء الجرمان إلى تغيير الأوضاع . لأنهم طيلة زحفهم البطيء ودخولهم في بنية الامبراطورية الرومانية اعتبروا اعتناق المسيحية مماثلاً للحصول على حق المواطنة . ولمّا كانت الامبراطورية الرومانية متميزة دوماً بطابعها اللاقومي ، لم تُثِرْ هذه العملية أية شكوك .

لكنَّ الأحداث اتخذت مجرى جديداً . فقد تمزقت الامبراطورية الغربية ، وحلَّت محلَّها الدويلات الجرمانية واحدة بعد أخرى . وأضحت رعاية **بيزنطة** **لروما** مجرد وهم . ولم يعد ضم المقاطعات الغربية إلى حدود الامبراطورية ممكناً .

أما في الشرق ، فقد انغلقت الامبراطورية على نفسها ، وتحولت المسيحية البيزنطية شيئاً فشيئاً إلى ديانة الدولة الداخلية ، ذات الطابع القومي اليوناني ـ السوري ـ الأرمني ، وفقدت شموليتها .

تركت القسطنطينية **لروما** دور «جزيرة» ديانة الدولة في بحر الهمجية والوثنية . وتعذَّر على **روما** قبول هذا الدور . كما رفضت ربط نشاط العاصمة الرسولية بالأوضاع السياسية ، حتى في الوقت الذي تمَّ الإلتزام نظرياً برؤية امبراطورية مسيحية واحدة . ولفتت حقيقة ابتعاد «الامبراطورية الرومانية» عن **روما** والتوقف عن حمايتها ، أنظار البابوية إلى مهام الشمولية . فحتى لو رفض الجرمان الإعتراف بسلطة الامبراطور عليهم ، توَّجب السعي من أجل دخول ممالكهم إلى أحضان الكنيسة . ليس كجزء متمم للامبراطورية ، وإنما كجزء مستقل وجديد كلياً .

فدعت الضرورة لوجود مفكر كبير ، لوجود رجل مثل **غريغوري** : الناشئ في التأمل ، ليفهم نداء الزمن . وقد قال **يوحنا** الثالث والعشرون في حالة مشابهة أن «صدى الأزمنة هو صوت الله» .

وجدت **روما** نفسها معتمدة كلياً على البرابرة . لكنَّ البابا أدرك أن العالم بأسره ، وليست الامبراطورية الرومانية وحدها ، هو مسرح نشاط المسيحية . فكان لابد من تحقيق ثورة عظيمة على الصعيد الفكري ، وكان **غريغوري** الرجل المناسب والقادر على القيام بمثل هذه الثورة .

أدرك **غريغوري** أيضاً ضرورة خضوع الكنيسة لعملية تجدد أخلاقي عظيمة ، إن هي رغبت في تنفيذ هذه المهمة الجديدة والمختلفة كلياً عن المهام المنفذة حتى ذلك الحين . فالحروب ، وغزوات البرابرة ، والنزاعات العقائدية ، وغياب سيادة القانون والأمن ، أدت إلى تدني مستوى الإنضباط الكنيسي وانحطاط المستوى الأخلاقي لرجال الدين .

استوجب الأمر وضع حلٍ لهذه المعضلة . وتكمن عظمة **غريغوري** في فهمه واستيعابه لهاتين المهمتين ، وربطهما ببعضهما البعض ، وتكريس حياته لإنجازهما .

تفككت مملكة اللمبارديين إلى إمارات صغيرة . ولمّا حاصر **أريولف** من سبوليتو Spoleto روما عام ٥٩٢ . اهتم **غريغوري** بتنظيم أمور الدفاع عن المدينة من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تباحث مع الاكسرخس الامبراطوري **رومانوس** لأخذ موافقته على التفاوض المباشر مع أريولف . لم يحصل على هذه الموافقة ، لكن أريولف فكَّ الحصار عن المدينة . وبعد عام واحد زحف على **روما أغيلولف** Agilulf حاكم **بافيا** Pavia . وفي هذه المرة باشر **غريغوري** مفاوضاته مع الملك اللمباردي دون أن يطلب موافقة الاكسرخس على ذلك ؛ وتمكن من اقناع أغيلولف بفك الحصار عن المدينة لقاء فدية تمَّ دفعها من أموال الكنيسة .

أسفرت هذه المفاوضات ثانية عن نتائج إيجابية . فقد كانت زوجة أغيلولف **ثيودوليندا** Theodolinda مسيحية بافارية ، ولها يعود الفضل في بعض النفوذ الذي تمتع به **غريغوري** لدى الحاكم اللمباردي . لكن قيام علاقة مع اللمبارديين لم يرضِ موريسيوس . مع ذلك فإن **غريغوري** عارض الامبراطور وخاطبه قائلاً :

«كنت سألتزم الصمت لو لم تتعمق عبودية بلادي يوماً بعد يوم . . . فإيطاليا ترزح تحت نير اللمبارديين . . . ليفكر حاكمي التقي بي كما يشاء ويحلو له ، أما في قضية أمن الجمهورية وإنقاذ إيطاليا ، فآمل ألا يصغي لأي كان ، وليكن الواقع مايوجهه وليس الكلام» .

نظر موريسيوس إلى اللمبارديين كغزاة ، وكان السلاح في نظره اللغة الوحيدة للتخاطب معهم . بينما كانت الشعوب الجرمانية بالنسبة للبابا تمثل مستقبل **أوروبا** . فعالج **غريغوري** الأمور من منظور الكنيسة وليس من منطلقات الامبراطورية . ولذلك لم يقتصر على إقامة علاقات حسنة مع اللمارديين اللذين شكّلوا خطراً يهدد إيطاليا بصورة مباشرة . ففي غالة نمت الدولة الفرنكونية ، وقام البابا بمراسلة حكامها دون أن يستثني برونهيلدا الدموية ذاتها .

مرّت الطريق إلى **بريطانيا** عبر بلاد الفرنكونيين . كان **غريغوري** لايزال راهباً في دير القديس **أندري** عندما شاهد في إحدى المرات عبيداً معروضين للبيع في سوق روما ، وبينهم ثلاثة صبية ذوي جمال رائع ؛ عيونهم زرقاء وشعرهم أشقر . سأل **غريغوري** البائع : «من أين

هم» ؟ فأجابه : من بريطانيا ، إنهم إنجليز ، فهتف **غريغوري** : إنهم ملائكة ، وليسوا إنجليزاً[1] .

بقيت ذكرى هذه الوجوه حيّة في ذاكرته لأعوام طويلة . فقد كان الصبية وثنيين وبجمال الملائكة ، وياله من أمر محزن ! بعد أن تولى العرش البابوي ، علم أن حاكم إحدى الدويلات الجرمانية السبع على الساحل الشرقي لبريطانيا ، وهو **إيثلبرت** Ethelberet ملك كنت Kent ، تزوج من **بيرتا** Berta حفيدة **كلودويج** الصغري . كانت الأميرة مسيحية من أتباع الكنيسة الجامعة ، وضمّت حاشيتها الأسقف **لويثارد** Luithand . قدّم له إيثلبرت كنيسة صغيرة قديمة في كانتربري ، : كُرِّسَتْ في حينه للقديس مارتن . وبذلك أتيحت الفرصة أمام المسيحية البريطانية التي اقتصرت آنذاك على الأقلية السلتية في ويلز وكورنواليا ، أن تبعث مجدداً في الممالك التي أسسها الجرمان الوافدون . وكتب البابا **غريغوري** إلى كل من الملكين ثيوديبرت وتيودوريك قائلاً : «علمنا أن قبيلة الإنجليز ترغب بحرارة في الهداية إلى الإيمان المسيحي بفضل النعمة الإلهية ، لكنَّ الأساقفة المحليين المجاورين يهملون رغبة الإنجليز ولايؤججونها بتشجيعهم» .

بعث البابا **غريغوري** عام ٥٩٦ مجموعة مؤلفة من أربعين مبشراً إلى بريطانيا برئاسة **أوغسطين** رئيس دير القديس آندري . وكانت النتائج التي أسفرت عنها أعمال البعثة مذهلة . ففي حزيران عام ٥٩٧ تقبل **ايثلبرت** وجميع أفراد حاشيته سرَّ المعمودية . وفي كانون الأول رُسِمَ أو غسطين رئيساً لأساقفة انجلترا ، وقَدَّم له الملك قصره الخاص في كانتربري (وهكذا نشأت أقدم عاصمة أسقفية إنجليزية) . وخضع في يوم عيد الميلاد مايزيد عن عشرة آلاف انجليزي لطقوس المعمودية .

اعتنقت بريطانيا بأكلمها المسيحية قبيل نهاية القرن السابع . ومنها ، بعد أعوام ، سينطلق البعث الديني والثقافي إلى القارة .

شعر **غريغوري** بدنوِّ هذا المستقبل المشرق ، وعمل من أجله ؛ علماً أن هذا الشيء لم يرضِ موريسيوس . لكنَّ البابا أهمل رغبة الامبراطور ، مع أنه ظلَّ يتقيد بمفردات البروتوكول البيزنطي الذي تعرف عليه السفير البابوي السابق أثناء إقامته في القسطنطينية ، عندما كان يخاطب الامبراطور .

تلازم الحرص على مستقبل العالم لدى **غريغوري** مع حرصه على الانسان . انتمى **غريغوري** لحقبته ، ولم يكن بطبيعة الحال قادراً أن يصبح خصماً لكل حرب وعدواً لكل عبودية . لكنَّه كما يقول **تشوي** J. Czuj «مدَّ يد العون للزوجين **سيرياك** **وجان** اليهوديين ،

---

(١) ـ لعبة ألفاظ باللغة الإنكليزية ، فالملاك : Angel والإنكليز : Angles .

اللذين عانيا من منغصات محيطهما ؛ ورعى الأرامل كاستيلا وتيودورا وغيرهن ؛ ودافع عن الكهنة الذين مورست عليهم ضغوط من رؤسائهم أو من السلطات المدنية ؛ أحاط فيليموت الضرير والفقير برعايته ؛ ساعد العبدة الفقيرة الراغبة في دخول الدير ؛ مدَّ يد العون للمدينين ، والمرضى ، والمسنين ؛ أحاط برعايته رئيس الدير المريض يوسيبيوس الذي عاداه محيطه بسبب ضلاله في أمور الدين . . أولى اهتماماً كبيراً لقضية الجور الذي تعرض له الزراع ؛ حارب فرض الضرائب العالية وجباية الرسوم الأخرى ؛ وأدان تجاوزات جباة الضرائب الظالمة للزراع» .

ومن ناحية ثانية مارس نشاطاً كبيراً في مجال رفع المستوى الأخلاقي لرجال الدين ، وبعث الحماس واللهفة للعمل الكهنوتي والرهباني والتبشيري ، ومحاربة السيمونية ، واستغلال المناصب للأغراض الشخصية ، والغطرسة والظلم ، وغياب أعمال الرحمة . وفي هذا الصدد كتب المؤلف السابق نفسه : «أدان وعاقب الأساقفة من أمثال أندري الثارنتي الذي أمر بجلد إحدى النساء ؛ **ويوحنا** أسقف القسطنطينية الذي أمر بجلد كاهنين ؛ وأدان أساقفة من أمثال ناتاليس Natalis السالونيكي **ويوحنا** اللاريسي ، ومكسيمليان السرقوصي ، وغيرهم . عاتبهم على اللجوء إلى الحرم الكنسي بصورة غير عادلة ، وإهانة المرؤوسين والتآمر والنميمة ، وعدم الإكتراث والعناية بالفقراء . . . وكتب في إدانته أسقف القسطنطينية «**نحن رعاة ولسنا مضطهدين . . . عليك بالإقناع ، والرجاء ، أما العقوبة فبصبر وعلم عظيمين إنه لأمر جديد وغيرمعقول فرض الإيمان بالسوط**» .

وضع **غريغوري** نصب عينيه إزالة آثار الإنشقاق الأكويلي ، وناشد في رسائله سيفير أسقف أكوليا للمثول أمام المحكمة الرومانية . لكنَّ سيفير Sewer وأنصاره استأنفوا الأمر ولجأوا للامبراطور متذرعين بأنه إذا ألغيت «البطريركية» الأكويلية ، سوف يُخْضِعُ الأساقفة الفرنكونيون الراغبون في توسيع مجال نفوذهم أساقفة المناطق الواقعة تحت «نير الإحتلال» اللمباردي لسلطتهم . ودفعت هذه الذريعة بالأمبراطور للوقوف إلى جانب المنشقين .

كانت أحوال الكنيسة في إيطاليا محزنة ، فقد اختفى مايقارب التسعين أبرشية من أصل المئتين الموجودة أصلاً . حيث دعت الضرورة لإلغاء الأبرشيات التي لم تجد من يرعاها ، وضمِّ مجموعات منها بعضها إلى بعض ، وإرسال مراقبين ، وتشكيل كنائس ، والسعي من أجل تأمين الكهنة . افتقرت الكنيسة إلى رجال مخلصين ، وغالباً ماتعرض سلك الاكليروس للفساد الأخلاقي . فكان لابد من مجهود يفوق طاقة الإنسان لوضع حد لكافة التجاوزات . تحاشى أحد الأساقفة التواجد في مقره ؛ ومارس آخر مهنة المحاماة بدل الإهتمام بأمور أبرشيته ، وارتكب غيره عدداً كبيراً من الأخطاء التي اعترف بها ، فَعُزِلَ من منصبه ، لكنه اقتحم مبنى الأبرشية كقاطع طريق بمساعدة القضاة المدنيين واستولى عنوة على الممتلكات الكنيسية ، طارداً خليفته بصورة وحشية كادت أن تودي بحياته . لم تكن مهمة **غريغوري** سهلة ! فقد

كان مرغماً شأنه شأن تلميذ القديس **بولس** ، على المطالبة المستمرة ، والتوبيخ ، واللوم «اكرز بالكلمة اعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب . وَبِّخْ، انْتَهِرْ عِظْ بكل أناة وتعليم» (تيموثاوس الثانية ٤ :٢) .

تطلبت الأديرة بذل جهد مماثل . فقد دُمّرَ القسم الأكبر منها ، وفرّ الرهبان واختفوا أو ضلّوا في عزلتهم . أضرم **زوتو** ZOTTO حاكم **بينيفنت** Benevent النيران في دير **مونتي كاسينو** . فأوصى **غريغوري** الرهبان المبعثرين بالتجمع مجدداً في الأديرة التي أخضعها لرعاية الأساقفة (رعاية وليس سلطة مطلقة) .

لم تكن العقائد الخاطئة أكبر الأخطار التي هددت الكنيسة في الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية (غالباً ماكانت هذه العقائد في طور التبلور) ، وإنما التفكك الداخلي . ولم يكن في وسع أحد التصدي له وخوض معركة ظافرة ضده ، إن لم يكن بعظمة وقداسة **غريغوري** . فأضحت قضية إعادة طابع القدسية للكهنوت من أهم مشاغل **غريغوري** ، وذلك بتحرير رجال الدين من الاهتمام الزائد بأمور الحياة الدنيا . وقد تألم شخصياً من «انغماسه في متاهات الحياة الدنيوية مرغماً من قبل حقبته البربرية» . كانت الأزمنة صعبة ، ولكنَّ الناس ، وكما يحدث غالباً في الأزمنة الصعبة ، استسلموا للإيقاع المحرور الذي فرضته الحياة ، وتحولوا إلى عبيد طيِّعين للهموم . وقد كتب **غريغوري** في مؤلفٍ ضمنه قواعد العمل الرعوي قائلاً : «ينسى الكثيرون من الكهنة أن مهمتهم هي الحرص على الأرواح ، فيركزون كامل جهدهم على القضايا الدنيوية ؛ ويشعرون بالسعادة عندما تتراكم فوق رؤوسهم ، بينما يصبحون عرضة لقلق محرور لدى غيابها . . . تكمن بهجتهم في كثرة المشاغل ، ويجدون القلق في عدم إقلاق الأمور الدنيوية لهم ، يبهرهم سقط المتاع في العالم ، ولايعرفون شيئاً عن القيم الداخلية . وهذا سبب خمول المؤمنين ؛ فكلما بحثوا عن السمو الروحي ، اصطدموا في طريقهم بأمثلة القسس الفاضحة» .

الأسقف وفقاً لنموذج **غريغوري** «يجب أن يكون طاهر الفكر ، عظيماً في نشاطه ، سرياً في الصمت ، نافعاً في الكلام ، معزياً للجميع ، مترفعاً على الكل بالتأمل ، مساوياً للأفضل في التواضع ، مفعماً باللهفة لمقاومة الشر ، غير مهمل للقضايا الداخلية من خلال الحرص على القضايا الخارجية ، ولكنه غير مهمل للأمور الخارجية أيضاً ، للإنغلاق في الداخلية وحدها .

هكذا كان **غريغوري** . فبالرغم من انشغاله بإنقاذ إيطاليا ، ثابر على بذل الجهود لعدم قطع الصلة بالكنيسة الشرقية . واحتج عام ٥٩٥ بعنف على قرار بطريرك القسطنطينية **يوحنا** الملقب بالصائم بإطلاق لقب «البطريرك المسكوني» على نفسه . وكتب غاضباً يقول : «لتكريم المنعم عليه بطرس أمير الرسل ، خصص المجمع الخلقيدوني المبجل هذا اللقب لأسقف

روما ، ولكنَّ أحداً من أساقفتها لم يقبل أبداً باستخدام هذا اللقب المتميز . . . لئلا يحرم الأساقفة الآخرين هذا الشرف الذي يستحقونه» .

لم يقتصر نشاط **غريغوري** الهادف لبعث الكنيسة على إيطاليا وحدها . بل شمل إفريقيا واسبانيا أيضاً من خلال الرسائل والمبعوثين . واجه الكثير من المتاعب والصعوبات من جانب الأسقفية الفرنكونية التي عجزت عن بلوغ المستوى الأخلاقي اللائق ، وكانت على علاقة تبعية مع حكامها الذين عينوا الأساقفة وفق رغباتهم .

وبالإضافة إلى هذا النشاط «الخارجي» ، وجد **غريغوري** الوقت الكافي الذي كرَّسه للعمل العلمي ، والرعوي ، واللاهوتي ، والليتورجي . فترك إلى جانب مؤلفه الموما إليه سابقاً مواعظ ورسائل متعددة . نظم الطقوس الكنسية ، وأدخل كتيِّب الصلوات في الاستخدام . ويرجح أن يكون هو مَنْ وضع أسس إقامة القداس الحالية . كما أدخل الترتيل الكنسي . وهو مَنْ وضع مايُعرف «بالترتيل الغريغوري» . وإذا لم يذع صيته كلاهوتي كبير (فهو لم يتعرف على إبداعات آباء الكنيسة الإغريق لضعف معرفته باللغة الإغريقية) ، فقد تمكن من إنجاز الكثير في مجال تطوير النظام الكنسي ، والتعاليم المتعلقة بالأسرار المقدسة ، والقداس ، والفضائل ، والأعمال الصالحة . صنفته الكنيسة في عداد آباء الكنيسة «القدماء» ودكاترتها[1] .

لم يكن عملاقاً بالمعنى الجسدي ، إذ ظلَّ مريضاً طيلة حياته . وكانت أعوامه الأخيرة سلسلة متواصلة من الآلام . وقد كتب عام ٥٩٩ «قلَّما تمكنت من مغادرة فراشي خلال الأشهر الأحد عشر الأخيرة ، وذلك جزاء آثامي . أعاني من أوجاع مرض النقرس ، وتعذبني

---

(١) ـ آباء الكنيسة هم الكتّاب الذين تقترن الكنيسة بدورهم في صياغة التعاليم المسيحية ومنحتهم هذا اللقب . وتُعد تعاليمهم أرثوزكسية (ليس بمعنى المعصومية التامة عن الخطأ ، وإنما بمعنى التوافق العام مع الكنيسة الأرثوزكسية) . يجب أن يتميزوا بالإضافة إلى ذلك بقداسة الحياة ، ويحظوا بتقبل الكنيسة وسمة «القِدم» . ويفهم «بالقدم» أنهم عاشوا في القرون الأولى للمسيحية . مُنح بعض آباء الكنيسة بالإضافة إلى ذلك لقب دكاترة الكنيسة . ودكاترة الكنيسة في الشرق هم : **أثناسيوس** ، **وباسيليوس** ، **وغريغوري** القزينزي ، **ويوحنا** الذهبي الفم ، وأفرام ، وكيرلس الأورشليمي ، وكيرلس الإسكندري ، **ويوحنا الدمشقي** ؛ وفي الغرب : **أيروزي** ، **وهيلاريوس** ، **وأوغسطين** ، **وهيرونيم** ، **وغريغوري** الكبير ، وبطرس الذهبي ، وليون الكبير ، وإيزيدور . وفي العصور اللاحقة منحت الكنيسة لقب دكتور لكل من : **توما الأكويني** ، **ويونافينتورا** ، **وأنسيلم** ، **وبرنارد** ، **وألفونس الليفوري** ، **وفرنسيس الأسيزي** ، **وبطرس** ، **ويوحنا** الصليبي ، وألبرت الكبير ، وروبرت ، وأنتوني باديفسكي ، ولورنس ، وهؤلاء هم دكاترة وليسوا من آباء الكنيسة . يقول J. Maritain في هذا الصدد : «سيكون في الكنيسة دكاترة باستمرار ، لكن عصر الآباء مضى وانتهى عصر حلول نعيم الروح القدس الذي لا غنى عنه للحبل الروحي وتعليم الكنيسة» .

آلام مبرحة ، حتى أصبحت الحياة بحد ذاتها أكبر عقوبة لي . أفقد الوعي يومياً بسبب الألم ، أنتظر الموت بشوق وكأنه الخلاص» . أرهقت الحياة المليئة بالمتاعب **غريغوري** . وكتب عام ٦٠٣ قبل عام واحد من رحيله : «أعيش معاناة عظيمة تحت وطأة سيل من الأشغال ، وأشعر بالأسف لأنني بلغت هذه الأيام ، وعزائي الوحيد هو انتظار الموت» . وبعد نصف عام من ذلك الحين خاطب الملكة **تيودوليندا** ليهنئها بولادة ابنها الذي ترعرع ونشأ تنشئة كاثوليكية بفضل تأثير **غريغوري**) ، واضاف قائلاً : «أنهكني داء النقرس إلى حد أصبحت معه عاجزاً عن الحديث أيضاً ، وليس الإملاء فحسب» .

شكر البابا في الرسالة ذاتها الملك **أغيلولف** على عقد معاهدة السلام . واستطاع رغماً عن إرادة موريسيوس التفاهم مع اللمبارديين ، وضمن بذلك أمن ومستقبل **إيطاليا** .

لهذا السبب بالذات تصور **غريغوري** أن إنتصار **فوكاس** على **موريسيوس** يمكن أن يصلح الأوضاع . ولكن تبين بأن هذا الشيء كان مجرد وهم . تعاطف فوكاس في واقع الأمر مع خلفاء **غريغوري** إلى حد ما . ومن مظاهر هذا التعاطف ، تجدر الإشارة إلى أنه أهدى أساقفة **روما** البانثيون القديم (عام ٦٠٨) الذي شاده **فيبسانيوس** Vipsanius صهر **أغسطس** . وقام الباباوات بتحويل البانثيون إلى كنيسة العذراء المكرسة للشهداء . وكان هذا انعكاساً لتزايد تكريم القديسين . وباستثناء ذلك كان الإمبراطور مشاغباً عادياً ، وسكيراً ، ومستبداً ووحشياً .

توفي **غريغوري** في اليوم الثاني عشر من آذار عام ٦٠٤ . فخلفه **سابينيان الأول** Sabinian حتى عام ٦٠٦ ، **وبونيفاسي الثالث** حتى عام ٦٠٧ ، **وبونيفاسي الرابع** حتى عام ٦١٥ ، **وأديوداتس** Adeodatus حتى عام ٦١٨ ، **وبونيفاسي الخامس** حتى عام ٦٢٥ .

ـ اللحظات المأساوية في تاريخ الامبراطورية الشرقية

حلَّ عدد من الكوارث بالإمبراطورية في عهد **فوكاس** القصير الأمد . ففي إيطاليا تم فسخ معاهدة السلام المعقودة مع اللمبارديين . وتصعَّدت حدة الهجمات الأفارية ـ السلافية على **دلماسيا** . وفي عام ٦٠٩ وصل االسلافيون إلى حدود **مقدونيا** .

اعتبر الملك الفارسي **كسرى الثاني** الذي أنقذه **موريسيوس** في حينه ، أنه من واجبه «الانتقام» لصديقه ، فزحف بجيوشه لمهاجمة الإمبراطورية ، واحتلَّ أرمينيا وقبدوقيا ، وفي عام ٦١٠ احتلَّت الجيوش الفارسية **خلقيدونيا** وكادت أن تقف أمام أسوار **القسطنطينية** . أمَّا **فوكاس** ، فقد صبَّ جام غضبه على كل من ساورته الشكوك بأنه يحاول انتزاع السلطة منه ،

دون أن يكترث بأمور الدفاع . لكنَّ هذا لم ينقذه من السقوط ، وقام سكان القسطنطينية باستدعاء **أكسرخس** قرطاجنة المدعو **هيراقليوس** ليتربع على العرش . فتنازل الأخير عن العرش لإبنه الذي حمل الإسم ذاته . جاء **هيراقليوس** إلى القسطنطينية واعتقل فوكاس ، ثم أمر بقتله بعد أن عرَّضه لألوان العذاب في عام ٦١٠ .

تولّى عرش الإمبراطورية حاكم فتي ونشيط . انحدر **هيراقليوس** من أصل أرمني ، وتمتع بسمعة محارب فذ وشجاع إلى حد الجنون ، وكان موهوباً في المجال العسكري . وترافق كل هذا بتقى صادق وحميم ، يميل إلى التعصب الديني .

بدت أحوال الإمبراطورية ميئوساً منها ، حيث مضى الفرس في إحتلالهم أبعد فابعد . فسقطت **انطاكية** عام ٦١٠ . وغمرت الجيوش الفارسية عام ٦١٣ **سوريا** محتلة **دمشق** . ودخل القائد الفارسي **شاربازار** عام ٦١٤ فلسطين . وفي كل خطوة أُحرقت الكنائس (لم تسلم سوى **كنيسة الميلاد** في بيت لحم ، ويعود الفضل في ذلك إلى هيئة الملوك الثلاثة في الزي الفارسي المصورة على لوحة من الفسيفساء فوق مدخل الكنيسة) ، وهُدِّمَتْ الأديرة ، وقُتِلَ أتباع الكنيسة الجامعة (أظهر الفرس بعض التسامح مع المونوفيزيين) . حاصر القائد الفارسي أورشليم في شهر نيسان ، وقاد البطريرك **زكريا** حملة الدفاع عنها . وفي الخامس من أيار اقتحم الفرس المدينة واحتلوها (وقد أشيع أن هذا الشيء تمَّ بمساعدة اليهود المحليين) . تعرضت المدينة لمجزرة حقيقية ، حيث قُتِلَ فيها خمسة وستون ألفاً من السكان ، واقتيد خمسة وثلاثون آخرين إلى الأسر . أما صليب **يسوع** والأدوات التي استخدمت في تعذيبه فقد تم العثور عليها بالرغم من إخفائها ، واصطحبها الفرس معهم .

احتلَّ جيش فارسي آخر **مصر** عام ٦١٩ . بينما لاح الأسطول الساساني قبالة القسطنطينية . ويرجح أن تكون الحملة الأخيرة هذه تمت بالتنسيق مع الأفاريين الذين وصلوا إلى اسوار القسطنطينية .

وفي هذه الأثناء هَزَمَ **سيسيبوت** Sisebut ملك القوط الغربيين في **إسبانيا** الجيوش الامبراطورية عام ٦١٥ . وَدُحِرَ البيزنطيون بصورة نهائية من اسبانيا في عهد الملك القوطي التالي **سوينتيلا** Suintila عام ٦٣٤ .

أما في إيطاليا ، فقد حاول اكسرخس **رافينا** المدعو **اليوثيريوس** Eleuterius عام ٦١٩ إعلان نفسه إمبراطوراً ، ولكن دون جدوى .

بدت الإمبراطورية وكأنها اختفت من الوجود . وفي هذه اللحظات المأساوية ، اتخذ هيراقليوس قراراً بنقل العاصمة إلى قرطاجنة . لأن افريقيا الشمالية كانت الرقعة الأخيرة المتبقية من الامبراطورية الرومانية . لم يشعر هيراقليوس المنحدر من أصل أرمني بمشاعر الود الحقيقي

نحو الإغريق ، لكنَّ الأعوام التي قضاها في قرطاجنة جعلته رومانياً .

عارض **سرجيوس** Sergius بطريرك القسطنطينية قرار هيراقليوس مناشداً تدينه العميق ، ومبرراً موقفه بأن ملك الفرس يشن الحرب على **يسوع** نفسه وليس على الامبراطورية ، ألم يكن رده على مقترحات السلام المعلنة من قبل هيراقليوس قوله : «تدَّعي بأنك وضعت ثقتك بالله ؟ فَلِمَا لم ينقذ من يديَّ **قيصرية** ، وأورشليم ، ووالاسكندرية ؟ أتعتقد أنني عاجز عن تدمير القسطنطينية أيضاً ؟ لاتحاول أن تتعلق بأوهام الإيمان الفارغ ب**يسوع** الذي عجز إنقاذ نفسه من أيدي اليهود عندما صلبوه !» . إنه التحدّي ، والإجابة الوحيدة عليه يجب أن تكون حرباً صليبية ! .

ووضع البطريرك في الوقت ذاته أموال الكنيسة تحت تصرف الإمبراطور .

اقتنع هيراقليوس . كان للحرب التي فُرِضَتْ عليه أن تصبح حرباً من أجل الصليب ، ولأجل الصليب . ولكن توجَّب عليه حماية مؤخرة جيوشه من الأفاريين قبل الانطلاق لمواجهة الفرس . فاستخدم جزءاً من أموال الكنيسة كفدية دُفعت للأفاريين .

أكانت الثقة بالأفاريين ممكنة ؟ ربما وضع هيراقليوس آنذاك خطة مثيرة لمحاربة الأفاريين .

أقام الامبراطور تحالفاً مع الفرنكونيين ، ولاشك أنه علَّقَ آمالاً على الفرنكونيين الذين أنهكتهم غزوات الأفاريين بالدرجة ذاتها ، سيشعرون بقوة أكبر من جراء هذا التحالف وسيخوضوا مع الأفاريين معركة تخفف من أعباء الامبراطورية . لكنَّ فرنكونيا فقدت معظم قوتها نتيجة النزاعات الداخلية . ولم تعد عظمة الدولة سنداً لأوسترازيا التي هددها الأفاريون بصورة مباشرة . وكان لابد من البحث عن حلفاء ضد الأفاريين .

اكتشفت الدبلوماسية البيزنطية بيسر أن الروابط بين الأفاريين والسلافيين ليست متينة . كان بعض السلافيين تابعين للأفاريين ، وعلى نحو خاص السكلافينيين . وقد مهدت الغزوات الأفارية الطريق أمام الاستيطان السلافي (تجدر الإشارة إلى أن ضغط السلافيين على البلقان تميز بطابع مختلف تماماً عن الغزو الأفاري ، أو حتى الجرماني ؛ لأن الهدف من الغزو الأفاري كان مجرد النهب والسلب ، بينما فرض الجرمان سلطتهم على السكان المحليين ؛ أما السلاف فقد احتلوا الأرض بهدف الاستيطان ، ولذلك طردوا السكان المحليين) . شكلت غزوات السكلافينيين خطراً على الامبراطورية ، لكن أوضاع التيار السلافي الثاني القادم عبر البوابة المورافية بدت مختلفة . الحقيقة أنهم بدورهم أزاحوا السكان المحليين من دلماسيا ، لكنَّهم باستيطانهم هناك شكلوا سداً أمام الغزو الأفاري ، وخاصة (هذا ماتبين فيما بعد) أن التحالفات العسكرية المرحلية التي قامت بين الأفاريين والسلافيين تداخلت مع الخلافات الناجمة عن الاضطهاد الذي مارسه الأفاريون على السكان السلافيين المسالمين ، النساء منهم

بشكل خاص . وتحولت هذه النزاعات إلى صراع مفتوح .

يُستنتج من بعض الإشارات التي أوردها الكاتب ـ المؤرخ البيزنطي اللاحق **قسطنطين** بورفيرو جينيت C. Porfirogenet ، أن هيراقليوس دعم الاستيطان السلافي بوضوح ، لا ، بل جاء بالكرواتيين والصرب السلافيين إلى المقاطعات الدلماسية . تقع المواطن الكرواتية الأصلية على نهري **أودرا** Odra **وفارتا** Varta ، بينما جاء الصرب من المناطق المحيطة بالجزء العلوي من مجرى نهر **لابا** Laba. ويرجح أنهم كانوا قد بلغوا في ترحالهم المناطق الجنوبية من **تشيكوسلوفاكية** الحالية عندما استقدمهم هيراقليوس . لاشكَّ بأن الأفاريين سيطروا على دلماسيا آنذاك . لكنَّ الكرواتيين بقيادة خمسة أخوة هم : **كلوكاس** Clucas، **ولويلوس** Lowelos ، **وكوسنتكيس** Cosentcis ، **وموكلا** Muchla ، **وكروفاتُس** Chrovatos ، وشقيقتين هما : **توغا** Tuga **وبوغا** Buga (هذان الإسمان هما من أسماء الذكور ، ولذلك يرجح أن تكون الشقيقتان أيضاً من القادة) انتزعوها من أيدي الأفاريين واستوطنوا هناك . شاركت إلى جانب الكرواتيين والصرب قبائل سلافية أخرى قادمة من الشمال في احتلال دلماسيا . ستكون إحداها موضِع اهتمام خاص بالنسبة لنا (يقصد الكاتب البولونيين) ، وهي قبيلة **الزخلوميانيين** Zachlumian التي جاءت من ضفاف نهر **فيسلا** Visla، وقادها **فيخال** Vichal ابن **فيشيفيتس** Wishewic .

كانت هذه القبائل وثنية . وتشير مؤلفات بورفيروجينييت التاريخية إلى أن هيراقليوس بعث إليهم بمبشرين ، ولكن يبدو وكأن هذه الإشارة تومئ إلى مرحلة لاحقة . ويحتمل أن يكون قسم من السكان السلافيين الذين استوطنوا منطقة البلقان آنذاك قد عُمِّدوا في حينه . فإسم فيخال زعيم الزخلوميانيين يجيز افتراض كونه مسيحياً .

ـ دولة سامو

مَنْ يدري إن لم تكن السياسة البيزنطية السبب في الحرب التي دارت رحاها عام ٦٢٣ بين السلاف والأفارين في **مورافيا** . فالمناطق التي سيطر عليها الأفاريون كانت مجاورة **لمورافيا** التي استقرت فيها الحشود السلافية خلال القرن الأخير . وكان الأفاريون جيراناً مزعجين ، لابل اضطهدوا السكان السلافيين الذين جاوروهم . شنَّ السلافيون الذين أنهكهم هذا التعامل حرباً تغلبوا فيها على الأفارين . وأسفر هذا الانتصار عن نشوء دولة سلافية تزعمها أحد المشاركين في المعارك ، ويدعى **سامو** Samo .

مَنْ هو سامو ؟ تشير مؤلفات المؤرخ **فريدغار** Fredegar إلى أنه انحدر من أصل

فرنكوني من منطقة **سينْس** Sens ، ونشأ بين السلافيين المعروفين باسم **الفينيتيين** Vinets ، وبعد التخلص من نير الأفاريين حيث شارك في المعارك التي خاضها السلافيون ضدهم ، انتخبه السلافيون حاكماً لدولتهم تقديراً منهم «للمنفعة التي حققها لهم» . تطبَّع بطبائع السلافيين واقتنى اثني عشرة زوجة . حكم البلاد لمدة خمسة وثلاثين عاماً (٦٢٤ - ٦٥٨) . شملت دولة سامو رقعة شاسعة ، ودخلت في نزاع مع الدولة الفرنكونية . لكنَّ حملة الفرنكونيين بقيادة **داغوبرت** Dagobert انتهت بهزيمتهم النكراء قرب **فوغاتسبورغ** Vogatisburg (يعتقد المؤرخ لابودا G. Labuda أن فوغاتسبورغ هي بلدة أوهوشجاني uhoshchani إلى الغرب من براغ) . هُزِمَ الفرنكونيون ، واستمرت الحرب التي انتقل فيها السلافيون إلى المواقع الهجومية فاقتحموا تورينغيا الخاضعة للفرنكونيين . وتوقفت المعارك فيما بعد عندما استقلَّت تورينغيا وبافاريا عن فرنكونيا . وعلى أي حال ، فإن دولة سامو التي يبدو وكأنها تميزت بطابع النظام الفيدرالي ، تمزقت بعد موته عام ٦٥٨ إلى دويلات صغيرة .

يعتقد لابودا أن سامو تاجرٌ من أصل سلتي - لاتيني ، وليس فرنكونياً (جرمانياً) ، (فعلى مقربة من سينس تواجدت مجموعة من السكان السلت - اللاتين) . استطاع في مرحلة الانتفاضة السلافية ضد الأفاريين ضمان وقوف الفرنكونيين إلى جانب السلافيين . ولمَّا أصبح سامو فيما بعد حاكماً للبلاد (يعتقد لوفميانسكي H. Lovmianski «أن سامو لم يحكم وإنما أسدى النصح ، بينما ظلَّ اتخاذ القرارات السياسية من حق التجمع الشعبي») ، أُلغيت التبعية للفرنكونيين عام ٦٣٠ ، وهذا ماشجَّع داغوبيرت على شنِّ حملته الفاشلة التي انتهت بالهزيمة قرب فوغاتسبورغ . تبدو هذه الفرضية مقنعة إلى حدٍ ما ، ولكن هناك مايدعو للافتراض بأن سامو انحدر من أصل سلافي وعاش في غالة لفترة طويلة (ربما كعبد تمكن من جمع ثروة فيما بعد) . وهذا مايمكن أن يفسر موقفه من الفرنكونيين بصورة أفضل ، حيث لعب معهم دور الوسيط أول الأمر ، ودور الخصم فيما بعد . أما الأمر المدهش ، فهو أن يقوم داغوبيرت في ذلك العام بالذات (٦٣٠) ، عام الحملة الفاشلة التي شنَّها ضد السلافيين ، بإرسال وفد إلى القسطنطينية لإقتراح السلم «الأبدية» . يمكن أن يُستنتج من ذلك أن الامبراطورية الرومانية بعد انتصارها على الأفاريين الذين تعرضوا لهزيمة كبرى عام ٦٢٦ قرب أسوار القسطنطينية ولم يعودوا يشكلون خطراً على **بيزنطة** ، عبَّرت بهذا التحالف عن عدم اكتراثها بالوجود اللاحق لدولة سامو السلافية ، التي كان لوجودها ضرورة مرحلية لإلهاء الأفاريين .

ـ الصليبي الأول

تمكن هيراقليوس من شن الحرب على فارس عام ٦٢٢ بعد أن فرغ من تصفية حساباته مع الأفاريين . وبدلاً من مواجهة الجيوش الفارسية المتمركزة في خلقيدونيا ، ابحر بالجيوش الإمبراطورية وأنزلها في إسوس iSSOS في **صقلية** ، في مؤخرة القوات المعادية . فانهزم الفرس وأرغموا على الانسحاب من آسيا الصغرى عشوائياً .

بعد ان أحرز هيراقليوس هذا الانتصار الصاعق ، وجد نفسه مرغماً على العودة إلى القسطنطينية التي هددها الأفاريون مجدداً . وبعد أن تيسرت الأمور بدفع فدية ، توَّجه إلى الجبهة الفارسية ثانية . ودارت ، رحى الحرب بمناورة جريئة مرة أخرى : نزل في **طرابزون** ، وزحف عبر **بونت** Pont ، اقتحم **أرمينيا** ، واحتلَّ المقاطعة الفارسية **آذربيجان** ، وباغت كسرى في مقره الملكي في Gazah . بعد تدمير معبد النار «المقدسة» في Adhun Gushnaps عاد إلى استراحته الشتوية ومعه خمسين ألفاً من الأسرى . استطاع هيراقليوس خلال عامي ٦٢٤ و ٦٢٥ تدمير الجيش الفارسي بضربات صاعقة .

تحالف كسرى مع الأفاريين . وبينما كان هيراقليوس في القفقاز عام ٦٢٦ ، زحف الأفاريون الذين ساندهم السلافيون على القسطنطينة ، وفي الوقت ذاته اقترب الملك الفارسي على رأس جيشه من **خلقيدونيا** . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ **لوفميانسكي** : «لم تكن مشاركة السلاف الفولوسيين Volo كبيرة ، لأنهم فقدوا قوتهم العددية السابقة . . . لكنَّ مشاركة السلاف التراقيين في الغزو تبدو محتملة ، ولاشكَّ بأنهم حاربوا تحت أمرة الخان الأفاري ؛ وكذلك السلاف القادمين من منطقة الكاربات ، بما في ذلك المجموعات الليخية الثلاث . يبدو أن غضب الخان حلَّ عليهم عندما فشل هجوم الأسطول على المدينة ، مما أرغم الأفاريين على التراجع والتخلي عن القسطنطينية» . على الرغم من أن الحالة بدت مأساوية ، فقد أنقذت المدينة بفضل الأسطول البيزنطي ، بعد أن أوكلت مهمة الدفاع عن المدينة إلى البطريرك **سرجيوس** والقائد **بونوس** Bonus .

تحالف هيراقليوس في هذه الأثناء مع الخزر (شعب تركي استوطن السهوب الروسية) . وبمساعدتهم هاجم الفرس من جهة القفقاس . تجدر الإشارة إلى أن **الجيورجيين المسيحيين وقفوا في هذه الحرب إلى جانب الفرس** . سمح هيراقليوس للخزر بسحق الجيورجيين وقتلٍ ملكهم . ثم هاجم بجيوشه **سوريا** ، وسحق الجيش الفارسي بالقرب من أطلال **نينوى** . احتلَّ هيراقليوس عام ٦٢٨ في كانون الأول مدينة دستغرد Dastagard ، المدينة الامبراطورية التي اضطر كسرى لمغادرتها على عجل . وأصدر هيراقليوس أوامره بأخذ ثلاثمئة راية رومانية من القصر ، اغتنمها الفرس خلال قرون ، كما حرَّر آلاف الأسرى ، وأحرق القصر فيما بعد .

أثارت الخسائر التي تكبدها الفرس ثورة فَقَدَ كسرى خلالها عرشه وحياته عام ٦٢٨ . كانت الحرب منتهية ، وأعدَّ هيراقليوس العدَّة للعودة إلى القسطنطينية ظافراً ، واضطر الفرس المهزومون لإعادة كافة الآثار المقدسة التي غنموها من قبل ، وفي مقدمتها خشبة الصليب .

وكتب **درابيرون** Drapeyron في هذا الصدد وهو يصف دخول هيراقليوس إلى أورشليم : «حمل بنفسه الصليب المقدس على كتفه ، وصعد بهذا الكنز الثمين إلى الجلجلة ، وهناك قدَّمه للبطريرك زكريا» .

بينما يصف **رونسيمان** S. Runciman توجيه الدعوة لهيراقليوس لإعتناق **الاسلام** قائلاً : «بينما كان هيراقليوس يستقبل عام ٦٢٩ وفود دول بعيدة مثل فرنكونيا والهند بمناسبة النصر الذي حققه على الفرس وإنتهاء الحرب ، وصلته رسالة من شيخ عربي أطلق على نفسه لقب نبي الله ، يناشد فيها الامبراطور أن يهتدي إلى دينه» .

ـ انضمام القوط الغربيين للكنيسة

لنترك هيراقليوس لحظة على أبواب الكوارث الثلاث التي تنتظره : اللاهوتية ، والأخلاقية ، والعسكرية . ولنترك الامبراطورية البيزنطية التي أنهكتها الحرب التي دارت رحاها لأعوام طويلة . ولنبتعد لحظة عن الوضع الديني السائد في الامبراطورية ، متذكرين فقط مظهره العام .

نشأت إلى جانب الكنيسة كنيستان مستقلتان غير أرثوذكسيتين ، هما : **كنيسة الإسكندرية** المونوفيزية التي انضوى تحت لوائها الأقباط (الاسم الذي يُعَدُّ الإسم الأولي للمصريين : Hagha Ptah ـ **أرض الإله بتاه** ، وفي الإغريقية Aiguptios ، وفي العربية قبط) ، والسوريون ، والاثيوبيون المتواجدون في مصر . **وكنيسة انطاكية** المونوفيزية التي تعرف باليعقوبية (نسبة إلى يعقوب البرادعي) ، وضمت قسماً من السكان السوريين التابعين للبطريركية الإنطاكية . وهاتان الكنيستان «قوميتان» ، عارضتا الكنيسة الأرثوذكسية التي انطبعت في الشطر الشرقي من الامبراطورية الرومانية بالطابع الاغريقي .

وُجدت خارج حدود الامبراطورية في الشرق كنيستان أيضاً ، مستقلتان ولهما طابع الهرطقة ، هما : **الكنيسة السورية ــ الكلدانية النسطورية** التي ترأسها بطريرك **بابل** ، وامتد نفوذه حتى **منغوليا** ، و **الهند** ، **والصين** ، **والكنيسة الأرمنية المونوفيزية** ذات الطابع المحلي .

ماالذي جرى آنذاك في المناطق المأهولة بالجرمان ؟

قُسِّمَتْ اسبانيا بين مملكة القوط الغربيين والمناطق الخاضعة **لبيزنطة** ؛ أي بين الأريانيين وأتباع الكنيسة الجامعة . أُنزلت الجيوش الامبراطورية في اسبانيا متذرعة بتمرد القائد القوطي

الغربي أثاناجيلدا Athanagilda . أما القائد المذكور ، فبالرغم من أنه استولى على العرش بمساعدة البيزنطيين ، حاول فيما بعد التخلص من حلفائه السابقين .

تواجد في **غاليسيا** Galicia الإسبانية السيويون أيضاً إلى جانب القوط الغربيين . كانوا من أتباع الكنيسة الجامعة أول الأمر (لكن هذا لم يمنع ممارسة الأعمال الوحشية ومن الميل إلى النهب والسلب) ، ثم ارتدوا إلى الأريانية تحت تأثير القوط الغربيين . وفي عام ٥٦٣ تخلوا عن الأريانية ثانية بنتيجة النشاط التبشيري للراهب التقي **مارتن البراغي** . بينما ظلَّ القوط الغربيون أريانيين متحمسين . لكن **أثاناجيلدا** مارس سياسة التسامح الديني في المملكة بسبب تحالفه مع **الامبراطورية البيزنطية** . وتزوجت ابنتاه **برونهيلدا** الدموية الذائعة الصيت **وغالسوينتا** Galswinta من الفرنكونيين الكاثوليك .

حدثت تغيرات هامة بعد وفاة أثاناجيلدا وجلوس شقيقه **ليوفيجيلدا** Leowigilda على العرش . إذ بُوشر باضطهاد أتباع الكنيسة الجامعة مجدداً .

عارض الإضطهادات ابن الملك المدعو **هيرمينجيلد** Hermenegild ، مما أدى إلى نزاع مسلح بين الأب والإبن ، تخلَّى الجميع عن هيرمينجيلد (دون استثناء البيزنطيين الذين كفّوا عن دعمه لقاء ثلاثين ألف قطعة نقدية ذهبية) ، ولكنَّه ظلَّ يدافع عن نفسه لمدة عامين في سيفيلا Sewella قبل أن يستسلم . صفح **ليوفيجيلدا** ظاهرياً عن ابنه ، لكنه اعتقله فيما بعد في **فالينسيا** وحاول فرض الأريانية عليه وهو في المعتقل . ولما فشلت محاولات اقناع الأمير الشاب ، تمَّ اغتياله .

تحوَّل دم الشهيد المقدس إلى بذرة سريعة النمو . فقد اعتنق شقيقه **ريكارد** Ricard الذي تولَّى العرش بعد وفاة والده عام ٥٨٧ الكاثوليكية . وبعد عامين من ذلك الحين تمَّت الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في **توليدو** ، شارك في أعماله سبعون أسقفاً أو مَنْ يمثلهم . أقرَّ المجمع كافة الصيغ التي أقرتها مجامع نيقيا ، والقسطنطينية ، وخلقيدونيا . كان **لياندر** Leader أسقف **سيفيلا** وصديق البابا **غريغوري** الكبير بمثابة القوة المحركة للمجمع التي بعثت الكنيسة في اسبانيا مجدداً . بعد وفاة **لياندر** استمر شقيقه **ايزيدور** Izidor أسقف سيفيلا على نهجه ، وهو رجل غزير العلم وشديد اللهفة للقداسة . انعقدت في الأعوام التالية سلسلة من المجامع الكنيسية رسَّخت أقدام الكنيسة الجامعة في مملكة القوط الغربيين . اندحرت الأريانية ، وسُمح لعدد كبير من رجال الدين الأريانيين بالبقاء في سلك الكهنوت لخدمة الكنيسة الجامعة .

كان **سيزيبوت** Sizebut أحد خلفاء ريكارد من المسيحيين المتحمسين . وقد شنَّ حرباً من أجل إخراج الجيوش الامبراطورية من اسبانيا وتوحيد البلاد . وكانت الأسقفية الإسبانية من أنصار هذه الوحدة . وعندما حدث تمرد في عهد أحد خلفاء سيزيبوت ضد الملك ، انعقد

مجمع كنيسي في توليدو عام ٦٣٦ وأقرَّ واجب الوفاء للملك .

ارتبطت الكنيسة الجامعة في اسبانيا بالعرش بعرى لاتنفصم . فالملك هو الذي قام بالدعوة لإنعقاد المجامع الكنسية وشارك في أعمالها . وتساهلت **روما** في هذا الموضوع خشية انشقاق الكنيسة الاسبانية في حال المعارضة . وبهذا ندخل المرحلة التي أدى فيها اعتناق الممالك المؤسسة من قبل الجرمان للكاثوليكية ، إلى ارتباطهم على نحو وثيق بالسكان الأصليين ، مما أسفر عن ظهور شعوب جديدة . ساعدت الكنيسة في سير هذه العملية ، لكنَّها اتخذت في عدد من البلدان طابعاً قومياً . استمرت هذه المرحلة حتى ظهور الوحدة الأوروبية في العصر الوسيط ، حيث استعادت الكنيسة عندئذ طابعها الشمولي بالمعنى الأوروبي على الأقل .

سيكون كبار ممثلي الكنيسة في ذلك الحين من أنصار قيام علاقة وثيقة بين الدين والعرش . وقد كتب القديس **ايزيدور** السيفيلي : «غالباً مايمنح الأمراء العلمانيون سلطتهم للكنيسة للمحافظة على الانضباط الكنسي . وغالباً ماتتطور المملكة السماوية بفضل عون المملكة الدنيوية ، عندما تسحق قوة الأمراء مقاومة مَنْ ينشط في الكنيسة ضد الإيمان والإنضباط . . لكنَّ الأمراء ، وبالرغم من وجودهم في قمة الهرم ، ملزمون بروابط الإيمان لإعلان الحقيقة المسيحية في قوانينهم والحفاظ على إيمانهم بسلوكية حسنة» .

لاشك بأن هذه القاعدة لم تكن صحيحة ، بالرغم من أنها أدت إلى نتائج حسنة في بعض اللحظات . فكثيراً مادارت رحى معارك طاحنة من أجل العرش ، ولجأ الذين استولوا على السلطة إلى المجامع الكنسية لترسيخ نتائج أعمالهم اللاشرعية . أما المجامع التي حرصت في غير مرة على طاعة الملوك ، فقد تحولت إلى أداة طيِّعة في أيديهم . فقد عيّنوا الأساقفة مما أدى إلى سيامة أفراد غير جديرين في الكثير من الأحيان . ثم أرغمت المجامع على إدانة الفضائح والجرائم المرتكبة . أما حقيقة وجود أفراد ذوي مستوى أخلاقي رفيع وعلم غزير ، وقداسة ، من أمثال **لياندر** ، و **إيزيدور** ، و **براليون** Bralion ، و **تايون** Taion السرافوصي ، و **يوجينيوس** ، و **إلديفونس** Ildefons ، **ويوليان من توليدو** ، فلم تغير شيئاً في صورة الكنيسة الإسبانية .

ساءت هذه الحالة أكثر نتيجة قلّة احتكاك الكنيسة الإسبانية مع روما . كانت **توليدو** متروبولية شبه الجزيرة . وتمَّ تقسيم البلاد إلى ست مقاطعات كنسية ضمَّت مايقارب الثمانين أبرشية .

أما أكثر القضايا إيلاماً في اسبانيا فكانت القضية اليهودية . فقد أدى حماس ملوك القوط الغربيين الزائد إلى ظهور صيغة أقرّها المجمع الكنسي السادس في توليدو عام ٦٣٨ تنص على أن «الملك لايعترف في مملكته بأي كان ، إن لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة» . كان

عدد اليهود في اسبانيا كبيراً نسبياً ، وتمّت مطالبتهم باعتناق المسيحية . وذهبت محاولات الأتقياء من أمثال إيزيدور سدى ، حيث طالبوا بالرحمة والوداعة والتأثير على اليهود بالإقناع . فحتى الملك **سيزيبوت** التقيّ إلى حدٍ ما ، أصدر أوامر تقتضي انتزاع الأطفال من أيدي الآباء الذين يرفضون تقبّل سرّ المعمودية . أما مرسوم الملك **شنتيل** Shyntil عام ٦٣٧ ، فقد نصّ على طرد جميع اليهود الذين يرفضون اعتناق المسيحية من اسبانيا . فلا غرابة إذن في أن المواطنين اليهود شعروا بكراهية عميقة نحو حكامهم المضطهدين .

ـ تحرير افريقيا من الوندال

أدى انتصار بيليزاريوس في افريقيا إلى سقوط مملكة الوندال التي مارست اضطهادات لاحدود لها على أتباع الكنيسة الجامعة . ولكن قبل ذلك الحين مرّت بعض الفترات التي تراجعت فيها حدّة الإضطهادات . ففي عام ٤٨٧ أصدر الملك **غونتاموند** Gontamond مرسوماً بخصوص حرية المعتقدات . لكن شقيقه **ترازاموند** Trazamond الذي خلفه على العرش باشر عملية الإضطهاد مجدداً عام ٤٩٧ ، حيث قام بنفي الأسقفية بأكملها إلى **سردينيا** . توفي ترازاموند عام ٥٢٣ ، فخلفه ابنه **هيلديريك** Hilderic الذي طبّق قانون حرية المعتقدات مجدداً ، لكنّه اعتقل على يد **غيلمار** Gelimar وعُزِلَ عن العرش ، وهذا ما أعطى **جستينيان** الذريعة الملائمة لشن الحرب على الوندال .

بدأت الكنيسة بالنهوض من الأنقاض بعد انتصار **بيليزاريوس** . وفي الحال برزت قضية قبول المرتدين في أحضان الكنيسة والشروط التي تستوجبها . وقد أعلن البابا **أغابيت** الأول عن موقفه آنذاك ، وكان الشرط الوحيد الذي طالب به عدم دخول العائدين في سلك الكهنوت .

لم يكن في وسع الكنيسة الافريقية استعادة مواقعها وأهميتها السابقة بعد أن قضت زهاء مئة عام تحت نير الاستعمار الوندالي . فمن العدد الهائل من الأبرشيات لم يبق سوى مئتان وخمسين أبرشية تابعة لمتروبولية قرطاجنة . وكانت الكنيسة الافريقية قد أعلنت في مجمع قرطاجنة عام ٥٥٠ القطيعة التامة مع البابا أثناء قضية مرسوم «الفقرات الثلاث» . قرر معظم الأساقفة تحت تأثير الضغوط التي مارسها الامبراطور (ودعمّها بأعمال النفي) إدانة «الفقرات الثلاث» . وفعل ماتبقى منهم الشيء ذاته طواعية بعد موت جستينيان . وهكذا أعيدت الوحدة الكنسية .

تفجّرت انتفاضة البربر عام ٥٦٩ ، فأدت إلى أعمال تدمير جديدة . وبعد أن أخمدها الاكسرخس **غيناد** Gennad ساد الهدوء . أسفرت أعوام الاضطهاد الطويلة عن تجاوزات كثيرة في مجال الانضباط الكنسي ، أهمها السيمونية (بيع المناصب الكنسية) ، وتدني

المستوى الأخلاقي لرجال الدين . لم يلجأ الأساقفة إلى المتروبوليت أصلاً . كما تمَّ إحياء الدوناتية في نوميديا مجددا . ولحسن الحظ كان هذا الشيء في عهد **غريغوري** الكبير ، حيث اتخذ البابا العظيم الخطوات الضرورية لبعث الكنيسة في افريقيا . مَثَّلَ البابا في افريقيا **هيلاريوس** ، وكان مسؤولاً عن الممتلكات الكنسية هناك . وقد ساعد نشاطه الهادف لوضع مبادرات **غريغوري** حيِّز التطبيق على إلغاء الكثير من التجاوزات .

ـ إنجازات القديسين أوغسطين وأيدان

يُعَدُّ اعتناق **إيثلبرت** للمسيحية حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة لبريطانيا وأوروبا الغربية بأسرها (أهم بكثير من اعتناق كلودويج لها) . أصبحت **كنت** Kent أول مملكة مسيحية بين الممالك الجرمانية السبع في بريطانيا . بينما ظلَّت Wessex و Sussex ، وبرنيسيا ، وديريا ، **وانجلترا الشرقية** ، **وميرسيا** على وثنيتها . واتهم **غريغوري** الكبير «أساقفة الجوار» بالتهرب من العمل التبشيري في أوساط الانجليز ، والتهمة موجهة أساساً للأساقفة البريطانيين .

نذكر أن قسماً من سكان الجزيرة السلتيين القدماء ، وهم البريطانيون (قسم فقط ، لأن الآخرين اختلطوا مع الجرمان وشكلوا سكان الدول الجرمانية) انسحبوا إلى مرتفعات ويلز وكورنويلز ، حيث عاشوا مستقلين وحافظوا على مسيحيتهم . لكنَّ هذه المسيحية كانت سطحية إلى ابعد حد ، منغلقة على ذاتها ، ومناهضة للعمل التبشيري في الأوساط الجرمانية . وقد كتب القديس **جيلداس** Gildss بهذا الصدد قائلاً : «الحقيقة أن الكهنة عملوا على تعليم الشعب ، ولكنهم قدموا بسلوكهم مثالاً فاضحاً على العادات السيئة والجريمة» . وقد تميَّز بعض الأساقفة بيسيمونيتهم ، وغذّوا مشاعر الكراهية العامة للجرمان الوافدين . وفي الواقع لايمكن إنكار وجود قديسين من أمثال **دافيد** (أسقف مينيفيا Menvia ورئيس ديرها) ، **وقادوق** Cadok ، وجيلداس الآنف الذكر ، الملقب بالحكيم ، محرر رسالة ذائعة الصيت حول العلاقات السائدة في الكنيسة البريطانية .

نزح قسم من سكان بريطانيا إلى البر القاري واستقروا في **أرموريكا** Armorica في **غالة** . حافظ هؤلاء على مسيحيتهم ، ولكنهم ظلّوا مستقلين عن أساقفة غالة . كما حافظوا على بنية مميَّزة لهم : فبينما كانت الكنائس في القارَّة منظمة على أساس تجزئة سلطة الأسقف ، كانت عندهم بعكس ذلك ، إذ نشأت الكنيسة كخلية مستقلة وارتبطت بالمبشر العامل هناك أو بالدير الناشئ . بدأت في مرحلة متأخرة تظهر أبرشيات خاصة بالمواطنين البريطانيين (المعنيون هنا هم السلتيون الذين استوطنوا في أرموريكا ، أي في شبه الجزيرة البريطانية وفق التسميات المعاصرة) .

أما في إيرلندا ، فقد نشطت حياة مسيحية غنية أيقظها القديس **باتريك** . واعتمدت

هذه الحياة في بنيتها على الأديرة التي كانت مراكز اشعاع ، وليس على الأبرشيات . وظهر في هذه الأديرة نموذج جديد للمثل الزهدية ، استند إلى مغادرة الناسك لموطنه الأصلي «من أجل محبة الله» . غادر الكثيرون من الرهبان - المبشرين إيرلندا إلى الجزر المجاورة وإلى البلدان الأخرى ، ليبشروا بالمسيحية هناك . وغالباً مازاروا ويلز والمواطنين البريطانيين المقيمين هناك ، أو انتقلوا إلى اسكتلندا (كما فعل القديسان برنارد وكولمب) لهداية البكتيين مجدداً وكسبهم إلى جانب الكنيسة (كان القديس نينيان Ninian قد قام بهدايتهم في القرن الخامس ، لكنهم ارتدوا إلى الوثنية ثانية فيما بعد) وهكذا نجد قيام اتصال دائم بين مسيحيي بريطانيا ، واسكتلندا ، وايرلندا . لكنَّ المبشرين (كما كان يشكو منهم القديس **غريغوري**) تحاشوا العمل في أوساط الإنجليز والسكسون . أما هداية الملك **إيثلبرت** فقد تمّت عن طريق المبشرين القادمين من القارَّة .

عندما تلقى البابا نبأ معمودية إيثلبرت ، بعث بمجموعة جديدة من المبشرين إلى بريطانيا . وقد تمَّ تعيين **اوغسطين** رئيساً لأساقفة **كانتربري** ورئيساً للكنيسة الأنجلوسكسونية بأكلمها نضمن المخطط تأسيس مقاطعتين كنسيتين في **لندن** و **يورك** ؛ وكان لكل منهما أن تضم إثنتي عشرة أبرشية . ولكن ، تمَّ الإفتقار مرحلياً إلى كادر لملء الشواغر ؛ لأن الأساقفة جميعاً كانوا من المبشرين الذين أرسلتهم روما .

حاول **أوغسطين** تجنيد أساقفة وكهنة بريطانيين للعمل التبشيري في الأوساط الأنجلوسكسونية ؛ لكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً الإستجابة لهذا النداء ، إذ تبين بأن الكراهية عندهم كانت أقوى من المسيحية .

توفي **أوغسطين** عام ٦٠٥ . وتوفي **إيثلبرت** عام ٦١٦ ،فطغت الوثنية بعد موته على مقاطعة **كنْت** مجدداً . لجأ الأساقفة المعينون حديثاً إلى غالة . واستعدَّ خليفة **أوغسطين** المدعو **لورنس** للفرار أيضاً عندما تراءى له القديس بطرس في الحلم وهو يتهمه بالجبن . قرر لورنس تحت تأثير هذا الحلم البقاء ، فأثر موقفه هذا على حاكم كنت الجديد إلى حدٍ دفعه لتقبل سرِّ المعمودية وإعادة المسيحية إلى بلاده .

حكم **إيدلفريد** Edelfrid في مطلع القرن السابع **نورثمبري** Nurthumbri ، ووجه ضربات قاسية للمسيحيين البريطانيين . ثم انتصر على **إيدوين** Edwin ملك **ديريا** ، وأخضع لسلطته كامل **نورثمبري** ، و **ميرسيا** ، **وانجلترا الشرقية** ، و **ويسكس** . تزوج إيدوين من **إيدلبرغا** Edelberga شقيقة ملك كنت المسيحي . كما عاش في نورثمبري بالإضافة إلى إيدلبرغا راهب قادم من **روما** يدعى **باولين** Paulin ، تمكن من هداية إيدوين الذي اعتنق المسيحية عام ٦٢٧ . أوصى إيدوين ببناء أول كاتدرائية خشبية في يورك وكرَّسها للقديس بطرس . وأصبح **بادلين** أسقفاً **ليورك** . لم يقتصر إنتشار المسيحية على نورثمبري وحدها ، بل

بدأت تشع بنورها على انجلترا الشرقية أيضاً (فتأسست عام ٦٣٤ أسقفية في Dunwich) .

حدثت ردود فعل عنيفة من جانب الوثنية . ففي العام ٦٣٤ ذاته قام ملك ميرسيا المدعو بيندا Penda الوثني بالتحالف مع المسيحيين البريطانيين (الذين أعماهم الحقد ولم يكونوا أقلَّ وحشية من الوثنيين) باجتياح نورثمبري . لقي الملك إيدوين مصرعه في المعركة ، وفرَّ الأسقف باولين برفقة الملكة إيدلبرغا إلى كنت . فطغت الوثنية على نورثمبري .

أعاد أوسوالد Oswald بناء المملكة ، وكان راغباً في إعادة المسيحية إليها ، ولهذا السبب لجأ إلى معونة الاسكتلنديين . وللمرة الأولى باشر المسيحيون السلتيون العمل التبشيري في المملكة الأنجلوسكسونية . أما الباني الجديد للكنيسة فقد أضحى القديس أيدان الذي مارس نشاطه من دير في جزيرة ليندسفارن .

يعود الفضل في هداية ويسكس وانجلترا الشرقية أيضاً إلى المبشرين الاسكتلنديين ، أي الإيرلنديين (وفق تسميات ذلك العصر) .

لكنَّ بيندا الدموي ظهر على الساحة مجدداً ، حيث هزم ملك انجلترا الشرقية وقتله عام ٦٣٥ . ولقي أوسوالد المصير ذاته عام ٦٤٢ . بينما تمكن ملك ويسكس من الاختفاء عن أعين الغازي الرهيب عام ٦٤٥ . كانت إنتصارات بيندا هذه على المسيحيين هي الأخيرة . لأن ابنه المدعو بيندا أيضاً ، تقبَّل سرّ المعمودية للزواج من ابنة أوسوي ملك كنت . ولما حدثت المواجهة بين بيندا العجوز وابنه هُزِمَ الأول وقُتل في المعركة عام ٦٥٥ .

توفي القديس أيدان الذي قام بتعميد بريطانيا الجرمانية مجدداً (قام بتعميدها من قبل القديس **أوغسطين**) عام ٦٥١ . ومن بعده قام المبشرون الإيرلنديون في المقام الأول بالعمل التبشيري بين الأنجلو سكسونيين (ظلت كنت وحدها مسرحاً لنشاط المبشرين الرومان) . وقد أظهر الرهبان ـ المبشرون الإيرلنديون حماساً منقطع النظير في عملهم . وتميَّز نشاطهم بشيء من الصراحة ، حيث فرضوا على أنفسهم وعلى المهتدين نمط حياة قاسية بتقشسفها . وعارضوا تشييد الكنائس الفخمة من الحجارة ، مقتصرين على بناء كنائس صغيرة من الأخشاب مسقوفة بالقش .

كانت للمسيحية الإيرلندية (بالرغم من كل ماتميزت به من حماس) خصوصياتها التي أثارت معارضة المبشرين الرومان . ومن هذه الخصوصيات الملفتة للنظر مايدعى (قص الشعر بشكل تام مع ترك خصلة طويلة في مؤخرة الرأس تنسدل فوق المنكبين) ، بالاضافة إلى طريقة حساب موعد عيد الفصح المختلفة عمَّا كان معتمداً في روما . وبالرغم من تفاهة هذه الأمور ، كانت الخلافات حولها على درجة عالية من الجدية . وفي نهاية المطاف جمع الملك أوسوي ممثلي كلا التقلدين في دير وايتبي عام ٦٦٤ . ووقف أثناء هذا اللقاء بعض رجال الدين الأنجلوسكسونيين إلى جانب المبشرين الرومان . تزايد بعد ذلك عدد القسس

الأنجلوسكسونيين الذين غادروا الجزيرة ووصلوا إلى روما ، ثم عادوا إليها ثانية . كانوا مشدوهين بروعة العمران الروماني ، والطقوس الرومانية ، والوحدة الرومانية . لم يكن أي بلد من البلدان الجرمانية التي اعتنقت المسيحية معجباً **بروما** ومتعلقاً بفكرة الوحدة الكنسية مثلما كانت انجلترا .

كان ويلفرد الكاهن ـ الراهب الشاب مثالاً رائعاً على الإنسان الذي بحثت عنه روما . وقضى فترة طويلة في **روما** وغالة ، واحتلّ بعد عودته إلى بلاده منصب رئيس دير ريبون وأسقف يورك . ومثَّل أثناء اللقاء في وايتبي أنصار التقاليد الرومانية .

بعد وفاة آخر أساقفة كانتربري ، طلب ملوك كنت ونورثمبري من البابا تعيين رئيس أساقفة مستقل عن الأسقفيات الإيرلندية ـ الاسكتلندية في تلك العاصمة الأسقفية . فعين البابا في هذا المنصب **تيودور** المنحدر من Tars . فقام الأخير بدراسة دقيقة وشاملة لأوضاع الكنيسة الأنجلوسكسونية ، وأدخل التقاليد الرومانية في كل مكان . أنهى جولته التفقدية بالدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في هيرتفورد عام ٦٣٧ .

تغيب الأسقف ويلفرد عن المجمع . وهذا بحد ذاته أمر مدهش ، فعلى الرغم من أنه أيد التقاليد الرومانية باستمرار ، ولم يتردد في تقليد الفخامة الرومانية أثناء ممارسته لنشاطه التبشيري (وهو الأمر الغريب ، لا بل المتسم بالعداء بالنسبة للمبشرين الإيرلنديين) ، فقد ارتسمت ملامح خلاف بينه وبين **تيودور** منذ البداية . وجد ويلفرد خصماً في شخص ملك نورثمبري أيضاً . ووقع الصدام في نهاية المطاف ، وفي عام ٦٧٨ طُرِدَ الأسقف من عاصمته . لم يكتفِ **تيودور** بعدم الدفاع عنه فحسب ، بل استغَّل غياب ويلفرد وفصل عن يورك أبرشيات هيكسهام وليندسي ، ففقدت يورك بذلك أهميتها كمتربولية لمملكة نورثمبري .

توجَّه ويلفرد الذي أُزيح من يورك ، إلى **روما** لتقديم شكوى إلى البابا . فأيده البابا ، لكنه انتظر قدوم **تيودور إلى روما** للبت في الموضوع . أما مجيء **تيودور** المتوقع فلم يتم . فقام البابا عندئذ بتزويد ويلفرد برسائل تطالب بأن تعاد له متربوليته ، وأرسله إلى إنجلترا عام ٦٨٠ ، لم يعترف ايجفرد برسائل البابا ، واعتقل ويلفرد وأودعه السجن . وعندما أطلق سراحه في نهاية المطاف بفضل وساطة عمة الملك كسينيا إيبا ، اضطرَّ لمغادرة البلاد مجدداً . توَّجه إلى سوسيكس التي كانت لاتزال وثنية ومارس هناك نشاطه التبشيري طيلة خمسة أعوام ، فكان مثمراً للغاية . لمَّا توفي إيجفرد عام ٦٨٥ ، اعترف رئيس الأساقفة **تيودور** بمطالب ويلفرد ، وسمح له بالجلوس على كرسي أسقف يورك ثانية ، لكنها كانت قد فقدت أهميتها كمتروبولية .

حدث خلاف جديد (أسبابه غير معروفة بدقة) بين ويلفرد وحاكم نورثمبري ، اضطر

الأسقف بنتيجيته لمغادرة البلاد مرة أخرى . فعمل مبشراً في **ميرسيا** لمدة عامين ، مارس خلالها مهام الأسقف ، دون أن يتوقف عن المطالبة بحقوقه في اسقفية يورك . ولمّا عجز عن بلوغ هدفه ، توّجه ويلفرد الشيخ إلى **روما** مجدداً . كلّف البابا المجمع الكنسي الذي أزمع عقده في بريطانيا بالنظر في قضيته . يبدو أن ويلفرد الذي أضناه الانتظار الطويل ، استنكف عن المطالبة بأسقفية يورك قبل أن يتخذ المجمع قراره ، واكتفى بأحدث أسقفية تأسست في هيكسهام . توفي عام ٧١٠ .

كانت الممالك الأنجلوسكسونية كلها قد اعتنقت المسيحية . وبقيت كانتربري بمثابة المتروبولية الوحيدة التي خضعت لها ست عشرة أسقفية .

نمت الأبرشيات البريطانية حول الأديرة وفقاً للتقاليد الإيرلندية . فقد غادر الرهبان الدير لفترة ما ، كما فعل القديس كاثبرت الذائع الصيت ، وطافوا القرى المجاورة سيراً على الأقدام أو على ظهور الجياد ، متوقفين في كل منها للتبشير بتعاليم الدين ومنح الأسرار المقدسة . ولم يكن هناك كهنة مقيمون في مكان .

أضحت كل من **بريطانيا وإيرلندا** آنذاك مركزاً هاماً للعلم والحياة الثقافية . «فجزيرة القديسين» كانت آنذاك «جزيرة العلماء» أيضاً . وظلّت الجزيرتان على علاقة متينة ببعضهما . سافر الرهبان الأنجلوسكسونيون إلى إيرلندا للدراسة ، وجاء الرهبان من إيرلندا إلى انجلترا لتعلم اللغات التي انتشرت معرفتها هناك . أضحت أديرة **مالمسبري وفيرمونت** ، **وجارّو** إلى جانب **دير القديس بطرس في كانتربري** مراكز هامة للحياة الفكرية . كان القديس **بنديكت** مؤسس ديري فيرمونت وجارّو ، وهو كاتب متميز ، تركز اهتمامه في مؤلفاته على المعرفة ، والفن ، والليتورجيا ، سافر إلى **روما** خمس مرات لجلب رفاة القديسين ، والمخطوطات ، والتحف الفنية .

كان القديس **بيدا** ، دكتور الكنيسة ، وألمع عقول تلك المرحلة ، من تلامذته وقد لقبّه معاصروه بالمبجل . قضى حياته منذ الطفولة وحتى الشيخوخة في دير جارّو . دوّن التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي ، بالإضافة إلى العديد من التراتيل والشروحات للكتاب المقدس . وقد اهتم في إبداعاته بكافة الأمور : بدءاً من النحو والبلاغة ، ومروراً بعلم الفلك والفيزياء والرياضيات ، وانتهاء بالموسيقى والشعر ، دون أن يغفل التاريخ وسير حياة القديسين . درس بعناية الحقبة الكلاسيكية القديمة . تحدث بطلاقة باللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية . توفي عام ٧٣٥ وهو عاكف على ترجمة إنجيل القديس **يوحنا** إلى اللغة الإنجليزية .

لم تشمل هذه المعرفة الهائلة والثقافة الأصيلة التي تطورت في الأديرة الإنجليزية كامل سلك الكهنوت . ولكن مما يمكن استنتاجه من مداولات المجامع الكنسية التي أدانت شتى التجاوزات ، يتضح أن المستوى العام لرجال الدين (إن لم يكن الفكري ، فالأخلاقي) كان

أعلى مما هو عليه في القارّة .

ظهرت في بريطانيا آنذاك كتب شيّقة مخصصة للكهنة الذين تلقّوا اعترافات المؤمنين . كانت بمثابة سجلات تصنف الآثام وماتفرضه الكنيسة من كفارة عن ارتكابها . يبدو وكأن هذه الكتب تشير إلى تكرار عملية الإعتراف ، وإلى الميل لكبح جماح المتشددين من الكهنة ومنعهم من تحديد عقوبات صارمة .

ـ عقيدة وحدة الإرادة Monotheletism

لنعد الآن إلى **بيزنطة** وهيراقليوس .

أدرك الامبراطور الظافر مقدار ماهو مدين به للموقف الرائع الذي وقفه معه البطريرك **سرجيوس** في اللحظات المأساوية ، وشجعه على خوض المعركة . فوافق دون اعتراض على المشروع الذي أعدَّه البطريرك أثناء غيابه عن القسطنطينية ، وبدأ بالسعي للحصول على موافقة الإمبراطور بعد عودته إليها .

كانت قضية إعادة الوحدة الكنسية في الإمبراطورية من القضايا الملحة على الصعيد الدولي أيضاً . فالملك الفارسي كسرى ، وقف موقفاً معادياً من الكنيسة أثناء حربه مع هيراقليوس ، لكنَّه أحاط برعايته الكنيستين القبطية واليعقوبية ، وهذا مادفع بالمونوفيزيين للوقوف إلى جانب الفرس ضد الإمبراطورية الرومانية .

دعت الضرورة لإتخاذ إجراء يمنع تكرار ذلك في المستقبل ، ولإيجاد مرتكز للتفاهم مع المونوفيزين ، فوضع **سرجيوس** صيغة جديدة . نصَّت الصيغة الجديدة على وجود طبيعتين إلهية وبشرية في شخص يسوع ، ولكن بعد اتحادهما أسفرتا عن وجود «إرادة واحدة» و«فعل واحد» . وافق هيراقليوس على هذه الجدلية الرقيقة ، واعتبر نفسه مسؤولاً عن الصيغة الجديدة ، فطالب أتباع الكنيسة الجامعة والمونوفيزيين معاً بالموافقة عليها . أضحى **سيروس** بطريرك الإسكندرية من أنشط الدعاة لصيغة «وحدة الارادة» (بينما عارضها **بنيامين** البطريرك القبطي) . وتمَّ قبول الحل التوفيقي بصورة معقولة في كل من **سوريا** و **أرمينيا** أيضاً . كانت الكنيسة الأرمنية قبل ذلك الحين (وبفضل انتصارات هيراقليوس) قد عادت للإلتزام بالوحدة بموجب مقررات مجمع **غارين** عام ٦٣٠ . ونشأ تصور بأن الصيغة التي اقترحها **سرجيوس** سوف تسهل عملية الوحدة .

لكنَّ الراهب الفلسطيني **سوفرونيوس** بعد اطلاعه على الصيغة الجديدة اعتبرها هرطقة . فخاطب **سرجيوس** وهو لايعرف بأن **سرجيوس** نفسه صاحب الفكرة . كان سوفرونيوس خصماً خطيراً ، إذ تميَّز بعلمه الغزير إلى جانب تقيه وورعه . أمضى بضعة أعوام

في **روما** أثناء الغزو الفارسي ، وعُرِفَ فيها على نطاق واسع . وجد **سرجيوس** نفسه مرغماً على اتخاذ جانب الحيطة والحذر ، ولكي يستبق الأحداث ، بادر لتوجيه رسالة إلى البابا بهذا الخصوص عام ٦٣٤ .

جلس **هونوريوس الأول** تلميذ القديس **غريغوري** على العرش البابوي منذ عام ٦٢٥ . وقد أحرز نجاحاً كبيراً بقضائه على إنشقاق **أكويليا** جزئياً عام ٦٢٨ ، حيث اعترف أساقفة **إستريا** (المنطقة الخاضعة للسلطة البيزنطية) بسلطة البابا ، ولم يبق في حالة الإنشقاق سوى الأساقفة في المناطق الخاضعة للنفوذ اللمباردي .

كُتبت رسالة **سرجيوس** ببراعة وذكاء . فقد أثنى في المقدمة على النتائج الإيجابية التي حققها **سيروس** الإسكندري ، ثم تذمر من **سوفرونيوس** ، ومن أنه بآرائه «الجديدة» عن وجود «إرادتين» في يسوع ، يخلق قناعة بإمكانية حدوث تناقض بين الإرادة البشرية والإرادة الإلهية .

جاء رد **هونوريوس** على **سرجيوس** سريعاً دون محاولة تقصّي أبعاد القضية . أثنى على حماس البطريرك ، وكتب قائلاً : «ربنا **يسوع** المسيح . . . واحد في فعله الإلهي والبشري ، وهذا مايعلمنا إياه الكتاب المقدس . وإذا توجّب بسبب الأعمال الإلهية والبشرية التحدث والتعليم عن فعل واحد أو فعلين ، فهذا ليس من شأننا : ولنترك الأمر للنحويين . . . إننا نرفض المصطلحات الجديدة . . . لأننا لو تحدثنا عن الفعلين ، سنقبل بتعاليم نسطور المجنونة ؛ وإذا تحدثنا عن الفعل الواحد ، سَنُعَدُّ من أتباع **يوتيكس** . . . نعلن عن إرادة واحدة في ربنا **يسوع** المسيح . . . ولاوجود في جسد **يسوع** لقانون آخر أو لإرادة أخرى قابلة لأن تتمرد على المخلِّص» .

لم تكن مقولة البابا خاطئة . ففي حديثه عن «الإرادة الواحدة» كان يقصد التوافق التام بين الإرادتين الإلهية والبشرية : وألغى إحتمال تمرد الإرادة البشرية على الإرادة الإلهية . ولكن على أي حال ، كان هذا رفضاً لمقولة **سوفرونيوس** عن الارادتين ، مما يسمح بتأويلها أنها قبول لفكرة **سرجيوس** عن «وحدة الإرادة» . ارتكب هونوريوس خطأ آخر : عندما جاء مبعوثو **سوفرونيوس** الذي انتخب بطريركاً لأورشليم إلى **روما** حاملين معهم رسالة البطريرك الجديد المتضمنة شرحاً لتعاليمه عن الإرادتين ، صرّح البابا بأنه راغب في أن يكفَّ سوفرونيوس عن المناداة بعقيدته . وكتب مرة ثانية إلى **سرجيوس** ، وفي هذه المرة أيضاً كانت مقولته أرثوذكسية تماماً . تحاشى في رسالته استخدام مصطلح «فعلين» ، وكتب قائلاً : «نرفض المصطلحات الجديدة . . . . ونرغب في أن نُعلِّم بأن الفاعل الوحيد هو **يسوع** المسيح ، ربنا ، الذي كان فاعلاً بطبيعتيه الإثنتين . إننا نفضل التحدث عن «الطبيعتين» بدلاً من «الفعلين» . . . وهما الفاعلتان في شخص ابن الله الآب وفق خصائصهما ، دون اختلاط ،

أو تجزئة ، أو تغيير» .

تضمنت رسالة البابا التعاليم الحقة ، لكنّها على الصعيد الكلامي كانت تنازلاً أمام **سرجيوس** مرة ثانية . لكنَّ هذا التنازل لم يُرضِ **سرجيوس** ، الذي بدلاً من نشر رسالة البابا ، طالب الامبراطور بإصدار صيغة «وحدة الإرادة» على هيئة مرسوم امبراطوري . عجز هيراقليوس عن رفض أي من مطالب البطريرك . فصدر عام ٦٣٨ مرسومه المعروف باسم Ectesis Pistoes الذي نصَّ على : «نعلن عن وجود إرادة واحدة في ربنا **يسوع** المسيح ، الإله الحق ، أي أن الجسد الذي أحيته الروح الواعية لم يقم في أية لحظة بصورة مستقلة ، وبمبادرته الخاصة بأدنى حركة طبيعية ضد مبادرة الإله ـ الكلمة ، الذي اتحد معه اقنوميا ، وإنما عندما سمح الإله ـ الكلمة بذلك فقط» .

لم تخدم هذه الوثيقة التي أخفت صيغة خاطئة تحت غطاء الأرثوذكسية أي غرض . فصيغة «وحدة الإرادة» التي كانت حلاً وسطاً لكسب المونوفيزيين فقدت قيمتها العملية آنذاك . إذ أن بعض الأحداث التي سنتحدث عنها بعد قليل أدت عام ٦٣٨ إلى ضياع كافة الفرص لتوحيد الكنيسة في الامبراطورية الرومانية .

توفي هونوريوس في السنة التي صدر فيها المرسوم ، وفي العام ذاته توفي كل من **سرجيوس** وسوفرونيوس . نظر **سيفيرين** خليفة هونوريوس إلى المرسوم بشيء من الشك والحذر . لكنَّه لم يجد مايكفي من الوقت لأن يعبر عن رأيه فيه ، إذ توفي بعد بضعة أشهر من انتخابه . أما **يوحنا** الرابع (الذي تولّى العرش البابوي اعتباراً من عام ٦٤٠) فقد أدان المرسوم علناً ، وتقبّل هيراقليوس الإدانة دون اعتراض . كان **سرجيوس** قد رحل ، وعاش الامبراطور أزمة نفسية عميقة في مواجهة الكوارث التي بدأت تحلُّ بالامبراطورية ، والتي اعتبرها عقاباً على زواجه المحرَّم من مارتينا ابنة شقيقته .

تظلُّ قضية «خطأ» البابا هونوريوس قائمة . أدان المجمع الكنسي المسكوني السادس الذي انعقد عام ٦٨٠ هونوريوس . وكرر عدد من البابوات اللاحقين هذه الإدانة . الحقيقة أنَّ هونوريوس لم ينادِ بمبدأ «وحدة الإرادة» ، ولم يكن مهرطقاً ، وعلى أي حال كما يقول **جورنييه** : «الهرطقة بالمعنى الدقيق خطيئة ، إنها فعل الإرادة ، وليست اقتراحاً . والإنسان الذي ينفصل عن الإيمان بمحض إرادته . . . وحده يمكن أن يكون مهرطقاً» . يجب أن نفهم إدانة هونوريوس كإدانة لغياب الحذر بالنسبة لعقيدة خاطئة ، وليس كإدانة لمشاركة البابا في ارتكاب الخطأ .

لم يكن لمقولة هونوريوس طابع المعصومية عن الخطأ . فوفقاً لعبارات الكاردينال جورنييه الدقيقة ، تتمتع الكنيسة الرسولية بسلطة توضيح موضوع الوديعة الإلهية ؛ وبسلطة قانونية لخدمة الوديعة وتنظيم الحياة المسيحية . صاحب السلطة الأولى هو البابا شخصياً أو

برفقة الأساقفة (في المجمع المسكوني أو متفرقين) . وصاحب السلطة الثانية هو البابا ذاته ، والأُساقفة ذاتهم ، كل في أبرشيته . تُعَدُّ المقولة الصادرة عن السلطة الأولى وحدها بمثابة صوت يسوع المتكلم عبر صوت الكنيسة ، وهي وحدها التي تتمتع بإمتياز المعصومية وتتطلب الطاعة المطلقة . أما السلطة القانونية التي تمثِّل صوت الكنيسة الخاص ، فهي معصومة نسبياً ، وتخضع للعقل ، وتتطلب الطاعة الأخلاقية والإنضباطية .

كان لمقولة هونوريوس في أفضل الأحوال طابع المقولة القانونية (ويمكن ببساطة أن تعتبر رأياً شخصياً) . لم تكن إيضاحاً لنقطة معينة في وديعة الإيمان ، وإنما مجرد إتخاذ موقف من ظاهرة منقولة إلى البابا بصورة غير صحيحة ، وهي الآراء التي نادى بها سوفرونيوس .

الفصل الثامن

الإســـــلام

ـ الرسول محمد

بدأ ضغط القبائل العربية على **سوريا** وبلاد الرافدين على نحو غير ملحوظ بالنسبة للكثيرين (مثلما فعل الجرمان من قبل على حدود الإمبراطورية الرومانية) ، ويبدو أن الجفاف الذي اجتاح شبه الجزيرة العربية كان السبب الرئيسي في ذلك . فتكررت مناوشات القبائل العربية على حدود الامبراطوريتين الرومانية والفارسية . كان أحد الأمراء العرب وزوجته **زنوبيا** قد أسسا إمارة عربية مستقلة لفترة قصيرة من الزمن في **تدمر** ، وشغل الأسقف **بولس الساموساتي** منصب وزير فيها . كما تأسست بين القرنين الرابع والسادس إمارتان غيرها ، إحداها في **الحيرة** ، حيث خضعت لنفوذ الملوك الساسانيين واستغلها **الفرس** ضد **بيزنطة** ؛ والثانية في **حوران** ، وهي إمارة **الغساسنة** التي تحالفت مع الامبراطورية الرومانية وأغارت على الممتلكات الفارسية . تمردت هاتان الإمارتان في مطلع القرن السابع على حلفائهما ، ووجهت إحدى القبائل العربية عام ٦١١ ضربة موجعة للفرس قرب **ذي قار** ، كاشفة بذلك عن ضعف المملكة المنهكة بحروبها الدائمة .

كان **الرسول محمد** الفقير سليل أسرة قريشية ثرية . وُلد في مكة عام ٥٧٠ على الأرجح . واحتك مع عدد كبير من الناس خلال عدد من الرحلات التجارية ؛ ولم يكن هؤلاء من العرب فحسب ، وإنما من المسيحيين **المونوفيزيين** و**اليهود** أيضاً .

كان عرب الحجاز وثنيين **فتشيين** . وكان الحجر الأسود في كعبة مكة من أقدس

مقدساتهم . كان الرسول **محمد** مفكراً دفعته تأملاته الطويلة أثناء رحلاته في الصحراء لوضع أسس ديانة جديدة تُعَدُّ مزيجاً من المسيحية ، والموسوية ، والمعتقدات العربية البدائية . يقول **داوصن** في هذا الصدد : «كان الإسلام أنموذجاً جديداً من الديانات الشمولية (العالمية) المختصرة إلى أبسط العوامل . يعتمد أساساً على الوحدانية المطلقة وعلى القدرة المطلقة للإله ، وأولوية الحياة الآخرة . . . أما الحياة الآخرة فمصوَّرة بأسلوب مادي بمخيلة حيَّة» .

أرسل الله بأنبيائه إلى العالم (وفقاً لتعاليم الإسلام) ، ومنهم **آدم** ، **ونوح** ، **وابراهيم** ، **وموسى** ، **والمسيح** . أما آخر الأنبياء وأهمهم فهو الرسول **محمد** .

أُلزم معتنقوُ الإسلام بالتآخي فيما بينهم ، وبأعمال البر ، وكرم الضيافة ، واللطف ، والتصدُّق . كما فُرِضَ حظر تناول المشروبات المسكرة ، لكنَّه سمح بتعدد الزوجات . يشير **داوصن** إلى أن «الجانب المقابل لتبسيط العقيدة والنظام الأُخلاقي في الإسلام هو تعقيد الطقوس : الصلاة خمس مرات في اليوم المترافقة بعدد محدد من الركعات ، ترتيل القرآن ، الصيام السنوي الصارم في شهر رمضان ، الأسس الدقيقة فيما يتعلق بالطهارة الطقسية والوضوء ، والحج السنوي إلى «مكة» .

كتاب الإسلام المقدس هو **القرآن** ، ويتألف من مئة وأربع عشرة سورة غير منظمة في تسلسل معين . كما اكتسبت كتب السنَّة بمرور الزمن أهمية كبرى ، وهي مجموعة التقاليد النبوية . نشأ على صعيد الموقف من السنَّة الإنشقاق الشيعي في الإسلام ، وهو رافض للسنَّة . ويشكل أنصار السنَّة . الإتجاه الأرثوذكسي في الإسلام .

كانت القبائل العربية التي بدأت تضغط بقوة متزايدة على حدود الامبراطورية الرومانية وبلاد فارس مشتتة ومتناحرة فيما بينها ، وبحاجة ماسة لراية تنضوي تحت لوائها ، فأضحى الإسلام بمثابة هذه الراية .

لم يحدث هذا بصورة فورية ، لأن تعاليم الرسول لم تلقَ استحساناً لدى المكيين ، مما اضطَّر الرسول إلى الهجرة من مكة إلى المدينة . يُعَدُّ تاريخ هذه الهجرة (٦٢٢م) . تاريخاً أساسياً في **الاسلام** . ناصر الكثيرون من سكان المدينة الرسول ، فقادهم في السنة العاشرة للهجرة لفتح مكة . وفي هذه الأثناء سيطر أتباعه على كامل المنطقة العربية . توفي عام ٦٣٢م وقد أصبح زعيماً لكامل شبه الجزيرة العربية .

لم تقتصر الديانة الجديدة على ضمِّ شمل القبائل العربية المتناحرة فحسب ، بل أضفت معنى على نشاطهم العسكري . فقد طالب القرآن **المسلمين** بمحاربة الكفار الذين لايؤمنون بالرسالة السماوية الحقة . . . ومطالبتهم باعتناق الإسلام أو دفع الجزية . . . فرض الجهاد على **المسلمين** ، ووعد الشهداء بالجنة . وهكذا ظهر مَثَلُ الحرب المقدسة ـ الجهاد ـ التي كانت

دائرة آنذاك بين **بيزنطة** وفارس . لكن العرب كانوا أكثر انسجاماً مع مثلهم الأعلى هذا . ولذلك بدأوا بتحقيق إنتصارات صاعقة .

ـ الطوفان الإسلامي

لم يُعيِّن الرسول خليفة لنفسه . وبعد مرحلة النزاعات تولى الخلافة **أبو بكر الصديق** . وفي عهده دخل العرب **فلسطين** بعد أن هزموا جيوش الوالي الروماني عام ٦٣٤ قرب البحر الميت . وجاء بعده الخليفة **عمر بن الخطاب** الذي دخل القدس .

يبدو وكأن **الغزو العربي لفلسطين** اتخذ طابع حملة النهب في بادئ الأمر . لكنَّ العرب فوجئوا بضعف المقاومة من جانب الجيوش الرومانية ، وبما استقبلهم به السكان اليهود والمسيحيون المونوفيزيون من حفاوة ، لأنهم انتظروا قدوم العرب بفارغ الصبر كمنقذين ، ولم يتعرضوا للأذى من جانب **المسلمين** لكونهم من أهل الكتاب .

شجع هذا الشيء الخليفة **عمر** على متابعة الزحف والظهور بدور المنقذ . فاستسلمت **دمشق** عام ٦٣٥ . وسقطت **طبريا** ، **وبعلبك** ، **وحمص** دون مقاومة . بعث **هيراقليوس** الذي أقلقه الغزو العربي بجيش من المرتزقة قوامه عشرون ألف مقاتل لمواجهة العرب . انسحب العرب في بادئ الأمر ، حيث أقلقتهم ضخامة قوات الخصم ، لكنَّهم خاضوا المعركة فيما بعد على ضفاف **نهر اليرموك** . «وفي العشرين من آب عام ٦٣٦ دارت رحى المعركة الحاسمة في أجواء عاصفة رملية خانقة . كان المسيحيون أكثر عدداً ، لكنَّ العرب تميَّزوا بقدرة أكبر على المناورة في القتال . أثناء المعركة ، انتقل أمير الغساسنة برفقة إثني عشر ألفاً من الجنود المسيحيين العرب إلى معسكر الخصم ، كانوا من المونوفيزيين الذين ملأتهم مشاعر الكراهية نحو **هيراقليوس** . . . فكان انتصار **المسلمين** تاماً . . . وأضحت أبواب **فلسطين وسوريا** مشرعة أمام المنتصرين» . هذا ماكتبه المؤرخ **رونسيمان** .

لم يعد **هيراقليوس** بطل الحروب السابق مع الفرس . باغته نبأ الكارثة **في إنطاكية** ، حيث وجد الامبراطور نفسه بدون أموال وجيوش ، مفتقراً لروح العناد والصراع . فركب البحر باكياً ، وابحر إلى **القسطنطينية** .

سيطر العرب في هذه الأثناء على فلسطين . وظلَّ البطريرك **سوفرونيوس** (الذي قاوم فكرة «وحدة الإرادة») وحده مصمماً على الدفاع عن أورشليم ، فرمم الأسوار المهدمة أثناء الغزو الفارسي . لكنَّه عندما أُعلم باقتراب الجيوش العربية من **أريحا** ، بعث بالآثار المقدسة لآلام **يسوع** إلى الشاطئ ليلاً لنقلها إلى القسطنطينية . لم يكن مقتنعاً بإمكانية صد الفاتحين

الجدد .

يقول المؤرخ **رونسيمان** في هذا الصدد : «دخل الخليفة **عمر** في أحد أيام شباط من عام ٦٣٨ أورشليم ممتطياً ناقة بيضاء . كانت أثوابه قديمة وغير نظيفة وكانت الجيوش التي قادها خشنة وسيئة الهندام ، لكنها منظمة بصورة رائعة . ووقف إلى جانب الخليفة البطريرك أكبر موظفي المدينة المستسلمة . توجه عمر مباشرة إلى موقع معبد سليمان . .ثمَّ أراد رؤية الأماكن المقدسة المسيحية ، فاصطحبه البطريرك إلى كنيسة القبر المقدس . . .وبينما هو في الكنيسة حان موعد الصلاة ، فسأل الخليفة عن مكان يستطيع فيه أن يمدَّ سجادته ليصلي . ألحَّ البطريرك عليه لكي يظلَّ في مكانه ويصليّ ، لكنَّ عمر خرج قائلاً بأنه يخشى أن يطالب أتباعه المتحمسون بمكان مقدس للمسلمين في الركن الذي صلَّى فيه» .

لم تغير هذه اللفتة الإنسانية الرائعة والتعاطف الذي أبداه الخليفة نحو المدينة المحتلة شيئاً في الأوضاع السائدة . سقطت **سوريا** وفلسطين في أيدي **المسلمين** (ظلَّت **قيصرية** تقاوم حتى عام ٦٣٩) . توفي **سوفرونيوس** بعد بضعة أسابيع من استسلام المدينة . وكان قَدَرُ المسيحيين المتخاصمين فيما بينهم والكارهين لبعضهم البعض ، أن يسقطوا ، بعد أن فضلوا الخضوع لسلطة أناس اعتنقوا ديانة أخرى ، وتناسوا المحبة والوحدة . انتصر الإسلام . ربما كان السبب في ذلك ، أن المسيحية ليست سحراً يحرس معتنقيه حتى في اللحظات التي يصبحون فيها غير أوفياء لحقائقهم .

قام العرب في الوقت ذاته بسرعة تبعث على الذهول ، ومن خلال معركتين ظافرتين في **القادسية** عام ٩٣٧ ، وفي **نهاوند** عام ٦٣٨ بكسر طوق المقاومة الفارسية ، وإحتلال البلاد حتى نهر**أوكسوس** وجبال **أفغانستان** . وهكذا اختفت الامبراطورية الساسانية ـ العدو الأزلي لـ**روما** ـ من الوجود .

اجتاح القائد العربي **عمرو بن العاص** بمبادرة ذاتية **مصر** عام ٦٣٩ على رأس أربعة آلاف مقاتل عربي . وعثر هناك حالاً على حلفاء في أوساط المونوفيزيين وبطريركهم **بنيامين** . وعلى أي حال ، فإن بطريرك الكنيسة الجامعة **سيروس** الموما إليه آنفاً كنصير لفكرة «وحدة الإرادة» ، تعامل بدوره مع الغزاة . فاستدعاه **هيراقليوس** إلى القسطنطينية واعتقله بتهمة الخيانة . لكنَّ هذا لم يغيِّر في الأمر شيئاً . تمَّ احتلال **مصر** العليا . وظلَّت **الاسكندرية** وحدها تقاوم .

توفي هيراقليوس اليائس والمنهار عام ٦٤١ بعد إصابته بالحصبة كان لإبنه (من زوجته الأولى) **قسطنطين** أن يخلفه على العرش ، لكنَّه توفي بعد بضعة أشهر مسموماً على يد زوجة

أبيه **مارتينا** كما يُعتقد . فاستولت مارتينا على السلطة ، بمساندة من بطريرك القسطنطينية **بيروس** (المؤيد المتحمس لعقيدة «وحدة الإرادة») ، ومارستها بإسم ابنها هيراقليوس . أطلقت سراح سيروس ، وامرته بالتوجه إلى **مصر** بهدف التفاوض مع **عمرو بن العاص** .

ولمّا بدأت هذه المفاوضات تفجرّت ثورة شعبية في القسطنطينية . سئم سكان القسطنطينية مارتينا (التي اعتبروها سبب جميع الكوارث) **وبيروس** . نودي بإبن **قسطنطين** المدعو **كونستانس** امبراطوراً (كونستانس تصغير لإسم قسطنطين ، فهو في واقع الأمر **قسطنطين** الثالث) . قُطع لسان مارتينا ، وجُدع أنف ابنها ، واحتجز كلاهما في الدير . كما تخلّى بيروس عن منصبه وسافر إلى افريقيا .

نقض عمرو الإتفاقَ الذي وقعَّه مع سيروس (والذي لم يعترف به الامبراطور البيزنطي الجديد أيضاً) . احتلَّ **بنتابوليس و طرابلس** . أما **الاسكندرية** فقد سقطت عام ٦٤٢ . وهكذا انتهت المرحلة **الهلنستية في مصر** ، والتي دامت مايقارب الألف عام . استعادت الجيوش الجديدة المرسلة من القسطنطينية المدينة مجدداً عام ٦٤٤ . لكن الجيوش اصطدمت بموقف الأهالي المعادي ، وهُزِمَتْ ثانية على يد **عمرو بن العاص** .

أَغْرَقَتْ موجة الغزو العربي بلاد الرافدين أيضاً ، فوصلت إلى **أرمينيا** . عقد القائد الأرمني **تيودوروس ريختوني** معاهدة مع الغزاة . أما عاصمة البلاد دوفين فقد سقطت عام ٦٤٢ . نذكر أن الكنيسة الأرمنية عادت إلى المذهب الأرثوذكسي عام ٦٣٠ ، لكن هذا لم يكن سوى اتفاق مرحلي فرضه ضغط هيراقليوس وقوته . أما مع قدوم العرب ، فقد وافق **تيودوروس** على الاعتراف بالسيادة العربية لقاء حماية المونوفيزية .

ـ المسيحية في الدولة العربية

لم يكن العرب في عهد الخلافة الأموية حتى عام ٧٥٠م أعداء للمسيحيين . وقد كتب بطريرك اليعاقبة في **انطاكية** بعد ذلك الحين بفترة طويلة قائلاً : «سُرَّتْ قلوب المسيحيين بالحكم العربي ، فليكن الله معهم ويزيدهم قوة !» . وكتب المؤرخ النسطوري المجهول : «رفع الله أبناء اسرائيل من الجنوب ، لتخليصنا من قبضة الرومان» . الحقيقة أن عمرو بن العاص خيَّب آمال المونوفيزيين ، فقد أثبت بأنه مخادع وحشي ، ولكنه يمثل حالة شاذة عن القاعدة . فقد أتباع الكنيسة الجامعة مواقعهم ، ولكنَّ هذا لايعني أنهم كانوا مضطهدين .

كانت حرية المسيحيين جميعاً ، واليهود أيضاً (أهل الكتاب) مصانة في الدولة العربية

شريطة دفع الجزية . وتمّ التعامل مع كل مذهب بزعامة زعيمه الروحي كمجموعة مستقلة حافظت على حقها في كافة المعابد وامكنة العبادة التي كانت تملكها في لحظة الغزو (باستثناء المعابد ـ الكثيرة على اي حال ـ التي هدمها المسلمون أو استولوا عليها لأنفسهم . سمح العرب ببناء معابد جديدة أيضاً ، شريطة أن تكون أقلّ ارتفاعاً من الجوامع . لكنهم حظّروا قرع الأجراس . ارغمت كل مجموعة على ارتداء زيّ خاص بها . كما مُنِعَ المسيحيون من ركوب الخيل ، وهداية **المسلمين** ، والزواج من المسلمات .

ألغى نظام الجماعات المستقلة امكانية عودة المسيحيين للوحدة الكنسية على الصعيد العملي . لم يكتف العرب بنشاطهم لهداية السكان إلى الإسلام ، ولكن القسم الأكبر منهم اعتنق الإسلام لأغراض نفعية تلقائياً . وسبق سكان الريف غيرهم إلى ذلك ، بينما ثبت مسيحيُو المدن وحافظوا على ديانتهم . أبدى المونوفيزيون ميلاً أكبر للردة من أتباع الكنيسة الجامعة . وكان المسيحيون العرب ، وخاصة مواطنُو إمارة الغساسنة (حليفة **بيزنطة** السابقة) مضطهدين بشكل خاص منذ البداية .

وباستثناء ذلك سادت عملياً حرية المعتقدات . وتمكن المسيحيون من شغل وظائف في بلاط الخليفة بالذات (كوالد القديس **يوحنا الدمشقي** ، **ويوحنا** نفسه) ، وقام الفنانون المسيحيون بتلبية طلبات الحكام العرب . فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الأباطرة اضطهدوا الكنيسة الأرثوذكسية خلال القرن الثامن بأكمله ، يمكن القول بأنَّ أوضاع المسيحيين في الدولة العربية كانت أفضل منها في **بيزنطة** ، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك أن دولة الخليفة نعمت بالنظام والرفاه وفرضت نظاماً ضريبياً بعيداً عن القسوة كل البعد .

ـ المسيحيون في الصين

حُرِمَتْ الجماعات الدينية المنغلقة من امكانية ممارسة النشاط التبشيري داخل الدولة العربية . فقامت بعض هذه الجماعات بتعويض هذا النقص من خلال النشاط الديني في الخارج . اكتشفت عام ١٦٢٥ مسلة في **سي ـــ نغان ـــ فو** يعود تاريخها إلى القرن الثامن ، تخبرنا عن قدوم كاهن نسطوري يدعى آ ـــ **لو ـــ بين** ، إلى عاصمة الامبراطورية تشانغ نغان في عهد الإمبراطور **تي ـــ تسونغ** ، وشيَّد معبداً فيها .

كانت هذه المرحلة من تاريخ **الصين** هي فترة توحيد الدولة على ايدي أسرة **تانغ** . وقد تمكَّن **لي ـــ سي ـــ نمْ** (وهو القيصر اللاحق تي ـ تسونغ) من صدِّ هجمات الأتراك الشرقيين عام ٦٢٤ ، وفرض السيطرة الصينية على الخان التركي وعلى كامل منغوليا عام ٦٣٠ ، ثم

هُزِمَ الأتراك التركستانيون . فبسط **تي ـــ تسونغ** النفوذ الصيني على إمتداد حوض **تاريم** ، ومهَّد بذلك لنفسه الطريق إلى الهند ، واقترب من حدود الدولة العربية . وعبر هذه الطريق وصلت البوذية إلى دولة الوسط ، وكذلك المسيحية النسطورية .

أصدر **تي ـــ تسونغ** عام ٦٣٨ مرسوماً نقرأ فيه : «لاتحمل القوانين الحقيقية (الدينية) اسماً واحداً . وليس للقديسين مكان إقامة واحد . إنهم يتنقلون في أرجاء العالم ويدعون للإيمان .ويوبخون الشعب ، ويقدمون العون للمحتاجين في السر .جاء الرجل الفاضل آ ـــ **لو ـــ بين** إلى امبراطوريتنا من البلد البعيد **تا ـــ تسين** ، ليهدينا أسفاراً مقدسة تتضمن تعاليم جديدة ، أوضح لنا معانيها . وبعد إطِّلاعنا على الأسفار وإصغائنا للتعاليم ، اقتنعنا بأنها معجزية بعمق ومثالية ، ونافعة للإنسان بقدر كبير» .

حظيت المسيحية برعاية قياصرة أسرة تانغ . فنشأت عشرة مقاطعات كنسية ، وأُسست أديرة كثيرة . اصطدم المسيحيون في مطلع القرن الثامن مع البوذيين وفقدوا الكثير من نفوذهم ؛ لكنهم استعادوا نفوذهم فيما بعد بفضل توافد مبشرين جدد من فارس . أحاط القياصرة المسيحيين برعايتهم ، وقام أحد الحكام هو **هيوان ـــ تسونغ** بزخرفة الكنائس المسيحية في العاصمة برسوم وصور أنجزها بيده .

نُقِشَتْ على المسَلة المذكورة أسماء سبعين من الكهنة (أساقفة ، وقسس ، وشمامسة) . لأسمائهم صبغة صينية ، ويصعب الجزم فيما إذا كانوا من الوافدين ، أم أنهم من السكان المحليين .

انتقلت التجارة البحرية في القرن التاسع من أيدي الفرس إلى العرب . توقف العرب عن الإبحار إلى بحر الشرق الأقصى ؛ فانقطعت الصلة بالصين نتيجة ذلك . ولانعرف شيئاً عما جرى للمسيحيين في الصين وعن مصيرهم . ولمَّا بعث البطريرك النسطوري **عبديشو** الأول عام ٩٨٠ ببعثة مؤلفة من ستة رهبان إلى الصين لتقصِّي أخبار الجماعة المسيحية هناك ، تعذّر على البعثة جمع أية معلومات عنها .

الفصل التاسع

نهاية عقيدة «وحدة الإرادة»

ـ كونستانس

أثبت كونستانس أنه أشد حماساً من جده لنصرة عقيدة وحدة الإرادة . وقد فقدت هذه المحاولة التوفيقية كلَّ قيمة لها من حيث إمكانية إعادة الوحدة الكنسية ، وذلك بعد فقدان المقاطعات الشرقية . لكنَّ كونستانس كان رجلاً عنيداً ، بالإضافة إلى كونه حاقداً ووحشياً .

ساعده توقف الهجوم العربي مرحلياً على تركيز اهتماماته على الأمور الكنسية .

بعد وفاة **يوحنا** الرابع عام ٦٤٢ ، جلس على العرش البابوي في **روما** تيودور الذي انحدر من أصول إغريقية . أجرى اتصالات مع **بولس** بطريرك القسطنطينية ، وطالبه بإدانة مرسوم Ectesis Pistoes . لكنَّ بولس لم يرغب في الصدام مع الامبراطور ، وأخبر البابا بأنه يعترف بوجود «طبيعتين» و«إرادة واحدة» ، الأمر الذي «اتفق عليه بشكل تام كل من **سرجيوس** وهونوريوس» . عرف **تيودور** جيداً مايمكن أن يكوِّنه من رأي عن بولس ، فألقى عليه الحرم الكنسي .

التقى بطريرك القسطنطينية السابق **بيروس** المنفي إلى افريقيا برئيس الدير **مكسيم** . ومكسيم هذا أحد آخر كتَّاب الكنيسة الشرقية ، وهو من سكان القسطنطينية ، شغل لفترة من الزمن منصب سكرتير هيراقليوس ، ويحتمل أن يكون واحداً من أقربائه . هجر البلاط فيما بعد ، وترهب في دير **كريزوبوليس** . ولمَّا اقترب الفرس من خلقيدونيا ، انتقل **مكسيم** إلى

الاسكندرية . ثم رحل إلى **قرطاجنة** بعد أن احتلَّ العرب **مصر** . وحيثما وُجِدَ حارب عقيدة وحدة الإرادة .

خاض في قرطاجنة نقاشاً مع **بيروس** تلبية لرغبة الأساقفة الأفارقة وتغلّب عليه عام ٦٤٥ . فاعترف بيروس بأخطائه وذهب إلى **روما** حيث حصل على عفو البابا .

لكنّ استسلام بيروس لم يكن صادقاً . يبدو أن اكسرخس قرطاجنة المدعو **غريغوري** خطط لتمرد ضد كونستانس ، وبحث عن دعم لدى ممثلي الكنيسة الأرثوذكسية . واعتقد بيروس أنه لو تاب سيتمكن في حال حدوث الانقلاب من استعادة منصبه كبطريرك للقسطنطينية . لكن الاكسرخس **غريغوري** قُتِلَ عام ٦٤٧ قرب Zbejtl في حربه مع العرب ، فغيَّر بيروس موقفه فور سماعه هذا النبأ : هرع إلى **رافينا** بحثاً عن حماية الأكسرخس الامبراطوري هناك ، وأنكر تراجعه عن عقيدة وحدة الإرادة .

في هذه الأثناء أقنع البطريرك **بولس** (المحروم كنسياً من قبل البابا) الامبراطور بإصدار مرسوم جديد ، لم يكن الهدف في هذه المرة فرض عقيدة وحدة الارادة ، وإنما فرض الصمت . وينص مرسوم كونستانس المعروف باسم Typos ، والصادر عام ٦٤٨ على : «قررنا منع رعايانا الراغبين في الثبات في الأرثوذكسية والإيمان غير المتزعزع . . . من النقاش حول الإرادة الواحدة أو الإرادتين ، الفعل الواحد أو الفعلين» .

كان البابا **تيودور** قد توفي عام ٦٤٩ ، وكان ردُّ البابا الجديد **مارتن** ، السفير البابوي السابق في القسطنطينية على المرسوم الامبراطوري سريعاً : دعى لإنعقاد مجمع كنسي في **روما** يعرف باسم **المجمع اللاتيراني** ، وأدان عقيدة وحدة الإرادة بالإضافة إلى المرسومين Ectesis و Typos على نحو احتفالي . بعث البابا بمقررات المجمع لأساقفة المقاطعات الغربية (لم يكن في الشرق مَنْ يمكن أن ترسل إليه ، فبطريرك القسطنطينية كان محروماً كنسياً ، أما البطريركيات الثلاث الأخرى فقد وقعت تحت السيطرة العربية) . بحث البابا عن سندٍ له لدى الأساقفة الفرنكونيين ، معتقداً أن كونستانس سيهابهم أكثر من غيرهم نظراً لقوة الدولة الفرنكونية وتحالفها مع **بيزنطة** ، لكنَّه لم يحصل على أية مساندة من جانبهم .

تلخَّص ردُّ كونستانس على نبأ مقررات المجمع في إرسال اكسرخس جديد إلى إيطاليا هو **أوليمبيوس** ، لإرغام البابا على توقيع المرسوم الإمبراطوري . لم يجرؤ أوليمبيوس على استخدام القوة . وعلى أي حال ، يبدو وكأنه خطط بدوره لتمرد ضد الامبراطور الذي أضحى مكروهاً أكثر فأكثر ، لكنه قُتِلَ وهو يحارب العرب الذين هاجموا صقلية . أما **تيودور** كاليبوس الذي خلِفه ، فكان ينفذ أوامر الامبراطور بطاعة عمياء ، إذ اقتحم **الباسيليقا**

اللاتيرانية عنوة ، حيث اعتكف البابا ، وانتشله من أيدي المحيطين به ، وعامله معاملة وحشية وأرسله إلى القسطنطينية بحراً عام ٦٥٣ . استمرت الرحلة المأساوية التي تعرَّض البابا خلالها للتعذيب والإهانات قرابة عام ونصف . تمّت محاكمة مارتن في القسطنطينية . لم تكن التهمة الموجهة إليه متعلقة بموقفه الديني ، وإنما بتأييده المزعوم لتمرد **أوليمبيوس** ، وَحُكِمَ عليه بالموت . عدَّل الإمبراطور الحكم وخففه للنفي بناء على طلب البطريرك بولس الذي كان ينازع وهو على فراش الموت . تعرَّض **مارتن** مجدداً لمعاملة وحشية وأُرسل إلى **كِرسون** بعد وفاة **بولس** ، نجح **بيروس** في كسب تعاطف الإمبراطور ثانية ، والجلوس مجدداً على الكرسي البطريركي في القسطنطينية .

عامل الإمبراطور رئيس الدير **مكسيم** بوحشية أكبر مما تعرَّض لها البابا مارتن . كان مقيماً في روما ، عاكفاً على العمل في بعض الشروحات للكتاب المقدس وبعض التأملات حول أخلاقيات حياة الزهد . اختطف مكسيم أيضاً ونُقِلَ إلى القسطنطينية ، حيث حوكم بتهمة **الأوريجينية** ومناهضة المرسوم الامبراطوري . حُكِمَ عليه بالنفي إلى **تراقية** ، وعومل بوحشية متميزة . لم يشفِ نفي مكسيم غلَّ الامبراطور ، فقد حظي رئيس الدير بتكريم واحترام كبيرين في كامل الكنيسة الغربية ، واعتبر الخصم الرئيس لعقيدة وحدة الإرادة . فأمر الامبراطور بإرغامه على توقيع مرسومه Typos مهما بلغ الثمن . حاول مبعوثو الامبراطور تحقيق هدفهم بالإقناع في بادئ الأمر ، وتبع ذلك التهديد والترهيب الوحشي . لكن مكسيم لم يتعرض للإنهيار ، ونُفيَ مجدداً إلى **بيربيريس** على نهر الدانوب . قضى ستة أعوام في النفي . ثم جيء بالشيخ الجليل الذي ناهز الثمانين من العمر إلى القسطنطينية لمحاكمة جديدة . وفي هذه المرة أيضاً رفض التراجع عن قناعاته . حُكِمَ عليه بالجَلد ، وقطع اللسان ، وقطع اليد اليمنى . ثم نُفي إلى القفقاز حيث توفي عام ٦٦٢ .

حكم الامبراطور المسيحي ، حفيد هيراقليوس البطل ، بالموت على إثنين من القديسين !

أراد كونستانس معاقبة **يوجينيوس** خليفة البابا مارتن أيضاً ، الذي رفض بدوره (تحت تأثير الاكليروس والجمهور الروماني) وأدان رسالة بطريرك القسطنطينية الداعية لقبول التعاليم المتعلقة بوحدة الإرادة . لكنه لم يتمكن من تنفيذ رغبته ، إذ توفي يوجينيوس عام ٦٥٧ .

عندما تلقى الامبراطور نبأ توقيع الزعيم الأرمني **تيودوروس** لوثيقة التبعية للعرب (وهذا ماأشرنا إليه سابقاً) ، قام باجتياح أرمينيا ، احتلّ دوفين وارغم البطريرك الأرمني **نيرسيس** على قبول التعاريف الخليقدونية ومرسوم Typos . لكنه ما إن غادر أرمينيا ، حتى عاد تيودوروس

برفقة العرب ، واضطر نيرسيس لمغادرة العاصمة والإختفاء عن أعين المنتصرين عام ٦٥٤ .

دخل العرب مرحلة الحروب الأهلية . فبعد وفاة **عمر بن الخطاب** ، تولى الخلافة **عثمان** الذي قُتِلَ عام ٦٥٦ . وأراد أنصار **علي** تأسيس أسرة حاكمة وراثية يتوارثها أحفاد النبي المباشرين . اختار **علي** الكوفة عاصمة لملكه ، لكن **معاوية** استولى على السلطة في **سوريا** ، قُتِلَ **علي** عام ٦٦١ بينما كان يصلي صلاة الفجر بخنجر مسموم من أحدهم ، وفي عام ٦٨١ قُتِلَ **الحسين بن علي** ، فاصبح أنصار علي طائفة اسلامية تعرف باسم **الشيعة** . بينما أسس الأمويون دولة عربية علمانية عاصمتها **دمشق** ، استمرت حتى عام ٧٥٠م .

أرغمت الحروب الأهلية العرب على الإنسحاب من أرمينيا ، التي عادوا إليها ثانية عام ٦٦١ .

وقبل ذلك الحين أبحر الأسطول العربي عام ٦٥٥ في المياه الاغريقية ، ودمر الأسطول البيزنطي الذي قاده **كونستانس** بنفسه قرب فينيكس . باشر العرب بهجوم جديد على **قبدوقية** . ولكن الامبراطور تمكن عام ٦٥٩ من اقناع معاوية بعقد معاهدة سلام .

تقلصت رقعة الامبراطورية ، فلم تعد تضم سوى آسيا الصغرى ، لأن السلافيين كانوا قد سيطروا على البلقان . فعاد كونستانس إلى مخطط هيراقليوس القديم ، وقرر نقل العاصمة إلى الغرب . نزل عام ٦٦٣ في إيطاليا . وكما نذكر ، فإن شبه الجزيرة الأبينية كانت خاضعة للمبارديين باستثناء عدة جيوب بيزنطية ــ حول رافينا ، وليغوريا ، وبيروزيا ، وروما ، ونابولي ، بالإضافة إلى صقلية وجنوب شبه الجزيرة) . خطط كونستانس لإنتزاع كامل شبه الجزيرة من أيدي اللمبارديين ، لكنه تعرَّض لهزيمة نكراء في معركته معهم وانسحب إلى **روما** . وللمرة الأولى بعد مرور مئتي عام زار الامبراطور الروماني روما . كان **فيتاليان** بابا منذ عام ٦٥٧ ، وهو الرجل المسالم الذي اعاد العلاقات المقطوعة مع بطريرك القسطنطينية ، واستقبل الآن الامبراطور بحفاوة . بقي كونستانس في **روما** إثنا عشر يوماً ، غادرها بعدئذ متجهاً نحو الجنوب . أسس عاصمة في سرقوصه (صقلية) .وفي عام ٦٦٦ بعث إلى مور رئيس أساقفة رافينا مرسوماً يعلن فيه استقلال كنيسة رافينا عن روما . ربما تصور الإمبراطور أنه سيرغيم بذلك **روما** على النزول عند رغبته في قضية وحدة الارادة . قتل المتآمرون كونستانس عام ٦٦٨ . ونادى الجيش بالأرمني ميسيسيوس امبراطوراً . لكن الأسطول أخمد التمرد ، وسلّم زمام السلطة **لقسطنطين** الرابع .

ـ المجمع المسكوني السادس

اضطر الامبراطور الجديد لخوض معركة ضارية مع الخليفة معاوية من أجل العاصمة بالذات ، وليس من أجل مقاطعات الامبراطورية ، فقد هاجم القسطنطينية من جهة البحر اسطول ضخم ، وفي الوقت ذاته حاصرها العرب من جهة البر . واستمرت المعارك دون انقطاع منذ عام ٦٧٣ حتى عام ٦٧٧ ، قاد **قسطنطين** خلالها عملية الدفاع عن المدينة ببسالة فائقة . كان العامل الحاسم في إحراز النصر أحد الإختراعات العسكرية الذي يُعَدُّ بمثابة «القنبلة الذرية» لذلك العصر . اخترع **يوناني سوري** يدعى **جالينوس** كتلة قابلة للإشتعال قادرة على إضرام النار في السفن المعادية . هذه هي «النار الإغريقية» التي بقيت لأعوام طويلة سلاحاً فعالاً في الجيش البيزنطي ، حوفظ على سريته بعناية بالغة . تكبّد الأسطول العربي خسائر فادحة ، وتعرّض للدمار التام في عاصفة بحرية أثناء انسحابه . اعترف معاوية بالهزيمة ، وقبل بشروط السلام المفروضة ، متعهداً بدفع ثلاثة آلاف وزنة من الذهب سنوياً **لبيزنطة** كضريبة عن المقاطعات المحتلة .

زاد هذا النصر من هيبة **بيزنطة** مجدداً . فقرر اللمبارديون أيضاً عقد معاهدة سلام رسمية ، كانت بمثابة مصادقة على تقسيم إيطاليا . واعتنق الأمراء اللمبارديون أيضاً الكاثوليكية ، مما سمح ببدء تمثُّل الغزاة . يصف المؤرخ **زاكشيفسكي** ذلك بقوله : «كان هذا بمثابة النصر الأخير لسياسة البابا **غريغوري** الكبير بعد موته» .

أتاحت عودة الهدوء إلى الحدود أمام الامبراطور فرصة جديدة لمعالجة القضايا الكنسية . كان **قسطنطين** الرابع رجلاً مختلفاً عن أبيه . لم يتشبث بعقيدة وحدة الإرادة . وبعد تربعه على العرش خاطب البابا برسالة مجاملة مقترحاً عقد إجتماع للتفاهم والغاء آثار التمزق الذي عانت منه الكنيسة .

توالى البابوات بسرعة في تلك المرحلة . فبعد **فيتاليان** جاء **أديوداتُس** الثاني عام ٦٧٢ ، وبعده **دونُس** عام ٦٧٦ ، وأخيراً **أغاتون** عام ٦٧٨

لم يتسرع **أغاتون** بالرد على اقتراح الامبراطور ، إذ أنه أجرى مشاورات طويلة مع الأساقفة دامت عامين لمعرفة آرائهم . تذمَّر قسطنطين ، وحاول بطريرك القسطنطينية دفعه للتمرد على البابا . لكن البابا برر التأخير الحاصل وعزاه «لوضعه الصحي ولبعد مواقع الأسقفيات» . وبعث مع جوابه ثلاثة من مبعوثيه إلى الإجتماع المقترح عام ٦٨٠ . استقبلهم الامبراطور بحفاوة وتكريم ، بعد عزل البطريرك المتآمر مسبقاً .

عدَّل الامبراطور مخططه ، فقرر عقد مجمع مسكوني بدلاً من الاجتماع المقترح . لم تشكل الدعوة لإنعقاد المجمع صعوبة تذكر . فبطاركة الإسكندرية ، **وانطاكية** ، وأورشليم ، كانوا مجتمعين في القسطنطينية . وأضحى افتتاح المجمع ممكناً في كانون الثاني من عام ٦٨٠ . ترأس الامبراطور أعمال المجمع . عرض مبعوثو البابا موقف العاصمة الرسولية من قضية «الارادتين» . كان **مكاريم** بطريرك **انطاكية** المعارض الوحيد ، وقد استخدم في النقاش نصاً منحولاً لرسالة البابا **فيميليوس** . عزل المجمع مكاريم ، وأدان بالإجماع عقيدة وحدة الإرادة ومَنْ صاغها . كما أدين البابا **هونوريوس** .

أُنْجِزَتْ أثناء مداولات المجمع الأعمال المتعلقة بالوحدة الكنسية . واقام **يوحنا** من بورتو ، ممثل البابا ، قداساً احتفالياً وفق الطقوس الرومانية في **باسيليقا** الحكمة المقدسة . خفَّض الامبراطور التعرفة المفروض على البابا تسديدها لقاء مصادقة الامبراطور على انتخابه ، وقرر بأن الامبراطور شخصياً سيقوم باعتماد الإنتخاب بعد ذلك الحين ، وليس اكسرخس رافينا . وكان هذا تعزيزاً لهيبة البابا .

تقدم أحد الرهبان خلال انعقاد المجمع للدفاع عن عقيدة وحدة الارادة ، معلناً أنه على استعداد لإثبات صحة العقيدة بإعادة الحياة إلى أحد الموتى . سُمح له بإجراء الإختبار ، لكنَّ الميت لم يُبْعَثْ ، وبصعوبة بالغة أمكن إنقاذ صانع المعجزات السيء الحظ من أيدي الحشد الذي خاب أمله . وتقدم كاهن آخر باقتراح كان له أن يوّفق بين الجميع ، لكنَّ اقتراحه لم يكن سوى جملة من التفاهات والهرطقة .

تمَّ اعلان التعريف الذي أقره المجمع بصورة احتفالية وبحضور الامبراطور في السادس عشر من أيلول عام ٦٨١ . واعتمد على رسالة البابا **أغاتون** المذيلة بتواقيع مئة وخمسة وعشرين أسقفاً من الغرب طلب البابا رأي كل منهم مسبقاً . كانت الرسالة بمثابة قانون الإيمان الروماني :

«نؤمن بأنَّ ربنا **يسوع** المسيح كان له إرادتان وفعلان ، مثلما كانت له طبيعتان ، أي إلهية وبشرية ؛ الإرادة والفعل الإلهيان عبر الأزل مستمدان من الأب المساوي له في الجوهر ؛ والإرادة والفعل البشريان في الزمن نظراً لطبيعتنا التي اتخذها» .

ذكَّر البابا **أغاتون** بهذه المناسبة بالقانون الثالث **للمجمع اللاتيراني** لعام ٦٤٩ الذي أَكَّدَ على بتولية **مريم** العذراء .

لم تكن بتولية **مريم** تتطلب تعريفاً دوغمائياً مستقلاً ، لأنها مؤكدة بصورة جلية **في العهد القديم** (أشعيا ٧ :١٤) وفي **العهد الجديد** (متى١ : ١٨ - ٢٣ ؛ لوقا١ : ٢٧) . كما

تمَّ التأكيد عليها أثناء صياغة عقيدة ولادة الإله في مجمع **أفسس** . ولكنَّ قناعة بدأت تسود بأن هذه العقيدة بحاجة لتعريف أدق . وكان الهدف هو التأكيد على أن **مريم** لم تكن عذراء قبل ولادة **يسوع** فحسب ، بل ظلَّت عذراء أثناء الولادة وبعدها حتى الموت . وقد أشار عدد من القديسين إلى بتولية **مريم** مدى الحياة ، ومنهم : **أثناسيوس** ، **وهيلاريوس** ، **وإيبيفانيوس القبرصي** ، **وأمبروزي** ، **وأوغسطين** ، **ويوحنا** الذهبي الفم ، وكان **أوريجين** في حينه قد أكدَّ على عدم إمكانية أن تصبح مريم بعد ولادة **يسوع** المعجزية زوجة طبيعية ليوسف لتلد له أبناءً عاديين . أما «الأخوة والأخوات» المشار إليهم في الإنجيل ، فهم ببساطة بعض أقرباء **يسوع** الفرعيين ؛ وعلى أي حال فإن اللغة الآرامية تطلق اسم الأخ على كل قريب . وفي هذا الصدد يقول **جيثون** :

«وهكذا أضحى مفهوم البتولية أكثر دقة . والتأمل في هذا الموضوع يؤدي إلى القناعة بأن مريم ليست مجرد عذراء ، وإنما «عذراء دوماً» ـ بمعنى أنه كلما أُريد التشكيك «بالبتولية الدائمة» ، نجد احتجاجاً داخلياً نابعاً من أعماق الروح يمنع المسيحيين من قبول ذلك .

أما جوسارد فيقول : «الأمر المدهش هو أن بعض مؤسسي الهرطقات كانوا من أوائل القائلين بالحقائق المريمية : **فبيلاجيوس** تحدث عن قداسة **مريم** ، و **يوليان** عن طهارتها ونسطور عن الحمل بغير دنس» .

كان التأكيد على حقيقة كون مريم «عذراء دوماً» في المجمع اللاتيراني انعكاساً لشيوع العبادة المريمية في **روما** . ففيها أكبر الكنائس المكرَّسة لها : **باسيليقا أم الإله** وهناك **أقيمت** قبيل القرن السابع مايعرف «بالصلوات الذهبية» تكريماً لمريم (ايام الأربعاء والجمعة الجافة في كانون الأول) ، كما تم الإحتفال بعيد ميلاد العذراء في اليوم الأول من كانون الثاني . كانت الأعياد المريمية حتى القرن السابع مرتبطة بأعياد يسوع ، بينما ظهرت بعد ذلك الحين أربعة خاصة بوالدة الإله : **البشارة** ، **والموت** ، **والولادة** ، **والمباركة** ، وقد تمَّ الاحتفال بها رسمياً وبمواكب حافلة .

وهكذا ظهرت على هامش المناقشات الدائرة حول الإرادتين عقيدة مريمية جديدة ـ **تُقرُ** مريم عذراء دوماً ـ تضمنتها تعاريف المجمع .

من الأمور التي أكدَّت عليها هذه التعاريف : «من خلال إيماننا بأن الوحيد بين أقانيم الثالوث الأقدس بعد التجسيد هو ربنا يسسوع المسيح ، إلهنا الحق ، نعترف أن فيه طبيعتان تشعان في أقنوم واحد ، أمكن رؤيتها في وجوده الدنيوي ، المعجزات والآلام الحقيقية ، وليس

الظاهرية . . . ولذلك نعترف بإراداتين وفعلين طبيعيين عاملين معاً بالأسلوب الملائم لخلاص الجنس البشري» .

ذُيِّلت الوثيقة بتوقيع مبعوثيْ البابا ، ومئة وأربع وسبعين من آباء المجمع ، والامبراطور . ولم يتمكن البابا **أغاتون** من توقيع الوثيقة ، لأنه توفي في مطلع عام ٦٨١ . صادق خلفه **ليون الثاني** على مقررات المجمع . ولمّا خاطب في رسائله الحكام والأساقفة لإعلامهم بمقررات المجمع دافع عن البابا **هونوريوس** موضحاً أن ذنبه الوحيد يكمن في أنه «لم يطفئ نار الهرطقة في مهدها ـ وهذا من مهامه الرسولية ـ بل سمح لها بالامتداد بسبب إهماله» .

أسفر عهد **ليون** الثاني القصير الأمد عن حدثٍ سعيد آخر ، فقد انطفأت نار الإنشقاق الرافيني أيضاً ، إذ اعترف أسقف رافينا بسلطة روما .

توفي **ليون** الثاني عام ٦٨٣ ، وخلفه على العرش البابوي **بنديكت** الثاني .

تأخر الامبراطور كثيراً في المصادقة على انتخاب **بندكيت الثاني** . ولتلافي تكرار ذلك ، عاد الامبراطور إلى التقليد القديم المتلخص في أن يقوم اكسرخس رافينا بالمصادقة باسم الامبراطور .

ساعدت هذه الخطوة على اختصار الوقت ، لكنها حطّت من أهمية البابا .

جاء **يوحنا** الخامس لفترة قصيرة (٦٨٥ ـ ٦٨٦) بعد بندكت الثاني ، كان سوري الأصل وواحداً من مبعوثي البابا أغاتون إلى مجمع القسطنطينية الثالث .

حدث نزاع على الكرسي الرسولي أثناء انتخاب البابا الجديد . فبينما انتخب الاكليروس والجمهور الروماني مرشحهم ـ ، انتخبت الحامية العسكرية مرشحاً غيره . وفي نهاية المطاف ، كحل وسط ، تم انتخاب مرشح ثالث هو **كونون** شيخ مسن ومريض ، لم تستمر ولايته سوى فترة قصيرة جداً ، حتى عام ٦٨٧ . تكررت المهزلة ثانية بعد وفاته ، حيث انتخب المرشح الثالث كحلٍ وسط . وهو في هذه المرة أيضاً **سوري الأصل** ، ويدعى **سرجيوس** (سيبلغ عدد السوريين على العرش البابوي خمسة حتى أواسط القرن الثامن ، كما أن أسرة سورية ستتولى العرش الإمبراطوري) .

توفي **قسطنطين** الرابع عام ٦٨٥ . وفي الأعوام الأخيرة من حكمه ، **قُدِّرَ** لذلك الامبراطور النشيط والحكيم أن يخوض حرباً أخرى ضد خطر جديد هدد الامبراطورية من الشمال .

البلغار هم الذين شكّلوا هذا الخطر .

ـ البلغار والخزر

بعد اندحار الأفارين ، اكتسب شعب تركي آخر أهمية كبرى ، وهم البلغار . كانت مملكة البلغار في مطلع القرن السابع إلى الشمال الشرقي من القفقاز بين **كوبان** و **بحر الآزوف** . وفي أواسط القرن السابع مزّق الغزو الخزري الدولة البلغارية . وأصبح قسم من البلغار بقيادة **بايان** أتباعاً للخزر . سيقوم أحفاد هذا القسم من الشعب البلغاري بالزحف نحو الجنوب باتجاه **كازان** ، وتأسيس الدولة البلغارية الكبرى التي شتتها الروس فيما بعد ، ودمرتها جحافل مغول جنكيز خان في القرن الثالث عشر . ويعد **التشوفاش** المعاصرون من بقاياهم .

رحل القسم الثاني من البلغار بقيادة **اسباروك** نحو الغرب . واجتاز نهر الدانوب عام ٦٧٩ . حاول **قسطنطين** الرابع صدهم ، ولكن دون جدوى . اقتحم البلغار حدود الامبراطورية واستوطنوا في ميزيا (**بلغاريا** الحالية) ، وسوف يحصلون فيما بعد على موافقة الامبراطور **جستينيان** الثاني على هذا الاستيطان .

كان الخزر أيضاً من الشعوب التركية . استوطنوا في المناطق الواقعة مابين مصب نهر **الدون** ومصب نهر **الفولغا** . تحالف الخان الخزري مع هيراقليوس وشارك في الهجوم الذي شنَّه على **آذربيجان** وكان هذا الشعب هو الأعلى في السلم الثقافي بين الشعوب التركية . مارس الخزر الأعمال التجارية ، وأبدوا ميلاً للإستيطان والإستقرار . كانت علاقات الخزر مع الامبراطورية البيزنطية حسنة على وجه العموم ، وكانوا شديدي التأثر بالجانب الديني . جاءتهم المسيحية من جهة الامبراطورية ، وجاءهم **الاسلام** وكذلك اليهودية من الجانب الآخر . وبقدر ما تأثر العامة بالاسلام والمسيحية ، فقد اعتنق الشيوخ اليهودية . وقد تكون هذه هي الحالة الوحيدة التي يعتنق فيها غير اليهود الموسوية جماعياً . اعتنق الخزر الإسلام عام ٩٦٥ كديانة رسمية بعد أن تهددهم الخطر الاسلامي .

شيَّد الخزر بمساعدة البيزنطيين مدينتين أصبحتا مركزين تجاريين كبيرين هما : **اتيل** (استراخان الحالية) **وسركيل** (في الموقع الذي يقترب فيه الدون من الفولغا إلى أقرب نقطة) .

ـ جستينيان الثاني

كان ابن **قسطنطين** الرابع البالغ من العمر السادسة عشر أكثر شبهاً بجده منه بوالده : متغطرساً ، وعنيداً ، ومزاجياً ، ووحشياً . تجلى الإنحطاط الأخلاقي والعقلي في نسل هيراقليوس .

عقد الامبراطور الشاب معاهدة جديدة مع الخليفة بعد تولّية العرش . ومن شروط هذه المعاهدة ، التزام الامبراطور بتهجير المرداتيين الجبليين القاطنين على الحدود السورية القبدوقية . هجّر **جستينيان الثاني** المرداتيين إلى تراقية . وعلى الرغم من سماحه للبلغار بالإستيطان داخل الامبراطورية ، رغب في إقامة حاجز بينه وبين الوافدين الأتراك ، واختار المرداتيين لهذا الغرض . حرم جستينيان بموافقته على التهجير ، الامبراطورية من حماية ضرورية على الجانب العربي لم يتمكن السلاف المقدونيون من التعويض عن الحاجز القوي الذي شكّله المرداتيون ، وخاصة بعد أن كان قد هجّر مايزيد عن العشرة آلاف من السلافيين إلى آسيا الصغرى .

زادت ثقة جستينيان بنفسه إثر «الهجرات السكانية» المذكورة ، فألغى المعاهدة الموقعة مع الخليفة ، وباشر نشاطاً عسكرياً ضد العرب . فتمكن عام ٦٨٧ من إحتلال جزء من أرمينيا بمساعدة الخزر . لكن استقبال الأرمن لهذا «التحرير» لم يكن معبراً عن البهجة ، لأن الخزر مارسوا الكثير من أعمال العنف والوحشية ، بينما مارس الامبراطور ضغوطاً رهيبة على البطريرك **ساهاك** لإرغامه على العودة إلى الوحدة الكنسية . ووجدت أرمينيا المسكينة نفسها مرة أخرى واقعة بين المطرقة والسندان : بين **بيزنطة** التي حاولت القضاء على استقلالها الوطني ، وبين دولة الخليفة اللامسيحية .

مُنيَ جستينيان الثاني عام ٦٩٢ بهزيمة نكراء على أيدي العرب قرب **سيباستوبول** نتيجة خيانة السلافيين المرغمين على أداء الخدمة العسكرية . وكان رَدُّهُ على هذه الخيانة انتقام وحشي من المستوطنين السلاف ، وقتل الآلاف منهم .

اجتاح العرب **أرمينيا** مجدداً عام ٦٩٣ ، لكنَّ عودتهم لم تسفر عن الارتياح المتوقع . فعلى الرغم من عدم اضطهادهم للمسيحيين ، أثبتوا أنهم حكام مستبدون للدولة . فتفجرت انتفاضة ضد العرب بقيادة **سيمبات باغراتيدا** ، لكن الأرمن هُزموا بعد احراز عدة انتصارات أولية . فرَّ **سيمبات** ولجأ إلى **بيزنطة** ، لكنه تعرض للإضطهاد بسبب معتقداته الدينية ، فقرر عام ٧١١ العودة إلى المنطقة المحتلة من قبل العرب . تُعَدّ سيرته رمزاً حقيقياً «لمصير أرمينيا المضطهدة من العرب تارة بسبب ديانتها المسيحية ، ومن البيزنطيين تارة أخرى نتيجة تعلقها بالمونوفيزية» ـ هذا مايقوله المؤرخ **غروسيه** . وجّه البطريرك الأرمني **هوفانيس الثالث** عام ٧٢٦ الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في **منزاكيرت** ، تقرر خلاله التقارب على صعيد العقيدة بين الكنيستين الأرمنية واليعقوبية ؛ وأدى هذا التقارب بين الكنيستين المونوفيزيتين المتواجدتين في دولة الخلافة إلى تعزيز مواقع الكنيسة الأرمنية .

ـ محاولة السيطرة على روما مجدداً

دون اكتراث بالحرب الدائرة قام جستينيان عام ٦٩٢ بالدعوة في القسطنطينية ، على نحو مباغت وبمبادرة ذاتية ، لإنعقاد مجمع «مسكوني» خُطط له أن يكون تتمة للمجمعين الخامس والسادس (ومن هنا تسميته : الخامس ـ السادس) . أما في واقع الأمر ، فقد كان هذا «المجمع المسكوني» هجوماً على روما ، حيث أخفيت بين النظم الإنضباطية الصحيحة قوانين معارضة لبعض قوانين الكنيسة الرومانية ، ومجموع القوانين التي أقرّها المجمع هو مئة واثنان . فالقانون الثامن والأربعين يطالب الأساقفة وحدهم بالإمتناع عن الزواج ، بينما شمل حظر الزواج في الغرب كافة الكهنة ، وعُزِلَ الكثيرون من الكهنة المتزوجين من مناصبهم بقرارات من مجامع محلية ؛ وعمم **ليون** الأول هذا الحظر على الشماسة أيضاً . عارض قانون آخر بعض جوانب الصيام التي تمَّ الالتزام بها في **روما** (فالصيام الكبير امتدَّ لمدة ستة أسابيع وليس سبعة كما في الشرق) . كما نصَّ القانون السادس والثلاثين على : «نقرر أن القسطنطينية العاصمة ستتمتع بالإمتيازات ذاتها التي تتمتع بها **روما** القديمة» .

رفض البابا **سرجيوس** المصادقة على مقررات المجمع . فحاول الامبراطور استخدام الأسلوب الذي لجأ إليه جَدُّه في تعامله مع البابا مارتن الأول ، وبعث بضابط من حرسه يدعى **زكريا** لإختطاف البابا **سرجيوس** . لكنَّ حكم جستينيان في **روما** لم يحظَ بشعبية كافية ، وما أن عَلِمَ جيش اكسرخس رافينا بمهمة زكريا حتى هرع إلى **روما** لنجدة البابا . فاضطر زكريا للبحث عن ملجأ لنفسهِ في القصر اللاتيراني تحت سرير البابا .

تفجرَّت ثورة في القسطنطينية عام ٦٩٥ . فَجُدِعَ أنف جستينيان (شاعت هذه العادة في **بيزنطة** آنذاك) ونفي إلى كيرسون ، واستولى قائد الجيوش المدعو **ليونتيوس** على السلطة الامبراطورية .

ـ سقوط افريقيا الشمالية في أيدي العرب

استغل العرب الفوضى السائدة في الامبراطورية ، وجددوا هجماتهم على افريقيا . فأضحت افريقيا الشمالية مرغمة منذ عام ٦٦٥ على خوض حرب دائمة لمقاومة الضغط الإسلامي . وبعد أن تمكّن العرب من القضاء على المقاومة التي أظهرتها جيوش الامبراطورية وثورة البربر ، فرضوا سيطرتهم على المنطقة برمتها . ظلَّت **قرطاجنة** وحدها تقاوم لفترة من الزمن حتى تمَّ احتلالها عام ٦٦٩م .

كان هذا بمثابة العلامة النهائية للكارثة التي حلّت بالكنيسة الافريقية . فبعد أن أضعفتها الاضطهادات الوندالية التي دامت أعواماً طويلة ، عجزت عن إعادة بناء نفسها . وجاء بعد ذلك الإحتلال الإسلامي الذي كان أشدَّ وطأة هناك منه في المقاطعات الشرقية من الامبراطورية . لأن السكان في هذه المقاطعات استقبلوا العرب كمخلّصين من العنف الديني والأميري الذي مارسته الامبراطورية . كان سكان افريقيا يتكون من الرومان الذين تضاءل عددهم إبّان الحكم الوندالي ووجدوا في العرب أعداء ، ومن المحليين الذين كان احتكاكهم بالمسيحية سطحياً وأقبلوا على اعتناق الإسلام بيسر . لم يبق في افريقيا التي ازدهرت فيها المسيحية يوماً سوى مايزيد عن أربعين أبرشية بقليل ، تلاشت بدورها بعد فترة وجيزة من الزمن .

ـ نهاية عقيدة «وحدة الإرادة»

تصعَّدت الفوضى التي عمّت القسطنطينية يوماً بعد يوم . فبعد **ليونتيوس** الذي جُدِعَ أنفه أيضاً ، تولّى السلطة **أبسماريوس ــ تيبيريوس** . وفي هذه الأثناء تمكن **جستينيان** الثاني من الفرار من **كيرسون** ، والتوجه إلى البلاط الخزري حيث تزوج شقيقه الخان **تيودورا** . وبعد وقوع الخلاف بينه وبين الخزر ، توجه الامبراطور المجدوع الأنف إلى الخان البلغاري **تيربيل** ، وحرَّضه على مهاجمة القسطنطينية . سقطت العاصمة عام ٧٠٥ ، وقام جستينيان الثاني بتصفية الحسابات مع خصومه بطريقة رهيبة . وبعد استعادة السلطة أصدر حكمه بالموت على مدينة **رافينا** التي كانت أولى المدن التي تمرَّدت ضده .

بعد أن اختلف جستينيان الثاني مع تيربيل ، قاد حملة ضد البلغار ، لكنه مُني بالهزيمة قرب **أتكيالس** عام ٧٠٨ .

توفي البابا **سرجيوس** عام ٧٠١ ، وخلفه **يوحنا** السادس الذي جلس على العرش البابوي حتى عام ٧٠٥ ، ثم جاء بعده **يوحنا** السابع ، وكلاهما من أصل يوناني (امتلأت **روما** بالفارين من المقاطعات التي احتلّها العرب) . بعد أن استولى جستينيان الثاني على السلطة ثانية ، طالب البابا بالمصادقة على قوانين «المجمع الكاذب» الذي انعقد عام ٦٩٢ . أعاد البابا المذكور الوثائق دون توقيع ودون كلمة تعليق . توفي عام ٧٠٧ ، وخلفه البابا **سيزينيوس** الذي لم تتجاوز مدة ولايته العشرين شهراً . فجاء بعده البابا **قسطنطين** الأول .

توصل جستينيان الثاني إلى قناعة بأن التفاهم مع البابا أيسر أثناء اللقاء الشخصي ، فقام بدعوته لزيارة القسطنطينية . كانت هذه الرحلة الخامسة والأخيرة لبابا **روما** إلى القسطنطينية

(زارها **يوحنا** الأول وأغابيت طوعاً ، بينما اختطف كل من فيجيليوس ومارتن) . استقبل الامبراطور ضيوفه بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في **نيقوميديا** عام ٧١٠ . وبعد نقاش طويل توصلا إلى اتفاق . وعلى الرغم من عدم وجود وثائق تدعم افتراضنا ، يمكن الإفتراض بأن البابا وافق على الاعتراف ولو بجزء من القوانين المقررة .

غادر البابا **قسطنطين** الأول مدينة القسطنطينية عام ٧١١ .

استهل الخليفة **وليد** في العام ذاته حملة جديدة . فاحتلَّ العرب **صقلية** عام ٧١١ ، **وأمازيا** في **قبدوقية** عام ٧١٢ ، **وغلاطية** عام ٧١٤ . وأرسل الخليفة **سليمان** الذي تولى الخلافة عام ٧١٥ شقيقه مسلمة ليهاجم القسطنطينية من جهة البر ، كما باشر اسطول عربي ضخم الهجوم من جهة البحر في الوقت ذاته .

كان جستينيان الثاني قد رحل آنذاك . وفي الوقت الذي كان فيه منشغلاً باستقبال البابا ، كان جيشه يزحف لينفذ انتقاماً وحشياً على مدينة **كيرسون** التي لم تدافع عنه عندما نُفي إليها . وطلبت **كيرسون** مساعدة الخزر ، كما تمرَّد الجيش المرسل لتنفيذ الحملة التأديبية ونادى بقائده امبراطوراً . وتفجرت ثورة في القسطنطينية قُتِلَ فيها ابن جستينيان ، ووقع هو بنفسه بين يدي ضابط أبيدت أسرته بناءً على أوامر جستينيان . لقي مصرعه على يدي الضابط ، وثبِّتَ رأسه على وتد ، وعُرض في معظم مدن الامبراطورية .

لم يبدِ فيليبيك الذي رفعه الجيش إلى العرش اهتماماً بالحرب ، لكنه حاول جاهداً إعادة الروح لعقيدة وحدة الارادة . فقام أساقفة الشرق تنفيذاً لأوامره بإعلان إلغاء مقررات المجمع المسكوني السادس لعام ٦٨١ . أهمل البابا هذا القرار وأعلن القطيعة مع القسطنطينية . فَقَدَ فيليبيك العرش عام ٧١٣ ، وأعلم الامبراطور الجديد **أنستازيوس** البابا بأنه يعترف بمقررات المجمع .

كان هذا الاعتراف بمثابة النهاية لعقيدة وحدة الإرادة .

حافظ عليها **الموارنة** وحدهم . وهم من الأقوام الجبلية السورية ، استمدوا هذه التسمية من دير القديس **مارتن** ، واختلطوا ببقايا المردانيين . قاوموا المونوفيزية بحماس شديد ، لكنَّ إطلاعهم بصورة مشوهة على مقررات المجمع المسكوني السادس ، دفعهم لإعتبارها إعترافاً بالنسطورية . كما دفعتهم عزلتهم لتأسيس بطريركية مستقلة خاصة بهم ، ولم يعودوا إلى الوحدة الكنسية إلا في المرحلة الصليبية .

توفي البابا **قسطنطين** الأول عام ٧١٥ . وفي العام ذاته عُزِلَ الامبراطور **أنستازيوس** عن العرش ، وحلَّ محله **ثيودوسيوس** الثالث . لكنَّ **ليون** قائد الجيوش المقاتلة في آسيا رفض

الاعتراف بالامبراطور الجديد .

كان العرب يهاجمون أسوار القسطنطينية ، فتنازل **ثيودوسيوس** المذعور عن العرش . سلّمت المدينة المذعورة والمهددة التاج إلى **ليون** عام ٧١٧ (وهو سوري الأصل) . حارب **ليون** الثالث العرب بنشاط غير معهود . فظهرت مجدداً السفن القاذفة للنار الإغريقية . وبعد عام من الحصار تراجع القائد العربي مسلمة عن أسوار القسطنطينية عام ٧١٨ بعد أن فقد مئة وخمسين ألفاً من مقاتليه .

الفصل العاشر

بعث الكنيسة

ـ الرهبنات تنقذ المسيحية

رغم أن أسوار القسطنطينية تمكنت من صدّ السيل الإسلامي لم تكن أحوال المسيحية على مايرام . فلم يبق من الإمبراطورية الرومانية سوى ظلال باهتة من روعتها السابقة .

سقطت المقاطعات الشرقية التي شكلت مركز الحياة الفكرية في أيدي **المسلمين** . وأضحت الأرض التي أنجبت **أوريجين** ، والقديس **أثناسيوس** ، **وكلا الكيرلسين** ، **والقديس باسيليوس** ، والقديس **يوحنا** الذهبي الفم ، والقديس مكسيم ، وإن بقي للمسيحية وجوداً عليها ، مجزأة معزولة وبعيدة عن الوحدة وغير قادرة على الأنطلاق وإجتذاب الناس . كما فقدت افريقيا موطن **ترتليان** والقديس **سبريان** ، والقديس **أوغسطين** . وامتّد الغزو العربي إلى أبعد من ذلك ليشمل أوروبا . تعرضت مملكة القوط الغربيين في اسبانيا لأحداث التمرد مرة بعد مرة . وكان اليهود مُضْطَهدين ، مما جعلهم أعداء للملكة . استمرّ **يوليان** ممثل الامبراطور في سيوتا في موقفه مختلقاً الخلافات مع الملك **روديريك** وعقد تحالفاً ضده مع ممثل الخليفة . وهذا مايَسَّرَ مهمة القائد العربي **طارق بن زياد** الذي دخل الأرض الإسبانية على رأس جيش لايتجاوز تعداده السبعة آلاف مقاتل . وفي المعركة الحاسمة التي تمت عام ٧١١ سُحق الجيش القوطي ولقي **روديريك** مصرعه . حاربت القطعات البيزنطية جنباً إلى جنب مع العرب ، العرب الذين قاموا في الوقت ذاته بإحتلال قبدوقية .

اجتاح جيش طارق القليل العدد مملكة القوط الغربيين بسرعة هائلة ، حيث آزره في كل

خطوة خطاها المتمردون على حكم القوط من المسيحيين واليهود . فاحتلَّ العرب خلال عام واحد شبه الجزيرة **البيرينية** بإستثناء **غاليسيا** . وانهارت المسيحية الإسبانية الفتية التي تقدّست بدم الشهيد القديس **هيرمينيجيلدا** ، والتي زادت فضائحها بسبب علاقتها الوثيقة وإرتباطها بالسلطة المدنية . الحقيقة أنها صمدت طيلة فترة الإحتلال العربي ، لكنها اكتسبت بنتيجة ذلك الإحتلال طابع التعصب والقسوة والوحشية . رفرفت راية **النبي** الخضراء على سفوح جبال البيرينية ، وبين لحظة واخرى كان لها ان تلوح في الجانب الآخر من الوهاد الجبلية .

استولى المستوطنون السلاف والبلغار الوثنيون على البلقان . وكانت الأراضي الواقعة ماوراء نهر الرين مأهولة بالوثنيين أيضاً ، بينما اقتصرت الأرض المسيحية على إيطاليا وغالة وبريطانيا وإيرلندة .

وأية مسيحية كانت هذه المسيحية ! ففي إيطاليا المجزأة إلى مناطق حكمها موظفو الإمبراطورية أو الأمراء اللمبارديون ، ساد آنذاك سلام نسبي وميل للوحدة الدينية وبدت احوال الكنيسة الجامعة مزرية بالرغم من انتماء زعماء الفرنكونيين إلى أتباع الكنيسة الجامعة . فقد خضع الأساقفة للملوك غير الجديرين في معظم الأحيان وانقطعت العلاقات مع **روما** مرة بعد مرة . تلاشت الثقافة وسقطت غالة صاحبة المدنية الرفيعة في الهمجية . لايستثنى من ذلك العبادة الدينية ذاتها التي تمَّت ممارستها وفق طقوس اخرى غير الرومانية . كانت الطقوس التي عُرفت بالغالية ذات طابع شرقي . لم تكن الفروقات في الطقوس مهمة بالمقارنة مع ماخلفته الوثنية . فمع الإنحطاط الثقافي العام انبعثت التقاليد الوثنية : تمَّ الإحتفال بعيد الإله جانوس ؛ وتعطيل يوم الخميس ، لأنه يوم الإله جوبتر . وتحولت الأعياد الكنسية إلى ألعاب خلاعية . وانتشر السكر والعربدة والدعارة على نطاق واسع (على الرغم من ان قوانين القرنين الرابع والخامس حاربتها) . وأضحت الحياة الزوجية في حالة انحلال .

لم تخلُ الكنيسة الغالية بطبيعة الحال من رجال أتقياء ناضلوا من اجل رفع مستوى الحياة الدينية . يصنف في عدادهم القديس **غريغوري** التوري (٥٣٨ ـ ٥٩٤) وقد أدانت المجامع الكنسية التجاوزات ودعت لفتح المدارس ، ورفع المستوى الفكري لرجال الدين . ولكن للأسف افتقرت غالة الغارقة في الهمجية إلى المعلمين في ظلّ حكم الميروفينيين الدموي . ولم تكن نادرة الحالات التي ترأس فيها رجل فقير بعلمه مدرسة أسسها الأسقف بالرغم من سلوكه اللاأخلاقي الفاضح على الصعيد الشخصي .

جاء الخلاص من **سوبياكو** ، وكذلك من الشمال على أيدي الإيرلنديين السلتيين . تمكنت الكنيسة من تجاوز تلك اللحظات المأساوية بفضل هذه النجدة . والأهم من ذلك تمكنت في تلك الأزمنة التي بدأت فيها حقبة جديدة ، من ا لمحافظة على منجزات الحقبة السابقة في مجال المدينة والثقافة وصون كل ماكانت له قيمة حقيقية . يقول **داوصن** في هذا

الخصوص : «في الغرب . . . سحقت الغزوات الهمجية المؤسسات التعليمية في الإمبراطورية ، أو أنها انحطت وتلاشت مع انحطاط الثقافة المدينية اللاتينية . وبفضل الكنيسة وحدها ، وخاصة الرهبان تمّت المحافظة عى تقاليد الثقافة الكلاسيكية وعلى مؤلفات المبدعين الكلاسيكيين .

وكما لاحظ **داوصن** «لم تكن هذه مهمة الحياة الرهبانية في بادئ الأمر» .

وُلِدَتْ فكرة الحياة الرهبانية كما نذكر في مصر . وكان لها أن تكون وسيلة للهرب من الحياة الدنيا- أي من الثقافة أيضاً- والتخلي عن كل شيء ، بما في ذلك الواجبات الوطنية والإجتماعية . ولم تكن الحياة الفكرية في الرهبنات متطورة ، باستثناء بعض الحالات النادرة .

انحرفت فكرة القديس **باخوميوس** وحده عن هذا النموذج . حيث وُجِدَتْ في ذلك النمط من الأديرة بعض أشكال الحياة الجماعية والنشاط الإجتماعي .

تمّ نقل نمط حياة الدير الذي حظي بشعبية واسعة في **مصر** إلى أوروبا ، حيث أحيط بتقدير هائل . لكن الأديرة الأوروبية كانت في بدايات تأسيسها فقط شبيهة بالرهبنات المصرية ، والسورية ، أو الفلسطينية . كانت هذه تجمعات لأناس عُزَّلٍ ـ فردانيين منصرفين عن مشاغل الحياة ، أخضعوا أنفسهم لتوبة صارمة . وكلّما أرغمت ظروف الحياة الرهبان الشرقيين على العودة إلى الحياة الإجتماعية ثانية ، عادوا إليها كأنصار متعصبين أو أعداء لعقيدة ما ، بدت في اعتقادهم صائبة أو خاطئة . عبَّر **داوصن** عن رأيه في هذا الصدد قائلاً : «تميَّزت الأديرة الشرقية بعدد من الصفات الباعثة على النفور بالنسبة للتقاليد الرومانية العملية والمنضبطة . وقد ادان القديس **أوغسطين** في مؤلفه De opere monachorum تعصب النساك ذوي الشعر الطويل والرهبان الجوالين العائشين في الخمول ، والذين استغلّوا الأحكام الشعبية السلفية . لم يكن **أوغسطين** أسقفاً فحسب . بل راهباً أيضاً ، وواحداً من مؤسسي تقاليد الحياة في الدير في الغرب . وهو الذي جاهد أكثر من أي كان من أجل الربط مابين الحياة في الدير والحياة الكهنوتية ، الأمر الذي أصبح في نهاية المطاف من اهم السمات المميزة لأديرة الغرب» .

كان للدير وفقاً لهذا النموذج أن يتحول إلى مؤسسة تعمل على تربية الكاهن ؛ وهذا مافرض على الحياة فيه السمو على الصعيدين الديني والفكري . لم تتميز جميع الأديرة بهذه الخصوصية بطبيعة الحال ، ولم تؤسس كلها على مقربة من العواصم الأسقفية . وقد وُجدت أديِّرة «همجية» حكمتها قوانينها الخاصة ، وتسللت إليها الفوضى وشتّى التجاوزات بيسر كبير . وخاصة في مراحل الغزو والفوضى ، حيث تعرضت الحياة الرهبانية للتفسخ .

جاء القديس **بنديكت** وحاول إعطاء الدير شكلاً وأبعاداً محددة .لانعرف عن القديس بنديكت سوى ماكتب عنه **غريغوري** الكبير الشديد الإعجاب به . وليس فيما كتبه تاريخ

واحد محدد بدقة ! ولد بنديكت على الأرجح عام ٤٨٠ في نورسيا (في سابينيا) . نظر الرجل الشاب الموفد إلى **روما** للدراسة بإمتعاض ونفور إلى الإنحلال الخلقي الذي صادفه هناك . وبدلاً من البحث عن ا لعلم في مكان آخر ، عثر بنديكت في **سوبياكو** على مقربة من أنقاض قصر **نيرون** على كهف بارد ومظلم (يصعب على المرء أثناء دخوله إلى الكهف تصور امكانية عيش إنسان فيه لأعوام طويلة) ، أمضى فيه ثلاثة أعوام ، مكرساً وقته للصلاة والتوبة ، ومقاومة إغراءات العزلة . ثم اكتشف جماعة من الراغبين في التتلمذ على يده ، وخلال فترة وجيزة نشأ في سوبياكو تجمع رهباني مؤلف من اثنتي عشرة مجموعة ، ضمَّ كل منها اثنا عشر راهباً .

خلقت الشهرة التي تمتع بها بنديكت أعداء له في أوساط الإكليروس المحلي الذي حسده على هذه الشهرة . وكان بنديكت مهدداً بالموت . أراد أن يُجَنِّبَ تلامذته الإضطهاد ، فانصرف عنهم ورحل نحو الجنوب . وصل في رحلته إلى مدينة **كاسينوم** الواقعة على سفح الجبل . فوجد على قمة صخرة كلسية بيضاء تغطيها شجيرات شوكية اطلال معبد **أبولو** . استقر بنديكت هناك ، وأحاط نفسه بلفيف من التلامذة الجدد . وفي هذا المكان تأسس حوالي عام ٥٢٥ دير **مونتي كاسينو** .

أعدَّ بنديكت قانون التجمع الرهباني الجديد داخل أسوار هذا الدير . لم يبتكر شيئاً جديداً ، إذ أنه اعتمد على تقاليد الرهبنات الشرقية ، وعلى آراء آباء الكنيسة ، ونظام القديس **باسيليوس** ، ونصائح القديس **أوغسطين** ، ومؤلفات كاسيان . لم يخلق ماأوجده القديس بنديكت شيئاً جديداً تماماً ، وإنما «ساعد على عملية انسجام التقاليد الرهبانية السابقة وجعلها ملائمة للمتطلبات الأخلاقية لسكان الغرب» ـ هذا ماكتبه **بيوس الثاني عشر** .

تميَّزت قواعد القديس بنديكت بما وصفه **غريغوري** الكبير «بالتعقل» . إذ أنها لم تكن صارمة أكثر مما يجب ، وحافظت على التوازن بين العبادة والراحة ، وبين العمل الجسدي والفكري . ابتُكِرَتْ «كقواعد للمبتدئين» ، كُتِبَتْ من أجل «أن تنشأ خلالها أخلاق جديرة بالإستحقاق وبداية حياةرهبانية » . رفض القديس بنديكت المغامرة في الزهد والتنسك الصارم . لكنَّه أسس مدرسة الخضوع الدائم لطاعة الحياة الجماعية . طالب الرهبان الإلتزام **بثلاثة عهود** هي : **الطاعة** ، **والفقر** ، **والاستقرار** . والاستقرار يعني البقاء في الدير المختار من قبل الراهب «حتى الموت» ، وهذا شيء جديد تماماً . كانت الصلاة أول وأهم واجبات الراهب ، يليها العمل الدائم . وعلى نحوٍ خاص الزراعة ، إذ خضع الدير لقانون الإكتفاء الذاتي . جاء بعد ذلك النشاط التعليمي والتبشيري .

تأسست خلال حياة بنديكت ثلاثة أديرة : في كل من سوبياكو ، ومونتي كاسينو ، وتيراسينا . ولمَّا دمرَّ اللمبارديون ديرمونتي كاسينو عام ٥٨٩ ، لجأ الرهبان إلى روما ، **وقام**

القديس **غريغوري** الكبير بتطبيق القواعد البندكتينية في دير القديس أندري الذي أسسه بنفسه على جبل **كوئيليوس** . ولّما جلس **غريغوري** الكبير على العرش البابوي فيما بعد ، أصبح من أشد الدعاة حماساً للقواعد البنديكتينية . وقد تجاوز عدد الأديرة الملتزمة بهذه القواعد المئة في أواسط القرن السابع . أضحت القواعد البنديكيتينية بالنسبة **لغريغوري** أداة ممتازة لتحديث الكنيسة .

توفي القديس بنديكت عام ٥٤٧ على الأرجح . وكان إنساناً متميزاً بشخصية تلائم نمط رئيس الدير وفق القواعد التي وضعها : «ليفكر دوماً بالثقل الملقى على كتفيه . . . وليضع دوماً الرحمة فوق العدل ، وليُعامَلَ بالمثل . . .ليتعلم إثارة الحب أكثر من بث الرعب» .

يقول **داوصن** : «كانت القواعد البنديكتينية في حقبة القلق ، والفوضى ، والهمجية ، تجسيداً لِمُثُل النظام الروحي والنشاط الأخلاقي المنضبط ، حَوَّلَ الدير إلى واحة سلام في زمن الحرب» . أما **نيومان** فيقول : «وجد بنديكت العالم المادي والإجتماعي أنقاضاً ، واعتمدت مهمته على إعادة بنائه بأسلوب طبيعي ، وليس بواسطة العلم . . . وهكذا كان عمله غير ملحوظ في الكثير من الأحيان قبل أن يُنْجَزَ تماماً . كان هذا بالإحرى إصلاحاً أكثر منه بناءً ، وتذكيراً أكثر منه هداية . . . ففي مواقع مختلفة من البلاد شوهد رجال صامتون أو اكتُشِفوا في الأدغال منهمكين بأعمال الحفر والبناء ؛ بينما جلس آخرون في الدير صامتين ، يحدقون بأعينهم ، ويركزون تفكيرهم على العمل المرهق في نقل المخطوطات التي أنقذوها بأنفسهم . . . جُفِّفَت بشكل أساسي المناقع المنتشرة في الغابات ، وتحولت إلى صومعات ، وبيوت صلاة ، ومزارع» .

لايدهشنا إذن أن البابا بولس السادس أعلن في الرابع والعشرين من تشرين **الأول** عام ١٩٦٤ بمناسبة تقديس دير مونتي كاسينو بعد ترميمه ، القديس بنديكت شفيعاً لأوروبا ، أوروبا المدمرة بالحرب والهمجية ، والمنبعثة بفضل النموذج الجديد للحياة الدينية .

ظهرت إلى جانب أديرة الرجال أخرى للنساء . كانت القديسة **سكولاستيا** الشقيقة التوأم للقديس بنديكت مؤسسة أول دير للنساء في الغرب معتمدٍ على القواعد البنديكتينية .

تميز الدير الذي أسسه السناتور **كاسيادور** (مستشار الملك **تيودور** الداعي للتفاهم والتقارب مع القوطيين) في **فيفاريوم** بطابع مختلف عن الأديرة البنديكتينية . هجر كاسيادور حياة البلاط ، وأسس ديراً يختلف عن الأديرة الأخرى . شاعت فيه أيضاً الصلاة والتوبة بالإضافة إلى العمل الفيزيائي ، ولكنَّ أهمية أكبر أعيرت للعمل والدراسة ونسخ المخطوطات . وقد ضمَّ هذا الدير مكتبة ضخمة .

يرجَّح أن يكون كاسيادور قد توفي عام ٥٨١ ، واختفى الدير أيضاً بعد فترةمن رحيل

مؤسسه . لكنَّ فكرة الدير الذي احتلَّ فيه النشاط الفكري مكانة على هذه الدرجة من الأهمية أثرّت على الرهبنات الأخرى ، وحددت للأديرة في الغرب دوراً جديداً في ا لعمل على إعادة بناء المدنية الأوروبية .

كانت الأديرة السلتية في ايرلندة ، واسكتلندا ، وويلز مختلفة تماماً . فقد فرضت على الرهبان شروطاً أشدَّ قسوة فيما يخص الصلاة والتوبة ، وهي بذلك تذكرنا بأديرة الشرق . لكنها شكلَّت بدورها نموذجاً متميزاً «للجماعة المسيحية» التي ترأسها رئيس الدير ، ونقل تجاربه وخبراته الدينية والاقتصادية والتعليمية إلى القرى المحيطة بالدير وكان النموذج السلتي ملائماً لأوروبا ، التي انهارت فيها المدنية ، وطغت عليها الحياة الريفية ؛ حيث كانت كنيسة القرية شيئاً نادراً .

وفي هذه المرحلة التي انتقلت فيها الأديرة الإيطالية إلى القواعد البنديكيتينية ، ظهرت في غالة أديرة مؤسسة وفق النماذج الإيرلندية . فنجد **فاوست الريزي** أشهر رئيس دير منحدراً من أصل بريطاني . و سوف نتحدث بعد قليل عن سيرة القديس **كولومبان** المذهلة . وسوف يأتي المبشرون السلتيون بنموذجهم إلى القارة الأوروبية . انتصرت القواعد البنديكتينية . لكنَّ جوهر هذه القواعد كان تنظيم إيقاع التقاليد القائمة وملاءمتها . جاءت النماذج الإيرلندية في مرحلة أبكر ، فأثرت عليها القواعد البنديكتينية ، وجعلتها أكثر اعتدالاً ، ورفعت من مستواها التنظيمي دون أن تفقدها اندفاعها التبشيري .

ـ جولة القديس كولومبان

أشرنا سابقاً إلى التقليد السائد في أوساط الرهبان الإيرلنديين والمتمثل في مغادرة أرض الوطن «من أجل يسوع» . قد تكمن جذور هذا التقليد في ميل الإيرلنديين الفطري للترحال ، والذي لاحظه استرابون في حينه . اتسع مدى هذه الرحلات يوماً بعد يوم . ثم ركزَّ الايرلنديون اهتمامهم على البر القاري ، بعد أن كان مقتصراً في بادئ الأمر على أقرب الجزر .

حطَّ الراهب الشاب **كولومبان** الرحال برفقة إثني عشر راهباً من رفاقه الرجال في شبه **الجزيرة البريتونية** (قرب مونت سانت ميشيل الحالية) عام ٥٧٣ . مَنْ **هوكولومبان** ؟ وقف هذا العملاق الأشقر قبل ذلك الحين ببضعة أعوام وجهاً لوجه أمام إغرءات جسدية لاتقاوم . وأثناء مقاومته لها طلب نصيحة ناسكة تقية . فكان جوابها اهرب ! غادر **كولومبان** أسرته

ومحيطه ، واعتكف في دير بانغور (يولستر الحالية في شمال ايرلندا) الذي أسسه في حينه القديس كومغال .

لكنَّ التوق للترحال استيقظ فيه بعد مرور بضعة أعوام . كانت غالة تناديه . وقد كتب **جوناس** في هذا الصدد قائلاً : كاد الدين ان ينهار كلياً في غالة بسبب الحروب وإهمال الأساقفة . . . كان الإيمان لايزال يومض ، لكنَّ التوبة والنزوع إلى التنسك والتقشف كانا نادرين» .

أمضى **كولومبان** فترة من الزمن في **أرموريكا** (في بريتونيا) وسط السلتيين الوافدين من بريطانيا . ثم دفعت به الرغبة في التبشير نحو الجنوب ، فوصل إلى **برغنديا** . فطلب حاكمها **غونتران** إلى الرهبان الإيرلنديين التوقف في مملكته . قَدَّمَ لهم معتزلاً في **انيغراي** بقايا حصن روماني قديم . وهنا سينشأ أول دير **كولومبان**ي . تقدَّم إليه عدد كبير من الراغبين في الإنضمام إلى الدير (بالرغم من أن كولمبان كان كما يقول G. ouyou «رئيساً حازماً وصارماً ، لايغفر أي خطأ أو أي انحراف في مجال الإنضباط») بحيث ضاق بهم المكان . تأسس عام ٥٩٠ دير آخر ، وهو اكبر الأديرة التي أسسها **كولومبان** ـ في الحمامات الرومانية القديمة في Luxeuil وتأسس فيما بعد دير ثالث في **فونتين** بجوار أنيغراي .

أثرَّت الأديرة الثلاثة تأثيراً كبيراً على السكان المحيطين بها . ويمكن القول بأن إعتناق المنطقة للمسيحية تجدد . بعد ان فقدت طابعها المسيحي في ظلّ حكم الأسرة الميروفينية .

لكنَّ جملة من الصعوبات الجديدة ظهرت ، فقد عارض الأساقفة المحليون **كولومبان** . لم يبدوا حماساً في ممارسة نشاطهم والقيام بواجباتهم ، لكنهم قاوموا **كولومبان** لأنه التزم بدقة بالتقاليد الإيرلندية فيما يتعلق بسر المعمودية والإحتفال بعيد الفصح . قصَّ شعر رأسه على الطريقة الإيرلندية ، وطالب بالإعتراف الإفرادي (كانت عادة الإعتراف الجماعي لاتزال شائعة في غالة ، بالرغم من أن **ليون** الكبير ألغى الإعتراف الجماعي) . استدعى المجمع الكنسي الذي انعقد عام ٦٠٣ في Chalon - sur - sone **كولومبان** وطالبه بتبرير تصرفاته . لم يستجب **كولومبان** للدعوة ، ورفض المثول أمام المجمع ، لكنَّه أجاب على الدعوة برسالة تضمنت رداً قاسياً وعنيداً . أعلن بأنه باقٍ على عاداته «حتى الموت» . وأضاف قائلاً : «إنه شيء حسن أن تجتمعوا ، يجب أن تجتمعوا مرتين في السنة كما تقتضي القوانين لينظر كل منكم إلى نفسه ويتأكد إن كان حقاً تلميذاً ليسوع المسيح» . وفي هذا الصدد يقول : G. Goyou كان الأساقفة الذين أرادوا محكامة **كولومبان** في نظره «دنيويين أكثر ممايجب ، متلهفين لما أغدقه الملوك عليهم من عطايا ، شديدي الميل لإخفاء متطلبات المسيحية الصارمة عن أعين حُماتهم» . وجه **كولومبان** في الوقت ذاته رسالة إلى البابا كُتبت بأسلوبه المميّز بالخشونة ، أعلن فيها عن ولائه التام ورغبته في البقاء على عاداته «كالأبوين القديسين

بوليكارب والبابا أنيسيت اللذين حافظا على ماتلقياه دون إساءة للدين وللمحبة المتبادلة» .

سيتخذ خلاف **كولومبان** مع برونهيلدا الدموية وابنها تيودوريك الذي حكم برغنديا بعد وفاة غونتران طابعاً أكثر حدية . فقد احاط تيودوريك نفسه بالمحظيات بدلاً من ان يتزوج ، وتشير الدلائل إلى أن برونهيلدا بذلت مافي وسعها للمحافظة على هذا الوضع لتظلَّ مسيطرة على ابنها . لم يرغب **كولومبان** في التزام الصمت ، فأدان بصرامة وقسوة نمط الحياة الخلاعية التي عاشها الحاكم الشاب مستغلاً كلَّ فرصة سانحة . ولاشكَّ بأنه كان سيدفع حياته ثمناً لذلك لولا خوف برونهيلدا من التعرض لرجل حظي بتكريم عام ، وذاع صيته كنبي وصانع معجزات . لكنَّ تيودوريك أمر بإختطاف **كولومبان** ونقله إلى Besacon عام ٦١٠ . وتمكن المبشر من خداع حراسه ، وعاد إلى Luxeuil . صمم ثيودريك وبرونهيلدا على التخلص من الراهب الخطر . فحاصر الجيش الدير وهدد بتدميره إن لم يستسلم **كولومبان** طوعاً . ولّما استجاب **كولومبان** لطلب المحاصرين ساقوه سجيناً . مرّوا به عبر **أوتون** ، وأوررليان ، وتور . وفي تور طلب **كولومبان** السماح له بالصلاة عند ضريح القديس مارتن . رُفِضَ طلبه أول الأمر . فتفوه في ثورة غضبه بنبوة قاسية : «أخبروا سيدكم انه بعد أعوام سَيُقْتَلُ هو وأطفاله ، وسيتم القضاء على كل سلالته» ! وفي نهاية المطاف حصل على موافقة الخفراء في البقاء ليلة بجوار ضريح القديس . وفي الصباح تبيَّن أن **أمتعة كولومبان** ، بما في ذلك الأموال المخصصة للفقراء ، قد سرقت . عاد المبشر إلى الكنيسة غاضباً . وخاطب القديس مارتن قائلاً : انه لم يمض الليلة بجوار ضريحه لكي يسمح بسرقته . إنها صراحة وحرية مدهشة مميّزة لبعض القديسين !

أُرغم **كولومبان** مع عدد من الرهبان على الصعود إلى مركب كان له أن يقلهم إلى ايرلندا . صارعت السفينة الأمواج لمدة ثلاثة أيام بالقرب من Nantes دون جدوى ، فقد دفعها البحر إلى الشاطئ . وفي نهاية المطاف قام القبطان المذعور بإنزال **كولومبان** على الشاطئ المهجور وأبحر حالاً .

لم يعد **كولومبان إلى** Luxeuil ، بل توجه إلى Neustria ، فإستقبله حاكمها **كلوتار** الثاني ابن فريدغوندا إستقبالاً حافلاً . التقى **كولومبان** في بلاط **كلوتار** مع رهبان آخرين طُردو من Luxeuil (وعلى أي حال عاد الدير لممارسة نشاطه بعد فترة وجيزة بإدارة يوستازي تلميذ **كولومبان**) . انطلق **كولومبان** مع الرهبان الآخرين في رحلة جديدةو وتوجَّه إلى Meaux عبر **باريس** . وهناك شجَّع ابنة فرنكوني ثري المدعوّة برغندفارا على تأسيس دير في Evreux . وفي بلدة Vulciacum جَنَّدَ راهبين هما : أدون الذي أسَّس ديراً في Jouarre، ودادون (القديس Ouen) الذي أسَّس ديراً في Rebais ، ثم تعيَّن أسقفاً في Rouen .

ثم جاء إلى Bregenz على ضفاف بحيرة بودين مارًّا عبر Basel ، و Mainz ، و Koblenz و metz . كان معظم سكان المنطقة غير معمَّدين . كانوا من الجرمان ، وبينهم بعض السلافيين . كتب مونتالمبرت Montalembert في هذا الصدد قائلاً : «وصل **كولومبان** السلتي الأصل والثقافة ، الراهب و المبشر ، الذي مارس نشاطه طيلة حياته وسط الجرمان ، إلى البلاد التي سيطرت عليها القبائل الجرمانية» . أقام معهم لمدة عامين وأسس ديراً هناك . لكنّه عرّض نفسه لعداء السكان الجرمان المحليين بسبب الحرب العنيفة التي شنَّها على المعتقدات الوثنية . اضطُر أخيراً لمغادرة Bregenz التي كانت تابعة لأوسترازيا ، الدولة التي خضعت لعدو **كولومبان** اللدودو تيودوريك .

اجتاز **كولومبان** البحيرة إلى الضفة الأخرى تاركاً في Stein رفيقه غالوس (القديس غالين) الذي أسَّس هناك ديراً ضخماً . ثم اجتاز جبال الألب برفقة راهب واحد ، حيث كانت مملكة اللمبارديين أغيلولف وثيودوليندا على الجانب الآخر . وما أن وجد **كولومبان** نفسه محاطاً بالأريانيين ، حتى خاض معهم جدالاً حامياً . لكن أغيلولف كان قد أصبح عملياً من أتباع الكنيسة الجامعة بفضل تأثير زوجته فلم يكتف بعدم التعرُّض للمبشر العجوز ، بل سمح له بتأسيس دير في موقع Bobio . وهذا هو آخر أثرٍ لرحلة الراهب الإيرلندي عبر أوروبا الوسطى .

خاطب **كولومبان** البابا **بونيفاسي** الرابع من بوبيو باسم الملك أغيلولف . أراد أغيلولف معرفة الموقف الذي توَّجب عليه اتخاذه إزاء قضية مرسوم «الفقرات الثلاث» ؛ لأن رجال الدين المحليين من أتباع الكنيسة الجامعة عارضوا البابا بعنف في هذه القضية . استهلَّ **كولومبان** رسالته راجياً المعذرة لسماحه لنفسه بمخاطبة البابا ، بالرغم من كونه مجرد اسكتلندي غبيّ» . وكتب : تؤلمني السمعة السيئة التي تطارد عاصمة بطرس في هذه البلاد . لاأقول هذا كأجنبي ، وإنما كصديق ، وتلميذ ، وخادم . اعتدت على قول الحقيقة لرؤسائنا ، وللقائمين على توجيه دفة كينستنا ، وأكرر : اسهروا ! ولاتهملوا تحذيرات الأجنبي . نقطن نحن الإيرلنديين نهاية العالم ، لكننا تلامذة القديسين بطرس وبولس ، والرسل الآخرين الذين كتبوا بإلهام من الروح القدس . لم نتلق تعاليم أخرى سوى العقيدة الإنجيلية والرسولية . ولم يكن بيننا قط مهرطق ، أو يهودي ، أو منشق . نحافظ على إيمان جامع غير متزعزع ، كالذي تلقيناه منكم أنتم خلفاء الرسل . . . يرى الشعب هنا الهراطقة من حوله ، وهو غيور وقلق كالقطيع المذعور . سامحني إن كنت في تيهي بين الصخور المرجانية أتفوه بكلمات قد تُغْضِبُ الآذان التقية . يجعلني الشعور الفطري بالحرية الذي يتميز به عرقنا ، جسوراً . ليس الإنسان وإنما العقل هو الذي يقرر عندنا . تدفعني محبتي للسلام لقول كل شيء . نحن مرتبطون بعاصمة القديس بطرس . **روما** مدينة عظيمة ذات شهرة عظيمة . ولكنَّ عظمتها وشهرتها بالنسبة لنا نابعة فقط من وجود العاصمة الرسولية فيها . أنت تكاد أن تكون كائنا

سماوياً ، وروما رأس كنائس العالم جميعاً ، نظراً لوضع القديسين بطرس وبولس» .

توفي **كولومبان** عام ٦١٥ بعد فترة وجيزة من كتابة هذه الرسالة .

كان هذا الوطني المتحمس الملتزم بالتقاليد الإيرلندية ، كاثوليكياً حميماً ، منادياً بأولوية سلطة أسقف روما . استطاع المتنبئ السريع الغضب وكأنه **إرميا** جديد ، ان يكون حساساً ووديعاً أثناء مخاطبة تلامذته . نعت تيودوريك بأنه «كلب» وتنبأ له بالموت . ولكن ما من صعوبة او مجازفة لم يُقدْم عليها لكسب ولو نفس واحدة ليسوع . عمله عظيم . وفي رحلته التي كاد أن يصل فيها إلى كافة الشعوب التي قطنت أوروبا ، احيا المسيحية من جديد . تحولت الأديرة التي أسسها إلى مراكز للعمل التبشيري . تدين الكاثوليكية الأوروبية له ولغيره من الوافدين من «جزيرة القديسين» بالكثير .

ـ الربيع الإنجليزي

لايقلُّ ما تدين به للوافدين من بريطانيا ، لأولئك الإنجليز ـ الملائكة ، عن ذلك . فهم الذين منحوا سرَّ المعمودية بشكل نهائي لأوروبا الجرمانية على عتبة الكوارث التي كانت تنتظرها .

كانت إنجلترا المسيحية ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ تعيش آنذاك ربيعها «الأول» . أقول «الأول» ، إشارة إلى كلمات نيومان في عظته الذائعة الصيت ، التي تنبأ فيها بالربيع «الثاني» بعد مرور ألف ومئتي عام على «الأول» ، لم تزدهر المسيحية آنذاك في أي من بقاع أوروبا بذلك القدر . بعد قدوم المبشرين الإيرلنديين ، سيفد إلى القارة الأوروبية جيش كان من المبشرين الأنجلوسكسونيين . وسوف تلتهب صدورهم بالحماس ذاته الذي تميَّز به مَنْ سبقهم ، وسيكونون في الوقت ذاته اكثر «رومانية» منهم . إنَّ مايذهل في الأمر هو عمق الصلات التي ربطت أتباع الكنيسة لجامعة الإنجليز بالعاصمة الرسولية . فقد ناشدوا البابا لإرشادهم في كل قضية راودتهم الشكوك حولها . وإذا كان المبشرون الإيرلنديون قد أيقظوا المسيحية الأوروبية من سباتها تحت ركام الهمجية ، فإنَّ المبشرين الإنجليز سيعيدون إليها الوحدة الجامعة .

تجدر الإشارة إلى المبشرين التالية أسماؤهم في الفترة مابين رحلة القديس **كولومبان** والعمل التبشيري العظيم الذي أنجزه القديس بونيفاسي :

القديس **أماندس** الذي لم يكن إيرلندياً على مايبدو ، بالرغم من ان نشاطه يصب في إطار روح المبشرين الإيرلنديين . وُلِدَ حوالي عام ٥٩٠ وبعد إقامته في الدير في جزيرة yeu سافر إلى روما ، حيث رُسِمَ أسقفاً مبشراً . إختار منطقة **جينت** (في بلجيكا الحالية) مسرحاً لنشاطه التبشيري . واجهه السكان المحليون في بادئ الأمر بالفتور ، شأنه شأن جميع الوافدين

من مملكة الفرنكونيين . لأن استبداد الحكام من الأسرة الميروفينية أثار عدم الثقة في النفوس . والأمر الجديد بالملاحظة هنا هو زيادة دعم الملوك الفرنكونيين البعيدين عن المسيحية كلَّ البعد في حياتهم الخاصة ، للبعثات التبشيرية في الدول التي ألحقوها أو رغبوا في إلحاقها بمملكتهم . وقد أراد **داغوبيرت** الذي زخرت حياته بالفساد ، تحويل المبشرين إلى خطوط أمامية . ولذلك حاول بشتى الوسائل المحافظة على نشاط أماندس ، بالرغم من ان القديس انتقده ووبخه علناً على كل جرائمه . وفي نهاية المطاف تمكن القديس بعمله الدؤوب من كسر طوق مقاومة السكان ، وأسس أديرة في كل من Gent ، و Brugge ، و Elnone .

توقف العمل هناك فيما بعد ، وحاول متابعة النشاط التبشيري في أوساط السلافيين على ضفاف نهر الدانوب ، لكنه لم يحرز تقدماً ، فعاد لممارسة نشاطه في المنطقة السابقة . تمَّ تعيينه أسقفاً في **ماستريخت** عام ٦٤٧ ، لكنَّه انسحب للإعتكاف في دير Elnone نتيجة خلافاته مع رجال الدين التابعين له . حاول فيما بعد متابعة نشاطه التبشيري في أوسالط الفريزيين والباسك . وتوفي عام ٦٧٥ .

القديس **بيرمين** الذي يُحتمل ان يكون إيرلندياً ، بالرغم من أن البعض يعدُّونه قوطياً غربياً من **اسبانيا**، مارس نشاطه كأسقف مبشر بين السكان القاطنين على ضفاف البحيرة **البودينية** وفي **الألزاس** . أسس أول دير بنديكتيني في المنطقة الجرمانية في **ريخيناو** عام ٧٢٤ .

مارس النشاط التبشيري بين البافاريين كل من : **يوستازيوس** ؛ **وروبرت** (مؤسس الدير في سالزبورغ) ؛ **وإيمران** الشهيد ؛ **وكوربينيان** أول أساقفة **فريزينغ** ؛ ويحتمل أن يكون جميعهم من غالة . ولكن الشهداء التورينغيين الثلاثة إيرلنديون بكل تأكيد ، وهم : **كيليان** ، **وكولومان** ، **وتوتمان** ، وقد قُتِلوا أثناء قيامهم بالعمل التبشيري حوالي عام ٦٨٩ .

بدأت مرحلة القلاقل والفوضى في فرنكونيا في أواسط القرن السابع . فلَّما توفي داغوبيرت عام ٦٣٩ ، قَسَّمَ أبناؤه الدولة فيما بينهم . لكن حكام أسترازيا ونيوستريا الجدد كانوا مجرد دمى بين أيدي أصحاب النفوذ في البلاط ، الذين كانوا أصحاب السلطة الحقيقيين وخاضوا المعارك فيما بينهم لزيادة نفوذهم وأهميتهم . ولَّما حاول **إيبروين** قهرمان **باتيلدا** أرملة **داغوبيرت** تركيز السلطة تحت راية **كلوتار** الثالث ، عارضه ليوديغارد أسقف Autun . دار النزاع بوجود فرص للجانبين ، ولكنَّ إيبروين أحرز النصر النهائي . احتلَّ Autun ، وأسر ليوديغارد وأمر بسمل عينيه . ثم أدان مجمع كنسي انعقد في Villeroy بناء على طلب إيبريون ، ليوديغارد وعزله من منصبه ، بينما حكم عليه ايبريون بالموت عام ٦٨١ .

وبالرغم من ذلك ، فإن ليوديغارد مصنف في عداد القديسين !

ما أغرب ماتميَّزت به بعض شخصيات قديسي تلك الحقبة ! فإلى جانب المبشرين من

امثال **كولومبان** ، نجد ليوديغارد السياسي والمحارب . يرجَّح أن تكون قداسة أسقف Autun قد برزت بعد أن حلَّت به الكارثة . يقول جاكوين في هذا الصدد : «حارب طويلاً لإشباع متطلبات طموحاته البشرية ، وعندئذ تعطش للنضال من أجل الفضيلة ، ولم يظهر في سكون روحه أثر للكراهية نحو اعدائه الذين عاملوه بذلك القدر من الوحشية . «لايرغب ملكنا أن يستخدم جنوده سلاحاً وعتاداً عاديين ـ هذا ماكتبه لوالدته ـ يريد أن يراهم مبعوثين قبل المعركة . وإذا بقي فيهم شيء من العادات القديمة لاسمح الله ، ولو خارجياً ، سيكون مصدر ضرر كبير لهم ، وخاصة إذا احتفظوا في قلوبهم بشيء من الكراهية لأعدائهم . . . فإذا كان خالق الحياة الأبدية الذي وُلِدَ من العذراء بالجسد بدون خطيئة قد صلّى من اجل أعدائه ، كم هو حري بنا نحن ان نحب أعداءنا . . .» . استحق لقب الشهيد في الأوساط الشعبية من خلال موته العنيف» . نعرف إضافة إلى ذلك أنه بنى كاتدرائية في Autun ، وطبَّق القواعد البنديكتينية في الأديرة التابعة لأبرشيته .

وقف قهرمان أوسترزايا **بيبين الهيريستالي** ضد قهرمان بلاط نيوستريا المدعو واراتون الذي خَلَفَ إيبريون بعد موته ، وهزمه عام ٦٨٧ ، واستولى بعد ذلك على السلطة في فرنكونيا بأكملها . يقول بانڤيل Bainville في هذا الصدد : «لم يشعر بيبين بأنه قادر على خلق واقع قانوني جديد بينما كان القديم يتلاشى ببطء . كما أنه لم يرغب في السير على طريق العنف لأن نيوستريا وبرغنديا لم تكونا بعد مؤهلتين لإخضاعهما بصورة تامَّة .

ثارت القلاقل وتجددت المعارك الحربية في مناطق أخرى . توفي عام ٧١٤ دون أن يجد فرصة سانحة للإستيلاء على التاج» .

سيلعب ابنه **شارل** دور ملك فرنكونيا غير المتوّج .

اجتاز العرب في هذه الإثناء (عام ٧١٨) جبال البيرينيه بعد اجتياح اسبانيا ، واحتلّوا Narbonne عام ٧٢٠ ، و Nimes ، و Carcassonne عام ٧٢٥ . أضحى ضغط الجيوش العربية أقوى عندما تولّى **عبد الرحمن** قيادتها . توجهت الجيوش العربية نحو الشمال ، سقطت ونُهبت مدينة **بوردو** . فاستنجدت **اكوتيانيا** المذعورة بالقهرمان **شارل** الذي تمكنَّ بمساعدة اللمبارديين من سحق الجيش العربي الذي بلغ تعداده أربعمائة ألف مقاتل عام ٧٣٢ ، وذلك في معركة دامت سبعة أيام بين **تور و بواتييه** . سقط نصف العدد في المعركة . وعلى أي حال كان هذا نصراً ساحقاً لُقِّبَ **شارل** على إثره بالمطرقة ، وفقاً لكلمات **إرميا النبي** «أنت لي فأس وأدوات حرب فأسحق بك الأمم» (٥١ : ٢٠) .

صَدَّ إنتصار **شارل** الهجوم العربي بفعالية مشابهة لدفاع **ليون** الثالث عن القسطنطينية ، بالرغم من بقاء العرب في غالة وعدم مغادرتها إلاّ في عهد **شارل** الكبير .

ولكن من ناحية أخرى يجب عدم إيلاء هذا الإنتصار أهمية أكبر ممايستحقه . ففي

العالم العربي حدثت آنذاك ثورة كبرى . أصبيت سلطة الأمويين المركزية بالوهن ، وارتفعت أصوات العديد من الأسر المحلية ، ولم يعد الإسلام موحداً . سوف يطاح **بالأسرة الأموية** الحاكمة بعد فترة وجيزة عام ٧٥٠ ، وستنتقل الخلافة إلى **العباسيين** الذين سينقلون عاصمة الدولة أيضاً إلى **بغداد** . سيقضى على الأسرة الأموية ، وسيحتفظ ممثلوها بإمارة في اسبانيا فقط . ستكون الإمارة الإسبانية مستقلة غير تابعة للخليفة في **بغداد** . ولن تستطيع في حروبها التي تخوضها في أوروبا الإعتماد على العالم الإسلامي ، وخاصة على العباسيين الذين سيكونون فُرساً أكثر منهم عرباً . ولن تكون أوروبا الغربية موضع اهتمام كبير بالنسبة لهم ، لأن اهتمامهم سوف ينصّب على محاربة **بيزنطة** .

لم يستغل **شارل** إنتصاره لإنتزاع التاج من تيودوريك الرابع المعتوه ، وبقي العرش شاغراً حتى بعد موته عام ٧٣٧ .

أما فيما يتعلق بالكنيسة ، فم يكن كل من **بيبين وشارل** بأفضل من الحكام من الأسرة الميروفينية . وفي هذا الصدد يقول **غويو** G. Goyou : «كان **شارل** الذي أنقذ المسيحية بصّده الغزو الإسلامي ، هو الذي دمرَّ الكنيسة الفرنكونية» . منح لقب أسقف لمن شاء ، ومتى شاء . يتطرق Goyou لهذا الموضوع قائلاً : «ظلَّت مدن ليون ، وفين ، وفيردون ، و Le mans محرومة من الأساقفة لأعوام طويلة . وفي أماكن أخرى شوهد رجال دين ـ ويالهم من رجال دين ! ـ وقد استولوا على عدد من العواصم الأسقفية في آن واحد ، عواصم عائدة في غير مرَّة لمقاطعات كنسية مختلفة . ترأس ميلون ، الرجل العلماني أسقفية Reims و ترير Trevir . واستولى **هيجو** ابن شقيقة **شارل** على سلطة أساقفة باريس ، و Bayeux ، و Rouen ، ولم يكد الهمجي **راغينفيرد** الذي عينه **شارل** أسقفاً أن يجيد القراءة» كانت المعرفة والإنضباط في الكنيسة في حالة انهيار . انهارت الأديرة . عزل الرهبان رؤساءهم كلما أبدوا صرامة وحزماً في تعاملهم . وفي دير Moutiers - en - mer قُتِلَ رئيس الدير على يد راهب تلقَّى توبيخاً منه . واغتال «مجهولون» القديس لامبرت أسقف ماستريخت ، عندما انتقد بيبين على علاقته الزوجية غير الشرعية ، ومعارضة نهب الممتلكات الكنسية .

كانت هذه الممتلكات عرضة للنهب بصورة دائمة . يقول **داوصن** : «لم يفعل قهرمانات البلاط شيئا من اجل الثقافة ، بل دفعوا عملية انحطاط الكنيسة الفرنكونية أبعد فأبعد . كافأ **شارل** محازبيه العلمانيين برئاسة الأديرة ونَفَّذَ علمنة الممتلكات الكنسية جماعياً» .

لم تُعْقَدْ المجامع الكنسية ، إذ لم يتجاوز عددها الثلاثة في غالة منذ عام ٦١٤ حتى مطلع القرن الثامن في الوقت الذي جرت هذه الأحداث في فرنكونيا ، خاض المبشرون الإنجليز معركتهم من اجل هداية فريزيا ، وهي البلاد الواقعة إلى الشرق من مصب نهر الرين ،

وسكانها من الوثنيين . حاول الفرنكونيون هدايتهم ، لكنَّ الهدف من ذلك كان تسهيل عملية إحتلال البلاد . أثارت تصرفات الفرنكونيين الريب لدى الفريزيين ، ولذلك تعذَّر على المبشرين القادمين من فرنكونيا كالقديس أمندوس أو القديس إيليجيوس إحراز أية نجاحات . وأصبح المبشر الأنجلوسكوني **ويليبرود** رسول فريزيا الحقيقي .

لم يكن قادماً إلى منطقة غير متأثرة بالنشاط التبشيري كلياً . فقبل ذلك الحين ، نشط بشكل مثمر ويلفرد أسقف يورك حتى عام ٦٧٩ في المرحلة التي غادر فيها أبرشيته . ثم جاء إلى الفريزيين عام ٦٨٧ راهب انجليزي من دير Rathmelsig يدعى **ويكتبرت** ، فوجد الأحوال متبدلة . لم يكن ملك الفريزيين الجديد **رادبورد** راغباً في سماع شيء عن المسيحية ، ديانة الفرنكونيين الذين كانوا موضع كراهية وعداء . وبالرغم من ذلك ، وبفضل هيبة المبشر الشخصية ، سُمِحَ للراهب ويكتبرت بالبقاء في فريزيا ؛ لكنَّ البعثة لم تحقق أية نجاحات ، وبعد مضيِّ عامين عاد ويكتبرت إلى انجلترا .

وجاء بعد ذلك ويلبرورد إلى فريزيا . كان راهباً بنديكتينياً من تلامذة الأسقف ويلفرد . قضى إثني عشر عاماً في دير Rathelsig (كان الدير في ايرلندا ، بينما كان ويلبرورد انجليزياً) . شهد عودة ويكتبرت من حملته الفاشلة ، وانطلق حالاً على رأس جماعة مؤلفة من اثني عشر راهب إلى الموقع الذي غادره ويكتبرت عام ٦٩٠ .

قبل أن يباشر نشاطه التبشيري في فريزيا ، توجَّه كأنجلوسكوني حقيقي إلى **روما** للحصول على موافقة البابا على ممارسة النشاط التبشيري . استقبل البابا **سرجيوس الأول** ويلبرورد بمودة وعيَّنه أسقفاً في أوتريخت (كانت أوتريخت في الجزء الخاضع للفرنكونيين) ، واختار لنفسه اسم كليمنس عام ٦٩٥ .

رافق النجاح عمل ويلبرود منذ البداية ، إذ أن الأسقف استغلَّ فرصة السلام بين الفرنزيين والفرنكونيين ـ وتمكن من توسيع مجال نشاطه ليشمل كامل فريزيا . ثمَّ شمل نشاطه سكان **الدانمرك وجزيرة** Helgoland لكنَّه اصطدم هناك بمقاومة الوثنية .

توفي بيبين عام ٧١٤ ، وهبَّ الفريزيون بعد موته لخوض معركة جديدة . سُحقَتْ المسيحية الفريزية ، وحالت الأديرة والكنائس أنقاضاً ، واضطرَّ المبشرون للفرار . غادر ويلبرود أيضاً أو تريخت .

في مثل هذه اللحظات المأساوية نزل على الشاطئ الفريزي رجل بعثت به العناية الإلهية لجميع شعوب أوروبا الغربية ، وليس للفريزيين وحدهم .

ـ القديس بونيفاسي

جاءت في ربيع عام ٧١٦ جماعة صغيرة من الرهبان الأنجلوسكونيين إلى فريزيا ، وكانت برئاسة **وينفريد** .

ولد وينفريد في ويسيكس عام ٦٧٥ . وأرسل إلى دير ايكستير وهو لايزال طفلاً . ثم عاش أعواماً في دير نورسلينغ . وكان لعلمه الغزير وفضائله الفضل في انتخابه رئيساً للدير . لكنّه لم يشغل هذا المنصب طويلاً ، إذ استيقظت فيه الرغبة في العمل التبشيري بعيداً عن أرض الوطن .

بعد ان نزل وينفريد في دورستيت توجّه لمقابلة ملك الفريزيين الرهيب **رادبود** طالباً إليه السماح له بممارسة النشاط التبشيري . يبدو أن مثل هذا الموقف الصريح نال إعجاب رادبود ، فمنح وينفريد موافقته ، بالرغم من أنه كان وثنياً متعصباً . لكنّ نتائج الحملة كانت واهية في هذه المرة أيضاً ، فعاد وينفريد أدراجه إلى انجلترا . توجّه إلى البرّ القارّي ثانية بعد عام واحد من عودته . واستهلّ رحلته الجديدة بزيارة روما . طاف أوروبا براً وبحراً . منح البابا **غريغوري** الثاني وينفريد حق العمل التبشيري «بين كافة الشعوب الوثنية» ، وأعطاه إسماً جديداً هو **بونيفاسي** عام ٧١٩ ، وبهذا الاسم سَيُعْرَفْ فيما بعد .

عاد مرة أخرى إلى فريزيا مارّاً بأوروبا كلها عبر مملكة اللمبارديين ، وجبال الألب ، وبافاريا ، وتورينغيا .

حدثت آنذاك تحولات كبرى في فريزيا ، فقد هزم **شارل** الفريزيين وأرغمهم على عيش حياة سلمية . فبرزت امكانية ممارسة النشاط التبشيري بوجود امل أكبر في تحقيق نتائج إيجابية . عثر **بونيفاسي** في طريقه على رسول فريزيا القديم ويلبرورد (أسقف أوتريخت) في دير Echternach . رغب ويلبرورد أثناء تنظيم أبرشيته المنهارة في أن يصبح **بونيفاسي** خليفة له . لكنّ مثل هذا المخطط لم يكن ليرضي طموحات المبشر . لأنه خلال رحلته إلى روما ، راقب **بونيفاسي** عن كثب عالم الشعوب الجرمانية الذي كان لايزال غارقاً في الوثنية أو في طريقه للعودة إليها بعد تفكك الكنيسة الفرنكونية . وكان هذا العالم بحاجة إليه .

بقي ويلبرورد في أبرشيته . وفي عام ٧٣٣ استغلّ الفريزيون فرصة إنشغال **شارل** بالحرب مع العرب لتحطيم النير الفرنكوني . ومرّة أخرى سوف تُسحق المسيحية الفريزية ـ المسيحية التي كانت في نظر الفريزيين رمزاً للعبودية . ولمّا توفي ويلبرورد عام ٧٣٩ كانت فريزيا لاتزال وثنية .

في هذه الإثناء ، عاود **بونيفاسي** رحلته مرة أخرى عبر أوروبا الجرمانية . باحثاً لنفسه عن مكان لممارسة نشاطه . لفت انتباهه جبل **امونيبورغ** المشرف على سهل هيس . فشيَّد فوقه ديراً ، أصبح المركز الأول للنشاط التبشيري .

قام البابا باستدعاء **بونيفاسي** إلى **روما** عام ٧٢٢ لسيامته أسقفاً . وفي طريق عودته توجَّه إلى Valencinneg ليقدم نفسه كأسقف إلى **شارل** . ثم عاد لعمله وسط الهيسيين . عمَّدَ الوثنيين منهم ؛ وأعاد إلى المسيحية مَنْ كانوا معمَّدين من قبل ، لكنهم لم يكونوا يعرفون عن المسيحية شيئاً . ثم حطَّم بجسارته شجرة السنديان المقدسة لدى الوثنيين في Geismar .

وما أن أعطى عمله ثماره الأولى ، حتى استيقظ أساقفة الأبرشيات الفرنكونية المجاورة من سباتهم . واضطر **بونيفاسي** عام ٧٢٤ لتقديم شكوى إلى البابا شخصياً احتجاجاً على مطالب جيوولد أسقف مينز Mainz .

ركزَّ **بونيفاسي** اهتمامه على **تورينغيا** ، حيث كانت المسيحية فيها أيضاً في حالة انهيار : فقد كان الأثرياء مسيحيين في الظاهر فقط ، ونشر رجال الدين تعاليم تكاد أن تكون هرطقة ، ومارسوا نمطاً من الحياة مفعماً بالفساد ؛ بينما إزدهرت الوثنية في أوساط الطبقات الدنيا ، فرغب **بونيفاسي** في مباشرة العمل انطلاقاً من الأسس الحقيقية ، دون ان يأبه بالإنحلال الأخلاقي في سلك الاكليروس المحلي . لأنه خلال إقامته الأولى في **روما** قطع على نفسه عهداً بأن لايتعامل مع كهنة غير جديرين . كان هذا المبشر المفعم بروح التضحية مليئاً بالشكوك ، وفي كل مرة هرع على الفور لإستشارة البابا . أوصاه البابا بالتأني ، وكتب قائلاً : «يصدف أن يعود الذين يتمردون على صرامة الإنضباط إلى الطريق القويمة ، عندما يُعَامَلُونَ بمحبة ويوبخون برحمة» .

لاشك بأن **بونيفاسي** الذي أصغى دوماً بطاعة لصوت روما ، قد تقيَّد بهذه النصيحة . ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن الاكليروس المحلّي ذا نفع يُذْكَرْ بالنسبة له ، لأنه استقدم مبشرين من انجلترا كلما سنحت له الفرصة . توافد الرهبان الانجليز ، وقام هو بتوزيعهم على كافة الجهات . كما قَدِمَتْ راهبات أيضاً من انجلترا . وأصبحت **ليوبا** ابنة عم **بونيفاسي** رئيسة الدير في Bichofsheim . وأدارت راهبة انجليزية اخرى تدعى **تقلا** امور الدير في Kitzingen وفي Ochesenfurt .

منح البابا في عام ٧٣٢ **بونيفاسي** طيلسان رئيس الأساقفة (الطيلسان غطاء أبيض للرأس من الصوف ، يُعَدُّ رمز أولوية السلطة الكنسية والإرتباط بروما ؛ كان مَنْحه للأسقف **بونيفاسي** يعني أنه أصبح متروبولتياً في منطقة يحددها البابا .

دخل **بونيفاسي** منطقة جديدة هي بافاريا لممارسة نشاطه التبشيري . وهنا أيضاً كانت المسيحية في حالة انهيار . طاف **بونيفاسي** خلال خمسة أو ستة اعوام البلاد برمتها ، فعلّم ،

وصحح المعتقدات الزائفة ، وزار الكنائس ، وأدان الخرافات ، وندد بالتجاوزات .

بعد خمسة عشر عاماً من العمل في الأوساط الجرمانية اقتنع **بونيفاسي** بأن المسيحية قد ترسخت في هيسيا ، وتورينغيا ، وبافاريا إلى حدٍ يسمح له بالتوجُّه إلى شعوب وثنية تماماً ومعادية للمسيحية ، أي إلى السكسون تحديداً . استوطن السكسون آنذاك في المنطقة الواقعة ما بين نهري لابا وفيزيرا ، ومن هناك انطلقوا في غزواتهم للبلدان المجاورة .

قبل أن يتخذ **بونيفاسي** قراره الأخير ـ وحرصاً على الحفاظ على الصلة الوثيقة بالعاصمة الرسولية ـ توجَّه إلى **روما** للحصول على موافقة البابا ومباركته للخطة ، وذلك عام ٧٣٩ . لكنَّه لم يحصل عل موافقة البابا ، لأن عمل **بونيفاسي** بدا أكثر وضوحاً في منظور روما . وجدت **روما** من وجهة نظرها ضرورة ترسيخ المسيحية ، أو ربما إعادة المناطق التي تعاظمت فيها قوة الدولة الفرنكونية إلى المسيحية ، تلك الدولة التي احتاجتها **روما** لمواجهة النزاعات الجديدة مع **بيزنطة** .

التقى **بونيفاسي** في **روما** بالعديد من الرهبان والقسس الأنجلوسكونيين الذين طلبوا إليه ان يصطحبهم معه للعمل التبشيري بين الجرمان . فجمع المتطوعين وأقفل عائداً إلى ماوراء جبال الألب . عينَّه البابا وكيلاً له (ينوب عنه شخصياً) و أوكل إليه تنظيم بنية الكنيسة في البلدان التي قام بهدايتها .

كانت في بافاريا أسقفية واحدة . فأسس **بونيفاسي** ثلاث أسقفيات أخرى في سالز بورغ ، وفريزينغين ، وراتيزبون . واجه صعوبات أكبر في تأسيس نظام أسقفي في كل من هيسيا وتورينغيا ، حيث لم تكن توجد مدن كبرى . وفي نهاية المطاف أسس اسقفية في القلعة الجبلية بورابورغ للهيسيين ، وأسقفيتين للتورينغيين في ايرفورت وفورزبورغ .

توفي **شارل** «المطرقة» عام ٧٤١ تاركاً الأمور بين يدي ابنيه **شارلمان** وبيبين . أصبح الأول قهرمان البلاط في أوسترازيا ، والثاني في نيوستريا . تلقى كلاهما تربيتهما في دير سانت دينيس وعرفا المسيحية بصورة أفضل من والدهما . كان **شارلمان** رجلاً شديد التعلق بالدين . وعلى غير عادة التقاليد الفرنكونية ، لم يقدم الأخوان على خوض حرب فيما بينهما .

عندما اتصل **بونيفاسي** مع **شارلمان** طلب إليه الأخير أن يصبَّ اهتمامه علىإصلاح الكنيسة في البلاد التي يحكمها . وكما نعلم ، كانت أحوال الكنيسة ميئوساً منها . وفي هذه المرَّة أيضاً باشر **بونيفاسي** عمله بطلب موافقة روما . خاطب البابا قائلاً : «أبتاه ، أُعْلِمُكَ أن **شارل**مان ، زعيم الفرنكونيين ، استدعاني وطلب إليَّ الدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في المملكة الفرنكونية الخاضعة لسلطته . إنه راغب في إصلاح الكنائس وتصحيح أمور الدين ، بعد أن تعرضت منذ مالايقلُّ عن سبعين عاماً للدمار ومرَّت بتجارب صعبة . . . وإذا كنتُ سألبي طلب الأمير بتوجيهك سأجد نفسي مرغماً على عزل الكثيرين من مناصبهم وإنزال العقوبات بهم ، ولذلك أودُّ الإعتماد على تكليف العاصمة الرسولية وعلى القوانين الكنسية» . وجد **بونيفاسي** أفظع الجرائم في إسناد منصب الأسقف للعلمانيين أو لرجال الدين الذين

عاشوا حياةلا أخلاقية ؛ ووجود شمامسة لهم عدة سراري ، وهم يمارسون وظائفهم الكنسية ، ويتلقون الأسرار الكهنوتية العليا ؛ ووجود أساقفة سكيرّين ومتعصبين ، خاضوا الحروب ، وأراقوا الدماء المسيحية وليس الوثنية .

انعقد المجمع الكنسي المعروف بـ«الجرماني» عام ٧٤٢ (لكننا لانعرف مكانه) . وشارك في أعماله الأمير **شارلمان** .

أسفرت مداولات المجمع عن عزل بعض الكهنة غير الجديرين من مناصبهم . اتُّخِذَ قرار بانعقاد المجامع الكنسية سنوياً . وتم الاعتراف بالمتروبوليت **بونيفاسي** رئيساً لكافة الأبرشيات في أوسترازيا . حددت المقرارات اللاحقة نمط حياة رجال الدين ، وحظّرت على سلك الإكليروس حمل السلاح ، وفرضت القواعد البنديكتينية على كافة الأديرة .

لم تمر هذه الإصلاحات بسلام . لأن أساقفة من امثال جيفيليب كانوا أقوى من ان يسمحوا بعزلهم . لكنَّ القرارات التي اتخذت بدأت بالرغم من ذلك تدخل حيّز التنفيذ ، وبدأت عملية بعث الكنيسة في فرنكونيا الشرقية ، ولو أنه بوجود بعض المصاعب .

انعقد مجمع جديد بعد مرور عام واحد (عام ٧٤٣) . أقرَّ المجمع الجديد كافة القرارات التي اتخذها المجمع السابق . لكنَّ **شارلمان** أعلن أن تنفيذ القرار الخاص بإعادة الممتلكات الكنسية التي صادرها والده ، يجب أن يؤَجل ، لأن الأشخاص الذين استأجروا هذه الممتلكات كانوا على درجة من القوة لم يجرؤ معها **شارلمان** على خوض معركة ضدهم . وقد أعيدت هذه الممتلكات إلى الكنيسة بعد موت مستأجريها . لكنَّ القانون الخاص بعائديتها للكنيسة ظلَّ نافذاً ، وألزم بدفع ريع عنها مادامت في حوزة المدنيين .

شنَّ المجمع بالإضافة إلى ذلك حرباً على بقايا المعتقدات والأحكام السلفية الوثنية : كالتنجيم ، والرقى ، والرقص أثناء المراسيم الكنسية ، ووضع المناولات في أفواه الموتى (كزاد للرحلة الأخيرة) ، وقتل زوجة وخادمات الميت . . الخ . كانت مقاومة هذه الأفكار مشحونة بالمصاعب بسبب المستوى المتدني لرجال الدين . بالإضافة إلى وجود عدد من الأنبياء الكاذبين ، طافوا البلاد ونشروا التعاليم الضارة المشبعة بالخرافات . وقد طالب **بونيفاسي** بالرغم من وداعته بإصدار أوامر باعتقالهم .

كان بيبين **أقلَّ** تأثراً بالمشاعر الدينية من **شارلمان** ، لكنَّه قرر بدوره إصلاح الحياة الكنسية . ففي عام ٧٤٤ انعقد مجمع كنسي في Soissons شارك **بونيفاسي** في أعماله . نظرالأساقفة الفرنكونيون الغربيون إلى **بونيفاسي** كمبعوث بابوي . لكنَّهم لم يعترفوا له بالسلطة عليهم . كما أنهم طالبوا برفع مرتبة أسقفيات Rouen ، و sent ، و Reims ومنحها صفة متروبوليات ، ضمَّ المجمع التالي الذي انعقد عام ٧٤٥ أساقفة المقاطعتين الفرنكونيتين . وقد اتخذت قرارت عديدة منها تعيين **بونيفاسي** متربوليتاً في كولونيا ورئيساً للكنيسة في أوسترازيا كلها .

لم تُستحدث المتروبوليات . إذ تَوَجَّبِ أولاً تطهير المتروبوليات من الأفراد غير الجديرين ، وهؤلاء ، رفضوا الإمتثال للقرارات . رفض أسقف كولونيا التنازل وتسليم **بونيفاسي** شؤون الأسقفية ، مما اضطره لشغل منصب أسقف Mainz بعد إبعاد جيفيليب المشاغب . أصبح بيبين الحاكم الفعلي لكامل فرنكونيا بعد أن تخلى **شارل**مان عن الحكم واعتكف في الدير . كان للقهرمان الطموح بيبين مخططات كبيرة ، ولذلك لم يرغب في كسب عداء أحد . اعتقد أن الوقت قد حان للإستيلاء على التاج الذي كان لايزال من حق الميروفينيين نظرياً . فاستدعى كبار المتنفذين إلى Soissons ، وطالبهم بأن ينادوا به ملكاً . وسُجِنَ آخر أفراد الأسرة الميروفينية في الدير .

عندما سعى بيبين للحصول على اللقب الملكي كان قد ضَمِنَ موافقة البابا . وقد يكون **بونيفاسي** صاحب الرأي في هذه القضية . لاشك بأن المبشر الكبير لم يكن متوهماً فيما يتعلق بشخصية بيبين . فقبل ذلك الحين بفترة وجيزة كان يشكو منه أمام البابا ، وقد كتب له بأن الحكام الفرنكونيين «لم ينفذوا شيئاً من وعودهم الكثيرة» . لكنَّه اعتقد بأنه من الأفضل أن يملك مَنْ يمارس السلطة الفعلية التاج أيضاً . كانت الأسرة الميروفينية قد انحطَّت تماماً ، وكان الأمراء من هيريستال واعدين بشيء جديد على أي حال .

علَّقت **روما** آمالاً كبيرة على الأسرة الجديدة ، وإن كان **شارل** «المطرقة» قد خيَّب آمالها ، حيث لم يمد يد العون للبابا في اللحظة الحرجة (سنعود للحديث عن هذا الموضوع بعد قليل) . كان بيبين بعيداً عن المثل الأعلى ، لكنَّ البابا الذي وجد نفسه حائراً مابين الامبراطورية المنشقة على نفسهاوطموحات اللمبارديين القلقة ، لم يجد من يعتمد عليه كحليف سوى بيبين . لذلك كانت عملية إصلاح الكنيسة التي باشرها وأنجزها بونيفاسي على هذه الدرجة من الأهمية . فلولاه لما قدَّمت الأسرة الفرنكونية الجديدة أية ضمانات في الوفاء .

قام البابا بتكليف **بونيفاسي** بمسح وتتويج بيبين . وتمَّ هذا الشيء عام ٧٥١ في Soissons .

بعد أن نفَّذ **بونيفاسي** المهمة الموكلة إليه ، ابتعد حالاً عن البلاط الملكي . لأن مظاهر الفخامة والأبهة لم تكن تهمه . لقد حلم الأنجلوسكسوني الأزرق العينين - بالرغم من الشيخوخة - بحملات تبشيرية جديدة ، وكسب نفوس لمجد يسوع .

اقتحم السكسون عام ٧٥٢ تورينغيا ودمروها . فتوجَّب الإهتمام بترميم الكنائس والأديرة المدمرة . وبعد إنجاز هذه المهمة ، التفت **بونيفاسي** إلى البلاد التي باشر فيها نشاطه الرسولي . لأن فريزيا كانت لاتزال وثنية ، وبدت وكأنها تناجيه .

قبل ان ينطلق في رحلته الجديدة ، وضع كامل عمله تحت رعاية بيبين . مشيراً إلى أن

«معظم تلامذته من الأجانب» (الإنجليز) ، ولذلك طلب إليه أن يرعاهم . أوكل رعاية Mains إلى تلميذه المحبب لول القادم من انجلترا أيضاً . وأكد أن «الكهنة سيجدون فيه رمزاً ، والرهبان معلماً في الزهد ، والشعب راعياً أميناً وواعظاً» .

كان دير فلورا من أحب الأديرة التي تأسست بمبادرة منه إلى قلبه ، فطلب من البابا السماح له بالإشراف عليه شخصياً . «هناك بموافقة قداستكم أودُّ يوماً ما أن أسكن ، لأريح بعض الشيء جسدي المتعب ؛ وهناك أيضاً أريد أن أرقد بعد الموت . فعلى مقربة من الدير يوجد أربعة شعوب أعلنت لهم بنعمة الله كلمة الحق . أريد أن أكون مفيداً لهم مادمت على قيد الحياة وقادراً على العمل» .

كما طلب إلى ابنة عمّه ومساعدته الوفية ليوبا أن لاتغادر بلاد الجرمان مدى الحياة . أبحر **بونيفاسي** في مطلع عام ٧٥٣ عبر الرين برفقة مجموعة من رفاقه (يرجّح ان يكون عددهم إثني عشر ، لأن المبشرين الأنجلوسكسونيين انطلقوا في مهماتهم دوماً بهذا العدد) ، متوجهاً إلى أوتريخت .

تجوّل المبشر الشيخ لفترة من الزمن في فريزيا ، يعلّم ، ويعمّد ، ويحطّم أصنام الوثنيين ، ويشيّد الكنائس . قام بهداية آلاف المؤمنين . لكنَّ جماعة المبشرين هوجمت في حزيران عام ٧٥٤ من قبل بعض الوثنيين المتعصبين ، فَقُتِلَ **بونيفاسي** ورفاقه .

رقد جثمان القديس في فلورا . واليوم . ضريح **بونيفاسي** موجود في عمق كاتدرائية من النمط الباروكي . كان هذا الرجل الذي حمل لقب «رسول جرمانيا» ، واضع أسس بعث المسيحية في أوروبا برمتها . فعمله التبشيري هو الذي حدد طابع مملكة بيبين وأهداف الفرنكونيين الجرمان .

كان الشعب الجرماني وحده القادر على قيادة أوروبا الجرمانية آنذاك ، ولم يكن أمراً عديم الأهمية مالذي سيكونه هذا الشعب .

بكت انجلترا أيضاً **بونيفاسي** الذي لم يقطع صلته بها بالرغم من أنه هجرها من أجل يسوع .

أشار المؤرخون الأنجلوسكسون في مدوناتهم عام ٧٨٦ للمرة الأولى إلى هجوم نفَّذته ثلاث سفن قادمة من «بلاد اللصوص» على الساحل البريطاني .

بدأ الزحف النورماندي .

الفصل الحادي عشر

تحطيم التماثيل الدينية ومحاربة تقديسها

ـ مابين الامبراطورية وطموحات اللمباردين

أشرنا سابقاً إلى ان البابا وجد نفسه في موقف صعب بين الامبراطورية الواقعة في حبائل الإنشقاق ، واللمبارديين الطامعين في الإستيلاء على كامل إيطاليا ، وإن كانوا قد أصبحوا من أتباع الكنيسة الجامعة .

جلس غريغوري الثاني على العرش البابوي منذ عام ٧١٥ . وتعاظم دور البابوية السياسي في إيطاليا يوماً بعد يوم ، بغض النظر عن رغبة البابا في ذلك . كانت الرقعة التي ضَمَّتْ روما المدينة والتي عُرِفَتْ بإمارة روما خاضعة للأكسرخس الامبراطوري في رافينا نظرياً ؛ أما في الواقع فقد كان البابا يقرر مصير الإمارة وليس الأمير . وإلى البابا توجهت أنظار سكان إيطاليا الوسطى المهددة بخطر اللمبارديين ، الذين خططوا لإحتلال كامل شبه الجزيرة ، السكان الذين أدركوا أنهم لايمكن أن يتوقعوا أية مساعدة من الإمبراطور . تفاوض البابا وحده مع اللمبارديين ووحده كان قادراً على تحصيل شيء منهم .

أصبح لويتبراند ملكاً على اللمبارديين عام ٧١٢ . كان رجلاً متميزاً بفردانيته وطموحاته العظيمة . وَحَّدَ جميع اللمبارديين بإستثناء إمارتيّ بينيفينيتو وسبوليتو .

هزم الامبراطور ليون الثالث العرب وانهمك في إعادة تنظيم الدولة . وعلى نحو غير متوقع استيقظ فيه المصلح الديني . إذ أطلق على نفسه إسم «الامبراطور ـ الكاهن» في رسالة وجهها للبابا . ثم قام عام ٧٢٥ بإعتبار نفسه مخولاً بإدارة شؤون الحياة الكنسية ، وأصدر

مرسوماً يقضي بإزالة جميع الصور التي صوَّرت المسيح ، وأمه ، والقديسين ، والملائكة .

يكتنف الغموض السبب الذي دفع **ليون** لإتخاذ هذا الإجراء . هناك من يفترض أن الامبراطور اعتقد أنه بهذا المرسوم سيقارب مابين المسيحية والإسلام (لأن الإسلام اعتبر الصور عملاً كريهاً من أعمال الشيطان) . ومن ناحية أخرى ، يحتمل أن يكون الامبراطور قد تحسس وشعر بالضيق من التكريم المتزايد الذي أحيطت به الصور ، وخاصة في أوساط الرهبان . قطعت المسيحية منذ البداية صلتها بالموسوية على هذا الصعيد أيضاً : فالرسوم التي تُمَثلُ الكائنات الإلهية والبشرية موجودة في السراديب الرومانية ؟ لكنَّ التكريم الذي أحيطت به الصور كان شيئاً مختلفاً تماماً عن تمجيد الشخصيات التي صورتها . يقول كل من R Hedde و P. Albers في هذا الصدد : «تمَّ تمييز عبادة الأسمى التي استحقها الله وحده ، وعبادة الأدنى التي وجبت للقديسين . لكلتا العبادتين طابع المطلق ، لأن الله والقديسين على درجة من الكمال الخارج عن إطار الطبيعة ، والذي بسببه يُمَجَّدونْ . أما الصورفلها الحق في التكريم الشرطي فقط ، لأنها ليست سوى تمثيل **ليسوع** والقديسين . أمكن للجهلة وحدهم الإعتراف للصور بحق التمجيد المستقل . ولاشكَّ بأن مثل هذه الأمور حدثت في أوساط الكَمْ الهائل من الرهبان الشرقيين . واتخذت عندئذ العبادة صيغة الخرافة ، وغالباً ماتواجدت الصور المحاطة بمثل هذا التمجيد في الأديرة . تزايد نفوذ الرهبان من خلال هذه الصور على المؤمنين ، وكان هذا النفوذ خطراً . كانت الأديرة في الامبراطورية «دولاً حقيقية في الدولة» . لم يحظَ **ليون** بالرغم من الإنتصار الذي أحرزه على العرب بشعبية واسعة ، علماً أنه حاول إصلاح الوضع الإقتصادي في الامبراطورية ، فقد خلقت له القوانين الأميرية الجائرة الكثير من الأعداء . وكان الرهبان القوة التي جَنَّدَتْ الجمهور ضد حكم الامبراطور . وقد يكون أوسبينسكي مصيباً في رأيه حينما قال أن الهدف من اصدار المرسوم المذكور كان الحدُّ من نفوذ الرهبان (الذين يُعتقد بأن عددهم في الامبراطورية تجاوز المائة ألف) .

أهذه كانت الدوافع في الحركة الإصلاحية التي باشرها **ليون** أم غيرها ، فقد أثار المرسوم الذي أصدره عاصفة حقيقية . فالجنود الذين انتزعوا صورة **يسوع** المعروفة بإسم Antiphonetes من أعلى البوابة البرونزية في القصر الإمبراطوري ، تمَّ تمزيقهم بالمعنى الحرفي للكلمة من قبل الجمهور .

فَرَدَّ الامبراطور على ذلك بمجزرة دموية . لم يفكر بالتراجع ، فطالب بطريرك القسطنطينية **جيرمان** بتوقيع المرسوم ، وعبَّر البطريرك عن احتجاجه على المرسوم بإعلان استقالته من منصبه . فخلفه حالاً شخص يدعى **أنستازي** ، كان حلمه تنفيذ رغبات الامبراطور .

أُرسِلَ المرسوم إلى ايطاليا مرفقاً بمرسوم آخر يقتضي رفع الضرائب المرتفعة أصلاً . بدأ

الجنود البيزنطيون بمبادرة منهم بإزالة الصور المقدسة من الكنائس مثلما فعلوا في **بيزنطة** . أثار هذا ثورة حقيقية . رفض **غريغوري** الثاني توقيع المرسوم ، كما رفض الاعتراف بالبطريرك الجديد ، وخطَّ رسالة عنيفة اللهجة إلى الامبراطور . أصدر الامبراطور عام ٧٣٠ مرسوماً جديداً أشدَّ لهجة ، اقتحم الجيش على أثره الكنائس في كل مكان وحطم الصور و التماثيل .

استغلَّ لويتبراند الخلاف بين **بيزنطة** والبابا ، فحاصر رافينا . ولمَّا حاول **غريغوري** صدَّه ، غيَّر لويتبراند الجبهة ، فتفاهم مع الأكسرخس ووقف موقفاً معارضاً من البابا . أضحت حالة **غريغوري** مأساوية ، وتوفي عام ٧٣١ مثبط العزيمة . انْتُخِبَ خلفه يوم تشييعه بالذات : وكان في هذه المرَّة أيضاً **سوريا** ، وهو **غريغوري** الثالث . خضع البابا الجديد لشكليات المصادقة على انتخابه من قبل الاكسرخس . وكانت هذه هي المصادقة الأخيرة على انتخاب البابا من قبل ممثل امبراطور الشرق .

حالما جلس **غريغوري** الثالث على الكرسي الرسولي ، بعث برسالة إلى **ليون** الثالث يناشده فيها التراجع عن العقيدة الخاطئة ودعى ـ دون انتظار الرد ـ لإنعقاد مجمع كنسي في باسيليقا القديس بطرس ، حيث ألقى الأساقفة المجتمعون الحرم الكنسي على «جميع الذين رفضوا التقليد القديم» وتكريم الكنيسة للصور المقدسة ، فحطموها ، ودنسُّوها ، ونجَّسوها» . قام البابا بالرغم من هذا الرأي الصارم بمخاطبة الامبراطور مرتين أخريين متوسلاً إليه أن يتراجع عن مراميه . التزم **ليون** الصمت ، لكنَّه خطط لعملية الإنتقام . دمرَّت العاصفة الأسطول الذي أرسله بهدف إرغام **روما** على الطاعة . ولما تعذَّر عليه الإنتقام بقوة السلاح ، صادر ممتلكات البابوية في **صقلية وكلابريا** ، كما أصدر أوامره إلى الكنائس في إيليريا وإيطاليا الجنوبية (أي في المناطق الخاضعة له) ، باعلان الإنفصال عن البابا والخضوع لسلطة بطريرك القسطنطينية .

كانت الخطوة الأخيرة بمثابة حرمان البابا فعلياً من سلطته على الكنيسة داخل حدود الامبراطورية . لأن الأوامر نصَّت على خضوع الكنيسة داخل الإمبراطورية لسلطة بطريرك القسطنطينية ، بما في ذلك ماتبقى من البطريركية الإنطاكية في أيدي الامبراطور . كان هذا عقاباً على وقوف البطريركيات الثلاث الموجودة في إطار الخلافة الإسلامية ، ضدَّ تحطيم التماثيل والصور الدينية وخطر تكريمها ، وإدانتها في المجمع المنعقد عام ٧٣٠ «لليون الكافر» . وقد ترأس المعارضة كل من **يوحنا** ذاته بطريرك أورشليم ، والقديس **يوحنا الدمشقي** . ولد **يوحنا الدمشقي** عام ٦٧٥ . وكان والده جابي ضرائب في الأوساط المسيحية . ويحتمل أن يكون **يوحنا** ذاته قد مارس هذه المهمة حتى اللحظة التي هجر مشاغل الحياة الدنيوية ، واعتكف في دير القديس سابا بالقرب من أورشليم . عكف في الدير على العمل العلمي وترك عدداً من المخطوطات في مجال العقيدة والأخلاق ، وشرح الكتاب المقدس . كما حُفَظِتْ بعض تراتيله عن وفاة العذراء ، وأناشيد أخرى تتعلق مواضيعها بالعذراء مريم . وقف **يوحنا**

ضدّ تحطيم التماثيل والصور المقدسة ، وأعطت هيبته رسائله الثلاث صدى واسعاً . اعتبره أنصار تحطيم الصور واحداً من خصومهم الأساسيين . توفي عام ٧٤٩ .

لم يجد **ليون** مرحلياً متسعاً من الوقت ليتفرغ لموضوع نزاعه مع البابا . كان قد باشر آنذاك أعمالاً هجومية ضد العرب ، ووجّه لهم ضربة قاسية في فريجيا . باغته الموت عام ٧٤٠ أثناء المعارك التي دارت رحاها في آسيا الصغرى .

تولّى السلطة **قسطنطين** الخامس ابن ليون ، المتزوج من ابنة خان الخزر ، الذي كان موضع كراهية عامّة ، إذ لُقّبَ بالنتن بعد جلوسه على العرش مباشرة . كانت اولى المصاعب التي واجهها الامبراطورالجديد هي الثورة التي قادها ابن حميه **أرتوازد** ، الذي استغلّ فرصة غياب **قسطنطين** عن العاصمة ، فاحتلّها وتُوّجَ فيها ، لكن **قسطنطين** عاد ، فعزل المغتصب عن العرش وسمل عينيه .

باشر الحرب مع العرب مجدداً . وتمكن الأسطول البيزنطي عام ٧٤٦ من تدمير الأسطول العربي قرب قبرص . ووصلت الجيوش البيزنطية عام ٧٥١ إلى الفرات . لكنّ **قسطنطين** لم يرغب في ضمّ الأراضي إلى أرض الامبراطورية ، واقتصر على تهجير السكان المسيحيين إلى تراقية .

خاض لويتبراند في إيطاليا معركة جديدة ضد الجيوش الامبراطورية مهدداً روما . وعندما خاب أمل البابا في العثور عمّن يمدُّ له يد العون ، استنجد **بشارل** «المطرقة» عام ٧٣٩ . استقبل مبعوثي البابا استقبالاً حافلاً ، لكنّه لم يعرض على البابا شيئاً أكثر من ذلك . فقد كان اللمبارديون حلفاء له في حربه مع العرب ، ورغب في الحفاظ على علاقات حسنة معهم .

لم يبق أمام **غريغوري** من مجال سوى محاولة بدء مباحثات جديدة مع لويتبراند . توفي عام ٧٤١ قبل أن يحقق ذلك . أقدم خلفه زكريا على خطوة جريئة : ذهب لمقابلة ملك اللمبارديين بعد انتخابه مباشرة .

تمكن البابا من كسب لويتبراند بهذه المبادرة . ففي واقع الأمر اعتبر الملك نفسه كاثوليكياً ،و شعر ببعض الإحترام لشخص البابا . لكنّ آراءه كانت شبيهة تماماً بآراء الامبراطور : إذ رغب في رؤية البابا رئيساً لكنيسة في إيطاليا اللمباردية ، وبهذا الشرط كان على استعداد للتحالف مع البابوية . لم تكن مطالب الامبراطور الذي أراد أن يحرم البابوية من اولويتها ، وكذلك عرض الملك بالمحافظة على هذه الأولوية ضمن إطار الدولة اللمباردية ، مقبولة بطبيعة الحال . فاضطر البابا للحنكة السياسية بهدف التخفيف من استبدادية لويتبراند ، لكنّه ظلّ يبحث عن حلٍ آخر لضمان المحافظة على شمولية الكنيسة .

وعندما زحفت جيوش لويتبراند لمهاجمة أكسرخس رافينا ، استنجد السكان المذعورون

بالبابا . وتمكن زكريا مرة اخرى من إيقاف الزحف اللمباردري على أراضي الامبراطورية ، بفضل لقائه مع لويتبراند .

توفي لويتبراند عام ٧٤٤ ، فخلفه على العرش **راتخيس** ، الذي ذاع صيته بعد الإنتصار الساحق الذي حققه على الأفاريين . وافق بدوره على احترام السلام الذي تحقق بفضل تدخل البابا .

عندما تولّى **قسطنطين** الخامس العرش ، بعث إليه البابا بوفد ليقدم له التهاني بإسمه . اسْتُقْبِلَ الوفد بمودة ، لكنها كانت مجرد مظاهر خادعة . لأن الامبراطور انهمك بإخماد تمرد أرتوازد ، وإدارة الحرب مع العرب والبلغار ، ولم يكن لديه الوقت الكافي للتفرغ لقضايا الكنيسة .

بحث الموضوع عام ٧٥٣ ،حيث طلب عقد «مجمع كنسي» في بلدة Hier على البوسفور . شارك في أعمال «المجمع» ٣١٨ أسقفاً ـ دون أي اعتبار لغياب ممثلي البابا ، وبطاركة **انطاكية** و **الاسكندرية** وأورشليم ـ أعلنوا ان تكريم الصور «عبادة وثنية» و «من أعمال الشيطان» وقرروا «وجوب إزالة كافة الصور من جميع الكنائس المسيحية . . . وكل من يسمح لنفسه برسم أو تكريم الصور ، أو وضعها في الكنيسة أو في منزله الخاص ، أو يساعد على اخفائها ، سَيُعْزَلُ من منصبه إذا كان أسقفاً أو كاهناً أو شماساً ، وسَيُحْرَمُ كنسياً وتطبق عليه أحكام المراسيم الامبراطورية إذا كان راهباً أو رجلاً علمانياً» .

اختتمت مقرارات «المجمع المسكوني» بعبارات التبجيل **لقسطنطين** وابنه ليون ، «محطمي الأوثان» ، وإدانة البطريرك جيرمان ، وكذلك منصور (هكذا لُقِّبَ بإزدراء القديس **يوحنا الدمشقي**) .

أسفر «المجمع المسكوني» عن تصعيد الحرب ضدَّ الصور . فتمَّ تمزيق الصور ، وتحطيم الفسيفساء ، وطلاء اللوحات الجدارية بالكلس ، وأتلفت روائع الأعمال الفنية ، خضع الأساقفة ورجال الدين للضغوط التي مارستها السلطات الإمبراطورية ، لكنَّ الرهبان استمروا في حالة التمرد . ردَّت السلطات على ذلك بإغلاق الأديرة وتشتيت تجمعاتهم . فلجأ الكثيرون منهم إلى الغرب . لكنَّ المعركة كانت موجهة أنذاك ضدَّ الصور ، وليس ضدَّ الناس . لم تحدث سوى حالات معدودة من أحداث القتل الدموية .

نقض راتخيس الإتفاق المبرم مع الجيوش الإمبراطورية في إيطاليا مجدداً وهاجم رافينا .

ومرَّة أخرى توجَّه البابا زكريا شخصياً لمقابلته ، وبهذه الخطوة انقذ السلام ثانية . وقد يكون العمل المفعم بالمحبة الذي أقدم عليه البابا هو مادفع راتخيس لإتخاذ قراره في اعتزال السلطة والإعتكاف في الدير .

خلفه **أيستولف** ذو الميول الحربية ، حيث احتلّ رافينا عام ٧٥٠ ، وفرّ الاكسرخس الامبراطوري من ايطاليا . وكان هذا بمثابة نهاية السلطة البيزنطية في إيطاليا الوسطى . هدد أيستولف فيما بعد **روما** أيضاً .

توفي البابا زكريا عام ٧٥٢ في تلك اللحظات المأساوية . وتوفي خلفه **اسطيفان** بعد انتخابه مباشرة متأثراً بالسكتة الدماغية . وقام البابا التالي ، وهو **اسطيفان** أيضاً (الثاني لأن اسم سلفه لم يرد في سجل الباباوات) باستئناف المفاوضات مع أيستولف . أعلن الملك اللمباردي أنه سيوافق على السلام وفقاً للشروط التالية : خضوع إمارة **روما** لسلطته ، ودفع غرامة سنوية باهظة . وهذا يعني تحويلها إلى محمية .

وجد البابا نفسه في موقف لامنفذ منه . هدد أيستولف بإحتلال **روما** وتدميرها إن لم يستجب البابا لمطالبه . كان الأكسرخس غائباً ، ولم يتوقع البابا من الامبراطور ـ محطم الصور ـ أية مساعدة . تقدّم البابا **اسطيفان** الثاني موكباً دينياً طاف شوارع **روما** وهو حافي القدمين ، حيث حمل صورة **يسوع** المعروفة بصانعة المعجزات من الباسيليقا اللاتيرانية ، واتخذ القرار التالي : بعث سراً برسالة إلى بيبين متوسلاً فيها ان يقوم «باستدعائه» ، لأنه يريد أن يقدّم له شخصياً رجاءه لإنقاذ الموقف .

لم يخيّب أمل البابا في هذه المرة . أرسل بيبين إثنين من كبار المسؤولين في مملكته . فغادر **اسطيفان روما** برفقتهما في خريف عام ٧٥٣ . وكانت هذه زيارة البابا الأولى إلى حاكم الغرب الجديد . كانت الطريق مسدودة في الشرق . وكانت هيبة بيبين في الغرب كبيرة إلى الحد الذي منع أيستولف من التعرض لموكب البابا الذي عبر بلاد اللمبارديين . إجتاز اسطفان جبال الألب المغطاة بالثلوج متجهاً إلى غالة على ظهر جواده . وبعث بيبين ابنه **شارل** لإستقباله . وتمّ اللقاء مع بيبين في كانون الثاني من عام ٧٥٤ في Ponthion . توسَّلَ البابا والدموع في عينيه طالباً حماية الملك . وحصل على جواب متعاطف . شعر بيبين بأنه على درجة من القوّة تمكنه من الوقوف دفاعاً عن خليفة القديس بطرس .

قام **اسطيفان** الثاني في تموز عام ٧٥٤ للمرة الثانية بتتويج بيبين وابنيه **شارل** و**شارل**مان ، ومنحهم لقب «أشراف روما» ، وجعلهم بذلك حُماة **روما** «الرسميين» (حمل اكسرخس رافينا تقليدياً هذا اللقب) . والتزم بيبين من جانبه بالقسم بالدفاع عن **روما** والبابوية .

لم يحقق الوفد الذي أُرسله بيبين إلى أيستولف أية نتائج . فوجّه حملة عسكرية وهزم اللمبارديين مرغماً أيستولف المُحاصَرِ في بافيا على طلب السلام عام ٧٥٤ . اشترط بيبين على أيستولف إعادة كافة الأراضي التي احتلّها اللمبارديون من إمارة روما .

قبل أيستولف الشرط مبدئياً ، لكنّه لم ينفذه . فما أن اختفى بيبين خلف جبال

الألب ، زحف الملك اللمباردي بجيوشه على **روما** وحاصرها عام ٧٥٦ ، فتعرضت المناطق المحيطة بها للنهب والدمار بصورة وحشية .

دام الحصار خمسين يوماً . وفي نهاية المطاف وصل الجيش الفرنكوني الذي استنجدت به روما . واضطر أيستولف الذي تمت محاصرته في بافيا ثانية للإستسلام . وفي هذه المرّة اضطرّ اللمبارديون بالإضافة إلى إعادة الأراضي المحتلّة المنصوص عنها سابقاً ، دفع غرامة للفرنكونيين ، والتحول إلى أتباع لهم . أمر بيبين بوضع مفاتيح المدن المهداة للبابا على ضريح القديس بطرس .

وهكذا ، وعلى نحو غير متوقع أصبح البابا مالكاً لشريط ضيّق من الأرض في إيطاليا الوسطى (على الساحل الغربي من تيراسينيا إلى سيفيتافيتشيا ، وعلى الساحل الشرقي من سينيجا جليا حتى مصب نهر أديغا) . احتجَّ الامبراطور حالاً على هذه التقدمة ، لكنَّ بيبين صرَّح بإعتزاز أمام المبعوث الامبراطوري بانه لن يستعيد ما اهداه للكنيسة «محبة بالقديس بطرس وتكفيراً عن الذنوب» .

لم يكن البابا بطبيعة الحال قادراً على رفض تقدمة بيبين . يمكن أن يُؤْسَفَ فقط على أن **اسطيفان** الثاني بعد موت أيستولف مباشرة أرغم خلفه **ديزيديريوس** على التعهد بإعطائه مدن إيطالية أخرى انتزعها اللمبارديون من الإمبراطورية سابقاً . لاشكَّ بأن البابا أراد بذلك «ضمان» أمنه بصورة أفضل في تلك الحالة الحرجة التي وُجِدَ فيها . ولكن ، هل كان اقتناء تلك المدن القليلة ضمانة لأمنه فعلاً ؟ كان إرث القديس بطرس (كما عُرِفَتْ دولة البابا آنذاك) مهدداً من جانبين : اللمبارديين والامبراطور وكان الفرنكونيون حُماتها . فبدون عون بيبين لم يكن لأية ضمانات أن تجدي . كان هذا مجرد رد فعل إنساني . إنساني إلى أبعد حد - وخطر إلى أبعد حد .

توفي **اسطيفان** الثاني عام ٧٥٧ . وخلفه شقيقه **بولس الأول** ، بالرغم من المصاعب التي خلفها أنصار البحث مجدداًعن تقارب مع الامبراطور . وتوصل ديزيديريوس في هذه الأثناء إلى اتفاق مع البيزنطيين في صقلية وبعد أن شعر بقوة موقفه الناجم عن دعمهم له رفض إعادة المدن التي وعد البابا بإعادتها من قبل . قام الامبراطور في الوقت ذاته بمحاولة كسب بيبين إلى جانبه . لم يسفر هذا عن أية نتائج في واقع الأمر ، لكنَّه منع ملك الفرنكونيين من دعم البابا في مطالبه اللاحقة . فاضطر بولس الأول للإتفاق مع ديزيديريوس والتنازل عن مطالبه .

ـ المجمع المسكوني السابع

بعد أن سحق **قسطنطين** الخامس البلغار عام ٧٦٢ قرب أنخياليس (بورغاس الحاليّة) ، عاد لمحاربة ممجدي الصور بضراوة . واتخذت الاضطهادات في هذه المرّة طابعاً دموياً . جُدِعَتْ أنوف المقاومين ، وبُتِرَتْ أياديهم ، وسُمِلَتْ عيونهم . قُتِلَ الكثيرون منهم . ثمَّ أصدر عام ٧٦٤ أوامره بأن يتعهد جميع رعاياه بالكف عن تكريم الصور . وأظهر القائمون على تنفيذ الأوامر أكبر قَدرٍ من الصرامة في التعامل مع الرهبان . فتعرَّض المئات منهم للموت . وهُدِّمَتْ الأديرة أو حُوِّلت إلى ثكنات عسكرية . ذهب **قسطنطين** عام ٧٦٦ في مطالبه إلى أبعد من ذلك ، فأمر بتحطيم المقدسات ، وحظَّر الإبتهال للعذراء المقدسة والقديسين . انْتُشِلَتْ جثث القديسين من القبور وأحرقت ، وبلغت الوحشية حداً مضحكاً . ثمَّ حظر النطق بكلمة «قديس» وعُرِّضَ من تنهد للعذراء بصوت مسموع لعقوبات صارمة !

توفي **قسطنطين** عام ٧٧٥ بعد أن تصالح مع موضوع تكريم الصور وهو على فراش الموت كما يُزْعَمُ . كان ابنه الملقب بالخزري (نظراً لانحدار والدته من أصل خزري) من أنصار تحطيم الصور أيضاً . لكنَّه ألغى الإضطهادات نتيجة تأثير زوجته ايرينا اليونانية الأصل ، النصيرة المتحمسة لتكريم الصور . توفي عام ٧٨٠ تاركاً العرش لابنه **قسطنطين** السادس .

كان قسطنيطن السادس في السادسة من عمره . فأصبحت **ايرينا** حاكمة باسمة . تُعَدُّ فترة حكمها مرحلة حروب جديدة . فقد أعلن والي صقلية عن تمرده ، وهاجم السلافيون اليونان . واستهلَّ العرب في ظل الخلافة العباسية الحرب في آسيا الصغرى ، فسحقوا الجيوش البيزنطية عام ٧٨٢ قرب **داريدون** و طاردوها حتى القسطنطينية .

بحثت ايرينا في هذه الأوضاع الصعبة عن تحالف مع الفرنكونين . وكان **شارل** الكبير قد تولى العرش الفرنكوني منذ عام ٧٦٨ . وفي عام ٧٨١ تمَّت خطوبة **قسطنطين** السادس على ابنة **شارل** الكبير الصغرى **روترودا** . استوجب تحسين العلاقات مع الفرنكونيين تحسينها مع البابوية أيضاً . فسعت إيرينا جاهدة لتحقيق ذلك لكنَّ هذا استوجب كسر طوق مقاومة رجال الدين . استغلَّت فرصة حدوث شاغر في منصب البطريرك ، فعينت تاراسيوس ، الرجل العلماني المؤيد للتفاهم مع روما ، في هذا المنصب . وفي عام ٧٨٥ عرضت إيرينا والبطريرك على البابا هدريان اقتراحاً بعقد مجمع مسكوني لإنهاء حالة الإنشقاق . قَبِلَ البابا الاقتراح برحابة صدر ، لكنَّه طالب بأن تعاد إليه كنائس إيطاليا وجنوب إيليريا ، بالإضافة إلى الممتلكات الكنسية التي صادرها كوبرونيموس . كما عبَّر عن إستيائه لجلوس رجل علماني

عل الكرسي البطريركي بالرغم من تعارض ذلك مع القوانين الكنسية .

افتتحت أعمال المجمع في السابع عشر من آب عام ٧٨٦ في باسيليقا الرسل في القسطنطينية . اقتحم الحرس الامبراطوري ، الذي اعتاد على تحطيم الصور ، الكنسية وطرد المؤتمرين . لكنَّ إيرينا رفضت التراجع . أرسلت مفارز الحرس المتمردة لمحاربة العرب ، ودعت بنفسها لإنعقاد المجمع ثانية في نيقيا .

انتهت مداولات المجمع بإقرار الصيغة التالية : «حرصاً على الإيمان ، نعلن أن التكريم يجب أن لايقتصر على الصليب واهب الحياة وحده ، بل يشمل الصور المقدسة والمبجلة ، المصورة أو المصفوفة على هيئة فسيفساء ، أو المنجزة بأي أسلوب آخر ، والموضعة بتبجيل في الكنائس وعلى الأدوات الطقسية أو الأثواب ، على الجدران أو المقاعد . . . فكلما نظر المؤمنون إلى الصور ، زادت رغبتهم في تذكر الأصل ومحبته» . ذيَّل هذه الصيغة بتواقيعهم كل من إيرينا و**قسطنطين** ومبعوثي البابا ، بالإضافة إلى مايزيد عن ثلاثمئة أسقف . كما أقرَّ المجمع إثنين وعشرين قانوناً خاصاً بالإنضباط الكنسي .

لانعرف السبب الحقيقي الذي دفع إيرينا في اللحظة الأخيرة التي تمَّت فيها الوحدة الكنسية ، للتراجع بغتة عن مشروع ارتباط ابنها بابنة **شارل** الكبير ، ورغبة **قسطنطين** في الزواج من ماريا الأرمنية عام ٧٨٨ . وافق **قسطنطين** الذي بلغ الثامنة عشر من عمره على هذا الزواج ، لكنَّه في الآن ذاته تمرَّد على والدته التي استبدت به ، وتمكنَّ عام ٧٩٠ بمساندة الجيش من عزل إيرينا عن الحكم . وبعد مرور عام واحد سمح لوالدته مجدداً بمشاركته في مهام الحكم . حَرَّضَتْ إيرينا عندئذ ابنها على هجر زوجته ، والزواج من ثيودوتا إحدى فتيات البلاط عام ٧٩٥ . أثار سلوك الامبراطور فضيحة حقيقية . فاتحد رجال الدين والرهبان ، والجمهور ضده . حاول **قسطنطين** استخدام الأساليب الوحشية ، لكنَّ هذا صَعَّدَ من الامتعاض العام . **وفي نهاية المطاف قامت إيرينا بإنقلاب ، عزلت ابنها وسملت عينيه عام ٧٩٧** .

الفصل الثاني عشر

بناء الامبراطورية الرومانية في الغرب مجدداً

ـ البابوية وشارل الكبير

دعنا نعود إلى الماضي قليلاً . قبل وفاة بولس الأول ، وأثناء وجوده على فراش الموت ، دارت في روما رحى المعركة على الخلافة .

فالسلطة المدنية التي ركزها البابا في يده ، بالإضافة إلى الممتلكات العقارية الضخمة التي جمعتها البابوية عبر قرون طويلة (بلغ تعدادها في صقلية وحدها مايقارب الأربعمئة مزرعة ، وبلغ مجموع مساحاتها وفقاً لحسابات غريغوري الكبير نحو أربعة آلاف وسبعمئة كيلو متراً مربعاً) جعلت من العرش البابوي عرشاً مطلوباً ومرغوباً فيه من قبل الكثيرين . فقد أرادت الأرستقراطية الرومانية المحلية رؤية ممثل لها في شخص البابا ، ومن ناحية ثانية طرحت الأحزاب «الفرنكونية» و «اللمباردية» و «البيزنطية» الموجودة في **روما** مرشحيها .

استغلَّ الأمير **توتو** ممثل الأرستقراطية المحلية مرض وموت بولس الأول عام ٧٦٧ ، فأدخل بقوة السلاح شقيقه **قسطنطين** إلى روما ، وأجلسه على العرش البابوي . عارض **كريستوف** كبير الكتبة البابويين قسطنطين . و بالرغم من حماسه في تأييد الحزب الفرنكوني ، استنجد بالملك اللمباردي طالباً تدخله . وكان التدخل في حل الخلافات الناشئة على العرش البابوي فرصة لاتعوَّض بالنسبة للملك ديزيديريوس . فأرسل جيوشه التي عزلت **قسطنطين** ونصَّبت الكاهن **فيليب** بابا . كما لقي توتو مصرعه في المعركة . لكنَّ كريستوف لم يكن راضياً عن البابا الجديد ، وعندما استتب الأمن في المدينة قرَّر اجراء انتخابات رسمية ،

خرج منها **اسطيفان** الثالث منتصراً في عام ٧٦٨ . ومأأن جلس **اسطيفان** الثالث على العرش البابوي حتى جاءت موجة الإرهاب : حُكِمَ على **قسطنطين** وعلى شقيق آخر لتوتو بسمل العينين .

أما تصرفات كريستوف فقد أكسبته عداء الارستقراطية المحلية وديزيديريوس المهان في آن واحد . وهذا ما استدعى البحث عن العون في البلاط الفرنكوني . بعث البابا برسالة إلى بيبين طالباً إليه ارسال عدد من الأساقفة «العلماء وذوي الخبرة» إلى **روما** للبت في قضية الوضع القائم . لكنَّ رسالة **اسطيفان** وصلت بعد موت بيبين . وقرر ابناه **شارل وشارلمان** اللذين اقتسما المملكة فيما بينهما إرسال إثني عشر أسقفاً إلى روما .

فعقدوا مجمعاً كنسياً بحضور أساقفة إيطاليا .

باشر المجمع أعماله عام ٧٦٩ بعد عيد الفصح . أدين قسطنطين ، وجلده القضاة بأنفسهم ، وحكموا عليه بالسجن في الدير . اعتبرت كافة الإجراءات التي اتخذها بحكم الملغاة . كما قرر المجمع منع تولي السلطة البابوية مستقبلاً من قبل رجل علماني ، واقتصارها على الكرادلة .

لفهم هذه القضية لابد من استيعاب موضوع آخر هو : **مَنْ الذي استحق لقب كاردينال** .

كان لبعض الكنائس الإيطالية منذ أمد بعيد أولوية على غيرها ، وهي تحديداً الكنائس التي تمتع الكهنة فيها بحق منح سر المعمودية والغفران . كانت في البداية أربع باسيليقات : **باسيليقا والدة الإله الكبيرة** ، **وباسيليقا القديس بطرس** ، **وباسيليقا القديس بولس** ، **وباسيليقا القديس لورانس** ، وهذه هي أولى الأبرشيات الرومانية . ثم ارتفع عدد الأبرشيات ذات الامتياز إلى ثمانٍ وعشرين ، وقد عُرِفَتْ **بكنائس الكهنة ــ الكرادلة** .

لتسهيل رعاية الفقراء ، قُسّمَتْ **روما** القديمة إلى سبع مناطق ، أُشرف على كل منها شماس . ورافق شمامسة **روما** البابا في كل تحركاته ، حيث أصبحوا بمثابة مستشاريه . وقد اطلق عليهم اسم **الكرادلة ــ الشمامسة** . ورفع البابا **هدريان** فيما بعد عددهم إلى ثمانية عشر .

وفي نهاية المطاف تمَّ استدعاء أساقفة الأبرشيات المجاورة ل**روما** لمشاركة البابا في أعماله بصورة دائمة . أسكنهم البابا **اسطيفان** الثالث في لاتيران ، وهم سبعة : **أسقف أوستيا** ، **وأسقف ألبانو** ، **وأسقف بورتو** ، **وأسقف سيلفا** ، **وأسقف كانديدا** ، **وأسقف سابينا** ، **وأسقف برينيستي** ، **وأسقف توسكولوم** . وهم الذين سيشكلون **مجموعة الأساقفة ــ الكرادلة** .

كان للبابا منذ ذلك الحين فصاعداً أن يُنْتَخَبَ من بين ممثلي هذه المجموعات الثلاث بناء على قرار المجمع . لكنَّ القرار لم يُنَفَّذْ حتى القرن الثاني عشر .

لم يكد المجمع أن ينهي أعماله عام ٧٧٠ حتى لاحت في الأفق مخاطر سياسية جديدة . جاءت أرملة بيبين المدعوة **بيرترادا** إلى ديزيديريوس وفي ذهنها خطة تزويج **شارل** من ابنة ملك اللمبارديين . أقلق هذا المخطط البابا **اسطيفان** الثالث . فبالإضافة إلى ارتباط كليهما ، خشي البابا أن يؤدي زواجهما إلى تقارب بين حماته الفرنكونيين واللمبارديين الذين شكلوا مصدر خطر . لكنَّ محاولاته ذهبت سدى وتمَّ الزواج ، ولم يتمكن من اقناع **شارل** بأنَّ «الإرتباط مع اللمبارديين الذين لايُعدُّون شعباً ، إهانة للشعب الفرنكوني النبيل» .

لم ينتظر البابا النتائج المؤلمة التي ترتبت على هذا الزواج طويلاً . بدأ ديزيديريوس بالتدخل في شؤون روما ، وقد وجد حليفاً في شخص القنصل البابوي **أفيارتا** ، فأثار انتفاضة شعبية ضد كريستوف زعيم المجموعة «الفرنكونية» . ولم يفعل **اسطيفان** الثالث شيئاً لإنقاذ الشخص الذي أوصله إلى العرش البابوي . **سُمِلَتْ عينا كريستوف وابنه ، ثم قُتِلا** .

شعر ديزيديريوس بعد التخلُّص من كريستوف وكأنه سيّد روما . واستجاب البابا لجميع طلباته ، مذعوراً من تأكيداته على صداقته المتينة مع ملوك فرنكونيا .

لم تكن هذه الصداقة بالصورة التي حاول إبرازها ديزيديريوس . لأن **شارلمان** وحده كان بما يتفق وسياسة **شارل** «المطرقة» القديمة من أنصار التحالف مع اللمبارديين ، بينما اختلفت رؤية **شارل** للأمور . توفي **شارلمان** عام ٧٧١ ، وحرم **شارل** كملك لكامل فرنكونيا أرملة أخيه وأبناءه من حقوقهم . بحثت **غربرغا** أرملة **شارلمان** عن ملجأ لنفسها لدى ديزيديريوس ، فاعتبر **شارل** هذا اللجوء إهانة ، وأعاد إليه ابنته التي كان قد تزوجها قبل حين . فأضحى هذا العمل بمثابة إعلان لنزاع جديد .

توفي **اسطيفان** الثالث عام ٧٧٢ . كان خلفه هدريان الأول نصيراً متحمساً للإتجاه الفرنكوني . فرفض رفضاً قاطعاً طلب ديزيديريوس بتتويج أبناء **شارلمان** القاصرين ، الأمر الذي كان سيجعل منهم مرشحين للعرش الفرنكوني ، وسلاحاً خطراً في أيدي ديزيديريوس ضد **شارل** . كما كلَّف رئيس أساقفة رافينا بإعتقال أفيارتا . فذهب الأسقف إلى أبعد من ذلك في حماسة ، حيث أمر بقتل القنصل كمسؤول عن مقتل كريستوف .

باشر ديزيديريوس الغاضب بإجتياح الأراضي البابوية ونهبها . فاستعان هدريان الأول **بشارل** . لكنَّ **شارل** الذي انشغل بحربه مع السكسون اقتصر على إرسال وفد إلى إيطاليا كُلِّفَ باقناع ديزيديريوس بالتصالح مع البابا . باءت محاولات الوفد بالفشل . **قام شارل** عندئذ على جناح السرعة بإعداد جيشين في **جنيف** ، زحفا بإتجاهين مختلفين واجتازا جبال الألب . احتمى ديزيديريوس خلف أسوار بافيا . وتمكن **شارل** من إلقاء القبض على ابنه وعلى

غريرغا وأبنائها .

جاء **شارل** إلى **روما** منتظراً سقوط بافيا . اسْتُقْبِلَ استقبالاً حافلاً مع كافة المراسيم المتوجبة أثناء زيارة الأكسرخس . وأبرز هدريان الوثيقة التي أهدى بيبين بموجبها البابوية الأراضي التي عُدَّتْ إرثاً للقديس بطرس . وقام **شارل** بدوره بتوقيع وثيقة جديدة صدَّق بموجبها القديمة . وألحق بها مناطق **إيستريا** ، **والبندقية** ، **وإمارتي سبوليتو و بنيفنتو** (كان حاكما الإمارتين **لمبارديان**) . ثم وضع وثيقة التقدمة هذه شخصياً على ضريح القديس بطرس .

استسلمت بافيا في نهاية المطاف . وسيق ديزيديريوس أسيراً إلى فرنكونيا . سُجن في الدير ، حيث توفي بعد «السهر الطويل ، والصلاة ، والصوم ، والقيام بالعديد من الأعمال الخيّرة» .

يعتبر سقوط ديزيديريوس بمثابة نهاية مملكة اللمبارديين . فأضاف **شارل** إلى لقبه الرسمي «ملك فرنكونيا وشريف روما» لقباً جديداً هو «ملك اللمبارديين» .

ما أن اجتاز **شارل** جبال الألب عائداً ، حتى حدثت أعمال شغب جديدة في إيطاليا . فقد اعتبر رئيس أساقفة رافينا نفسه حاكماً مستقلاً في المناطق التابعة للأكسرخس سابقاً ، ورفض الخضوع لسلطة البابا المدنية . كما أن أميري سبوليتو وبينيفنتو اللذين ضمَّ **شارل** أراضيهما لإرث القديس بطرس ، لم يرغبا بقبول هذا القرار . أغرق هدريان **شارل** بسيل من الرسائل ، شاكياً ومتوسلاً العون ، مضخماً بلا شك الأخطار التي تتهدده . وبالرغم من انشغال **شارل** بالحرب ، اجتاح إيطاليا مجدداً عام ٧٧٥ ، فبثَّ الرعب في قلوب اللمبارديين ، لكنّه امتنع عن زيارة روما . كان هذا بمثابة خيبة أمل بالنسبة للبابا الذي قام بتوجيه الرسائل مجدداً إلى **شارل** ، يذكره بتنفيذ وثيقة التقدمة الموسعة ، ويشير إلى موقف **قسطنطين** الكبير الذي «عبَّر عن كرمه للكنيسة الرومانية بمنحها السلطة على أراضي الغرب» .

موقف الكرم المستشهد به والمعروف بإسم «هبة قسطنطين» وثيقة مزيفة بلا شك . تشير هذه الوثيقة التي ظهرت في فرنكونيا في القرن التاسع ، وفي **روما** في القرن الثاني عشر ، إلى أن الامبراطور **قسطنطين** وهب سلفستر وخلفائه كافه المقاطعات الغربية ، وليس **روما** وحدها . مَنْ ومتى قام بتزوير هذه الوثيقة غير المعقولة ـ والتي صُدّقَتْ أصالتها لمدة طويلة ـ أمر مجهول اليوم . يُفترض أن الذين أرادوا تبرير شرعية تتويج **شارل** امبراطوراً على الغرب أمام القسطنطينية هم الذين ابتكروها . ولكنَّ حديث البابا عن الوثيقة قبل ربع قرن من تتويج **شارل** ، يشير إلى أن مخطط استحداث الامبراطورية الغربية وُضِعَ قبل تنفيذه بزمن طويل .

جاء **شارل** إلى **روما** عام ٧٨٠ . ولم يكن في هذه المرة على رأس حملة عسكرية .

رافقته زوجته وابناه لودفيك وبيبين . قام البابا بتعميد بيبين ، وأعلنه **شارل** ملكاً على إيطاليا .

كانت هذه الخطوة مناقضة في الواقع لوثيقة الهبة الموسعة التي وقعّها عام ٧٧٤ . لكنَّ **شارل** لم يكن يفكر عندئذ بتأسيس دولة كنسية كبيرة . أراد إيطاليا مملكة تابعة له ، ومحافظة على طابعها اللمباردي .

جاء رُسل الامبراطورة ايرينا إلى **روما** باقتراح خطوبة ابنة **شارل** للإمبراطور **قسطنطين** السادس .

لم يكد **شارل** أن يعود إلى فرنكونيا ، حتى أعلن أمير بينيفنتو تمرده . فاضطر **شارل** للعودة مجدداً إلى إيطاليا عام ٧٨٦ لتأديبه . لكنَّه لم يتنازل عن الإمارة للبابا ، بل أوكل إدارة شؤونها لابن الأمير المهزوم غريموالد . وأصبح هذا الأخير من أتباع **شارل** الأوفياء . ولّما حاول البيزنطيون عام ٧٧٨ - بعد فشل مشروع الخطوبة - تنفيذ انزال في إيطاليا ، تمكن من صدهم . ولم يعد أي مجال للحديث عن توسيع رقعة الدولة الكنسية . حيث فضَّل **شارل** أتباعاً يقاتلون من اجله على البابا الأعزل الذي لم يكف عن طلب العون .

وعلى أي حال ، احتفظ **شارل** لنفسه بالسلطة العليا على إرث القديس بطرس أيضاً وتدخل في شؤون إدارته في كل خطوة . إذ أن الدولة الكنسية لم تكن في نظر **شارل** سوى مركز فرنكوني بهدف السيطرة على شبه الجزيرة الأبينينية . ظلَّ هدريان حليفاً وفياً **لشارل** حتى آخر أيامه بالرغم مما مُني به من خيبة أمل . وقد اعتمد هذا التحالف على الصداقة الشخصية المتينة بين الرجلين .

ـ شارل والهداية بحد السيف

منذ أن أصبح **شارل** ملكاً على الفرنكونيين ، خاض حرب إبادة ضد **السكسون** . كان السكسون جيراناً مزعجين . شكلوا عدة مجموعات قَبَلية ، واستمروا في وثنيتهم وغالباً ماسحقت الهجمات السكسونية المسيحية الفتية في **فريزيا وتورينغيا** . ردَّ الفرنكونيون على هذه اللهجمات بحملات تأديبية دموية ، وفي عهد **شارل** ظهر مخطط لإجتياح كامل المنطقة السكسونية حيث نُفِّذَ بخطوطه العريضة حتى عام ٧٨٠ . اعتقد **شارل أن** الوسيلة المثلى لترسيخ نتائج الغزو هي تعميد السكسون ، ولذلك فرض عليهم في البداية استقبال المبشرين ، ومن ثمَّ تقبل طقوس المعمودية . تمَّ تنظيم البلاد على النمط الفرنكوني . وتمَّ استخدام المهتدين من السكسون كجيش احتياطي في الحملة التأديبية الإنتقامية ضد الصرب الذين هاجموا تورينغيا .

وصلت حملات الفرنكونيين الموجهة ضد السكسون إلى نهر لابا مراراً ، واجتازوا النهر

أحياناً . واكتشفوا بشيء من الذهول وجود شعوب سلافية عديدة مستوطنة خلف نهر لابا . كتب **آدم البيرمي** عنهم قائلاً : «يقال أن عدد السلاف يبلغ عشرة أضعاف عدد ا لسكسون ، وخاصة إذا أضيف إلى هذا العدد جزء من **التشيك والبولنديين** الذين استقروا خلف نهر **أودرا** ، لأنهم لايختلفون فيما بينهم من حيث اللغة والعادات» . لكنَّ هذه الفقرة تعود إلى ماكُتب في مرحلة لاحقة . اما معاصرو **شارل** فكان بوسعهم التحدث عن وجود اتحادين دوليين للسلافيين خلف نهر لابا . كان الاتحاد **الأوبودري** أقرب إلى السكسون من الإتحاد **الفيلي** . ظلَّت النزاعات والحروب قائمة بين هذين الإتحادين ، الأمر الذي استغلَّه الفرنكونيون ، الذين استمالوا الأوبودريين وسيروهم للحرب ضد السكسون . لكنهم لم يحاولوا هدايتهم ، لأن احتلال الأراضي السلافية لم يكن ممكناً بعد ، ولم يكن الأمر يستحق إرسال مبشرين بعد . فكما نعلم ، تميَّزت المسيحية التي بشَّر بها الفرنكونيون بطابع سياسي صرف . أما الأزمنة التي كان فيها المبشرون الايرلنديون والأنجلوسكسون رسل الإيمان «من اجل محبة الرب» فقد مَرَّتْ وانتهت . ولم يعد أحد يبحر من ايرلندا ، وباتت «جزيرة القديسين» عاماً بعد عام هدفاً لغزوات **الفيكينغ النرويجيين والدانمركيين** . فسقطت الأديرة الغنية غنيمة في أيدي الغزاة وتعرضت للدمار . ومنها **ليندسفارم** عام ٧٩٣ ، **وجارّو** عام ٧٩٤ ، **وبينا** عام ٨٠٢ و ٨٠٦ . وفي عام ٨٣٠ احتلَّ القائد النرويجي **تورجيز إيرلندا** ، وأسس في الجزيرة دولته الوثنية التي حاربت المسيحية . وفي هذا الصدد يقول **داوصن** : «أضحت إيرلندا التي كانت نقطة الإنطلاق في نشر الثقافة المسيحية في أوروبا الغربية ، أولى الدول التي تعرضت للغزو البربري» .

استمر المبشرون الأُنجلو سكسون في ممارسة نشاطهم التبشيري في فريزيا ، ومنهم **ليافوين و ويلهاد** . ولكن منذ أن أصبح **ألبيريك** الفرنكوني الأصل أسقف أوتريخت ، ارتبط النشاط التبشيري في فريزيا بسياسة إخضاع البلاد للنفوذ الفرنكوني .

تعرضت القوات الفرنكونية لهزيمة ساحقة في عام ٧٨٢ أثناء الحملة المشار إليها قبل قليل والموجهة ضد الصرب . ولكن ليس من جانب السلافيين . فقد انفجرت في سكسونيا انتفاضة عامة جديدة بقيادة **فيتوكيند** .

سحق **شارل** الإنتفاضة بصورة وحشية . وفي يوم واحد قتل أربعة آلاف سكسوني احتجزوا كرهائن . استسلم فيتوكيند عام ٧٨٥ واضعاً نفسه بين يدي **شارل** بعد أن ضمن سلامته الشخصية . ووافق على الخضوع لطقوس المعمودية . وخاطب **شارل** البابا برسالة جاء فيها «تقبل الشعب السكسوني المتوحش الإيمان بالإله الحقيقي» . وأمر هدريان في **روما** بإقامة موكب احتفالي تعبيراً للشكر لله .

«منح» **شارل** الشعب «المهتدي» قوانيناً جديدة . وكانت العقوبة الوحيدة عن أي جرم

هي الموت ، وَطُبِّقَتْ على قاتل الأخ ، وعلى من لم يلتزم بالصيام ، وعلى من ضحى للآلهة !

ربما لم يكن البابا على علم بالوسائل التي «تقبل بها الشعب المتوحش الإيمان بالله» . لكن **ألكوين** أثبت أنه مراقب أشد حذقاً .

لابد من التوقف لحظة عند ألكوين . كان شماساً من **يورك** وتلميذ **بيدا** . جاء به **شارل** من انجلترا ليكلفه بإدارة ماعُرفت بمدرسة القصر . باشر ألكوين عمله عام ٧٨٢ في هذا الموقع أولاً ، ومن ثم رئيساً لدير القديس مارتن في تور ، باذلاً قصارى جهده من اجل تعميق جذور المسيحية في مملكة الفرنكونيين . يمكن القول بجرأة أن كافة جوانب الإصلاح السليمة للحياة الدينية في المملكة الفرنكونية ، وفي المقام الأول إعادة بناء الثقافة والمعرفة ، كانت نابعة من مبادرات هذا الرجل ، الممثل الرائع للثقافة الإنجليزية المزدهرة . فبالإضافة إلى كل ما انجزه كمستشار للملك ، تمكن ألكوين من تنقيح الفولغاتا (الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ـ خضعت اللغة اللاتينية في القارة لعمليات تحول إلى لغات قومية ؛ وفي انجلترا وحدها حيث لم يكن للغة المتداولة في الحديث اليومي أية صلة باللاتينية ، تَمَّتْ المحافظة على معرفة اللاتينية السليمة التي سمحت بفهم النصوص الكلاسيكية) . كما أَعَدَّ سلسلة من المقالات ، وكتابة سيرة حياة القديسين ، وأدخل في الاستخدام نمطاً جديداً من الكتابة بدل القديم الذي كاد أن يصبح غير مقروء .

يُعد ألكوين صاحب فكرة وضع العاهل الفرنكوني في مقام «مرشد شعب الله» ليواجه بذلك الامبراطور الروماني (او البيزنطي بالأحرى) المنحدر من أصول وثنية . وضعت هذه الآراء أسس القيادة الروحية للإمبراطور في الغرب على غرار ما كان سائداً في **بيزنطة** ولاشك بان كونيتشني محق في رأيه في أن قيادة الامبراطور الروحية فكرة بيزنطية ، لأن «مرشد شعب الله» فكرة تتمثل في **قسطنطين** الكبير .

تجدر الإشارة هنا إلى ان مملكة **شارل** الكبير وجدت في الإسلام وفكرته ومثله الأعلى عن الدين في إطار دولة محاربة ، نموذجاً جذاباً . وفي هذا الصدد يقول **داوصن** : «تمَّ تحوير المثل الأعلى الأوغسطيني لمملكة الله عن طريق اختزالات بدائية إلى شيء يشبه بصورة خطرة نمطاً مسيحياً للإسلام ، حيث يتزعم **شارل** المؤمنين . كان هذا مماثلة مشابهة بين الدين والسياسة ، ومحاولة لفرض الأخلاق عن طريق القانون ، ونشر الإيمان عن طريق الحرب» .

لكنَّ ألكوين ذاته ـ ولو أنه إلى حد بعيد هو مبدع فكرة «دولة ـ الكنيسة» والملك«ممثل الإله ـ نظر مذعوراً إلى ماحدث في سكسونيا . وقد كتب في رسائله : «ينبع الإيمان من الإرادة كما يقول القديس **أوغسطين** ، وليس من الإكراه . فكيف يمكن إرغام الإنسان على الإيمان وهو لايؤمن ؟ يمكن ارغامه على المعمودية ، و لكن ليس على الإيمان . . . جباية العشر شيء حسن ، ولكن يستحسن عدم تحصيله إذا كان هذا سيهدم الإيمان . يقال بأن

الأعشار هي التي حطمت الإيمان لدى السكسون . . . فلو لم يُطَالَبوا بها بهذه القسوة ، ولو لم يُعَاقَبوا بهذه الصرامة على هفوات صغيرة ، ربما لما تهربوا من المعمودية . . . ليكف الواعظون عن التحول إلى قطاع طرق» !

أثار القانون المفروض على السكسون «الموت لأي سبب» تمرداً جديداً عام ٧٩٣ . وتمَّ تسيير حملات عسكرية جديدة . هُزِمَتْ سكسونيا مجدداً عام ٧٩٧ ، وَضُمَّتْ إلى الدولة الفرنكونية . وقد أرسل **شارل** الأوبودريين الوثنيين لمحاربة السكسون المسيحين ، ومنحهم الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر لابا بعد أن هجَّر منها عشرة آلاف سكسوني . وعندما هزم الدانمركيون حلفاءه الأوبودريين استردَّ منهم الأرض وأسكن فيها المستوطنين الجرمان .

كانت هذه بداية تأسيس قواعد انطلاق حدودية . فقد أوجد **شارل** على حدود الدولة مناطق قطنها المستوطنون ، ونُشرت فيها الجيوش ، كان لها أن تشكل درعاً واقياً ، وقاعدة انطلاق للحملات التأديبية والغزوات في الآن ذاته .

سمحت هذه القواعد بوصول جيوش **شارل** إلى أعماق أكبر في العالم السلافي . ونقرأ في **الحوليات الميتينية** : «يوجد شعب سلافي يقيم على شواطئ المحيط (يقصد به بحر البلطيق) ، يدعى بلغته الخاصة بالشعب **الفيلاني** . كان على الدوام معادياً للفرنكونين . فلم يحتمل الملك (يقصد **شارل**) هذه الغطرسة أكثر من ذلك ، وقرر إجتياح أرضه . وبعد تجهيز جيش هائل اجتاز نهر الرين قرب كولونيا . ومن هناك وجَّه الجيش عبر سكسونيا حتى نهر لابا . وبعد اجتياز النهر قاد الجيش بنفسه ، واجتاح بلاد الفيلانيين ، ودمر كل شيء بالسيف والنار» .

لاتنتهي معلوماتنا عن معارك **شارل** مع السلافيين عند هذا الحد . إذ أننا نعرف أنه هاجم بلاد التشيك عام ٨٠٥ . (تدعو المراجع الفرنكونية التي كتبت عن هذه الحملة ، البلد المهاجَم بويميا ، كما كانت تسمى بلاد التشيك آنذاك . كما يسميها المؤرخ فانيك بإسم جيهو) . أثناء هذه المعارك لقي مصرعه الأمير السلافي **ليخ** ، مَنْ يدري ـ إذا كان هذا الإسم يُلفظ على هذا النحو فعلاً ـ إن لم يكن ذاته ليخ الأسطوري ، مؤسس الدولة البولونية ؟ وفي عام ٨٠٦ سيلقى مصرعه الأمير الصربي **ميليدوخ** مابين نهري لابا وسالا .

يُعْتَقَدُ أن سياسة **شارل** الذي ترك الشعوب السلافية خارج إطار الدولة الفرنكونية وخارج إطار المسيحية ، كانت تهدف إلى عدم السماح بنشوء أي كيان دولي كبير على حدود فرنكونيا . وبمجرد ظهور كيان كهذا أو بروز أية بوادر تشير إلى ظهوره تنطلق الحملات التأديبية .

لاشك بأن المؤرخ **لابودا** محق في افتراضه بأنَّ دولة **سامو** لم تكن ظاهرة سياسية عابرة . فقد بلغت ذروة اتساعها كدولة فيدرالية ، وتفككت وهي على هذاا الحال . لكنَّ

مختلف الدويلات التي دخلت في بنية هذه الفيدرالية بقيت ، وخاصة الدولة المورافية التي أصبحت نواة **لمورافيا** الكبرى . ولكن الجماعات السلافية ظلّت مبعثرة طيلة الفترة التي سادت فيها سياسة **شارل** الهادفة لسحق كل كيان دولي سلافي قوي . أنجزت سياسة **شارل** شيئاً أهم من ذلك : علّمت الشعوب المغلوبة أن المسيحية ديانة المحبة ، يمكن أن تُنْشَرَ عن طريق الغزو والإحتلال . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ **فيدايفتيش** : «لم يحتل **شارل** الشيء الكثير من الأراضي السلافية . . . ولكن يمكن القول أنه . . . أسس مدرسة فاتحين جرمان أكثر عصرية» . ولن يطول الوقت حتى يستفيد البافاريون والسكسون من خبرات هذه المدرسة .

نَظَّمَ القديس **بونيفاسي** الكنيسة البافارية ، وتطورت بنجاح في هذه البلاد في ظل حكم الأمراء المستقلين . أصبح الراهب الإيرلندي فرجيليوس أسقفاً في سالزبورغ ، وقد تميَّز بشخصيته القوية والفذَّة . كان قديساً ، ولكنه عنيد في نصرته للتقاليد الإيرلندية ، شأنه في ذلك شأن **كولومبان** . كما نادى بالإضافة إلى ذلك بكروية الأرض وبوجود الأجزاء النقيضة (وهذا ماتضمنته تعاليم بيدا أيضاً) ، مما جعله عرضة لتقارير الراشين وشكاواهم . لكنَّ البابا زكريا أهمل التقارير والشكاوى الموجهة ضد الأسقف . أرسل فرجيليوس مبشرين إلى كارينتيا ، وَيُعَدُّ رسول هذا البلد السلافي . بعد وفاة فرجيليوس خلفه آرن عام ٧٨٢ ، وأصبح فيما بعد متروبوليت سالزبورغ .

رغبت بافاريا في الحفاظ على استقلالها ، لكنَّ **شارل** قرر ضمَّها إلى دولته . وهذا ما نَفَّذَهْ بالقوة عام ٧٨٧ . حرَّض آخر الأمراء البافاريين مستوطني بانونيا الأفاريين ودفعهم للتمرد على الفرنكونيين . استمرت الحرب بضعة أعوام ، وقد خاضها ضد الأفاريين ابن **شارل** ، بيبين . وتمكن عام ٧٩٥ من احتلال الحصن الأفاري رينغ . وافق زعيم الأفاريين عام ٧٩٦ على الخضوع لطقوس المعمودية ، والتبعية للفرنكونيين . لكنَّه تمرد مجدداً عام ٧٩٩ . ولم تُوَقَّعْ وثيقة التبعية النهائية إلا في عهد خلفه عام ٨٠٣ . لم تستمر الدولة الأفارية طويلاً بعد توقيع هذه الوثيقة ، إذ قُسِمَتْ بين البلغار والمورافيين .

أضحت بافاريا التي احتلَّها الفرنكونيون نقطة انطلاق لغزو البلدان السلافية . وقف الكرواتيون السلاف في الحرب إلى جانب الفرنكونيين ضد الأفاريين . ولكن ماأن هُزِمَ الأفاريون حتى وُضع النير الفرنكوني في أعناق الكرواتيين . ولمَّا تمردوا ، هاجمهم امير فريول ، التابع الفرنكوني . تقبَّل فوينومير زعيم الكرواتيين عام ٨١٠ سرَّ المعمودية ، بنتيجة حملة تبشيرية لبطريرك أكويليا . وهكذا طرقت المسيحية الأبواب السلافية من جهتين ، إذ انه في الوقت ذاته تعمد على أيدي البيزنطيين سكان البلقان الصرب . وفي أواسط القرن التاسع تأسست أسقفية في نيترا .

ـ رونسيفو والأرض المقدسة

جاء **ابن العربي أمير سرقوصة** عام ٧٧٧ إلى **بادربون** ، يطلب من **شارل** أن يسانده في معركته ضد **الأمويين** . فكما نذكر ، احتفظ الأمويون الذين أبيدوا في الشرق بإسبانيا ، وسيطروا على إمارة **قرطبة** (وفي عام ٩٢٩ أسسوا خلافة مستقلة في قرطبة) . لم يعترف جميع العرب في إسبانيا بسلطة الأمويين ـ فقد كان أمير سرقوصة من انصار **العباسيين** .

قبل **شارل** الإقتراح وتوجه عام ٧٧٨ إلى إسبانيا . لم تحرز الحملة نجاحاً ، وبوغتت مؤخرة الجيش المنسحب في وادي **رونسيفو** وتعرضت للإبادة التامة على أيدي الباسك المسيحيين . نشأت حول هذا الحدث أسطورة شاعرية بطولية ذاع صيتها . أمّا الحقيقة فكانت غير ذلك : كان الفرنكونيون في هذه الحرب حلفاء قسم من **المسلمين** ضد قسم آخر ، وحلت بهم الكارثة على أيدي المسيحيين الذين وصلوا إلى مرحلة اليأس من جراء الإستبداد الفرنكوني .

لم يكن **شارل** معتاداً على التراجع عن مخططاته . لكنه قبل التوجه ثانية إلى إسبانيا قام بالتنكيل أولاً بسكان بلاد **الباسك ـــ أكويتانيا** . وكما عيّن من قبل ابنه بيبين ملكاً على **إيطاليا** ، نصّب أحد أبنائه الآخرين وهو لودفيك ملكاً على إسباينا .

انطلقت في عام ٧٨٥ حملة جديدة بقيادة لودفيك . سمح موت **عبد الرحمن** عام ٧٨٨ للفرنكونيين بإحراز سلسلة من الإنتصارات . لكن الأمير **الأموي** الجديد **هشام** طرد الفرنكونيين إلى ماوراء جبال **البيرينيه** ، ومن ثمّ زحف بجيوشه إلى أعماق **أكويتانيا** ، فأحرق **ناربون وكاراكاسون** عام ٧٩٣ .

وسمحت الحملات الفرنكونية التالية مابين عامي ٧٩٥ ـ ٨١٠ بتشكيل القاعدة الحدودية الاسبانية خلف جبال البيرينية ، وهو شريط يمتد من **برشلونة** إلى نهر **إيبرو** ، خضع للسيطرة الفرنكونية . وكانت متاخمة من جهة الغرب لمملكة أستوريا ، التي كانت من بقايا دولة القوط الغربيين .

كانت معارك **شارل** مع الأمويين ، ونزاعه المتصاعد مع **بيزنطة** ، السبب الرئيسي الذي دفع **الخليفة العباسي هارون الرشيد** لإقامة علاقات متينة معه .

ازدادت أوضاع المسيحيين في عهد الخلافة العباسية سوءاً ! كان العباسيون من انصار إسلام متزمت أكثر من الأمويين ، وبدوا أقلَّ تسامحاً مع المسيحيين . بالإضافة إلى أن نقل العاصمة إلى **بغداد** صبغ الدولة بطابع فارسي . فبدلاً من الإدارة الاغريقية القديمة التي خدمت الفاتحين ، احتلَّ **موظفون** فرس المراكز الحساسة في البلاط العباسي . وظلَّ **النساطرة** وحدهم يحظون بشيء من تعاطف الحكام .

لايجوز الحديث عن الإضطهاد الديني بالرغم من ذلك (كانت الجماعة المسيحية الوحيدة المعرضة للإضطهاد ، هي جماعة المسيحيين العرب) . لكنَّ الحرب التي لم تتوقف مع الإمبراطورية البيزنطية حالت دون تقديم العون المادي للكنائس المسيحية في المناطق التي احتلَّها العرب . لم يمانع **هارون الرشيد** تقديم هذه المساعدة ، ووافق دون أية مقاومة على أن يلعب **شارل** دور إمبراطور الشرق ويبسط حمايته على المسيحية الفلسطينية .

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، وعلى أي حال منذ ان قامت الإمبراطورة **هيلانة** بنشاطها في الأرض المقدسة ، توافدت جموع الحجاج إلى فلسطين . تشير المعلومات إلى أن حاجاً من بوردو Bordeaux زار الأراضي المقدسة عام ٣٣٣ ، وزارتها بعد فترة وجيزة سيّدة تدعى **إيثيريا** . لم يكن القديس **أوغسطين** من أنصار الحج ، لكنَّ القديس **هيرونيم** شجعه . وفي القرن الخامس كان في أورشليم مايربو عن مئتي دير ودار لاستقبال الحجاج واستضافتهم . وقد نزلت الإمبراطورة **يوديسيا** في أورشليم في أواسط القرن الخامس .

أوقف الغزو العربي في بادئ الأمر سيل الحجاج . شكك العرب بنوايا الحجاج القادمين من الغرب ، وكانت رحلات الحجاج محفوفة بالمخاطر والصعوبات بسبب انتشار أعمال القرصنة ، بالإضافة إلى أنها مكلفة . بدأ الحجاج فيما بعد يتوافدون مجدداً إلى الأرض المقدسة . وقد اتهمت القسطنطينية البابا مارتن بالتعامل مع **المسلمين** وإقامة علاقات حسنة معهم ؛ فبرر موقفه برغبته في الحصول على موافقة **المسلمين** بإرسال الصدقات إلى كنائس أورشليم . زار الأسقف الفرنكوني أركولف **فلسطين** عام ٦٠٧ ، وفي القرن الثامن تزايد عدد الحجاج . وأقام ويليبالد الانجليزي في **فلسطين** مابين عامي ٧٢٢ و ٧٢٩ ، وأصبح فيما بعد أسقفاً لمدينة ايخشتات .

سمحت علاقات **شارل** الطيبة مع الخليفة ببناء ملاجئ جديدة للحجاج في أورشليم . وجاءت الأخوات الراهبات من إسبانيا لخدمة القبر المقدس ، كما ظهرت الطقوس اللاتينية في كنيسة العذراء للاتين . لكنَّ هذه الرعاية لم تستمر سوى لفترة قصيرة جداً ، ولم تترك أثراً يُذكر . يقول **رونسيمان** في هذا الصدد : «لم تُنسَ هذه النزوة في الغرب . وعمدت التقاليد والأسطورة لتضخيمها . اعْتُبِرَ أن **شارل** بسط حماية قانونية على الأماكن المقدسة ، وقام بالحج إليها شخصياً» .

ـ امبراطور الغرب

توفي البابا هدريان الأول عام ٧٩٥ ، وخلفه على العرش البابوي **ليون** الثالث ، النصير المتحمس **لشارل** وللإتجاه الفرنكوني . وكان اول ماقام به البابا الجديد هو إرسال مفاتيح ضريح القديس بطرس وراية مدينة **روما** إلى **شارل** ، الأمر الذي يرمز للإعتراف بسلطة **شارل**

على الدولة الكنسية .

رَدَّ **شارل** على ذلك برسالة إلى البابا (حملها إلى **روما** أنجلبرت رئيس دير Sanit Riquier - بالرغم من كونه رجلاً علمانياً - ، وعشيق ابنته وشاعر هزيل ، مثمن عالياً في البلاط بسبب مديحه **لشارل**) . ناشد **شارل** في رسالته البابا لعيش حياة فاضلة ، والحفاظ على الشرائع ، وأداء الواجبات . كتب **شارل قائلاً** : «من واجبي حماية كنيسة الرب من هجمات الوثنيين والكفار ، وترسيخ العقيدة الكاثوليكية . اما واجبك ، فهو ان ترفع يدك مثل موسى متضرعاً ، ليساند الله سلاحنا ، ويحقق الشعب المسيحي - بفضل دعواتك النصر على أعداء اسم الله» .

لم يكن لمثل هذه «الدروس» أن تبهج البابا ، لكنَّ **ليون** مَرَّ آنذاك بظروف صعبة للغاية حيث ناهضته أرستقراطية **روما** قاطبة ، وعلى رأسها أقرباء البابا الراحل . هاجم **باسنحاليس** ابن شقيقة هدريان عام ٧٩٩ البابا **ليون** واعتقله بقوة السلاح . ونجا البابا بفضل مساعدة امير سبوليتو . توجه البابا إلى بادربون لمقابلة **شارل** ، وإلى هذا المكان جاء ممثلو المعارضة لتوجيه التهم له وإدانته امام محكمة ملكية .

فكر **شارل** طويلاً في حل المشكلة . فعلى الأرجح لم تكن جميع التهم الموجهة إلى **ليون** باطلة (هذا مايؤكده آرن رئيس أساقفة سالزبورغ في رسالته إلى ألكوين) . لكنَّ أصواتاً عديدة تعالت في محيط **شارل** معارضة محاكمة البابا . بالإضافة إلى أن **شارل** أدرك جيداً بان **ليون** حليفه ، وسيكون حليفاً أشدَّ وفاءً فيما لو حافظ الملك على هيبته المتزعزعة وكان **شارل** آنذاك بحاجة لمثل هذا الحليف في شخص البابا ، بعد أن حانت اللحظة المواتية للمطالبة بتاج الإمبراطورية الرومانية . كانت الفرصة سانحة ، يصعب تَحيُّن أفضل منها .

كانت إيرينا امبراطورة الشرق منذ عام ٧٩٧ . وكان مجرد أن تقدم امرأة على حمل التاج الإمبراطوري شيئاً غير مسموح به في ذلك العصر . لأنه كان ببساطة يعني غياب الملك . لم يكن لرغبة **شارل** في الحصول على التاج أن تثير أية شكوك قانونية ، بالإضافة إلى فتح آفاق للسيطرة على الشطر الشرقي من الإمبراطورية أيضاً . والشيء الذي يؤكد صحة هذا التحليل هو ظهور خطة لزواج **شارل** من إيرينا .

كان **شارل** في هذه اللحظات المواتية تماماً لتنفيذ مخططاته بحاجة إلى بابا مستعد لتأييد مشاريع الملك دون تردد . جاء **شارل** إلى **روما** في تشرين الثاني من عام ٧٩٩ . وبدلاً من محاكمة ليون ، اكتفى بأن طلب إليه التصريح علناً بأنه بريء من التهم الموجهة إليه .

أدى البابا القسم في الثالث والعشرين من كانون الأول . وفي اليوم الأول من أيام عيد الميلاد ، وبينما كان **شارل** ساجداً أمام كرسي اعتراف القديس بطرس يصلّي ، تقدم منه **ليون** ووضع على رأسه التاج الإمبراطوري ، فنادى الجمهور **بشارل** امبراطوراً .

أكد المؤرخ **ايغنهارد** أن ماحدث أزعج **شارل** إلى أبعد حد . لكن لاشك بأن عملية التتويج بحد ذاتها لم تكن سبب عدم سرور **شارل** . إذ لابد وان العملية خُطط لها من قبل (من أين جاء التاج ؟) ، وكان الجمهور مهيأً لما سيهتف وينادي . ربما تصور **شارل** العملية على نحو آخر : لايستبعد أنه أراد وضع التاج على رأسه بنفسه . لكن على أي حال ، تقبل لقب امبراطور دون أية مقاومة .

أول ما قام به الإمبراطور الجديد هو محاكمة المخططين للإعتداء على البابا . حُكم عليهم بالإعدام ، ثم تحول الإعدام إلى حكم بالنفي .

أما الخطوة الثانية بعد العودة إلى فرنكونيا ، فكانت إرسال رُسُلٍ إلى إيرينا . لكنَّ رُسل **شارل** لم يجدوا في القسطنطينية المرأة ـ الإمبراطور . كان الغضب في الإمبراطورية الشرقية عارماً من فكرة زواج الإمبراطورة من «الهمجي» ، فوقف الجميع إلى جانب مؤامرة الوزراء ورجال البلاط عام ٨٠٢ .

اعتقلت إيرينا وسُجنت في الدير . وهكذا وجدت المرأة الطموحة والقادرة على ارتكاب الجريمة ، والحكيمة والعادلة في ممارسة السلطة ، في صومعة الدير امكانية تامل حياتها والتكفير عنها . تكرمها الكنيسة الأرثوذكسية كقديسة . توفيت قبل إبنها **قسطنطين** الذي سملت عينيه في حينه .

جلس على العرش موظف في البلاط يدعى **ساكيلاريوس نيكيفوروس** ، وهو عربي الأصل !

احتجَّ **نيكيفوروس** على تتويج **شارل** . فردَّ **شارل** على ذلك باحتلال المقاطعات البيزنطية : البندقية ودلماسيا . وبعد بضعة أعوام تمَّ التوصل إلى اتفاق : أعاد **شارل** المقاطعات المحتلة **لبيزنطة** واعترفت **بيزنطة** **بشارل** امبراطوراً على الغرب ـ على الغرب فقط ـ مستقلاً ومطلق الصلاحية هناك .

وهكذا تمَّ تقسيم التركة الرومانية بصورة نهائية بين الإغريق والجرمان . أدى هذا التمزق وما رافقه من ميول لسيطرة الحاكم علىالسلطتين المدنية والروحية في كلا الجانبين ، إلى تمزيق المسيحية . وليس لعدم عودة **نيكيفوروس** لمحاربة تكريم الصور أي معنى هنا . كان لابدَّ من ظهور سبب جديد للإنشقاق ، ولن يطول انتظار مثل هذا السبب .

ـ النورمان

أشرنا آنفاً إلى غزو النورمان لإيرلندا .

كانت **إسكتلندا** منذ قرون طويلة مركزاً مستقلاًو منغلقاً على ذاته للحياة الثقافية . وقد تأسست في مناطق **النرويج والسويد** الحالية دويلات صغيرة متعددة . أكان النورمان من

أصول جرمانية ـ الأمر الذي يؤكد عليه العلماء الألمان ـ أم أنَّ الغزاة الجرمان من الجنوب «هزموا السكلن المحليين وأسسوا طبقة عليا حاكمة ـ كما يفترض **داوصن** ـ أمرٌ يصعب البتُّ فيه بصورة قاطعة .

حدث خلال القرون الثامن والتاسع والعاشر انفجار مباغت للطاقة العدوانية في الوسط الإسكتلندي المغلق حتى ذلك الحين ، فبدأ النورمان بخوض معارك وحروب ضارية فيما بينهم ـ حروب أدت إلى محو الدويلات الصغيرة وضمها إلى الدول الكبرى . وفي الوقت ذاته انطلقت إلى شتَّى أنحاء العالم حملات نورماندية بقيادة زعماء **الفيكينغ** .

أبحر النورمان على متن قوارب ضيقة وقليلة العمق تدعى «دراكرز» إلى مناطق بعيدة فوصلوا شمالاً إلى شواطئ أمريكا الشمالية ، وغرينلندا ، وايسلندا . واقتحموا مصبات جميع الأنهر في بحر الشمال والبلطيق . وعبر نهري جفينا والدنيبر توجهوا من الخليج الفنلندي إلى البحر الأسود ، ونهر الفولغا إلى بحر قزوين . ظهروا على سواحل البحر المتوسط ، وهاجموا اسبانيا ، وإيطاليا ، واليونان ، والقسطنطينية ، وافريقيا . . . .

كانت إيرلندا أولى ضحايا النورمان . فقد تعرض البلد للدمار . إقتصر النورمان في بادئ الأمر على النهب والسلب ، ومن ثم بدأوا بتأسيس مستوطنات ودول في الأراضي المحتلة من قبلهم . تزايدت كثافة الحملات النورماندية على أوروبا منذ عام ٨٣٥ . وسقطت انجلترا ، الدولة الثانية التي إزدهرت فيها المسيحية ، والتي أضحت ثقافتها ثقافة دولة **شارل** وخلفائه . كتب المؤرخ تشيسترتون : «تمزقت ممالك السكسون الصغيرة والمتناحرة إلى أشلاء . وقَتَلَ غوثروم زعيم القراصنة القديس أدموند (كان ملك انجلترا الشرقية قد أُسر قرب ثيتفورد واستشهد على يد النورمان) ، استولى على تاج انجلترا ، وفرض غرامة على ميرثير المذعورة ، وهدد Wessex آخر البلدان المسيحية» .

لندع قضية انجلترا جانباً الآن ، وسنعود للحديث عنها فيما بعد .

دفع غزو فريزيا وسكسونيا الإمبراطورية للإحتكاك المباشر مع الدانمرك . ولحماية الدولة من الغزو الدانماركي ، استحدث **شارل** القاعدة الحدودية الدانمركية ، التي ثبت أنَّ النورمان لم يكونوا بحاجة لإحتلالها . فقد تفوقوا على الفرنكونيين باقتناء اسطول سمح لهم بالإنزال في أية نقطة أرادوها من الساحل . وهكذا هوجم الساحل الفرنكوني الشمالي ـ مثلما هوجم ساحل أكويتانيا من قبل العرب ـ واضطر **شارل** لإنشاء خفر السواحل لصدّ هذه الهجمات .

جاء الطوفان النورمندي إلى أوروبا بموجة جديدة من الهمجية . ولابدَّ من القول أن شخصية **شارل** كانت غاية في التعقيد . فقد استطاع هذا الجرماني المفعم بالحيوية ، ذو الصوت النسائي والنبرة العالية ، أن يكون وحشياً ، ودموياً ، وخائناً . لكنَّه تمتع إلى جانب ذلك بمواهب إدارية رائعة . فهم ـ وهو الرجل الأميّ ـ الثقافة جيداً . ودفعه هذا للبحث عن

وسيلة للتفاهم مع الكنيسة والتحالف معها ، وهي المؤسسة الوحيدة التي حافظت على المعرفة والثقافة القديمة عبر عصور الهمجية المظلمة . وقد ساعد هذا التحالف على بعث أوروبا حضارياً . وكان لهذا البعث قيمة تفوق أهمية امبراطورية شارل المحنثة . وكان السؤال الذي طرح نفسه آنذاك هو : ماالذي سيكون الأقوى ، المعرفة المنطلقة من الأديرة والمدارس ، أم عنف الفيكينغ المتوحشين ؟

ـ شارل الكبير والمسيحية

كان **شارل** الكبير مسيحياً من نمط خاص .

عاش محاطاً بالسراري ، ولم يتردد بإسداء النصائح «الأخلاقية» للبابا . نكث بالوعود والعهود . واستخدم السيف في هداية الناس لأسباب سياسية . اعتبر نفسه «زعيم المسيحية» وحكم المسيحية على نحو ديكتاتوري ، دون أن تراوده الشكوك لحظة في أنَّ كافة اوامره سديدة . دعى بنفسه لإنعقاد المجامع الكنسية ، وأملى عليها ماناقشته من مواضيع . سيَّر في البلاد اثنين من ممثليه ، احدهما علماني والثاني رجل دين ، مخولاً إياهما بسلطة مطلقة على جميع الذين خضعوا للرقابة ، وإن كانوا أساقفة أو رؤساء أساقفة . عيَّن بنفسه الأساقفة ، دون إكتراث بالقوانين الكنسية ، وفي الآن ذاته طالب البابا بان يلتزم الأساقفة بهذه القوانين بدقة . وكان استئناف قرار الأسقف للملك ممكناً دوماً . الحقيقة أنه في اختياره للأساقفة انطلق من دوافع أفضل مما كانت لدى أسلافه ، وكان الأساقفة الذين عينهم رجالاً جديرين على وجه العموم . كان الأسقف في نظر **شارل** موظفاً ، توجَّب عليه خدمة الملك بأمانة ، وذلك في المجلس كما في الحرب ، لقاء المنصب الذي حصل عليه والمكاسب المترتبة عليه . وكلما بدا الملك بالإعداد لحملة عسكرية ، توجب على كل أسقف مَدَّهُ بقطعة عسكرية مسلحة على نفقته . وكان من حسن حظه إن لم يُرغم على تقلد السيف وهو يتقدم جنوده ، واكتفى ـ وفقاً لتوجيهات البابا هدريان ـ بأن «ينشغل بالصلاة وتعليم الناس ماهو ضروري للخلاص» . حكم الملك الأديرة أيضاً . فرض عليها القواعد البنديكتينية ، ولاشك بان هذا كان مفيداً . لكنه عيَّن أصحاب الإمتيازات رؤساء للأديرة ـ وغالباً ماكلَّف رجلاً واحداً برئاسة مجموعة من الأديرة في آن واحد ـ واختارهم من رجال الدين او من العلمانيين . يقول **جاكوين** في هذا الصدد : «استغلوا موارد الدير ، وأقاموا فيه متى شاؤوا ، لنشر الفوضى في أوساط الجماعة» . تدعى المرحلة التي كانت فيها الكنيسة أسيرة سلطة الدولة «حقبة قسطنطين» عادة . وكان عصر **شارل** الكبير مرحلة خضوع الكنيسة لإرادة الملك بقدر أكبر .

الحقيقة أنَّ مستشاري **شارل** أيدوا مواقفه من القضايا الدينية . يعتقد ألكوين أن سلطة ملك الفرنكونيين كانت اعلى من سلطة البابا والامبراطور . وذهب ثيودلف أسقف أورليان

إلى أبعد من ذلك ، حيث قارن **شارل** بالقديس بطرس ، الذي استلم المفاتيح «ليحكم الكنيسة» ، وتحدث باولين الأكويلي على نحو مشابه .

لم يجرؤ الباباوات على اتخاذ مواقف معارضة صريحة من ولي نعمتهم . فالبابا هدريان أشار بالعموميات مذكراً أن «بطرس استلم مفاتيح ملكوت السموات وأوكلت إليه العناية بالكنيسة . . . وترك لوكلائه مهمة إدارة الكنيسة» . كانت ثقة كل من هدريان وليون الثالث بالملك عالية ، الملك الذي كان مستبداً بشكل متطرف في تعامله معهما ، لكنه أبدى حرصاً حقيقياً على مصالح الكنيسة ، ورغب بصدق في نشر المسيحية- ولوأنه بأسلوبه الخاص .

قام **شارل** في أواخر حياته بتنظيم الكنيسة الفرنكونية (تردد طويلاً قبل أن يقوم بذلك ، لأنه أراد أن يكون له نفوذ مباشر على كل أسقف) مؤسساً اثنتين وعشرين متروبولية ، هي روما ، أكويليا ، رافينا ، ميلانو ، فريول ، غرادو ، كولونيا ، مينز ، سالزبورغ ، سينس ، بيسانكون ، ليون ، روين ، ريمس ، أرليس ، فين ، تارانتيه ، أمبرون ، بوردو ، تور ، بورغس ، ناربون .

انتشر في فرنكونيا إلى جانب الأساقفة العاديين مايعرف باسم أساقفة القرى أو أساقفة الريف . لم يكن هذا إحياءً للوظيفة التي وُجدت قديماً في القرنين الثالث والرابع في الشرق ، وهي وظيفة أسقف للمناطق المحرومة من المدن . لأن هذه التسمية أُطلقت الآن على الأساقفة المبشرين ، أو نواب الأساقفة المحليين ، عندما كان الأساقفة مشغولين في ا لبلاط الملكي أو كانوا من العلمانيين بكل بساطة . يجب تمييزهم عن الأساقفة الجوالين المعروفين بإسم «الاسكتلنديين» ـ الذين حاربتهم كافة المجامع الكنسية . يرجح ان يكونوا أساقفة إيرلينديين ، غادروا بلادهم ، وتجولوا في أرجاء فرنكونيا دون أن يرتبطوا بأية أبرشية .

أشرنا سابقاً إلى أن **شارل** تمتع بموهبة فطرية لفهم الثقافة . فطالب أن يُسبق منح سر الكهنوت بفترة دراسة . نشأت مدارس ملحقة بالأسقفيات مخصصة للراغبين في الدخول في سلك الأكليروس . وأضحت المدرسة التي أسسها القديس CHrodegang أسقف ميتز أنموذجاً لها .

في عهد **شارل** تمَّ فرض ضريبة العشر لصالح الكنيسة . كان العُشر قبل ذلك الحين في فرنكونيا هبة طوعية (بينما كان إلزامياً في كل من انجلترا وإيرلندا) . تمَّ تسديدها من الدخل عيناً ، وليس نقداً . وتمَّ تسليمها للكاهن . ومن ثم قُسّمَتْ إلى أربعة أقسام : حصل الأسقف على الربع ، وخصص الربع الثاني لإكليروس الأبرشية ، والربع الثالث للفقراء ، والربع الرابع للإنفاق على مستلزمات العبادة .

يقول **داوصن** : « أضحى ألكوين ، مدير مدرسة يورك ، الممثل الرئيس للثقافة الإنجليزية . . . وكان له تأثير كبير على سياسة **شارل** في مجال التعليم» .

استعرض ألكوين في محاضراته - طبقاً للتقاليد الأنجلوسكسونية أعمال الكلاسيكين الوثنيين إلى جانب تعاليم الكتّاب الكنسيين . وكان معظم تلامذته لايزالون من الأنجلوسكسون : سيغولف ، ويتون ، وفريدغيز ، ولكن أفضلهم على الإطلاق أضحى رابان ماوروس مدير المدرسة الملحقة بدير فلودين (وأسقف مينز فيما بعد) . غادر ألكوين فرنكونيا مرتين عائداً إلى إنجلترا لبضعة أعوام . وفي الأيام الأخيرة من حياته أصبح رئيساً لدير تور . أسس مدرسة في الدير طغت بصيتها على مدرسة القصر وأضحت أفضل مدرسة في الدولة كلها .

تعذر على **شارل** الإعتماد في عمله التعليمي على العلماء الفرنكونيين لعدم وجودهم فاستقدمهم من انجلترا ومن إيطاليا أيضاً . ومنهم بطرس البيزي ، وباولين الأكويلي ، وبولس الشماس اللمباردي . وبمرور الزمن اغتنى الوسط العلمي المحيط بالملك بعدد من الفرنكونيين وتجدر الإشارة هنا في المقام الأول إلى أدلهارد من أقرباء الملك ورئيس دير Corbie. وأنجيلبرت الذي سلف ذكره ؛ وإيغنهارد رئيس عدة أديرة (بالرغم من انه لم يكن من رجال الدين وهو المؤرخ ، والشاعر والكاتب الكنسي . أسس كل من المذكورين مدرسة ، و بالرغم من ان شخصية أي منهم قد تثير الكثير من الجدل ، لابد من الإعتراف بفضلهم على «نهضة عصر **شارل**» .

يتحدث **داوصن** عن هذا الموضوع قائلاً : « قد يبدو أمراً مثيراً للشفقة ، أو ربما مضحكاً إذا حلم معلم في ثوب راهب مثل ألكوين ، أو همجي أميّ من أمثال **شارل** الكبير ، بيناء أثينا جديدة في عالم لم يضع سوى الخطوات الأولى على طريق التمدن ، وبقي مهدداً بالغرق في موجة جديدة من البربرية في أية لحظة . لكنَّ مَثلَهُمْ الأعلى للثقافة لن يضيع أبداً ، وفي نهاية المطاف تحقق تدريجياً في التطور اللاحق للثقافة الغربية» .

كانت اللغة اللاتينية إلزامية في كافة المدارس . لكنَّ جزءاً من النصوص كان مترجماً إلى اللغة الألمانية . وقد دعم **شارل** بكل إمكانياته إدخال اللغة الألمانية .

تجلى موقف **شارل** من المسيحية بأفضل صورة في سلوكه إزاء النزاعات اللاهوتية الناشئة . أولى هذه القضايا هي بروز هرطقة التبني ، التي ظهرت في الكنيسة الإسبانية المعزولة عن العالم المسيحي بسبب الإحتلال العربي . فقد عرض **ميغيسيوس** أسقف بيتيكا رسالة تضمنت صيغاً غير مألوفة . افترض ميغيسيوس وجود ثلاثة تجسدات للإله : التجسد الأول للإله الأب في داؤود ، والثاني للإبن في يسوع ، والثالث للروح القدس في بولس الرسول . كما نادى ميغيسيوس بأفكار تذكرنا بالبريسيليانية : إذ فرض حظر تناول بعض الأطعمة ، ومنع التعامل مع **المسلمين** ، وطالب الكهنة بالقداسة التامة . عارض **إيليباند** أسقف **توليدو** هذه الآراء معارضة جادة . ولكن حماس إيليباند الزائد ، دفعه - كما حدث مراراً من قبل -

للوقوع في الخطأ النقيض للخطأ الذي قام بمحاربته . ففي نقاشه مع ميغيسيوس ، أعلن إيليباند أن إبن الله هو الكلمة فقط ؛ أما **يسوع** فيمكن أن يُعَدَّ «ابناً بالتبني» . أدين خطأ ميغيسيوس في المجمع الكنسي المنعقد في سيفيلا عام ٧٨٢ ، لكن البابا الذي سمع بأفكار إيليباند من الأسقف المبشر إيجيلا ، أدان تعاليم إيليباند في الآن ذاته .

إنتشرت عقيدة إيليباند بالرغم من ذلك في أرجاء اسبانيا ، وفي **اكويتانيا** أيضاً . كما أنها اكتسبت نصيراً على درجة عالية من الأهمية ، اختفت بحضوره شخصية إيليباند في الظل . الشخص المعني هو **فيكيلس** أسقف **يورجيل** (من القاعدة الحدودية الإسبانية) ، وهو الرجل المعروف بغزارة علمه وقداسة حياته . ولمّا كانت أبرشية فيليكس تابعة للدولة الفرنكونية ، أوصى **شارل** بالدعوة لإنعقاد مجمع كنسي في راتزبونا ، وطالب فيليكس بعرض تعاليمه على المجمع عام ٧٩٢ .

اعترف فيليكس بخطئه أمام المجمع وتراجع عنه . ثم ذهب إلى **روما** وأعلن ثانية عن تراجعة . عزله البابا هدريان من منصبه الأسقفي ، لكنَّه سمح له بالعودة إلى إسبانيا .

بعد عودة فيليكس إلى إسبانيا ، خضع لتأثير إيليباند ونادى بالعقيدة الخاطئة مجدداً . انتقل إلى إمارة قرطبة . وكاد أساقفة إسبانيا المحتلة بأسرها أن يقفوا إلى جانب عقيدة التبني ، حيث بعثوا برسالة إلى **شارل** بهذا المعنى . أمر الملك بالدعوة لإنعقاد مجمع فرانكفورت عام ٧٩٤ . شارك في اعمال لمجمع مبعوثو البابا ، وأساقفة من إيطاليا ، وبعض الأساقفة الأنجلوسكسون .

أدان المجمع عقيدة التبني . وبعث برسالة ذات لهجة قاسية إلىأساقفة إسبانيا يامرهم فيها بالتخلي عن عقيدة فيليكس . كما بعث إليهم **شارل** برسالة مشابهة . أعدَّ ألكوين مقالة هاجم فيها هذه ا لعقيدة .

ذهب فيليكس في أخطائه إلى أبعد من ذلك ، وراح يدعو **يسوع** «ابناً بالإسم فقط» . أدان مجمع جديد انعقد في Friul عام ٧٩٧ عقيدة التبني مرة ثانية ، أما **ليون** الثالث فقد ألقى الحرم الكنسي على فيليكس في المجمع الكنسي المنعقد في **روما** عام ٧٩٨ .

وافق فيليكس بالرغم من ذلك على دعوة **شارل** للحضور إلى Aquizgran لمناقشة ألكوين . تمَّ اللقاء عام ٨٠٠ ، وبعد ستة أيام إعترف فيليكس بهزيمته ، وأعلن تراجعه عن اخطائه مرة أخرى . لم يسمح له **شارل** بمغادرة فرنكونيا ، ونفاه إلى دير سانت مارتن ، حيث أقام أسقف يورجيل السابق حتى وافته المنية .

لم يكن إيليباند ميالاً لإلقاء السلاح ، لكنَّ نفوذه تضاءل بمرور الزمن . واختفت عقيدة التبني خلال القرن التاسع .

نظر مجمع **فرانكفورت** الذي انعقد عام ٧٩٤ في قضية أخرى أيضاً . فكما نذكر ، انعقد عام ٧٨٧ المجمع المسكوني السابع في نيقيا ، حيث أدينت فيه عملية تحطيم الصور والتماثيل المقدسة . بعث البابا هدريان بمقرارات المجمع إلى الملك . لكنها تُرجمت بصورة سيئة من اللاتينية إلى اليونانية فبينما ميَّزت مقرارات المجمع بوضوح بين العبادة المستحقة لله وبين التكريم المستوجب للصور ، صاغ المترجم كلا المفهومين بإستخدام الكلمة ذاتها «عبادة» ، وبذلك أفرغ الفقرة من المعنى .

عندما تُليَ النص على مسامع **شارل** ، استشاط غيظاً ، وأمر بصياغة خمسة وثمانين اعتراض ضد مقرارات المجمع . وعرضها أنجيليرت عام ٧٩٠ على البابا . وجد البابا هدريان نفسه في موقف صعب ، لأن الإعتراضات كانت بمثابة إدانة واضحة للمجمع . حاول بكثير من الحذر أن يوضح للملك الأخطاء الناجمة عن الترجمة ، والمعنى الحقيقي للمقرارات ، مؤكداً في الآن ذاته ان الإعتراف بمقرارات المجمع لايعني بأن البابا «بات مدافعاً عن أي كان (أي عن الإغريق) ، و إنما يعني تأييده للمحافظة على تقاليد الكنيسة الجامعة الرسولية الرومانية المقدسة» .

لم تسفر رسالة البابا عن أية نتائج إيجابية . كلف **شارل** شخصاً يدعى ثيودولف الأورلياني بإعداد مايعرف بإسم «مخطوطة **شارل**» ، وهي شرح لإعتراضات الملك . اتخذت آراء **شارل** الصيغة التالية : يجب عدم تحطيم الصور ، ولكن لايجوز تكريمها أيضاً . الله وحده يستحق العبادة . لأن الكتاب المقدس لم يشر إلى أن تمجيد الصور هو تمجيد لما تمثله . والصورة وسيط غير ضروري . يمكن السجود أمامها ، ويمكن عدم القيام بذلك . يجب أن تشكل زخرفة للكنيسة ، اما حرق البخور أو إضاءة النور أمامها فشيء لامعنى له . لاينطبق هذا الشيء على رفاة القديسين ، وعلى الصلبان ، وعلى الأواني الكنسية ، فهي تستحق التكريم .

كان موقف **شارل** ـ الذي أيده مجمع فرانكفورت بإدانته لمقرارات المجمع المسكوني ـ نابعاً من كراهيته **لبيزنطة** ، وليس من مضمون مقرارات المجمع المسكوني ، أو حتى من اخطاء الترجمة (التي تمَّ تصحيحيها) . وقد تزامن هذا مع فسخ خطوبة **قسطنطين** لإبنة **شارل** ، وضمر **شارل** الغاضب العداء **لبيزنطة** . وعلى أي حال ، نظر بشيء من الإمتعاض إلى جلوس إيرينا على العرش .

لكنَّ رفضه لمقررات نيقيا لم يكن ضربة موجهة **لبيزنطة** ، وإنما لهيبة البابا الذي صادق على المقررات . كما كان يزعزع أركان وحدة الكنيسة التي لم يتم بلوغها إلا بعناء كبير . وضع **شارل** ـ الذي غالباً ماادعى بانه «المدافع عن الكنيسة» ـ نفسه في دور الحاكم الأعلى غير آبه بمصالح الكنيسة .

اضطر الباباوات لتحمل ذلك . غُضَّ الطرف عن نتائج مجمع فرانكفورت . وظلَّت الكنيسة الفرنكونية على موقفها من موضوع تكريم الصور إلى مابعد موت **شارل** بفترة من الزمن ، ثم طوى النسيان هذه القضية .

كانت رعاية ملك الفرنكونيين للكنيسة نعمة ونقمة عليها في آن واحد . وفرت هذه الرعاية الكثير من التسهيلات ، لكنها تسببت في ظهور سوابق خطيرة من الحلول الوسط وإلتزام الصمت إزاء بعض القضايا . كان هذا الشيء قابلاً لأن يحتمل طيلة بقائه مرتبطاً بشخص **شارل** ذو الطبيعة الشديدة التعقيد . لكنه بات لايطاق لدى خلفائه .

لم يقتصر استبداد **شارل** على تحوله إلى مدافع عن الهرطقة في لحظة ما ، بل ساعد بمواقفه على نشوء الهرطقة .

احتوت «مخطوطة **شارل**» الآنفة الذكر على اعتراض آخر على الإغريق . لفت الأنظار إلى أن الإغريق يقولون أن «الروح القدس منبثق من الآب عبر الإبن» ـ بعكس مانصَّت عليه صيغة مجمع نيقيا المسكوني التي تقول «منبثق من الآب والإبن» .

كانت هذه الصيغة ـ التي تقرها اليوم الكنيسة ـ سابقة لأوانها آنذاك ، وقادرة على إثارة خلافات جديدة في أحضان الكنيسة . وعلى أي حال ، كانت الصيغة النيقية تنص : «أومن . . . وبالروح القدس المنبثق من الآب» . أما إضافة لفظة «والإبن» فقد تُمت في مجمع توليدو عام ٥٨٩ . قام آباء الكنيسة في الواقع منذ أمد بعيد بالتأكيد على أن الروح القدس منبثق من الأب ومن الإبن ـ ولم تعترف بتعاليم أخرى . لكن العلاقات المتوترة بين الغرب والشرق ، استوجبت التزام جانب الحذر ، ولهذا السبب تقيد البابا بالنص الحرفي لتعريف نيقيا ، لتلافي نشوء مضايقات جديدة .

لم يُعر **شارل** هذه الإعتبارات أية أهمية . فقد أقرَّ مجمع فرانكفورت عام ٧٩٦ الصيغة المتضمنة كلمة «والإبن» ، لاعناً كافة النصوص الأخرى . كما أنه في صراعه مع عقيدة التبني ، فرض في أرجاء الدولة الفرنكونية ، ترتيل قانون الإيمان ، مع إضافة لفظة «والإبن» بطبيعة الحال . لولا الأحداث التي جرت في أورشليم ، لظلت هذه القضية برمتها قضية داخلية تخص الكنيسة في الإمبراطورية الغربية . حاول اثنان من الرهبان الفرنكونيين تعميم النص الجديد في أورشليم ، الأمر الذي أثار عاصفة حقيقية في أوساط رجال الدين هناك . وأدين الرهبان بتهمة الهرطقة . غادر كلاهما الأرض المقدسة ، وتوجها إلى **روما** لرفع شكوى للبابا . أوضح لهما **ليون** الثالث بأنهما محقين في ان الروح القدس منبثق من الآب والإبن ، لكنه ظلَّ يحظر استخدام كلمة «والإبن» . اعتقد **ليون** بالرغم من ولائه الشديد **لشارل** أنه من اجل مصلحة الوحدة الكنسية ، لايجوز ان يفرض على الشرق (بدون قرار مشترك) أي تعديل في النص النيقي . لم يكترث **شارل** بقرار البابا . فأدى هذا العمل العنيد ضد الوقائع

المسكونية ، إلى إرتفاع أصوات الخلاف مجدداً بين الشرق والغرب . وكما أسلفنا : مزقت الميول الديكتاتورية لدى الجانبين الوحدة الكنسية . مرَّت فترة كان الشرق فيها أقوى وفرض إرادته . أما الآن فقد شعر الغرب بانه الأقوى .

ـ الحياة الدينية في «العصورالمظلمة»

يُعَدُّ القداس محور الحياة الدينية في المسيحية . بعد مرحلة الحرية الكبرى والبساطة غير المعهودة في أزمنة الإضطهاد ، بدأت ليتورجيا القداس منذ القرن الرابع تتجانس في أربعة انماط رئيسية ، هي :

أ ـ الليتورجيا الأنطاكية . هذا هو اقدم الأنماط . استعيض عنها بمرور الزمن بما يعرف بليتورجيا القديس يعقوب الأورشليمي (لاعلاقة لها بطبيعة الحال بشخص يعقوب الرسول) أقيم القداس وفقاً لها بالإغريقية أو السريانية . وقد اعتمدت بصيغتها السريانية من قِبَلِ اليعاقبة المونوفيزيين . بينما اعتمد الكلدان النساطرة طقساً مختلفاً بعض الشيء . وقد شاعت هذه الليتورجيا بصيغة مُحَوَّرَةٍ قليلاً في فارس وكردستان ، وانتقلت إلى الصين ، والهند ، وسواحل مالابار . وثبت لون آخر منها معدل من قبل **باسيليوس** الكبير في قبدوقية . كما ظهر النموذج ذاته بإسم ليتورجيا القديس **يوحنا** الذهبي الفم (ولو انها تعود بصيغتها النهائية إلى مرحلة لاحقة بلا شك) في القسطنطينية ، وانتقلت إلى أرمينيا أيضاً . لكنها تعرضت في هذه البلدان لتحولات لغوية ، إذ ترجمت إلى اللغة القومية .

ب ـ الليتورجيا الأسكندرية . وُجدت بلغتين : الإغريقية والقبطية . اعتمد الأرثوذكس النص اليوناني ، والمونوفيزيون ـ النص القبطي . انتقلت الليتورجيا الإسكندرية إلى الحبشة ، حيث تُرجمت إلى الأثيوبية .

ج ـ الليتورجيا الغاليّة . كانت كما أشرنا سابقاً ، الليتورجيا المعتمدة في غالة ، والمأخوذة عن ميلانو . لقد أولى المبشرون الأنجلوسكسون كما نذكر موضوع «رومانية» تعاليمهم اهمية كبرى . فحاولوا التخلص من بقايا الغالية وهم يعيدون نشر المسيحية في غالة وهداية جرمانيا . وألغى الملك **شارل** الكبير الليتورجيا الغالّية كلياً ، معمماً الليتورجيا الرومانية في دولته . لكن الليتورجيا الرومانية نفسها ، تطعمت في عهد **شارل** ببعض تفاصيل الليتورجيا الغالّية .

د ـ الليتورجيا الرومانية . أضحت ليتورجيا الكنيسة الغربية بأسرها (وافق البابا على الإحتفاظ بالليتورجيا الميلانية المستقلة في ميلانو ، وعلى الليتورجيا المعروفة بإسم الموزارابية ـ احد نماذج الغالّيةـ في توليدو وست كنائس إسبانية أخرى .

تعتمد الليتورجيا الرومانية على ثلاثة مخطوطات تتضمن مختلف أجزاء القداس التي يتلوها القائم بالقداس . يُعرف المخطوط الأول بالليوني (نسبة إلى البابا **ليون** الكبير) ، ويعود إلى مطلع القرن السادس . وقد عرضه البابا هدريان الأول على **شارل** الكبير) ، ويعود إلى مطلع القرن السادس ، ويعود الثاني المعروف ياالجيلازي إلى أواخر القرن السابع . ويُعرف الثالث **بالغريغوري** ، وقد عرضه البابا هدريان الأول على **شارل** الكبير كنموذج لليتورجيا الرومانية . كلّف **شارل** ألكوين بإعادة النظر فيه ، واعتمده بصيغته المعدلة .

تعرض القداس لتغيرات جذرية ، وبات مختلفاً عن الطقس الأولي الشديد البساطة .

كانت الكنيسة في البداية مجرد حجرة عادية في منزل روماني . تحلّق الأسقف أو الكاهن وأفراد الجماعة حول طاولة . وارتدى القائم بالقداس ثوباً عادياً . استهلّ القداس بصلاة الشكر . تلاه تحضير القربان المقدس ، ومن ثم التناول ، حيث تناول جميع الحضور القربان . لم تكن نصوص الصلاة موحدة ، وقد تُليت حتى عام ٢٥٠ باليونانية العامية .

يكتسب القداس في القرنين الخامس والسادس بعض مظاهر الفخامة . فلم يعد يقام في منزل عادي ، وإنما في المعبد . لكن المذبح لايزال طاولة . ويقيم الكاهن القداس وهو متجه نحوالجماعة ، مرتدياً الأثواب الشائعة في تلك الأيام . أثريت ليتورجيا القداس بصلوات الإبتهال (من أجل الموتى ، والأحياء ، والكنيسة ، والبابا ، والأسقف ، . . . ، الخ) وترتيل المزامير (قبل القداس ، وأثناء تقديم الذبيحة الإلهية وتناول المؤمنين القربان المقدس) . وحلّ الترتيل الفني محلّ الترتيل الجماعي . إتخذ القداس طابع المراسيم الشائعة في البلاطات : السجود ، والإنحناء ، وتقبيل الخاتم ، . . . الخ .

كانت التغيرات خلال القرون السابع ، والثامن ، والتاسع أكبر . فحتى ذلك الحين كان القداس احتفالياً ، شارك بإحيائه عدد من القائمين به . وتليت جميع الكلمات بصوت مسموع من قبل الجميع . ظهرت آنذاك الصلوات الخافتة ، وأقام كل كاهن قداسه الخاص به . كما ظهرت في الكنيسة مذابح جانبية إلى جانب المذبح الرئيس .

أزيح المذبح في الكنائس الأحدث نحو الجدار ليستقر داخل المحراب . وعندئذ أقيم القداس دون أن يتجه الكاهن نحو المصلين .

أقيم القداس في المرحلة السابقة (منذ عام ٢٥٠) في الغرب باللغة اللاتينية ، التي فهمها الجميع ، وتمكنوا من المشاركة في الصلاة . بينما لم يعد فيما بعد يفهم اللاتينية سوى عدد محدود من الناس ؛ ولم يفهمها عامة الناس . اشْتُرِطَ على المسيحيين معرفة «أبانا الذي» و«نؤمن بإله واحد» باللغة الأم ، التي ـ وان كانت مشتقة من اللاتينيةـ كانت بعيدة عن اللاتينية الكلاسيكية .

ظلّ ثوب القائم بالقداس من الزي العادي لرجل من القرن الخامس ـ من الحقبة التي

سقطت فيها الإمبراطورية الغربية . تميّز هذا الثوب في القرن التاسع عن الزي الشائع ، واتخذ طابع الرداء الطقسي الخاص .

يقول **كونغ** في هذا الصدد : «منذ اللحظة التي لم يعد الناس فيها قادرين على فهم صلوات القداس ، اتخذ القداس بالنسبة لهم طابعاً مجازياً : وأضحت دراما حياة **يسوع** مشهداً . كفَّ الجمهور عن إدراك المعنى الأولي لصلوات الشكر وذكرى العشاء الرباني . كل مافعله المؤمنون هو النظر والمراقبة . ولذلك تغيرت ألوان الأزياء الطقسية ـ العائدة للحقبة الرومانية ـ بما يتفق والأعياد . . . واستخدمت رقاقات من الفطير عوضاً عن الخبز ، لم تكن تشبه الخبز إطلاقاً . . . كما أضحى التناول طقساً خاصاً ، ولم تعد الكأس أداة لخدمة الجمهور . تحول التناول من جزء من القداس إلى فقرة . كان خبز الحياة يؤكل فيما مضى ، كما طالب يسوع ، ومنذ العصر الوسيط المبكر ، يُنظر إليه ويمجد (أُدخل وعاء القربان المقدس في الإستخدام»[١] .

لم تُعْرَفْ آنذاك في القداس الروماني الصلاة أمام المذبح ، وقد بدأ القداس بصلاة افتتاحية . اما كلمة كيرياليسون ، فهي من بقايا ابتهال تُلي سابقاً في هذا المكان . ومنذ القرن التاسع توجد تسع دعوات ـ منها ثلاث موجهة للأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس ، وهي : CHryste elejson و Gloria in excelsis (من القرن الخامس) لقداس عيد الميلاد و أيام الآحاد . وأدخل البابا **سرجيوس** الثالث عام ٦٨٧ Agnus Dei .

شاعت بالإضافة إلى ليتورجيا القداس ـ بفضل قواعد القديس بنديكت ـ صلوات خاصة بمختلف ساعات النهار والليل تعرف بإسم Officium . يؤدي هذه الصلوات الرهبان والقسس المنتظمون في جماعات مشتركة . لكن الكثيرين من العلمانيين بدأوا بتقليدهم . ويقال أن **شارل** الكبير كان يتلو هذه الصلوات .

كان التائب الأنجلوسكسوني يُلْزَمُ بالخضوع لكفارة علنية وقامت المجامع الكنسية الفرنكونية بحظر ذلك . استوجبت الذنوب الكبيرة والعامة ، وفي مقدمتها القتل ، كفارة علنية . وإذا رفض المذنب تنفيذ الكفارة المحددة له بسبب ذنوب كالقتل ، والإغتصاب ، والربا ، والحنوث بالقسم ، والنهب ، والحرق ، واعمال السحر ـ سُلِّمَ للسلطات المدنية التي أرغمته على التنفيذ . تحدد موعد الإعتراف في فترة الصيام الكبير بشكل أساسي . وقد أضيف التسول إلى الخطايا السبع كخطيئة ثامنة .

كان الزواج رابطة غير قابلة للتحطيم ، لكنَّ المتنفذين والأثرياء تجاوزوا هذا الشرط مراراً(وَعُرِفَتْ العملية بإسم « إرسال الزوجة» (وقد «أرسل» **شارل** الكبير ابنه ديزيديريوس في

---

(١) ليس بعد الوعاء "المفتوح" المستخدم حالياً ، وإنما إناء مغلقاً وملفعاً بتسيج ثمين .

حينه) . تمَّ حظر الزواج بين أبناء وبنات العم ، لكن مفهوم بني العم فُهِمَ بصورة مختلفة في مختلف الأماكن . وخُصصت فترة الخطوبة بشكل أساسي للبحث والتأكد من عدم وجود صلة قرابة بين المرشحين للزواج . والحالة الوحيدة التي أجيز فيها انفصال الزوجين ، كانت إصابة أحدهما بالبرص ، وكان هذا مشروطاً بموافقة الزوج المريض على تحرير عشيره من الرباط الزوجي .

تمَّ حظر التعامل بالربا أيضاً (التسليف الهادف إلى تحقيق منفعة ما) ، وكذلك بيع المسيحيين للوثنيين (لكن العبودية كانت لاتزال قائمة . كما كان تعطيل يوم الأحد إلزامياً (وذلك منذ عصر يوم السبت ، على النمط اليهودي) .

تناول المؤمنون القربان المقدس مرَّة في الأسبوع بشكل عام (يوم الأحد) . لكنَّ هذا لم يكن إلزامياً ، فقد نصحت المجامع الكنسية المنعقدة عام ٨١٣ بأن يكون الإعتدال دليل المؤمن في تناول القربان المقدس . وتحدث المجمع المنعقد في تور عن التناول ثلاث مرات في السنة . تناول الكهنة القربان في وضعية السجود ، بينما تناوله العلمانيون وقوفاً .

توجب على المريض على فراش الموت الحصول على الغفران ، وقد عُزِلَ الكاهن الرافض للقيام بهذا الواجب والممتنع عن زيارة المريض من منصبه . مُنحت المسوح الأخيرة في الكنيسة : جيءَ بالمريض وَوُضِعَ فوق طبقة من الرماد . وفي هذه المرحلة تغير إسم سر المسح الذي مُنح للمرضى إلى سر المسوح الأخيرة الذي مُنح للمرضى على فراش الموت وحدهم . حاولت الكنيسة إلغاء العادات الوثنية التي تجلت في الولولة الصاخبة والولائم الحدادية . كما أوقفت الكفارة في مواجهة الموت ، ليتمكن الخاطئ من نيل الأسرار المقدسة .

كان لكل كنيسة قديسّها . وكان في وسع أي أسقف أن يلعن قداسة شخص ما دون الحاجة إلى أية تحقيقات ، مكتفياً بالرأي العام . وقد تسربت التجاوزات العديدة إلى هذه الممارسات . حظر المجمع الكنسي المنعقد في ليفتين عام ٧٤٥ اعتبار جميع الموتى قديسين ، كما حظر مجمع فرنكفورت لعام ٧٩٤ تكريم القديسين المجهولين . كان أودالريك أول قديس أقرته **روما** عام ٩٩٣ ، ويرجح أن يكون القديس **أدالبرت** الثاني . ظلَّت الأمور قائمة على هذا النحو حتى مجيء **البابا ألكسندر الثالث** ، الذي أصدر عام ١١٧٠ مرسوماً احتفظ بموجبه للعاصمة الرسولية وحدها بحق ضم شخص ما إلى عداد القديسين .

لم يميّز حتى ذلك الحين بين مفهومي «القديس» و «المبارك» . وعلى أي حال ، فإن مرسوم ألكسندر الثالث لم يطبق حالاً في جميع أرجاء الكنيسة . كما أن الأسقف المحلي ظلَّ بعد هذه المرحلة أيضاً يلعب الدور الكبر في مبادرة إعلان القداسة : فهو الذي يجرى التحقيق الأولي . وأصبح هذا التحقيق أساس المعطيات التي اعتمدت عليها اللجنة الخاصة المرسلة من قبل البابا فيما بعد لدراسة الموضوع . نظرت الإدارة البابوية بعدئذ في النتائج التي توصلت

إليها اللجنة ، بينما اتخذ البابا القرار النهائي . ومنذ ذلك الحين يمكن الحديث عن القداسة «المعصومة» .

حظيت العذراء **مريم** بأكبر قدر من التكريم بين كافة القديسين ، وفي هذا الحين بدات مرحلة العبادة المريمية وشاعت اعيادها . ففي القرن التاسع ظهر في إنجلترا أولاً عيد الحمل بلا دنس . وكُرِّسَتْ أيام السبت لمريم العذراء . شاعت تلاوة السلام المريمي على نطاق واسع (حتى عبارة «مباركة ثمرة بطنك» ، وألحق بيوس الخامس عام ١٥٦٨ الجزء التالي بالصلاة) . استحق الرب أعلى درجات التمجيد ، والقديسون التكريم المعروف بإسم Dulia ، أما العذراء فقد استحقت Superdulia ، أي تكريماً فاق تكريم كافة القديسين الآخرين .

يوجد إلى جانب القديسين المحليين ، قديسون تعترف بهم الكنيسة عامة . وأكثرهم شعبية في العصر الوسيط المبكر هم : **بطرس** ، **وبولس** ، **وأندراوس** ، **ويوحنا** المعمدان ، ومارتن التوري . وقد شاعت منذ أقدم الأزمنة سجلات بأسماء القديسين الشهداء ، حيث قرئت مقتطفات منها في أيام عيد القديس المعني . كتب **بيدا** المبجل أقدم السجلات التاريخية المعروفة (التي تضمنت إلى جانب اسم القديس بعض المعطيات التاريخية عنه) .

شجعت عبادة القديسين عمليات الحج . حجَّ الناس إلى الديار المقدسة ، وإلى كومبوستيلا (أشارت التقاليد والأساطير التي نشأت خلال زمن طويل إلى إقامة يعقوب الكبير في إسبانيا لفترة من الزمن ، حيث دُفِنَ في سانتياغو دي كومبوستيلا) ، وإلى تور .

كما أضحت **مونتي جارجانو** من أشهر امكنة الحج ، حيث كُرِّسَ الموقع لرئيس الملائكة **ميخائيل** .

واجهت الكنيسة صعوبات جمة في محاربة مخلفات العادات والمعتقدات الوثنية . فقد فُرِضَتْ عقوبات صارمة على أعمال قراءة الغيب ، والسحر . ولكن كان لابدَّ من إظهار بعض التسامح مع جوانب أخرى من هذه المخلفات ، ومنها مايعرف بإسم «المحاكمة الإلهية» ، التي اعتمدت على إخضاع المتهم لضروب من «المحن» بهدف اثبات البراءة ، ومنها : ا لمبارزة ، ومحنة النار (المرور فوق جمرات ملتهبة دون الإصابة بأذى ، ومحنة الماء (الإلقاء في الماء والنجاة من الغرق) . . . الخ . تمَّ حظر هذه الممارسات في مطلع القرن الثالث عشر ، لكنها من الناحية العملية ظلَّت مستمرة لفترة أطول .

ـ تفكك الإمبراطورية

توفي **شارل** عام ٨١٤ . وقبل وفاته ببضعة اعوام قرر تقسيم الإمبراطورية . لقد ظلَّ جرمانياً وهو يحمل تاج الإمبراطورية الرومانية ، معتقداً أنَّ الدولة من الممتلكات الخاصة ،

وتخضع لقاعدة التوزيع على الورثة . أما القاعدة الرومانية فكانت مختلفة عنها : كانت الدولة شيئاً يحق للإمبراطور التصرف به ، ولكن ككل متكامل ؛ تعذر التعامل معها كموضوع ، لأنها تمتعت بكيان خاص بها .

صمم **شارل** على تقسيم الإمبراطورية وتوزيعها على أبنائه . لكنَّ القدر نفسه قرر عكس ذلك : توفي بيبين عام ٨١٠ ، **وشارل** عام ٨١٤ ، ولم يبق سوى الإبن الأصغر لودفيك (المعروف بالتقي) ملك أكوتيانيا . كان شا رل قد توَّج بنفسه ابنه ملكاً على أكويزغران عام ٨١٣ . وأصبح ابن بيبين المدعو برنارد ملكاً على إيطاليا .

أضحت شخصية **شارل** التي لايشك بعظمتها أسطورية بمرور الزمن . فأضحى بطلاً قومياً **فرنسياً وألمانياً** في آن واحد . ظهرت ميول في كلا البلدين لإضفاء طابع العظمة على هذا الرجل ، فمنذ عام ١١٦٥ طالب الإمبراطور **بربروس** البابا المضاد **بسخاليس** الثالث بإعلان **شارل** قديساً . وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تعترف بهذا القرار ، أقره الملكان الفرنسيان **شارل** الخامس ولودفيك التاسع ، واعتبراه ملزماً . تمَّ الإعتراض على لقب القداسة في عهد النهضة وأُلغي . لكنَّ **فرنسا** ظلَّت تدافع عنه . اما في القرن الثامن عشر ، فقد اخذ البابا بنديكت الرابع عشر التقاليد المحلية بعين الإعتبار ، وسمح بتكريم **شارل** «المبارك» في أكويزغران ومونستر .

لم يكن لودفيك يشبه أباه بشيء . كان رجلاً ضعيفاً ، متقلباً ، ممزقاً بالشكوك ومفتقراً لمواهب القائد . كان تقياً بلا شك ، لكنه عجز عن ان يكون منطقياً حتى في تقيه .

بلغه نبأ وفاة والده في **اكويتانيا** . فقام فور وصوله إلى البلاط بطرد سراری والده ، وحجز في الدير شقيقاته اللاّتي عشنَّ حياة خزي وعار ، كما أبعد مستشاري **شارل**. واستبدلهم برجال اصطحبهم معه من أكويتانيا .

توفي البابا **ليون** الثالث الذي كان موضع كراهية الأرستقراطية الرومانية عام ٨١٦ . وخلفه **اسطيفان** الرابع ، سليل إحدى الأسر الرومانية النبيلة . لم يطلب **اسطيفان** من لودفيك المصادقة على انتخابه ، لكنه اقترح على الإمبراطور أن يزوره في فرنكونيا . وتمَّ اللقاء في ريمس ، حيث قام البابا بتتويج لودفيك . كان لودفيك قد تُوّجَ من قبل والده قبل ذلك الحين ، لكنَّ **اسطيفان** أراد المحافظة على التقليد السائد ، المتلخص في أن الإمبراطور يصبح إمبراطوراً **روما** فعلاً ، عندما يتلقى التاج من يد البابا . كما تُوّجت زوجة لودفيك إرمينغاردا .

توفي **اسطيفان** الرابع عام ٨١٧ حال عودته إلى روما . وانتخب **بسخيلاس الأول** خلفاً له على جناح السرعة ، لتلافي التدخل الفرنكوني . لم يطلب البابا الجديد بدوره مصادقة الإمبراطور على انتخابه . حاول البابوات التخلص من التبعية التي فرضها عليهم **شارل** . لم يبد لودفيك أي انزعاج من بسخيلاس بسبب ذلك ، وذهب إلى أبعد من ذلك ،

بان اعفاه من واجب انتظار المصادقة على إنتخابه .

قرر لودفيك في المؤتمر المنعقد عام ٨١٧ في أكويزاغران أن يصبح أكبر أبنائه **لوتار** شريكاً له في حكم الإمبراطورية ، وخلفاً بعد موته . حصل ابنه بيبين على **اكويتانيا** ، وابنه الثالث لودفيك على بافاريا ، وكارينتيا ، والتشيك . وكان لكليهما أن يخضعا للإبن الأكبر **لوتار** .

لم ترد أية إشارة في هذا الإتفاق إلى برنارد ملك إيطاليا . فأعلن برنارد عن تمرده ، لكنه تراجع فيما بعد واستسلم ، لكنَّ لودفيك عامله بقسوة ووحشية ، وحكم عليه بسمل العينين مما أدى إلى موت برنارد .

توفيت الإمبراطورة أرمينغاردا عام ٨١٨ . فتزوج لودفيك حالاً من ابنة الدوق البافاري ويلف . كانت إمرأة جميلة ، وذكية ، وطموحة ، قادرة على تسيير رجل ضعيف مثل لودفيك .

سحق لودفيك في العام ذاته (٨١٨) تمرد سكان بريتونيا (الوافدين من بريطانيا) ، الذين طالبوا بملك خاص بهم . كما هاجم الصرب والأوبودريين . كان الأوبودريون حتى ذلك الحين حلفاء الفرنكونيين ، ونشأ الخلاف بينهم وبين لودفيك نتيجة تدخل الأخير في الشؤون الدانمركية . نشب خلاف بين خلفاء الملك الدانمركي الراحل على العرش . فأيد لودفيك واحداً منهم يدعى **هارالد** ، كان قد أعلن عن رغبته في إعتناق المسيحية ، وقد تمَّ تعميده فعلاً عام ٨٢٦ . بينما أيد الأوبودريون ا لمرشح النرويجي للعرش .

دفعت تجاوزات الإدارة الفرنكونية الكرواتيين للتمرد عام ٨١٩ بقيادة لوديغيت . هُزِمَ الكرواتيون وتعرضت أراضيهم الواقعة وراء نهري الدانوب وسافا للإحتلال الفرنكوني . لكن هذا الشيء ، أدى إلى احتكاك الإمبراطورية الغربية مع البلغار ، الذين قتلوا قبل فترة وجيزة من ذلك الحين **باسيليوس** ، ولم يتوقف زحفهم على أبواب القسطنطينية إلا بصعوبة بالغة . تحولت الدولة البلغارية إلى دولة سلافية تدريجياً ، مع تقدم الهجرة الجماعية للقبائل السلافية نحو الجنوب ، وطغيانها على العنصر التركي الأقل عدداً بكثير .

بينما كان القراصنة النورمانديون يدمرون فريزيا ، هاجم **العرب** بجرأة أكبر سواحل **إيطاليا وبروفانسيا** . ونشأت في المغرب إمارة الأغالبة المستقلة عن الخلافة العباسية . واستغل العرب النزاعات القائمة بين أمراء بينيفنتو والوالي البيزنطي في جنوب إيطاليا ، فتمكنوا من تأسيس قاعدة إنطلاق في **بورت باري** .

حدث عام ٨٢٦ تمرد في القاعدة الحدودية الإسبانية ، حيث ثار السكان ضد الفرنكونيين ، لكنَّ الثورة اخمدت .

كانت حدود الإمبراطورية معرضة للخطر ، وتعذر على رجل من نمط لودفيك السيطرة على الموقف . وعلى أي حال ، فانه وإن كانت لديه في بداية عهده بعض الطموحات ، فمنذ زواجه من يوديتا ابنة دوق بافاريا ، وبعد ولادة ابنه **شارل** (الذي لُقّبَ بالأصلع فيما بعد) ، استحوذت عليه فكرة واحدة ، هي : كيفية اقتطاع جزء من الميراث الموزع وتخصيصه **لشارل** .

وفي هذه الاثناء ، تُوّجَ **لوتار في روما** امبراطوراً (عام ٨٢٣) . توفي البابا بسخيلاس عام ٨٢٤ ، وفي الأشهر الأخيرة التي سبقت موته ، حدثت قلاقل في الدولة الكنسية . حُكِمَ على عدد من الوجهاء بسمل العينين والموت ، لكن البابا أقسم أنه لم يكن مذنباً فيما حدث . بعد موت بسخيلاس انتخب **يوجينيوس** الثاني لمنصب البابا . أعان **لوتار** البابا الجديد على استعادة الهدوء والنظام في إمارة روما ، وفرض بالمقابل على يوجينيوس مايعرف (بدستور روما» ، الذي نصَّ على وجوب مشاركة نبلاء وشعب **روما** في انتخاب البابا ، وعدم الإقتصار على سلك الأكليروس وحده (كما قرر مجمع عام ٧٦٩) . كما توجب على البابا المنتخب الحصول على مصادقة الإمبراطور على انتخابه ، كما جرت العادة من قبل .

تقبل يوجينيوس الثاني أوامر **لوتار** دون اعتراض . حيث كان الإمبراطور الشاب مقيماً في إيطاليا ولم يكن ليتحمل أية اعتراضات . وعلى أي حال ، توفي يوجينيوس عام ٨٢٧ . ولم يبق خلفه فالينتين في منصبه سوى أربعين يوماً . وكان للبابا **غريغوري** الرابع أن يسيِّر دفة الحكم في الدولة الكنسية لفترة أطول .

أعلن لودفيك في **مؤتمر فورماتسيا** عام ٨٢٩ ، أن ابنه الأصغر **شارل** سيرث **ألمانيا** ، **وبرغنديا** . احتجَّ الأبناء الكبار على القرار ، لكنَّ لودفيك أصرَّ على قراره ، حيث كان أبناء عمومة يوديتا قد سيطروا على البلاط . تراجع لودفيك عن قراره عندما هدد **لوتار** ، **ولودفيك** ، وبيبين بالمقاومة المسلحة . وبناء على طلب الأبناء الثلاثة ، أُرسلت زوجة الأب إلى الدير ، وطُرد المستشارون الذين جاءت بهم من البلاط .

تبدلت الأحوال بسرعة البرق بعد أن نشأت الخلافات بين أبناء لودفيك . فقد تخلى بيبين ولودفيك الإبن عن **لوتار** ، وقفا إلى جانب لودفيك الأب . اعاد الإمبراطور زوجته إلى البلاط ثانية . وتمَّ تقسيم الإمبراطورية مجدداً عام ٨٣١ . احتفظ كل من بيبين ولودفيك بموجب الإتفاق الجديد بمقاطعاتهما ، وحصل **شارل** على نصيب أكبر ، ولم يترك الإمبراطور لإبنه **لوتار** سوى إيطاليا ، واضعاً حقه في إستخدام لقب إمبراطور تحت إشارات الإستفهام .

دفع القرار الجديد الأبناء إلى تمرد جديد . وسعى **لوتار في** هذه المرّة لتأمين حليف : فذهب إلى **غريغوري** الرابع وأقنعه بضرورة التوسط بين الأب وأبنائه ، من اجل خير الإمبراطورية ووحدة التاج الذي وضعه سلفه على رأسه . خضع البابا للضغوط التي مارسها

عليه **لوتار** ، ورافقه إلى فرنكونيا . أثار حضور البابا ضجة في أوساط رجال الدين الفرنكونيين .

تخلى قسم من الأساقفة عن لودفيك ، بينما حاول قسم آخر منهم إلقاء الحرم ا لكنسي على البابا وفاءً منهم للإمبراطور .

التقى جيشا الإمبراطور والأخوة (الذين رافقهم **غريغوري**) في عاصمة كولمار . توجه البابا إلى معسكر الإمبراطور لإقناعه بضرورة المصالحة مع أبنائه . فواجه الجانب الآخر ريباً غاضباً .وبينما كان البابا يحاول إقناع الإمبراطور وتبديد مخاوفه ، انضمت الجيوش الإمبراطورية إلى صفوف الأبناء . فاستسلم لودفيك الأعزل دون مقاومة .

أُرسلت يوديتا إلى الدير مجدداً ، ولقي ابنها **شارل** المصير ذاته . أرغم الأبناء الكبار لودفيك على الإعتراف بالجرائم المرتكبة ، والتنازل عن العرش . وتمّت مراسيم التنازل المحزنة في Soissons . وأُرسل لودفيك بثوب التوبة إلى دير سانت ـ دينيس .

حدث نزاع جديد بين المنتصرين . واستعاد الإمبراطور سلطته مجدداً بمساعدة لودفيك وبيبين (عام ٨٣٤) . أهين **لوتار أيضاً** . وقرر لودفيك تاكيد انتصاره بأن يتوَّج للمرة الثالثة في ميتز بحضور سبعة من رؤساء الأساقفة .

لكن هذا النصر لم يضمن مستقبل **شارل** ، الهدف الأساسي لكل من يوديتا ولودفيك . ولمّا توفي بيبين عام ٨٣٨ ، أهمل لودفيك ورثته ، وضمَّ **اكويتانيا** إلى نصيب **شارل** . الأمر الذي اعترض عليه لودفيك الإبن ، حاكم بافاريا ، الملقب بالألماني . فواجهته يوديتا بتحالف غير متوقع مع **لوتار** .

تمَّ التوصل إلى إتفاق جديد في فورماسيا عام ٨٣٩ . عرض الأب على **لوتار** التاج الإمبراطوري وَخَيَّرَهُ مابين الشطرين الشرقي والغربي للإمبراطورية ، بالإضافة إلى إيطاليا . وافق **لوتار** على الجزء الشرقي ، أي جرمانيا (باستثناء بافاريا التي ظلّت من ممتلكات لودفيك) . وحصل **شارل** على الجزء الغربي ، أي على غالة .

توفي لودفيك عام ٨٤٠ ، بعد ان جزأ الإمبراطورية التي بناها والده ، على هذا النحو .

لاشكَّ بان الحاكم المخبول والمتورط بحروب مستمرة مع أبنائه ، أراد خير الكنيسة بصدق ، ويعود الفضل في ذلك إلى مستشاره بنديكت الأنياني بشكل أساسي . كان الأخير من القوط الغربيين . حاول في بداية الأمر إيجاد نظام رهباني خاص به ، أشدَّ صرامة في قواعده من البنديكتيين ، على غرار قواعد القديس باخوميوس . لكنه غيَّر رأيه فيما بعد ، وركز إهتمامه على إصلاح الأديرة البنديكتينية في أكويتانيا ، حيث كانت بأمس الحاجة إلى

حركة إصلاح بعد خمود جذوة الحماس الأولي . وليتمكن من خدمة الإمبراطور بنصائحه ترأس ديراً في إندين . فأضحى هذا الدير رمزاً للإصلاح في أرجاء المملكة . لكن عملية الإصلاح هذه ، التي أقرّها المؤتمر العام لرؤساء الأديرة في الإمبراطورية ، لم تلق الإهتمام اللائق بها في كل مكان . وعلى الرغم من ذلك ، فقد حَدَّتْ حملة القديس بنديكت إلى حدٍ ما من الإنحطاط الذي تعرضت له الأديرة في فرنكونيا . توفي بنديكت عام ٨٢١ .

كان عهد لودفيك محزناً بالنسبة للكنيسة الفرنكونية ، وذلك بسبب الإنقسامات الداخلية بين رجالات الكنيسة ، من مؤيدين ومعارضين للإمبراطور في نزاعاته مع أبنائه . تعرضت البلاد لكوارث عديدة عام ٨٢٨ بسبب الغزوات العربية والنورماندية ، والجوع ، والأوبئة ، فشاع الحديث عن «العقاب الإلهي» على منح الممتلكات الكنسية للمدنيين ، وتعيين العلمانيين في المراكز الدينية ، واهتمام رجال الدين بالأمور الدنيوية . عالج عدد من المجامع الكنسية المتتالية هذه الأمور ، ولكنها عجزت عن تصحيحها ، واقتصرت النتائج على الحدّ بعض الشيء من إستمرار عملية الإستيلاء على الممتلكات الكنسية . أضحت الحياة الكنسية بمجملها بحاجة ماسَّة للإصلاح . فقد ظلَّ تعيين الأساقفة مرهوناً بنزوات الإمبراطور ، دون أي مبالاة بالقوانين الكنسية . وعيَّن الأثرياء والمتنفذون القسس في ممتلكاتهم بالطريقة ذاتها . كتب **أغوبارد** رئيس أساقفة **ليون** قائلاً : **يود معظم الذين يتوقون للمجد اقتناء قسسهم الخاصين بهم ، ليس بهدف الإصغاء لنصائحهم ، وإنما لكي يطلبوا منهم تقديم خدمات لائقة وغير لائقة ؛ ليس بهدف تأدية المهمة المقدسة فحسب ، وإنما القيام بأعمال دنيوية عادية أيضاً . نراهم يخدمون أمام المائدة ، ويقومون بإعداد الخمر ، يخرجون الكلاب ، ويسوقون الجياد التي تمتطيها السيدات ، او يقومون بالأعمال الميكانيكية . وبما أن العثور على كاهن صالح للقيام بهذا الدور أمر محال ، لايهتم هؤلاء الناس بنوعية رجال الأكليروس ، وبأيةِ عبارات مهينة يخاطبوننا عندما يطلبون إلينا ، لابل يأمروننا ، بأن نرسم هؤلاء الناس»** .

انحطت المدارس أيضاً ، بعد أن أبدى **شارل** الكبير كلَّ ذلك الإهتمام بها .

بالرغم من الإنحطاط الذي ارتسمت ملامحه ، استمرت نهضة عصر **شارل** . يعود الفضل في ذلك إلى بعض الأفراد ، ومنهم **رابانوس** الملقب **ماوروس** ، تلميذ ألكوين ، ورئيس دير في فولدا ، ومدير المدرسة التابعة للدير . كان هذا الكاتب ، والشاعر ، والفيلسوف ، والعالم في مجالات متعددة ، من رواد حركة الإصلاح للرهبنات والإكليروس . أصبح في أواخر حياته (عام ٨٤٦) رئيساً لأساقفة ميتز ، وتوفي عام ٨٥٦ . تجدر الإشارة إلى أنّ **سماراغد** الإيرلندي ، **ويونان** أسقف أورليان ؛ وأغوبارد الآنف الذكر أسقف **ليون** كانوا من بين كبار رجالات العلم والثقافة آنذاك ، .

حاول **ميخائيل** الثاني ، إمبراطوْرا لشرق ، إقناع لودفيك (التقي) بشن حملة من جانبه على الصور والتماثيل . أسفرت هذه الدعوة عن عقد مجمع كنسي في **باريس** عام ٨٢٥ . أيد المجمع الموقف المتبلور في (مخطوط **شارل**) واعتبر «الحل الوسط» مابين تحطيم الصور وعبادتها ، ملائماً .

كان هذا الموقف معارضاً لموقف روما ، ولما بعث لودفيك بقرارات مجمع **باريس** إلى البابا ، حاول تلطيف أقوال الأساقفة الفرنكونيين بعبارت منمقة .

بينما وافق معظم الأساقفة على «الحل الوسط» ، مارس كلاوديوس أسقف تورين ، تحطيم الصور عملياً ، دون أن يستثني الصلبان ، وحظّر تكريم القديسين . طالب البابا بعزل الأسقف من منصبه ، لكنَّ لودفيك إكتفى بتشجيع أغوبارد ويونان على إعداد مقالات لنقد مثل هذا الموقف المتطرف .

لابد من الإعتراف بأن شيئاً من الحذر كان مبرراً لمواجهة المغالاة في تكريم القديسين والآثار المقدسة في مناطق الأسقفية الفرنكونية . كانت المعتقدات الوثنية ، والممارسات السحرية ، والإيمان بالرقى ، لاتزال شائعة في البلاد . وتمَّ الإعتقاد بوجود بلد يدعى ماغونيا يقلع منه أفراد على سفن طائرة ، ويسببون رداءة الطقس . ولّما انتشر الوباء في إيطاليا بين قطعان الماشية ، أتُّهِمَ خدم أمير بيينفنتو برش مسحوق في المروج سبب المرض . وفي Uzes في الكنيسة الصغيرة المبنية فوق ضريح القديس فيرمين ، كانت حشود المصلين تصاب بنوبات صرع تشنجي . ولّما طلب أسقف ناربون نصيحة أغوبارد وما يتوجب عليه أن يفعله أمام هذه الظاهرة ، نصحه الأخير بجرأة غير معهودة ، بهدم الكنيسة وطرد الحشد المصاب بالهستيريا .

أدى تكريم الأثار المقدسة إلى إزدهار تجارة خاصة بها . وكان الشماس الروماني ديوسدونا تاجراً حقيقياً في هذا المجال . وإلى جانب الأثار المقدسة الحقيقية التي جاءت بها مختلف الكنائس من روما ، انتشرت في الأسواق أثار مزيفة ، أعدها هواة الربح السريع الجشعين .

اتهم رجال الدين في **اكويتانيا** اليهود اللذين عاش الكثيرون منهم فيها (فرّوا من إسبانيا في المرحلة ماقبل العربية نتيجة محاولات إرغامهم على إعتناق المسيحية) ، بإشاعة بعض الممارسات المناهضة للمسيحية . لكنَّ اليهود كانوا خاضعين لحماية البلاط الذي دافع عنهم . استفادوا من إمتيازات عديدة ، وكانوا على درجة من القوة سمحت لهم بمنع فتح الأسواق التجارية أيام السبت ، لأن البلاط كان بحاجة لثرواتهم ومشاريعهم التجارية . وعندما طالب المجمع الكنسي المنعقد في Meaux عام ٨٤٥ بإصدار تشريعات تحدُّ من حرية اليهود ، عارض مؤتمر مستشاري الإمبراطور في Epernay عام ٨٤٦ الموضوع بحزم .

قدم لودفيك ، الذي خضع لرغبات الكنيسة أكثر من والده ، تنازلات أكبر للمتنفذين

والأثرياء . اما الحرب التي خاضها ضدَّ أبنائه ، فقد عرضت الكنيسة في فرنكونيا لخسائر فادحة .

فالإصلاحات التي أراد القيام بها بناء على نصائح القديس بنديكت الأنياني في الأديرة ، لم تنفذ ، وإن تم تنفيذها جزئياً ، فبفضل جهود ومبادرات بعض الأساقفة . كما أدى زحف الجيوش الفرنكونية إلى تخريب الممتلكات الكنسية والمعابد مراراً ، وذلك بصورة لاتقل همجية عن غزوات القراصنة النورمانديين . وأضحت مصادرة الممتلكات الكنسية من قبل الإمبراطور والأمراء أمراً شائعاً بعد ان توقفت لفترة من الزمن . وَحُكِمَ على الأديرة مراراً بالبؤس الحقيقي . انقسم رجال الدين (الطبقة العليا منهم) على بعضهم . وفي الكثير من الأحيان فقد الأساقفة مناصبهم بسبب تأييدهم لأمير خسرالمعركة من اجل السلطة .

هدر لودفيك إلى حد بعيد التركة الرائعة التي تركها له شارل الكبير .

وهكذا ، لم تستمر الإمبراطورية الرومانية الغربية «الثانية» لأكثر من خمسين عاماً .

الفصل الثالث عشر

رؤيا الأخوين السولونيين

ـ عودة موجة تحطيم الصور

لم يكن **نيكيفوروس** الذي سلب إيرينا العرش قائداً عسكرياً ، ولم يناد به الجيش إمبراطوراً .

أما الضغط العربي على حدود الإمبراطورية ، فلم يضعف . واحتل العرب عام ٨٠٦ عدداً من القلاع البيزنطية في قبدوقية ، كما احتلوا أنقرة أيضاً .. ودمر الأسطول العربي قبرص ورودس . وبدل الحرب ، عقد **نيكيفوروس** صلحاً مهيناً مع **هارون الرشيد** ، ووافق على دفع غرامة في مقابل السلام .

لم يعد الإمبراطور لحملة تحطيم الصور ، لكنه فرض إتاوات ضخمة على الممتلكات الكنسية ، بسبب حاجته الماسة للمال ، مما أدى إلى حدوث مشاحنات مع رجال الدين . أضحت هذه المشاحنات أقوى وأشد حدة بعد الخلاف الذي حصل مع **تيودور** ، مشرف دير **ستوديون** في القسطنطينية (كان أكبر أديرة الشرق ، وتمتع بنفوذ هائل على الأديرة الشرقية الأخرى) .

توفي بطريرك القسطنطينية عام ٨٠٦ وعيَّن الإمبراطور رجلاً جليلاً وتقياً هو نيكفور خلفاً له ـ لكنه رجل علماني كسلفه . قام البطريرك الجديد عام ٨٠٧ بالدعوة لإنعقاد مجمع كنسي تلبية لطلب الإمبراطور ، وأقرَّ المجمع شرعية زواج الإمبراطور السابق **قسطنطين** من سيدة البلاط ثيودوتا . لم يكن **قسطنطين** الذي توفي منذ أمد بعيد هو المعني بهذا القرار ، وإنما

القس الذي عقد القران ، والرغبة في إعادة الإعتبار له ، حيث كان للإمبراطور بعض الإلتزامات اتجاهه . أدى القرار إلى حدوث خلاف حاد بين **تيودور** - رئيس الدير ونيكفور - البطريرك . فتمرد **تيودور** على البطريرك ، بينما ردَّ الإمبراطور عليه بطرد الرهبان ، والحكم بالجلد والنفي على رئيسهم .

أنقذ موت الإمبراطور **نيكيفوروس** الرهبان من الملاحقة والإضطهاد اللاحقين .

عاشت الدولة البلغارية مرحلة إزدهار جديدة ، وأضحت سلافية أكثر فأكثر .

احتلَّ الخان البلغاري **كروم** سرديكا (صوفيا) ، وأمر بأن يستوطنها السلافيون . فشنَّ نيكفوروس حملة ضد البلغار . وبعد الإنتصارت الأولية ، وقع الجيش الإمبراطوري في المصيدة وتعرض لهزيمة نكراء عام ٨١١ . لقي **نيكيفوروس** حتفه في المعركة ، بينما حوَّل **كروم** جمجمته إلى طاس لشرب الخمر .

استولى ميخائيل رانغابيس صهر **نيكيفوروس** على العرش . وهو الذي وافق على الإعتراف **بشارل** الكبير امبراطوراً على الغرب (جرى الحديث في حينه عن «الحكم المشترك» للمسيحية ، ولكن يبدو أنَّ الأمر لم يكن سوى لعبة سياسية من الجانبين) . بعد أن ضمن ميخائيل أمن الممتلكات البيزنطية في إيطاليا بإتفاقه مع **شارل** ، شنَّ حملة على البلغار . لكنه هُزِمَ بدوره عام ٨١٣ . فغضب الجيش من الإمبراطور وإفتقاره للمواهب العسكرية ، وعزله عن العرش ، ونادى بأحد القادة إمبراطوراً ، وهو **ليون الأرمني** .

أقسم **ليون** أثناء تتويجه بأنه «لن يفعل شيئاً ضد الكنيسة ، ولن يسمح بتغيير العقائد المقدسة التي صاغها الآباء كما يجب» . لكنَّه لم يلتزم بهذا القسم . فقد شاعت في أوساط الجيش الذي رفعه إلى سدة الحكم . ميول معادية لتكريم الصور ؛ انتظر **ليون** نهاية الحرب مع البلغار ، و رفع مجدداً شعار تحطيم الصور .

حرر موت الخان البلغاري كروم عام ٨١٤ القسطنطينية من الخطر البلغاري المحدق بها . وعندئذ صرحَّ **ليون** متسائلاً : «ماسبب تعرض المسيحيين للهزائم المستمرة في الآونة الأخيرة على أيدي الوثنيين ؟ إنها إعادة عبادة الصور . سوف أحطم الصور !»

هكذا بدأت الحملة ومارافقها من إضطهادات . واجه الإمبراطور في هذه الحملة خصمين كبيرين ، كانا على خلاف مع بعضهما لفترة طويلة قبل ذلك الحين ، لكنهما وقفا معاً دفاعاً عن تكريم الصور المقدسة . هذان الخصمان هما البطريرك **نيكيفور** ، ورئيس الدير **تيودور** (الذي عاد من النفي في بداية عهد ليون) . قاما بتنظيم تظاهرات ضخمة دفاعاً عن الصور ، احدهما بين رجال الدين ، والآخر في أوساط الرهبان . أصدر **ليون** تعليماته باختطاف البطريرك وترحيله إلى السواحل الآسيوية . وعيَّن بدلاً منه ثيودوت الذي أطاعه في كل شيء . وأدان المجمع الكنسي الذي دعا ثيودوت لإنعقاده عام ٨١٥ ، مقرارت مجمع

نيقيا الثاني .

حيكت مؤامرة ضد ليون ، تزعمها ميخائيل «المتلكئ» ، أحدأقرب أصدقاء **ليون** وشريكه في الإنقلاب العسكري . أُكْتُشِفَتْ المؤامرة وَحُكِمَ على ميخائيل بالموت .

هب أنصار ميخائيل للدفاع عنه : ففي ليلة عيد الميلاد ، تنكروا بثياب الكهنة واقتحموا الكنيسة التي أقيم فيها القداس ؛ قتلوا **ليون** الذي حاول بلا جدوى حماية نفسه من خناجرهم بالصليب الثقيل الذي كان يحمله بيده . صعد ميخائيل إلى العرش عام ٨٢٠ .

اعتمد ميخائيل الثاني في تنظيم مؤامرته على المناهضين لتحطيم الصور . ولكنَّه ما ان تربع على العرش ، باشر بحملة جديدة على الصور ، كانت أشدَّ عنفاً من حملة سلفه (لهذا السبب اعتبره اعداؤه يهودياً) .

أُرْغِمَ **تيودور** العائد من النفي على مغادرة القطسنطينية مجدداً . توفي عام ٨٢٦ مخلفاً نتاجاً غنياً من المؤلفات : مخطوطات متعلقة بتعليم حياة الزهد ، وسير حياة القديسين ، مقالات ضد تحطيم الصور ، قصائد ، تراتيل كنسية ، ورسائل . توفي البطريرك **نيكيفور** أيضاً في المنفى عام ٨٢٩ وقد ذاع صيته كقديس . وفي العام ذاته توفي الإمبراطور .

تولى العرش بعده ابن ميخائيل الثاني ـ ثيوفيل ، الذي أثبت أنه جدير بحكم البلاد . كانت حملاته العسكرية أقلَّ نجاحاً . فقد استغلَّ تمرد الخرميين عام ٨٣٧ وقاد هجوماً كبيراً ضد الخليفة المعتصم .

لكنَّ الخليفة المعتصم واجهه بهجوم مضاد أقوى ، واحتلَّ أنقرة وأموريون (مسقط رأس ميخائيل الثاني) التي دافعت عنها حامية بيزنطية ضخمة . أُسِرَ ضباط الحامية واعتقلوا لمدة اعوام ، حيث جرت محاولات عديدة لإرغامهم على الإسلام . ولمَّا رفضواو حُكِمَ عليهم بالموت في نهاية المطاف . يُعرف هؤلاء باسم الشهداء الإثنين وأربعين من اموريون .

استنجد **ثيوفيل** المهدد بتقدم الجيوش العربية بدوق البندقية **بطرس تراندينكو** ، وبالإمبراطور لودفيك ، وبأمير قرطبة **عبد الرحمن** . لكنَّه لم يتلق العون من احد منهم ، واستعد المعتصم لمهاجمة القسطنطينية ـ لكنَّ المنية وافته بغتة ، وانسحب العرب .

بالرغم من هذه الأوضاع الصعبة التي قاست منها الإمبراطورية ، ظلَّ ثيوفيل طيلة فترة حكمه يحارب الصور بضراوة . ورفع معلمه **يوحنا** ، العدو اللدود للصور ، إلى الكرسي البطريركي ، تجلَّى عداء ثيوفيل للصور في اضطهاد الرهبان بشكل خاص ، حيث شاعت السادية وأعمال العنف الوحشية . أُحرِقَتْ راحتا يدي راهب ألقي القبض عليه وهو يرسم ؛ ونُقِشَت على وجهي إثنين آخرين أشعار ألفها ثيوفيل نفسه . اما المجمع الكنسي الذي انعقد عام ٨٣١ تلبية لدعوة البطريرك ، فقد أقرَّ جميع المراسيم التي صدرت من قبل ضد الصور .

توفي ثيوفيل عام ٨٣٩ ، تاركاً العرش لإبنه ميخائيل الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة من العمر ، ولزوجته **تيودورا** . كانت تيودورا مولعة بالصور ، الأمر الذي أقلق الإمبراطور الذي كان ينازع على فراش الموت . وما ان فارق الإمبراطور الحياة ، حتى اتصلت تيودورا برهبان دير ستوديون ، وبعد أن ضمنت دعمهم ، دعت لإنعقاد مجمع كنسي عام ٨٤٣ . عزل المجمع البطريركي **يوحنا** ، وانتخب **ميثوديوس** خلفاً له . كان **ميثوديوس** من انصار تكريم الصور ، لكنه معتدل في مواقفه ، وغير مدعوم من رهبان ستوديون ، مما أدى إلى حدوث خلاف بين البطريرك الجديد والرهبان ذوي النزعة العدوانية . وتمكن **ميثوديوس** في نهاية المطاف من إنهاء حملة تحطيم الصور ، وإعادة تنظيم السلطة الكنسية دون اللجوء للعنف .

كان مدرس المنطق **ثيوكريست** مساعد تيودورا المقرب في الحكم .

ـ فوسيوس وقسطنطين

أصبح النصف الأول من القرن التاسع ، بالرغم من الحروب والحملة المجنونة على الصور ، مرحلة نهضة ثقافية في الإمبراطورية الشرقية . فقد كان كل من **تيودور** رئيس دير ستوديون والبطريرك **نيكيفور** رجلا علم . ولمع إلى جانبهما نجم **غريغوري** ديكابوليتا ، **وهيلاريون ويوثيميوس** السرديني ، **ويوحنا** هيمنوغراف ، **وثيوغنوست غراماتيك** ، **وميخائيل سينكيلوس** بطريك أورشليم ، وغيرهم . أغلق الإمبراطور **ليون** الثالث في حينه جامعة القطسنطينية التي تأسست في القرن الخامس . وأعاد ثيوفيل بناءها مجدداً . وأبدى ثيوكريست حاكم الإمبراطورية الفعلي بإسم تيودورا حماساً شديداً في رعاية المؤسسة العلمية الفريدة من نوعها في جميع أرجاء العالم المسيحي .

لكنَّ عهد تيودورا لم يكن مرحلة هدوء واستقرار .

ارتكبت تيودورا في حماسها الهادف لإيقاف حملة تحطيم الصور خطأً فادحاً : أصدرت أمراً بملاحقة طائفة الباوليين التي حظيت بعدد كبير من الأتباع ، وخاصة بين سكان قبدوقية . كانوا من الثنويين ـ المانويين ، وبالرغم من ذلك قام الأباطرة محطمّو الصور بدعمهم ، إذ وجدوا فيهم سوراً طبيعياً في مواجهة **المسلمين** . أما تيودورا فقد أوصت ، «بهداية أو قتل» أتباع الطائفة . لقي مئة ألف منهم مصرعهم ، وانضم الباقون منهم إلى جانب العرب ، وأصبحوا من ألدّ اعداء **بيزنطة** .

دحر العرب البيزنطيين من صقلية ، ففي عام ٨٤٣ سقطت ميسينا . واستسلمت آخر نقطة مقاومة في الجزيرة ـ **قلعة إينا** ـ عام ٨٥٣ .

بعد إحتلال صقلية ، هاجم العرب إيطاليا . استولوا على جزيرة **إسخيا** الواقعة مقابل

نابولي . وفي عام ٨٤٦ هاجموا روما . لم يحتلوا المدينة ، لكنَّ باسيليقا القديس بطرس الواقعة خارج أسوارها ، سقطت في أيديهم ، فنهبت ودنست . يرجح ان تكون رفاة القديس بطرس قد اختفت آنذاك ، حيث أُخرجت من القبر ودفنت في مكان آخر ، لكي لاتقع في أيدي **المسلمين**(١) .

بعد وفاة **ميثوديوس** ، تولى العرش البطريركي في القسطنطينية **اغناطيوس** ، وهو إبن الإمبراطور ميخائيل الأول . عجز اغناطيوس عن المحافظة على الإعتدال ، وسرعان ما انضمَّ إلى صفوف رهبان دير ستوديون ، فأكسبته نزعته الحربية الكثير من الأعداء ، ومنهم **غريغوري** أسقف سرقوصة . عزل البطريرك **غريغوري** من منصبه ، واتخذ الإجراء ذاته بحق عدد من الأساقفة الآخرين . أثار هذا الموضوع ضجة كبرى ، فاستأنف **غريغوري** الحكم إلى روما ، وهذا مافعله اغناطيوس أيضاً .

وقبل أن يتمَّ البث في الوضوع ، حدث انقلاب جديد في القسطنطينية .

كان شقيق الإمبراطورة تيودورا منذ زمن طويل على علاقة وثيقة بالإمبراطور الشاب ميخائيل الثالث . ويعتقد بان تأثيره عليه كان سلبياً يدفعه في الإتجاه اللا أخلاقي . وعلى أي حال ، كان شقيق الإمبراطورة **ورداس** رجلاً لا أخلاقياً في حياته الخاصة ، ومتآمراً ، ولكن لابد من الإعتراف بأنه كان سياسياً محنكاً ، محباً للعلم والثقافة ، وراعياً لهما . بلغ ميخائيل آنذاك سن الرشد ، فقام بمساعدة خاله بإنقلاب وتربع على العرش عام ٨٥٦ . أرسلت تيودورا إلى الدير ، بينما لقي ثيوكريست حتفه ، وأصبح **ورداس** حاكم الإمبراطورية الفعلي .

احتجَّ البطريرك اغناطيوس بعنف على هذه التغيرات . وامتنع عن منح القربان المقدس **لورداس** بسبب نمط حياته اللا أخلاقي . فردَّ **ورداس** على ذلك بعزله من منصبه ونفيه . لكنَّ البطريرك رفض التنازل بالرغم من التعذيب والضغوط التي مورست عليه .

عثر **ورداس** على مرشح للكرسي البطريركي ، وهو **فوسيوس** ، الذي يصفه **سبوافينسكي** بأنه : «أحد أكثر عقول ذلك العصر استنارة وعلماً ، عالم وفيلسوف ومحاضر رائع» .

تطورت جامعة القسطنطينية ـ التي أشرنا إليها آنفاً ـ بصورة رائعة تحت رعاية ثيوكريست . أشرف على إدراتها الرياضي الفذ **ليون** ؛ ودرَّس **تيودور** الهندسة ، وعلم

---

(١) يحتمل أن تكون قد أخفيت آنذاك في المخبأ السري "في السور الأحمر" ، حيث اكتشفت عام ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ عظام بشرية ، واعتبرتها البروفسورة مرغريت غواردوتشي في كتابها الصادر عام ١٩٦٥ بقايا عظام القديس بطرس دون أدنى شك . ولكن يحتمل أن يكون هذا قد حصل قبل ذلك الحين ، لأن **غريغوري** الكبير كتب في حينه للقديس **بونيفاسي** ، بأن عظام القديس بطرس قد فُقِدَتْ .

ثيوديجيوس الفلك ، **وكوميتاس** النحو ، بينما ألقى فوسيوس محاضرات في الجدل والفلسفة . اكتسبت محاضراته شهرة واسعة ، وأحاط به لفيف من التلاميذ .

ومن تلامذته ، قسطنطين ، الإبن الأصغر لضابط كبير يدعى درونجاريوس وليون **التسالونيكي** ـ اللذين عُرفا بلغة السكان السلافيين باسم السولونيين . كتب المؤرخ **ميليفسكي** : «كان **قسطنطين** منذ حداثة عهده مولعاً بقراءة الكتب . وكان المؤلف المحبب إلى قلبه في حداثته **غريغوري** اللاهوتي ، أي القديس **غريغوريوس** النزينزي» . وجد الصبي الموهوب والتواق للعلم ، نفسه في القسطنطينية ، بعد أن مهد له الطريق صديق لأسرة والده ، وهو ثيوكريست ذاته ! جاء **قسطنطين** إلى القسطنطينية عام ٨٤٣ وأقام في قصر ثيوكريست ، الذي تكفل به وعيّنه مديراً لمكتبة البطريرك . لكنَّ هذه المكانة الرفيعة بثت الرعب في نفس الصبي ، ففرَّ من القسطنطينية ، ولجأ إلى **دير كليديون** على البوسفور . حيث أتيحت له فرصة لقاء البطريرك المعزول والأعمى **يوحنا** ، المؤيد في حينه لتحطيم الصور ، ولاشكَّ بأنه خاض معه نقاشات حامية حول موضوع الصور . لم يستطيع **قسطنطين** الإختفاء طويلاً ، إذ تمَّ العثور عليه ، وجيء به إلى القسطنطينية ثانية . وبما أنه لم يرغب في إدارة المكتبة ، كُلّفَ بتدريس الفلسفة في الجامعة برفقة معلمه السابق فوسيوس . وفي عام ٨٥٠ انضمَّ إلى وفدٍ متوجه إلى **بغداد** ، فوجد فرصة سانحة لإجراء نقاشات مطولة مع **المسلمين** .

بعد الإنقلاب ، لجأ **قسطنطين** إلى دير بوليخنيون على جبل الأولمب في بيتينيا ، خوفاً على حياته ، كواحد من المقيمين في قصر ثيوكريست والمحاطين برعايته . وهناك التقى بشقيقه الأكبر **ميثوديوس** . كان ثيوكريست قد عيَّن هذا القانوني اللامع حاكماً لمقاطعة مقدونية ، فمارس عمله بحماس منقطع النظير . وبعد الإنقلاب ، لجأ بدوره إلى الدير ، فشدته حياة الرهبنة ولمّا وصل **قسطنطين** إلى بوليخنيون وجد شقيه **ميثوديوس** راهباً .

وفي اللحظة التي تولى فيها فوسيوس العرش البطريركي ، كان **قسطنطين** لايزال مختفياً . لكن هذين الرجلين سيلعبان عمّا قريب دوراً بالغ الأهمية في الأحداث المقبلة .

ـ سياسة ورداس العظيمة

اقتصرت اهتمامات ميخائيل الثالث الملقب بالسكير على اللهو و العربدة .

كان **ورداس** بارغم من كل مساوئه رجلاً واسع الأفق . مزيج مذهل في شخص واحد ، لا أخلاقي في حياته الشخصية إلى أبعد الحدود ، وسياسي بارع في الآن ذاته .

وجه **ورداس** في بداية الأمر الإمبراطور الشاب ضد العرب . وتمكن الجيش البيزنطي

من بلوغ الفرات عام ٨٥٩ ، وتمكن الأسطول البيزنطي في ذلك الحين عام ٨٥٣ ، من تنفيذ إنزال بحري في دمياط وتدمير المرفأ المصري . لكنَّ الجيش الذي قاده ميخائيل الثالث ، تعرض لهزيمة نكراء قرب Samosata . لم يكن ميخائيل مؤهلاً للقيادة ، فعيَّن **ورداس** شقيقه باترونا س قائداً للجيش ، حيث أثبت أنه قائد حقيقي ، ودمر الجيش العربي عام ٨٦٢ قرب Mitylene . الحدث المهم الذي رسخ قواعد السياسة البيزنطية في آسيا الصغرى آنذاك ، هو استعادة الدولة الأرمنية لإستقلالها .

لنُذكر الآن بمصير أرمينيا المأساوي وهي تتأرجح بين إمبريالية **بيزنطة** والخلافة العباسية ، بين المسيحية المعروفة بالخلقيدوينة ، نسبة إلى مجمع خلقيدونيا ، والإسلام .

تصارعت أربع أسر كبرى على السلطة في أرمينيا : **الماميكويانيين** ، **والبغراتيين** ، **والريختونيين** ، **والأردزونيين** . حكم آخوت ممثل البغراتيين البلاد في الأعوام ٧٣٢ ـ ٧٥٠ بدعم من الأمويين . ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، استولى العرب على السلطة بشكل مباشر . لكنَّ البغراتيين عادوا إلى السلطة ثانية . أشعل الأرمن في الأعوام ٧٧١ ـ ٧٧٢ نار ثورة كبرى ضد العرب ، لكنَّ الإنتفاضة أُخمدت بشكل دموي ، وفقد البغراتيون السلطة ثانية . فحكم البلاد أرمني اعتنق الإسلام يدعى **تادياتا أنتزيفاتس** ، لكنه لقي مصرعه بعد فترة وجيزة . استولى البغراتيون مجدداً على زمام السلطة ، ممثلين بشخص **آخوت مساكير** عام ٨٠٦ . عزز الحاكم الجديد قوة أرمينيا (وهو مؤسس العاصمة في آني) ، لكنَّه عندما توفي ، قرر تقسيم البلاد وتوزيعها على أبنائه ، الأمر الذي نال استحسان العرب ، وقد وجدوا في ذلك فرصة لإضعاف المقاطعة المتمردة .

بالرغم من التجزئة ، تفجرت في الأعوام ٨٤٢ ـ ٨٤٧ انتفاضة عامة ضد العرب ، وسحق الأمير **يوسف** الإنتفاضة . جاء بعدها تمرد جديد ، أُخمِدَ بدوره . وأغرق القائد العربي البلاد في حمام من الدم في الأعوام ٨٥٢ ـ ٨٥٥ . حاول العرب عندئذ للمرة الأولى فرض الإسلام عل أرمينيا وكانت النتيجة جزئية ووهمية تماماً ، وقد استشهد سمبات البغراتي في سبيل دينه .

لمَّا عجزالعرب عن السيطرة على أرمينيا ، أوكلوا السلطة مرةأخرى للبغراتيين . تولى **آخوت الكبير** ابن سمبات السلطة عام ٨٥٦ ، حيث تمكن من التفاهم والإتفاق مع الأسر الأرمنية الأخرى (التي ظلَّت تقاوم البغراتيين حتى ذلك الحين) ، وبفضل الوحدة الوطنية التي حققها ، قاد ثورة عامة عام ٨٨٥ . لم يكن الخليفة في **بغداد** قادراً على خوض حرب جديدة ضد أرمينيا ، فوافق على الإعتراف باستقلالها (بعد أن كانت تابعة إسمياً للخليفة حتى ذلك الحين واستلم آخوت التاج من الخليفة المعتمد .

قبل ذلك الحين ـ وتحديداً عندما كان **ورداس** الحاكم الفعلي في القسطنطينية ـ بعث

آخوت الذي كان في حينه «أمير الأمراء» بوفد إلى القسطنطينية ، معلناً عن ولائه للإمبراطور . كانت الخطوة التي اتخذها جريئة وعززت مواقعه . اسْتُقْبِلَ الوفد بحفاوة بالغة . وأرسل البطريرك فوسيوس بقطعة من الصليب المقدس إلى آخوت ، كما ناشد بطريريك أرمينيا زكريا لإعتناق الأرثوذكسية . كادت هذه الخطوة الأخيرة أن تثير خلافاً جديداً ، لكن المجمع الكنسي الأرمني الذي انعقد في **شيراكاوان** عام ٨٦٢ ، رَدَّ على دعوة البطريرك بعبارات ودّية ، دون أن يتنازل عن شيء من معتقداته .

أما الحدث المهم الثاني فهو تأسيس الدولة **الجورجية** . خضعت جورجيا منذ عام ٦٤٥ للسلطة العربية . أسس ممثل الأرمن البغراتيين ، وابنه **آدارنازي** ، وحفيده **آخوت** إمارة في أواخر القرن الثامن ، اعترف بإستقلالها كل من الخليفة **وبيزنطة** . ثم انضمت جيورجيا إلى الدولة المسيحية القفقازية ، التي حكمتها الأسرة الأفكازية . ووحد بغرات الثالث المملكتين عام ٩٨٩ بالطرق ا لسلمية .

في عام ٨٥٦ قدم إلى القسطنطينية وفد بعث به الخان الخزري . وقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ هذا الشعب المتميز رفض الوثنية البدائية عن قناعة ، وقرر إعتناق إحدى الديانات التوحيدية الثلاث : الموسوية ، أو المسيحية ، أو الإسلام . وأمكن لمثل هذا القرار أن يسفر عن نتائج لاتقتصر على الجانب الديني وحده . وكان إختيار المسيحية يعني بالنسبة للخزر الإرتباط مع **بيزنطة** .

الخزر شعب تجاري بسط نفوذه على تجارة البحر الأسود خلال القرنين السابع والثامن . وقد مارس الخزر نشاطهم التجاري مع العرب **وبيزنطة** في آن واحد . كما شملت تجارتهم العالم السلافي المجهول ، حيث سلكوا الطريق الإغريقية القديمة على نهر الدنيبر .

وفي هذا المكان ظهر في أواسط القرن التاسع منافس خطر . هم **النورمانديون** المعروفون بإسم **الفاريجيين** . تفوقوا على الخزر ، لأن قواربهم كانت قادرة على التجوال في كامل القارة الأوروبية عبر الأنهر . جاء أوائل مبعوثي القبيلة السكندنافية المعروفة باسم **روس**(١) عام ٨٣٨ ، على الطريق من بحر البلطيق إلى البحر الأسود .

حاولت القبائل السلافية التصدي للمحاربين النورمانديين الزاحفين عبر مواطنهم لكنهم فشلوا . فقد دفع الحلم «بمدينة الذهب» ، بمراكب الغزاة الشماليين ، أبعد فأبعد نحو الجنوب .

تقدمت جماعات الفاريجيين عبر **الدنيبر** مع التيار ، وانتزعت **كييف** والمناطق المحيطة

---

(١) اسم روس الذي أطلقه المؤرخ **نسطور** على الوافدين النورمنديين ، مأخوذ عن اسم بلدة واقعة على الساحل الشرقي للسويد ، من حيث انطلقت معظم حملات الفيكينغ ، وهي Roden ، حالياً Roslagen. (المؤرخ L. Andersson) .

بها من أيدي السلطات الخزرية . وجرت اول محاولة لمهاجمة القسطنطينية عام ٨٦٠ . وقد صُدَّتْ دون صعوبة ، لكنَّ الخزر شعروا بالخطر الداهم ، وراحو يبحثون عن حلفاء .

نقرأ في «سيرة حياة قسطنطين» (التي تعود إلى أواخر القرن التاسع) : «جاء رسل من الخزر إلى الإمبراطور قائلين : منذ البدء لانعترف سوى بإله واحد . . . ينصحنا اليهود بإعتناق دينهم وتقبل عاداتهم ، ويقترح المسلمون في الجانب الآخر السلم والهدايا الكثيرة ، مشجعين على إعتناق دينهم ، نطلب نصيحتكم ، ونرجو إرسال رجل علم إلينا ، لنعتنق دينكم ، إذا هُزِمَ اليهود والمسلمون في المناظرة» . توجب على الرجل الراغب في القيام بهذه المهمة أن يكون لاهوتياً متمكناً . يُعتقد ان فوسيوس هو مَنْ تذكر تلميذه السابق قسطنطين . واقترح على **ورداس** ترشيحه لهذه المهمة وتكليفه بها . يتعذر تكليف «مدلل» ثيوكريست بمهمة على هذا القدر من الأهمية بعد أشهر معدودة من الإنقلاب ، إلا بدعم البطريرك .

استجاب **قسطنطين** للنداء قائلاً : «إن أردت أيها الحاكم ، سأذهب من أجل قضية كهذه سيراً على الأقدام وحافياً ، وبدون أي شيء مما أمر الرب التلامذة بحمله معهم» .

كان مبشراً من نمط كولبان وبونيفاسي . كان يتوق لهداية الخزر ، وعلى الأرجح لمَ يكن الجانب السياسي من القضية موضع إهتمامه إطلاقاً .

اصطحب **قسطنطين** شقيقه **ميثوديوس** ، وتوجه حالاً إلى CHerson تعلم هناك لغة اليهود لمناقشة علماء الموسويين . وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أنه عثر على العهد الجديد «مدوناً» بالأحرف الروس . . . وبدأ يقرأ ويكتب بعد فترة وجيزة . يبدو تفسير البروفسور **سبوافينيسكي** هذا ، مقنعاً تماماً : وجب أن تكون مخطوطات ترجمها **فولفيلا** في حينه إلى اللغة القوطية (في القرن الرابع) . ولكن لايستبعد أن تكون المخطوطات باللغة الدانمركية (مخلفات هدايةالملك هارالد) جاء بها الفاريجيون .

أُغرقت في البحر قرب CHerson جثة احد الشهداء ، واعتبرتها التقاليد المحلية (يرجح أن يكون هذا خطأ) جثة البابا الشهيد كليمنس الأول . أبحر **قسطنطين** إلى المكان المشار إليه ، وعثر في الغضار الساحلي على بقايا الجثة . وجاء بها إلى CHerson ، ثم اصطحبها معه متابعاً طريقه .

تشير المخطوطة المذكورة «سيرة حياة قسطنطين» أيضاً إلى أن «الفيلسوف» هوجمَ بالقرب من CHerson من قبل **المجريين** وهو يصلي .

تبدو هذه المعلومة معقولة تماماً . لأن **المجريين** الذين أصبحوا هاجس أوروبا بعد فترة قصيرة من الزمن ، استوطنوا آنذاك في المناطق التي إحتلها الأفاريون من قبل . لم يكونوا من الشعوب التركية (يحتمل أن تكون قياداتهم العليا من الأتراك) . يشتق غروسييه الإسم اللاتيني للمجر «هنغاريا» من إسم الشعب الأونوغوري . وتشير بعض المراجع إلى أن الأسرة الملكية

الأرباذية التي حكمت **المجريين** ، انحدرت من أصول خزرية .

وعلى أي حال ، فقد استقر **المجريون** حوالي عام ٨٣٣ مابين نهري الدون والدنيبر ، وكانوا أتباعاً للخزر . ثم رحلوا بإتجاه دلتا الدنيبر تحت تأثير البيتشينغ الأتراك وعندما حوصروا بين فكي الكماشة المشكلة من البيتشينغ والبلغار ، انسحبوا نحو مرتفعات ترانسيلفانيا ، من حيث استدعاهم الملك الألماني لزجهم في مواجهة السلافيين .

بعد ان غادر قسطنطين CHerson ، أبحر في بحر قزوين ، ثم سار إلى بلاط الخان الخزري عبر الجبال . وهناك تمَّ اللقاء المتفق عليه ، حيث هزم **قسطنطين** خصومه . لكنَّ هذا لم يسفر عن أية نتائج سياسية . كتب الخان إلى الإمبراطور قائلاً : «أرسلت لنا أيها الحاكم رجلاً ، أثبت بالكلمة والبراهين القاطعة أن الديانة المسيحية مقدسة . وبعد الإقتناع بانها ديانة حقة ، أوصينا (الناس) بان يعمدوا طوعاً ، آملين أن نحذو أيضاً حذوهم . فنحن جميعاً أصدقاء وحلفاء امبراطوريتك» . كان الرد دبلوماسياً ، تضمن وعداً ضبابياً بإعتناق المسيحية ، ورغبة في التحالف السياسي . أما في الواقع ، فقد وقف شيوخ الخزر إلى جانب الموسوية ، ربما لخوفهم من أن اعتناق المسيحية ، سيضع الدولة الخزرية في موقف صعب بالنسبة للعرب .

تعثر السياسي المحنك **ورداس** في ترشيحه فوسيوس . فباختياره لرجل يتمتع بذلك القدر من الخصال والمواهب ، اعتقد انه سيدفن مرة وإلى الأبد قضية البطريرك المعزول أغناطيوس . لكنَّ ماحدث هو العكس .

يقول **سيبيلت ولوفلر** : «كان البابا مايكل الأول (منذ عام ٨٥٨) ألمع شخصية بين الذين تربعوا على العرش البابوي منذ أيام **غريغوري** الأول وحتى عهد **غريغوري** السابع ، وهو على وجه العموم أحد أقدر وأنشط البابوات» . وكان أسلافه كل من : **سرجيوس** الثاني (٨٤٤ ـ ٨٤٧) ـ الذي هاجم العرب **روما** في عهده ، وليون الرابع (منذ عام ٨٥٥) ـ الذي أمر بتحصين باسيلقيا القديس بطرس وكامل هضبة الفاتيكان حرصاً على امن المعابد(وهكذا تأسس الحي الفاتيكاني ـ دولة الفاتيكان الحالية ـ خلف التيبر) ، وبنديكت الثالث .

أشيع أنه مابين **ليون** الرابع وبنديكت الثالث ، جلست على الكرسي الرسولي المرأة ـ **البابا جان** . وقد تمَّ التعامل مع هذه القضية المضحكة بجدية تامة لفترة زمينة طويلة . أشير إليها لأول مرة في مؤلفات **الدومينيكاني** J. de Mailly حوالي عام ١٢٥٠ ، ثمَّ أشار إليها **دي بوربون** حوالي عام ١٢٦١ . لكنها اكتسبت صيتاً بفضل إشارة **مارتن البولوني** إليها عام ١٢٧٩ . كانت المرأة ـ البابا وفقاً لهذه المعلومات من Mainz او من إنجلترا ، ودرست في أثينا منتحلة شخصية رجل ؛ وانتخبت لمنصب البابا بسبب غزارة علمها ؛ شغلت هذا المنصب لمدة عامين وسبعة أشهر ؛ وتوفيت أثناء عملية ولادة مبكرة .

طال الحديث عن قضية المرأة ـ البابا خلال القرنين الخامس والسادس عشر . ولم يتردد

بعض المؤلفين الجادين في طرح إفتراضاتهم حول الموضوع . كما حاولت البروتستانتية تشويه صورة البابوية بالإستشهاد بهذه القضية . القصة بأكملها غير معقولة ، ولو أنه لمجرد عدم وجود فترة عامين وسبعة أشهر بين ليون الرابع وبنديكت الثالث . لأن ليون الرابع توفي في السابع عشر من تموز عام ٨٥٥ ، وصدر في السابع من تشرين الأول من العام ذاته مرسوم عن بنديكت الثالث بخصوص دير في Corbia . وقبل ذلك الحين ، في السابع عشر من أيلول ، عام ٨٥٥ صدرت ميدالية (تحمل التاريخ ذاته) تظهر عليها صورة بنديكت والإمبراطور لوتار .

لاتتضمن الوثائق المعاصرة للحدث الموما إليه أية إشارة إلى المرأة - البابا . ولاشك في أن بيزنطة كانت ستستغل هذه الفضيحة لو كان لها أساس من الصحة ، وخاصة في فترة تبادل الإتهامات بين روما والقسطنطينية ، حيث اتهم البابوات البطاركة بأن المناصب الكنسية العليا في القسطنطينية يحتلها الخصيان بما يتناقض والقوانين الكنسية بشكل صارخ . ظهرت هذه الخرافة في مرحلة لاحقة متأخرة ، ربما كصدى للأزمنة التي حاولت فيها نساء من نمط إيرينا الإستحواذ على مناصب الرجال .

يجب أمام مثل هذه الخرافات تذكر كلمات De Smedt الرصينة ، حيث يقول : «يمكن اعتبار التقاليد المنقولة حقيقية إذا إستوفت ثلاثة شروط . أولها : يجب أن يكون الحدث ذا صدى واسعاً ، ومعروفاً ، ومثبتاً من قبل عدد من الشهود ؛ والثاني : يجب أن يُعتبر حقيقة واقعة لفترة زمنية طويلة ؛ والثالث : إذا لم يعترض عليه خلال تلك الفترة أحدٌ ممن اقتضت مصالحهم إنكاره» .

وهكذا نستطيع الإنتقال بهدوء إلى عهد مايكل الأول .

عندما بعث فوسيوس برسالة إلى البابا يعلمه فيها عن جلوسه على الكرسي البطريركي ، أجابه مايكل ، وأشاد باللهفة - التي أكد فيها أرثوذكسيته في رسالته - لكنَّه عبر في الآن ذاته عن تحفظه إزاء اختيار رجل علماني لمنصب البطريرك ، وأشار إلى أنه وفقاً لمعلوماته ، ليس العرش البطريركي شاغراً ، لأن البطريرك الشرعي أغناطيوس لايزال على قيد الحياة . وبالرغم من هذه التحفظات ، لمّحَ إلى انه على استعداد لمفاوضات لاحقة .

انعقد في تلك الأثناء (عام ٨٦١) مجمع كنسي في القسطنطينية ، أقرَّ عزل أغناطيوس . وقد ارتشى المبعوثون البابويون المتواجدون في القسطنطينية ، ولم يعترضوا على القرار . لكنَّ البابا لم يصادق على موقفهم بعد عودتهم إلى روما ، بل احتجَّ بعنف على قرار المجمع . ولم يكتف بذلك ، بل دعا لانعقاد مجمع كنسي في لاتيران عام ٨٦٣ ، وكلفه بدراسة القضية منذ بدايتها .

حرَّم المجمع فوسيوس كنسياً (كما اعتبر أسقف سرقوصة ، أحد المشاركين في سيامة

فوسيوس ، أسقفاً غير شرعي) ، وأعلن أغناطيوس وحده بطريركاً شرعياً .

كانت نتائج المجمع بمثابة إعلان الحرب على **بيزنطة** . ردَّ ميخائيل الثالث على مقرارات المجمع برسالة موجهة إلى البابا ، نجهل مضمونها ، لكنَّ البابا وصفها بأنها «مشبعة بالأكاذيب والتجديف» . وبالرغم من الرسالة الموما إليها ، أعلن البابا أنه «من أجل الحفاظ على السلام في الكنيسة» لايزال على استعداد لإعادة النظر في القضية إذا مَثُلَ كل من فوسيوس وأغناطيوس أمام محكمته .

كان هذا الإقتراح منسجماً مع رؤية مايكل الأول للأمور . فالبابا هو صاحب نظرية السلطة البابَاوية . وهذه السلطة في نظره «سلطة عليا» ، أعلى من سلطة الدولة . يحق للإمبراطور ممارسة صلاحيات في إطار مايفوضه به البابا ، ولكن لايحق له تعين الأساقفة ، والمساهمة في أعمال المجامع الكنسية ، واتخاذ القرارات فيما يتعلق بالأمور الكنسية .

ظهر سبب جديد لتعميق الخلاف بين **روما** والقسطنطينية ، وقضية فوسيوس لاتزال معلقة . ظلَّ النزاع بين البلغار و**بيزنطة** قائماً لقرون طويلة . وهذا ماجعل البلغار أشد مرونة على تقبل المؤثرات الغربية . فاستغلهم لودفيك الألماني لمحاربة الدولة السلافية المؤسسة حديثاً من قبل مويمير (سنتحدث عن هذه الدولة بعد قليل) . لكنَّ **بيزنطة** ، وبهدف حماية مصالحها في ذلك الجزء من أوروبا ، وقفت إلى جانب **مورافيا** الكبرى . ولمَّا هاجم لودفيك **مورافيا** ، أصدر **ورداس** أوامره بمهاجمة البلغار . تعرض البلغار لهزيمة قاسية ، وقرر خان البلغار على أثرها إعتناق المسيحية على أيدي المبشرين البيزنطيين . تمَّ هذا في عام ٨٦٤ . واتخذ الخان بوريس لنفسه في المعمودية اسم عرَّابة الإمبراطور ميخائيل .

كان هذا آخر أعمال **ورداس** السياسية . فقد وجد الإمبراطور المنحرف ميخائيل لنفسه مستشاراً جديداً في شخص يدعى **باسيليوس** ، المنحدر من أصول مقدونية ، وسمح له بقتل **ورداس** . وهكذا اختفى السياسي البيزنطي الكبير . وأصبح **باسيليوس** شريكاً في الحكم .

ـ مورافيا الكبرى

حاول **لوتار** بعد موت والده بسط سلطته على كامل الإمبراطورية . لكنَّه تعرض للهزيمة عام ٨٤١ في معركة دموية بالقرب من Fontenor - En - Puissaye على يد **شارل** الأصلع ولودفيك الألماني . وبنتيجة هذه الكارثة تمَّ الإتفاق بين الأخوة في فيردون عام ٨٤١ على إقرار تقسيم ميراث **شارل** الكبير .

حصل **لوتار** بموجب الإتفاق الجديد (مع الإحتفاظ بلقب إمبراطور ، كلقب فخري مفرغ من أية قيمة حقيقية) على إيطاليا (بإستثناء إمارة بينيفنتو ، والممتلكات البيزنطية

والعربية ، وميراث القديس بطرس) ، بالإضافة إلى شريط ضيق ممتد من الجنوب إلى الشمال عبر أوروبا حتى بحر الشمال (ضمَّ هذا الشريط كلاً من **بروفانسيا** ، وبرغنديا ، **ولوتارينغيا** ، وفريزيا) . وحصل لودفيك الألماني على الجزء الشرقي من الإمبراطورية ، سكسونيا ، وتورينغيا ، وألمانيا ، وريسيا ، وبافاريا ، والقاعدة الشرقية ، والشريط الحدودي الفرولي . بينما احتفظ **شارل** الأصلع بالجزء الغربي : أكويتانيا ، ونيوستريا ، والشريط الحدودي الإسباني .

يمكن إعتبار إتفاق فيردون نقطة البدء في تأسيس كل من **فرنسا** وألمانيا (صيغت وثائق الإتفاق باللغتين الجرمانية والفرنكونية ، وليس باللاتينية) . ستكتسب كل من هاتين الدولتين طابعاً مستقلاً بعد ذلك الحين ، وستتخذ مناحٍ مختلفة في تطورها . ستفقد **فرنسا** إهتماماتها بأمور أوروبا الشرقية ، لأنها ستنشغل بالدرجة الأولى بصد هجمات النورمانديين **والمسلمين** . بينما ستستمر ألمانيا لودفيك على نهج **شارل** الكبير ، متابعة إحتلال الأراضي السلافية في الشرق ، لعدم تعرضها للخطر النورماندي والإسلامي .

لنذكر بالقاعدة الأساسية التي إستندت إليها سياسة **شارل** الكبير : عدم السماح بقيام دولة ذات شأن على حدود الإمبراطورية ، دون أن تتحول إلى دولة تابعة .

لكنَّ مثل هذه الدولة تأسست في مرحلة الصراع بين أبناء لودفيك . تفككت الفيدرالية التي أسسها سامو في حينه ، لكنَّ الدول الأعضاء فيها ظلَّت قائمة كدويلات مستقلة . قام مويمير أمير فيليهراد حوالي عام ٨٢٠ بمحاولة جديدة لتوحيد الدول السلافية الموجودة مابين نهري مورافا وفاغ . هزم مويمير القادة الذين رفضوا الإنضمام إلى الفيدرالية الجديدة ، وأرغمهم على الإنضمام إلى الفيدرالية . ولكن يبدو أن الأمراء المهزومين قلَّما حُرموا من سلطتهم ، وغالباً ماظلُّوا يحكمون معلنين ولاءهم للأمير مويمير . لكنَّ ماحدث للأمير بريبينا أمير نيترا مختلف . كان بريبينا مسيحياً منذ زمن طويل ، وكان في نيترا أسقفية ، ويرجح أنها كانت تابعة لإحدى المتروبوليات الألمانية .

أقلق هذا الأمر - بالإضافة إلى وجود المبشرين القادمين من ألمانيا - مويمير . ولذلك طرد بريبينا المهزوم من إمارته . وبعد وفاة مويمير ، أصبح ابنه روستيسلاف حاكماً لفيدرالية الدول السلافية ، وعيَّن ابن أخيه المدعو سفاتوبلوكا أميراً على نيتترا .

نعرف أن وفداً مورافياً قدم عام ٨٢٢ إلى البلاط الإمبراطوري في فرانكفورت حاملاً الهدايا . يقول H. Jirecek في هذا الصدد : «يبدو أنه لم يكن لقدوم هذا الوفد أي معنى أو هدف سوى إبداء حسن النية من قبل الشعوب القاطنة على الحدود الفرنكونية ، في المحافظة على السلام . جاء الوفد بالهدايا ، لكنَّه لم يدفع غرامة» . وتشير الحوليات الفرنكونية لعام ٨٤٠ صراحة إلى ان «أرض السلافيين» الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من تورينغيا ، كانت خارج حدود الدولة الفرنكونية .

جاورت **مورافيا** الكبرى كلاً من تورينغيا وبافاريا من جهة الغرب ، ومن جهة الشرق **بلغاريا** ، وامتدت حتى نهري بوغ وستير (كشفت الحفريات الأركيولوجية في ناحية بولاف عن موقع معسكر لحرس الحدود المورافي) ، ومن جهة الجنوب بانونيا (حيث كانت هناك دولة سلافية موالية لفرنكونيا) ، ومن الشمال صربيا ودولة الفيشلانيين . وهكذا نجد انها امتدت على رقعة شاسعة . لاشك بأنَّ معظم سكان **مورافيا** كانوا قد إعتنقوا المسيحية آنذاك ، وأنَّ المبشرين المرسلين من متروبوليات سالزبورغ ، وباسافا ، ورينسبورغ ، قد مارسوا نشاطهم في هذه الدولة . لكنَّ السكان السلافيين خافوا من المبشرين خوفهم من النار . لأنهم أدركوا بأن إرسالهم من قبل أحفاد **شارل** يعني الغزو .

كان روستيسلاف سياسياً حكيماً . وفضَّل أن تكون علاقاته مع **بيزنطة** التي فصل البلغار بينها وبين **مورافيا** ، على التعامل مع الفرنكونيين الخطرين . ولذلك أرسل عام ٨٦٣ وفداً إلى القسطنطينية ، مخولاً بهذا التصريح : «لايوجد لدينا معلماً قادراً على شرح التعاليم المسيحية الحقة بلغتنا ، لشعبنا الذي أنكر الوثنية وإلتزم بالإيمان المسيحي . . . فأرسل لنا أيها الحاكم أسقفاً ومعلماً كهذا» .

كان **ورداس** لايزال على قيد الحياة ، فنظر بعين العطف لطلب روستيسلاف . لاشكَّ بأنَّ **ورداس** تشاور مع فوسيوس ، فأوصى الآخر **بقسطنطين** ثانية . ورد في سيرة حياة القديس **ميثوديوس** ، أنَّ الإمبراطور ميخائيل الثالث خاطب **قسطنطين** قائلاً : «يتعذر على أي كان إنجاز ذلك ، باستثنائك أنت . فها هي هدايا كثيرة ، وخذ معك شقيقك **ميثوديوس** ، واذهب . فأنتما سولونيان ، والسولونيون جميعاً يتكلمون السلافية» .

أنجز **قسطنطين** عملاً مذهلاً ـ نظراً لضيق الوقت ـ قبل أن ينطلق في رحلته . إبتكر أبجدية سلافية متكاملة على النمط الإغريقي ، وبمساعدة هذه الأبجدية ، ترجم فصول الكتاب المقدس الضرورية للعمل التبشيري .

الشيء الجدير بالإهتمام هنا ، هو : بالرغم من ان **قسطنطين** أوجد الكتابة السلافية على أساس اللهجة السولونية ، أضحت هذه اللهجة مفهومة تماماً في **مورافيا** وبانونيا ، وهذا مايشير إلى أن السلافيين جميعاً كانوا لايزالون يتكلمون لغة واحدة .

إنطلق **قسطنطين وميثوديوس** إلى **مورافيا** عام ٨٦٣ .

إستقبل روستيسلاف الأخوين «بحفاوة بالغة» . وقد أدركا حالاً طبيعة وظروف عملهما فأنجزا مهمة جديدة : ترجما كامل الليتورجيا الكنسية إلى اللغة السلافية .

لما فعلا هذا ؟ لاحظا أنَّ سكان **مورافيا** لايتقبلون المسيحية بصورة حسنة . كان السبب واضحاً . لاحظ المورافيون أن الكهنة الألمان «الذين تواجدوا معهم ، حاكوا المؤامرات ، ولم يكونوا ملائمين لهم» (سيرة حياة **ميثوديوس**) . دعت الضرورة إذن ، لطرح مسيحية أخرى ،

خالية من رغبة الإحتلال ؛ كان لابدَّ من إبراز موضوعها ، ومعنى الصلوات المرفوعة . والمحبة التي تنبض بها كل كلمة من كلمات الله . كانت هناك وسيلة واحدة لتحقيق ذلك : إستبعاد اللغة اللاتينية !

نقرأ في سيرة حياة قسطنطين : «ولمَّا انتشرت كلمة الله ، لم يتحمل الشيطان الحسود منذ البداية ، هذا الخير ، فلجأ إلى وسائلة وراح يثير الكثيرين» .

تبدو هذه العبارة الحذرة التي دونها كاتب السيرة مفهومة تماماً . فقد عارض المبشرون الألمان التجديد الذي أدخله الأخوان ، واتهموا **قسطنطين وميثوديوس** بالهرطقة . كما أصروا على وجود ثلاث لغات فقط ، «جديرة بتمجيد الله كتابة» ، هي : اللاتينية ، والإغريقية ، والعبرية .

لكنَّ **قسطنطين** لم يدع مجالاً للخوف ليتسرب إلى نفسه . تفوق على خصومه بعلمه . وأوضح لهم بانهم هم أنفسهم وقعوا ضحية للهرطقة «البيلاطسية» ، «لأن بيلاطس كتب على صليب الرب بهذه اللغات الثلاث» . وكان يقول : «ألا يهطل المطر من لدن الرب على الجميع بالتساوي ؟ ألا تشرق الشمس على الجميع بالأسلوب ذاته ؟ ألانتنفس جميعاً الهواء ذاته ؟ ألا تخجلون إذن من الإعتراف بثلاث لغات فقط ، وتأمرون الشعوب واللغات الأخرى أن يكونوا صماً وبكماً ؟ أخبروني ، أتظنون أنَ الله ضعيف وغير قادر ، أم أنه غيور ولايريد ؟ فنحن نعرف شعوباً كثيرة ، يعرفون الكتاب ، ويمجدون الله ، كل «بلغته» (سيرة حياة قسطنطين) .

للأسف ، ظهرت إلى جانب معارضة المبشرين الألمان ، عقبة أخرى ، حدَّتْ من نشاط الأخوين ، فالأمير روستيسلاف بكل ماأبداه من تعاطف معهما في البداية ، رفض الآن دعمهما .

حدثت تغيرات كثيرة في **مورافيا** خلال الأعوام الثلاثة التي أمضاها الأخوان هناك . فقد هُزِمَ روستيسلاف على يد لودفيك الألماني ، واضطر لإعلان الولاء له . وهذا ماعزز مواقع رجال الدين الفرنكونيين الذين مارسوا نشاطهم في البلاد . وعجز روستيسلاف عن الدفاع عن الأخوين ، بعد أن تهدده الخطر من جهتين : من الفرنكونيين ، ومن سلافومير الذي تزعم المعارضة الوثنية المعادية للألمان . فأضحى عمل الأخوين التبشيري في **مورافيا** مستحيلاً من الناحية العملية .

أكان لهما أن يعودا إلى القسطنطينية ؟ كانا بكل تأكيد على علم بالخلاف القائم بين البابا والبطريرك فوسيوس . ولم يكن ليخفى على مبشرين من أمثال **قسطنطين وميثوديوس** مكان وجود السلطة الفعلية في الكنيسة . كما ان عمل مثيوديوس كحاكم «للإمارة السلافية» في حينه لم يذهب سدى . إذ أنه لم ينس بان السواحل الغربية للبلقان دخلت في إطار

«المقاطعة الكنسية الإيليرية» التابعة للبابا مباشرة . تأسست في سيرميوم أسقفية في حينه ، وقد سحقها الخان الأفاري عام ٥٨٢ . ثم إستولى **قسطنطين** الخامس على المقاطعة الإيليرية وألحقها ببطريركية القسطنطينية . لكنَّ البابا رفض الموافقة على هذا الإجراء ، واعتبر أنَّ **روما** لاتزال تملك الحق في تلك المناطق . ولذلك ، كان للبابا وحده الحق في إتخاذ القرار وتحديد مَنْ الذي سيمارس العمل التبشيري هناك ، وبأي أسلوب .

توجه **قسطنطين وميثوديوس** إلى روما ، مصطحبين معهما لفيفاً من تلامذتهما . وفي الطريق توقف الجميع في بانونيا ، حيث وُجدت دويلة سلافية صغيرة ، حكمها كوتسيل إبن بريبينا الذي طُرِدَ في حينه من نيترا . استقبل كوتسيل جماعة المبشرين بحفاوة وتكريم غير معهودين ، فقرروا البقاء في بانونيا لمدة نصف عام . يبدو وكأن ما أُنجز هنا خلال نصف سنة «تجاوز ما أُنجز في **مورافيا** الكبرى خلال ثلاثة أعوام . أضحى كوتسيل من الأنصار المتحمسين لليتورجيا السلافية» (سبوافينسكي) .

كانت البندقية المحطة التالية للأخوين وتلامذتهما . وماأن توقفوا هناك ، حتى هاجمهم رجال الإكليروس المحلي بتهمة الهرطقة . تجدر الإشارة إلى أنَّ البندقية كانت خاضعة رسمياً ـ ولو أنه شكلياً ـ **لبيزنطة** ، ولم يكن فيها أثر للنفوذ الألماني . ولذلك فإن العداء الذي ووجهت به تجربة الأخوين السولونيين ، تثبت أن الإغريق رفضوا كالألمان إدخال اللغة السلافية في الليتورجيا . وقد لعب العامل السياسي الدور الحاسم هنا وهناك ، إذ خشي الجانبان إستقلال المسيحية السلافية .

لكنَّ البابا نظر إلى هذه **القضية** بمنظار مختلف .

اسْتُدعِيَ الأخوان من البندقية إلى روما . طالب مايكل الأول بأن يأتيا إليه . ولكن عندما وصلا إلى **روما** (كانون الأول ٨٦٧) ، كان هدريان الثاني قد جلس على العرش البابوي . بينما كان الأخوان منهمكين في نشر المسيحية في **مورافيا** وبانونيا ، تعرضت أوروبا لتغيرات جذرية .

عمم البطريرك فوسيوس (الذي لم يعترف به البابا حتى ذلك الحين) عام ٨٦٧ منشوراً على أساقفة الشرق . تضمن المنشور مجموعة هائلة من الملاحظات والمآخذ التي واجه بها الشرق الإغريقي **روما** منذ قرون . وعبَّر عن الإستياء من صيام المسيحين في الغرب أيام السبت ، وإدانتهم للكهنة المتزوجين ، وإضافتهم لفظة «Filioque» إلى قانون الإيمان ، وكذلك (أوربما في المقام الأول) من محاولة البابا فرض سلطته على الكنيسة كلها . تبنى المجمع الكنسي الذي انعقد تلبية لدعوة فوسيوس جميع هذه المآخذ ، ولعن البابا . وأرسل وفداً إلى إمبراطور الغرب يناشده بمقاطعة البابا ، ويعبر عن إستعداد الشرق للإعتراف بلقبه الإمبراطوري لقاء ذلك .

توفي **مايكل** الأول في مثل هذه اللحظة الحرجة ، وهو مقتنع بدون أدنى شك بالإنقسام النهائي للمسيحية . لكنَّ تغيرات جديدة حدثت في القسطنطينية بسرعة البرق . بحث **ميخائيل** «السكير» لنفسه عن مستشار جديد ، فقام **باسيليوس** الذي أقلقه الأمر ، بقتل الإمبراطور ، كان الإمبراطور موضع كراهية عامة ، بحيث لم يواجه قاتله أية صعوبات عندما أراد الإستيلاء على التاج لنفسه .

أعلن **باسيليوس** (الذي إرتكب جريمة القتل مرتين) بحماس غير معهود أنه من أنصار الأرثوذكسية والوحدة الكنسية . وبينما كان مايكل الأول ينازع ، عُزلَ فوسيوس من منصبه البطريركي ، وأعيد أغناطيوس إلى هذا المنصب .

نقرأ في سيرة حياة **قسطنطين** : « وبعد أن دخل **قسطنطين** روما ، خرج البابا هدريان شخصياً للقائه ، يرافقه سكان المدينة وهم يحملون الشموع ، حيث حمل معه رفاة القديس كليمنس الشهيد ، بابا **روما** القديم . . . استلم منه المخطوطات السلافية ، قَدَّسها ووضعها في كنيسة العذراء مريم المعروفة بإسم Fante[1] ورُتِّلَتْ فوقها الليتورجيا المقدسة . ثم أوعز البابا للأسقفين فورموزيوس وغوندريخوف بسيامة التلامذة السلافيين . وبعد سيامتهم أقاموا القداس حالاً في كنيسة القديس بطرس باللغة السلافية ، وفي اليوم التالي في كنيسة القديسة بيترونيلا ، وفي اليوم الثالث في كنيسة القديس أندري ، وأخيراً في كنيسة معلم العالم العظيم ـ القديس بولس ـ حيث رتلوا طيلة الليل لمجد الرب » .

نظرت **روما** بمنظار خاص لعمل الأخوين من تسالونيكي . فمن منظور لاتيران لوحظ بوضوح أنه بين الإمبراطوريتين الجرمانية والإغريقية (أوكما يقول البابا **يوحنا** الثالث والعشرون ، في منتصف الطريق بين **روما** والقسطنطينية) يتسع مدُّ البحر السلافي . والبحر في نظر الملاح صلة وصل ، وليس فاصلاً . فمنذ أن أصبح فوسيوس معبراً عن مطالب الكنيسة الشرقية ، أضحت إقامة صلة جديدة مع الشرق ضرورة ، صلة خالية من الأحقاد ومحافظة على ثراء التنوع والتلون القومي . فاللاتينية لم تصبح لغة الليتورجيا إلا في القرن الثالث واعترفت الكنيسة بلغات أخرى كالإغريقية ، والسورية (السريانية) ، والقبطية ، والأرمنية ، والأثيوبية ، والجرمانية إلى حد ما . ولم يكن لديها من الأسباب مايدعو لرفض السلافية .

كانت الدوافع السياسية الصرفة مابرر محاولة هدم إنجازات قسطنطين . يقول **كونغ** في هذا الصدد : «ليست الكنيسة بحاجة إلى الوحدة الخارجية فقط ، الوحدة الشكلية الصرفة التي تتحقق عن طريق استخدام لغة موحدة في الليتورجيا . لأن وحدتها روحية ، وحدة الإله الواحد ، والروح الواحد ، والمعمودية الواحدة ، والأوخارستيا الواحدة ، والمحبة والأمل

---

(١) حالياً كنيسة العذراء الكبيرة التي حفظت فيها بقايا مهد بيت لحم (بالإغريقية Fante) .

الوحيدين ، والسلطة العليا الواحدة . والمقصود هي الوحدة في التنوع : كنيسة واحدة بلغات متعددة ـ وهذه معجزة العنصرة» .

لم تدم فرحة **قسطنطين** بإنتصار مساعيه طويلاً . تعرض لمرض عضال ، وجد خلاله مايكفي من الوقت لدخول الدير ، متخذاً لنفسه إسم كيرلس ، وتوفي في مطلع عام ٨٦٩ . كتب عنه **يوحنا** الثالث والعشرين قائلاً : «ولّما أنهى حياته في روما ، وله من الفضائل مايفوق عدد السنين ، أقيم قداس إحتفالي ، ودفن في كنيسة القديس كليمنس» .

نقرأ في سيرة حياته أيضاً أنَّه صلَّى قائلاً : «احم قطيعك الأمين الذي أوكلت إليَّ رعايته ، وأنا العبد الذي لايستحق ذلك . . . نجه من شر الكفر الوثني . . . اسحق هرطقة اللغات الثلاث ، وعضد كنيستك بأفواج جديدة من المؤمنين ، واجمعهم تحت راية الوحدة» .

كما خاطب شقيقه **ميثوديوس** الذي استقرَّ في **روما** بعد أن سيم كاهناً : «كنا ياأخي معاً كزوج مشدود إلى المحراث ، نشقُّ خطاً واحداً ، والآن أسقط أمام السياج وقد قضيت أيامي . أما أنت ، فمولع بالجبل (الأولمب) ، لاتهمل تعاليمنا من أجل ذلك الجبل

لم يكد **قسطنطين** أن يفارق الحياة ، حتى جاء إلى **روما** مبعوثو كوتسيل يطلبون إلى البابا أن يرسل إليهم **ميثوديوس** . أجاب البابا كوتسيل قائلاً : «ليس لك وحدك ، وإنما إلى جميع البلاد السلافية أرسله معلماً . . . حافظوا على هذه التقاليد ، واقرأوا أثناء القداس الرسالة والإنجيل باللاتينية أولاً ، ومن ثمَّ بالسلافية ، لتتحقق النبوة التي وردت في الكتاب ، أنَّ جميع الأمم ستمجد الرب ، وأنَّ الجميع سيعلنون أعمال الله العظيمة بمختلف اللغات» .

ـ القديس ميثوديوس

لم يكن أكبر الأخوين من هواة الكتب ، كما أنه لم يكن فيلسوفاً أو جدلياً ؛ كان رجلاً عملياً ، صاحب إرادة قوية لاتعرف معنى التردد . قام حتى ذلك الحين بخدمة أخيه الأصغر في كل شيء . ولانعرف ماهي الأسباب التي شدته إلى حياة الدير بذلك القدر . تخفي حياة الناس ألغازاً سيكولوجية ، ويصادف أحياناً أنَّ الذين يعتقدون بانهم قادرون على إكتشاف الله من خلال التأمل ـ مثلما اعتقد **غريغوري** الكبير في حينه ـ يجدونه فيما بعد ، في الأعمال البطولية ، والعمل المضني والبطيء ، وسط المعيقات والمضاعب ، وفي غياب الهدوء والراحة .

جاء **ميثوديوس** إلى موسابورغ عاصمة إمارة كوتسيل ، لكنَّ نشاطه ـ كما إتضَّحَ من رسالة البابا ـ لم يكن مقتصراً على بانونيا . فقد أجرى في الحال إتصالات مع روستيسلاف في فيليهراد ، ومع شفينتوبيلك في نيترا .إعتمد على هيبة البابا الذي أوكل إليه المنطقة السلافية برمتها ، كما تحصَّن بتأكيدات البابا على أن الليتورجيا باللغة السلافية ليست

هرطقة ، وإنما امتيازاً يتوجب استغلاله حيثما يسفر عن نتائج إيجابية . لم يفرض قرار البابا اللغة السلافية في الليتورجيا ، كما انه لم يلغ دور المبشرين الذين باشروا نشاطهم هناك من قبل باللغتين اللاتينية والإغريقية . وأضحت السلافية لساناً مسموحاً بإستخدامه في الليتورجيا . اعتمدت النصوص التي ترجمها الأخوان على الطقس الروماني ، بإستثناء كتيب الصلاة المستمد من الطقس البيزنطي .

بعد وصول **ميثوديوس** إلى بانونيا بفترة وجيزة ، أرسله كوتسيل إلى **روما** ثانية «برفقة عشرين رجلٍ من أسرٍ ذات شأن ، ليرسمه البابا أسقفاً لبانونيا في عاصمة القديس أندرونيك» .

أشرنا سابقاً إلى أنَّ الهدف كان إعادة أبرشية **سرميوم** القديمة التابعة للمقاطعة الإيليرية . اعْتُقِدَ أنَّ مؤسسها كان القديس أندرونيك من تلامذة **يسوع** السبعين . وكان لإستعادة هذه الأبرشية التابعة **لروما** مباشرة ، أن تلغي المطالب التي تقدم بها في حينه الأساقفة البافاريون إلى **شارل** الكبير ، والتي لم يقرَّها البابا أبداً ، لبسط نفوذهم على الأرض السلافية .

لابدَّ وأن القضية خضعت لدراسة معمقة وتمَّ الإعداد لها مسبقاً في روما . لأن هدريان الثاني ، شأنه شأن مايكل الأول ، لم يكن من أنصار التنازل أمام الإستبداد الألماني . وكان كلاهما من المؤيدين لبناء مسيحية سلافية مستقلة غير تابعة لأية من الإمبراطوريتين . ربما تمَّ انتظار طلب رسمي من الزعماء السلافيين . سيم **ميثوديوس** أسقفاً ، وتمَّ تعيينه رئيساً لأساقفة بانونيا ، ونائباً بابوياً في مجموعة الدول السلافية ، وذلك عام ٨٧٠ .

يبدو وكأن إختيار اللحظة كان ملائماً تماماً ، فقد انشغل لودفيك الألماني بصراعه مع أبنائه ، وبالحرب مع السلافيين في وادي نهر لابا ، بالإضافة إلى ماعاناه من مرضه ، بحيث انه كان عاجزاً ـ كما أمل البابا ـ عن إفشال المخططات البابوية . تحرر روستيسلاف مجدداً عام ٨٦٨ ، كما شعر كوتسيل أيضاً بعدم تبعيته للسلطة الفرنكونية .

اتضح فيما بعد أنَ كل هذا لم يكن سوى آمال واهية . وقد ورد ذكر ذلك بعبارات رمزية في سيرة **ميثوديوس** « أثار العدو القديم ، عدو الحقيقة ، ضده (أي ضد **ميثوديوس**) ملك **مورافيا** (إشارة واضحة إلى لودفيك) ومعه جميع الأساقفة » . مارس لودفيك نشاطه بسرعة البرق ، فاتصل عن طريق رجاله مع **شفينتو بيلك** وعرض عليه العرش المورافي لقاء إعلان الولاء لألمانيا . وتمكن الألمان بنتيجة خيانة شفينتو بيلك من إلقاء القبض غدراً على روستيسلاف ، وبعد مثوله امام محكمة البافاريين (حيث عومل كتابع بافاري متمرد ، حُكم عليه بسمل العينين والسجن في الدير (عام ٨٧٠) .

بعد عودة **ميثوديوس** إلى **بانونيا** ، تلقى أمراً بالمثول أمام مجمع الأساقفة البافاريين في **راتيزبونا** ، حيث حضر لودفيك شخصياً مداولات المجمع . كانت التهم الموجهة إلى

ميثوديوس واضحة . وقد ورد في سيرة حياته انه سئل « أنت تعلم في منطقتنا !» وأجاب : « لو عرفت أنها منطقتكم ، لما وطئتها قدمي ، إنه ميراث القديس بطرس . وفي واقع الأمر ، يدفعكم جشعكم وغروركم للخروج إلى أبعد من الحدود القديمة ، بما يتعارض والقانون الكنسي » .

كانت حجج **ميثوديوس** قوية . لأنَّ حقَّ ممارسة النشاط في المناطق السلافية ، إغتصبه الأساقفة البافاريون بصورة غير شرعية . ولذلك استشاطوا غيظاً من جواب **ميثوديوس** . وحكم عليه مجلس الأساقفة بالسجن عام ٨٧١ .

تزامنت محاكمة رئيس الأساقفة السلافيين في راتيزبونا مع إنفجار إنتفاضة مناهضة للألمان في **مورافيا** . أُوكلت قيادة الجيش المكلف بإخمادها إلى شفينتو بيلك . لكن شفينتوبيلك الذي خان روستيسلاف قبل حين ، خان الألمان في هذه المرة ، ووقف إلى جانب الثوار . وتعرض البافاريون الذين وقعوا في المصيدة لهزيمة كبرى . وقد ذكرت الحوليات الفولدينية لعام ٨٧١ انه « قلَّما بقيت في بافاريا ، وكارينتيا ، ورراكوزا ، أسرة واحدة لم تبكِ أبناءها » . واضطر لودفيك مرغماً للإعتراف بإستقلال **مورافيا** الكبرى عام ٨٧٤ .

نقرأ في سيرة حياة **ميثوديوس** : «بلغت أنباء ماحدث في راتيزبونا ، وما مارسه الأساقفة البافاريون من أساليب وحشية مع **ميثوديوس** ، مسامع البابا الذي ألقى عليهم الحرم الكنسي .

توفي البابا هدريان الثاني عام ٨٧٢ . وقام خلفه **يوحنا** الثامن بالإحتجاج بقوة على تصرفات رئيس أساقفة سالزبورغ المدعو **آدلوين** ، **وهيرمانريك** أسقف **باسافا** ؛ **وأنون** أسقف **فريزيا** . خاطب آدلوين قائلاً : « نعتقد أنَّ سيل دموع **إرميا النبي** وحده قد يكون كافياً لبكاء آثامك . يفوق تعنتك صرامة ووحشية كل مستبد . كيف لك أن تعذب آخانا **ميثوديوس** في جحيم السجن ، وتضطهده بتعريضه في العراء للبرد القارس ولهيب الشمس ، وتمنعه من قيادة الكنيسة الموكلة إليه ؛ ثم تذهب في جنونك إلى أبعد من ذلك ، فتصدر أوامرك بإرغامه على المثول أمام محكمة الأساقفة ، وتحاول جلده بالسوط لو لم يمنعك الآخرون من ذلك . أهذه ـ بالله عليك ـ أعمال تليق بأسقف ، يحيل مقامه الرفيع الجنحة إلى جريمة» ؟ كما كتب إلى أنون : «تعنتك . . . يتجاوز حدود السماء . . . حاكمت . . . أخاك **ميثوديوس** القائم بمهمة تبشيرية في أوساط الوثنيين بتكليف من العاصمة الرسولية . . . أصدرت بحقه حكماً زائفاً وألقيت به في السجن ، ومنعته من تأدية خدمة إليهة . وعلاوة على ذلك . . . لم تومئ أثناء وجودك في **روما** إلى إضطهاد وسجن أخيك الأسقف ، بل ادعيت ـ لدى السؤال عنه ـ كذباً بأنك تجهل مصيره ، علماً أنك كنت المحرض على جميع ماتعرض له من عذابات » .

لكنَّ الرسائل والتوبيخ الموجه إلى آدلوين وهيرمانريك لم تُجْد نفعاً . فخاطب **يوحنا** الثامن الملك لودفيك مؤكداً أنَّ : « غزوات البرابرة ، وكذلك الحروب ، ليست قادرة على

حرمان البابا من حقه في الكنيسة » . إلتزم الملك الصمت الدبلوماسي . وفي نهاية المطاف أرسل البابا أسقف أنكونا بولس كنائب بابوي إلى جرمانيا وبانونيا ، حيث تمكن بعد محاولات ومساومات كثيرة إنتشال **ميثوديوس** من السجن عام ٨٧٣ .

لم يتحقق هذا الشيء إلا بنتيجة تقديم بعض التنازلات . فقد أُطلق سراح **ميثوديوس** وسُمح له بالعودة إلى **مورافيا** لمتابعة نشاطه ، لكنه مُنع من إقامة القداس باللغة السلافية . سُمح له فقط بالتعليم باللغة السلافية .

أكان هذا حظراً قطعياً ونهائياً ؟

إن رسالة البابا الموجهة إلى **ميثوديوس** عام ٨٧٣ مفقودة . لكن رسالة **يوحنا** الثامن المدونة في الرابع عشر من حزيران عام ٨٧٩ تشير بوضوح إلى عكس ذلك « منعناك شخصياً من إقامة القداس بهذه اللغة ، أمامك اللاتينية أو الإغريقية » .

لكنَّ **ميثوديوس** الذي لم يكن ليتخلف عن المبشرين الأنجلوسكسونيين في «رومانيته» ، أدرك بأن الحظر ليس كلياً ، وبعد عودته إلى **مورافيا** استمرَّ في إقامة القداس باللغة السلافية .

الأمر الملفت للنظر هو ان **ميثوديوس** لم يعد بعد إطلاق سراحه من السجن إلى بانونيا ، بل توجه إلى فيليهراد عاصمة **مورافيا** الكبرى ، حيث أضحت مركز نشاطه .

واجه **ميثوديوس** في **مورافيا** المصاعب ذاتها . فهنا أيضاً وجد عدداً من البعثات التبشيرية الألمانية المعادية لاستخدام اللغةالسلافية في الليتورجيا . وقد تعاطف معها شفينتو بيلك ـ الذي بالرغم من إستقلاله السياسي عن الألمان ـ لم يدرك الخطر الذي كانت تشكله على دولته التبعية للكنيسة الألمانية .

تآمر رجال الدين الألمان الواثقين من حماية الأمير لهم على **ميثوديوس** ـ المتروبوليت العائد إلى وظيفته . ومرة أخرى نقرأ في سيرة حياته . « أثار العدو القديم البعض ضده (ضد مثيوديوس) إنطلاقاً من كراهيتهم للجنس البشري . . . البعض علناً والبعض الآخر سراً ، وقام المرضى بهرطقة أنصار إضافة عبارة «والابن» (التي نشرتها الكنائس الفرنكونية بإصرار ، بالرغم من تأكيد العاصمة الرسولية على عدم استخدامها آنياً ، ولو أنها صحيحة من الناحية اللاهوتية ؛ ولم يستخدم **ميثوديوس** ورجال الدين التابعين له عبارة «والإبن») بإستقطاب ضعفاء الإيمان نحوهم» كما تمَّ تداول رسائل مزيفة ، زُعم أنها مرسلة من قبل البابا ، ادعت أن **ميثوديوس** عُزل من منصبه . وتكررت الشكاوى والإتهامات ، لابل محاولات مهاجمة المتروبوليت الذي تجول في أرجاءالبلاد . وقد تزعم هذه الحملة قس ألماني يدعى **فيخينغ** ورجل آخر يدعى **يوحنا** من البندقية . وحمَّل شفينتو بيلك الأخير رسالة إلى البابا كانت بمثابة إتهام **لميثوديوس** .

استدعى البابا **يوحنا الثامن** **ميثوديوس** ، واتجه المتروبوليت عام ٨٧٩ إلى **روما** برفقة فيخينغ .

لم يكتف **ميثوديوس** في **روما** بتفنيد كل التهم الموجهة إليه ، بل أقنع البابا بضرورة الحفاظ على اللغة السلافية في الليتورجيا المورافية . كان لودفيك الألماني قد توفي ، ووزعت تركته على أبنائه . خفَّت وطأة الضغط الألماني على **مورافيا** مرحلياً ، فتمكن البابا دون إحتمال التعرض لصدام مع الملك الألماني ، أن يبعث عام ٨٨٠ بمرسوم بابوي إلى شفينتو بيلك ، سمح بموجبه بإستخدام اللغة السلافية في القداس ، مطالباً فقط بقراءة الإنجيل باللاتينية أولاً ومن ثم بالسلافية ، كما أوصى بإقامة القداس باللاتينية للأمير وحاشيته (إن رغب في ذلك) .

ترافق النصر الذي أحرزه **ميثوديوس** ببعض التنازلات أيضاً . إذ عيَّن البابا مساعدين **لميثوديوس** ، أحدهما هو فيخينغ نفسه الذي سيم في روما ، وتحددت نيترا مقراً له . يرجح أن تكون نتيرا آنذاك أكبر مركز لمقاومة الليتورجيا السلافية ، ولاشكَّ بأن السبب في ذلك يعود إلى اعتناق المنطقة المسيحية على أيدي المبشرين الغربيين منذ أمد بعيد . فأصبح فيخينغ وكأنه «أسقف الأقلية» .

بدأ فيخينغ حال عودته إلى البلاد بالتآمر على **ميثوديوس** ، مدعياً أنه حصل من البابا على رسالة سرية تجعله «رئيساً» لرئيس الأساقفة . إستأنف **ميثوديوس** الموضوع إلى روما ، فجاء الرد حاسماً ، مع التأكيد على عدم صدور أية رسائل سرية عن البابا ، وعلى ضرورة خضوع أسقف نيترا لأسقف فيليهراد .

تضمن المرسوم البابوي الصادر عام ٨٨٠ معنى إضافياً . فبتأسيس كنيسة مستقلة في **مورافيا** الكبرى ، وإخضاع الأقلية اللاتينة ـ الألمانية لرئيس أساقفتها ، حرر دولة شفينتوبيلك كلياً من كل طغيان إمبراطورية أحفاد **شارل** ، وبسط عليها حماية روما . هذه هي الحالة الأولى من الناحية العملية التي تبسط فيها العاصمة الرسولية حمايتها على دولة مسيحية ناشئة مناهضة لسياسة السيادة الألمانية . سوف تتكرر هذه الممارسة لفترة زمنية قصيرة في العلاقة مع بولونيا ، وهنغاريا ، وتشيكوسلوفاكية .

سادت في **مورافيا** فترة من الهدوء بالرغم من تحرشات فيخينغ ، سمحت **لميثوديوس** بتركيز إهتمامه على النشاط التبشيري . فتوجه في المقام الأول نحو البلاد الداخلة في بنية **مورافيا** الكبرى والتي لم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد .

تشير الدلائل إلى أنَّ **ميثوديوس** عمَّد بنفسه **بوجيفوي** زعيم **التشيك** .

تكونت بلاد التشيك من تجمع إمارات قبلية ، هي : **البشيمشلية** ، **والسلافونية** ، والغير شوفية . وفي نهاية المطاف ، تزعمهم ممثلو البشيمشليين من براغ . وقعت بلاد التشيك

عل مقربة من حدود فرنكونيا الشرقية ، وتعرضت للضغوط والغزوات الألمانية المستمرة . حيث شنَّ **شارل** الكبير في حينه حملات على هذه البلاد ، ومن بعده **لودفيغ** التقي ، ومن ثم **لودفيغ** الألماني . وفي عام ٤٨٥ أُرغم أربعة عش رمن أصحاب النفوذ التشيك على الخضوع لطقوس المعمودية . لكنَّ هذا لم يؤثر عملياً على ما تبقى من سكان البلاد الذين ظلُّوا على وثنيتهم . وما أن توفي **لودفيغ** الألماني ، وتراجعت حدة الضغوط التي مورست بعض الشيء ، انضمت بلاد التشيك إلى الفيدرالية المورافية . وَيُفْتَرَضُ أن يكون هذا الشيء قد ترافق بإعتناق المسيحية .

إضافة إلى ذلك ، نقرأ في سيرة حياة **ميثوديوس** : « لمَّا جاء الملك **المجري** إلى المناطق الواقعة على نهر الدانوب ، رغب (**ميثوديوس**) في رؤيته . وعلى الرغم من أنَّ الكثيرين إعتقدوا بأنه لن يفلت من قبضته ، توجه إليه دون تردد . أما الملك ، وكما يليق بالحاكم ، فقد إستقبله بحفاوة ، وبعد التحدث إليه . . . تركه حراً ، بعد أن غمره بعطفه وأغدق عليه العطايا » .

زحف **المجريون** عبر ترانسيلفانيا نحو الأعلى . وتحاشى شفينتوبيلك الصدام معهم . فبدأ القادمون من الشرق ، شأنهم شأن البلغار يتطبعون بالطابع السلافي . وراحوا ينخرطون في صفوف المسيحيين بفضل حملة **ميثوديوس** . لكنَّ هذه العملية توقفت بسبب التآمر من جانب البيزنطيين أولاً ، حيث دفعوا المجريين للصدام مع البلغار ؛ ومن جانب الألمان ثانياً ، حيث دفعوهم لغزو **مورافيا** الكبرى . وفي كلتا الحالتين انقلب جنون النزعة الحربية **المجرية** على مَنْ حرضهم على الحرب .

لَّما تراجعت بعض الشيء حدة الحرب التي شنها رجال الدين بقيادة فيخينغ ضد **ميثوديوس** ، وُجّهَتْ التهم من الجانب الثاني بغتة . فقد حاول **ميثوديوس** إنطلاقاً من المهمة الموكلة إليه كنائب بابوي ، الإشراف على أمور الكنيسة في **بلغاريا** وصربيا ، الأمر الذي أثار حفيظة القسطنطينية . فاستدعي المتروبوليت للمثول أمام الإمبراطور والملك بهدف تبرير سلوكه عام ٨٨١ .

نذكر أن **باسيليوس** بعد إستيلائه على السلطة عام ٨٦٧ ، عزل البطريرك فوسيوس من منصبه . وبناء على دعوة الإمبراطور ، قدم المبعوثون البابويون إلى القسطنطينية لمعالجة الوضع الناجم عن الإنشقاق .

بدأت أعمال مجمع القسطنطينية الرابع في خريف عام ٨٦٩ بقيادة البطريرك أغناطيوس الذي أعيد إلى منصبه ، والنواب البابويين . ويُعَدُّ هذا المجمع بمثابة المجمع الكنسي المسكوني الثامن ، وهو المجمع الكنسي الأخير الذي انعقد في الشرق ، وهو كذلك الأخير الذي شارك في أعماله ممثلو شطري الامبراطورية الرومانية السابقة .

طلب المجمع الى فوسيوس استعراض دفاعه عن نفسه . لكنَّ البطريرك التزم الصمت الدال على الاحتقار . فأدين ، والقي عليه الحرم الكنسي .

أقرَّ المجمع بالإضافة الى ذلك سبعة وعشرين قانوناً فيما يخص الإنضباط الكنيسي . لم يتجاوز عدد الأساقفة الذين شاركوا في أعمال المجمع العشرين في بادىء الأمر ، لكنَّه بلغ الثلاثمائة في نهاية المطاف ـ في شباط ٨٧٠ ـ . شارك في الجلسات الأولى ممثل الامبراطور أولاً ، ومن ثم الامبراطور شخصياً . كما حضر عدد من المراقبين يمثلون امبراطور الغرب ، وكذلك بوريس ملك البلغار .

بحث **باسيليوس** ـ رغبة منه في المصالحة مع **روما** ـ عن اعادة السلام في الامبراطورية أكثر من بحثه عن الوحدة الحقيقية في الكنيسة . فهو لم يكن راغباً في اخضاع الكنيسة البيزنطية لسلطة **روما** فعلياً . ولم يكن اغناطيوس «وطنياً اغريقياً» بقدر أقل مما كان عليه فوسيوس . أما فيما يتعلق بالنزاع حول النفوذ على الكنيسة البلغارية ـ الأمر الذي سنتحدث عنه بعد قليل ـ اضطر البابا **يوحنا** الثامن لتهديد اغناطيوس بالحرم الكنسي ، بالرغم من أنه كان يدافع عنه قبل فترة وجيزة . وقد انقذ الموت البطريرك اغناطيوس من التعرض لهذا الخطر عام ٨٧٧ .

كان فوسيوس منفياً في دير سكيبا بينما تربع اغناطيوس على العرش البطريركي ، لكنَّه لم يتوقف عن السعي من أجل كسب عطف الامبراطور . ولم يصم **باسيليوس** أذنيه إزاء هذه المساعي . وحدث في عام ٨٧٥ أن أشرف فوسيوس على تعليم ابن الامبراطور . وما أن توفي أغناطيوس ، حتى بادر الامبراطور لتعيين فوسيوس خلفاً له .

لم يعترض البابا في هذه المرة على التعيين ، حيث تميزت سياسية **يوحنا** الثامن بالرغبة في إعادة العلاقات الحسنة مع **بيزنطة** . فأمام الفوضى التي سادت في الامبراطورية الغربية ، بدت الامبراطورية الشرقية السند الوحيد لسيادة النظام والاستقرار في العالم المسيحي . سعى **يوحنا** الثامن جاهداً لإبعاد التيار الالماني لخلفاء **شارل** عن العرش الامبراطوري ، حيث أدرك أن السياسية الألمانية تعمق الإنشقاق في شرق أوروبا بدلاً من الوحدة . وكان لابد من الغاء «مناطق النفوذ» وفتح طريق مباشرة بين العالم السلافي وروما ، لإدخال الشعوب السلافية في الحظيرة المسيحية .

كانت العلاقات الحسنة مع الامبراطورية الشرقية ضرورية من منطلق آخر هو أمن شبه الجزيرة الأبينينية . فقد ظلَّت ايطاليا مهددة بالغزوات الإسلامية ، وكان الاسطول البيزنطي وحده كفيلاً بحماية سواحلها .

أخذ **يوحنا** الثامن كافة هذه الأمور بعين الاعتبار ، وغضَّ الطرف عن اختيار فوسيوس لمنصب البطريرك . وقرر تناسي الحرم الكنسي والاتهامات المتبادلة بينه وبين فوسيوس من أجل

استعادة الوحدة الكنسية ، مطالباً فقط بتنفيذ شرطين هما : عدم تولي رجل علماني العرش البطريركي مستقبلاً ، وخضوع الكنيسة البلغارية لسلطة روما . لم يكن الهدف من الشرط الأخير مجرد فرض هيبة روما ، لأن **بلغاريا** أضحت دولة سلافية عظيمة . وبحماية الشعوب السلافية من المطالب الألمانية ، أراد البابا في الآن ذاته حمايتها من الاستبداد البيزنطي . فكان **لبلغاريا** و**مورافيا** الكبرى أن تصبحا منطقتا نفوذ بابوي مباشر .

تمَّ انعقاد مجمع كنسي في القسطنطينية عام ٨٧٩ بعد موافقة البابا على ذلك . شارك في أعماله مبعوثو البابا . وكانت رسالة البابا التي تليت في المجمع بمثابة اعتراف بالبطريرك الجديد . وعلى الرغم من أنَّ الشروط التي وضعها البابا رفضت من قبل المجمع ، حيث أنه لم يقبل بقاعدة عدم تعيين علمانيين في منصب البطريرك ، كما أعلن فيما يخص القضية البلغارية ، بأن الأمر متروك للقادة البلغار ، لم يعترض المبعوثون البابويون على ذلك . نوقش في الاجتماع الأخير موضوع إضافة كلمة «والابن» . والحقيقة أننا لانعرف مالذي اقرّه المجمع بهذا الخصوص ، فوثائق المجمع المعروفة حاليا تشير إلى رفض إضافة هذه الكلمة وإدانتها على أنها هرطقة . ولو أنَّ هذا الشيء حدث فعلاً ، لاحتج مبعوثو البابا ، بينما نعرف انهم وافقوا على مقررات المجمع . يرجح إذن أن يكون الإتفاق قد تمَّ على عدم إضافة هذه العبارة إلى قانون الإيمان دون الخوض في مناقشة صحتها .

وهكذا تمت استعادة السلام الذي طال انتظاره .

في هذه الأثناء تواجد **ميثوديوس** في القسطنطينية . نقرأ في سيرة حياته : « استقبله الامبراطور بتكريم وفرح ، أثنى على تعاليمه واحتفظ بكاهن وشماس من تلامذته مع المخطوطات . كما نفذّ جميع رغباته . . . ورافقه إلى مقر اقامته برفقة البطريرك بصورة احتفالية » .

لم يرغب فوسيوس بإثارة خلافات جديدة مع روما ، وفضل **باسيليوس** رؤية علاقات مباشرة مع **مورافيا** والبابا على تبعية هذه الدولة للامبراطورية الغربية . عاد **ميثوديوس** إلى فيليهراد حيث واجه مؤمرات جديدة من جانب انصار إستخدام اللغة «اللاتنية» ، الذين ازدادت شراستهم بعد استيلاء ممثلي الألمان من أسرة **شارل** على العرش ، ممثلين باصغر ابناء لودفيك الألماني **شارل** البدين . حاول **ميثوديوس** الذي انهكته اعوام العمل الطويلة والاضطهادات ، الابتعاد عن القضايا الجارية في أسقفيته . نقرأ في سيرة حياته : « ابتعد عن الهموم ، مكرساً نفسه لخدمة الرب ، فأجلس الى جواره إثنين من تلامذته ، وهما كاهنان من ذوي المقدرة على الكتابة السريعة ، وترجم . . . . في زمن قصير . . . كافة الأسفار (أي أسفار الكتاب المقدس) .

شعر **ميثوديوس** بدنو الأجل ، فعيَّن **غورازد** خلفاً له ، وهو الرجل « الضليع بمعرفة

المخطوطات اللاتينية » . توفي في نيسان عام ٨٨٥ ، ودفن في كاتدرائية فيليهراد . ونقرأ عن الحدث في سيرة حياته « أما الناس ، فقد رافقوه الى مثواه في حشد هائل ، حاملين الشموع في أيديهم وهم يبكون المعلم والراعي الصالح . بكى الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والمرضى والأصحاء ، الرجل الذي كان بمثابة كل شيء للجميع ، ليكسب الجميع .

أقيمت صلاة التأبين على جثمان المتروبوليت الراحل باللغات «اللاتينية ، والإغريقية ، والسلافية» .

يقول سلافينسكي في هذا الصدد : « يبدو وكأنها المرة الأخيرة التي دوَّت فيها اللغات الثلاث في الكنيسة المورافية على قدم المساواة . فقد أثار موت **ميثوديوس** عاصفة اقتلعت خلال زمن قصير الليتورجيا السلافية من منطقة الدولة المورافية الكبرى . رفع سلك الاكليروس الألماني - اللاتيني شعاراته حالاً ، وهاجم بقيادة فيخينغ ورثة وأنصار افكار **ميثوديوس** ، فتعذر على غورازد الجلوس على كرسي المتروبولية » .

وقف شيفينتوبيلك في هذا الصراع إلى جانب انصار التيار «اللاتيني» بحزم .ربما خشي الألمان ، حيث سيطر على زمام الأمور أرنولف الرهيب بعد موت **شارل** البدين ، وقد شكل خطراً على السلافيين مذ كان أميراً على كارتينيا . وجد تلامذة **ميثوديوس** بقيادة كليمنس اسقف أوخيدرا اللاحق أنفسهم مضطرين للفرار واللجوء إلى **بلغاريا** . وإلى هذا المكان نقلوا الليتورجيا السلافية . أما اللذين لم يتمكنوا من الفرار في الوقت الملائم ، فقد القي القبض عليهم وبيعوا في سوق العبيد في البندقية ، ومنهم لورانيوس وناوموف . استطاع قسم منهم فقط بعد أن أعتق العودة إلى **بلغاريا** . أما مصير غورازد فمجهول تماماً .

فقدت الليتورجيا السلافية وفكرة الكنيسة السلافية المستقلة عن المؤثرات الألمانية أو البيزنطية ، مدافعاً عظيماً عنها في شخص البابا **يوحنا** الثامن الذي توفي عام ٨٨٢ . ووقف خلفه موقفاً سلبياً منها ، وحظّر استخدامها تحت طائلة الحرم الكنسي مستنداً بذلك الى قرار زعم صدوره عن **يوحنا** الثامن ، يرجح ان يكون فيخينغ قد قام بتزويره .

يقول **داوصن** في هذا الصدد :« لو انتصرت سياسة مايكل الأول وخلفائه هدريان **ويوحنا** الثامن ، لتأسست في البلقان وفي البلدان الواقعة على نهر الدانوب منطقة سلافية مسيحية جديدة ، مستقلة عن الكنائس الحكومية في الامبراطورية البيزنطية وامبراطورية **شارل** . لكنَّ هذا أضحى مستحيلاً بعد مقتل **يوحنا** الثامن وانحطاط البابوية ، ولجوء الامبراطوريتين الى سياسية القوة دون حياء . هدم الأساقفة الكارولينغيون (اساقفة أمبراطورية **شارل** الكبير) ماأنجزه كيرلس **وميثوديوس** ، بينما سحقت سياسة البزنطيين الذين لجأوا إلى مساعدة **المجريين** في صراعهم مع البلغار ، الثقافة المسيحية الناشئة في **مورافيا** وفي البلاد الواقعة على الدانوب » .

وكتم تزاحم الطموح ضد الزمن .

لكنَّ جهود **قسطنطين** و**ميثوديوس** لم تهدر كلياً بالرغم من ذلك . فقد عمم تلامذة **ميثوديوس** في نهاية المطاف المسيحية في أرجاء **بلغاريا** ، وإلى هذا المكان نقلوا الليتورجيا السلافية . وفي هذا الصدد يقول **دفورنيك** : « إنّ عمل **ميثوديوس** الذي أنجز في حدود بطريركية روما ، والذي كان له أن أصبح مركز ربط السلافيين بالعاصمة الرسولية . . . خدم الكنيسة البيزنطية ، وربط السلافيين **ببيزنطة** وليس **بروما** » .

ـ معمودية بولونيا الأولى

نعثر في سيرة حياة **ميثوديوس** على الاشارة التالية :«كانت فيه (أي في **ميثوديوس**) موهبة النبوة ، فقد تحققت تنبؤاته في مرات عديدة . . . استوطن امير وثني واسع النفوذ على ضفاف نهر فيسلا ، وسبب الكثير من الضرر والأذى للمسيحيين . فبعث إليه برسول ليقول له : « الأفضل لك يابني ان تقبل المعمودية على ارضك وبرضاك ، لئلا تُعَمَّد رغماً عنك في الأسر على أرض غريبة ، وسوف تذكرني » . وهذا ماحدث فعلاً . نفهم من هذه الاشارة وجود إمارة سلافية قوية على ضفاف فيسلا ، اعتنق فيها جزء من السكان(وهم الأقلية بالتأكيد) المسيحية ، وبقي حاكمهم وثنياً يضطهدهم .

لاشك بأن الامارة المعنية هنا هي دولة **الفيشلانيين** التي اشار إليها عدد آخر من المؤرخين ، وورد ذكرها على لسان الملك الانجليزي **إلفرد** في وصف جرمانيا ، حيث سماها فيسلاند . يتعذر تحديد حدود هذه الدولة بدقة . ويقول **غوريتسكي** في هذا الصدد : « قد تكون قبيلة الفيشلانيين أقدم من نظم هذه الدولة . ويحتمل أن تكون شخصية **كراك** الإسطورية مؤسس مدينة كراكوف عائدة إلى المراحل المبكرة . . . ويمكن الافتراض بدرجة عالية من الموثوقية انّ امير الفيشلانيين هذا ، اتخذ من مدينة فيشليتسا القديمة التي غمرتها المنافع مقراً له » .

ضمت دولة الفيشلانيين أربع مدن كبيرة هي : فيشليتسا ، كراكوف ، ساندومير ، تينيتس . وقد حكم هذه المدينة الأخيرة ممثل أسرة عريقة خاض معارك ضارية مع أمير الفيشلانيين . ومنه تنحدر اقدم سلالة من الفرسان في بولونيا .

يستشف من الإشارة المذكورة أنّ امير الفيشلانيين الذي رفض قبول المعمودية طوعاً ، أرغم على قبولها لاحقاً . «في السر وعلى أرض غريبة» .يبدو وكأنه يجب الافتراض بأنّ شفينتو بيلك اجتاح دولة الفيشلانيين حوالي عام ٨٨٠ ، وضمّها الى **مورافيا** الكبرى كما فعل من قبل بدولة البشيمشليين . ولمّا كان شفينتو بيلك قد اكتفى بفرض سيادته على

البشيمشليين ـ يحتمل انه قد طبّق ذلك على الفيشلانيين ايضاً . فبعد هزيمة أميرهم وأسره ، اعترف بسلطة **الأمير** المورافي ، وتقبل سرَّ المعمودية ، ثم عاد الى إمارته .تخبرنا رسالة الاساقفة البافاريين إلى البابا **يوحنا** التاسع حوالي عام ٩٠٠ بالصدفة ـ على هامش احتجاجهم على تأسيس متروبولية في **مورافيا** تقوم ، وإن لم يكن باللغة السلافية ، بالعمل على استمرار نشاط القديس **ميثوديوس** ـ أنّ احد أسلاف **يوحنا** التاسع (وهو **يوحنا** الثامن كما نعلم) منح الأسرار الكهنوتية بمرتبة اسقف لكاهن أبرشية باسافا ، وهو فيخينغ ، لكنه لم يرسله الى الاسقفية القديمة ، بل بعث به الى شعب حديث الهداية ، هزمه الأمير بنفسه وحاول هدايته من الوثنية إلى المسيحية» (تيودوروف ـ بالان) ونعرف من مكان آخر أنّ فيخينغ سيم أسقفاً على نيترا . لكن البروفسور سبلافينسكي محق بالتأكيد في افتراضه امكانية ارساله مرحليا في دور أسقف مبشر إلى الفيشلانيين ـ بتوصية من المتروبوليت **ميثوديوس** وبموافقة شفينتوبيلك ـ وهو في منصب اسقف نيتيرا . لأنّه لايمكن بأي حال من الأحوال اعتبار سكان نيترا شعباً هزم في الحرب حديثاً وبحاجة للهداية !

وورد في ثبت أساقفة كراكوف (الذي يعود إلى القرن الحادي عشر) أنه قبل الأسقف بوبون ،الذي ترأس أسقفية كراكوف عام ١٠٠٠ ، كان هناك اسقفان غيره هما : **بروخوريوس وبروكولفوس** . يعتقد كل من بوتكانسكي وفيدايفيتش انه يتوجب الحديث عن بروخورس (اسم اغريقي) وبروكولف (اسم جرماني) . توحي فرضية البروفسور فيدايفيتش بأن فيخينغ نظم المسيحية في بلاد الفيشلانيين ، لكنّه كعدو لدود للغة السلافية واستخدامها في الطقوس الكنسية قام بدعم اللغة اللاتينية . وأرسل فيما بعد ، و**ميثوديوس** على قيد الحياة (أي قبل عام ٨٨٥) إلى الفيشلانيين رجلاً من بين تلامذة **ميثوديوس** يحمل اسماً اغريقياً هو بروخوروس ، فأصبح الأسقف المحلي في كراكوف ، وأدخل اللغة السلافية في القداس . وبعد طرد تلامذة **ميثوديوس** من **مورافيا** حلّ محله اسقف يحمل اسماً جرمانياً هو بروكولف ، وقد الغى بلا شك الليتورجيا باللغة السلافية . وبعد فترة وجيزة اجتاح التشيك دولة الفيشلانيين وقضوا عليها قضاء مبرماً ،كما ألغيت اسقفية كراكوف التي بعثت مجدداً عام ١٠٠٠ .

هذه الفرضية مثيرة للإهتمام ويحتمل أن تكون صحيحة . لكنّ الشيء الذي يبدو مؤكداً وليس مجرد افتراض هو تعميد امير الفيشلانيين ، وذلك بعد عام ٨٨٠ حالاً . ولهذه المرحلة على وجه التقريب تعود أساسات كنيسية اكتشفت في فيشليتسا مؤخراً ، وفي داخلها جرن المعمودية(وهي شديدة الشبه بالحفريات الأركولوجية في أقدم اجزاء وارسو ، وتحت كاتدرائية **بوزنان**) . كما لاحظ البروفسور سبلافينسكي بدقة أنَ االليتورجيا السلافية إن وصلت إلى بولونيا أصلاً (ومن المحتمل أن لاتكون قد وصلت اطلاقاً ، مادام فيخينغ هو رسول المسيحية الأول) ، لم تستمر سوى فترة وجيزة لاتتجاوز أعواماً معدودة ولم تترك أثراً خلفها .

أما الجدل الذي دام أعواماً طويلة حول وجود «الطقس السلافي» أو اللاتيني في المنطقة البولونية آنذاك ، فليس له أي أساس علمي (لأن **قسطنطين وميثوديوس** لم يقوما بإدخال «الطقس السلافي» ، وكل ماقاما به هو ترجمة الليتورجيا القائمة في الطقس الروماني إلى اللغة السلافية) .

الموضوع الوحيد الذي يمكن إثارته هو : هل كانت دولة الفيشانيين في تلك المرحلة (في أواخر القرن التاسع) دولة مستقلة أرغمت على الدخول في الفيدرالية المورافية ، أم كانت منتمية الى فيدرالية أخرى مركز ثقلها دولة **البولانيين** ؟ كانت دولة الأسرة البياستية قائمة بلا ريب . يقول **غورديتسكي** في هذا الصدد : « يجب اعتبار بياست ، وجيموفيت ، وليشيك ، وجيموميشل ، شخصيات حقيقية بشكل مطلق . . . وإذا اعتبرنا أنَّ كلاً منهم حكم وسطياً ثلاثين عاماً . . . يفترض أن يبدأ عهد جيمو فيت في النصف الثاني من القرن التاسع » .

عزلت الأسرة البياستية الأسرة الحاكمة السابقة وهي اسرة البوبيلانيين . أشرنا آنفاً إلى الأمير السلافي ليخ الذي قتل وهو يحارب في صفوف المقاومين للغزو الفرنكوني لبلاد التشيك في عام ٨٠٥ . من يعلم ان لم يكن ليخ هذا هو نفسه ليخ البوبيلي مؤسس الأسرة الحاكمة ؟ ربما طمح البياستيون أيضاً لتأسيس فيدرالية سلافية على غرار المويموريين ـ ولايستبعد أن يكون أمير فيشليتسا ، قبل أن يعلن تبعيته للأمير شفينتوبيلك ، قد اعترف بسيادة أمير **غنيزنو** . وبما أننا نجد آثاراً مسيحية في إمارة فيشليتسا في مرحلة ماقبل **ميثوديوس** ، يحتمل أن تكون بعض المجموعات البشرية في منطقة بولونيا الكبرى قد اعتنقتها أيضاً . تشير جميع الدلائل إلى أن المسيحية وصلت منذ القرن التاسع إلى غنيزتو **وبوزنان** ، وتخفي الحكاية المتداولة عن ضيوف غامضين زاروا بياست يوم قص شعر ابنه ، في طياتها حقيقة المبشرين الذين وصلوا حتى كروشفيتسا .

الفصل الرابع عشر

الصراع من أجل استقلالية العاصمة الرسولية

ـ البابوات على خلاف مع خلفاء شارل

يتوجب الآن القاء نظرة استعادية .

كاد موت البابا **ليون الرابع** ـ الذي لم يكتف بتحصين باسيليقا القديس بطرس بالأسوار ، بل كان له دور في قيام الأساطيل نابولي ، وأمالفيا ، وغايتا ، بتحطيم اسطول **المسلمين** على مقربة من أوستيا ـ أن يتزامن مع موت القيصر **لوتار** عام ٨٥٥ .

قام **لوتار** بالرغم من لقب الامبراطور الفخري الذي حمله بتقسيم مقاطعته فحصل **لودفيغ** الثاني ، الذي توّج ووالده على قيد الحياة ، على ايطاليا ، وحصل **لوتار** الثاني على فريزيا ، والألزاس ، وبرغنديا ، وحصل **شارل** على **بروفانسيا** .

عرف البابا جيداً مذاق مايمكن توقعه من **لودفيغ** الثاني أثناء تواجده في ايطاليا مشاركاً والده في مهام الحكم . حيث تدخل في شؤون إدارة الدولة الكنسية ، وقامت جيوشه بنهب البلاد بصورة لاتقل قسوة عما فعله المسلمون . كما قام اثنان من رجاله بقتل المبعوث البابوي إلى القيصر **لوتار** .

بعد وفاة **ليون** الرابع ، حاول عملاء **لودفيغ** الثاني أن يرفعوا الكاهن أنستازي المحروم كنسيا ، إلى العرش البابوي . لكنّ رجال الدين في **روما** بالتعاون مع أصحاب النفوذ فيها ، فوتوا الفرصة عليهم ، بانتخابهم السريع بنديكت الثالث لمنصب البابا . رفض **لودفيغ** الإعتراف بانتخابه ، وأدخل رجال أنتستازي إلى **روما** بقوة السلاح ، حيث انتزع بنفسه قرار

الحرم المعلق على السور ، والذي أصدره في حينه مجمع روما . ثم اعتقل بنديكت وسجن . لكنّ رجال الدين وجماهير **روما** تمردوا . فاضطر مبعوثو الامبراطور نتيجة ضغط الجماهير ، للتخلي عن أنستازي والإعتراف بشرعية بنديكت .

بالرغم من تصرف القيصر ، لم يقطع البابا علاقته به . ولم يتوان في تعيين أنستازي ـ الرجل العلماني رئيساً فخرياً لدير سانت ماريا . وعلى أي حال ، توفي بنديكت عام ٨٥٨ بعد مايقارب ثلاثة أعوام من انتخابه .

ما ان بلغ نبأ وفاة بنديكت مسامع **لودفيغ** الثاني ، حتى هرع الأخير إلى **روما** ليفرض انتخاب مرشحه ، وهو مستشار البابا الراحل المدعو مايكل .

أثبت **مايكل** ـ بالرغم من دعم القيصر له ـ أنه مدافع جرىء عن حقوق البابوية . ففي بداية عهده ألقى الحرم الكنسي على **يوحنا** ، أسقف رافينا ، الذي أقدم على عدد من الأعمال غير العادلة ، علماً أنه كان يحظى برعاية **لودفيغ** ، ولم يكتف بذلك ، إذ توجه شخصياً الى رافينا وأرغم رئيس الأساقفة على التنازل أمام العاصمة الرسولية ، وتمّ هذا عام ٨٦١ .

كما اثبت مايكل أنه مدافع صلب عن الأخلاق المسيحية . فقد هجر **لوتار** الثاني زوجته تيوتبرغا وتزوج فالدرادا وحاول جاهداً الغاء زواجه الأول رسمياً ، متذرعاً تارةً بعقم تيوتبرغا ، ومرغماً إياها تارةً أخرى على الاعتراف العلني بخيانتها الزوجية له . لقيت نوايا **لوتار** دعماً من **غونتر** رئيس أساقفة كولونيا ، وتيوتغارد رئيس أساقفة ترير . فرغّبوا أساقفة **لوتار**ينفيا (أطلق هذا الأسم على الجزء الذي ورثه **لوتار** ، وظل قائماً حتى وقتنا الحاضر) الذين عقدوا ثلاثة مجامع كنسية متتالية ، وأبدوا استعداداً واضحاً لمنح **لوتار** الوثيقة المطلوبة . علّق **لوتار** آمالاً كبيرة على ذلك ، فعقد قرانه على **فالدرادا** ، وأمر بتتويجها ملكة عام ٨٦٢ . أقرّ المجمع الكنسي الذي انعقد في ميتز عام ٨٦٣ شرعية هذا الزواج .

لكنّ **مايكل** الذي طلبت تيوتبرغا مساعدته ، ألغى قرار المجمع بحزم ، ثمّ عزل غونتر وتيوتغارد من منصبيهما ، وحرمهما كنسيا . حاول غونتر التمرد (بحث عن الدعم حتى عند فوسيوس) ، كما طلب **لوتار** مساعدة **لودفيغ** الثاني . جاء القيصر إلى **روما** بهدف فرض إرادته على مايكل . انطلق في تلك الأثناء موكب ديني في المدينة حاملاً أجزاء من الصليب المقدس ، واصطدم أحد الجنود بالقس الذي حمل الأثر المقدس ، فسقط على الأرض ، مما أثار بعض القلاقل والإضطرابات في المدينة . بينما اعتكف البابا ، الذي صمم على عدم التراجع ، في باسيليقا القديس بطرس .

يصعب توقع المنحى الذي كانت ستتخذه الأمور ، لولامرض **لودفيغ** الثاني المباغت . قامت الامبراطورة التي أصابها الهلع بمحاولة سريعة للتوفيق بين الامبراطور والبابا . كفّ على أثرها **لودفيغ** الثاني عن الدفاع عن قضية أخيه .

هدد البابا عندئذ **لوتار** بالحرم الكنسي . لكنّ الشيء الذي أرعب **لوتار** أكثر من احتمال الحرم الكنسي ، هو نبأ اجتماع عمومته : **شارل** الأصلع الفرنسي **ولودفيغ** الألماني ، اللذين أجمعا على ضرورة تخلي **لوتار** عن فالدرادا . ولم يكن هناك أي شك في أنّ نصيحة العمين «الورعة» اخفت في ثناياها نية أقل ورعاً بكثير ، هي اقتسام مقاطعة ابن أخيهم . وافق **لوتار** على اعادة تيوتبرغا ثانية . وكان على فالدرادا أن تقيم في إيطاليا بناء على رغبة البابا . لكنّها بعد عودتها إلى بافيا ، غادرتها حالاً الى **لوتارينفيا** . فالقى عليها البابا الحرم الكنسي . حاول **لوتار** مجدداً إرغام البابا على التراجع ، مستغلاً دعم **شارل** الأصلع المرحلي . لكنّ البابا ثبت على رأيه دون تردد . حاول **لوتار** البحث عن دعم **لودفيغ** الألماني ، لكنّه لم يحقق أي نجاح ، شأنه شأن رئيسي الأساقفة المعزولين .

لم يتمكن مايكل من انهاء القضية ، لأنه توفي عام ٨٦٧ .

برهن مايكل عن حزمه وطاقته في قضية أخرى أيضاً غير زواج **لوتار** ، وهي قضية الأسقفية الفرنكونية ، التي اعتبرت نفسها مستقلة .

ـ المراسيم المزيفة

كانت الحالة الدينية في مملكة **شارل** الكبير تزداد سوءاً يوماً بعد يوم . فالنظام الذي أدخله **شارل** ، واعتمد على اشراك السلطة الكنسية في إدارة الدولة وتحويل الأساقفة إلى أتباع للإمبراطور أدى في مرحلة تقسيم الامبراطورية والنزاعات الداخلية إلى تمزيق الأسقفية سياسياً . فتحارب الأساقفة فيما بينهم بضراوة ، وحملوا السلاح دفاعاً عن هذا المرشح اوذاك للعرش . ازدادت معاناة الحياة الدينية بسبب تعرض الامبراطورية الدائم للأوبئة والجوع والبؤس ، نتيجة الحروب الداخلية والغزوات النورمندية المتتالية . الحقيقية أنّ الأسقفية الفرنكونية (وخاصة الفرنسية) دعت للإصلاح ، لكنها رأت السبب الأوحد للشر في نهب القياصرة والملوك الكنيسة وتجريدها من ممتلكاتها ، وتسديد حسابات حلفائهم من أموالها ، دون أن تلاحظ بأن مشاعر الكراهية التي سيطرت على أحفاد **شارل** المتحاربين فيما بينهم ، تملكت الأساقفة أيضاً . وعلى اية حال ، لما حاول مجمع **باريس** لعام ٨٤٦ تمرير عملية إصلاح الكنيسة في مجال إعادة نمط الحياة المنسجم مع القوانين الكنسية في أوساط الكهنة والرهبان ، عارض مجمع أصحاب النفوذ الفرنسي في العام ذاته جميع نقاط الإصلاح المقترحة ، والتي بدت متعارضة مع مصالحهم . وقد دعم **شارل** الأصلع قرارات اصحاب النفوذ .

في مثل هذه الأجواء ظهرت في **فرنسا** مجموعات من الوثائق ، زعم أنها صادرة عن البابا ، بينما كانت في واقع الأمر مزيجاً من المراسيم الحقيقية ، والمراسيم التي تضمنت بعض

الفقرات المنحولة ، وبعض المخطوطات الأبوكريفية كلياً . يجب الافتراض بأن ممثلي الأسقفية الفرنسية الذين أرعبهم انحلال الحياة الدينية المسيحية ، تصوروا بأنهم سيتمكنوا من ارغام الحكام على القبول بمطالب المجامع الكنسية ، إذا اثبتوا لهم أنَّ لهذه المطالب سند في الوثائق البابوية القديمة .

أقدم هذه المجموعات من أوتون وتعرف بإسم Hispana Gallica . وتعرف مجموعة اخرى بإسم Capetula Angilrami . لكنّ أهمها على الإطلاق هي المجموعة المعروفة بإسم False Capitulars ، التي يفترض ان يكون الشماس بنديكت مؤلفها ، والمجموعة المعروفة بإسم False decrees .عرَّف مؤلف المجموعة الأخيرة بنفسه في مقدمتها على أنه أيزيدور ميركاتور (يحتمل ان يكون قد استخدم هذا الأسم بهدف انتحال شخصية إيزيدور السيفيلي الذائع الصيت) .

لاشك في أنّ مثل هذا التزييف يثير فينا مشاعر الغضب ، وإن كان نابعاً من أحسن النوايا . ولكن يجب معالجة هذه القضايا إنطلاقاً من منظور تلك الأزمنة . لم يتردد المؤلفون المسيحيون في العصر الوسيط المبكر في اعادة صياغة الوثائق القديمة ، ولم يعتبروا هذا الشيء غشاً . كان هذا الشيء في نظرهم مجرد استخدام للمادة التاريخية كأساس ينسجون حوله أفكارهم الخاصة . وهذا مايتجلى بوضوح في مجموعة ايزيدور المزعوم . فهو يستعرض في الجزء الأبوكريفي آراءه الخاصة ، التي تطالب بحرية الكنيسة واستقلالها عن السلطة المدنية . وإضفاء طابع القدسية على الممتلكات الكنسية . فهي تخدم في تلبية متطلبات العبادة ، واحتياجات الإيكليروس ، وتقديم العون للفقراء . ليست الخطورة في الضغوط التي يمارسها الحكام على الكنيسة فقط . إذ يتوجب على الكنيسة ذاتها العودة إلى تنظيمها التقليدي . يجب أن تخضع الكنائس للأسقف ، الذي يعتبر مصدر السلطة الكنسية الوحيدة محلياً . كما يجب أن تشكل كل إحدى عشرة أو اثنتي عشرة أسقفية مقاطعة كنسية يشرف عليها المجمع الكنسي في المقاطعة ، ويترأسه المتروبوليت . ولايحق للمتروبوليت اتخاذ أي قرار دون العودة إلى مساعديه . يقول جاكوين في هذا الصدد : «عبّرت هذه النظريات عن رد الفعل ضد ممارسات رؤساء الأساقفة «الكارولينغيين» الذين منحوا أنفسهم حق ممارسة سلطة مباشرة على كل ابرشية في مقاطعاتهم ، وبتُّوا شخصياً في قضايا مساعديهم من الأساقفة . لكنّ الأشياء التي حظّرها إيزيدور المزعوم على المتروبوليت أباحها للبابا ،الرئيس الأعلى لكافة الكنائس . كما اقترح منصب البريماس كحلقة إضافية بين البابا ورؤساء الأساقفة ، حيث أشارت إليه النصوص القديمة» .

حظيت مجموعة ال False Decrees بتقدير عظيم ، وغالباً مااستشهد بها في النقاشات . ولكن في روما لم يعترف بها إلا في مرحلة متأخرة ، في القرن الثاني عشر ، في مرحلة الاصلاحات الغريغورية ، حيث استخدمت كمواد مساعدة ، ولم يكتشف طابعها

الأبوكريفي إلا في القرن الخامس عشر .

ولكن غالباً ما استغل الذين استخدموا مجموعة إيزيدور المزعوم للدفاع عن حقوقهم ، هذه المجموعة ضد الآخرين .ومنهم هينكمار أسقف ريمس .

برزت في الامبراطورية نزعة لأن يحمل أحد الأساقفة الفرنكونيين لقب نائب بابوي ويتمتع بصلاحياته . وكان بمثابة ممثل البابا في الامبراطورية . أدرك البابا خطورة هذه القضية . لكنَّ البابا **سرجيوس** الثاني وجد نفسه في موقف صعب ،لأنه في معركته مع البابا المضاد الذي انتخبته حشود العامة في روما ، حصل على دعم القيصر **لوتار** ، ووعده لقاء ذلك بالموافقة على منح هذا اللقب للأسقف **دروغون** اسقف ميتز (وهو الابن الأصلع غير الشرعي ل**شارل** الكبير) . لكنّ اساقفة المقاطعات الخاضعة لكل من **شارل** الأصلع و**لودفيغ** الألماني لم يعترفوا بسلطة دروغون ، ولذلك ظلّ اللقب الممنوح لقباً فخرياً .

كان هينكمار يطمح بهذه السلطة ، وإن لم يُمْنح اللقب شكلياً . أصبح رئيساً لأساقفة ريمس بفضل مساندة **شارل الأصلع** ، واعتبر نفسه الرئيس الأعلى لكامل الكنيسة الفرنكونية . لاشك بأنّ شخصيته كانت قوية . تميز بالجرأة والنشاط ، وبالقوة في محاربة خصومه وفرض ارادته على الاساقفة الآخرين . نشأ الخلاف على هامش قضية أسقف Soissons عزل هذا الأسقف المدعو **روثاردا** أحد قسس أبرشيته . الأمر الذي لم يرض هينكمار . فقام بعزل الأسقف روثادا من منصبه . استأنف الأسقف القضية إلى البابا واستعد للسفر إلى روما ، لكن هينكمار القى القبض عليه وأودعه السجن .وقف البابا مايكل الأول إلى جانب روثادا . وفي هذا الصدد يقول **داوصن** : « وقع خلاف حاد مع رئيس أساقفة ريمس ، الذي كان من أنصار فكرة الامبراطورية الثيوقراطية بقيادة أوليغارشيا مكونة من رؤساء الأساقفة » . لم يدع مايكل الأول مجالاً لتسرب الخوف إلى نفسه . واضطر هينكمار للتراجع تحت طائلة تعليق مهامه : فأطلق سراح روثادا ، وسمح له بالعودة إلى Soissons . كما أرغم على الإعتراف بحقوق مجموعة كهنة **سيموا** في عهد سلفه **إيبون** .

يمكن القول بأن مايكل الأول رفع العاصمة الرسولية فوق عروش الممالك «الكارولينغية» ، كما ناهض النزعات التي تولدت داخل الكنيسة لرفع بعض المتروبولتيات وتسليطهم على ماتبقى من الأساقفة .

ـ هدريان الثاني

جاء البابا **هدريان** بعد رحيل مايكل الأول ، وتمّ هذا ـ كما نذكر ـ لدى قدوم **قسطنطين وميثوديوس** إلى روما . انحدر بدوره من الأسرة النبيلة ذاتها التي انحدر منها **اسطيفان** الرابع و**سرجيوس** الثاني . كان رجلاً متزوجاً ، لكنه قبل انتخابه ببضعة أعوام دخل سلك الكهنوت .

قام أمير سبوليتو بغزو روما قبل تولي هدريان الثاني العرش البابوي . فتعرضت الكنائس ، والأديرة ، والقصور للنهب ، وتعرّض السكان لخسائر كبيرة وظلم شديد . انتظر هدريان قيام **لودفيغ** الثاني بمعاقبة لامبيرت - أميرسبوليتو - على عمله هذا ، ولكن دون جدوى ، إذ كان لامبيرت من أتباعه . لقي لامبيرت قصاصه في مرحلة لاحقة عندما تمرد على القيصر ذاته .

تعرض هدريان الثاني في بداية عهده لإهانة شخصية كبيرة ، حيث اختطفت ابنته وأرغمت على الزواج من يوليتيريوس ابن ارسينيوس اسقف أورتي ، المشرف على خدم القيصر . اتخذ البابا اجراءات سريعة بحق المعتدين . وتوفي أرسينيوس أثناء فراره خوفاً من انتقام البابا . أما يوليتيريوس ، فقد تمكن من قتل زوجة وابنة البابا ، قبل أن يلقي عليه الحرس البابوي القبض ويقتلوه .

حاول هدريان أن يسلك في سياسته الطريق التي خطَّها سلفه العظيم . لكنه لم يكن صارماً بالقدر ذاته . فقد راضى هينكمار . وحلَّ قضية زواج **لوتار** بصورة نهائية . فبينما رفض مايكل مقابلة **لوتار** الثاني ، سمح له هدريان بالمجيء إلى إيطاليا وقابله في دير مونتي كاسينو . وهنا - خلال القداس الذي أقامه - خاطب **لوتار** ، وعرض عليه القربان المقدس . وكان مقتنعاً بأنه سيحصل الآن على الطلاق الذي طال انتظاره له . لكنَّ صحته تعرضت لتدهور سريع ، وتوفي عام ٨٦٩ .

قامت بين خلفاء **شارل** الكبير نزاعات عنيفة على بعض المقاطعات مرة بعد مرة فقبل ذلك الحين - في عام ٨٦٣ - وبعد وفاة **شارل** ملك **بروفانسيا** ، حيث كان للملك **لوتار** الثاني أن يرث مقاطعته ، أرغم القيصر **لودفيغ** الثاني شقيقه **لوتار**على تقسيم المقاطعة بينهما . وبعد وفاة **لوتار** ، انقضَّ على تركته من الجانبين **شارل** الأصلع **ولودفيغ** الألماني واقتسماها فيما بينهما ، على الرغم من أنها كانت من حق **لودفيغ** الثاني . فهبَّ هدريان الثاني للدفاع عن حقوق القيصر المنشغل في الحرب مع **المسلمين** في جنوب ايطاليا . وعلى الرغم من أن البابا حاول دوماً أن يكون وديعاً ومتروياً في تصرفاته ، قام انستازي رئيس مكتبه - المتعاطف مع القيصر ، والمعادي للملك **فرنسا** ، بإضافة الكثير من العبارات القاسية إلى الرسائل الموجهة إلى **شارل** الأصلع ، الأمر الذي أغاظ الملك . فردَّ على البابا بإسمه هينكمار . مما أدى الى نشوء خلاف جديد بين البابا ورئيس أساقفة ريمس . وفي هذه الأثناء برزت قضية ابن شقيقة هينكمار ، المدعو هينكمار أيضاً ، وهو أسقف لاون الرجل المتآمر ، والعديم الضمير ، الذي لم يردعه شيء عن محاولة تحقيق طموحاته وإرضاء نزواته . قرر مجمع كنسي محلي عزل هينكمار أسقف لاون من منصبه ، لكن هدريان رفض اعتماد قرار المجمع قبل ان يدرس الموضوع بنفسه . وبعد جدل طويل اتضحت الأمور ، وقام البابا بتسوية نزاعه مع ملك **فرنسا** وهينكمار .

ـ مأساة البابا يوحنا الثامن

توفي هدريان عام ٨٧٢ . فخلفه **يوحنا** الثامن ، رئيس شمامسة الكنيسة الرومانية لأعوام طويلة ، الرجل المتقدم في السن ، الذي يصفه كل من سيبليت ولوفلر بأنه شبيه بمايكل الأول «ذو طبع قوي ومتسلط ، متميز باندفاعه الحيوي للنشاط ، ومتمتع بمواهب سياسية غير عادية» .

كانت الأوضاع السياسية في أوروبا في اللحظة التي تولّى فيها **يوحنا** الثامن العرش البابوي ، شديدة التعقيد .

كان القيصر **لودفيغ** الثاني لايزال مقيماً في ايطاليا ، منهمكاً في حرب لا أمل منها مع **المسلمين** . نجح في واقع الأمر باستعادة أبوليا وباري من **المسلمين** عام ٨٧١ ، لكنّ الأعمال الوحشية التي ارتكبها جند القيصر ، إضافة إلى أعمال النهب والسلب ، دفعت السكان للتمرد . توفي **لودفيغ** عام ٨٧٥ مصاباً بالصرع كمعظم خلفاء **شارل** ، دون أن يترك وريثاً للعرش .

وفي **فرنسا** ، كان لـ**شارل** الأصلع أن يخوض منذ بداية عهده معارك على كافة الجبهات . فأكويتانيا رفضت لفترة طويلة الوفاق معه ، ولم تعترف به حاكماً لها من قبل ان تُهزَم عام ٨٤٥ . ومن ثم توج ابن **شارل** الأصلع ، المدعو **شارل** ايضاً ، ملكاً عليها . تمردت بريطانيا ، واستقلت كنيستها عن الكنيسة الفرنسية . فاضطر **شارل** الأصلع الذي هزم مراراً ، للإقتناع بمجرد الإعلان الشكلي من قبل ملك بريطانيا تبعيته له . كما تكررت غزوات النورمانديين التي ازدادت عنفاً . ولاحت جحافلهم عام ٨٤٣ قرب مصب نهر اللوار ، وأحرقوا نانتس طرأت تغيرات على الخطط العسكرية النورماندية : ففي السابق ، كانوا يقومون بتنفيذ هجمات صاعقة ، ويهرعون للإنسحاب الفوري . بينما خططوا فيما بعد لإحتلال الأرض ، حيث اسسوا على الساحل المحتل من قبلهم معسكراً محصناً في بادىء الأمر ومن ثم اعتبروا المعسكر قاعدة انطلقوا منها لمتابعة زحفهم . أقيم معسكر كهذا على جزيرة **نورموتيير** ومنه تابعوا زحفهم على طول النهر . وفي عام ٨٤٥ ركبوا نهر السين ، فاحتلوا مدينة باريس .

عجز **شارل** الأصلع عن مقاومتهم ، فحصل على موافقتهم بمغادرة المدينة لقاء سبعة آلاف رطل من الفضة (تجدر الإشارة الى أنَّ النورمانديين كانوا تجاراً إلى جانب كونهم محاربين بارعين ، وكانوا دوماً على استعداد لوقف المعركة ، لو اتيح لهم تحقيق ربح اكبر عن طريق اتفاق سلمي) . لم يجد هذا الشيء نفعاً ، فبعد اعوام قليلة سيبني النورمانديون معسكراً جديداً قرب مصب السين . وفي نهاية المطاف اوكل **شارل** الأصلع حكم المناطق الواقعة بين نهري اللوار والسين لروبرت الملقب بالقوي لحمايتها . واعتبر ورثة روبرت ان الأرض مُنحت لهم بصورة دائمة . كما تحولت السواحل **الفلاندرية** الى إمارة مشابهة ، دافع عنها في بداية

الأمر **بالدوين** الملقب بالساعد الحديدي .

لم يكن الأعداء الخارجيون والنزعات القومية الإنفصالية وحدها التي مزقت مقاطعة **شارل** الأصلع . فقد تمرد ابنه **شارلمان** عليه . فاعتقله والده ، وسمل عينيه ثم حكم عليه بالموت عام ٨٧٣ .

اقتحم **لودفيغ** الألماني **فرنسا** عام ٨٥٨ محاولاً الإستيلاء على مقاطعة اخيه . لكنه واجه عداء من جانب رجال الدين الفرنسيين ، وهذا ماارغمه على التراجع . يصعب افتراض ان يكون التمايز القومي قد لعب دوراً في هذا العداء ، لأنه لم يكن قد تبلور بالقدر الكافي ، ولابدَّ من وجود سبب آخر للعداء . شكل رجال الدين في **فرنسا** قوة فاعلة توجَّب على الملك اخذها بعين الاعتبار . بينما كانوا في ألمانيا خاضعين للحاكم . وهكذا شكلت قوة الكنيسة الفرنسية ـ التي تمردت غير مرة على أوامر البابا ثقلاً موازياً لإستبدادية (٠الكارولينفينيين» . وكان **شارل** الأصلع الحفيد الوحيد **لشارل** الكبير ، الذي ورث عنه تفهم الثقافة وضرورة الإصلاحات الكنسية .

وقد يكون هذا هو السبب الذي دفع **يوحنا** الثامن لأن يراهن على **شارل** وعلى **فرنسا** فعندما توفي **لودفيغ** الثاني ، اقترح البابا منح **شارل** الأصلع التاج الامبراطوري ، بالرغم من ترشيح **شارلمان** الأبن الكبر **للودفيغ** الألماني . كان للأحفاد خلفاء **شارل** الكبير تأثيراً كبيراً على انتخاب البابا في غير مرة . والآن ، تغيرت الأدوار : اصبح البابا من يقدر مصير التاج الامبراطوري . شعر **يوحنا** الثامن بنفور تام من ممثلي كلتا الأسرتين الألمانيتين لخلفاء **شارل** ، لأنه ادرك انهم عاجزون عن حماية إيطاليا من **المسلمين** ، وأنهم سيحاولون فرض إرادتهم على البابا فيما لو تولى أحدهم العرش الامبراطوري . جاء **شارل** الأصلع الى إيطاليا تلبية لدعوة البابا . وسبق بذلك **شارلمان** ، وكان على أية حال قد اشترى منه حقه في التاج الامبراطوري . تمَّ تتويجه في **روما** عام ٨٧٥ . لاشك في ان **يوحنا** الثامن رغب في استمالة رجال الدين الفرنسيين ، فعين أنزيغيز اسقف سينس نائباً بابويا في غالة وجرمانيا (لم يرغب بمنح هذا اللقب لهينكمار ذو النزعة الفردانية) .

غادر **شارل** ايطاليا بعد تتويجه غير مكترث بمصيرها . وكان لبوزون دوق Viene أن يمثله في شبه الجزيرة . أما سبب رحيله المباغت ، فكان اقتحام **لودفيغ** الألماني مجدداً للمقاطعة الفرنسية . وكان هذا الرحيل بمثابة خيبة أمل مرّة بالنسبة للبابا **يوحنا** الثامن . فقد ظلت إيطاليا لقمة سائغة امام غزوات **المسلمين** ، التي زادت خطورتها بعد أن تحالفت بعض المدن الايطالية الجنوبية مثل نابولي واما لفا ، وساليرنو ، مع **المسلمين** لضمان أمنها . ولم يبق امام **يوحنا** لمواجهة الغزو : سوى دفع الجزية .

لكنه بعد أن دفع الفدية المطلوبة ، عكف الرجل العجوز ، بنشاط غير معهود ، على

تنظيم أمور الدفاع عن شبه الجزيرة . وبمبادرة منه تم بناء اسطول كان له ان يدمر سفن **المسلمين** . ثم ارغم المدن الجنوبية على الإنسحاب من التحالف تحت طائلة الحرم الكنسي . كما أجرى اتصالات مع امبراطور الشرق ، وضمن مساعدة الأسطول البيزنطي . وبينما كان منهمكاً بأمور الدفاع عن إيطاليا ، بدأ موظفو الإدارة البابوية في روما ، مؤيدو **لودفيغ** الثاني السابقين (أنصار التيار الألماني بلاشك) بالتآمر على البابا . اكتشف البابا المؤامرة ، وفرّ المتآمرون من روما . وغادر المدينة معهم **فورموزوس** اسقف بورتو الذي كان أسقفاً مبشراً في **بلغاريا** قبل ذلك الحين بفترة وجيزة . بالرغم من أن **فورموزوس** اشتهر كرجل زاهد وورع ، فقد كان طموحاً . ويبدو أنه حاول الوصول إلى العرش البابوي اثناء انتخاب البابا الأخير .

ألقى **يوحنا** الثامن الحرم الكنسي على الفارّين ، وعيّن في الإدارة موظفين غيرهم وانهمك مجدداً بموضوع الدفاع عن ايطاليا . لكن الأمور لم تتيسر كما يجب . غادر بوزون إيطاليا بعد أن استدعاه الامبراطور . ولم يبد الأمراء المحليون اي استعداد لتنفيذ أوامر البابا ، بالرغم من أنهم كانوا تحت تصرفه على الصعيد الرسمي . لم تتوقف هجمات **المسلمين** . ولم تُجْدِ استغاثات البابا **بشارل** وطلبه إليه المجيء إلى إيطاليا . فقد كان الامبراطور منشغلاً بمحاولة الإستيلاء على ماتبقى من **لوتارينغيا** . نذكر أنه في حينه استولى على هذه المقاطعة بمشاركة **لودفيغ** الألماني ، فانتزعاها من لود فينغ الثاني ، وبعد وفاة لودفينغ رغب في الاستيلاء على كامل المقاطعة . لكنّه هزم على يد **لودفيغ** الفتي (ابن **لودفيغ** الألماني) .

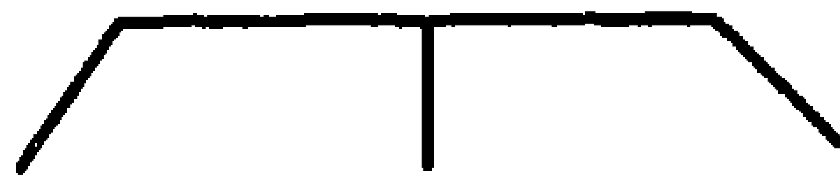
قرر **شارل** الأصلع في نهاية المطاف القدوم إلى إيطاليا ، وقد أقلقه انتصار **لودفيغ** الفتي اكبر أولاد **لودفيغ** الألماني ، الذي أمكن أن يفقده التاج (لأن **شارلمان** لم يستنكف عن حقه في التاج) ، ولم يكن مجيئه بأي حال تلبية لإستغاثات البابا اليائسة . ولما وصل الى إيطاليا ، بلغه نبأ إجتياز **شارلمان** جبال الألب ، لم يكن **شارل** الأصلع قادماً على رأس جيش على درجة كافية من القوة يسمح بخوض معركة مع ابن اخيه فأمر بارسال امدادات من **فرنسا** ، لكنَّ أحداً لم يرسلها له . لأن أصحاب النفوذ في **فرنسا** لم يبدوا اهتماماً بموضوع حصول ملك **فرنسا** على التاج الامبراطوري ، وبما أنهم لم يخشوا حاكمهم ، تركوه وشأنه . مرض **شارل** العائد عبر جبال الألب ، وتوفي عام ٨٧٧ على مقربة من MONTCENIS .

كان موت **شارل** بمثابة صدمة جديدة تعرض لها **يوحنا** الثامن . لكن طاقاته لم تكن قد نفذت بعد .لم يكن راغباً في رؤية **شارلمان** امبراطوراً ، واعتقد بأن التاج يجب أن يكون من نصيب **لودفيغ** المتلعثم ابن **شارل** الأصلع . فظلّ يراسل ملك **فرنسا** ، ولكن دون جدوى .

خلفاء شارل الكبير

الإمبراطورية
شارل الكبير
لودفيغ التقي
لودفيغ الثاني
شارل الأصلع
شارل البدين

ألمانيا	فرنسا
لودفيغ الألماني	شارل الأصلع

لودفيغ المتلعثم   شارل ملك أكويتانيا   شارلمان   لودفيغ الفتي   شارل البدين

وفي هذه الأثناء اقتحم لامبيرت **روما** مجدداً كحليف **لشارلمان** .وبإشرافه عاد الى **روما** أنصار التيار الألماني المحرومين كنسيا . فاعتكف **يوحنا** الثامن في باسيليفا القديس بطرس عام ٨٧٨ . كان **يوحنا** مصمماً على عدم التراجع .غادر المدينة خلسة وتوجه الى أوستيا وأبحر إلى **بروفانسيا** غير آبه بالخطر المحدق به من جانب القراصنة **المسلمين** .اعتقد انه سيرغم الملك الفرنسي على قبول التاج الامبراطوري . ولما وصل الى تور اقتنع بأنه أمام ملك مريض وجبان ، لاتهمه أمور إيطاليا .

ظلَّ **يوحنا** آنذاك أيضاً مصمماً على عدم السماح لخلفاء **شارل** الألماني بالاستيلاء على التاج الامبراطوري . فبعد أن خيَّب الملك آماله ، راهن على بوزون ، النائب الامبراطوري السابق على ايطاليا ، وملك **بروفانسيا** فيما بعد . كان متزوجاً من ابنة **لودفيغ** الثاني ولم تكن مطالبته بالتاج لتثير الدهشة ، وعلى أي حال لم يكن هذا التاج سوى تاج ملك ايطاليا . لم يفتقد بوزون إلى الرغبة في الحصول على التاج ،لكنه لم يكن يملك القوة الكافية للقيام بمثل هذه المغامرة .

عاد **يوحنا** الثامن الى **روما** عام ٨٧٩ مقتنعا بعدم امكانية الإعتماد على **فرنسا** . وعلى

اي حال ، بلغه نبأ وفاة **لودفيغ** المتلعثم بعد شهر من عودته . توفي خلفاء **شارل** الكبير الفرنسيين واحداً بعد الآخر مصابين بالصرع أو التهاب السحايا . وتبين أن ممثلي الفرع الألماني من هذه الأسرة هم وحدهم الأقوياء . وفي غياب أي خيار آخر ، تطلب الأمر الاتفاق معهم . ففضل **يوحنا** التعامل مع أصغر الأخوة سناً ، وهو **شارل** البدين . لم يكن حاكم المقاطعة الألمانية إلى أقصى الغرب الألماني (ألمانيا وريسيا) متورطاً في الصراع ضد السلافية التي بذل البابا جهوداً مضنية من أجل استقلالها .

يبدو وكأن الحظ في هذه المرة سعى من أجل تحقيق رغبته . فقد توفي **شارلمان** عام ٨٨٠ وأمكن تتويج **شارل** البدين امبراطوراً عام ٨٨١ .

تعرض **يوحنا** الثامن لخيبة أمل جديدة . فقد كان **شارل** البدين مهتماً بالنزاعات القائمة بين آخر خلفاء **شارل** الكبير أكثر من اهتمامه بقضايا إيطاليا . وعلى أي حال ،كان معدوماً من أية مواهب .

شاء القدر أن تتركز في يده السلطة على مختلف أجزاء مملكة **شارل** الكبير ، الواحد بعد الآخر ، دون أن يبذل جهداً في سبيل ذلك . ففي عام ٨٨٢ توفي **لودفيغ** الفتي تاركاً لأخيه ماتبقى من المقاطعة الألمانية . وفي عام ٨٨٥ اعترفت **فرنسا** به ملكاً عليها . وهكذا حكم كامل تركة جده الأكبر ، دون أن يتمتع بأي مواهب في الحكم . عاشت المملكة التي اتحدت حالة فوضى عارمة . فقد صعّد النورمانديون منذ عام ٨٧٩ هجماتهم . وفي عام ٨٨٠ تمّ تدمير جيش ألماني كبير تدميراً كاملاً قرب إيبرسدورف وكان بقيادة برونو أمير سكسونيا ، وأحرق **النورمانديون** كولونيا ، وتريير وميتز ، ودنسوا كاتدرائية اكوينرغران ، وضريح **شارل** الكبير ، وفي عام ٨٨٣ ، تعرضت AMIIENS للدمار . وفي عام ٨٨٥ بدأ حصار باريس ، حيث دافع عنها الدوق أودين ، أمير **فرنسا** (إمارة **فرنسا** ، مقاطعة صغيرة حول **باريس** الحالية) . كتب أحد المؤرخين الذين عاصروا الأحداث :« لايتوقف سكان الشمال عن قتل المسيحيين واستعبادهم ، وتدمير الكنائس وحرق المدن . الجثث في كل مكان . . . فما من طريق او ساحة إلا وهي مغطاة بالجثث . إننا نعيش في عذاب ويأس» .

اضطر هينكمار للفرار من مدينة ريمس المهددة ، حاملاً معه الآثار المقدسة لجثة القديس ريميجيوس . وتوفي بعيداً عن متروبوليته . افتقرت الامبراطورية لعمل دفاعي منظم ، واقتصرت المقاومة على بعض ممثلي السلطات المحلية الأكثر نشاطاً .

لم تكن الأوضاع في إيطاليا بأفضل من ذلك . أضحت هجمات **المسلمين** أشد خطورة . وقد شكى **يوحنا** الثامن في إحدى رسائله قائلاً : « حلّت بهذا البلد مصائب وكوارث ، سحقتنا وطردت النوم من أعيننا ، وفقد الطعام مذاقه . . . لاأحد يمد لنا يد العون ـ الامبراطور ، ابننا بالروح ، أوغيره من أي بلد كان ـ وإذا لم يحطنا الله برعايته في

بؤسنا ،فإما أن نتوسل طلباً للسلام ، أوتسحقنا قوة العدو لتدفعنا الى نير العبودية وتحكم علينا بالموت» .

وأخيراً جاء الموت ، وإن لم يكن على أيدي **المسلمين** . وقع **يوحنا** الثامن ضحية . ولم يعرف من كانوا القتلة . فقد كان أعداء البابا كثيرين . لكن الحقيقة التي لها دلائلها الهامة ، هي قيام خلفه مارينوس الأول (منذ عام ٨٨٢) بإعادة **فورموزوس** إلى اسقفية بورتو بموجب أول مرسوم أصدره .

جلس بابا جديد على الكرسي الرسولي عام ٨٨٤ ، هو هدريان الثالث . أراد **شارل** البدين الذي لم يكن له سوى ابن وحيد (غير شرعي) هو برنارد ، أن يضمن له العرش ، فاستدعى البابا ليحصل على دعمه في هذا الموضوع . توفي هدريان الثالث عام ٨٨٥ وهو في طريقه اليه . خلفه **اسطيفان** الخامس وباشر معركة جديدة ضد غزوات **المسلمين** ، طالب **اسطيفان** بمساعدة من الامبراطور ، لكنه لم يحصل على شيء . والشخص الوحيد الذي ساندە كان **غفيدو** أمير **سبوليتو** .

أناب **شارل** البدين عنه في كافة أعماله رئيس ديوانه ليوتوارد أسقف فيرسيل . كان هذا المتنفذ مكروها في محيطه نتيجة جشعه . وعندما أبعده **شارل** ، انتقم منه ليوتوارد بتحريض أرنولف أمير ستيريا ضده ، وهو ابن غير شرعي **لشارلمان** الألماني . شمل التمرد كامل **المانيا** . واجتمع أصحاب النفوذ الألمان في فرانكفورت وقرروا عزل **شارل** البدين وتنصيب أرنولف عام ٨٨٧ ملكاً على ألمانيا .

انسحب **شارل** دون مقاومة إلى مقاطعته ، حيث توفي عام ٨٨٨ . ومعه انتهى الفرع الألماني لخلفاء **شارل** الكبير . وعمت الفوضى مملكة **شارل** الكبير .

الفصل الخامس عشر

الدول المسيحية خارج حدود الامبراطوريتين

ـ الحملات التبشرية في الأوساط النورماندية

حدث تفكك مملكة **شارل** نتيجة سببين رئيسين هما : أولاً ـ تعذر التوفيق بين طموحات الشعوب الفتية ومُثل السلطة المطلقة الموشاة بشارات الامبراطورية الرومانية . ثانياً ـ تلقت أوروبا المسيحية الناشئة ، ضربة ساحقة نتيجة الغزو النورماندي ، الغزو الذي دمر الأديرة في المقام الأول ، وهي مراكز الحياة الدينية والثقافية .

نذكر أنَّ لودفيك التقي كان السبب في تلقي هارالد الدانمركي لسر المعمودية . توجه هارالد بطلب إلى الملك لإرسال مبشر ملائم . أما الرجل الذي وقع عليه الإختيار ليصبح رسول الدانمركيين ، فكان القديس أنسغاري المنحدر من أصل سكسوني ، راهب دير فرنسي في كوربيه ، ثم راهب دير ألماني في كورفي ، أبحر المبشر برفقة راهب واحد من كولونيا عام ٨٢٦ ، منضماً الى حاشية الملك هارالد .

لم تسفر أنشطة القديس أنسغاري في الدانمرك عن نتائج إيجابية كبرى . فقد تمسك الدانمركيون بعناد بديانتهم الوثنية ، **وعبدوا أودين** ، **وثور** ، **وفريا** ، التكتيك الوحيد الذي أجدى مع المبشرين ، هو شراء الأطفال وتنشئتهم تنشئة مسيحية . بعد مضي عامين من الزمن في العمل التبشيري ، لم يتجاوز عدد التلامذة الذين التفوا حول أنسغاري الإثني عشر .

توجه المسيحيون السويديون عام ٨٢٩ بطلب الى البلاط الامبراطوري لإرسال مبشرين . اتجه أنسغاري إلى بلاط الملك السويدي ، تاركاً الدانمارك للمبشر جيسليمار . أسفر

نشاطه التبشيري في السويد عن نتائج أفضل بعض الشيء . تمّ بناء أول كنيسة في المدينة التجارية بيركا على ضفاف بحيرة مالارن . أقفل أنسغاري عائداً إلى الامبراطورية بعد عام ونصف من النشاط التبشيري في السويد ، ليشغل منصب رئيس أساقفة أسقفية تبشيرية حديثة التأسيس في هامبورغ ، ونائب بابوي على الدانمرك . وأوكلت إدارة شؤون المسيحية السويدية للاسقف غاوزبرت .

لم تتمكن أسقفية هامبورغ من تأسيس سوى عدد محدود من الأبرشيات في الدانمرك ، قبل أن يُكبح عملها . وكانت ممتلكات دير ثوروت القاعدة المادية لوجود الأسقفية . استولى **شارل** الأصلع على هذه الممتلكات ، وألغى بالمناسبة المدرسة الملحقة بالدير . فحرم الأسقفية من مواردها . وإضافة إلى ذلك ،تعرضت هامبورغ في عام ٨٤٥ للدمار على أيدي الغزاة النورمانديين (فبينما كان ملوك السويد والدانمرك يقيمون علاقات مع لامبراطورية ويدعمون المبشرين ، تابع الفيكينغ حملاتهم على القارة لأوربية) . التهمت النيران الكاتدرائية ، وتعرض السكان للقتل . ولم يكن مصير المبشرين العاملين في السويد بأفضل من ذلك ، لقي أوائل مثلي المسيحية الفتية في السويد حتفهم على أيدي السكان الوثنيين .

أصبح أنسغاري عام ٨٤٨ رئيساً لأساقفة أسقفيتي بريما وهامبورغ الموحدتين ونائباً بابوياً على كامل اسكندنافيا .سمح ملك الدانمرك الجديد ايريك ببناء كنيسة في شيلزفيغ . وبعد صعوبات مرحلية ، تم بناء كنيسة جديدة في ريبي عام ٨٥٤ . توجه أنسغاري لمقابلة الملك السويدي أولاف ، وتمكن من كسب تعاطفه والحصول على موافقته ببناء كنيسة في بيركا حيث ترك صديقه إريمبرت

توفي أنسغاري عام ٨٦٥ ، تاركاً بعض المراكز التبشيرية الضعيفة في الدانمرك والسويد . تعرضت للضياع بعد موته .

واستمرت الغزوات النورماندية العنيفة . لاشك في أن المناطق التي استوطنها النورمانديون تعرضت لإنفجار ديموغرافي ، ولم تعد الأرض كافية لتلك الكتلة البشرية الهائلة . فاقتحمت سفن الفيكينغ مصبات جميع أنهر أوروبا . احتلوا ايرلندا ، وهزموا الانجليز . كما هوجمت في الآن ذاته سواحل **فرنسا** ، وفلاندريا ، وفريزيا . حاول الدانمركيون مرة بعد مرة تحطيم الخطوط الدفاعية التي أنشأها **شارل** الكبير . لم يكن الهجوم الذي تعرضت له سواحل البلطيق أقل حدة ، بالرغم من أننا لانعرف عنه سوى الشيء اليسير . حاول النورمانديون اقتحام نهري أوردرا وفيسلا ، مثلما دخلوا مصبات أنهر النيمن ، وجفينا ، ونيفا[1] .

---

(١) قد تكون الكلمة السويدية gard ـ أي المدينة (التي تشتق منها الروسية gorod) من مخلفات المعسكرات النورماندية . مثال ذلك Stangard و Stanogard في السويد وروسيا .

لم يضع اعتناق هذه المملكة أو تلك في ممالك النورمانديين المسيحية حداً لحملات الفيكينغ . شعر النورمانديون المتنفذون بأنهم مستقلون . وعندما قرر زعيم أسرة ما اعتناق المسيحية ، أقدم على ذلك بهدف التمكن من الإحتفاظ بممتلكات الأسرة . بينما انطلق ممثلو الأسرة الأصغر سناً في حملات غوغائية محافظين على إيمانهم بآلهة الشمال ، الذين ثمَّنوا الأعمال البطولية .

بعد وفاة القديس أنسغاري ، مارس ريمبرت النشاط التبشيري في الدانمرك لردح من الزمن . وفي عهد الملك **غورم** بدأت موجة اضطهادات عنيفة للمسيحيين . تعرض غورم بعدها للهزيمة على يد الملك الألماني **هنري** ، الذي أرغمه على إعلان الولاء له . استغل هونيّ متروبوليت متروبولية هامبورغ ـ بريما هذا الحدث ليعيد العلاقة مجدداً مع الدانمرك والسويد عام ٩٣٠ . تبين أن هارالد بلاتاند ابن غورم كان في الدانمرك متعاطفاً مع المبشرين المسيحيين ، بالرغم من رفضه اعتناق المسيحية . أما المتروبوليت هونيّ ، فقد توجه إلى السويد محاولاً إحياء التراث المسيحي هناك وتوفي في بيركا عام ٩٣٦ .

وافق هارالد بلاتاند ، نتيجة الضغوط التي مارسها عليه **أوتو** الأول على تأسيس ثلاث أسقفيات في الدانمرك ، في كل من **شليزفيغ** ، وريبي ، وأرهوس وأخضعت لمتروبولية هامبورغ ـ بريما . لم يمضِ وقت طويل حتى اعتنق هارالد نفسه المسيحية عام ٩٦٥ . أصبح أودينكار ، أحد الأساقفة الدانمركيين الحديثو السيامة ، مبشراً في السويد . وظل مجمل النشاط التبشيري في اسكندنافيا خاضعاً لمتروبوليت هامبورغ ، المنصب الذي شغله أدلداغ لأعوام طويلة . حدثت في الدانمرك عام ٩٧٣ ردة وثنية ، كانت في الوقت ذاته بمثابة رد فعل على السيطرة الألمانية التي فرضها **أوتو** الأول . تزعم **سويند** بن هارالد الجناح الوثني وكان من الوثنيين المتشددين ، بالرغم من إخضاعه لطقوس المعمودية أثناء تواجده كرهينة في البلاط الامبراطوري . اضطر هارالد للفرار من البلاد ، واللجوء إلى جزيرة **فولين** حيث كانت قلعة **جومسبورغ** النورماندية ، والتي خضعت للسيطرة البولونية آنذاك على مايدو . وتوفي هناك عام ٩٧٦ متأثراً بجراحه . نقل جثمانه إلى راسكيلد ، ودفن في كنيسة الثالوث الأقدس ، التي كان قد أنفق على بنائها في حينه .

اضطهد **سويند** المسيحيين لبضعة أعوام . لكنه مني بالهزيمة في نهاية المطاف على يد ايريك المنتصر ملك السويد (المتزوج من شفينتو سلافا ابنة الأمير البولوني **ميشكو** الأول) ، **وبوليسلاف** الشجاع . حاول **سويند** بعد الهزيمة وفقدان معظم ممتلكاته ، استعادة شيء من نفوذه بتنظيم حملات عسكرية ضد انجلترا المسيحية . وقام في عام ٩٩٥ بمحاولة لإستعادة الدانمرك . وقد دحر النرويجيون **سويند** ، كما دحر البولونيون **إيريك** . أحرز **إيريك** النصر في معركة هيديبا ، لكنه لقي مصرعه فيها . وهذا ما أتاح المجال أمام **سويند** للإستيلاء على العرش الدانمركي مجدداً .

لكنَّ الأوضاع كانت قد تغيرت ، لأن **سويند** أثناء إقامته في انجلترا ، عاد إلى اعتناق المسيحية ثانية .

كان ايريك المنتصر مسيحياً . اهتدى على يد المبشر روبرت ، وتقبل سر المعمودية على يد أحد الأساقفة الدانمركيين . لكنَّه ارتد عن المسيحية ثانية ، وراح يضطهد المسيحيين . اعتنق ابنه أولاف الذي أشرقت والدته شيفينتو سلافا على تنشئته المسيحية منذ حداثة عهده ، وعمل بحماس على نشرها في أرجاء البلاد . يشير المؤرخ آدم البريمي إلى أنه عندما باشر بهدم المعبد الوثني في مدينة أوبسالا توسل إليه السكان المحليون لأن يرجىء ذلك حتى يقنعهم المبشرون بصحة العقيدة المسيحية . وجد أولاف نفسه ملزمات بقبول هذا الاتفاق العقلاني ، فاقتصر الأمر على تأسيس اسقفية في سكارا ترأسها ثورغوت .

تحالف **سويند** العائد إلى المسيحية مع بولونيا وتزوج من شفينتو سلافا أرملة **إيريك** . أنجبا فاتح انجلترا المقبل ، كانوت الكبير .

ترسخت المسيحية في النرويج قبل الدانمرك والسويد . فقد اعتنق الملك النرويجي هاكون المسيحية منذ عام ٩٣٨ . وفي عام ٩٩٥ استولى على السلطة في النرويج أولاف ، الذي شارك قبل ذلك الحين في حملات **سويند** على انجلترا ، ومنها جاء بالمسيحية وبدأ بنشرها في أرجاء البلاد . وبفضله اعتنقت المسيحية غرينلاندا وإيسلندا (التي قام المبشرون الايرلنديون بهدايتها حوالي عام ٨٠٠ ، وارتدت فيما بعد إلى الوثنية بسبب غزو الفيكينغ النرويجيين) . وتأسست أسقفية خاصة بإيسلندا في **سكالهوت** .

ـ الملك المسيحي

تدين مملكة «الكارولينغ» بثقافتها للأنجلوسكسون . لكنَّ الدور الانجليزي انحسر في القارة الأوربية منذ أواسط القرن التاسع ، وتعرضت انجلترا لكارثة فظيعة .

اجتاح الفيكينغ النرويجيون انجلترا في القرن الثامن . وبدأت غزوات الفيكينغ الدانمركيين منذ عام ٨٣٥ . وظهرت طلائع الدانمركيين في شيبتي . ونفذ النورمانديون خلال العقود الثلاثة التالية مالا يقل عن اثني عشر اجتياحاً كبيراً على الجزيرة .

طرأت تغيرات كبرى على أوضاع انجلترا في القرن التاسع . إذ لم تعد «جزيرة العلماء» التي أثبت أبناؤها قدرة عالية على ترميم الثقافة الأوربية وإعادتها إلى أحضان المسيحية . وكانت الأديرة ـ مراكز الحياة الثقافية ـ هي التي أضحت ضحية للغزوات النورماندية . بدأ تيار الحياة الدينية ينحسر بعنف . ودارت معارك طاحنة وخلافات حادة بين حكام الدويلات الإنجليزية الأربع ، وهي : ميرسيا الشرقية ، ونورثمبري ، وانجلترا ، وويسكس ، مما أدى إلى

نتائج شبيهة بما حدث في المملكة الكارولينيغية ، حيث انجرفت القيادات الروحية العليا وتورطت في هذه المعارك ، فتضاءل الإهتمام بأمور الرعية . تصعدت حدة الهجمات النورماندية في تلك الأثناء . واستقر الغزاة للمرة الأولى عام ٨٥١ في جزيرة ثانيت THANET دون أن يغادروها بعد الغزو مباشرة ، كما جرت العادة من قبل . عبرت في العام ذاته ثلاثمئة سفينة نورماندية نهر التايمز ونهبت كانتربري ولندن . وفي خريف عام ٨٦٥ حطَّ الرحال في انجلترا الشرقية «جيش» دانمركي كامل ، وأسس قاعدة انطلاق هناك . قاد الجيش إيفار وهالفدان ابنا ريغنار لوتبروك أشهر قادة الفيكينغ في القرن التاسع . استقر «الجيش» المسلح على أكمل وجه في الجزيرة ، ومن هناك مارس عملية الإحتلال والإستيطان بشكل منظم .

دارت آنذاك رحى الحرب بين **نورثمبري وميرسيا** . مما أتاح المجال أمام الدانمركيين لاحتلال انجلترا الشرقية . حيث اقتيد حاكمها الملك أدموند ـ القديس أدموند ـ أسيراً ، واستشهد بعد أن رفض انكار المسيحية .

اقتحم «الجيش» وسكس Nessex عام ٨٧٠ . وقد دافع عن البلاد الملك إيثلرد وشقيقة **إلفرد** . حيث أحرزا النصر قرب أشداون لكنَّ هذا لم يقض نهائياً على الخطر المحدق بالبلاد . توفي إيثلرد عام ٨٧١ ، واصبح **إلفرد** زعيماً للبلاد .

بدأ **إلفرد** حكمه بالتعرض لعدد من الهزائم . وبعد عام من المقاومة غير المجدية ، حقق الملك السلام لقاء فدية . حذت كل من ميرسيا ، ونورثمبري حذو WESSEX لكنَّ النورمانديين نصَّبوا الحكام الذين إختاروهم بأنفسهم ، بينما ظلت السلطة الملكية الشرعية قائمة في ويسكس .

هكذا بدأ عهد **الملك إلفرد** ، الذي كان متميزاً بين حكام القرن التاسع . كانت شخصيته أقوى من شخصية **شارل** الكبير ، وإذا تمَّ أخذ رسوخ العمل الذي أنجزه بعين الاعتبار ، لابد من القول أنه بالرغم من أنه كان أقلَّ شهرة ، فإنَّ ماقدمه من خدمة في بناء أوروبا المسيحية كان أكبر بكثير . يقول **تشسترتون** في هذا الصدد : «ارتبطت باسمه منذ البداية بعض سمات البساطة والطيب . كان أمياً ، وتميزت المرحلة المبكرة من حياته بالربط بين اليقظة القريبة من الابتذال والإستعداد المستمر للمقايضات الصغيرة . . . وصبر القديسين المتأجج » .

إذا كان **إلفرد** أمياً في بداية عهده ، فلا شك أن السبب في ذالك يعود إلى ولادته في حقبة افتقرت فيها انجلترا للمعلمين . لكنه تمكن في مرحلة متقدمة من السن من أن يجمع حوله جيشاً من «العقول الفذة» ، لكنَّ مشاكل الحكم غالباً ما انتزعته من هذا الوسط .

ترك «الجيش» الذي قاده هالفدان بمفرده ويسكس بسلام مرحلياً . لكنَّ الغزو في

الأعوام التالية تحول إلى استيطان مستمر . ففي عام ٨٧١ تمَّ احتلال لندن . واستوطن النورمانديون في الممالك الأنجلوسيكسونية الثلاث القديمة ، وطرقوا السيوف وحولوها إلى محاريث . أصبح الغزاة السابقون من سكان الجزيرة . ولم يبق سوى جزء صغير من «الجيش» السابق بقيادة غونثروم يعيش رغبة الفتوحات المتجددة .

هاجم غونثروم ويسكس عام ٨٧٧ . وسقطت المملكة بعد مضي أسابيع قليلة واضطرت للإعتراف بسيادة الغزاة . كما اختفى الملك **إلفرد** .

يقول تشسترتون في هذا الصدد : «اختفى . ساد اعتقاد أنه مختبىء كآثم في جزيرة معزولة وسط المناقع ذات المسالك الوعرة . . . لكن **إلفرد** ، وكما طتب بنفسه كلمات كانت تحدياً لتلك الحقبة ، طالب المسيحي بعدم الإكترات بمصيره . وراح يجمع حوله أقواس ورماح الجنود المبعثرين . . . وفي عام ٨٧٨ ، في مطلع الربيع ، انقضَّ على الخطوط الدفاعية لمعسكر الدانمركيين المحصن . . . تكلل الهجوم المباغت بالنصر . . . تلاه الحصار . . . و . . . هكذا وجد غونثروم نفسه واتباعه بين النصال .

أراد **شارل** الكبير في حينه هداية الناس بحد السيف . بينما وضع **إلفرد** أعداءه المهزومين امام خيار السلم شريطة الإعتراف بإستقلال WESSEX وإعتناق المسيحية . فتم توقيع معاهدة في ويدمور . تقبل غونتروم الدموي سر المعمودية وأصبح **إلفرد** عرابه . وفي هذا الصدد ايضاً يقول تشسترتون : «لعبت معمودية غونتروم دوراً اهم من المعاهدة . لأن المعاهدة في حد ذاتها كانت حلاً وسطاً ولم تصمد . ولم يمض قرن واحد حتى حكم الملك الدانمركي **كانوت** كامل انجلترا . ولكن الدانمركي لم يهمل الصليب بالرغم من حصوله على التاج . وتبين أن استفزاز **إلفرد** الديني راسخ . وكما نعلم ،فقد أثبتت «استفزاز-الملك **إلفرد**» فعاليته من قبل مع **سويند** وأولاف .

توقف السيل النورماندي على حدود ويسكس . يشير التاريخ الانجلوسكسوني القديم إلى انَّ (كل الشعب الانجليزي اعترف بسلطة **إلفرد** ، باستثناء الذين ظلوا في ظلّ السيطرة الدانمركية» . نجح **إلفرد** عام ٨٨٦ بإحتلال لندن . وأضحى الجزء المستقل من ميرسيا مقاطعة من ويسكس . كما تمكن **إلفرد** في نهاية المطاف من تنظيم حماية السواحل بتأسيس الأسطول الإنجليزي الأول . ونعمت الدولة الانجليزية بالسلام حتى وفاته عام ٨٩٩ .

لم يقتصر نشاط **إلفرد** على إنقاذ رقعة من انجلترا المسيحية وفرض المسيحية على المنتصرين . فقد أعاد ازدهار الثقافة إلى تلك الرقعة .

كان **إلفرد** كاتباً . وقصر نشاطه الأدبي على الترجمة إلى اللغة الانجليزية ، ولكن هذه الترجمات تعد بمثابة بداية النثر الانجليزي . لم يكن هذا بالعمل اليسير ، لأنه لم يتقن القراءة بالانجليزية حتى الثانية عشرة من عمره . ثم تعلم اللاتينية وهو في قمة هرم السلطة عام

٨٨٧ ، وأتقنها بصورة مكنته من ترجمة خمسة أعمال كبيرة ومعقدة .

ترجم أولاً «القواعد الرعوية» ـ أول قانون للواجبات الكهنوتية ، الفه في حينه **غريغوري** الكبير . وجد **إلفرد** في الأساقفة معلمين للمجتمع . وبعد إنجاز الترجمة ، بعث بنسخ منها إلى جميع الكنائس الكاتدرائية في مملكته .

كتب في مقدمته لمقالة **غريغوري** : «أذكر مارأيته قبل ان يُحرق وينهب كل شيء : تلك الكنائس التي كانت منتشرة في أرجاء انجلترا ، ومليئة بالكنوز والمخطوطات ، وذلك العدد الهائل من خدم الرب الذين قلّما استفادوا من المخطوطات التي لم يفهموها ، لأنها لم تكن مدونة بلغتنا . وكأنها كانت تقول : أنَّ الناس الذين سبقونا احبوا الحكمة . . . نستطيع هنا أن نرى آثارهم ، ولكننا عاجزون عن الإقتداء بهم . فقدنا الثروة والحكمة ، لأننا رفضنا تطويع عقولنا للعلم . . . اعتقد أنه يستحسن ترجمة المخطوطات التي لانفهمها ، والتي أجد أن الجميع بامس الحاجة لها ، إلى لغتنا . نريد أن تكون شبيبة انجلترا الحرة ملزمة بالتعليم ، وهذا مايمكن أن نضعه حيِّز التنفيذ بعد تحقيق السلام» .

لم يعد هذا مجرد كلام . يقول **ستينتون** في هذا الصدد : «كان في الكنيسة الانجليزية مجدداً أساقفة علماء ، واصبح بنفسه محور دائرة كهنة مستنيرين» . وذلك في اللحظة التي كتب فيها **إلفرد** العبارات الآنفة . شارك **إلفرد** في عملية البعث الروحي للبلاد كل من بليغموند أسقف آشر ASSER والقديس غريمبالد والراهب **يوحنا** القادم من CORVEY في سكسونيا .

ترجم **إلفرد** إضافة إلى مقالة القديس **غريغوري** ، تاريخ كنيسة الشعب الإنجليزي لمؤلفه **بيدا** ، **وتاريخ العالم القديم** للمؤرخ **أوروزيوس** ، مضيفاً إليه العديد من الفقرات عن بلدان أوروبا المعاصرة وشعوبها . ومن هذه الإضافات نستمد معلوماتنا عن بلاد الفيشلانيين وعن مرفأ تروسو على مصب نهر فيسلا ، (الذي قد يكون نورماندياً) .

ترجم **إلفرد** في أيامه الأخيرة عملاً عن العزاء الذي تقدمه الفلسفة ، كتبه الفيلسوف بويس في سجنه ، يؤكد فيه أن الله والميل للتقرب منه هما مصدر سعادة الإنسان ، وليست القيم المادية . وكان آخر عمل ترجمه **إلفرد** ، مقالة القديس **أوغسطين** بعنوان SOLILOQLLIA .

بالرغم من أنَّ **إلفرد** خصص عمله لسكان مملكته ،فقد فكر في واقع الأمر بإنجلترا كلها . يقول **داوصن** في هذا الصدد : «حاول أن يقدم لانجلترا ماقدمه **شارل** الكبير للمسيحية الغربية قاطبة . مارس نشاطه في ظروف أقل مواتاة بكثير . . . لكن مخططه المتواضع الهادف لنشر الثقافة المسيحية بلغته الأم كان منسجماً مع متطلبات المرحلة تماماً ، في دولة مختلفة عن امبراطورية **شارل** الثيوقراطية .

ارتبط نشاط **شارل** بفكرة الغزو ،فمزق الغزو الهيكل الذي قام بإنشائه . **أما إلفرد** ، فلم يفكر بالغزو ، ولذلك سيطر بمنجزاته على فاتحي WESSEX المقبلين . وكانت هذه الوسيلة الأكثر إنسجاماً مع المسيحية بين كافة الوسائل التي أمكنه استخدامها . لم يرفع **إلفرد** إلى مصاف القديسين مثلما حدث ل**شارل** الكبير ، ولكن لدى مقارنة هذين الرجلين ، يبدو أنَّ عمل **إلفرد** أكثر شبهاً «بالثمر الجيد» الذي منه تعرف الشجرة ، من عمل الرجل الذي أثار اسمه الخوف والكراهية لدى الذين انتظروا المحبة .

ـ الرعب النورماندي يخيم على انجلترا مجدداً

حافظ خلفاء **إلفرد** على استمرارية نهج الملك العظيم . انتصر ادوارد ابن **إلفرد** على الدانمركيين قرب تيتنهول TETTENHALL عام ٩١١ واستولى على الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر همبر . واستعاد أثلستان حفيد **إلفرد** كامل نورثمبري ، واستحق بجدارة لقب ملك بريطانيا بأكملها . ووضع الملك ادموند عام ٩٤١ حداً للإنتصارات المرحلية التي حققها ملك الدانمركيين النورماندي أولاف جوثفريثسون .

ساد الهدوء من جانب النورمانديين لمدة تقارب النصف قرن بعد هذا الإنتصار . واعتنق النورمانديون الذين استوطنوا في انجلترا المسيحية ، فاختلطوا مع السكان المحليين ولم يعودوا يشكلون خطراً . توقفت اعمال الغزو بعد أن نفذت طاقات الفيكينغ في المعارك التي دارت رحاها في اسكندنافيا ذاتها . كانت ممالك النرويج ، والسويد ، والدانمرك تنشأ وتنهار .

قتل الملك **ادموند** عام ٩٤٦ . واضطر خلفه إيدريد EDRED لخوض معركة دامية مع **فولستان** رئيس اساقفة يورك الذي اعلن تمرده . كما تعاظم دور أصحاب النفوذ في انجلترا ، وحاولوا الحد من صلاحيات الملك .

لكنَّ كبار رجال الدين وقفوا إلى جانب أحفاد **إلفرد** ، ولعبوا دوراً فاعلاً في بعث المسيحية الإنجليزية . وبينما حاول الملوك استعادة السلطة على البلاد ، باشر الأساقفة بإصلاح الحياة الدينية والإنضباط الكنسي .

أصبح القديس **أودو** من كبار الذين نشطوا في هذا المجال . كان أسقفاً في **شيربورن** ، ومن ثم رئيساً لأساقفة **كانتربري** منذ عام ٩٤٢ .

تجدر الإشارة إلى أنه انحدر من أصول دانمركية وولد وثنياً . ولما تمَّ تعيينه رئيساً لأساقفة كانتربري ، أقسم القسم البنديكتيني للمحافظة على التقاليد ، لأن رؤساء المتروبوليات الإنجليزية كانوا رهباناً على الدوام .

حافظ القديس دانستان على استمرارية عمل القديس أودو . تتلمذ على أيدي الرهبان

الإيرلنديين . وأمضى فترة طويلة في بلاط الملك أثيلستان . ثم اصبح رئيساً لدير غلاستونبري . لكنَّ الملك إدوي EDWY الإبن الثاني للملك ادموند عزله من منصبه ، لأنه اتهمه بلا أخلاقية نمط حياته . ولما شعر دانستان بالخطر الذي يتهدده من جانب الملك ، لجأ إلى دير مونت بلاندين في غانداوا ثم عاد في عام ٩٥٧ إلى انجلترا ـ في عهد الملك إدغار ـ وأصبح أسقفاً في وركستر ، ثم رئيساً لأساقفة كانتبري عام ٩٥٩ .

تلميذ ورفيق دانستان الوفي هو إثيلورد رئيس دير أبينغدون . قاد حركة إصلاح واسعة النطاق ، وحوَّل الدير إلى مركز أنموذجي اقتدت به جميع الأديرة الإنجليزية . وأصبح اسقف وينشستر عام ٩٦٣ .

لم يكن القديس أوسوالد يقل عنه حماساً لإصلاح الحياة الرهبانية . وبهدف التعرف على نمط الحياة البنديكيتينية بعد خضوعها لعملية الإصلاح ، توجه إلى القارة ، وأمضى بضعة أعوام في دير SAINT BENOIT - SUR - LOIR ومن هناك استدعاه رئيس الأساقفة أودو ، وأوكل إليه رئاسة اسقفية وركستر ، وأصبح في عام ٩٧٢ رئيساً لأساقفة يورك . قام أوسوالد بتطهير هذه المقاطعة الكنسية المهملة . فعين الرهبان في كافة المراكز التي احتلها العلمانيون من قبل ، وعاشوا حياة علمانية صرفة . اعتمدت حركة الإصلاح الكنسي في انجلترا على تعميق جذور الحياة الرهبانية . وقد أسس أسوالد بنفسه سبعة أديرة . وأنشأ في واحد منها مدرسة أشرف على إدارتها أبون ، ذاع صيتها خارج انجلترا أيضاً .

وهكذا بدأت انجلترا تتحول مجدداً إلى بلد المسيحية المزدهرة . فقد اسفر نشاط **إلفرد** عن نتائج استثنائية . يقول الكاردينال **نيومان** في عظته الشهيرة (الربيع الثاني) : « تباهت الكنائس وابتهجت بسلسلة من الشفعاء المبجلين ، الذين وجهت إليهم صلوات الشكر والإمتنان . بلغ عددهم ستة عشر في كانتربري وحدها ، منهم القديس **أوغسطين** ، والقديس دانستان ، والقديس الفيغ ، والقديس أنسيلم ، والقديس توما ، والقديس أدموند . وكان ليورك قديسيها باولين ، **ويوحنا** ، وويلفرد ، وويلهلم . وفي لندن القديس إركونوالد ، وفي دورهام القديس كاثبرت ، وفي بنتون القديس سوثيون ؛ يليهم القديس أيدان في ليندسفارن ، والقديس **هيجو** في لينكولن ؛ والقديس شاد في ليتشفيلد ، والقديس توما في هيرفورد ، والقديسان أوسوالد وفولستان في وركستر ؛ والقديس ريتشارد في CHICMESTER . . . فلننظر إلى هذه الرهبنات والأديرة ، إلى هذه الجامعات والعلاقات الواسعة ، التي أقامتها الكنيسة الإنجليزية في كامل أوروبا » .

استطاعت إنجلترا أن تبعث مجدداً المسيحية في القارة الأوربية ، التي مزقتها الحروب وعاشت مرحلة انحطاط جديدة على الصعيدين الديني والأخلاقي . أما عن البلاد الواقعة وراء نهر الرين ، فسيكتب المؤرخ **ثيتمار** عمّا قريب بأنها تدعى بالغربية «إذ تغرب هناك مع الشمس

جميع أشكال الأمانة ، والطاعة ، ومحبة القريب» . على هذا النحو قيَّم رجل ألماني **فرنسا** القرن التاسع . ولاريب في انه لم يكن مخطئاً في رأيه . لكنَّ حكمه على الحياة في المملكة الألمانية لن يكون بأفضل من ذلك . وكانت **روما** وإيطاليا قاطبة تعيش وضعاً مشابهاً من انحطاط الحياة الأخلاقية . كانت أوربا المسيحية بأمس الحاجة لحركة إصلاحية كبرى . وقامت انجلترا بوضع الخطوات الأولى على هذه الطريق .

لكنَّ حركة الإصلاح تعثرت مع موت الملك إدغار عام ٩٧٥ ، وهو شقيق إدوي . ترك إدغار العرش لإبنيه **إدوارد وإيثلرد** . لقي اكبرهما وهو إدوارد حتفه على أيدي قتلة محترفين وهو لايزال صبياً في السادسة عشرة من عمره ، كلفتهم بذلك زوجه أبيه بغية تمهيد الطريق إلى العرش أمام ابنها إيثلرد . وقد رُفع إلى مصاف القديسين بإسم القديس ادوارد الشهيد . تولى إيثلرد العرش عام ٩٧٨ ، لكن سياسة الملك الشاب لم تكن في صالح دعم الكنيسة . وكانت أولى الخطوات التي أقدم عليها هي إفتعال نزاع مع رئيس الأساقفة القديس دانستان ، الذي أبعد عن البلاط .

وردت في المؤلفات التاريخية الإنجليزية التي تعود إلى تلك الأيام إشارات (نادرة في بادىء الأمر ، وتكررت بكثرة فيما بعد) إلى هجمات جديدة قام بها القادمون من الدانمرك . فقد كتب **موريوس** : « ظهر في البدء عدد محدود من القراصنة ، في سبع أوثمان من السفن ، تبعها اسطول كامل ، وبعده «جيش» ، وبعده جيش جديد » . عجز إيثلرد عن مواجهة الأعداء . وسوف يمنحه التاريخ لقب «العاجز» ، فبدلاً من أن يحارب ، دفع فدية للغزاة . تزايد عدد الهجمات ، واستهلكت الفدية مبالغ أكبر . ولتأمين المبالغ الضرورية ، فرض الملك ضريبة جديدة تدعى «الدانمركية» . وفي نهاية المطاف وطأ الأرض الإنجليزية «جيش» بقيادة الملك **سويند** ، الذي طرد من الدانمرك قبل حين . ومعه الأمير النرويجي أولاف ، حطَّ الغزاة الرحال عام ٩٩١ في **سوفولك** ودمروا الجيوش الأنجلوسكسونية قرب مالدون وباشر **سويند** عام ٩٤٤ بإحتلال لندن ، لكنه لم يحقق مآربه ، فقد طال الحصار ودعته مصالحه للعودة إلى الدانمرك . استنكف عن احتلال المدينة ، راضياً بفدية كبيرةوأقفل عائداً . نعرف أنه في العام التالي استعاد التاج الدانمركي وتحالف مع بولونيا ، الأمر الذي سمح له بالتفكير في الإستيلاء على العرش النرويجي أيضاً . ويحتمل انه لم يكن ليفكر بالعودة إلى انجلترا . لكنَّ شقيقته غونهيلدا اصبحت زوجة الأمير الأنجلوسكسوني بالينغ

شعر إيثلرد المرتبط بحلف مع أمير نورماندیا (في **فرنسا**) في عام ١٠٠٢ بغتة بأنه قوي جداً . وقرر التخلص مرة واحدة من جميع الدانمركيين المقيمين في انجلترا . خطط لمجزرة دموية تشمل كافة الدانمركيين في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني . وتعرف هذه الليلة بليلة القديس **بريسيوس** هو خليفة مارتن كرئيس لأساقفة تور وهو احد اكثر القديسين مثاراً للجدل : امضى مايزيد عن عشرين عاماً من الحياة غير اللائقة ، التي أثارت الفضائح ، وفي

نهاية المطاف طرد من تور ، توجه بعدها الى روما ، حيث تعرضت حياته لتحول جذري ، وتمكن من العودة الى تور بعد مضي سبعة عشرعاماً كإنسان مختلف تماماً) . وبين آلاف الضحايا لقيت غرونهيلدا مصرعها ، وكذلك زوجها وأطفالها .

دفعت هذه الجريمة **سويند** إلى جنون الغضب . فاجتاح انكلترا عام ١٠٠٣ . حاول إيثلرد دفع فدية ، لكن **سويند** لم يتخلَ عن فريسته في هذه المرة . غادر إثيلرد بريطانيا عام ١٠١٣ ولجأ إلى نورماندیا ، تاركاً قضية الدفاع عن المملكة لإبنه ادموند . توفي **سويند** عام ١٠١٤ . ووقعت مهمة منازلة ادموند على عاتق ابنه **كانوت الكبير** .

ـ بلغاريا الكبرى والقيصر سيميون

نذكر أنَّ البابا **يوحنا** الثامن اعترف بشرعية فوسيوس كبطريرك للقسطنطينية شريطة خضوع **بلغاريا** للسيادة الرومانية . وكان لهذه القضية بداية أبكر . كان بوريس البلغاري قد قرر اعتناق المسيحية ، وتقبل سر المعمودية من الكنيسة البيزنطية ـ عام ٨٦٤ . لكنَّ القسطنطينية لم ترغب في الموافقة على نشوء سلطة كنيسة مستقلة برئاسة بطريرك بلغاري ، وعجزت عن الرد المقنع على التساؤلات اللاهوتية المعقدة المطروحة من قبل الزعيم الذي اهتدى حديثاً . لجأ بوريس عندئذ إلى **روما** عام ٨٦٦ . أجاب مايكل الأول على تساؤلاته بوضوح وعلى نحو مقنع ، وأرسل إلى البلغار إثنين من مبعوثيه ، كان أحدهما **فورموزوس** الذائع الصيت ، والأسقف اللاحق لمدينة **بورتو** . وهورجل ذو علم غزير ، وتقي استثنائي ، وطموحات كبيرة . كان المشروع الذي طرحه بوريس ، والمتضمن تعيينه بطريركاً على **بلغاريا** مناسبا تماماً بالنسبة له . لكنَّ البابا رفض الموافقة على المشروع ، مستنداً إلى القانون الكنسي الذي حظَّر على الأسقف تغيير أسقفيته ، كما رفض تعيين الشماس مارينوس (البابا اللاحق) بطريركاً ، لأنه أراده مبعوثاً له في القسطنطينية . غضب بوريس بسبب رفض جميع مقترحاته ومرشحيه ، الأمر الذي دفعه لإخضاع الكنيسة البلغارية لسلطة **بيزنطة** ثانية . أوفد البطريرك **أغناطيوس** حالاً عشرة أساقفة برفقة رئيس للأساقفة **إلى بلغاريا** ، بينما أعاد بوريس ممثلي البابا الى روما . ناشد البابا القيصر لإخضاع الكنيسة البلغارية لسلطته ، ولكن دون جدوى ، وهدد البطريرك أغناطيوس بالحرم الكنيسي ، توفي اغناطيوس ، والتزم بوريس الصمت إزاء جميع محاولات روما .

بعد وفاة **ميثوديوس** ، لجأ تلامذته المطرودون من **مورافيا** إلى **بلغاريا** . تمَّ استقبالهم هناك بحفاوة . وأسس القديس كليمنس ديراً في **أوخريدا** ، بينما نشط القديس ناوم في بريسلاف . أصبح تلميذ **ميثوديوس** المدعو **قسطنطين** أسقفاً في أوخريدا . وعمل تلامذة **ميثوديوس** على تعميم الليثورجيا باللغة السلافية ، واصبح الراهب **خرابر** من كبار المدافعين

عن اللغة السلافية . ولكن الأبجدية التي وضعها **ميثوديوس** تراجعت بمرور الزمن أمام الأبجدية التي اقترحها الراهب **كيرلس** ، والذي لاصلة له بالقديس **قسطنطين** - كيرلس . ويبدو أنَّ القديس كليمنس وضع هذه الأبجدية في حيِّز الإستخدام العملي .

توفي **بازيلي** الأول امبراطور **بيزنطة** عام ٨٨٦ ، وهو مؤسس الأسرة المعروفة بالمقدونية (وهي في الواقع من أصول أرمنية) . أثبت قاتل ميخائيل السكير بأنه حاكم نشيط ، حيث ضمن الرفاهية للإمبراطورية وعمَّ السلام في عهده . تراجعت حدة الضغط الذي مارسه المسلمون بعد انقسام العالم الاسلامي إلى كيانات مستقلة عن بعضها ، وحكم العباسيون **بغداد** وحدها . توالت الأسر الحاكمة على مصر ، حتى سيطر عليها الفاطميون عام ٩٦٩ الذين نظر إليهم العباسيون كمنشقين عن الدين . كما استقلت سياسياً كل من **الموصل وحلب وإيران** . وهكذا أضحت الحرب مع هذه الدويلات الصغيرة المتناحرة فيما بينها أسهل بكثير . حصَّن **بازيلي** كافة الممرات في جبال طوروس . واقتحمت الجيوش البيزنطية عام TEFRIKE ٨٧٢ وقتلت زعيم الطائفة الباولية المتحالفة مع **المسلمين** آنذاك . وتمَّ احتلال ساموساتا أيضاً . كما دمرَّ الأسطول البيزنطي أسطول أمير كريت .

أولى **بازيلي** أعمال البناء اهتماماً كبيراً بعد أن استتب الأمن ، كما أعار الجانب التشريعي أهمية خاصة ، حيث سنَّ بمساعدة **فوسيوس** دستوراً للإمبراطورية . تولى عرش الامبراطورية من بعده **ليون** السادس بالرغم من محاولات **بازيلي** في سنوات حياته الأخيرة حرمانه من العرش (حيث سرت شائعات بأنَّ **ليون** ليس ابن **بازيلي** وإنما ابن ميخائيل السكير) . كان أول إجراء اتخذه بعد الاستيلاء على العرش هو الإنتقام من فوسيوس ، حيث أرغمه على الاستقالة من منصب البطريرك طوعاً ، وعيَّن شقيقه **اسطيفان** الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من العمر في هذا المنصب . وهكذا انتهت مسيرة حياة الرجل الذي يعتبره الغرب بمثابة الأب الروحي للإنشقاق الشرقي . عجز فوسيوس النبيل ، والآثم بطموحه اللامسيحي ، والإنساني الصقيل بتهذيبه ، عن كسب شعبية في الغرب «الهمجي» إبَّان القرن التاسع ، حيث شعر بالإمتعاض من جهله - هذا مايقوله **زاكشيفسكي** عن الموضوع .

لاشك بان فوسيوس كان من ألمع شخصيات ذلك العصر . فقد أشرف الفيلسوف العالم على الكثير من الحملات التبشرية . وتدين له البلاد السلافية بالشيء الكثير . فهو الذي لفت الأنظار إليها ، عندما لم يكن الغرب قادراً على الهداية سوى بحد السيف . وهو مؤلف القوانين الكنسية الاغريقية التي جمعها بنفسه ، والمعروفة باسم MYSTAGOGIA عمل جاهداً على رفع مستوى سلك الكهنوت البيزنطي ، وأوصى بالدراسات الإنجيلية لتحقيق هذا الهدف . كان معلماً لامعاً ، كما برع في الكتابات القانونية . وقد كتب : « قراءة كلمات المزمور . . . دون فهم معناها ،كالجلوس أمام كنز خفي . وإنشاد المزامير دون تكلف عناء إدراك مغزاها ، أعلى درجات الكسل والإهمال !» .

لزم فوسيوس الدير بعد عزله عن العرش البطريركي . وقد اعدَّ آنذاك مقالة بعنوان MYSTAGOGIA كان محورها مصدر الروح القدس . والروح القدس في رأيه منبثق من الآب وحده ، وليس من الإبن . أضحت مقالته هذه فيما بعد اساساً لإنشقاق جديد . يرجح أن يكون فوسيوس قد توفي عام ٨٩١ . تكرمه الكنيسة الارثوذكسية كقديس على قدم المساواة مع خصمه اغناطيوس . وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية تجد صعوبة في الموافقة على هذا الموقف ، فهذا لاينفي كونه من المع ممثلي البعث الثقافي الذي عرفته **بيزنطة** القرن التاسع . تجدر الإشارة إلى أن البابا **يوحنا** الثامن اعترف بشرعية فوسيوس كبطريرك بعد انتخابه الأول ، تلافياً للإنشقاق الذي حدث .

لنعد الان الى **بلغاريا** . تنازل بوريس عن العرش لإبنه فلاديمير عام ٨٨٩ ، واعتكف هو في الدير . لكنَّه غادر الدير ، وسمل عيني ابنه عندما حاول الأخير ان يرتد إلى الوثنية . ثم وهب العرش لإبنه الأصغر سيميون .

أثبت سيميون أنه حاكم لامع **لبلغاريا** . كما أدرك جيداً أهمية بناء دولة سلافية مستقلة سياسياً ودينياً بين امبراطوريتين استبداديتين ، الأمر الذي لم يفهمه شفينتو بيلك الموارفي في حينه . نشر الليتورجيا السلافية في أرجاء دولته ، الليتورجيا التي كانت لاتينية أكثر من كونها اغريقية . كما عزز سيميون في الآن ذاته العنصر السلافي الذي تعاظمت أهميته في الدولة بمرور الزمن .

لم يكن هذا النشاط في نظره كافياً . فاستغلَّ ضعف **بيزنطة** المرحلي نتيجة أنهماكها في حرب جديدة مع **المسلمين** ، وطالب **بازيلي** بحلّ «شركة تسالونيكي» ـ الشركة التجارية الاغريقية المسيطرة على التجارة مع **بلغاريا** ـ ولمّا رفض **ليون** الطلب ، أعلن سيميون الحرب على **بيزنطة** ، وهزم جيوشها في تراقيا . فلجأ **ليون** السادس إلى الطريقة ذاتها التي استخدمها آنذاك الملك الألماني أرنولف ، الذي أراد سحق الامارة الموارفية الكبرى وأقنع **المجريين** عام ٨٩٢ بغزوها . حرض امبراطور **بيزنطة** أيضاً **المجريين** على مهاجمة سيميون . استسلمت **مورافيا** الكبرى للغزاة بعد حرب ضارية . ولقي شيفينتو بيلك مصرعه عام ٨٩٤ ، واعلن أبناؤه تبعيتهم لأرنولف . كما نفذّ **المجريون** الطلب الثاني وهاجموا **بلغاريا** .

لكنَّ سيميون تمكن من التحالف مع البيتشينغ . كان البيتشينغ شعباً تركياً من الرحل الذين تنقلوا في السهوب الواقعة بين نهري الدنيبر والدانوب . وبمساعدتهم وجه للمجريين ضربة قاسية عام ٨٩٥ . وكانت الكارثة التي حلّت **بالمجريين** على درجة من القوة ، بحيث ارغمتهم على مغادرة مستوطناتهم والتوجه نحو الغرب . هاجموا **مورافيا** الكبرى ثانية ، فسحقوها واحتلوا السهل **المجري** . وفي هذه المعركة لقي مصرعه مويمير الثاني آخر حكام **مورافيا** (عام ٩٠٦) .

لم تهدأ العاصفة المجرية العاتية ، وانقلبت على الذين أثاروها . **فقد اتضح بان وجود الدولة المورافية** كان بمثابة ضمانة لأمن الحدود في الامبراطورية الغربية . وعندما انهار هذا الدرع ، استهلَّ **المجريون** غزواتهم التي استمرت خمسين عاماً ، على مملكة «الكارولينغ» التي عمتها الفوضى . واشتعلت النيران في **المانيا** ، **ولوتارينغيا** ، **وفرنسا** حتى أورليان ، وبرغنديا ، **وبروفانسيا** ، وإيطاليا حتى بافيا . فعادت أيام أتيلا لتسود في أوروبا الغربية .

لكنَّ الكارثة التي حلت بأوربا الغربية لم تكن شيئاً بالمقارنة بما تعرضت له **البلاد** السلافية فيما بعد . فقد تمَّ اختراق «سورها المحصن» الممتد من البلطيق حتى الأدرياتيك . وتمَّ فصل الأجزاء الشمالية عن الجنوبية نتيجة احتلال **المجريين** للجزء الجنوبي **من موراڤيا** . وارغم السلاف الشماليون على مقاومة الضغط الألماني بمفردهم . ومنذ ذلك الحين انقطعت الصلة المباشرة مع **روما** لمدة تقارب المئة عام .

سمحت الحالة الجديدة ان ينفذ سيميون مخططاته مرحلياً . دفعت **بيزنطة** المهددة الفدية للبلغار . ضمَّ سيميون بلاد الصرب ، ومقدونيا ، وألبانيا لدولته ، ودفع الامبراطور البيزنطي الشاب **قسطنطين** السابع (ابن **ليون** السادس) للزواج من ابنته عام ٩١٣ ، ثم توج بطريرك القسطنطينية سيميون قيصراً ، أي شريكاً **لبازيلي** في الحكم . وأصبح في وسع حاكم **بلغاريا** ان يعتبر نفسه مرشحاً للتاج الامبراطوري .

لم يكن هذا خدعة من جانب الامبراطورية . فقد حاولت الديبلوماسية البيزنطية بالطريقة المألوفة إثارة البعض ضد البعض الآخر ، دَفْعَ البيتشينغ ، لمحاربة البلغار . لكنَّ البيتشنغ نكثوا بوعودهم ، ووجه سيميون ضربة جديدة **لبيزنطة** عام ٩١٨ . وفي هذه المرة طالب بالتاج صراحة . وعين ليونتيوس اسقف بريسلافيا بطريركاً على **بلغاريا** ، دون طلب موافقة بطريرك القسطنطينية لكنَّ نجاحات سيميون انتهت عند هذا الحد . لم يكن قادراً على احتلال القسطنطينية ، لأنه افتقر للاسطول الذي لم يكن احراز النصر بدونه ممكناً . وفي عام ٩٢٣ تمَّ التوصل إلى اتفاقية سلام ترضي الجانبين . توفي سيميون عام ٩٢٧ ولم تكن لإبنه بطرس مثل هذه الطموحات والمخططات الكبيرة . فتحالف مع **بيزنطة** وكان هذا التحالف مرحلياً في صالحها . أما الانتقام ، الإنتقام الرهيب ، فقد ارجىء لمرحلة لاحقة .

كانت الحقبة البلغارية الكبرى قد انتهت . ولو تمكن سيميون من احتلال القسطنطينية ، لغير مجرى التاريخ كلياً . **فبلغاريا** التي حكمها لم تكن متجانسة عرقياً وكانت ملامح النزعة الإنفصالية الصربيةقد ارتسمت بوضوح . وتوقف تدفق السيل السلافي من الشمال بسبب الحاجز **المجري** . وفي الشرق بدأت تنمو روس العظيمة ـ التي ظلَّت تتدعم **بالعنصر** النورماندي ـ التي أضحت بمثابة خطر جسيم على **بلغاريا** . أما **بيزنطة** ، فقد بدات تستعيد عافيتها .

سيجتاح شيفياتوسلاف الروسي **بلغاريا** الشرقية في الأعوام ٩٦٧ ـ ٩٧١ . وسيطرده منها البيزنطيون . وستحل ساعة الإنتقام . سوف يسحق اباطرة **بيزنطة** استقلال **بلغاريا** ليضموها لإمبراطوريتهم . وسوف يستحق **بازيلي** الثاني لقب قاتل البلغار الدموي .

كانت حملة سيميون للإستيلاء على العرش البيزنطي انحرافاً عن الخط السياسي في واقع الأمر ، حيث أمكن **لبلغاريا** ان تكون وريثة **مورافيا** الكبرى . طغت طموحات سيميون الشخصية على فكرة السلافية المستقلة .

وعلى أية حال سيصبح حكم سيميون ونشوء بطريركية بلغارية مستقلة ـ ولو لفترة زمنية وجيزة ـ نقطة انعطاف في حياة أوروبا الشرقية . وسوف يطالب السلاف مرة أخرى بحقهم . لأن سيميون الذي أخذ تركة **ميثوديوس** ، وسمح بتجمع السلافيين ضمن حدود دولته ، أوجد الظروف الملائمة لنشوء ثقافة سلافية مسيحية . ولن تتلاشى هذه الثقافة مع سقوط **بلغاريا** المستقلة . ستنتقل إلى الروس . لكنها لن تعود الى المكان الذي انطلقت منه ، إلى **مورافيا** . وسوف يتطور العالم السلافي في اتجاهين مختلفين تماماً .

أما في **بلغاريا** ذاتها ، فسوف ينشأ مركز لمعارضة مناهضة للمسيحية كرد فعل على الثقافة الاغريقية المفروضة عنوة . ستظهر طائفة عشاق الإله ، التي ستعتنق الثنوية الغنوصية الشرقية ، مثلما فعل الباوليون الذين استوطنوا في **بلغاريا** بأمر من أباطرة **بيزنطة** . لكنهم سوف يربطون بين العداء لكل ماهو مادي وبين الوداعة ذات الطابع السلافي . ولن يكونوا ذوي نزعة حربية كالباوليين .

ـ روس المقدسة

أدى تجوال الفاريغ الإسكندنافيين عبر أنهار أوروبا الشرقية إلى نشوء دولة على الطريق المؤدية إلى القسطنطينية ، ضمت المنطقة الواقعة مابين نوفوغردو (على بحيرة إيلمن) و**كييف** . يعتبر روريك مؤسساً لهذه الدولة ، لكنَّ الدلائل تشير إلى أنَّ الدولة الروسية نشأت قبل ذلك الحين ، وذلك قبل حملة الفاريغ الأولى على القسطنطينة (حوالي عام ٨٦٠) . بينما استولى عليها روريك فيما بعد على رأس مجموعته .

بعد وفاة روريك خلفه أوليغ واشرف على رعاية ابنه القاصر إيغور . قام بشن عدة حملات على **بيزنطة** ، وفي عام ٩٠٧ أرغم الامبراطورية على دفع فدية وتوقيع معاهدة تجارية كانت في صالح روس . شنَّ إيغور ذاته عام ٩٤١ حملة على **بيزنطة** . لكنَّ سفنه ـ التي يقال بأن عددها تجاوز الألف ـ أحرقت «بالنار الاغريقية» . وبالرغم من ذلك ، شنَّ إيغور عام ٩٤٤ حملة جديدة على **بيزنطة** بالتحالف مع البيتشينغ ، وأرغم **بيزنطة** على دفع الفدية وعقد

معاهدة تجارية جديدة .

قدم المبشرون المسيحيون إلى روس في مرحلة مبكرة جداً . ففي عام ٩٥٧ جاءت أولغا أرملة إيغور إلى القسطنطينية لتقبل سر المعمودية . لكنَّ الدلائل تشير إلى أن الأميرة كانت قد عمدت في **كييف** قبل ذلك الحين . وخير دليل على ذلك ، مرافقة الكاهن **غريغوري** لها .

من جاء بالمسيحية الى **كييف** ؟ قد يكون مبعوثو القسطنطينية هم الذين قاموا بهذا العمل ، لأن البطريرك فوسيوس اعلن في مرسومه الصادر عام ٨٦٧ بأن شعب الروس اعتنق المسيحية . ويحتمل أن يكون المبشرون البلغار الذين نشروا الليتورجيا السلافية هم الذين فعلوا ذلك . كما يحتمل أن يكون المبشرون الإسكندنافيون قد واصلوا عمل القديس أنسغاري . تجدر الإشارة إلى أن دولة **كييف** ـ نوفوغرود كما يقول **داوصن** ، كادت أن تشكل إبان القرنين التاسع والعاشر جزءاً من العالم الإسكندنافي ، وكانت بلاطات الأمراء الروس ملجأً طبيعياً لأمراء الشمال الفارّين أمثال أولاف تريغواسون ، والقديس أولاف ، وهارالد هودراد ، وأسرة منافسه المدعو هارالد ايضاً ، وهو أخر ملك سكسوني لإنجلترا . تقول التقاليد الإسكندنافية بأن أول رجل جاء بالمسيحية إلى إيسلندة هو ثرونوالد كودرانسون ، ويرقد جثمانه في كنيسة القديس **يوحنا** فوق الهضبة على نهر الدنيبر ، بعد رحلات تبشرية طويلة . ممايشير إلى وجود مسيحيين من أتباع الطقس اللاتيني في الدولة الروسية (ومن المحتمل أنهم شكلوا الغالبية بين السكان الذين اعتنقوا المسيحية) الدعوة التي وجهتها اولغا عام ٩٥٩ (أي بعد عودتها من القسطنطينية مباشرة) إلى رئيس أساقفة بريمين ـ هامبورغ ، وهي الأسقفية المكلفة ـ كما نذكر ـ بممارسة العمل التبشيري في الأوساط الإسكندنافية ، طلباً في إرسال مبشرين . تمَّ إختيار راهب في دير واقع قرب تريير يدعى **أدالبوت** ورسم اسقفاً مبشراً . وصل إلى **كييف** ، لكنه عاد منها صفر اليدين . فقد تطلبت هداية البلاد التوجه الى السكان المحليين السلافيين ، وليس إلى الجماعات النورماندية التي حكمت البلاد ، وكان السكان بحاجة الى معلمين يستخدمون اللغة السلافية التي يفهمونها . وهكذا أثبتت مجدداً صحة القاعدة التي وضعها القديسان **ميثوديوس** وقسطنطين .

ارتد **شفياتوسلاف** ابن أولغا إلى الوثنية . وكان فاتحاً كبيراً . سحق امبراطورية الخزر ، وهزم البلغار واحتل **بلغاريا** الشرقية مرتين . لكنه تعرض للهزيمة في نهاية المطاف على يد امبراطور **بيزنطة** عام ٩٧١ ، وطُرد من البلقان . قتل غدراً عام ٩٧٢ أثناء الانسحاب على يد **كورا** زعيم **البيتشينغ** .

كانت محاولة **شفياتوسلاف** السيطرة على **بلغاريا** والبلقان السلافي بمثابة اكتشاف طريق جديدة بالنسبة للروس . كانت الطريق المعروفة آنذاك تمر من البلطيق إلى القسطنطينية عبر الدنيبر . بينما أظهرت الجديدة بلاد الغرب ، البلاد التي جيء منها بالجياد والفضة .

بعد أن تخلص فلاديمير (ابن شفياتوسلاف) الوثني أيضاً من شقيقيه المسيحيين ، أوليغ (قتل عام ٩٧٧ ، وياروبيلك (قتل عام ٩٨٠) ، سار على الطريق الجديدة . فاحتلَّ عام ٩٨١ ماكان يعرف باسم مدن تشيرفين ، حيث يقول المؤرخ نسطور حرفياً : « توجه فلاديمير نحو بلاد اللاخ ، واحتل مدنهم :**بشيمشل** ، **وتشيرفين** ، ومدناً أخرى » .

وبعد أن بنى فلاديمير زعيم **كييف** حصناً في فولين ، عاد لمتابعة نشاطه في الجنوب ، محاولاً تكرار مخطط والده في السيطرة على البلقان . كما قاد حملتين ضد البلغار في عامي ٩٨٥ و ٩٨٦ ، فبلغ شواطىء البحر الأسود ، وهاجم عام ٩٨٨ كيرسون التابعة **لبيزنطة** ، وطالب بالزواج من الأميرة البيزنطية . تتحدث المدونات الروسية عن انجازات فلاديمير ، بينما تشير الوثائق البيزنطية إلى أن حملته على **كيرسون** انتهت بكارثة له ، لكنَّ الامبراطورية لم ترغب استغلال الموقف أكثر من ذلك . تمَّت الموافقة على تزويج فلاديمير من ابنة الامبراطور **رومان الثاني** ، ولكن بشرط اعتناق فلاديمير المسيحية الأمر الذي رفضه فلاديمير بحزم من قبل .

بغض النظر عن صدق هذا الجانب أو ذاك ، تبقى الحقيقة الواقعة أن معمودية فلاديمير تمَّت في كيرسون عام ٩٨٨ ، تلتها معمودية جماعية للسكان في **كييف** . المعمودية التي خضع لها فلاديمير تمَّت وفقاً للطقوس البيزنطية بطبيعة الحال . وفي عام ٩٩١ ، قام وفد بابوي بزيارة **كييف** ، مما يشير الى وجود الطقسين في منطقة الروس . واستمر برونو تلميذ القديس **أدالبرت** في ممارسة نشاطه التبشيري في أوساط البيتشينغ حتى القرن الحادي عشر ، بينما تابع الأسقف رينبرن العمل في منطقة وادي نهر بريبيت . وقد وجد في بلاط فلاديمير ذاته أشخاصاً مؤيدين للطقس اللاتيني ، لأن ابن الأمير (وخلفه في الآن ذاته) ياروسلاف كان متزوجاً من الأميرة السويدية ابنة أولاف ، وحفيدة شقيقة **بوليسلا** الشجاع .

كان اعتناق الروس المسيحية حدثاً عظيماً . فالتوسع الروسي السابق باتجاه الجنوب ، حدَّ بعض الشيء من خطر الغزوات النورماندية التي هددت أوروبا ، . ولن يمضي زمن طويل حتى تضعف الروابط التي كانت قائمة بين الروس واسكندنافيا ، وتتعمق علاقات الروس مع **بيزنطة** . سيبحث النورمانديون لأنفسهم عن طريق جديدة بإتجاه الجنوب . وسوف تأتي آخر مجموعة من **الفاريغ** إلى بلاد الروس ، خلال حملتهم على القسطنطينية عام ١٠٣٤ .

الفصل السادس عشر

عودة الامبراطورية الغربية

ـ أعوام إذلال روما

لنعد مجدداً إلى الأحداث ومجرياتها في الغرب .

تمزقت مملكة الكارولينغ التي سادتها الفوضى إلى دويلات مستقلة عن بعضها . ففي ألمانيا حكم سليل أسرة **شارل** الكبير ـ غير الشرعي ـ أرنولف . وبقي في **فرنسا** سليل الأسرة الوحيد ، ابن **لودفيغ** المتلعثم المولود بعد وفاة أبيه ، والمعروف باسم **شارل** البسيط . لكنَّ اصحاب النفوذ في **فرنسا** شعروا بتعاظم دورهم ، وعزلوا الفتى عن العرش ، وقدموا التاج لأمير **فرنسا** أودون ، الذي قام بالدفاع عن **باريس** أثناء الغزو النورماندي (كان زعيم إمارة صغيرة لاتشكل خطراً على أصحاب النفوذ) . وفي إيطاليا ، نصَّب الأمراء المحليون عام ٨٨٨ بيرنغر دوق فريول ملكاً عليهم . لكنَّ **غويدو** أمير سبوليتو تمرد عليه وانتزع منه التاج عام ٨٨٩ .

أضحت أحوال البابا **اسطيفان** الخامس (منذ عام ٨٨٥) حساسة للغاية . فقد كان **غويدو** الحاكم الوحيد الذي قدم الدعم للدولة الكنسية بغية مقاومة هجمات **المسلمين** . لكنَّه كان في الوقت ذاته سليل الأسرة الحاكمة اللمباردية القديمة ، التي اشتهرت بعدائها ومضايقاتها للبابوية ، ولفكرة الامبراطورية الرومانية . وجه **اسطيفان** الخامس رسائل إلى أرنولف طالبا منه القدوم إلى روما . لكنَّ الملك الألماني كان منهمكاً في حربه مع النورمانديين الذين احتلوا LOUVAIN فلم يبق أمام البابا خيار سوى تتويج **غويدو** عام ٨٩١ ، والخضوع لسلطته .

توفي **اسطيفان** الخامس في العام ذاته ، وخلفه **فورموزوس** أسقف بورتو . كان رجلاً متقدماً في السن وطموحاً . نذكر أنه في حينه أراد أن يصبح بطريركاً في **بلغاريا** ، ووقع بعدئذ خلاف بينه وبين **يوحنا** الثامن ، فأرغم على مغادرة **روما** بعد أن ألقي عليه الحرم الكنسي . ثمّ أعاد له البابا مارينوس الأول اعتباره ، فعاد الى **روما** وانتظر فرصته . وفي نهاية المطاف جاءته الفرصة التي انتظرها طويلاً .

كان **فورموزوس** من أنصار التيار الألماني ، وراغباً في رؤية سليل أسرة الكارولينغ على العرش الامبراطوري ، أي أرنولف . لكنه عاش بدوره ظروفاً عصيبة أرغمته على تتويج لامبرت ابن **غويدو** عام ٨٩٢ ، دون أن يتوقف عن مراسلة أرنولف سراً .

استجاب الملك الألماني لإستغاثات البابا في نهاية المطاف . فأرسل أولاً ابنه اللاشرعي غوينتبولد الذي عجز عن تصفية **غويدو** . دفع أرنولف عندئذ **المجريين** لغزو **مورافيا** ، وتوجه شخصياً الى إيطاليا . لكنه لم يتمكن بدوره من الوصول الى روما . أنجز هذه المهمة في حملته الثالثة عام ٨٩٥ مستغلاً موت **غويدو** . فتوّجه **فورموزوس** امبراطوراً عام ٨٩٦ ، لكنه اضطر لمغادرة إيطاليا في الحال لإصابته بالشلل ، حيث عاش عاجزاً ومريضاً حتى عام ٨٩٩ .

توفي **فورموزوس** أيضاً منهاراً بسبب فشل مخططاته . ولم يبق خلفه **بونيفاسي** السادس (٨٩٦) في منصبه سوى خمسة عشر يوماً . وخلفه البابا **أسطيفان** السادس في العام ذاته . ومع قدومه تزايد نفوذ سبوليتو في روما . بعد وفاة **غويدو** ، وإحكام ابنه لامبرت قبضته على السلطة في إيطاليا ، جاء الى **روما** لتصفية حساباته مع خصومه . أخرجت جثة **فورموزوس** من القبر بناء على أوامره ، وحوكمت عام ٨٩٧ . أدين بانه كان شاهد زور ، وخائناً ، ومنتخباً لمنصب البابا بصورة غير قانونية . ألغيت كافة المراسيم التي صدرت في عهد **فورموزوس** . جرّدت الجثة من الأثواب البابوية الرسمية ، وجرّت في الشوارع ، وألقيت في نهر التيبر في نهاية المطاف .

دفع أسطيفان السادس (الذي حاكم الجثة) حياته ثمناً لهذه المحاكمة التي كللته بالعار . فبعد أن غادر لامبرت روما ، انتفضت المدينة ، واعتقل البابا ، وقتل خنقاً عام ٨٩٧ . جاء بعده : رومان الأول ، الذي لم يدم عهده سوى اربعة أشهر ، وتيودور الثاني ـ عشرون يوماً فقط . تمكن هذا الأخير خلال ولايته القصيرة من إصدار قانونين ، هما : الإعتراف بقانونية وشرعية انتخاب **فورموزوس** ، وإقرار كافة القوانين الكنسية التي سنّها . وبعد وفاة **تيودور** حاول الشماس **سرجيوس** المنتخب بصورة غير شرعية ، الإستيلاء على العرش البابوي ، وهو من المؤيدين للتيار السبوليتاني . لكنّ لامبرت قرر دعم مرشح آخر لم يكن لانتخابه معارضة تذكر وهو راهب بنديكتيني ، عرف بعدئذ بإسم **يوحنا** التاسع ، وقد انتخب عام ٨٩٨ . أعلن **يوحنا** التاسع أن لامبرت توّج امبراطوراً ووالده على قيد الحياة ، ولم يكن تتويجه آنذاك

مجرد تتويج ملك لإيطاليا ، كما ألغى تتويج أرنولف «الهمجي» . وأعاد الإعتبار **لفورموزوس** ايضاً . ووافق **يوحنا** التاسع على أن يتم انتخاب البابا بحضور الامبراطور دوماً (كانت هذه الخطوة بمثابة عودة إلى الممارسة التي فرضها في حينه **لوتار** ، والتي حاول البابوات إلغاءها والتخلص منها دوماً) .

توفي لامبرت بصورة مباغتة عام ٨٩٨ إثر حادث أثناء الصيد ، دون أن يترك وريثاً للعرش . فطالب به **بيرنغر الفريولي** الذي حرم منه قبل ذلك الحين بعشر اعوام . ولكنه ما أن رفع صوته مطالباً بالعرش ، حتى انقضَّ **المجريون** على الشمال الإيطالي . مني بيرنغر بهزيمة ساحقة على ضفاف نهر برينتا عام ٨٩٩ ، وفقد كامل هيبته في أعين الزعماء الإيطاليين . وبينما كان **المجريون** يتابعون زحفهم ويدمرون **لمبارديا** دون أن يواجهوا مقاومة عملياً ، توفي البابا **يوحنا** التاسع عام ٩٠٠ .

لم يكن **بيرنغر** موضع ثقة بالنسبة للبابا الجديد بنديكت الرابع (الذي جلس على العرش البابوي عام ٩٠٠) ، فعرض التاج على **لودفيغ** ملك **بروفانسيا** (وهو ابن بوزون وحفيد الامبراطور **لودفيغ** الثاني) . قبل **لودفيغ** العرض ، فجاء الى **روما** وتوّج عام ٩٠١ . لكنه هوجم من قبل بيرنغر ولم يبرهن عن روح قتالية : انسحب إلى ماوراء جبال الألب ، معلناً لخصمه بأنه لن يعود للمطالبة بالعرش . وبالرغم من هذا العهد الذي قطعه على نفسه ، زحف على إيطاليا مجدداً عام ٩٠٥ ، فهزمه بيرنغر وأسره ، وامر المنتصر بسمل عينيه وإرساله إلى **بروفانسيا** .

لكن انتصار بيرنغر لم يمنحه السلطة على ايطاليا . فقد سقطت شبه الجزيرة بكاملها فريسة للفوضى والجلبة ، وتناحرت مختلف أسر الأمراء فيما بينها على السلطة . وأضحى البابوات دمى في ايدي الأثرياء وأصحاب النفوذ . فقد قتل **ليون الخامس** عام ٩٠٣ في السجن بعد شهر واحد من انتخابه ، وذلك بأمر من المرشح الجديد للكرسي البابوي **كريستوف** . وقتل **كريستوف** بدوره خنقاً عام ٩٠٣ بأمر من **سرجيوس** الثالث ، وهو **سرجيوس** ذاته الذي تمّ انتخابه بصورة غير قانونية في المرة الأولى بعد موت **تيودور** الثاني . وأعتبر عدو **فورموزوس** اللدود مجدداً جميع المراسيم التي أصدرها الأخير لاغية .

وقع البابوات منذ عهد **سرجيوس** الثالث في حالة تبعية مهينة لأسرة من النبلاء واسعة النفوذ ، هي أسرة توسكولوم ، التي مثلها ثيوفيلاكت . وأضحت الحاكمة الحقيقية **لروما** زوجته تيودورا وابنتيها مروزيا وتيودورا الصغرى ، اللاتي كنَّ نساء جميلات يفتقرن لأي شكل من أشكال الروادع الأخلاقية . أثارت تبعية عدد من البابوات المتتالين للنسوة المذكورات فضائح كبرى . تجدر الإشارة إلى أن المعلومات عن تلك المرحلة مأخوذة عن ليوتبراند اسقف كريمونا ، الذي سيلعب عمّا قريب إلى جانب **أوتو الأول** دوراً بالغ الأهمية . أيّد ليوتبراند

بحماس بالغ ارتباط **روما** بالامبراطورية ،وعبَّر عن امتعاضه من البابوات الذين اعتمدوا على الأرستقراطية المحلية في روما . كما شعر نحوهم بكراهية شخصية ، لأنه اختار لمؤلفه اسم «الانتقام» .

توالى على العرش البابوي بعد **سرجيوس** الثالث ، الذي أعاد بناء الباسيليقا اللاتيرانية بعد أن دمرها الزلزال ، كل من أنستازي الثالث (٩١١ - ٩١٣) ، ولاترون الأول (٩١٣ - ٩١٤) ، ثم جاء **يوحنا** العاشر عام ٩١٤ ، وهو الرجل الشجاع المتميز بنشاطه وتعطشه لتخليص البابوية من تبعيتها المهينة .

باشر المسلمون في عهده هجماتهم على كمبانيا ، منطلقين من قاعدتهم قرب مصب نهر جارجليانو . بحث **يوحنا** العاشر عن وسيلة لمقاومتهم ومقاومة **ثيوفيلاكت** في آن واحد ، فاستدعى بيرنغر إلى **روما** وتوجه امبراطوراً عام ٩١٥ . لكنَّ الأخير لم يحقق له الحرية المتوقعة ، لأنه لم يتحمس لمحاربة **المسلمين** . وبقي معسكر **المسلمين** حتى تحالف الأمراء الطليان بمبادرة من البابا ، حصلوا على دعم امبراطور **بيزنطة** ، ثم هاجموا المعسكر واحتلوه عام ٩١٦ وقد شارك **يوحنا** العاشر شخصياً في هذه المعركة ، واكتسب شهرة فارس شجاع لكنَّ هذا لم يجده للأسف نفعاً في نزاعه مع ثيوفيلاكت وآله ، وظلَّت **مروزيا وتيودورا** في **روما** تتمتعان بنفوذ هائل .

تمرد الأمراء الطليان في هذه الأثناء جماعياً على بيرنغر ، الذي تميز بطبعه الإستبدادي القاسي . وعرض المتمردون العرش على **رودولف البرغندي** . استدعى بيرنغر **المجريين** لسحق المتمردين ، بعد أن قاموا بغزو إيطاليا في الأعوام ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٤ . وفي نهاية المطاف ، اغتيل الامبراطور عام ٩٢٤ . وقام بعض أصحاب النفوذ الطليان بترشيح **هيجو** (حاكم **بروفانسيا**) كمنافس لرودولف ، الذي قدم الى إيطاليا . خاض كلا المرشحين معارك دموية لمدة عامين ، أحرز **هيجو** النصر في نهايتها وتوِّج عام ٩٢٦ .

قرر **يوحنا** العاشر في هذه الأثناء إعلان الحرب على آل ثيوفيلاكت . فاستخدم **المجريين** ضدهم ، حيث نهبوا ممتلكات حكام توسكولوم . وردَّ ثيوفيلاكت على ذلك بإثارة اضطرابات في روما ، اعتقل على أثرها البابا وقتل خنقا عام ٩٢٨ بأمر من مروزيا . كان كل من البابا **ليون** السادس (٩٢٨) **واسطيفان** الرابع (٩٢٩ - ٩٣١) ، اللذين جاءا بعد **يوحنا** العاشر مجرد دمى بين يدي مروزيا . وبعد موتهما ، رفعت المرأة الطموحة ابنها **يوحنا** الحادي عشر إلى العرش البابوي عام ٩٣١ .

لم يرو هذا الشيء أيضاً ظمأ مروزيا المتعطشة للسلطة . فبعد أن ترملت ، عرضت الزواج على **هيجو** ، معتقدة أنها ستكون امبراطورة إلى جانبه . قبل **هيجو** العرض وجاء الى روما ، فزوجه **يوحنا** الحادي عشر من أمه .

أثناء موكب الزفاف ، نشب خلاف بين **هيجو** و**ألبيريك** ابن مروزيا من زوجها الأول . شعر **ألبيريك** الشاب بالإهانة ، وحرض الأرستقراطية الرومانية على التمرد . فرَّ **هيجو** ونجا بنفسه ، بينما اعتقل **ألبيريك** والدته وشقيقه البابا .

ـ ألبيريك يحكم روما

مرَّت **روما** بمرحلة غير عادية ، عندما مارس فيها السلطة المطلقة رجل علماني حمل لقب «أمير وسيناتور جميع الرومان» ، سليل أسرة ثيوفيلاكت السيئة الصيت . ومرة أخرى كتب الله باستقامة على الخطوط الملتوية : وتبين أن **ألبيريك** رجل نزيه وعقلاني . فخلقت أيام حكمه في **روما** أجواءً معقولة بعد أعوام من حكم نساء منحلات أخلاقياً . لقد لعب دوراً في إختيار البابوات ، لكنَّ المرشحين الذين ساندهم كانوا أفضل من سابقيهم بما لايقارن . وعلى أية حال ، اقتصر نشاطهم في عهده على إدارة الأمور الكنسية فقط . إختفت تركة القديس بطرس من الوجود ككيان دولي ، لأن اهتمام **ألبيريك** تركز على **روما** ومحيطها فقط . كما أنه تحالف مع الملك **هيجو** وتزوج من ابنته .

تولى العرش البابوي في هذه المرحلة كل من : **ليون** السابع ـ في عام ٩٣٦ ، و**اسطيفان** الثامن ـ في عام ٩٣٩ ، ومارينوس الثاني ـ في عام ٩٤٢ ، وأغابيت الثاني في عام ٩٤٦ .

وفي عام ٩٤٦ جاء الى **روما** **أودو** رئيس دير كلوني . أشرنا مراراً إلى أن الأديرة في مملكة **شارل** انحطت . وقد اعلن المجمع الكنسي المنعقد في TROYES في **فرنسا** عام ٩٠٩ إلى أنه : « فيما يتعلق بالأديرة . . . لانعرف مايمكن قوله أوفعله إزاء حالتها ، أوبالأحرى إنهيارها . فبعضها تعرض للحرق والتدمير على أيدي الوثنيين (النورمانديين) ، كما نُهب البعض الآخر . أما الجزء المتبقي منها ، فقد تلاشت فيه كافة ملامح الحياة الرهبانية . تفتقر كافة أديرة الذكور والإناث ، ودور القانون إلى رؤساء شرعيين . وحيث يوجد رغماً عن القوانين الكنسية رؤساء غرباء (أي علمانيين) ، يعيش الرهبان دون نظام ،ويغادر بعضهم الأديرة بحكم الضرورة ويلتحقون بالعلمانيين للإهتمام بالأمور الدنيوية ، وكل هذا بسبب البؤس ، والفوضى الناجمة عن وجود أمثال هؤلاء الرؤساء ، قبل اي شيء آخر » .

لم تسفر خطة إصلاح الأديرة البنديكيتينية التي أعدها في حينه القديس بنديكت الأنياني عن نتائج مشجعة .

لكنَّ محاولات ردع الشر ظلت قائمة . فقد تمَّ تأسيس اديرة جديدة حاولت تحقيق عملية الإصلاح . ومنها الدير الذي تأسس في كلوني عام ٩١٠ تنفيذاً لوصية فيلهلم امير

أكويتانيا ، على الطريقة البنديكيتينية . كان الدير ثرياً بمحتوياته وخاضعاً لإشراف ورعاية البابا . ترأسه القديس **بيرنون** الذي حاول من قبل اصلاح وإحياء حياة الرهبنة في أديرة أخرى . وانتقلت رئاسة الدير بعد بيرنون إلى القديس أودو عام ٩٢٧ .

كانت الأديرة البنديكتينية الأولية وحدات مستقلة . وخططت حركة القديس بنديكت الأنياني الإصلاحية لإخضاع عدد من الأديرة لقيادة موحدة وتمَّ اعتماد هذه القاعدة في كلوني ، لكنَّ القديس أودو ، ارتأى بعد أن ترأس دير كلوني والأديرة المرتبطة به ، ضرورة الحصول على موافقة البابا بشأن هذا التحديث ، وبهذا الهدف توجه إلى روما .

لم تكن أوضاع الأديرة في إيطاليا بأفضل مما كانت عليه في **فرنسا** . فقد دمرها النورمانديون في **فرنسا** ، ودمرها المسلمون في إيطاليا ، أو وقعت ضحية للصراع الدائر بين مختلف الأمراء . استقبل أودو من قبل **ألبيريك** بحفاوة بالغة ، وعينه الأخير حالاً رئيساً لجميع أديرة **روما** والأديرة المحيطة بها . وهذا ما أتاح له تحقيق ماأراده في عملية الأصلاح في هذه المنطقة . واتسع نطاق الإصلاح بمرور الزمن ليشمل جميع الأديرة في إيطاليا . انهمك اودو بهذا العمل ، وأمضى حياته متنقلاً مابين **فرنسا** وإيطاليا ، حتى توفي عام ٩٤٢ في مدينة تور .

استمر حكم **ألبيريك** في **روما** لمدة اثنين وعشرين عاماً . خضعت أوروبا خلالها لتغيرات سريعة وجذرية .

تبددت الآمال الكبيرة التي علقها أثرياء **فرنسا** على شخص أودو الذي انتخبوه ملكاً عليهم ، فقد حاصر النورمانديون **باريس** مجدداً عام ٨٨٩ . ولم يتمكن أودو من التخلص منهم سوى بدفع الفدية . فتفجرت اعمال التمرد في شتى مقاطعات البلاد ، الضعيفة الارتباط بالسلطة المركزية ، وعلى نحو خاص في فلاندريا وأكويتانيا . استغل فولكو رئيس أساقفة ريمس هذه الظروف (وهو الشخص المعادي لأودو) ليتوِّج **شارل** البسيط أحد أحفاد **شارل** الكبير ملكاً ، وذلك عام ٨٩٣ . دارت رحى المعركة بين الملكين وكانا ضعيفين ، فلم يجدا من سبيل أمامهما ، سوى الإعتماد على تأييد حكام مختلف المقاطعات . عمَّت الفوضى أرجاء **فرنسا** ، وحافظ على هذه الفوضى أرنولف الألماني من خلال تدخلاته السرية . ويرجح بأنه فكر بالإستيلاء على التاج الفرنسي بهذا الأسلوب .

أسس النورمانديون عام ٨٩٦ معسكراً جديداً على مصب نهر السين . وأمام هذه الخطورة ، وبعد أن شعر أودو بدنو أجله ، تصالح مع **شارل** وتنازل له عن العرش ، ثم توفي عام ٨٩٨ .

عجز **شارل** عن دحر النورمانديين ، لكنَّه تمكن من ابرام معاهدة مع زعيمهم رولون عام ٩١١ . التزم رولون بإعتناق المسيحية ووقف الهجمات ، واعلن تبعيته للملك الفرنسي الذي

منحه الأراضي المحتلة من قبله . امتدت حدود **بروفانسيا الأولية** ، والتي ستحمل فيما بعد اسم إمارة نورماندیا ، شرقاً حتى EU وجنوباً حتى EVREUX وغرباً إلى نهر ORNE .

توفي **أرنولف** المصاب بالشلل عام ٨٩٩ في ألمانيا ، أحكمت زوجته التي رعت ابنه **لودفيغ** الملقب بالطفل ، قبضتها على السلطة . عاشت البلاد لحظات رهيبة متحملة نتائج الإستدعاء الإجرامي للمجريين إلى **مورافيا** الكبرى . اجتاح المجريون عام ٩٠٦ سكسونيا واجتازوا التخوم الشرقية عام ٩٠٧ . حاول الفرسان الألمان صدهم قرب بريسبورغ ، لكنهم منيوا بهزيمة ساحقة . فعاشت المقاطعات الأربع ، وهي : **شفابيا** ، **وفرنكونيا** ، **وسكسونيا** ، **وبافاريا** ، التي شكلت **ألمانيا** ، رعب الغزو . بينما هزم **لودفيغ** نفسه قرب أوغسبورغ عام ٩١٠ ، وتوفي الملك الشاب بعد عام واحد في ٩١١ .

تصعدت هذه الفوضى التي سقطت فيها ألمانيا مع موت **لودفيغ** . انتخب **كونراد** الفرنكوني ملكاً عام ٩١١ ، ولكن لم يكن هناك إجماع على الاعتراف به . فاستغلت لورتارينغيا الأوضاع المضطربة ، واعلنت تبعيتها للملك الفرنسي ، الأمر الذي عزز مكانة **شارل** البسيط . أما أصحاب النفوذ الفرنسيين ، الذين رأوا بأن قوة ونفوذ الملك قد تجاوزت الحد المطلوب ، فقد أعلنوا تمردهم ، ورشحوا روبيرت شقيق أودو الباريسي للعرش . لقي روبيرت مصرعه في المعركة التي خاضها مع **شارل** ، لكنَّ المتمردين عثروا حالاً على مرشح جديد وأعلنوه ملكاً . وهو رول ، صهر روبيرت وأمير برغنديا . وقام هيربيرت من فرماندوا في الان ذاته بإعتقال البسيط غدراً ، حيث توفي في السجن عام ٩٢٩ .

واجه رول تمرد نورماندیا (التي اعتقد حاكمها بأنه تحرر من قيود المعاهدة المبرمة بينه وبين **شارل** البسيط ، ووسع ممتلكاته حتى شملت كامل شبه الجزيرة المعروفة اليوم بالنورماندية ، حتى جزيرة سانت ميشيل) المتزامن مع الغزو المجري الجديد لشامبانيا ، وإقتحام الملك الألماني لوتارينغيا .

حاول **كونراد** إرغام لوتارينغيا على الإنفصال عن **فرنسا** ، والإتحاد مع ألمانيا . فقد كان لإمتلاك لوتارينغيا كمقاطعة امبراطورية ، مايبرر في نظر الحكام ذلك العصر ، المطالبة بالتاج الامبراطوري . لكن أمراء لوتارينغيا فضلوا الخضوع للملك الفرنسي على حكم الملك الألماني الصارم .

بعد وفاة **كونراد** عام ٩١٨ ، انتخب أصحاب النفوذ الألمان في فريتزلار **هنري** المنحدر من الأسرة السكسونية المعروفة بإسم **لودولفينغ** .

ومع أسرة **لودولفينغ** سوف تتوجه السياسة الألمانية لتركيز اهتمامها على الشرق بجدية أكبر من ذي قبل ، لأن السكسون البدائيين ، لم يجدوا في بادىء الأمر مايشدهم نحو الغرب أو الجنوب . أما الطموحات الامبراطورية ، فكانت غريبة عليهم . وقد ركز الألمان الذين لم

يتعرضوا للغزو الإسلامي أو النورماندي ـ جهودهم على صد هجمات المجريين ، واحتلال البلدان السلافية ، حيث ارتبطت هاتان القضيتان معاً على نحو وثيق . ساهمت بعض القبائل السلافية في الغزو المجري ، لكن المجريين استوطنوا على حدود الامبراطورية تماماً ، ونصفوا العالم السلافي ، مسببين بذلك إضعاف السلاف الشماليين . وعلى الرغم من أن المجريين دمروا المانيا ، فقد سهل وجودهم عليها احتلال البلاد السلافية الواقعة خلف نهر لابا .

يقول المؤرخ **تيمينيتسكي** :

« استخدم السكسون المعمدون بالسيف» . الأسلوب ذاته مع السلافيين ، مع انتقال وحشية معارك عصر شارل الكبير إلى المناطق السلافية ، ولكن بغياب تام للروح التبشرية الكامنة في تلك المعارك . أظهر السكسون الذين كانت الروح التبشرية ندرة بينهم ، ميلاً مشابهاً للتدمير ، وليس للهداية . وسوف يبرز في أوساط رجال الدين السكسون ميل أقوى مما ظهر لدى البافاريين ، لمنع نشوء كنيسة سلافية مستقلة ، وهكذا أضحت الهداية في نظرهم مرادفة للإحتلال الدائم . وأصبح الغزو أهم من الأهداف الدينية ، بوجود النزعة المادية التي برهنت على غياب الروح المسيحية تماماً » .

عقد **هنري** عام ٩٢٦ معاهدة سلام مع المجريين مدتها تسعة أعوام ، وذلك لقاء فدية . وهذا ما اطلق يديه لتوجيه الضربة إلى السلافيين . استعدَّ للمعركة بعناية ،ولفترة طويلة . حصَّن القلاع الحدودية أولاً ، وحولها الى معسكرات انطلاق . وقد شكلت المفارز العسكرية الحدودية من العناصر الإجرامية . كتب المؤرخ **فيدوكيند** في هذا الصدد :

«كلما عثر الملك **هنري** على لص أو قاطع طريق قوي ومؤهل للعراك ، أعفاه من عقوبته المستحقة ، ونقله إلى ضواحي ميرسبورغ وسلحه و أقطعه ارضاً ـ وفرض عليه العناية بمواطنيه ، وارتكاب أية جريمة بحق الهمجيين (أي السلافيين)» .

بدأت هجمات **هنري** المنظمة على البلاد السلافية عام ٩٢٨ . وفي هذا العام تمَّ احتلال مدينة غانا الصربية . أبيد جميع السكان الراشدين ، ونقل الأطفال «لألمنتهم» . كما شيّد حصن ميشنيا كمعسكر انطلاق ضد السلافيين في العام ذاته . وفي عام ٩٢٩ ، هاجم **هنري** الهوبولانيين والتشيك .

لاريب في انَّ **سبيتيغنيف وفراتيسلاف** إبنا **بوجيفوي ولودميلا** في التشيك كانا من المسيحيين . فقد أعلنت بلاد التشيك التي أرغمت على الإنفصال عن الفيدرالية المورافية ، تبعيتها للملك الألماني أرنولف . لكن الغزو المجري لم يرأف بهما ، وسقط كلاهما في المعركة .

حكمت لودميلا الإمارة من بعدهما . لكن الأميرة دراهوميرا ارملة فراتيسلاف ـ نظراً لكراهيتها للألمان على الأرجح ـ ارتدت الى الوثنية وتزعمت أنصار المعتقدات القديمة . وبأمر

منها هاجم أنصار الحزب الوثني **لودميلا** المقيمة في حصن تيتين وقتلوها عام ٩٢١ ، ويعتبرها التشيك أولى قديساتهم .

استولى **فاتسلاف** (ابن فراتسيلاف ودراهوميرا) على السلطة في البلاد عام ٩٢٥ . وكان **فاتسلاف** قد ترعرع في كنف جدته لودميلا ، وتميز بإيمانه المسيحي الحار ، وأبدى رغبة في إعادة نشر المسيحية في البلاد . لكن الحملة التبشرية استوجبت وجود الكهنة ، وكان هذا مرهوناً بالإعتراف بسلطة الألمان . لم يتوفر خيار آخر فلما اقتحم بتاشنيك البلاد عام ٩٢٩ ، لم يقاومه **فاتسلاف** . اختار المسيحية ومعها السيادة الألمانية . كان هذا الخيار مرفوضاً بالنسبة للتشيك ، وخاصة بعد أن رفض **هنري** قيام تنظيم كنسي تشيكي مستقل ، ومحاولته إخضاع الكنيسة التشيكية لأبرشية راتيزبونا . فاضحت الكراهية للألمان ، كراهية للمسيحية أيضاً . تزعم **بوليسلاف** (شقيق **فاتسلاف**) التحالف المناهض للألمان والمسيحية . هوجم **فاتسلاف** في مدينة **بوليسلاف** القديمة ، وقتل عام ٩٣٥ في مدخل الكنيسة . رفع بدوره إلى مصاف القديسين ، ويعد شفيع التشيك .

هاجم الألمان عام ٩٢٩ الفيليتيين أيضاً ، واحتلَّ الفرسان الألمان رادوغوشتش بالرغم من المقاومة العنيفة التي واجهوها .

وهكذا انتقلت المعارك الى الضفة الشرقية من نهر لابا ، إلى منطقة سلافية كلياً.دمر **هنري** عام ٩٣٢ مدينة ليبوشا ، وهاجم عام ٩٣٤ الفكشانيين المستوطنين حول مصب نهر أودارا .ولمَّا قدَّر أنه وجه للسلافيين ضربة قاسية ، نقض عام ٩٣٢ المعاهدة الموقعة مع **المجريين** هاجم **المجريون** تورينغيا ، لكن **هنري** هزمهم على ضفاف نهر أونستروتا ، ويعود السبب الأساسي في تحقيق هذا النصر إلى غياب السلافيين عن الساحة وعدم مساندتهم للمجريين .

حافظ **هنري** ـ قائد الحملات الدموية في الشرق ـ على السلام في الغرب ، لابل لعب دور الوسيط في النزاعات التي مزقت **فرنسا** . وصبَّ اهتمامه في أواخر حياته على القضايا **الإيطالية** . ابتاع عام ٩٣٥ بثمن باهظ من رودولف البرغنذي الرمح العجيب الذي نسبت التقاليد ملكيته **لقسطنطين** الكبير ، حيث كانت والدته القديسة **هيلانة** قد اهدته هذا الرمح . يشير ليوتبراند إلى أن الرمح «كان يحتوي في وسطه على صليب من المسامير التي ثبتت بها يدا وقدما الرب **يسوع** المسيح على خشبة الصليب» .

يعدُّ موضوع الرمح شيقاً إلى حد بعيد . فهذه الأداة الثمينة ، التي كلفت جهداً وثمناً باهظين ، أضحت منذ ذلك الحين رمزاً للسلطة الامبراطورية . وهذا الرمح الذي كان بمثابة رمز سلطة آخر الأباطرة ، موجود الآن في فيينا ، لكنَّه لايشبه الرمح الذي وصفه ليوبتراند ، بالرغم من أنه مزخرف ايضاً بمسامير من الصليب المقدس .

وإذا مااهتم **هنري** بإقتناء الرمح المقدس إلى هذا الحد ، فهو الدليل الواضح على أنه بدأ

في الأعوام الأخيرة من حياته يفكر بالعرش الامبراطوري .

ظلَّ رول ملك **فرنسا** وحيداً على الساحة بعد وفاة **شارل** البسيط ، فعاد إلى علاقة التبعية لحاكم نورماندي فيلهلم الملقب بالسيف الطويل . كما توفّق في تهدئة بعض النزاعات الداخلية أيضاً . وتوفي عام ٩٣٦ .

استعاد أحفاد **شارل** العرش مجدداً . وتربع عليه في هذه المرة ابن **شارل** البسيط المدعو **لودفيغ** ، والملقب بالقادم من وراء البحار ، لأنه ترعرع في انجلترا . اعتقد أصحاب النفوذ في **فرنسا** انهم بذلك يمنحون التاج لرجل سيخضع لإرادتهم ، يوجهونه كما يشاءون . لكنَّ **لودفيغ** أثبت أنه حاكم نشيط . الأمر الذي أثار نزاعاً جديداً مع الأتباع الأقوياء ، وفي مقدمتهم ابن روبرت (شقيق أودو الباريسي) **هيجو** ، أمير **فرنسا** ، كانت أسرة أمراء **فرنسا** تطالب بالعرش منذ اعوام . وكان **هيجو** الملقب بالكبير رجلاً حاذقاً ، يجيد التصرف بحكمة ودهاء . أشعل نار الحرب الأهلية مجدداً ـ وكانت على درجة من العنف ، بحيث لم ينجُ منها مَنْ يصد الغزو **إلمجري** الذي ذهبت ضحيته كل من شمبانيا وبرغنديا .

توفي بتاشنيك عام ٩٣٦ . وجلس على العرش بعده ، كبير أبنائه **أوتو** . ولما توج **لودفيغ** القادم من وراء البحار عام ٩٣٦ في ريمس ، أراد **أوتو** أن يثبت بأنه لايقل شأناً عن ـ الحفيد الفرنسي **لشارل** الكبير ، .. فأصدر أوامره بأن يتوج هو أيضاً في العام ذاته ، في أكويزغران (تجدر الإشارة إلى ان **هنري** لم يتوج كنسياً .

كان سلوك **أوتو** إعتباطياً منذ اللحظة الأولى لتوليه الحكم . فقد أوكل أمور الدفاع عن الحدود الشرقية إلى هيرمان بيلونغ وإلى فارس مغمور يدعى جيرون . (احتج شقيق هيرمان على تعيين جيرون واعلن التمرد ، وهو فيخمان السكسوني ـ دعنا نتذكر هذا الإسم !) . ولكنَّ **أوتو** تمكن من السيطرة على الموقف بمساعدة كبار رجال الدين .

بعد سحق التمرد ، تفرغ اوتو لموضوع لوتارينغيا التي حكمها الأمير جيسلبرت كتابع للملك الفرنسي . استغلَّ **اوتو** تبعية **هيجو** الكبير له ، وتأييد اصحاب النفوذ الفرنسيين المتنازعين مع ملكهم ،فبسط نفوذه على **لوتارينغيا** . لكنه بعد تحقيق مآربه ، بدَّل موقفه ، فوقف إلى جانب **لودفيغ** ضد خصومه . اقتحم **فرنسا** وأرغم **هيجو** على إطلاق سراح **لودفيغ** ، وساعده على احتلال ريمس . كما القى المجمع الكنسي المنعقد في انجوليم INGELHEIM الحرم الكنسي على **هيجو** عام ٩٥٠ .

انسجمت سياسية اوتو في خطوطها العريضة مع سياسة بتاشنيك . حيث اقتصر اهتمامه في الغرب على **لوتارينغيا** ، وبعد ان استولى عليها ، استمر في لعب دور الوسيط فاعل الخير . أما في الشرق ، فقد واصل الحرب ضد السلافيين .

تمرد الريداريون بعد موت بتاشنيك مباشرة . كما رفض **بوليسلاف** التشيكي تقديم

الطاعة والولاء ، وسحق الجيوش التورينغية ـ السكسونية الموجهة ضده . بينما ارغم بيلونغ الريداريين على إعلان الولاء .

تعرضت ألمانيا **وفرنسا** عام ٩٣٧ لإحدى أخطر الهجمات المجرية . ويحتمل ان يكون **بوليسلاف** قد تحالف مع المجريين .

تُرِكَ **بوليسلاف** وشأنه مرحلياً ، بينما صبَّ بيلونغ وجيرون اهتمامهما على محاربة السلاف الغربيين . هاجم بيلونغ القبائل **الأوبودرية** ، **والفاغارية** ، **والريدارية** . بينما تظاهر جيرون بأنه صديق السلافيين ، وقام بدعوة ثلاثين من زعمائهم إلى وليمة ، ثم امر بقتلهم وهم في حالة سكر .استغل هذه الخدعة واحتلَّ إمارة الهوبولانيين ومدينتهم برانيبور . قام جيرون ذاته بالحج الى **روما** عام ٩٥٠ ، وجاء ببقايا القديس **سيرياك** من سانت جيلان . فياللإرتباط المدهش بين الورع والقتل !

حاول **أوتو** عام ٩٤٨ إلغاء ثلاث أسقفيات سلافية ، هي أسقفيات **أولدنبورغ** ، **وهافلبورغ** ، **وبرادنبورغ** . لكنها كانت تابعة للمقاطعة الكنسية في MAINS الأمر الذي حدد طابعها مسبقاً . وفي عام ٩٥٠ شنَّ **أوتو** حملة على التشيك . لكنَّ **بوليسلاف** لم يهزم على ما يبدو ـ لأنه لم يعتنق المسيحية بالرغم من اعترافه بالسيادة الألمانية ـ ولم يعزل من السلطة في التشيك . وبقي منذ ذلك الحين وفياً إلى جانب **أوتو** .

لنعد الان إلى روما .

كان حفيد القيصر بيرنغر ، المدعو بيرنغر ايضاً ، مقيماً في شفابيا . وقرر عام ٩٤٥ المطالبة بحقه ، فتوجه إلى **لمبارديا** . هزم **هيجو** البروفانسي ، الذي وافق على مغادرة إيطاليا ، لكنَّه ترك العرش لإبنه **لوتار** . وفي وقت لاحق ، توَّج نفسه ملكاً على إيطاليا عام ٩٥٠ برفقة ابنه **أدالبرت** ، بعد أن تسبب بيرنغر بموت **لوتار** .

استغلَّ **أوتو** هذا الحدث . فقد اهتم ابن **هنري** بالتاج الإمبراطوري قبل بتاشنيك . اجتاز جبال الألب وأعلن الولاء لبيرنغر عام ٩٥١ . كما قرر في الان ذاته الزواج من أديلايدا أرملة **لوتار** الشابة .

بعث **أوتو** بوفد من بافيا إلى روما ، لإعلام **ألبيريك** عن رغبة الملك الألماني بالدخول إلى المدينة كحاج ، لكنَّ **ألبيريك** رفض الموافقة على ذلك .

لم يحاول الامبراطور **أوتو** احتلال المدينة بالقوة . وعلى أية حال ، فقد اضطر للعودة مسرعاً إلى ألمانيا لسحق تمرد ابنه لودولف ، وصد الغزو المجري الجديد .

ـ القيصر السكسوني

توفي البيريك عام ٩٥٤ . وقبيل وفاته اتخذ مجدداً قراراً بربط السلطة الكنسية والمدنية في **روما** بشخص البابا . وكان المرشح المتوقع لمنصب البابا ابنه **اوكتافيان** . بعد وفاة البابا أغابيت الثاني ٩٥٥ ، انتخب الرومان الأوفياء لذكرى الحاكم الراحل ، أوكتافيان الذي اتخذ لنفسه اسم **يوحنا** الثاني عشر .

نذكر أن أول بابا قام بتغيير اسمه بعد انتخابه ، كان **يوحنا** الثاني . ولجأ **يوحنا** الثاني عشر إلى الأسلوب ذاته . وسيبقى على هذا التقليد كل من **غريغوري** الخامس ، وسيلفستر الثاني ، ومن ثمَّ بعد انقطاع **سرجيوس** الرابع . وبعد **سرجيوس** الرابع ، ترسخ هذا التقليد وتقيد به جميع البابوات المنتخبين .

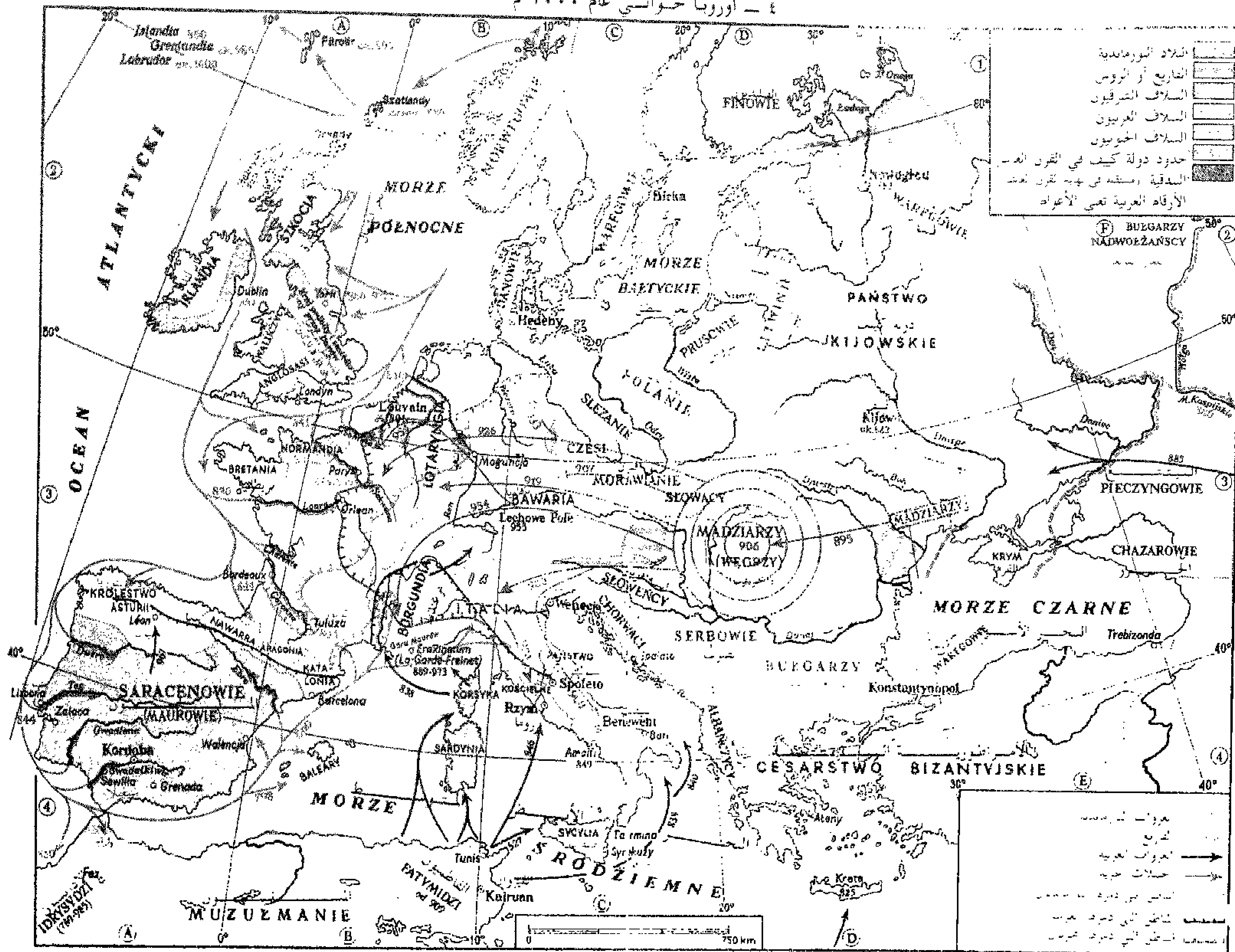
كان **يوحنا** الثاني عشر فتى في السابعة عشرة من عمره ، ليس في شخصيته مايلفت النظر ، وغير مبال بامور الدين ، ومولع بالعبث واللهو . لكنَّه سرعان مأأدرك ان سلطة بيرنغر الشاب في إيطاليا تشكل خطراً على تركة القديس بطرس . واعتقد ان القيصر الموجود وراء جبال الألب أفضل من الملك الإيطالي .ولذلك وجَّه البابا دعوة إلى **أوتو** يحثه فيها على المجيء إلى روما ، وعارضاً عليه التاج الامبراطوري .

ربما لم يفكر **أوتو** ـ المنهمك حتى ذلك الحين في سياسته المعادية للسلافيين ـ باتخاذ قرار بالإستيلاء على التاج الامبراطوري ، بدون تلك الدعوة . لكنَّه بعد استلام رسالة البابا أرسل ابنه لودولف (بعد ان تصالح معه) إلى إيطاليا . وعندما بلغه نبأ وفاة لودولف بالحمى ، أعدَّ العدة للذهاب إلى إيطاليا .

تمكن **أوتو** من القيام بذلك ، لأنَّ الأعوام الأخيرة شهدت في ألمانيا حدثين في غاية الأهمية . ففي عام ٩٥٥ اجتاح المجريون بافاريا وشفابيا . وتمكن القديس **أودلريك** أسقف **أوغسبورغ** من الدفاع عن مدينته وإنقاذها . فقاد **أوتو** شخصياً الحملة ضدهم ـ كانوا في هذه المرة أيضاً محرومين من المساندة السلافية ـ وإلى جانبه **بوليسلاف** التشيكي ، الذي كان تابعاً له ، ولعبت مساندته دوراً حاسماً في الحرب . تعرض المجريون لهزيمة ساحقة على ضفاف نهر ليخ ، انتهى معها دورهم كغزاة مرة وإلى الأبد . كان هذا النصر بمثابة ضمانة لأمن ألمانيا من الجانب المجري ، وسمح بمرور الزمن بإعادة إستيطان التخوم الحدودية الشرقية (النمسا حالياً) .

تحقق نصر هام آخر في العام ذاته . فقد شنَّ **أوتو** (بإيحاء من جيرون) حملة كبرى على القبائل السلافية الغربية المتحدة تحت قيادة الأمير الأدبودوزي ستويغنيف ووجه لها ضربة موجعة على ضفاف نهر راكوفيتسا ، وذلك بفضل دعم **بوليسلاف** التشيكي ، وخيانة الرانيين ، سكان جزيرة رانا المعروفة اليوم باسم روغيا (من اللغة الألمانية) . كما تمَّ احتلال

٤ ـ أوروبا حوالي عام ١٠٠٠ م



مدينة لينزن الحالية . وكما يقول المؤرخ فيدوكيند مؤلف «تاريخ السكسون» : «سقط مئتا ألف همجي ، وفي اليوم التالي قتل جميع الأسرى» . وهكذا سقطت المناطق السلافية الغربية الممتدة حتى نهر أودرا في يد **أوتو** ، نتيجة النصر الذي أحرزه على ضفاف نهر راكوفيتسا .

توجه **أوتو** إلى إيطاليا وقد حقق هذين الإنتصارين الكبيرين . طرد بصورة وحشية بيرنغر ، الذي اعتبر نفسه ممثلاً للملك الألماني . ثم دخل **روما** وتوج امبراطوراً عام ٩٦٢ . أقرَّ بحضور البابا تقدمة ببين القديمة ، مضيفا **نابولي** و**غايتا** إلى الممتلكات البابوية ، دون أمل يذكر في أنَّ البابا سيضع في يوم ما هذا الشيء حيّز التنفيذ .

ولكن لابد وأنَّ شيئاً ما قد حدث أثناء اللقاء الشخصي بين البابا والامبراطور ، فما أن غادر **أوتو** روما ، حتى بدَّل **يوحنا** سياسته جذرياً ووقف الى جانب بيرنغر والطليان المناهضين للامبراطور الألماني . وأقفل **أوتو** عائداً إلى **روما** فور سماعه النبأ . لم يتمكن البابا من مغادرة المدينة والفرار منها . وأمر **أوتو** بالدعوة لانعقاد مجمع كنسي عام ٩٦٣ ، شكل الأساقفة الألمان الذين رافقوه غالبية أعضائه . أدان المجمع **يوحنا** بتهمة الخيانة والحنوث بالقسم ، وعزله عن العرش البابوي . وتمَّ اختيار **ليون** الثامن بناء على أوامر **أوتو** ، وذلك بما يتعارض والقوانين الكنسية ، وهو رجل علماني (مُنِحَ خلال يوم واحد كافة المراتب الروحية) . واحتفظ **أوتو** لنفسه بحق التصديق على انتخاب البابا مستقبلاً .

تفجرت انتفاضة عامة في **روما** بعد أن غادرها **أوتو** . فاضطر **ليون** للفرار ، وعاد **يوحنا** . انعقد مجمع كنسي جديد ، أصدر قرار عزل ليون . كما انتقم **يوحنا** بصورة وحشية من جميع المشاركين في أعمال المجمع السابق .

عاد **أوتو** إلى **روما** مجدداً ، لكنه لم يجد **يوحنا** على قيد الحياة . وإذا صدق **ليوتبراند** القول ، فقد توفي البابا في ظروف تفوح منها رائحة الفضيحة .

حاول الرومان بعد موته ، وضع الامبراطور تحت الأمر الواقع ، فهرعوا لإنتخاب شماس وَرِع هو **بنديكت الخامس** في عام ٩٦٤ . لكنَّ **أوتو** لم يصادق على انتخابه ، ونفى بنديكت الى هامبورغ ، حيث توفي كقديس . رفع **أوتو** مرشحه **ليون** الى العرش البابوي ثانية ، وغادر روما .

توفي **ليون** بعد أشهر معدودة عام ٩٦٥ . ولم يتجرأ سكان **روما** على انتخاب خلف له في هذه المرة ، بل توجهوا بطلب إلى **أوتو** لإعادة بنديكت الخامس . رفض الامبراطور الطلب ، وفرض عبر ممثليه على سكان **روما** انتخاب **يوحنا** الثالث عشر .

لم يكن شخص البابا المنحدر من أسرة رومانية نبيلة وعريقة سبباً في الإنتفاضة الجديدة التي عمَّت **روما** تحت شعار «أيها القديس بطرس ،أنقذنا من السكسون» ، وإنما سلوك الامبراطور . تمَّ اعتقال **يوحنا** الثالث عشر ، لكنَّ **أوتو** عاد مجدداً إلى **روما** عام ٩٦٦ ،

وانتقم بصورة وحشية من قادة الانتفاضة . فجسدت كلمة سكسوني الكراهية في ايطاليا .

تجدر الاشارة الى أنه بالرغم من الانطباع الذي تركه الامبراطور السكسوني في إيطاليا ، فقد أحدثت إقامته خلف جبال الألب بعض التغيرات في آرائه . فللمرة الأولى وقف سكسوني اعتاد على النهب والسلب ، وجهاً لوجه أمام التصور الروماني للامبراطورية اللاقومية . ومن خلال المنظور الروماني ، نظر إلى أعمال قادته العسكريين . وربما للمرة الأولى ، أدرك الفرق بين واجب نشر المسيحية وبين ماحدث في البلاد السلافية .

وعلى أية حال ، برزت فكرة استحداث مقاطعة كنسية خاصة بالسلافيين ، في روما وكان لمدينة ماجديبورغ أن تصبح عاصمة لها . وكان يوحنا الثاني عشر قد استحدث بناء على طلب أوتو متروبولية في هذه المدينة عام ٩٦٢ ، خضعت لها أسقفيات هوبولين وبرانيبور . وغيرهما من الأسقفيات التي كانت ستحدث في المنطقة السلافية بين نهري لابا وأوردا .

لايوجد سبب واحد للإعتقاد أن المتروبولية الجديدة ، كانت ستبسط نفوذها على المناطق الواقعة خلف نهر أودرا أيضاً . فوراء هذا النهر ، كانت قد تأسست دولة لم تكن صغيرة أو ضعيفة ، دولة فضَّل الألمان أن يجدوها بدور الحليف وليس العدو .

ـ كانت بولونيا هناك

لم تنشأ الدولة البولونية بين ليلة وضحاها . ولم تكن بدايتها مع ميشكو الأول كما انها لم تنشأ في لحظة اعتناقها المسيحية . لكنَّ التاريخ يجدها قائمة . فما ان تحطم سور السلافية الغربية ، حتى برزت أنياب بولونيا أسرة بياست.

تمرد الفارس السكسوني فيخمان (ابن فيخمان ، شقيق بيلونغ) على الملك الألماني ، وأقام علاقة صداقة مع قبيلة الريداريين الوثنية ، ونفَّذ على رأس مقاتليها أعمالاً تخريبية متعددة ضد الألمان . ثمَّ ذهب إلى القائد العسكري جيرون ، وأمضى فترة من الزمن في بلاطه .

لاشكَّ في ان حكام التخوم الحدودية كانوا على درجة كافية من القوة تسمح لهم بممارسة سياستهم المستقلة في العديد من القضايا . أما جيرون ، الذي تغلب على السلافيين بالخيانة والمراوغة ، فقد أقلقه وجود دولة خلف نهر أودرا أسسها البولانيون . يقول كوستشيفسكي : «لاريب في أنَّ أسرة بياست الحاكمة لاتبدأ عند ميشكو ، بل تمتد جذورها في عمق القرن التاسع . . . إذ لايعقل أن تكون دولة ميشكو الأول ، التي وصفها ابراهيم بن يعقوب أنها أعظم دولة بين السلاف الغربيين ، قد تاسست من لاشيء على يد

الحاكم التاريخي الأول للبولونيين . فقبل أن تصل المعلومات عن الدولة البولونية إلى المصادر التاريخية ، نشأت هذه الدولة عبر أجيال عديدة ، ونمت عن طريق غزو أمير **غنيزنو** للقبائل البولونية المجاورة .

تزايد قلق جيرون من جراء وجود هذه الدولة ، وخاصة بعد أن بدأت الدلائل تشير إلى أنَّ اهتمام **أوتو** بغزو المنطقة السلافية بدأ يتلاشى أمام إنصرافه إلى الشؤون الإيطالية والتأسيس المحتمل للامبراطورية . وفي هذه الأثناء بدأت تتزايد حدة مقاومة السلافيين المستوطنين فيما وراء نهر لابا ، حيث تلاشت تدريجياً العداوات بين القبائل في مواجهة الغزاة . وتحالفت كبرى القبائل ، وهي **الأبودورية والغيلانية** . فواجه جيرون صعوبات أكبر في تطبيق شعار «فرق تسد» . أما **فيخمان** ، فقد تظاهر «بصداقته» للسلافيين من ناحية ، ولاريب في أنه نقل ماجرى «في الجانب الآخر» إلى جيرون . ولم تكن هذه الأخبار سارَّة ، لأن العاصفة في البحر السلافي بدأت تهب . وخلف هذا البحر ، راحت تتضح معالم دولة «الملك» **ميشكو** ، «صديق الامبراطور» بصورة جلية .

من أين جاءت هذه الألقاب ؟ استخدم فيدوكيند لفظة «صديق الامبراطور» ، بينما تدعو مدونات تاريخية أخرى **ميشكو** ملكاً . لم يكن **بوليسلاف** التشيكي ، التابع الوفي للامبراطور منذ أعوام ، قد حظي بمثل هذين اللقبين .

لاريب في أن لفظة ملك دلالة على عظمة الدولة . أما «صديق الامبراطور» فهي تسمية أطلقت على أتباع **أوتو** من ذوي المقام الأعلى . أعلن **ميشكو** ولاءه **لأوتو** بطبيعة الحال . وهذا ماقام به مرغماً في مرحلة مبكرة .

لم يكن **ميشكو** قد انتهى بعد من ضم السواحل الغربية للبلطيق إلى دولته عندما وصل الألمان إلى نهر أودرا . وأمام المعارك الطاحنة التي خاضها مع الدانمركيين المسيطرين على تلك البقاع ، أراد السلام مع الألمان . كما رغب الألمان مرحلياً في إقامة سلام مع دولة الأسرة البياستية . واكتفى **أوتو** بأن تخضع له شكلياً المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر فارتا .

كان جيرون مقتنعاً بأن مثل هذا الوضع مرحلي بلا ريب . وبينما كان **أوتو** مقيماً في **روما** عام ٩٦٣ يترقب انتخاب البابا **ليون** الثامن ، استغل القائد جيرون والمتمرد فيخمان غيابه ، ووضعا معاً المخطط التالي ، وفق تقديرات المؤرخ **سبلافينسكي** : أن يهاجم جيرون السلافيين في منطقة لوجيستي ويخضعهم ، بينما كلَّف فيخمان بأن يقود الفيلانيين الوثنيين ويهاجم الليتشكافيين المستوطنين في المثلث المحصور ما بين نهري أودرا وفارتا ، وهي المناطق التي كان **ميشكو** الأول قد ضمَّها حديثاً الى دولته

كان لهذا المخطط أن يحقق عدة أهداف في آن واحد . أولها إعادة الإعتبار إلى فيخمان الشاب ومصالحته مع الامبراطور (عفا الامبراطور عن فيخمان العجوز عام ٩٣٨) .

والثاني السيطرة بأسرع مايمكن على أراضي لوجيستي ، التي قدِّر لها أن تقع عاجلاً أم آجلاً في مجال نفوذ دولة **ميشكو** . وتحدث جسراً خطيراً بين بولونيا والتشيك ، وقد تقرر تنفيذ ذلك في لحظة انشغال **ميشكو** بهجوم فيخمان . والثالث - عرقلة هجوم **ميشكو** على الساحل ، والقضاء على الجيب الذي أحدثه الفيكينغ هناك ومعسكرهم المحصن في جومسبورغ . لم يكن في وسع جيرون مهاجمة «صديق الامبراطور» في المناطق الخاضعة **لميشكو** على أساس التبعية للامبراطور ، لكنَّ «المتمرد» فيخمان لم يكن أمامه مايعيقه ، وهو يعمل بمبادرة ذاتية ، وكان مثل هذا الغزو أن يعمق في الآن ذاته العداء بين الفيلانيين وبولونيا . والرابع كان لهاتين المبادرتين المنفذتين في آن واحد ، أن تخلقا أمراً واقعاً قد يُسَرُّ له الامبراطزور بعد عودته .

كان المخطط محكماً وغادراً ، متطابقاً تماماً وأسلوب جيرون «التقي» .

نقرأ في مدونات **فيدوكيند** أن فيخمان « هزم عام ٩٦٣ مرتين الملك **ميشكو** زعيم السلافيين ، وقتل شقيقه ، وغنم الشيء الكثير » وكتب أيضاً : «شتت القائد جيرون السلافيين في لوجيستى . وهذه هي الإشارة التاريخية الأولى إلى بولونيا وحاكمها **ميشكو** الأول .

تعرض **ميشكو** للهزيمة ، لكنَّ هذه الخسارة أيقظت حذره . طالت إقامة **أوتو** في إيطاليا وامتدت من عام إلى عام . وتكررت في غيابه مثل هذه الأعمال التي تمت بمبادرة من قادة التخوم الحدودية وبدعم من كبار رجال الدين السكسون . فاستوجب الأمر إيجاد سور منيع لصدها ، ليس بالمعنى العسكري وحده .

كانت دولة **ميشكو** وثنية ، أي أنَّ حكامها كانوا وثنيين ، لأن المسيحية كانت قد دخلتها منذ أمد بعيد ، ولاريب في أنها وجدت من يمثلها هناك ، ربما في بلاط **ميشكو** ذاته . فلا أحد يعرف مدى أهمية ماخلفته حملات تلامذة القديس **ميثوديوس** القديمة ، كما أمكن للمبشرين البيزنطيين أن يصلوا إلى بولونيا أيضاً ، وبالرغم من المعارك الدائرة هناك ، أمكن للمبشرين العاملين في الأوساط الدانمركية أن يظهروا هناك أيضاً . لم يكن **ميشكو** حاكماً همجياً يعمل بشريعة الغاب . فقد تردد على بلاط **أوتو** كتابع للامبراطور ، واحتك مع الشخصيات المرموقة وأصحاب النفوذ . كما أنه تردد على البلاطات الاسكندنافية . وأرسل وفوداً الى مناطق بعيدة ، ولاشك بأنه احتاج الى رجال يجيدون القراءة والكتابة ، وهؤلاء هم رجال الدين أساساً . استوجب الأمر إذن وجود غير واحد من الكهنة المسيحيين في بلاطه الوثني . وتجول في بولونيا التجار النورمانديون ، والعرب ، واليهود . فعلى الأرجح لم تكن المسيحية شيئاً مجهولاً في بولونيا . ولم تكن المعتقدات السلافية البهيجة تحاربها ، بل خضعت لها بيسر ، وخير دليل على ذلك عدم حدوث أية ردة وثنية في بولونيا ، أما مايوصف أحياناً بالردة ، فكان لها طابع مختلف تماماً .

لاحظ **ميشكو** تراجع المعتقدات الوثنية أمام المسيحية في كل مكان . واعتنق شعب بعد آخر الديانة المسيحية . وكان هذا شرط الدخول إلى المجتمع الأوربي . توجب القيام طوعاً بما أمكن أن ينفذ قسراً .

لم يبد **ميشكو** تحفظاً على المسيحية ، ولم يخش أن يعارض السكان على المعمودية . وإذا كان لاعتناق المسيحية أن يسبق المقدمات «التبشرية» من الجانب الألماني ، توجب اعتناقها على يد جانب آخر .

لم يذهب **ميشكو** بعيداً : اتصل مع **بوليسلاف** التشيكي ، الملقب بالوحشي . حدثت أمور غريبة لأحفاد قاتل القديس **فاتسلاف** . فقد لقب ابن **بوليسلاف** المدعو **بوليسلاف** أيضاً ، بالتقي . بينما كان شقيقه ستراجيكفاس ـ كريستيان راهباً في راتيزبونا .

أما ابنته ملادا «الضليعة في الكتاب المقدس» ، فقد أصبحت رئيسة لدير القديس يوري في براغ ، بعد أن أقامت مدة طويلة في روما .

لابد من أن شقيقتهم دوبرافا كانت تقية أيضاً ، وواسعة الأفق ، ذات إلمام بكثير من الأمور . تم التحالف البولوني ـ التشيكي ، الذي تتوج بزواج **ميشكو** من دوبرافا . وكان **ميشكو** رجلاً متقدماً في السن ، بينما لم تكن دوبرافا قد تجاوزت الثلاثين من العمر . ويحتمل أن تكون أرملة ، لأننا نقرأ في تاريخ التشيك ، أنها لدى ذهابها إلى بولونيا «استبدلت القلنسوة بقبعة فتاة» .

تمت معمودية بولونيا مع قدوم دوبرافا عام ٩٦٦ . وكان هذا قبل كل شيء آخر ، يعني خضوع بلاط الأمير لطقوس المعمودية ، والاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للدولة مع العلم أن الكثير من المواطنين كانوا قد اعتنقوها من قبل . لأن أجران المعمودية الضخمة ، كالذي عثر عليه في أقدم أساسات كاتدرائية **بوزنان** تحدثنا عن طقوس العماد الجماعية . ويصعب قبول الفرضية القائلة بأن تعميد السكان تم في مرحلة لاحقة .

جاء الأسقف يوردان مع دوبرافا ـ أوربما قبل ذلك الحين ـ وهو يتمتع بحقوق الأسقف المبشر . ومن المرجح أن يكون إيطالياً . ولانجد إشارة واحدة إلى خضوع بولونيا للمتروبولية التي تأسست قبل من ذلك الحين بعام واحد في ماجديبورغ . أما الأساقفة المبشرون فكانوا تابعين **لروما** مباشرة .

توفي جيرون عام ٩٦٥ ، وشنَّ فيخمان عام ٩٦٧ حملة على بولونيا على رأس الفيلانيين ، حيث تعرض للهزيمة في هذه المرة ولقي حتفه .

توفيت دوبرافا عام ٩٧٧ تاركة ابنها البالغ من العمر عشر أعوام ، وابنتها شفينتوسلافا

في السابعة .

ظلَّ **أوتو** مقيماً في إيطاليا ، وفي عام ٩٦٧ جاء الى **روما** بابنه **أوتو** الثاني ، حيث توجه البابا امبراطوراً . وحاول الامبراطور ـ بقوة السلاح تارة ، وبالوسائل الديبلوماسية تارة أخرى ـ الإستيلاء على الممتلكات البيزنطية في إيطاليا . لكنَّ الأعمال العسكرية لم تكلل بالنجاح ، وأثبتت الدبلوماسية عدم جدواها . ولم تسوَّ الأمور إلى أن تولى السلطة **يوحنا سيمسكيس** . رفضت مطالب **أوتو** المتعلقة بالمناطق التابعة **لبيزنطة** في إيطاليا ، لكنَّ القسطنطينية وافقت على زواج **أوتو** الثاني من ابنة الامبراطور الراحل رومان الثاني ، ثيوفانو الشهيرة بجمالها وحكمتها . تمَّ الزفاف في **روما** عام ٩٧٢ ، حيث باركه البابا بنديكت السادس (الذي تولى العرش البابوي بعد **يوحنا** الثالث عشر في كانون الثاني عام ٩٧٣ ، لكن السنة كانت تبدأ في عيد الفصح ، أي أنه جلس على الكرسي الرسولي منذ عام ٩٧٢) .

حدثت تغيرات جديدة في التخوم الحدودية بين ألمانيا وبولونيا . وفي نهاية المطاف استحدثت ثلاثة تخوم : الشمالي ، والميشني ، والشرقي . كما ظلَّ التخم اللوجيستي قائماً في الأعوام التي تلت موت جيرون ، أي بعد عام ٩٦٥ ، حيث تولى قيادته **هودون** .

قاد **هودون** عام ٩٧٢ ، وبشكل غير متوقع ، حملة ضد **ميشكو** . لاتزال دوافع الحملة مجهولة ، ولكن الشيء الملفت للنظر هو اتخاذ الحملة الألمانية للمنحى الذي اتخذته حملة فيخمان ، أي أنها لم تتجه إلى الشرق من **بوزنان** مباشرة . انتهت الحملة بهزيمة الألمان ، وتمكن **ميشكو** بمساعدة شقيقه جشجيبور من تشتيت الغزاة وسحق قواتهم بمناورة ذكية ، حيث لم ينج سوى القائد **هودون** ووالد المؤرخ **ثيتمار** المدعو ريغفريد . تظاهر **أوتو** بعد عودته الى ألمانيا عام ٩٧٣ بأن هذه الحملة كانت مفاجأة بالنسبة له . فاستدعى كلاً من **هودون وميشكو** ليفسرا له ماحدث . لانعرف فحوى الحكم الذي صدر في كويدلينبورغ ، ولكن يرجح أنه كان في صالح **هودون** ، إذ لاتوجد أية معلومات تشير الى معاقبة الغازي ، ونقرأ في الوثائق عن مطالبة الامبراطور بإرسال ابن **ميشكو** إلى البلاط كرهينة . أرسل **بوليسلاف** ، وفي الآن ذاته ، أرسل **ميشكو** خصلة في شعر الصبي إلى روما ، دلالة على إخضاعه لرعاية البابا .تشير هذه الرسالة الرمزية إلى عدم ثقة **ميشكو بأوتو** الألماني ، وإلى بداية العلاقات مع البابوية . توفي **أوتو** بغتة أثناء إحدى الولائم في أيار عام ٩٧٣ . انتقلت السلطة الامبراطورية والملكية إلى **أوتو** الثاني . كان رجلاً أوسع أفقاً وثقافة من والده ، لكنه ظَمِيءٌ للإطراء ، وطموح ، ذو ميل موروث للملذات الحسية . كما أن مواهبه في الحكم كادت أن تكون معدومة . بعد أن اختفى **أوتو** الأول عن الساحة ، حاولت **لوتارينغيا** الإرتباط **بفرنسا** ، كما حاولت الدانمرك الإنفصال عن الامبراطورية .

أشرنا آنفاً إلى أن هارالد الدانمركي تقبل سر المعمودية عام ٩٦٥ ، لكن **أوتو** ظلَّ بالرغم من ذلك يتدخل في شؤون الدانمرك . فقد طالب بدفع فدية ، وبإرسال **سويند** ابن هارالد رهينة إلى بلاطه .

يرجح أن يكون **سويند** و**بوليسلاف** الملقب بالشجاع قد التقيا في بلاط الامبراطور كرهينتين . وقد يكون هذا اللقاء هو الذي قرر ترتيب العلاقات المقبلة بين بولونيا والدانمرك . ففي ذلك الحين دارت رحى الحرب حتى موت **ميشكو** . سيتعرض **سويند** للهزيمة ، وستعترف جومسبورغ بالسيادة البولونية . وبمرور الزمن ، سيتحالف **سويند** مع **بوليسلاف** الشجاع ، الذي سيساعده على استعادة العرش الدانمركي ثانية .

حدثت رِدَّة وثنية في الدانمرك عام ٩٧٣ تزعمها **سويند** . وتمكن الدانمركيون بمساعدة الفيكينغ النرويجيين من تدمير الخط الدفاعي الذي كان بمثابة الخط الحدودي بين الدانمرك والامبراطورية . لكنَّ **أوتو** الثاني تمكن من سحق التمرد الدانمركي ، وإرغام الدانمركيين على إعلان الولاء للألمان . كما عارض الامبراطور الشاب بصورة مؤثرة نوايا الأمراء اللوتارينغيين .

أما في ألمانيا ذاتها . فقد حدثت اضطرابات مناهضة ل**أوتو** الثاني ، وقد نظمها **هنري** الباڤاري ، الذي اعتبر نفسه مرشحاً للعرش ، وحاول تشكيل تحالف ضد **أوتو** ، وقد أقنع كلاً من **بوليسلاف** التشيكي و**ميشكو** بالإنضمام إلى هذا التحالف . وبهدف القضاء على حركة التمرد ، قاد **أوتو** الثاني قبل كل شيء حملة ضد التشيك عام ٩٧٥ ، ودمَّر البلاد . ردَّ التشيك على ذلك بغزو باڤاريا (بالرغم من أنَّ قائد التمرد **هنري** كان أميراً باڤاريا ، وقف قسم من البلاد ، وخاصة كبار رجال الدين إلى جانب الامبراطور) . وفي عام ٩٧٦ ، شنَّ **أوتو** حملة جديدة على التشيك ، لكنه تعرض لهزيمة ساحقة قرب بيلزنو . وعجز عن إخضاع **بوليسلاف** حتى الحملة الثالثة عام ٩٧٧ . ولم يكن بدوره نصراً تاماً ، لأن **بوليسلاف** أعلن الولاء فعلاً ، لكنه ظلَّ حاكماً للتشيك . وفي نهاية المطاف حصل على الموافقة الخاصة بتأسيس أسقفية براغ (التي كانت تابعة لمتروبولية **مينس** MAINS) ، وأصبح **ثيتمار** السكسوني أسقفاً فيها (لاعلاقة له بالمؤرخ **ثيتمار** ، أسقف ميرسبورغ ، الذي عاش فيما بعد) . تأسست الأسقفية الموراڤية أيضاً في هذه الأثناء (عام ٩٧٣) في أولومونيتس ، وكانت تابعة بدورها لمتروبولية . أما متروبولية القديس **ميثوديوس** القديمة في فيلهراد فقد اختفت من الوجود بعد احتلال المجريين للدولة الموراڤية الكبرى . ونشأت بعد ذلك أسقفية جديدة في مكان أبعد في الشمال ، وأصبح فارتسين راعياً لها ، وهو سلاڤي بلا ريب .

يصعب الجزم فيما إذا كانت **موراڤيا** آنذاك لاتزال في أيدي البشيمشليين ، لكننا نعرف بأنها ستؤول عمَّا قريب لبولونيا . ربما قامت علاقة مابين الإمارة الموراڤية وإمارة الفيشلانيين ، التي هي ماتبقى من **موراڤيا** الكبرى القديمة . وكانت صلة الوصل مابين بولونيا الصغرى

ومورافيا إمارة الأمراء السلافونيين المرتبطة بالتشيك .

لابدَّ وأن المسيحية كانت قد تغلغلت هناك بصورة أعمق مما كانت عليه في التشيك ، الأمر الذي فرض تعيين سلافي في منصب الأسقف . وربما ظلَّت مورافيا إلى حد ما تابعة لروما ، ولم يكن تأسيس أسقفية في أولومونيتس سوى محاولة لخلق توازن مع النفوذ الألماني في التشيك . لأن إخضاعها لمتروبولية MAINS التي ابتعدت عنها بما يقارب السبعمئة كيلو متراً ، قضية موضع جدل .

انجرف بوليسلاف التشيكي وساهم في النزاع القائم بين هنري وأوتو ، بينما اتخذ ميشكو موقفاً محايداً ، اقتصر على الغاء تبعيته لأوتو . فشنَّ أوتو مابين عامي ٩٧٥ ـ ٩٧٩ حملة في الشتاء على بولونيا ، انتهت بالفشل .

وبالرغم من ذلك ، ”تصالح“ ميشكو مع الامبراطور حوالي عام ٩٧٩ ، وعاد ليلعب دور صديق الامبراطور . وتزوج في الآن ذاته من راهبة في دير كالبي تدعى أودا (وهي ابنة ديتريخ ، القائد العسكري للتخم الحدودي الشمالي) . وافق رجال الدين الألمان على هذا الزواج (أي أنهم حرروا أودا في قسم الرهبنة) ، وفي هذا الصدد يقول ثيتمار : من اجل إنقاذ الوطن ، وتوطيد السلام . . والمصالحة الدائمة» تعدُّ هذه الكلمات بمثابة دليل قاطع على الأهمية التي علقها الألمان على التحالف مع بولونيا .

توقف المجريون بعد الهزيمة التي تعرضوا لها عن غزو أوروبا . استقروا ، وتزعمت الأسرة الأربادية دولتهم ، لكنهم لم يتحولوا إلى سلافيين كما حدث للبلغار . تزوج الأمير جيزا من شقيقة ميشكو أديلايدا (يرجح أن يكون هذا الزواج قد تمَّ عام ٩٦٨) . تميزت أديلايدا بمزاج حاد : تعاطت المشروبات الروحية ، وركبت الخيل ولم تتردد في قتل إنسان في حالة الغضب . لكن وجودها في المجر ساعد على زرع المسيحية هناك . توجه جيزا برفقة قادته العسكريين إلى القسطنطينية ، واعتنق المسيحية هناك ، وأرسل الراهب فيلوثيوس ، الذي رسم أسقفاً مبشراً ، إلى المجر . لكنَّ المؤثرات الغربية طغت فيما بعد .

كانت أديلايدا الزوجة الثانية لجيزا . ولانعرف إن كان قد انجب ابنه فايك ملك المجر اللاحق ، والقديس اسطيفان ، في زواجه الأول أو الثاني .

يحتمل ان يكون بوليسلاف ابن ميشكو قد تزوج في مرحلة التقارب بين بولونيا والمجر من مجرية نجهل اسمها . وكان هذا زواجه الثاني . كان زواجه الأول من ألمانية هي ابنة قائد التخم الحدودي الميشني . وقد لاتكون هذه العلاقات زواجاً كنسياً ، لأنه عندما ارتبط فيما بعد (عام ٩٨٧) بزوجته إيمنيلدا ابنة أحد أمراء السلاف الغربيين ، الذي يدعى دوبرمير ، لم يلق زواجه هذا معارضة من جانب الكنيسة . أما الزواجان السابقان فقد انتهيا بهجر بوليسلاف لزوجته .

يمكننا أن نتوقع بسهولة سبب إصرار الامبراطورية على البحث عن تفاهم مع **ميشكو** .

لقد واجه **أوتو** الثاني تمردات جديدة مرة بعد مرة . ففي عام ٩٧٤ ، وبينما كان **أوتو في** ألمانيا تفجرت في **روما** انتفاضة ضد البابا بنديكت السادس ، اعتقل البابا على اثرها وقتل خنقاً . أما البابا الجديد ، الفرنكوني الأصل ، الذي اتخذ لنفسه اسم **بونيفاسي** السابع ، فلم يصادق **أوتو** على انتخابه . وبنتيجة إعتراضه أجريت انتخابات جديدة رفعت الى العرش البابوي بنديكت السابع ، أسقف سوترا ، الذي خضع للامبراطور خضوعاً أعمى ، واهتم في الان ذاته بأمور الكنيسة ، وخاصة بحركة الإصلاح الكلونية (كان **أوتو** أيضاً من أنصار هذه الحركة الإصلاحية ، حتى أنه أبدى رغبة في انتخاب رئيس دير كلوني المدعو مايولس لمنصب البابا ، لكنَّه فوجيء بعدم موافقة هذا الراهب) .

لابدَّ وأن الملك الفرنسي **لوتار** (ابن **لودفيغ** القادم من وراء البحار) اغتاظ لبقاء لوتارينغيا خاضعة لألمانيا رغماً عن إرادة أمرائها . فاقتحم عام ٩٧٨ **لوتارينغيا** على رأس جيوشه واحتلَّ أكويزغران . وردَّ **أوتو** على ذلك بحملة انتقامية أوصلته إلى مرتفعات مونت مارتري ، لكنَّه لم يحتل باريس .

وفي نهاية المطاف ، توجه **أوتو** إلى **روما** عام ٩٨٠ بعد أن سحق جميع حركات التمرد . وكان في عداد أفراد حاشيته **هيجو** كابيتا ، أمير **فرنسا** ، ابن **هيجو** الكبير ، الذي قدم كأبيه خدماته للامبراطور ، آملاً أن يدعمه في تحقيق طموحه بالإستيلاء على عرش **فرنسا** .

تبع **أوتو** إلى ماوراء جبال الألب جيش جرار تمَّ تجميعه بإعلان النفير العام ، كان له أن يحرر **إيطاليا** من **المسلمين** . لكنَّ **أوتو** الثاني بدأ حملته بمهاجمة واحتلال تارينتو التابعة لـ**بيزنطة** (عام ٩٨٢) . ثم وجه الجيش ضد **المسلمين في كالاباري** ، لكنه مني بهزيمة ساحقة قرب **كوتروني** . وصف **ثيتمار** الحدث بقوله :

«حاول **أوتو** النجاة بالفرار . . . وصل إلى شاطيء البحر ، وهناك لاحظ سفينة تدعى سالاندريا . . . فاتجه نحوها مسرعاً وهو يمتطي جواداً مأخوذاً من يهودي يدعى كالونيم . لكنَّ السفينة مرَّت به دون أن تنقذه . . . ولاحظ على متن السفينة التالية ـ رجلاً تربطه به علاقة صداقة . . . فامتطى صهوة الجواد ثانية وخاض في المياه . . . ولما تعرف عليه ذلك الفارس المدعو **هنري** ، والذي كان يدعى بالسلافية جيلانتا ، صعد الى السفينة» .

وهكذا نجا الامبراطور بنفسه وبصعوبة بالغة ، بمساعدة يهودي من رجال البلاط وفارس سلافي مجهول ، ولم يقع أسيراً في ايدي **المسلمين** أوالبيزنطيين ، الذين لم يكونوا أقلَّ خطراً عليه .

أهو نبأ الهزيمة التي مني بها الامبراطور ، أم أن كراهية السلاف الغربيين للألمان تنامت

وطفح الكيل ؟ مما أدى إلى انفجار انتفاضة عارمة عام ٩٨٣ ، **شملت** جميع المناطق الواقعة وراء نهر لابا . هددت الإنتفاضة قبل كل شيء آخر الكنائس ، لأنَّ رجال الدين المحليين ارتبطوا بالسلطات الألمانية ، وفهموا مهمتهم كإحتلال . فقبل ذلك الحين ، وفي عام ٩٨٠ تحديداً ، قُتِلَ **دوديلو أسقف برانيبور على أيدي رجال أبرشيته السلافيين** . وتجدر الإشارة هنا الى أن الفيلانيين الوثنيين هم الذين فجروا الإنتفاضة ، ولكنها شملت الأبودريين المسيحيين أيضاً . يقول **ثيتمار** في هذا الصدد :

«بدأت هذه الجريمة في حزيران بقتل الموظفين في **هوبولين** ، وهدم كاتدرائية المدينة . وبعد ثلاثة أيام ، هاجم السلافيون بقواهم الموحدة كاتدرائية بريمين في لحظة قرع الأجراس صباحا . . . ونجا راعيها بنفسه فارّاً قبل ذلك الحين ، أما حامي الكاتدرائية تيودوريك وفرسانه ، فقد نجوا بأنفسهم بصعوبة في ذلك اليوم . وبعد هذه الأحداث دمر السلافيون دير القديس لورانس في كالبي ، ثم طاردوا رجالنا الفارين كالغزلان المذعورة . لقد بثت خطايانا الرعب في قلوبنا ، وزودتهم بالشجاعة . . . فسقطت جميع المدن والقرى حتى ضفاف نهر تونغيرا وأضحت عرضة للسلب ، والنهب ، وألسنة اللهب» .

وفي نهاية المطاف ، قام السكسون ، الذين فرّوا بدون مقاومة في بادىء الأمر ، بتنظيم عملية الدفاع بقيادة جيزيلر رئيس أساقفة ماجديبورغ . وانسحب السلافيون ثانية إلى ماوراء نهر لابا . لكنَّ الأرض الواقعة هناك ، ظلّت خاضعة لسيطرتهم .

في مثل هذه اللحظات ، جاء من **روما** عام ٩٨٣ نبأ موت **أوتو** الثاني المباغت .

الفصل السابع عشر

إمبريالية أم صليبية ؟

ـ بيزنطة تستعيد عظمتها

أضحت **ثيوفانو** حاكمة للبلاد وهي ترعى ابنها **أوتو** الثالث ، الذي لم يتجاوز الثالثة من العمر . ولفهم الدور الذي لعبته في تكوين آراء الامبراطور الشاب ، يجب أن نعود قليلاً إلى الأحداث التي اتخذت مجراها في **بيزنطة** في أواخر القرن التاسع ومطلع القرن العاشر .

فمع استيلاء الأسرة الحاكمة المعروفة «بالمقدونية» ، تنامت عظمة الامبراطورية الشرقية ببطء ، ولكن بصورة مستمرة وتلت النهضة الثقافية النجاحات العسكرية .

بالرغم من قيام **ليون** السادس بعزل معلمه الكبير ، ذو النزعة الإنسانية ، **فوسيوس** ، كان بدوره من أنصار المعرفة والثقافة ، حيث نظم الشعر بنفسه ، ولقِّب بالفيلسوف . لكنَّ حبه للفلسفة ارتبط باعتباطية نمط حياته الشخصية .

حدث إنقسام في أوساط سلك الكهنوت البيزنطي أثر عملية عزل البطريرك . حيث طالب «الإغناطيوسيون» ، الذين لم يتصالحوا يوماً مع فوسيوس ، بعزل كافة الأساقفة الذين رسموا في عهد فوسيوس . وانقسموا فيما بينهم إلى فئتين ، تألفت الأولى من المتزمتين . والثانية ـ من ذوي الميول الوفاقية . وعارضتهم في المقابل مجموعة لايستهان بها من الفوسيوس» ، وخاصة الأساقفة الذين قام فوسيوس برسامتهم .

عجز البطريرك **اسطيفان** (شقيق الامبراطور) عن تسوية هذه النزاعات . توفي عام ٨٩٣ ، وخلفه البطريرك أنطونيوس كاولياس ، الذي تعاطف مع الإغناطيوسيين المعتدلين ،

تمتع بنفوذ كبير في اوساط الاكليروس ، وتمكن من إعادة السلام الى الكنيسة الاغريقية .

سمح هذا الشيء بإقامة علاقات جديدة مع روما . وأعلن البابا **يوحنا** التاسع اعترافه بشرعية البطاركة : اغناطيوس ، فوسيوس (الولاية الثانية فقط) ، وأسطيفان ، وكاوليباس وبهذا تمَّ حل النزاع المتعلق بشخص فوسيوس بصورة نهائية .

ولكن لم تكد أن تتم تسوية هذه الأمور ، حتى هبت رياح خلاف جديد أثاره الامبراطور هذه المرة . فقد اختار الامبراطور ليون ، المتزوج من ثيوفانو ، محظية تدعى زوي وبعد وفاة ثيوفانو عام ٨٩٧ ، قرر الزواج رسمياً منها (أي من محظيته) . فعارض الراهب القسطنطيني الورع يوثيميوس المشروع بحزم . لكن الامبراطور أمر بعقد قرانه على زوي عام ٨٩٨ ، وَنُفِيَ الراهب بوثيميوس إلى دير بعيد .

توفيت زوي بعد عام واحد من ذلك دون أن تنجب مولوداً ذكراً مثلما حدث **لثيوفانو** . ولذلك قرر الامبراطور **ليون** عام ٩٠٠ الزواج من امرأة أخرى تدعى يودكسيا ، خارجاً بذلك عن القانون الذي أصدره بنفسه ، والذي يمنع الزواج للمرة الثالثة . لكنَّ يودكسيا أيضاً توفيت عام ٩٠١ ، فارتبط **ليون** بإمرأة جديدة تدعى زوي أيضاً ، وطالب الكنيسة بأن تبارك هذا الزواج .

كان كاوليباس قد توفي ، وجلس على العرش البطريركي منذ عام ٩٠١ البطريرك **ميخائيل** الملقب بالمتصوف ، وهو رجل شديد الحماس للدفاع عن نقاء الدين . أثار سلوك الامبراطور غضباً عارماً في الأوساط العامة . وعارض ميخائيل عقد قران الامبراطور . وبما أن العلاقة مع زوي الجديدة أسفرت عن مجيء المولود الذكر الذي طال انتظاره ، وافق ميخائيل على تعميد الصبي بصورة احتفالية ، وهذا يعني الاعتراف به وريثاً شرعياً للعرش ، شريطة إبعاد والدته . وافق **ليون** على الشرط ، ولكنه بعد تعميد الطفل عام ٩٠٦ ، أعاد والدته الى البلاط مجدداً ، وأمر أن يعقد قرانه عليها ، ثمَّ توَّجها امبراطورة . غضب ميخائيل ، وقام بتجميد الكاهن الذي عقد القران ، كما حظَّر على **ليون** دخول الكنيسة .

لم يتراجع **ليون** عن موقفه ، واستأنف القضية إلى روما . كان يدرك أنَّ الكنيسة الرومانية لم تمنع تكرر الزواج . واعترف البابا فعلاً بشرعية زواج **ليون من زوي** ، الأمر الذي أغاظ ميخائيل ، ودفعه لقطع العلاقة مع روما .

ونشأ انشقاق جديد .

اكتشف **ليون** تورط البطريرك في مؤامرة حيكت ضده ، فأرغمه على الإستقالة ، وأرسله إلى الدير عام ٩٠٧ . جلس بعده على الكرسي البطريركي **يوثيميوس** ، الراهب الورع الذي أغاظه في حينه زواج **ليون** الثاني ، ونفي بسبب ذلك الى دير بعيد . وبعد أن أعاده الامبراطور إلى القسطنينية ، التزم بقرار روما ، مع التحفظ ، واعتبار هذه القضية استثنائية . قام

بتتويج **قسطنطين** الثامن ـ الذي لم يتجاوز السادسة من العمر ، على نحو احتفالي عام ٩١١ .

توفي **ليون** عام ٩١٢ ، فأصبح **ألكسندر** وصياً على ابن أخيه **قسطنطين** الثامن . وكان أول ماقام به هو إلغاء قرارا نفي ميخائيل ، وإصدار قرار بنفي يوثيميوس .

فأثار هذا حرباً جديدة في الكنيسة البيزنطية ، التي انقسمت حالاً إلى أنصار ميخائيل وأنصار يوثيميوس . أما ألكسندر الذي أثار الفتنة ، فقد توفي بعد مالايزيد عن عام واحد في ممارسة السلطة كوصي على الامبراطور القاصر .

نفَّذ اسطول **المسلمين** في عهد **ليون** السادس انزالاً في مدينة تسالونيكي (عام ٩٠٤) ، وتمَّ خطف اثنين وعشرين ألفاًمن الصبية والفتيات . وقبل ذلك الحين سقطت مدينة تارومينا واحتلّها المسلمون . وأضحت صقلية بأكملها قاعدة انطلاق لأسطولهم . وبالرغم من ارسال القائد البيزنطي اللامع **نيكيفور** فوكاس الى إيطاليا ، وتمكنه من ترسيخ السلطة الامبراطورية في المقاطعات البيزنطية ، عجز عن حماية كالامبريا ومنع اسطول **المسلمين** من القيام بعملية الإنزال فيها . وخطط القائد العربي **ابراهيم** لإحتلال روما ، لكنه توفي قبل تنظيم الحملة . وثارت بعد وفاته بين **مسلمي القيروان** حرب أهلية على الصعيد الديني ، الأمر الذي أنقذ إيطاليا مرحلياً من الخطر الإسلامي ، وسمح بتحقيق عدد من الإنتصارات عليهم . فقد أغرق الأسطول البيزنطي أسطول **المسلمين** على سواحل **كالامبريا** عام ٩١٤ ، كما دمرت القوى الموحدة التابعة للبابا والأمراء الطليان والجيوش البيزنطية ، الحصن الموجود على مصب نهر جار جليانو عام ٩١٥ .

بعد وفاة الكسندر ، تولَّت السلطة الوصائية في البلاد لجنة برئاسة البطريرك ميخائيل أولاً ، ومن ثمَّ والدة الامبراطور زوي .

شكلت مطالبة الزعيم البلغاري سيميون ـ الأمر الذي أشرنا إليه آنفاً ـ بالتاج الامبراطوري خطراً جديداً على **بيزنطة** . وفي مثل هذه اللحظات الحرجة ، استولى على السلطة في البلاد ، أدميرال الأسطول البيزنطي رومانوس لاكابينوس عام ٩١٩ . منحه الامبراطور الشاب لقب «رفيق الحكم» وتزوج من ابنته .

كانت الخطوة الأولى التي أقدم عليها لاكابينوس هي محاولة المصالحة مع **روما** (ربما خشيت **بيزنطة** أن تدعم **روما** مطالبة سيميون) . كما وجَّه البطريرك ميخائيل ، الذي استعاد مواقعه بعد عزل زوي (التي أبعدته في حينه عن رئاسة لجنة الوصاية) عدة رسائل توفيقية إلى البابا . وأعلن البابا **يوحنا** العاشر عدم اعتراضه على التقليد البيزنطي (الاغريقي) الذي يحرم بشكل مطلق الزواج الرابع ، ويسمح بصورة استثنائية فقط بالزواج الثالث . ولإثبات حسن نواياه ، بعث البابا بوفد إلى القيصر سيميون لإقناعه بعقد معاهدة سلام مع **بيزنطة** . وتتوجت المعاهدة بزواج بطرس ابن القيصر سيميون من حفيدة لاكابينوس .

بالرغم من أن لاكابينوس لم يكن سوى شريك في الحكم من الناحية الرسمية ، **فقد** أصبح الحاكم الفعلي للامبراطورية . بينما تركز اهتمام **قسطنطين** الثامن على الكتب التي كان مولعاً بها .

باشر البيزنطيون أعمالهم الحربية في آسيا الصغرى بقيادة **يوحنا** وثيوفيل كوركوناس ، القائدين الأرمنيين اللامعين ، وتمَّ احتلال **ميتلين** . وبعد معارك طويلة ، أرغم **يوحنا** كوركوناس أمير **إديسا** عام ٩٤٤ على التنازل له عن صورة اليسوع ، التي زعم أنها أرسلت في حينه الى الملك **أبجد** .

أراد لاكابينوس نقل السلطة الى أبنائه . فتربع أحدهم على العرش البطريركي عام ٩٣١ ، لكنه عاش حياة لهو وعبث ، غير آبه بأمور الكنيسة .

وقام اثنان آخران من أبنائه بعزل والدهما عام ٩٤٤ ونفيه الى الدير .

لكن هذا الانقلاب أثار حفيظة قسطنطين ، الذي كان غارقاً بين كتبه حتى ذلك الحين ، فأمر باعتقال أبناء لاكابينوس وعزلهم في الدير . وقرر أن يمارس صلاحياته كحاكم فعلي بعد أن مارسها شكلاً لما يزيد عن ثلاثين عاماً .

ترك ثيوفيلاكتوس في منصبه البطريركي حتى موته عام ٩٥٦ . **فخلفه** عندئذ كاهن ورع يدعى بوليوكتوس ، لكنه متعصب وضيق الأفق .

ظلَّ **قسطنطين** حتى موته مهتماً بالدراسة أكثر من اهتمامه بالسلطة وكتب لابنه رومانوس مقالة عن الحكم في الامبراطورية ، (وصف فيها بين أمور أخرى) بدقة فائقة البروتوكول المتبع في البلاط . وكما **فعل الملك إلفرد** ، أشار في مؤلفه هذا إلى كثير من الشعوب الأوروبية ، فذكر الصرب والكرواتيين ، الذين وجد فيهم أعداء طبيعيين **لبلغاريا** . كما أشار إلى **كرواتيا** الكبرى ، التي يبدو أنه فهم بها بلاد التشيك . ولما أشار إلى قبيلة **زاخلوم** الصربية ، أفاد بأن أحد قادتها يدعى ديجيك ، وقد جاء من السلاف الوثنيين القاطنين على ضفاف نهر فيسلا . حاول الأسطول البيزنطي عام ٩٥٦ استعادة كريت من **المسلمين** ، لكنَّ المحاولة باءت بالفشل أمَّا في البر ، فقد أحرز ثلاثة قادة من آل فوكاس (أب وإبناه) نجاحات كبيرة في أسيا الصغرى .

توفي **قسطنطين** عام ٩٥٩ ، فخلفه ابنه رومانوس الثاني . كان القيصر الشاب متزوجاً من إمرأة من عامة الشعب تدعى أنستازو ، اتخذت لنفسها الإسم الملكي ثيوفانو . أثبتت المرأة أنها طموحة وظمئة للسلطة . فلَّما توفي رومانوس عام ٩٦٣ ، خشيت أن تفقد السلطة ، وقدمت يدها والعرش للقائد اللامع **نيكيفور** فوكاس .

كان **نيكيفور** رجلاً متقدماً في السن ، وأرملاً ، يفكر في الإعتكاف في الدير ، وكان

من أقرب أصدقائه القديس أنتستازي ، وهو راهب في جبل أثوس . وهنا على جبل المسيحية المقدس تمَّ تأسيس دير خاضع لقواعد رهبانية صارمة ، بعكس الأديرة البيزنطية الأخرى ، التي لم تكن سوى تجمعات ضعيفة الترابط للمتوحدين . بينما كانت ثيوفانو امرأة شابة ، باهرة الجمال . اعتبرت زواجها من **نيكيفور** عملاً عقلانياً . لكنَّ هذا الزواج ، أثار موجة من العواطف المتأججة لدى القائد الكهل ، المحاط بهالة المجد والشهرة .

تفجرت هذه العاطفة عندما عارض البطريرك بوليوكتوس وبعض الأوساط الرهبانية زواج **نيكيفور** من ثيوفانو . فأصدر الإمبراطور الغاضب عام ٩٦٤ مرسوماً كان بمثابة إعلان الحرب على الرهبان . فرض **نيكيفور** حظراً تاماً على تأسيس أديرة جديدة ، وقد جاء في مرسومه : «**لايتمتع الرهبان بأية فضائل إنجيلية ، فهم لايفكرون بشيء سوى امتلاك الأرض ، وتشييد المباني الضخمة ، وشراء الجياد ، والجمال**» .

لم يكن **نيكيفور** في محاربته للرهبان معادياً لحياة الرهبنة عامة . فقد استعدَّ من قبل لدخول الدير ، ولعب دوراً هاماً في تأسيس دير جبل أثوس ، لكن الغضب أعماه بعد الهجمات التي شنّها عليه الرهبان احتجاجاً على زواجه من ثيوفانو . إضافة إلى أنه كقائد عسكري ، كان بحاجة للثروات ، التي تكدست في الأديرة ، في حربه مع **المسلمين** ، كما أنَّ الأديرة عزلت آلاف الرجال الذين كان الجيش البيزنطي بأمس الحاجة إليهم .

بالإضافة إلى الحملة التي شنها الامبراطور على الرهبان ، اغتاظ من البطريرك أيضاً ، ومنح نفسه الحق في تعيين الأساقفة . اصطدمت تشريعاته بمعارضة عنيفة . **وعندما طالب بإعتبار كافة الجنود الذين سقطوا في المعارك مع المسلمين** شهداء ، **أجابه البطريرك مذكراً** بالقانون القديم المعتمد على آراء **القديس باسيليوس** الكبير ، **الذي حرم لمدة ثلاثة أعوام من تناول القربان المقدس المسيحي الذي اراق دم إنسان** . وإذا كان في الطلب شيء من المبالغة ، لم يكن ما ورد في الرد أقلَّ منه مبالغة .

استمرت الحرب مع **المسلمين** وأسفرت عن نجاحات كبيرة . فقبل جلوسه على العرش ، احتل **نيكيفور** كريت عام ٩٦٠ . وبعد توليه العرش ، شنَّ حملة كبرى على صقلية . وفي عام ٩٦٤ احتلَّ أضنة ، ومن هناك بعث الى الخليفة في **بغداد** برسالة طالبه فيها بإعادة كافة الأراضي التي تمَّ انتزاعها من الامبراطورية . واستعاد قبرص من **المسلمين** عام ٩٦٥ . كما أدت الحملة التي قادها شخصياً إلى احتلال طرسوس عام ٩٦٥ . واجتاح عام ٩٦٨ **سوريا** ، فاحتلَّ القائد البيزنطي بورسيس **انطاكية** بهجوم مباغت ، بينما احتلَّ شقيق الامبراطور بطرس مدينة **حلب** .

لم يتعرض المسلمون منذ أيام الرسول لمثل هذه الخسائر . **قام نيكيفور** بتهجير الفلاحين الأرمن المسيحيين إلى المدن السورية المحتلة . وماتجدر الإشارة إليه هو ، أنَّ أرمينيا التي عانت

الأمرين من معاملة **بيزنطة** ، زودتها بالأباطرة والقادة والجنود ، وبالمادة البشرية لتحصين حدودها .

بعد عودة **نيكيفور** من حملته الناجحة ، تعرض للإغتيال عام ٩٦٩ على يد أنصار عشيق زوجته ، القائد الكبير ، الأرمني أيضاً ، **يوحنا** (ابن ثيوفيل كوركوناس) . رفض البطريرك بوليوكتوس تتويج **يوحنا** ، الذي توجهت إليه أصابع الإتهام بقتل الامبراطور . لكنه تراجع عن موقفه بعد أن أرسلت ثيوفانو إلى الدير ، وحكم بالموت على قتلة **نيكيفور** المباشرين ، والغي المرسوم المعادي للأديرة . ولترسيخ موقعه في السلطة ، تزوج **يوحنا** من شقيقة الامبراطور الراحل رومانوس الثاني . وكان من الناحية الشكلية حاكماً للبلاد بإسم أبناء رومانوس القاصرين **باسيليوس** وقسطنطين ، وكان لهما شقيقتان تزوجتا من فلاديمير حاكم **كييف** ، **وأوتو** الثاني .

اصبحت ثيوفانو حفيدة **قسطنطين** العالم ، وابنة عاملة الحانة سابقاً ، ولية أمر **أوتو** الثالث القاصر ، وحاكمة الامبراطورية الغربية بإسمه .

ـ مصير اسبانيا

تحول مجرى الحرب مع **المسلمين** من حرب دفاعية إلى حرب هجومية . ولم يقتصر الأمر على الشرق وحده ، ويمكن أن نجازف بالقول ، بأنَّ الأعمال العسكرية الكبرى ، التي أنجزها **نيكيفور ويوحنا** ، كانت تصعيداً للمعارك القائمة مع **المسلمين** في الغرب .

استمرت المعارك طيلة القرنين التاسع والعاشر مع **المسلمين** ، الذين قاموا بغزو شبه الجزيرة الأيبنينية أولاً ، ومحاولة السيطرة عليها فيما بعد . واتخذت هذه الحرب طابعاً أشد ضراوة من الحرب مع **المسلمين** في الشرق . ففي الشرق ، لم تنقطع العلاقات الاقتصادية ابداً بسبب الحرب ، وكذلك الحج إلى الديار المقدسة . حيث مارست الجيوش البيزنطية نشاطها العسكري في آسيا الصغرى ، بينما عرجت السفن التجارية البيزنطية على الموانىء السورية في الآن ذاته .

اختلف الموقف من الحرب في الامبراطورية البيزنطية كلياً عمّا كان عليه في الغرب . فالحرب هنا لم تكن محطّ إعجاب وسبباً للشهرة . ولم ينفذ قانون القديس أنطونيوس الآنف الذكر في واقع الأمر ، إذ لم ينظر إلى الجندي كقاتل ، لكنه لم يعتبر شهيداً أيضاً لدى سقوطه في ساحة المعركة ، ولم تمجد بطولاته . كما اكتسب الأباطرة شهرة واسعة اثناء قيامهم بعقد صفقات مربحة ، أو عندما تمكنوا من إثارة فئة من الهمجيين ضد فئة أخرى لما فيه خير **بيزنطة** . ويصعب هنا أن نشاطر **المؤرخ رونسيمان** الراي ، عندما يقول في كتابه : «تاريخ

بيزنطة خالٍ من الحروب الاستعمارية» . لأن موقف **بيزنطة** من **بلغاريا** و**أرمينيا** يتناقض وهذا الرأي . ففي كلتا الحالتين تجلّت في هذا الموقف امبريالية استبدادية ، غالباً ماحققت اهدافها دون الحاجة إلى اعمال حربية .

أما في الغرب ، فقد كان الأمر مختلفاً . فهناك ، اكتسب الإنسان في الحرب شهرة واسعة ، ولم يحظ أحد بالتكريم الذي احيط به المنتصر في ساحة المعركة . وعجزت الكنيسة عن وضع حد لمثل هذه الآراء ، وكان قصارى ماتمكنت القيام به ، هو التمييز بين الحرب العادلة والحرب الظالمة . وكانت الحرب مع أعداء المسيحيين هي العادلة من وجهة نظر الكنيسة ، أي مع **المسلمين** أو النورمانديين . حيث اعتبر مسيحيو أوروبا كلا الجانبين غزاة . ولذلك أعلن البابا **ليون** الرابع بأنَّ كلَّ من يقتل دفاعاً عن المسيحية يحقق الخلاص لنفسه . وأكدَّ البابا **يوحنا** الثامن أنَّ كل من يسقط في (الحرب المقدسة» يعد شهيداً ، وخطايا الجنود الشهداء مغفورة (لكنه أضاف ان الجنود الذين يتوجهون للحرب يجب ان يتمتعوا بقلوب طاهرة) . وسمح البابا مايكل الأول بأن يحصل الخاضعون لعقوبات كنسية على الغفران من خلال محاربة اعداء المسيحية . أما البابا **يوحنا** العاشر ، فقد شارك شخصياً في الحملة العسكرية على معسكر **المسلمين في جارجليانو** .

بقدر ماكانت الحرب مع الكفار مباحة من قبل الكنيسة ، او حتى جديرة بالتكريم ، بقدر مانظرت إلى الحرب الدائرة بين المسيحيين باستياء ونفور . فنجد القديس برونو يلوم **أوتو** الثاني على غزو **فرنسا** ، و**هنري** الثاني على غزو بولونيا . وقامت محاولات عديدة في المجامع الكنسية لإدانة الحرب بين المسيحيين . وظهرت في القرن الحادي عشر مبادرات من بعض الأساقفة من خلال «جمعية السلام» . وقد اعتمد نشاطهم على استخدام جماهير الفلاحين في تدمير حصون النبلاء المتحاربين ، حيث قادهم القسس . ولكن مثل هذه الأنشطة ، تحولت الى بؤرة لنزاعات جديدة بدلاً من تحقيق السلام . ولما أحرقت جمعية السلام بلدة بيسانكون ، دمَّر الدوق اودو «جيش السلام» ، وسقط في المعركة مايزيد عن سبعمئة قس . أمَّا حملة «السلم الإلهي» . فقد بدت أكثر فعالية ، واعتمدت على مبادرة من الكنيسة بحظر حمل السلاح في بعض الأيام .

ولكن ، لم يكن هناك من وسيلة لتصريف طاقة النزعة الحربية الجرمانية سوى توجيهها ضد أعداء المسيحية .

ظلَّت في إسبانيا المحتلة في القرن السابع ، إلى جانب التخم الحدودي الإسباني ، الذي أسسه في حينه **شارل** الكبير ، مملكة **أستوريا** على الشاطىء الشمالي ، وهي جزء صغير من مملكة القوط الغربيين القديمة .

خضعت **أستوريا** للسيطرة العربية في بادىء الأمر ، ثم أعلنت استقلالها . وكان أول

ملوكها القوطي **بيلاجيوس** . استغلَ خلفاؤه النزاعات الداخلية القائمة بين العرب ، وباشروا بتوسيع حدود المملكة . فضم ألفونس الثالث (٨٦٦ - ٩١٠) كلاً من غاليسيا ، والبرتغال الشمالية ، وإمارة ليون ، وكاستيليا القديمة . كانت هذه البلاد قفراً ، لكنَّ ملوك أستوريا شجعوا عملية الإستيطان فيها ، ووجدوا وفرة من الراغبين ، وكانوا في غالبيتهم من المسيحيين الفارّين من الجزء الغربي من إسبانيا .

وجد في المملكة عدد من الأسقفيات ، أهمها في أوفيدو ، عاصمة المملكة ، ولوغو ، وكمبوستيلا ، وبراغا ، وبورتو ، وكويمبرا ، وليون ، وزامورا ، وسلمنكا ، وأوسونا . وكاد الأساقفة ان لايقيموا أية علاقات مع روما . قام الملوك بتعيين الأساقفة ، واعتبروا أنفسهم رؤساء الكنيسة . ومنذ عام ٨٥٠ ، تطورت الحياة الرهبانية بصورة مكثفة ، فشيِّد العديد من الأديرة ، وأضحى فرويلان ، أسقف زامورا من أهم مصلحي الحياة الرهبانية .

تمَّ العثور عام ٨٢٩ في كمبوستيلا على ضريح قديم ، أجمع على انه ضريح القديس **يعقوب الكبير** . ووفقاً لما اوردته التقاليد القديمة ، كان جثمان الرسول يعقوب قد نقل من قبل تلامذته إلى إيريا فلافيا في إسبانيا . وشيِّد الفونس الثالث على الضريح باسيليقا ، حيث اضحى واحداً من أهم الأمكنة ، التي يؤمها الحجاج ، الأمر الذي جعل أنظار العالم المسيحي قاطبة تتوجه شطر أستوريا الصغيرة .

أطلق على المسيحيين القاطنيين في المناطق التابعة للخليفة في قرطبة اسم المزرابيين . ألزموا بدفع جزية باهظة ، ولكن سمح لهم بالبقاء على دينهم . وظلَّ قسم من الأساقفة في مواقعهم . ولم يتعرض المسيحيون للإضطهاد إلا في عهد واحد من كبار الخلفاء هو **عبدالرحمن الثاني** .

ارتسمت في الكنيسة الإسبانية ملامح توجهين امام هذه الإضطهادات :

أولهما - الرغبة في المحافظة (بالرغم من الإصضطهادات) على السلام مع العرب ، والثاني - ميل الى المجاهرة العلنية والإستفزازية بالدين ، الأمر الذي كان له أن يصعِّد من حدة الإضطهادات بطبيعة الحال . وعلى وجه العموم ، أيد الأساقفة التوجه الأول . ففي المجمع الكنسي المنعقد في قرطبة عام ٨٥٨ ، أعلن القسم الاعظم من المشاركين في أعمال المجمع ، أنه لايمكن اعتبار المسيحيين الباحثين عن الموت طوعاً بمثابة الشهداء . وكان يوليجيوس ، رئيس اساقفة توليدو من أنصار التوجه الثاني ، فاعتقل وحكم عليه بالموت عام ٨٥٩ .

ظهرت في الكنيسة الإسبانية في الأندلس ، نتيجة الإحتكاك مع معتنقي الإسلام ، هرطقة تدعى بالتجسيمية أو التشبيهية . اعتقد أنصارها انَّ الله أنموزج من العمالقة ذوي الشكل البشري . **تزعّم** هذه الطائفة **هوستيجيسس** اسقف ملاغا ، وهو رجل يفتقر الى النزاهة ، كان قد حصل على لقب أسقف عن طريق الرشوة . وتمتع **هوستيجيسس** بقوة كافية

مكنته من إرغام جميع المشاركين في مجمع قرطبة لعام ٨٦٢ ، على إدانة الكهنة الذين حاربوا الطائفة .

أعاد الخليفة **عبد الرحمن الثالث** التسامح الديني مجدداً منذ عام ٩١٢ . وكان أحد أساقفة إسبانيا سفير الخليفة في بلاط **أوتو** الأول ، حيث حاول **عبد الرحمن** اقناعه بالتحالف معه ضد **الفاطميين** .

بالرغم من إعلان **عبد الرحمن الثالث** لحرية المعتقدات في بلاده ، لقي عدد من المسيحيين حتفهم بسبب العمل التبشيري بين العرب . حيث رفض **الخليفة** الموافقة على ممارسة هذا النشاط . لكنه سمح للسكان المحليين بممارسة شعائرهم الدينية ، والحفاظ على كنائسهم وأديرتهم . ظلَّت الأسقفيات أيضاً قائمة ، وأقام ريسيموند اسقف إيلفيرا في بلاط الخليفة ، ووضع عام ٩٦١ تقويماً تلبية لرغبة الخليفة **الحكم الثاني** .

لكنَّ الخلافة الإسلامية باشرت ابتداءً من عهد **عبد الرحمن الثالث** ، حرباً مكثفة ضد مملكة **أستوريا** . وكانت النزاعات الداخلية بين الحكام قد اضعفت الجانب المسيحي . وقد عقد **سانكو ملك ليون** تحالفاً مع العرب وخان المسحيين . الأمر الذي سمح للخليفتين **الحكم الثاني وهشام الثاني** بالإنتقال إلى الهجوم . وتمكن القائد العربي محمد بن عمير ، الملقب بالمنصور ، من احتلال ليون ، وكاستيليا ، ونافارا ، وكتالونيا ، حيث سوِّيت مدينة **ليون** مع الأرض . كما هدم المنصور باسيليقا كمبوستيلا ، وأحرقت الباسيليقا ، ونقل المنصور اجراسها الفضية كغنيمة إلى قرطبة . لكنَّ **قبر الرسول يعقوب** لم يتعرض للأذى . واحتل المنصور **برشلونة** أيضاً ، وقضى بذلك على التخم الحدودي الإسباني .

ظهرت **الفكرة الصليبية** ـ الحرب دفاعاً عن الصليب ـ في عهد **هيراقليوس** . وعلى الرغم من انه تاثر بأفكار البطريرك المتعلقة بشن حملة ضد الفرس ، فقد حمل فكرة الصراع المسلح «من أجل الدين» من موطنه الأصلي ـ أرمينيا . كان موقف الأرمن شبيهاً بموقف الغرب فيما يتعلق بالحرب ، وهذا مايميزهم عن كافة الشعوب الشرقية الأخرى . لقد وجدوا انفسهم منذ قرون مرغمين على التصدي لأطماع الآخرين بوطنهم ودينهم ، بقوة السلاح ، ورفعوا معهم هذا الموقف الى العرش الامبراطوري ، الشيء الذي يفسر نشاط **نيكيفور** فوكاس ، وحملات **يوحنا** سيميسكس .

ـ حملة سيميسكيس

يالغرابة أسرار قلوب البشر ! هاهو **سيميسكيس** ، قاتل **نيكيفور** ، لايكتفي بالسير على خطاه في عملية إعادة بناء عظمة **بيزنطة** ، بل نجده يأخذ عنه فكرة الحرب من أجل

استعادة القبر المقدس .

قبل أن ينطلق بحملته الصليبية ضد **المسلمين** ، قرر حل المشكلة البلغارية بصورة نهائية . ألغى أولاً المعاهدة التي عقدها **القيصر بطرس** مع الامبراطورية عام ٩٦٦ ، ثم حرَّض شفياتوسلاف حاكم **كييف** على البلغار ، فهاجم الروس **بلغاريا** واحتلوا الجزء الشرقي منها . لكنهم بدأو يشكلون بأنفسهم خطراً على **بيزنطة** ، وهددوا تراقيا بعد فترة وجيزة . نجح **سيميسكيس** في صدهم عام ٩٧١ ، وبعد عام من إخماد التمرد الذي أثارته أسرة فوكاس ، شنَّ حملة على **بلغاريا** ، مدعياً بأنه يرغب في تحريرها من الروس . تعرض شفياتوسلاف للهزيمة مرتين عام ٩٧٢ ، وأرغم على الإنسحاب من **بلغاريا** . وفي طريق العودة ، هاجمه البيتشينغ . وكتب المؤرخ **دلوغوش** عن هذا الحدث قائلاً : «قطع زعيم البيتشينغ ، المدعو كورا ، راسه وحوَّل جمجمته التي رصعها بالذهب الى طاسٍ للخمر» .

بعد طرد الروس من **بلغاريا** ، ضمَّ **سيميسكيس** الجزء الشرقي منها **لبيزنطة** . واضطر القيصر بوريس على الاستقالة ، شأنه شأن البطريرك البلغاري داميان . وهكذا انتهت مرحلة ازدهار الدولة البلغارية والثقافة السلافية . جاء **سيميسكيس** إلى **بلغاريا** بالمستوطنين الأرمن ، والباوليين الذين اعتنقوا المانوية ، وأسكنهم مع السلافيين . وأصبح الأرمني بيزنطياً بمعنى الكلمة .

بعد القضاء على **بلغاريا** ، عقد **سيميسكيس** معاهدة مع **أوتو** الأول ، وبعث بابنة شقيقة زوجته ، ثيوفانو ، خطيبة ل**أوتو** الثاني . وبعكس توقعات **أوتو** الأول ، لم يقدم **سيميسكيس** في بائنة ثيوفانو الممتلكات البيزنطية في إيطاليا . بل حاول جاهداً ترسيخ السلطة البيزنطية في تلك الممتلكات . فقد أعيد بناء تارانتو ، واستوطنها مستوطنون من الإغريق . وبدأت المقاطعات الإيطالية الجنوبية تتطور بسرعة ، بعد ان تخلصت من الغزوات الإسلامية المتكررة .

كان الامبراطور **نيكيفور** قد أخضع في حينه الكنائس المحلية لسلطة المتروبوليت ، الذي عينه بطريرك القسطنطينية ، وهو أسقف أوترانتو في ذلك الحين . وبدون إثارة حرب علنية مع روما ، جيء إلى إيطاليا برجال دين من الإغريق ، شغلوا المناصب الكنسية . وهكذا بدأ النفوذ الإغريقي يمتد إلى خارج حدود الممتلكات البيزنطية ، حيث وصل إلى روما ، وتجاوزها نحو الشمال .

تأسس في سان ديميتريو كوروني (في كالابريا) دير يوناني ، ترأسه **نيل** التقي . وانتقل منه الرهبان الذين تهددهم الخطر الإسلامي ، إلى فيليلوجو قرب مونتي كاسينو . ثم أسس القديس نيل ديراً إغريقياً في جروتافيراتا بجوار **روما** تماماً (لايزال قائماً حتى اليوم) . وتوطدت العلاقة ين هذا الدير وبين دير القديس **بونيفاسي** وألكسي ، وهو دير أنموزجي ، أقام فيه الى

جانب البنديكتينيين المتأثرين بحركة الإصلاح الكلونية ، الرهبان الإغريق الذين طردوا من **سوريا** والتزموا بقواعد القديس **باسيليوس** . تراس الدير **سرجيوس الدمشقي** في بادىء الأمر ، ومن ثمَّ **ليون** البنديكتي .

التقت المسيحية الإغريقية باللاتينية في هذا الدير ، فازدهر العلم وتعطش الناس للوحدة الكنسية . برزت أفكار ، ومخططات ، ومشاريع كبرى . عاشت البابوية مرحلة انحطاط ، ولكن في هذا المكان ، تمَّ مجدداً إحياء فكرة العاصمة الرسولية ، التي ستكون بجدارة مركز السلطة الكنسية ، وقلب المسيحية كلها .

انتسب لهذا الدير عام ٩٨٩ إثنان من التشيك البعيدة ، هما الأخوان الشابان **أدالبرت** و**راجيم** من الأمراء السلافونيين . . . سنعود للحديث عنهما فيما بعد .

في هذه الأثناء توجه **سيميسكيس** لمحاربة **المسلمين** .

طرأت آنذاك تطورات جديدة في داخل العالم الإسلامي . ففي **مصر** ، ظهرت الأسرة الفاطمية ـ الشيعية ، اي المعارضة للأسرة العباسية ـ السنية ، الحاكمة في **بغداد** ، وبسطت نفوذها على كامل افريقيا الشمالية ، وعلى الساحل السوري وحتى دمشق .

اجتاز **سيميسكيس** الحدود إلى أرمينيا عام ٩٧٤ . نذكر أن أرمينيا كانت مملكة مستقلة منذ تتويج الملك آخوت الكبير ، من الأسرة البغراتية عام ٨٥٥ ، اعترفت بها القسطنطينية و**بغداد** بآن واحد . لكنَّ المملكة تعرضت للتجزئة في عهد سمبات الثاني ، خليفة آخوت . وظهرت في الجنوب دولة أرمينية ثانية عاصمتها **وان** ، حكمها خاجيك من أسرة فاسبوكاران .

هاجم يوسف ، والي **آذربيجان** ، المملكة الشمالية . ووقع سمبات الثاني في المصيدة ، ولقي حتفه . بينما هبَّ ابنه آخوت الثاني ، الملقب بالحديدي ، لمواجهة يوسف ، وطلب العون من **بيزنطة** عام ٩٢٠ . وقد دفعت المعارك ، التي دارت رحاها طويلاً في أرمينيا الشمالية ، البطاركة الأرمن إلى اللجوء إلى المملكة الجنوبية ، حيث ساد الهدوء .

سمحت حالة الوهن التي تعرضت لها الخلافة العباسية في أواسط القرن العاشر لأرمينيا بأن تعيش مرحلة قصيرة من السلام ، ازدهرت خلالها الثقافة الأرمنية . كانت الدولة مجزأة سياسياً ، حيث وجدت ثلاث ممالك أرمينية : حكم البغراتيون اثنتين منهما في آني ، و**قارص** ، والثالثة في وان ، حيث كانت الأخيرة مقسمة إلى إمارات مستقلة عن بعضها نسبياً .

عندما ظهر **سيميسكيس** عام ٩٧٤ في المقاطعة الأرمينية تارون ، شعر الحكام الأرمن بالقلق ، وأمام الخطر الذي داهمهم ، اتحدوا تحت راية ملك آني ، المدعو آخوت الثالث ،

والملقب بالرحيم . أرسل البطريرك واهان ، الذي اتهم من قبل بميله المفرط للإغريق ، إلى **سيميسكيس** . فأكد له الإمبراطور بأنه لم يأت ليهدد استقلال الأرمن . وطالبهم فقط بمساندته في حربه ضد **المسلمين** . وبعد حصوله على الفيلق الأرمني المساعد ، والمؤلف من عشرة آلاف رجل ، زحف على بلاد الرافدين .

ومن هنا يبدأ السباق البيزنطي المذهل . احتل **سيميسكيس** نصيبين (ومنها نقل رفاه القديس يعقوب الصغير) ، وكان على وشك مهاجمة **بغداد** . لكنَّه عدَّل مخططه . فعاد الى القسطنينية عام ٩٧٥ ، وقاد حملة جديدة على سورية وفي هذه المرة كانت نقطة الإنطلاق **انطاكية** الحصينة .

وتمّ ! احتلال أفاميا ، **وحمص** ، **وبعلبك** . بينما فتح أمير دمشق أبواب المدينة وأعلن ولاءه .

ومن دمشق ، توجَّه إلى فلسطين ، التي احتلها المسلمون قبل ذلك الحين بما يقارب الثلاثمئة عام . وكتب **سيميسكيس** إلى الملك آخوت بهذا الصدد قائلاً : «أعددنا العدة لمحاصرة طبرية ، لكنَّ السكان خرجوا من أبوابها لإعلامنا بأنهم سيستسلمون . . . لم نمس المدينة بأذى ، لأنها موطن الرسل القديسين . وهذا ماحصل في **الناصرة** ايضاً ، التي سمعت فيها العذراء مريم البشرى السارة من الملاك . صعدنا إلى جبل طابور ، ووصلنا إلى المكان الذي تجلى فيه المسيح إلهنا . ولمَّا توقفنا هناك ، جاء كثيرون من **الرملة** وأورشليم للإحتفاء بنا وتوسُّلِ رحمتنا . تعهدوا خطياً بدفع فدية سنوية للعيش في ظلِّ سلطتنا . ومن هذا المكان توجهنا **إلى قيصرية** . . . ولو لم يلجأ الأفارقة (العرب الفاطميون) للإحتماء بأسوار حصونهم على الساحل ، لوصلنا بعون الله إلى المدينة المقدسة أورشليم ، وتمكنا من الصلاة في العتبات المقدسة . أهذه هي الحقيقة ، كما وردت في الرسالة المذكورة ، المضمنة في مؤلف **متى الإديسي** ؟ إلاّ أن المؤرخين الآخرين (من العرب والمسيحيين) لايشيرون الى هذه النجاحات . ويرى السوفيتي المعاصر **بارتولد** ، أن كل هذا التقدير محض خيال ، الشيء الذي عارضه قبل حين المؤرخ **أدونز** . ولكن مهما يكن مجرى الأحداث ، يبقى مؤكداً أنَّ **سيميسكيس** اعتبر نفسه صليبياً ، وكان الهدف من حملته تحرير قبر المسيح . وخير دليل على ذلك ، أنه أعلن عام ٩٧٢ حظراً تاماً على الأعمال التجارية مع **المسلمين** ، معللاً ذلك بإستعداده لشن حملة على أورشليم . **هل كان قبر الرب مهملاً ومهاناً حقاً** ؟ أشرنا سابقاً الى موضوع الحج الى الديار المقدسة في عهد **شارل** الكبير ، ولم تحدث أية تغيرات بهذا الخصوص فيما بعد . فبغض النظر عن الجهة التي خضعت لها المدينة المقدسة (العباسيين او الفاطميين او غيرهم) ، لم تضع السلطات الإسلامية أية عراقيل تهدف منع الحجاج من زيارة الأماكن المقدسة . وكانت السفن الإغريقية والإيطالية تدخل الموانىء السورية وتخرج منها بحرية تامة ، حتى في مراحل الحرب . الحقيقية ان الرحلة كانت طويلة وشاقة ، ومكلفة وخطرة ، بسبب كثرة عدد

القراصنة ، لكننا نعرف أنَّ هيلدا ، دوقة شفابيا ، قامت برحلة إلى فلسطين ، لكنَّها توفيت وهي في الطريق عام ٩٦٩ . وكذلك يوديتا ، أميرة بافاريا وشقيقة زوجة **أوتو** الأول . كما قام بهذه الرحلة كلٌّ من دوق فيردون وآرسي . وقام الأسقف **كونراد** أسقف كونستانسيا بثلاث زيارات إلى الديار المقدسة ، والقديس **يوحنا** أسقف بارما ـ ست مرات . شجعت الحركة الكلونية رحلات الحج ، وقام الرهبان انفسهم بتنظيم رحلات الحج إلى كمبوستيلا وفلسطين . وقد شارك في هذه الرحلات كثيرون من انجلترا ، **وفرنسا** ، ولوتارينغيا ، ومنهم أساقفة تريير ، وميتز ، وبامبيرغيا . وفي عامن ١٠٠٢ زار أورشليم ثلاث مرات فولكو نيرا دوق آنجو ANJOU ، وكذلك خصمه اللدود ريتشارد الثالث النورماندي . وقد اقبل النورمانديون إقبالاً شديداً على زيارة الديار المقدسة . ويقول **رونسيمان** ان جنود فيلق الفاريغ (المجند من النورمانديين والسلافيين) ، الذي خدم بامرة الجيش البيزنطي بناء على المعاهدة القائمة مع فلاديمير ، قضوا إجازاتهم في زيارة أورشليم . وقد زار أحدهم ، ويدعى كولسكيفر ، أورشليم عام ٩٩٢ .

يقال ان الأمير النرويجي **أولاف** (بعد اختفائه) ، شوهد عام ١٠٠٠ في المدينة المقدسة . وهو من ألمع شخصيات ذلك العصر . فبعد طرده من النرويج ، تنقل في البحار واليابسة كرجل شاب ، وكان والياً على جومسبورغ لمدة ثلاثة أعوام ، ممثلاً الملك البولوني ، وهاجم انجلترة برفقة **سويند** عام ٩٩١ ، وهناك اعتنق المسيحية . استولى على النرويج عام ٩٩٥ وأصبح ملكاً . وبمساعدة رجال الدين الإنجليز نشر المسيحية في مملكته . كما أرسل المبشر ثانكبراند إلى إيسلندا . وفي عام ١٠٠٠ هاجم على رأس اسطول ضخم ، ولأسباب مجهولة ، (قرب جزيرة رانا) الأسطول الدانمركي ـ السويدي ـ البولوني الموحد ، وتعرض لهزيمة ساحقة وقضى نحبه . زار كثير من الحجاج الديار المقدسة ، واعتبروا الزيارة تكفيراً عن أعمال القتل .

ومنذ عام ٩٧٥ ، ظهرت طريق جديدة عبر **المجر** ، غالباً ماسلكها الحجاج بعد ضم **بلغاريا إلى بيزنطة** .

تمكن المسيحيون إذن من زيارة الديار المقدسة ، ولم تكن الآثار المقدسة مهددة بأية مخاطر ، لأنها كانت في عهدة المسيحيين المحليين .

بالرغم من أن **سيميسكيس** اعتبر الحملة صليبية ، وبالرغم من أنَّ الصليبي الأول هو **هيراقليوس** ، فإن فكرة «الحرب المقدسة» مستمدة من **القرآن** . ومن الطبيعي ، أن يؤدي إعلان مثل هذه الحرب من قبل المسيحيين ، إلى إعلان « الجهاد» من قبل **المسلمين** . وهكذا ، فقد اعلن **خليفة بغداد** «الجهاد» ، بالرغم من أنه نظر بعين الرضى إلى الكوارث التي حلَّت بالفاطميين في مصر .

تمكن **سيميسكيس** من إحتلال **صيدا** ايضاً ، لكنه عجز عن احتلال **بيروت** و**طرابلس** . فاكتفى بتدمير المناطق المحيطة بالمدينتين . وفي طريق العودة إلى القسطنطينية ، مرض بغتة ، وبعد وصوله الى العاصمة ، توفي عام ٩٧٦ .

ـ العودة الى السياسة الامبريالية

تولى العرش الامبراطوري **بازيلي** الثاني ابن رومانوس (شقيق الامبراطورة ثيوفانو) . لم يتمكن من الإستيلاء على العرش مباشرة ، لأن فارتان سكليروس ، عديل **سيميسكيس** ، طالب بالعرش وأعلن نفسه امبراطوراً ، ثم حقق سلسلة من الإنتصارات . يحتمل أن تكون هذه هي المحاولة الأرمنية المدروسة الأولى للسيطرة على الإمبراطورية ، لأن الملك الأرمني آشوت الثالث ، دعم سكليروس ، الأرمني أيضاً .

ولم يتمكن **بازيلي** الثاني من دحر سكليروس حتى عام ٩٧٩ ، وذلك بمساعدة **ورداس** فوكاس (ممثل أسرة فوكاس ذات النفوذ الواسع) . ووجد البطريرك أنطونيوس ، أحد رهبان ديرستوديون ، نفسه مرغماً على الإستقالة عندئذ ، بسبب تورطه في المؤامرة .

واجه الامبراطور الشاب الحرب على كافة الجبهات . ففي إيطاليا ، شنَّ المسلمون هجوماً جديداً ، وسقطت كل من تارنت وميسينا وهُزِمَ **أوتو** الثاني قرب كوترون COTRONE وتوفي بعد ذلك بفترة وجيزة ، فغادر إيطاليا الجيش الذي كان قد جاء به من ألمانيا . واضطر البيزنطيون بمفردهم لصد هجوم **المسلمين** .

وفي **بلغاريا** الغربية (التي حافظت على استقلالها) ، هاجر القيصر صاموئيل ، في الأسرة الشيشمانية ، مقدونية . وعجز **بازيلي** الثاني أثناء صدِّ الهجوم عن الإلتفات إلى **سوريا** ،حيث بدأ الفاطميون باستعادة الأراضي التي استولى عليها **سيميسكيس** . هاجم صموئيل عام ٩٧٩ تساليا . فشنَّ **بازيلي** هجوماً معاكساً عام ٩٨٦ ، لكنَّه تعرض للهزيمة ، ونجا بحياته بصعوبة بالغة . فعمَّت أرجاء **بلغاريا** انتفاضة ضد **بيزنطة** .

التزم فوكاس بولائه للإمبراطور طيلة هذه الفترة ، لكنَّه أمام جميع هذه الهزائم ، أعلن نفسه امبراطوراً ، وهدد القسطنطينية عام ٩٨٧ . عقد **بازيلي** الثاني صلحاً مع الفاطميين وقدم لهم بعض التنازلات على الصعيد التجاري ، كما سمح بإقامة الصلاة في مسجد القسطنطينية من أجل الخليفة الافريقي (عوضاً عن الامبراطور) . كما تحالف مع فلاديمير الكييفي ، ووعده بتزويجه من شقيقته لقاء فيلق مساعد مؤلف من ستة آلاف مقاتل . تمكن **بازيلي** من سحق فوكاس في معركتين ، بمساعدة الفاريغ الذين جاء بهم ، ولقي القائد المتمرد حتفه عام ٩٨٩ في ساحة المعركة . وفي اللحظة التي حقق فيها **بازيلي** هذا النصر ،

اجتاح البلغار مقدونيا مجدداً ، بينما هاجم فلاديمير كيرسون بعد أن ماطل الامبراطور بإرسال شقيقته .

كان لابد من تنفيذ الإلتزامات التي أخذها الامبراطور على عاتقه . فسافرت شقيقته آنَّا إلى **كييف** ، وفي حاشيتها الراهب السوري ميخائيل ، الذي رسم أسقفاً . وهكذا التزمت المسيحية الروسية المنبعثة بالطقس الإغريقي .

اشتدت ضراوة المعارك في **سوريا** مجدداً . نقض الخليفة المصري المعاهدة وهاجم المدن السورية ، التي اعلن حكامها الولاء **لبيزنطة** . فاستنجدوا بالقسطنطينية ، وأنجز **بازيلي** عملاً مذهلاً . فقد حمَّل الجيش كله على الجياد والبغال ، ونقله الى إنطاكية خلال ستة عشر يوماً ـ مايقارب الثمانمئة كيلو متراً على خط مستقيم .

أعلن الخليفة ، الذي فوجيء بالأمر «الجهاد» . وأعدَّ في الإسكندرية اسطولاً ضخماً ، كان له أن يتوجه إلى القسطنطينية ، لكنَّه أحرق . وجهت أصابع الإتهام إلى المسيحيين ، فتعرض النساطرة لمجزرة حقيقية ، بينما لم يتعرض المونوفيزيون المحليون لأي أذى .

بينما كان **بازيلي** في **سوريا** ، وجَّه أحد قادته ، وهو **نيكيفوروس** أورانوس ، ضربة مؤلمة للبلغار . وفي **سوريا** ذاتها دارت معارك ولم تستقر الأمور . فقد تعرض البيزنطيون للهزيمة قرب أفاميا عام ٩٩٨ ، واحتلَّ **بازيلي** بعد ذلك مباشرة **حمص** ودمرها ، كما دمر مناطق **بعلبك وطرابلس** عام ٩٩٩ . ثم انسحب إلى إنطاكيا ، ومنها توجه إلى أرمينيا .

كان سمبات الثاني وخاجيك الأول ملكا أرمينيا في آني . وكانت هذه المرحلة لاتزال عصر ازدهار للثقافة الأرمينية ، حيث ظهرت في البلاد المباني الرائعة مثل كاتدرائية آني . وازدهر الأدب الأرمني . وتميزت الثقافة الأرمنية بأصالتها ، بخلاف البيزنطية . شكلت الخلافات على صعيد العقيدة عائقاً كبيراً . فقد أعتبر الأمراء الأرمن المونوفيزيون أنفسهم اتباعاً للإمبراطور البيزنطي ، لكنهم رأوا في «الخلقيدونيين» هراطقة . كما بادلهم البيزنطيون الأرثوذكس هذا الشعور . فأدى غياب العقيدة الواحدة إلى انعدام الثقة . وعلى الرغم من أنَّ الفلاح الأرمني لعب دور العنصر الإستيطاني الرائع ، فقد ظلَّ استقلال أرمينيا «شوكة في حلق» أباطرة **بيزنطة** (حتى عندما انحدروا من أصول أرمنية) . وقد طرح في القسطنطينية موضوع إنهاء استقلال أرمينيا ، وأدركت أرمينيا أنَّ كيانها المستقل قد يتعرض للخطر في أية لحظة .

حاول **سيميسكيس** في حينه تبديد هذه الشكوك . لكنَّ **بازيلي** تذكر بأن الأرمن ساندوا تمرد سكليروس وفوكاس . وعلى نحو مباغت ، طالب دافيد حاكم مقاطعة تايك (وهي المقاطعة الأرمنية الوحيدة ، التي اعتنقت الأرثوذكسية الإغريقية) ، أن يوصي له بإمارته بعد موته . توفي دافيد مسموماً على الأرجح ، فغادر **بازيلي سوريا** على جناح السرعة عام

١٠٠٠ ، متجهاً إلى أرمينيا ، للإستيلاء على تركة الأمير الراحل . ولإحكام قبضته على التركة ، قام بتأجيل مشروع الحملة المخططة لتحرير أورشليم . كان هذا بمثابة نقطة انعطاف بالغة الأهمية في تاريخ الشرق . وفي هذا الصدد يقول غروسييه : «كانت الملحمة البيزنطية» خلال القرن الأخير موجهة نحو **سوريا** . . . وقد تمت إعادة بناء الامبراطورية على حساب العالم العربي . . . وآنذاك ، أصدر **بازيلي** أوامره للفيالق «الرومانية» لتوقف زحفها على الأرض الإسلامية . . . لتباشر الحرب على الأرض المسيحية في أرمينيا» .

اكتفى **بازيلي** بالنسبة للأمراء الأرمن الآخرين ، بأن أعلنوا ولاءهم له ، لكنَّ الأوهام لم تعمي أبصارهم عن رؤية الواقع . شعروا بأن **بيزنطة** تتحين الفرصة لتضع نيرها في أعناقهم . ولم يكن لهم أن ينتظروا طويلاً . ففي عام ١٠٤٥ سيضطر ملك آني لتقديم البلاد هبة **لبيزنطة** وحاكمها **باسيليوس** وابتلعت **بيزنطة** عام ١٠٦٤ آخر إمارة أرمنية مستقلة في **قارص** .

أنهى **بازيلي** استقلال أرمينيا ، وضمَّ **بلغاريا** مجدداً إلى الامبراطورية . كما تحالف مع الفاطميين ، بالرغم من أن الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي اضطهد آنذاك المسيحيين في الأرض المقدسة . أصدر الحاكم بأمر الله ، المولود من أم مسيحية ، والذي ترعرع في أوساط مسيحية ، عام ١٠٠٤ بغتة أمراً بمصادرة الممتلكات الكنسية ، وتحطيم الصلبان ، وهدم الكنائس . وأصدر عام ١٠٠٩ أوامره بتدمير كنيسة المهد . فذهب مايقارب الثلاثين كنيسة ضحية أوامره خلال عشرة أعوام . كما اعتنق الكثيرون من المسيحيين الإسلام للنجاة بأنفسهم . وعلى نحو مشابه سوف يضطهد الحاكم اليهود . ولن تتوقف الإضطهادات إلا بعد أن يعلن الحاكم نفسه إلهاً عام ١٠١٤ . وبعد أعوام قليلة ، سيبدأ الخليفة المجنون بإضطهاد **المسلمين** ، ومنح امتيازات للمسيحيين واليهود وسيموت عام ١٠٢١ مقتولاً على يد شقيقته .

سيلوح في الأفق أمام عيني الخليفة في **بغداد** ، خطر تعاظم قوة الامبراطورية التركية (الممتدة من أصفهان إلى بخارى ولاهور) .

ومع **بازيلي** الثاني ، تتراجع السياسة البيزنطية عن الأحلام الصليبية ، وتعود إلى الأسس الامبريالية . لكنها امبريالية مطلقة إذا ماقورنت بامبريالية امبراطورية الغرب في تعاملها مع الشعوب السلافية .

الفصل الثامن عشر

حلم إحياء الامبراطورية الرومانية

ـ أمير ليبيتسي وامبراطور روما

كانت إمارة ليبيتسي ، التي حكمتها الأسرة السلافونية العريقة ، واقعة مابين **مورافيا** والتشيك . اعترف حكام ليبيتسي ، القريبة من براغ ، بسيادة **البشيمشلين** ، الذين ربطتهم بهم أواصر القربى ، لكنهم ظلّوا على علاقة وثيقة بالأسر البافارية المتنفذة ، وخاصة أسرة **لودولفينغ** الحاكمة .

وفي أواخر القرن العاشر ، تزعم كبير الأخوة ، سوبيسلاف ، الأسرة السلافونية . بينما عكف شقيق آخر ، هو **أدالبرت** ، على الجانب الروحي . وأدت العلاقات القائمة مع أسرة **لودولفينغ** إلى إرسال **أدالبرت** الشاب إلى مدرسة القصر في مجديبورغ ، التي تمتعت بشهرة واسعة . ولما عاد إلى التشيك عام ٩٨١ ، وجد نفسه قريباً من **ثيتمار** أسقف براغ . لم يكن الأسقف من ممثلي الكنيسة المرموقين ، واشتهرت أسقفية براغ بلهوها الصاخب اكثر منه بالرعاية الروحية . لكنَّ **ثيتمار** شعر بتأنيب عنيف للضمير قبيل وفاته عام ٩٨٢ ، ولاريب في أنَّ هذا المنظر الكئيب ترك انطباعاً عميقاً في نفس **أدالبرت** الشاب .

لابد وأنَّ هناك أسباباً دفعت **بوليسلاف** التشيكي لترشيح **أدالبرت** لخلافة **ثيتمار** في رئاسة اسقفية براغ .

قام نزاع غير معلن بين الأسرتين البشيمشلية والسلافونية منذ أعوام طويلة ، حيث حلمت كل منهما بالسيطرة على كامل بلاد التشيك . أثبت البشيمشليون انهم أقوى ، لكنَّ

الروابط القائمة بين السلافونيين والألمان كانت أكثر متانة ، كما يرجح أنَّ السلافيونيين أعرق من حيث انتمائهم المسيحي . كما يبدو أنَّ مسيحية أمراء ليبيتسي مستمدة من مسيحية الدولة المورافية الكبرى ، التي كانت ليبيتسي تشكل جزءاً منها بلا ريب .

توجب على **بوليسلاف** تغيير سياسته تجاه السلافونيين بعد أن اعترف بسيادة الامبراطور . فقد خشي أن يفقد الحق في حكم التشيك لصالح أمراء ليبيتسي ، في حال وقوع خلاف بينه وبين الامبراطور . وقد يكون الدافع لترشيح **أدالبرت** لمنصب الأسقف في براغ هو امتصاص نقمة السلافونيين ، والتودد للامبراطور بآن واحد . وقام فيليجس متروبوليت مينس MAINS بمراسيم سيامة **أدالبرت** عام ٩٨٣ .

لكنَّ **أدالبرت** غادر براغ عام ٩٨٩ بعد ستة أعوام من تعيينه . فما هي الأسباب المحتملة ، التي دفعته لإتخاذ هذا القرار ؟ لاريب في أنَّ التعامل مع الواقع الذي خلَّفه سلفه لم يكن بالأمر اليسير . ومن المرجح أنَّ المسيحية لم تكن قد ترسخت في بلاد التشيك بعد . وعمَّت الكراهية للالمان في الأوساط الشعبية ، نتيجة أعوام الحرب الطويلة ، وشملت هذه الكراهية كل ماهو ألماني ، بما في ذلك الدين ، الذي اعتبر **المانياً** أيضاً . ولاحت الوثنية مجدداً ، مدعمة بالتحالف بين **الفيلانيين والتشيك** . ولكن ، هل كانت الصعوبات كافية لدفع **أدالبرت** لإتخاذ ذلك القرار ؟

يفترض أن تكون الأوضاع السياسية السبب الأساسي في رحيل **أدالبرت** .

لنعد مرة أخرى لعام ٩٨٣ . انتفض السلافيون فيما وراء نهر لابا . وتوفي **أوتو** الثاني . وحاول **هنري** التمرد مجدداً ، فأضحت مواقع **أوتو** الثالث ، القاصر مهددة . لكنَّ القسم الكبر من رجال الدين ، وعلى رأسهم المتروبوليت فيليجس ، إضافة إلى رجال الدين الفرنسيين ، وقفوا إلى جانب الامبراطور الفتي . كما سانده **ميشكو** ، الذي هرع عام ٩٨٥ على راس جيش كبير لدعمه .

تعزز موقع **ميشكو** بعد هذا النجاح ، وأضحى من أهم الحلفاء . بينما تعرضت مواقع **بوليسلاف** التشيكي ، المرتبط مع **هنري** البافاري والفيلانيين ، للخطر . وفي عام ٩٩٠ ، نشبت الحرب التشيكية البولونية ، التي وقف فيها الفرسان الألمان المرسلين بأمر من المجلس الحاكم ، إلى جانب البولونيين . وإذا كان **بوليسلاف** التشيكي قد تصور بأنه سيرضي السلافونيين بتنصيب أحد ممثلي اسرتهم على راس اسقفية براغ ، اقتنع بعد اشهر قليلة بأنهم سيطالبون باكثر من ذلك ، بعد أن يضمنوا مساندة الامبراطورية ودعم بولونيا . ولذلك قرر التخلص من الأسقف السلافوني . فلا ريب إذن في ان **أدالبرت** أرغم على مغادرة براغ .

وعلى اية حال ، فقد غادر براغ بذريعة زيارة قبر القديس بطرس ، مصطحباً معه شقيقه **راجيم** غاودينت . ويعتقد بأنه خطط لزيارة العتبات المقدسة في **فلسطين** ايضاً . توقف في

روما ، ومونتي كاسينو ، وفيليلوجو . واحتك مع الرهبان الإغريق البنديكتيين . وتعرف على القديس نيل وروموالد ، وكان الأخير أيضاً من مصلحي الأخوية البنديكتينية . وعندما حاولت الحركة الكلونية تصحيح البنية الاجتماعية للرهبنة ، عكف روموالد على إحياء حياة التنسك . وهكذا نجد في حياة الرهبنة دوماً طريقتين تمثلان التوجهات الرئيسية للنفس البشرية : النشاط الجماعي والفاعل ، والبحث عن الله في التأمل الفردي . استقر روموالد في صومعته على ضفاف نهر بو . ثم أسس في عام ١٠٠٩ ديراً في كامندولا قرب اريزو .

فتحت هذه العلاقات آفاقاً واسعة أمام أسقف براغ .

اتخذت الأحداث الجارية آنذاك في **روما** منحى حزيناً . فقبل وفاة **أوتو** الثاني باشهر معدودة ، توفي البابا بنديكت الثاني عام ٩٨٣ ، تمكن الامبراطور خلالها من المجيء إلى **روما** وفرض سكرتيره بطرس كاثيبانوفا خلفاً لبنديكت ، باسم **يوحنا** الرابع عشر .

وما ان شاع نبأ وفاة الامبراطور ، حتى جاء إلى **روما** بونيفاسي السابع ، الذي طرده **أوتو** في حينه ، وظلَّ مختفياً في القسطنطينية . فاعتقل **يوحنا** الرابع عشر ، **وحكم عليه بالموت جوعاً** .

لم تطل أيام **بونيفاسي** السابع ، الذي توفي بغتة عام ٩٨٥ . تجدر الإشارة الى أنه لم يحظ بمحبة الرومان ، حيث إنقضَّ حشد من الشارع على جثته وجرَّها في الشوارع . توفي الممثل الشيخ للأسرة الكريسنتسيوسية في الدير ، لكنَّ ابنه أراد لعب دور **ألبيريك** ، وأعلن نفسه حاكماً لروما . ثم أجرى إنتخابات خرج منها **يوحنا** الخامس عشر منتصراً .

أما في ألمانيا ، فقد انتصر بشكل نهائي الحزب المؤيد **لأوتو** الثالث ، ولممارسة الامبراطورة ثيوفانو الحكم عوضاً عنه . جاءت الامبراطورة عام ٩٨٩ إلى **روما** برفقة إبنها ، واعتمد كريسنتسيوس حاكماً **لروما** لتهدئة الأوضاع . توفيت ثيوفانو عام ٩٩١ ، فأشرفت الجدة أديلايدا ورئيس الأساقفة فيليجس على رعاية **أوتو** الثالث .

قرر **أدالبرت** العودة إلى براغ عام ٩٩٢ تنفيذاً لأمر البابا وتلبية لدعوة المتروبوليت فيليجس . كان قد قضى معظم أيام إقامته في إيطاليا في دير القديسين بونيفاسي وألكسي . وانتسب هو وشقيقه **راجيم** للأخوية البنديكتية . وأبدى **أدالبرت** أثناء إقامته في الدير ولعاً بقضايا أخرى ، غير العمل ، الذي مارسه في أبرشيته وعرضه لخلافات مستمرة مع حاكم البلاد . ولولا طلب البابا ، لبقي في **روما** بلا ريب . كان وفد من براغ قد جاء إلى روما ، يطالب بعودة الأسقف إلى أبرشيته ، ترأسه الراهب ستراجيكفاس ـ كريستيان ، شقيق ملك التشيك ، ومعه الناسك **رادلو** ، مربي **أدالبرت** القديم . ولما كان الدير يفرض على الرهبان الإلتزام بالطاعة المطلقة لأوامر البابا ، كان **أدالبرت** ملزماً بمغادرته . كما بحث **بوليسلاف** التشيكي عن وسائل للتفاهم مع **أوتو** الثالث ، ولذلك أراد رؤية أسقف سلافوني في براغ .

قرر **اوتو الثالث** عام ٩٩٥ أنَّه بلغ سن الرشد ، وأعلن عن شن حملة كبرى على الفيلانيين ، وطالب حاكمي التشيك وبولونيا بالمشاركة فيها .

كان **ميشكو** قد توفي آنذاك . لكنَّ الأمير العجوز قام قبيل وفاته بفترة وجيزة بإعطاء بولونيا تقدمة للقديس بطرس . نقرأ شيئاً عن هذا الموضوع في ملخص صغير صدر في مرحلة لاحقة لمرسوم يوحنا الخامس عشر ، الذي يثبت هذه التقدمة . وفي هذه الوثيقة المعروفة بإسم DAGOME IUDEX يرد اسم **ميشكو** ، وزوجته أودا ، وأبنائه لامبرت و**ميشكو** . لاتشمل المنطقة المقدمة للعاصمة الرسولية كامل مساحة بولونيا آنذاك ، وإنما ذلك الجزء منها المعروف بإسم مدينة **غنيزنو** .

ما الذي كانت تعنيه هذه الخطوة ؟ لاريب في أن عملية إهداء البلاد إلى البابا ، اتخذت طابعاً رمزياً . اعترف **ميشكو** بسيادة الامبراطور في واقع الأمر ، لكنَّه في الآن ذاته «بحث عن ضمانة» بإخضاعه بولونيا لرعاية البابا . كان هذا تقليداً واقتداءاً بعمل شفينتوبيلك المورافي ، الذي قدَّم بلاده في حينه للبابا **يوحنا** الثامن .

تدنت هيبة **روما** في النصف الثاني من القرن العاشر . لكنَّ القوى التي كان لها أن تبعثها مجدداً ، باشرت نشاطها آنذاك . وتمكنت العاصمة الرسولية بالإضافة إلى ذلك أن تفرض نظامها الكنسي على بولونيا ، الأمر الذي أوجد أسساً لمطالب سياسية بعيدة المدى . ولاريب في أنَّ **ميشكو** بدأ خلال ماقام به ، بمحاولة تحويل **كراكوف** إلى متروبولية .

لم يرد في الوثيقة اسم ابن **ميشكو** الأكبر **بوليسلاف** ، الذي لقبه معاصروه بالكبير ، واحتفظ له التاريخ بلقب الشجاع . كما أنَّ الوثيقة لم تورد أسماء المقاطعات البولونية الجنوبية . ويفترض البعض أنَّ الشجاع احتفظ لنفسه آنذاك بمقاطعة خاصة به ، يحتمل أن تكون إمارة الفيشلانيين . كما يفترض بعض المؤرخين أنَّ هذه المقاطعة ظلَّت خاضعة للسيادة التشيكية ، لكنَّ هذا الأمر يبدو بعيداً عن الواقع ، لأن كراكوف ، التي ستصبح بعد أعوام قليلة منافسة **لغنيزنو** ، لايمكن أن تكون خارج إطار السيادة البولونية . ويمكن الإفتراض أنَّ إمارة الفيشلانيين القديمة ، شكلت وحدة مستقلة مرتبطة بالدولة البولونية على الأساس الفيدرالي . وعلى هذا الأساس يتبادر إلى الأذهان تساؤل عمَّا إذا كانت حدود هذه الدويلة تنتهي عند جبال الكاربات ، أم أنها امتدت إلى أبعد من ذلك لتشمل **مورافيا** ؟ ألم تكن الأسقفية التي تأسست في أولومونس اسقفية لبولونيا الصغرى أيضاً ؟

نعثر في مؤلفات **المؤرخ ثيتمار** ، الذي تفوح رائحة العداء من كل ما كتبه عن **بوليسلاف** الشجاع ، على كلمات مثيرة للدهشة :

« أنجبت الأم الكريمة (أي دومبروفكا) إبناً غير شبيه بها إطلاقاً ، مسبب هلاك الكثير من الأمهات ، وأسمته بإسم أخيها **بوليسلاف** . وقد أبدى كراهية كبيرة نحوها ، أخفاها

لحين من الزمن » . عندما توفيت دومبروفكا ، لم يكن **بوليسلاف** قد تجاوز العاشرة من العمر ، فعن أي نوع من الكراهية يتحدث المؤرخ هنا ؟ أهو حقده الشخصي ، يتحدث هنا بالنيابة عنه ؟ وإذا أخذنا بالفرضية القائلة ، بأنَّ دومبرفكا جاءت في بائنتها بإمارة الفيشلانيين مع **مورافيا** ـ الإمارة التي لم تكن في واقع الأمر خاضعة للتشيك ، لكنَّ التشيك طالبت بها ـ وأنَّ هذه الإمارة كانت من نصيب **بوليسلاف** ، واستخدمها فيما بعد كنواة لفيدرالية حدَّت من دور التشيك ؟ أيكون هذا الشيء أذى ألحقه بوالدته في نظر **ثيتمار** ؟ لأنه بسبب «مملكة ما» ، دارت عام ٩٩٠ رحى الحرب بين التشيك وبولونيا .

ستدخل **مورافيا** أخيراً في إطار الدولة البولونية في عهد **بوليسلاف** الشجاع . أهو توسع نحو الجنوب ببساطة ، أم أنَّ الرغبة في إمتلاك بولونيا ستتضمن بحثاً عن بعض التقاليد السياسية ؟ أضحت **مورافيا** من قبل ـ في عهد سامو وموير ـ مرتين ، مركزاً لتبلور فيدرالية سلافية كبرى . فإلى هذا التقليد تتم العودة برغبة متزايدة ، لأنَّ **مورافيا** كانت المركز الأقدم للمسيحية السلافية ، والبنية الكنسية ، المستقلة ، التي بقي لها أثر قائم ، متمثل في اسقفية أولومونس . لم تتمتع **غنيزنو** بمثل هذه التقاليد العريقة . لكنَّ ، كل من بسط نفوذه على **مورافيا** ، كان له الحق في أن يفكر بتحقيق فكرة القديس **ميثوديوس** : فكرة المسيحية السلافية ، التي كان لها ان تشكل كتلة مستقلة تفصل ما بين شطري الامبراطورية ، الغربي والشرقي .

كانت **مورافيا** بالإضافة إلى ذلك «من ممتلكات القديس بطرس» ، ولم يكن من الضروري إدراجها في الوثيقة ثانية .

لم تدرج **بوزنان** أيضاً في وثيقة التقدمة الجديدة لكننا نعرف أن **بوزنان** أضحت منذ عام ٩٦٣ عاصمة للأسقفية التبشيرية ، التي شملت بنشاطها كامل بولونيا . يبدو أن **ميشكو** أثناء صياغة وثيقة التقدمة ، أراد الحدَّ من نفوذ الأسقف جوردان الواسع (أوربما أونغير ، الذي خلفه) ، وحاول من ناحية ثانية عدم جرح كبرياء الأسقف ، بضم أسقفيته إلى مخطط تأسيس السلطة الكنسية البولونية ، المقدم إلى روما .

لكنَّ الإحتفاظ بمورافيا لم يكن بالأمر اليسير ، إن لم تخضع مدينتا الإمارة الرئيستان ، **كلودزك** وليبيتسي ، لمن أراد الإحتفاظ بها . كانت ليبيتسي ضرورية لمخططات **بوليسلاف** الشجاع ، وكان أمراؤها موالين له ، الأمر الذي أثار قلق **بوليسلاف** التشيكي .

وهاهو الشجاع ذاته من بين أبناء **ميشكو** ، يقود حملة ضد الفيلانيين . تخلص **بوليسلاف** الشجاع بنفس الوحشية المميزة لتلك العصور ، من زوجة أبيه ، وأبنائها ، وحلفائها ، بعد موت والده . أرغمت أودا على مغادرة بولونيا . واختفى ابنها الأكبر ـ **ميشكو** . أما الثاني ـ لامبيرت ، فسيعود بعد مرور الزمن إلى البلاد أسقفاً لمدينة كراكوف .

وسوف يصبح ابنها الثالث ـ شفينيتو بيلك ، أمير المنطقة الساحلية فيما بعد . لكنهم وجدوا أنفسهم آنذاك مرغمين على مغادرة البلاد . أما قادة الحزب المؤيد لأودا ـ **أوديلين وبشيبيفوي** ـ فقد حكم عليهما بسمل العينين . كما أهمل **بوليسلاف** الشجاع التقليد المتعارف عليه في تقسيم السلطة على المقاطعات بين الأسر ، وبسط نفوذه على كامل تركة والده . يقول المؤرخ **ثيتمار** بهذا الصدد «وحدها بدهاء الثعلب» .

وعندئذ جاء **بوليسلاف** ليشارك في الحملة الامبراطورية على الفيلانيين . كما شارك فيلق تشيكي مساعد بقيادة **بوليسلاف** الثالث ، ابن **بوليسلاف** التقي . تجدر الإشارة إلى أن **سوبيبور** ، أمير ليبيتسي ، شارك في الحملة إلى جانب **بوليسلاف** الشجاع ، وليس إلى جانب الأمير التشيكي .

وفي اللحظة التي انهمك فيها بالحرب مع الفيلانيين بمساندة من البولونيين والتشيك ، قرر الأمير التشيكي تصفية حساباته مع السلافونيين ، الذين شكلت صداقتهم للشجاع خطراً ، ربما أدى إلى ضم إمارة ليبيتسي إلى بولونيا . فشنَّ بغتة هجوماً مسلحاً على ليبيتسي ، وفي عيد القديس **فاتسلاف** (في الثامن والعشرين من أيلول عام ٩٩٥) ، قتل جميع افراد الأسرة الحاكمة . وضمت الإمارة إلى التشيك . ولم ينج سوى **سوبيبور** ، الذي شارك في الحملة إلى جانب **بوليسلاف** الشجاع .

كما نجا **أدالبرت** وراجيم ، ربما لمغادرتهما براغ قبل الأحداث ، وذلك عام ٩٩٣ . أضحت الأوضاع مجدداً لاتطاق . هُزِم **بوليسلاف** التقي وتنحى عن السلطة عملياً ، ثم توفي عام ٩٩٠ ، فاستولى على السلطة ابنه **بوليسلاف** ، الملقب بالأحمر . يقول المؤرخ **كونتيشني** عنه : « ترك هذا الأمير وراءه سمعة سيئة ، فلم يتطرق المؤرخون القدماء لذكر إسمه إلا على مضض » . قدم الدعم في جميع المجالات لأسرة **فيرشوف** صاحبة النفوذ الواسع ، فنشر أفرادها الفساد في كل مكان . وبلغت الأمور حداً ، وجد **أدالبرت** معه نفسه مرغماً على إلقاء الحرم الكنسي على الأسرة ، بسبب ارتكاب جريمة قتل في الكنيسة وتدنيسها . مما أدى إلى توتر العلاقات بين الأسقف والأمير ، الذي هدد جميع أفراد الأسرة السلافونية بالموت ، بتهمة التعاطف مع السلطة البولونية . أراد **أدالبرت** حماية أقربائه بمغادرة براغ ، لكنَّ ماحدث هو العكس .

اصطحب **أدالبرت** معه **راجيم ورادلو** . ذهب أولاً عبر **مورافيا** إلى **المجر** . زار بلاط **جيزا** ، وعمدَّ ابنه فايك ـ **اسطيفان** . ثم ترك **رادلو** في **المجر** . حيث أصبح رئيساً لدير مؤسس حديثاً في أو ستشيهوم . وقد أولى **أدالبرت** الأديرة عناية فائقة في كل مكان وجد فيه . وبعد عودته إلى التشيك ، أسس ديراً بنديكتياً في بجيغونوف .

تواجد الأخوان مجدداً بين رهبان دير أفينتين في **روما** عام ٩٩٥ . وتزامن قدوم **اوتو**

الثالث إلى **روما** بهدف التتويج مع وجودهما .

لم يرث ابن شقيقة الامبراطور البيزنطي ، النصف اغريقي عرقياً ، والإغريقي ـ الروماني ثقافة وتنشئة ، الكثير عن أسرة **لودولفينغ** السكسونية . كان **يوحنا فيلا** غاثوس ، الراهب الإغريقي ، مربياً ومعلماً له . وكان عالم كبير آخر ، هو **جيربرت** ، معلماً له أيضاً ، وصديقاً مقرباً منه .

يجب التوقف فترة أطول عند **جيربرت** ، الذي سيلعب دوراً رئيسياً في الأحداث المقبلة . فالراهب الشاب من دير في أكويتانيا ، أرسل للدراسة في برشلونة ، وهناك أتقن الرياضيات ، التي درَّسها العرب . ثم أقام حيناً من الزمن في بلاط **أوتو الأول** كمدرس للرياضيات والفلسفة . ثم جاء به المتروبوليت أدالبيرون إلى ريمس وأوكل إليه إدارة المدرسة فيها . ذاع صيت **جيربرت** ـ المتهم بممارسة أعمال السحر أيضاً ـ في كامل أوروبا . ودفع النصر الذي حققه في نقاش علني مفتوح ، **بأوتو** الثاني لتعيينه رئيساً لدير غني في بوبيو عام ٩٨٢ ، الدير الذي اقتنى إحدى أروع مجموعات المخطوطات . نال جيربرت إذن حظوة لدى امبراطورين المانيين متتاليين ، وإذا كان قد عاد إلى ريمس Reims بعد موت **أوتو** الثاني ، فقد ظلَّ حليفاً للإمبراطور . وهذا ماجعله حليفاً **لهيجو** كابيتا أيضاً .

بعد وفاة أدالبيرون عام ٩٨٩ ، خلفه أرنولف ، الذي كان خصماً لكابتيا ، فاستغل أعداؤه هذا الشيء واتهموه بالخيانة ، مما أدى إلى قيام مجمع الأساقفة الفرنسيين بعزله عن منصبه ، وانتخاب **جيربرت** رئيساً لأساقفة ريمس . لكنَّ البابا رفض الإعتراف بقرار المجمع ، انطلاقاً من أنه وحده مخول بتعيين الأساقفة ، ولم يستسغ خروج اسقفية **فرنسا** على إرادته . لم تُجْدِ مساندة كابيتا أو دعم الامبراطور لكابيتا نفعاً ، لأنَّ **روما** لم تعترف سوى بأرنولف المعتقل وحده .

ولمَّا عجز **جيربرت** عن ممارسة صلاحيات رئيس الأساقفة ، استقر في بلاط **أوتو** الثالث ، حيث أصبح معلماً له . وشكلَ فكر ، وتطلعات ، ومفاهيم الامبراطور الشاب . فقد كان المثل الأعلى للامبراطورية المسيحية بالنسبة **لجيربرت** المولع بالعصور القديمة ، والذي قرأ عنها عدداً لايحصى من المجلدات ،فكرة امبراطورية **قسطنطين** الكبير ، التي كان لها أن تضم كامل العالم المسيحي . ليست الامبراطورية اليونانية أو الألمانية ، وإنما «الرومانية» ، اللاقومية ، التي كان لها ان تمتد وتتسع بمقدار انتشار المسيحية .

وجدت أفكار **جيربرت** أرضية خصبة ، فقد نهل منها الامبراطور الشاب بشغف . حلم **أوتو** بالعظمة ، وعمل **جيربرت** جاهداً على تغذية هذا الموضوع بإطراءاته الحذرة . وقد كتب قائلاً :

« أنت القيصر ، امبراطور روماني ، مبجل بولادتك من الدم الإغريقي النبيل ، متفوق

على الإغريق بسلطتك ، تحكم الرومان طبقاً لقوانين الإرث ، وتسمو عليهم جميعاً بعبقريتك وأسلوبك » .

بدأ **أوتو** يتطلع إلى نفسه كإغريقي وروماني تحت تأثير هذه الآراء ، مبدياً بعض النفور من «الهمجية السكسونية» . وقد تكلم الإغريقية واللاتينية بطلاقة .

كان مبهوراً **ببيزنطة** ، ولم يمض زمن طويل حتى بدأ بلاطه بتقليد البلاط البيزنطي في كل شيء .

لم يبارح مخيلته أبداً الحلم بالامبراطوريةالواحدة ، التي تضم العالم المسيحي بأسره ، والتي تحدث عنها **جيربرت** ، وبدا تحقيق هذا الحلم أمراً واقعياً تماماً في نظره . وقد جاء دعم آل **أوتو** لأمراء **فرنسا** بثماره المرتقبة : إذ توفي **لوتار** بن **لودفيغ** عام ٩٨٦ ، وتوفي ابنه **لودفيغ** بعد عام واحد ، وهو آخر أحفاد **شارل** . فمنح المؤتمر الذي انعقد في عام ٩٨٧ التاج الفرنسي **لهيجو** كابيتا . أكان تابع الملك الفرنسي السابق ، وصاحب الحظوة لدى القياصرة الألمان ، سيعترف بسيادة **أوتو** لو اتخذت الامبراطورية الشكل الذي أراد رؤيته تلميذ **جيربرت** ؟

حكم **بازيلي** الثاني **بيزنطة** ، لكنَّه لم يخلف من يرث العرش . كما أن شقيقه **قسطنطين** الثامن لم ينجب سوى ثلاث فتيات . وبما أنَّ **أوتو** لم يتوقف عن التفكير بتحقيق حلم **جيربرت** ، بعث برسوله **يوحنا** فيلا غاثوس إلى القسطنطينية (وهو أسقف) ليطلب باسم **أوتو** يد إحدى بنات قسطنطين .

أما في إيطاليا ، فقد تشبعت أوهام **أوتو** بالتصورات الدينينة . فهناك قابل القديس نيل ، والقديس روموالد ، وليون رئيس دير أفينتين ، كما يرجح ان يكون قد قابل القديس **غريغوري** ايضاً . وقد قابل **أدالبرت** أيضاً .

حدث تقارب كبير بين هذين الرجلين ، وقضيا معاً أياماً طويلة في النقاش . كان **أوتو** رجلاً اجتمعت فيه التناقضات ، فالحالم المثالي كان متغطرساً شديد التأثر بالإطراء ، وبالرغم من تدينه برزت في شخصيته ميول استبدادية ، أووحشية إن صحَّ القول ، وبتصور العظمة في نفسه ، ربط مابين عقدة النقص والرغبة في الخضوع لشخصية تسمو عليه .

لاريب في أنَّ **أدالبرت** تمتع بمثل هذه الشخصية . كشف أسقف براغ للقيصر الشاب النقاب عن أسرار الحياة الدينية ، ولا ريب في أنه أوضح له جوهر السلافية أيضاً . وهناك ، في دير أفنتين ، الدير الإغريقي ـ اللاتيني ، كان الظرف مواتياً للتذكير بفكرة **ميثوديوس** العظيمة ، والقابلة للتحقيق . وسيكتب البابا **يوحنا** الثالث والعشرون مذكراً بنشاط الأخوين **ميثوديوس** وقسطنطين ، قائلاً :

« صدى الزمن هو صوت الله . يوجد الكثير من العلامات الدالة على الأسلوب الذي

يدعو به للعودة إلى الوحدة والسلام ، وَيُرغِّبُ بهما » . وأمكن للعالم السلافي أن يلعب في الامبراطورية المسيحية المرتقبة ، دور الملاط المعزز للوحدة ، ويضع حداً للتمزق القائم . ولكن ، لوكان للسلافية ان تلعب دور الملاط ، وجب أن تتحول إلى كيان مستقل مكتمل الحقوق على قدم المساواة مع الآخرين . لم تكن المملكة السلافية موجودة بعد في واقع الأمر ، لكنَّ الشخصية القادرة على بنائها كانت موجودة . ولاريب في أنَّ الأسقف أخبر الامبراطور بأمر القائد الذي رعى أمراء ليبيتسي ، وكان صديقاً مقرباً منه .

برزت مشكلة انتخاب البابا الجديد قبل تتويج **أوتو** . توفي **يوحنا** الخامس عشر عام ٩٩٦ ، وتلقى **أوتو** النبأ وهو يقيم في إيطاليا . لم يجرؤ أصحاب النفوذ في إيطاليا على انتخاب البابا الجديد قبل معرفة رغبة الامبراطور . وأشار **أوتو** إلى مرشحه حالاً ، وهو ابن عمه وكاهنه الخاص **برونو** . وانتخب البابا الأول المنحدر من أصول ألمانية عام ٩٩٦ باسم **غريغوري** الخامس .

قام **غريغوري** بعد انتخابه بتتويج **أوتو** . وعلى الرغم من أنَّ الفضل في جلوس **غريغوري** الخامس على العرش البابوي يعود إلى **أوتو** ، لم يبد البابا ميلاً لتنفيذ جميع أوامر ورغبات القيصر . فقد رفض الإعتراف **بجيربرت** أسقفاً على ريمس . وعلى أية حال ، اطلق الملك الفرنسي روبرت (ابن كابيتا) سراح أرنولف ، وأعاده إلى عاصمته الأسقفية . ولكي يرضي البابا **جيربرت** ، الذي خاب أمله ، عينَّه رئيساً لأساقفة رافينا .

اضطر **أوتو** للعودة إلى ألمانيا بعد تتويجه مباشرة ، حيث اندلعت نيران انتفاضة السلاف الغربيين بزخم جديد . هاجم الستودوريون مجديبورغ وأحرقوها . واجتاز الفيلانيون والأدبودوريون نهر لابا ، وأضرموا النيران في لونيبورغ . فقاد **أوتو** حملة إنتقامية ، لم تسفر في نهاية المطاف سوى عن الدمار .

وجد **أوتو** نفسه مرغماً على العودة إلى **روما** مجدداً ، لأن آل كريسنسيوس عزلوا البابا **غريغوري** ، وانتخبوا بديلاً له عرف بإسم **يوحنا** السادس عشر . وهو رسول الامبراطور إلى **بيزنطة** ، **يوحنا** فيلاغاثوس ، أسقف بياكينزا !

تغيرت رؤيته للأمور جذرياً خلال إقامته في القسطنطينية . اقتنع فيلاغاثوس بأن **بازيلي** لايبحث إطلاقاً عن تقارب مع الغرب . ونظر نصير الامبريالية البيزنطية بإمتعاض إلى أحلام **أوتو** . ولن يمر زمن طويل حتى يفرض على أرمينيا انتداباً صارماً ، ويضم **بلغاريا** إلى الإمبراطورية ، بعد تعريض الأسرى لمجازر حقيقية . كما حاول محو كافة الآثار الرومانية في أسقفية **كييف** . كما سيرفض طلب **أوتو** بالزواج من ابنة قسطنطين . وسيعمل جاهداً على ترسيخ السلطة البيزنطية في المقاطعات الإيطالية ، وبهذا الهدف سيدعم تمرد كريستنسيوس وترشيح فيلاغاثوس .

أثناء إقامة **أوتو** في روما ، استجاب البابا لطلب المتروبوليت فيليجيس ، وأوعز إلى **أدالبرت** بالعودة إلى براغ ، لاريب في أنَّ نبأ التنكيل بالأسرة السلافونية كان قد بلغ روما ، لكنَّ احتمال تمادي الأمير التشيكي والإعتداء على الأسقف لم يكن قائماً في نظر البابا . ولمَّا اقتنع بأن حياة **أدالبرت** ستكون قاسية بعد عودته إلى براغ ، منح الأسقف السلافوني حق الإستنكاف عن رئاسة الأسقفية ، والإنتقال إلى العمل التبشيري في الأوساط الوثنية .

نفَّذ **أدالبرت** في هذه المرة أيضاً ماطلب منه . فاجتاز جبال الألب برفقة البعثة الإمبراطورية . وانتقل بعدئذ إلى **فرنسا** لزيارة المناسك المحلية هناك ، لكنه أقفل عائداً في الحال إلى مينس Mains لمقابلة الامبراطور . ومن ثم توجه إلى بولونيا .

أقام في بولونيا شيخ السلافونيين الكبير **سوبيبور** ، الذي قرر أن يستقر هناك على نحو دائم . ولكن سفر **أدالبرت** إلى التشيك عبر بولونيا كانت له أهداف أخرى غير اللقاء مع **سوبيبور** . فلا ريب في أنَّ الأحاديث الطويلة مع **أوتو** في **روما** قد أسفرت عن بعض النتائج الهامة ، حسث ربط الامبراطور فكرة نشوء الدولة السلافية الكبرى بشخصية **بوليسلاف** الشجاع . لكنَّه كان متحفظاً في بدء النشاط الخاص بهذا الموضوع ، والحديث عن مشاريعه ، خشية ماقد يثيره الأمر من معارضة في الأوساط الدينية والعلمانية البافارية والسكسونية . فاستغلَّ **أدالبرت** كرسول لنقل هذه المخططات إلى **بوليسلاف** .

جاء **أدالبرت** إلى بولونيا عام ٩٩٧ ، واستقبله **بوليسلاف** الشجاع بحفاوة بالغة . وأسفر نشاط الأسقف السلافوني خلال فترة وجيزة عن تأسيس دير في تشيماشن ، ترأسه استريك ، أحد تلامذة **أدالبرت** . وحاول **أدالبرت** جاهداً نشر التعاليم المسيحية في الأوساط البولونية ، لكنَّه لم يحرز نجاحاً يذكر ، لأنَّ اللغة التشيكيه التي استخدمها الأسقف لم تكن مفهومة على وجه العموم بين البولونيين .

تطرق **أدالبرت** في حديثه مع **بوليسلاف** لموضوع تأسيس سلطة كنسية مستقلة في بولونيا . فإذا كان لبولونيا ان تكون نواة الدولة السلافية المقبلة ، وجب أن تتمتع بحقوق شبيهة بما تمتعت به فرنكونيا الغربية والشرقية . ويقول المؤرخ **كينتشينسكي** في هذا الصدد : «لم يكن في وسع اي أمير الحصول على تاج ملكي . . . فإلى جانب كافة الشروط السياسية ، توجب وجود متروبولية مستقلة خاصة بالدولة» .

ربما توقع **بوليسلاف** أن يصبح **أدالبرت** متروبوليت **غنيزنو** مستقبلاً . لكنَّ الأسقف السلافوني لم يكن من رجال الدين الذين يخضعون لإغراءات السلطة . فقد إعتقد هذا الراهب البنديكتيني أنَّ من واجبه الإلتزام الدقيق بما كلِّف به . كان قد رسم أسقفاً لمدينة براغ ، فرأى أنَّ واجبه يملي عليه العودة إليها ، ولو كانت حياته هي الثمن . لاشكَّ بأنه عانى الكثير وهو يغادر براغ مرتين . أمكن لحياة الرهبنة التي تذوقها أن تختطفه وتمنحه مباهج غير

متوقعة ، بينما سببت له المعاناة الهائلة في براغ جراحاً لاتلتئم . لكنه بالرغم من ذلك لم يقدم على تغيير عمله الخطر في براغ ، واستبداله بعمل سهل ورائع في **غنيزنو** .

ولمّا كان **أدالبرت** لايزال في بولونيا ، وردت الأنباء بأن الأسقف لن يستقبل في براغ ، لأن **بوليسلاف** الأحمر آثر أن يعتبر العاصمة الأسقفية شاغرة ، واقترح ترشيح ابن عمه كريستيان ليشغل منصب رئيس الأساقفة فيها ، خشية أن يثير **أدالبرت** موضوع قتل أمراء ليبيتسي . وأعتقد **أدالبرت** عندئذ أنه من حقه استغلال الفرصة التي منحه إياها البابا ، وأن ينطلق في حملة تبشيرية جديدة .

يوجد من المعطيات مايسمح بالإعتقاد بأنَّ **أدالبرت** فكر بالقيام بالعمل التبشيري في أوساط الفيلانيين ، وهم الأكثر خطراً على الإطلاق بين السلاف الغربيين . ولكن هناك بالذات دارت في ربيع ٩٩٧ رحى معارك طاحنة في مواجهة الحملة العسكرية السكسونية ، التي قادها **أوتو** بنفسه . بالإضافة إلى أنَّ المنطقة كانت تابعة لمتروبولية مجديبورغ . ولم يخف على **أدالبرت** أنَّ رؤية مبشر سلافي هناك لن تكون محبذة .

يرجح أن تكون فكرة التوجه إلى البروسيين قد بدرت من **بوليسلاف** الشجاع . وتحديداً البروسيين القاطنين وراء نهر فيسلا . كانت هذه المنطقة منطقة التوسع البولوني . وعبرها زحف النورمانديون على بلاد الروس ، وتمكنوا من الاستيطان هناك . أراد **ميشكو** ومن ثم **بوليسلاف** الشجاع تحرير المنطقة الساحلية من المعسكرات النورماندية ، حيث دارت في المنطقة الساحلية الغربية معارك طاحنة مع الدانمركيين ، استمرت أعواماً طويلة . وتمت السيطرة على أقوى معسكراتهم في جومسبورغ . تحالف بعد ذلك **ميشكو** مع السويديين ضد الدانمركيين ، وزوَّج ابنة شفينتو سلافا للملك السويدي **إيريك** المنتصر ابن بيورن . اعتنق **إيريك** المسيحية قبل وفاته ، وأسس ابنه أولاف سكو تغنونغ أول أسقفية سويدية في سكارا .

تجدر الإشارة هنا إلى مجرى حياة شفينتوسلافا شقيقة **بوليسلاف** الشجاع . أصبحت بعد وفاة **إيريك** زوجة **سويند** الدانمركي . وانفصلت عنه بعد فترة وجيزة من الحياة الزوجية (حوالي عام ١٠٠٦) ، وقد أنجبت له ثلاثة أطفال هم : هارالد ، الذي سيتربع على العرش الدانمركي ، وكانوت الملقب بالكبير ، ملك انجلترا والنرويج لاحقاً ، وابنة تدعى شفينتوسلافا ، توفيت كراهبة في انجلترا .

توجه **أدالبرت** إلى غدانسك عبر نهر فيسلا ، يرافقه شقيقاه **راجيم** وبوغوشا ، وهما أيضاً من الرهبان البنديكتينيين . ونقل الجنود البولونيون المبشرين إلى الضفة الأخرى للنهر .

انتهت مهمة **أدالبرت** بصورة دموية . إذ لم يستقبل البروسيون المبشرين القادمين من بولونيا بود ، لأنهم ضمروا لها الكثير من الكراهية . هوجم **أدالبرت** فور وصوله قرب قرية خولين وتعرض لضرب مبرح كاد أن يودي بحياته . وبعد أيام معدودة ، في الثالث والعشرين

من نيسان عام ٩٩٧ ، وبينما كان يقيم قداساً في منطقة تابعة لمعبد وثني ، هاجمه حشد من الوثنيين يتقدمهم ، الكاهن المحلي . تعرض **أدالبرت** لطعنة بالرمح ، ثم قطع عنقه ومزّق جسده . أما **راجيم** وبوغوشا ، فقد أعتقلا ، ثم أطلق سراحهما لقاء فدية .

نقرأ في سيرة حياة القديس **أدالبرت** : وهكذا « انتقل أول شهيد سلافي إلى السماء» .

استعاد **بوليسلاف** رفاة القديس **أدالبرت** من البروسيين لقاء مايعادلها ذهباً بالوزن ، حيث استقرت في نهاية المطاف في **غنيزنو** ، في الكنيسة التي دفنت فيها دومبروفكا . واستقر جنباً إلى جنب إثنان من التشيك : المرأة التي جاءت بالمسيحية الى بولونيا ، والمبشر الذي دفع حياته ثمناً ليخلق لبولونيا مكانة مناسبة في الامبراطورية الرومانية المنبعثة من جديد .

ـ مؤتمر غنيزنو

لاريب في أن نبأ وفاة **أدالبرت** قد بلغ **أوتو** بسرعة ، وترك إنطباعا عميقاً في ذهنه الحساس . واكتسبت الفكرة التي نُسجت خيوطها من الأحلام ومن المباحثات مع **جيربرت** حول بعث الامبراطورية ، معنى أعمق أمام الحدث الدموي .

كان **أوتو** في تلك الأثناء في طريقه إلى روما ، مصطحباً معه **غريغوري** الخامس المقيم في شمال إيطاليا ، ومع انتشار نبأ اقتراب الامبراطور ، حاول البابا المضاد **يوحنا** الفرار . ولكن ، ألقي القبض عليه وتعرض لتعذيب لاإنساني : فقد سملت عيناه ، وجدع أنفه وأذناه ، وقطعت يداه ولسانه . وبهذه الحالة نقل على ظهر حمار في شوارع روما . أدان نيل البالغ من العمر ثمانين عاماً العمل الوحشي بقسوة ، وتنبأ لمنفذيه ـ البابا والامبراطور ـ بالموت السريع .

انتقم **أوتو** بصورة وحشية من كريسنتسيوس ، زعيم التمرد أيضاً . فلما أرغمه القائد العسكري إيكهارد على الإستسلام ، أمر **أوتو** بقطع رأسه أمام الناس وتعليق جثته على المشنقة .

أثار هذان العملان كراهية المدينة التي أراد اوتو أن يجعل منها عاصمة لامبراطوريته ، ضده .

حاول الامبراطور بلوغ هدفه بخطى حثيثة ، فأمر ببناء قصر له في أفينتين . وأطلقت على البلاط أسماء جديدة لاتينية ـ إغريقية . كما ظهرت مراسم معقدة مستمدة من التقاليد البيزنطية .

لهذه المرحلة تعود لوحة رسمت في دير ريخناو خصيصاً للكتاب المقدس المهدى إلى **أوتو** . وفيها يظهر الامبراطور جالساً على العرش ، ويحيط به أربعة أشخاص رمزيون يقدمون له الولاء : روما ، وغالة ، وجرمانيا ، وسكلافينيا . لاشكَّ بأنَّ هذه اللوحة رؤية لأحلام

أوتو ، فروما ، التي تحمل شارات السلطة الامبراطورية ، تمثل إيطاليا ، مركز الامبراطورية . وغالة ، التي تحمل المشعل في يدها (ربما دلالة على الإيمان المبكر) ، تعبير عن القناعة بأن مملكة كابيتا ستصبح جزءاً من الامبراطورية . وجرمانيا تستقر بتواضع في المركز الثالث ، وهي تحمل قرن الوفرة . بينما حملت سكلافينيا رغيف الخبز .

فهمت امبراطورية **أوتو** كسلطة عليا على حكام متوجين ، محليين ، متحدين طواعية في فيدرالية . لم يكن لها ان تصبح امبراطورية جرمانية أوألمانية (وإنما رومانية ـ بالمعنى اللاقومي) .

كان **لفرنسا** ملكها روبرت بن كابيتا . وعين **أوتو** زيازون السكسوني حاكماً مدنياً لإيطاليا . وكان متوقعاً أن يعين القائد العسكري إيكهارد ملكاً على ألمانيا . لم يتسرع **أوتو** بإعلان مخططه هذا ، آخذاً بعين الاعتبار مطامع وطموحات آل **هنري** البافاريين ، الذين أعلن عفوه عنهم رسمياً بعد تمردهم . وحافظ على سرية تامة فيما يتعلق بتنصيب **بوليسلاف** الشجاع ملكاً على سكلافيينا .

توفي **غريغوري** الخامس بغتة عام ٩٩٧ . ولاريب في أنَّ **أوتو** وجد في الأمر تحقيقاً لنبوة القديس نيل الرهيبة . فتملكه الرعب ، وهرع للتوبة والحج إلى مقام القديس ميخائيل في جبل جرجانو سيراً على الأقدام .

ظل **أوتو** منذ أحداث عام ٩٩٧ يتنقل حاجاً من مكان إلى آخر ، ويلتزم بقواعد الصيام ، مشيراً مراراً إلى رغبته في اعتزال السلطة الامبراطورية والتفرغ للتنسك . يبدو وكأنه شعر بدنو أجله ، وبدأ ضميره يؤنبه . كما أرعبته النبوات المروعة عن نهاية العالم في العام الألف . فراح ينادي بعبادة القديس **أدالبرت** ، وكأنه بحثاً عن الخلاص ، وفي تلك الأثناء أبدت **روما** اهتماماً برفع بعض الأشخاص إلى مصاف القديسين ، حيث قام البابا **يوحنا** الخامس عشر برفع **ألريك** اسقف أوغسبورغ إلى مصاف القديسين ، وهو مصلح الحياة الرهبانية ، وراعي الفقراء وحامي المدينة من المجرمين . كان قد توفي عام ٩٧٣ ، ولم ينتظر طويلاً (مالايزيد عن عشرين عاماً) ليصبح قديساً . أما القديس **أدالبرت** ، فقد استشهد عام ٩٧٧ ، ويرجح أنه لم ينتظر سوى عامين ، ليصبح قديساً عام ٩٩٩ . وضع **أوتو**حجر الأساس لأربع كنائس تكريما للقديس **أدالبرت** : في أكويزغران ، وفي بيريوم قرب رافينا ، حيث اقام القديس روموالد ، وفي **روما** على جزيرة في نهر التيبر ، وفي الجبال في منطقة سوبياكو .

أثارت فكرة بعث الامبراطورية ، التي تمت مناقشتها مع **أدالبرت** مراراً ، مخيلة **أوتو** أكثر فأكثر . أما موت **غريغوري** ، فقد أتاح فرصة جديدة بالرغم مما أثاره من قلق . فقد خلفه على العرش البابوي **جيربرت** ! عام ٩٩٩ .

أول بابا من اصل فرنسي اختار لنفسه اسم سلفستر الثاني . وكان لهذا الأسم معنى رمزياً . إذ أنه قبل ذلك الحين بما يقارب الستة قرون ، منح **قسطنطين** الكبير **روما** للبابا سلفستر الأول ، مقتسماً معه بذلك السلطة على العالم المسيحي . وهكذا نشأت الامبراطورية المسيحية الأولى . وأعتقد البابا أن الآوان قد آن لبعثها مجدداً .

تسلم البابا زمام المبادرة . وستكون قضية بولونيا ـ سكلافينيا القضية الأولى ، التي يجب انهاءها . وسيكون المنطلق تأسيس تنظيم مستقل ، واستحداث متروبولية في **غنيزنو** يترأسها **راجيم** شقيق القديس الشهيد . وهكذا جاء شقيق القديس **أدالبرت** إلى **روما** بتكليف من **بوليسلاف** الشجاع ، مصطحباً معه أحد أبناء الحاكم البولوني ، الذي نذر حياته للرهبنة في دير بيريوم (لانعرف إذا كان بيزبريم الذي أنجبه من المجرية ، أم أنه أحد أبناء **بوليسلاف** الآخرين ، والذي نجهل اسمه) . ستخضع لمتروبولية **غنيزنو** ثلاث أسقفيات هي : كولوبجيغ وأسقفها رينبرت ، وكراكوف وأسقفها بوبون ، وفروتسلاف واسقفها **يوحنا** . ولاريب في أنّ الأول والثاني ألمانيان . أما **بوزنان** فقد احتفظت بأسقفها أونفير خليفة جوردان ، الأسقف المبشر لكامل بولونيا حتى ذلك الحين .

تمّ استحداث هذا التنظيم على جناح السرعة . وقد تمكن الأساقفة الجدد من التوجه إلى بولونيا قبل نهاية عام ٩٩٩ ، حيث رافقوا موكب الامبراطور الذي أراد الإحتفال بالعام الألف للميلاد وهو يحج إلى قبر الشهيد السلافي . وسوف يرافق الامبراطور في رحلته كل من زيازون والي روما ، وروبرت شماسها ، وذلك بصفة مبعوث أونائب بابوي على الأرجح ، بالإضافة إلى عدد من الكرادلة .

سيمر الموكب الامبراطوري عبر رافينا ، وفيرونا ، وبرينر ، وراتيزبونا . فلنترك الحديث هنا للمؤرخ **ثيتمار** :

« عندما وصل الامبراطور إلى جيتيتس ، استقبله أسقف هذه الأبرشية بحفاوة . . . توجه الامبراطور بعدها مباشرة إلى ميشنا ، حيث احتفى به الأسقف المحلي والقائد ايكهارد . . . ولما وصل إلى مواطن الجادوشيين عبر بلاد الميلتشانيين ، انطلق **بوليسلاف** للقائه مبتهجاً . . . يعجز اللسان عن وصف الحفاوة التي استقبل بها يوليسلاف الامبراطور آنذاك ، وكيفية مرافقته له إلى **غنيزنو** » .

وبعد الصلاة أمام ضريح **أدالبرت** « استحدث الامبراطور متروبولية وفقاً للقانون على ما أعتقد » . يلمح **ثيتمار** إلى أنه غير متأكد من أنّ التنظيم الكنسي في بولونيا قد استحدث بصورة قانونية . وسوف يوجه أعداء **أوتو** بعد فترة وجيزة هذه التهمة له علناً ، وخاصة المسؤولون عن الكنيسة في المقاطعات الألمانية الشرقية .

سيكتب المؤرخ الغالي لاحقاً : « وفي عهده (يقصد **بوليسلاف** الشجاع) ، جاء

الامبراطور **أوتو** إلى قبر القديس **أدالبرت** ليصلي ويتصالح مع ربه ، وكذلك للتعرف على **بوليسلاف** الذائع الصيت . . . استقبله **بوليسلاف** بحفاوة وتكريم بالغين . لائقين بامبراطور روماني وضيف على هذا القدر من الأهمية » .

اتخذت أحداث أخرى مجراها في غنيزيو ، بالإضافة إلى الصلوات والإستقبالات الحافلة التي أقيمت تكريماً للامبراطور . فقد وضع **أوتو** أثناء الوليمة تاجه على رأس **بوليسلاف** ، وأهداه الرمح الذي يسميه غالوس خطأ «رمح القديس موريس» . لأنه الرمح ذاته الذي زعم بأنه رمح **قسطنطين** الكبير ، والذي حصل عليه **هنري الأول** من الملك رودولف (يستنتج هذا من المقارنة بالرمح الموجود حالياً في خزائن القصر الملكي في كراكوف ، والذي كان بمثابة رمز تتويج الملوك البولونيين . بوصف ليوتبراند) ، وأضحى رمزاً للسلطة الامبراطورية ، يتحدث المؤرخ عن مسمار الصليب المقدس أيضاً ، ولكن يجب أن يفهم هذا على أنه مسمار موجود في الرمح ، جاءت به القديسة **هيلانة** في حينه من الأرض المقدسة .

تُلاحَظ بالإضافة الى ذلك عبارات غريبة لدى المؤرخ الغاليّ «قامت بينهما في ذلك اليوم أواصر محبة عظيمة ، مما دفع الامبراطور ليدعو (**بوليسلاف**) أخاً وحليفاً ، وصديقاً للشعب الروماني . كما تنازل له ولأصحاب النفوذ في بلاطه عن كل ما آل سابقاً للامبراطورية في مجال الألقاب الكنسية ، ضمن المملكة البولونية والبلدان التي احتلها **بوليسلاف** سابقاً وسيحتلها لاحقاً . وقد صادق البابا سلفستر على هذا التحالف بإسم «الكنيسة الرومانية المقدسة» .

لايستنتج من النصوص المعروفة بأنَّ **أوتو** أعلن **بوليسلاف** «ملكاً على سكلافينيا» . كما أنه لم يحمل معه تاجاً ملكياً ليقدمه **لبوليسلاف** ، في حين أنه في العام الألف هذا ، تسلم أسطيفان المجري التاج من روما . ولذلك فإنَّ محادثات غينزنو اتخذت طابع التشاور ووضع الخطط المستقبلية ، وليس اقرار الحقائق النهائية .

لكنَّ وعود **أوتو** كانت قوية بكل تأكيد ، لأنَّ **ثيتمار** كتب عنها قائلاً : «ليسامح الله الامبراطور ، فبتحويله التابع إلى سيِّد ، رفع من شأنه إلى حدٍ بدأ معه بمعاملة رؤسائه كأتباع» .

لاغرابة في أن فكرة نشوء الدولة السلافية الكبرى ، وتحول بولونيا إلى مركز لها ، وتنصيب **بوليسلاف** ملكاً عليها ، قد آثار حفيظة انصار غزو الأرض السلافية وإحتلالها . فمن مشروع اتفاق **أوتو** و**بوليسلاف** يستنتج بأنَّ للأخير الحق في توسيع رقعة مملكته ، أو ربما نقل السلطة على الأراضي السلافية الغربية إلى يده (لأنَّ عبارة السلطات الكنسية العائدة للامبراطورية في المملكة البولونية» يمكن أن تعني هذه الأراضي وحدها ، حيث كان الأساقفة الألمان يمارسون فيها العمل التبشيري حتى ذلك الحين ، وانتهى هذا العمل بكارثة . تجدر

الإشارة أيضاً إلى تقارب لغة كافة الجماعات السلافية المستوطنة في المنطقة الممتدة من ماوراء نهر لابا في الغرب وحتى الفيشلانيين ومازوفشي في الشرق . وعلى أية حال ، فإن المصادر التاريخية المحفوظة تخبرنا بأنَّ **بوليسلاف** سيطالب بعد موت **أوتو** الثالث مباشرة ، بهذه الحدود للبلاد السلافية . يذهب المؤرخ **كينتشينكي** في فرضيته إلى ابعد من ذلك ، فهو يقول :

«لم يقتصر التحالف على اعتبار **أوتو بوليسلاف** أخاً له فحسب ، أي بمعنى كونه مساوياً له ، وشريكاً له في الحكم ، ونائباً له أيضاً . بل نصَّت المعاهدة على تعيين **بوليسلاف** الشجاع خليفة لـ**أوتو** على العرش الروماني . لأن وضع التاج على رأس شخص ما لم يجعله مجرد ملك أوحاكم . والتاج الامبراطوري على رأس **بوليسلاف** كان يعني تحديد الامبراطور المقبل» .

كان الوضع النفسي **لأوتو** عرضة لتبدلات مستمرة . أقلقته أمور إيطاليا ، وشعر بتأنيب الضمير بسبب موت كريسنتسيوس **ويوحنا** السادس عشر ، كما أرعبته نبوة القديس نيل عن نهاية العالم في العام الألف . فشعر الامبراطور الشاب ، الذي لم يتجاوز العشرين من عمره بالضعف ، وعلى الرغم من أنَّ الفكرة العظيمة هيجت مخيلته ، فقد وقف عاجزاً أمام تحقيقها . وهناك أمام تابوت القديس الذائع الصيت ، وجد صديقه ، الملك المفعم بالنشاط والحيوية ، فبدا له الرجل إنساناً بمستوى طموحاته .

أقام **أوتو** في **غنيزنو** لبضعة أيام ، وتابع بعدها رحلته إلى ألمانيا . رافقه **بوليسلاف** حتى أكوينرغران . وهناك ، طالب **أوتو** بالبحث عن قبر **شارل** الكبير وفتحه ، وكأنه بحثاً عن السر الذي يمنحه الطاقة اللازمة لإنجاز المخطط الكبير . وجد الامبراطور الكبير في قبره في وضعية الجلوس . اصطحب **أوتو** صليب الامبراطور وجزءاً من ثوبه معه ، بينما أهدى العرش **لبوليسلاف** الشجاع .

كان كل منهما ، **بوليسلاف** ، الرجل الواقعي ، **وأوتو** الذي مزقته الشكوك مختلفاً عن الآخر . لكنَّ **بوليسلاف** تعامل بجدية تامة مع وعود **أوتو** . وكادت بولونيا أن تصبح في عهده كتلة تربط الشرق المسيحي بالغرب المسيحي ، وهو الأمر الذي حلم به كل من القديسين **ميثوديوس وأدالبرت** .

ـ نهاية الأحلام

واجهت مخططات **أوتو** ، وسلفستر الثاني ، **وبوليسلاف** معارضة حادة . ففي اللحظة التي كان **أوتو** يقدم وعوده **لبوليسلاف** ، حيكت في ألمانيا خيوط المؤامرة ، التي حركها خفية

هنري البافاري ، وامتدت خيوطها إلى روما . ويرجح أن يكون هو من حرَّض رئيس الدير المدعو أستريك ، تلميذ **أدالبرت** السابق ، ورئيس أو عضو الوفد البولوني الذي توجه إلى **روما** في أواخر عام ١٠٠٠ ، على تسليم التاج المخصص **لبوليسلاف** إلى **اسطيفان** المجري ، الذي تزوج آنذاك من شقيقة **هنري** البافاري .

جاء اوتو إلى **روما** مجدداً في أواخر عام ١٠٠٠ . وكان التمرد قد عمَّ أرجاء شبه الجزيرة . عزلت الإمارات الجنوبية الحكام الذين فرضهم الامبراطور عليها . وتفجرت في **روما** انتفاضة تزعمها **غريغوري** من توسكولوم (نبلاء توسكولوم هم أحفاد **ألبيريك**) ، وهو الشخص المقرب من **أوتو** ، والمعين من قبله قائداً للأسطول الإيطالي . حوصر الامبراطور في قصره ، لكنَّه تمكن من الفرار واللجوء إلى حصن الملاك المقدس ، لينتظر داخل أسواره وصول النجدة . عاشت العاصمة الامبراطورية حالة غليان طغت عليها الكراهية لشخص الامبراطور ، مما اضطره لمغادرتها إلى رافينا برفقة البابا .

استمر **أوتو** في جمع الجيوش وإرسال الحملة بعد الأخرى إلى **روما** المتمردة ، بالرغم من تفاقم الأوضاع يوماً بعد يوم . فقد التزم الأمراء الألمان الصمت حيال مطالبتهم بإرسال النجدة ، وعادته إيطاليا . فمرَّ بلحظات إنهيار روحي ، وظلَّ يبحث عن العزاء في الدين وحده . قام بتغيير لقب «خادم **يسوع** المسيح» الذي كان يُعرفُ به حتى ذلك الحين ، متخذاً لنفسه لقب «خادم الرسل» . خاض نقاشات طويلة وأحاديث معقدة مع القديس روموالد ، مؤكداً بأنه لايرغب في ممارسة السلطة الامبراطورية لأكثر من ثلاثة أعوام أخرى ، يلتحق بعدها بسلك الرهبان ، تاركاً العرش لمن هو «أفضل منه» . نظَّم حملة تبشيرية جديدة موجهة إلى بروسيا ، موكلاً قيادتها لإبن عمه برونو الكفير فورتي ، النصير المتحمس للقديس **أدالبرت** . وفي نهاية المطاف بحث عن العون لدى دوق البندقية بطرس أورسيولا ، الذي تحرر من التبعية البيزنطية على نحو نهائي . كما حاول الإتصال بالقسطنطينية عن طريق أسقف ميلانو ، مقترحاً الزواج مجدداً .

توفي بغتة عام ١٠٠٢ في حصن باتيرنو بالقرب من روما . ويوجد من الدلائل مايشير إلى أنه مات مسموماً .

انتخب المتنفذون الطليان أرديون الإيفيري ملكاً عليهم في الحال (وهوالشخص المرتبط بروبرت الفرنسي . وأعلن كريسينسيوس نفسه حاكماً **لروما** (وهو ابن الشخص الذي أعدمه **أوتو** في حينه) ، وسمح بعودة سلفستر إلى روما ، لكنَّه حدَّ من نشاطه وقصره على الأمور الدينية الصرفة . لم يعش البابا طويلاً بعد موت **أوتو** ، حيث توفي عام ١٠٠٣ . وفي ألمانيا ، استولى **هنري** البافاري على السلطة الامبراطورية عنوة ، بينما كان ايكيهارد الميشني المرشح

لعرش ألمانيا ، قد أغتيل في نيسان عام ١٠٠٢ . أما **بوليسلاف** الشجاع فقد نجا بحياته ، لكنَّه بقي وحيداً مع فكرة بعث الامبراطورية .

ـ الألف الأولى

هكذا وصلنا إلى نهاية الألف الأولى .

مالذي يميز هذه المرحلة ؟ بدأت في اللحظة التي كانت فيها الامبراطورية الرومانية بمثابة القوة العظمى في العالم الغربي ، أو بالأحرى ، القوة الوحيدة ، لأن جميع منافسيها ، بإستثناء مملكة البارثيين ، لم يكوّنوا سوى كتلة عديمة الهيئة من الهمج .

اعتنقت الامبراطورية المسيحية واعتبرتها ديناً لها بعد ثلاثة قرون . واعتبر **قسطنطين** الكبير نفسه حاكماً للامبراطورية بمقدار ما رأى نفسه زعيماً للمسيحية . وسيجد القديس أوعسطين أنه أمر حتمي أن تتقابل في العالم CIVITAS DEI و CIVITAS TERRANA أي الدولة الإلهية ، التي هي كنيسة وامبراطورية (امبراطورية مسيحية بطبيعة الحال ، امبراطورية أضحت بمثابة الصورة المادية للحياة المسيحية) ، ودولة الخطيئة ، ودولة المعتقدات الأخرى . ومن ثمّ سيقوم **شارل** الكبير بتبسيط هذا الرأي وتسطيحه ، وعكسه على الواقع السياسي ، مستشهداً بالقديس **أوغسطين** . تلي ذلك مرحلة الصعوبات الخارجية التي واجهتها الامبراطورية ، والنزاعات الداخلية بين الدولة والكنيسة . فبعد أن التقى دور الامبرطورية كإمبراطورية لكامل العالم المسيحي ، راحت تطالب المسيحية ، بأن تبقى مسيحية «الامبراطورية» فقط . واعتقدت بأن الوسيلة الصحيحة الوحيدة لنشر المسيحية ، هي توسيع حدود الامبراطورية . وبما انَّ القسطنطينية ظلَّت لعدد من القرون مركز الامبراطورية ، سيطمح بطريركها لأن يعلو مرتبة ومقاماً على بابا روما . أما روما ، فسوف تحاول الدفاع عن استقلاليتها ، وستعمد لتأسيس امبراطورية ثانية ، امبراطورية مسيحية ثانية . وسيتعذر على كل منهما بسط النفوذ على كامل العالم المسيحي ، وستخوضان فيما بينهما حرباً شعواء على مناطق النفوذ .

ولكن قبل أن تتأسس الامبراطورية في الغرب ، ستبقى **روما** البابوية محرومة لأعوام طويلة من أية حماية مدنية . لكنَّ هذه الحالة التي تبدو ميئوساً منها ظاهرياً ، ستتيح المجال أمام الكنيسة لإنجاز التجديد والبعث الداخلي . وستقوم الكنيسة ، التي ستسحقها أقدام البرابرة وغزواتهم ، بإستعادة مواقعها ونفوذها ، ستعمق الحياة الدينية ، وتربط بين الثقافة الحديثة ومكتسبات الماضي . وقبل أي شيء آخر ، ستقوم بتعميد الشعوب التي قرّبت أجل الامبراطورية الغربية .

ستأخذ الشعوب الجرمانية التي اعتنقت المسيحية استمرارية التقاليد الامبراطورية القديمة على عاتقها . لكنَّهم لن يأخذوا بتقاليد الامبراطورية في صيغتها الأُكثر قدماً ، كامبراطورية لاقومية ، وإنما في الصيغة التي حافظ عليها الشرق - في الامبراطورية الاغريقية .

ولدى تأسيس الامبراطورية الرومانية الجديدة ، لم تأخذ **روما** في الحسبان أنها ستكون نسخة طبق الأصل عن الامبراطورية البيزنطية ، بفارق وحيد ، هو أنَّ العنصر الجرماني سيحل محلَّ العنصر الإغريقي - السوري المهيمن في **بيزنطة** . وبرزت خطورة مقابلة طموحات البطريرك الإغريقي بطموحات صغيرة «للبطريرك» الروماني - الجرماني .

ولكن مرة أخرى - ولحسن حظ الكنيسة - تعرضت الامبراطورية الرومانية المصممة وفق النموذج الشرقي ، للتفكك الداخلي . وفقدت الكنيسة مجدداً الحماية المقدمة لها . فبدأت تعمل القوى الكامنة فيها ثانية ، وتمكنت من إنجاز تجديد آخر بالرغم من الإنحلال والفساد الأخلاقي الذي وجد طريقه إلى البلاط البابوي ذاته . ويعدُّ الإصلاح الكلوني ، وعمل كل من روموالد ، ونيل ، وقسطنطين ، و**ميثوديوس** ، والملك **إلفرد** ، بمثابة مراحل البعث الجديد في الكنيسة .

كان كل تحرر من الارتباط بالامبراطورية بمثابة صدى الزمن بالنسبة للكنيسة ، تلك الامبراطورية التي عجزت عن ضم كامل العالم المسيحي في إطارها . تجدر الإشارة إلى أنَّ **أوتو** الثالث حاول جاهداً العودة إلى الفكرة الأولية للامبراطورية اللاقومية . فالحالم الشاب - أوربما الرجل الذي كان بمثابة معلم له وموجه لأحلامه ، **جيربرت** - سلفستر - أدرك جيداً أن أوروبا القرن العاشر لم تعد في الواقع أوروبا القرن الرابع . وأراد أن يحلَّ نمطاً من فيدرالية ممالك مستقلة محلَّ الامبراطورية المتجانسة . كان مخطط سلفستر ثورياً ومصطنعاً إلى حد بعيد . ولم يأخذ الواقع بعين الاعتبار ، وعلى نحو خاص وجود الامبراطورية في الشرق . كما أهمل بقدر أكبر الطاقات البشرية . لأن **أوتو** الثالث - الرجل الضعيف الممزق بصراعاته الداخلية - لم يكن ذلك الإنسان القادر على وضع المخطط الكبير حيِّز التنفيذ كما كان سلفستر ذاته رجلاً نظرياً وليس عملياً .

ومع هذا المخطط انتهت فكرة الامبراطورية الرومانية . إذ لاأهمية لبقاء الامبراطورية البيزنطية في الشرق لما يقارب خمسة قرون لاحقة ، وكذلك لبقاء اللقب الامبراطوري في الغرب حتى القرن العشرين . لأن تطور المجتمع الأوروبي سيتخذ منحى جديداً ، ولكي تتمكن الكنيسة من ضم هذا المجتمع تحت لوائها ، كانت مرغمة على التخلي أكثر فأكثر عن العلاقات التي «تضمن وجودها وبقاءها» مع المنظمات الدولية . فمنْ يجب أن يكون المسيحيون في العالم : بمثابة الخميرة في العجين ، أم أناساً يفرضون معتقداتهم على دولة علمانية أخرى ؟

كتب أحد المفكرين المعاصرين وهو **كريستوفر داوصن** في كتابه : «الواقع التاريخي للثقافة المسيحية» .

«بالرغم من وحدة واستمرارية التقاليد المسيحية ، فإنَّ لكلِ حقبة من تاريخ الكنيسة طابعها الخاص المميز لها . . . أفترض وجود ست حقب ، امتدَّ كل منها ثلاثة أو أربعة قرون ، وكان المنحى الذي اتخذته كل حقبة شبيهاً بغيره إلى حد ما . فكل حقبة بدأت وانتهت بأزمة ما ، ومرَّت كل حقبة ــ ربما باستثناء الأولى ــ بثلاثة أطوار من الصعود والهبوط . ظهرت في البداية فترة نشاط روحي مكثف ، حيث كانت الكنيسة تقف وجهاً لوجه أمام ظرف تاريخي جديد ، فتبدأ مرحلة رسولية جديدة . تلت ذلك مرحلة النجاح والإنجازات ، حيث تصورت الكنيسة في كل مرة أنها سيطرت على العالم ، وأنَّ في وسعها خلق ثقافة مسيحية جديدة ، وإيجاد صيغ جديدة للحياة ، والفن ، والفكر . وحلَّت أخيراً المرحلة الثالثة ، مرحلة التراجع . وفيها هاجم خصوم جدد الكنيسة من الداخل والخارج ، ففقدت الكنيسة مكاسب الطور الثاني ، أوراحت تتلاشى» .

ما الذي يعنيه **داوصن** بالحقب الثلاث الأولى ، والتي كانت موضع إهتمام الكتاب الذي بين أيدينا ؟

تبدأ الحقبة الأولى بدخول المسيحية ظافرة إلى العالم الهلنستي ـ اللاتيني . حيث أصبحت الكنيسة «أكبر قوة خلاَّقة في ثقافة العالم الروماني عبر القرنين الثاني والثالث . . . وقد بلغ الإنجاز على الصعيد الثقافي أوجه في أواسط القرن الثالث ، في عهد كليمنت وأوريجين في الشرق ، و**ترتليان** و**سبريان** في الغرب» . حلَّت بعد ذلك الكارثة المتمثلة في آخر الإضطهادات وأشدها هولاً .

بدأت الحقبة الثانية بهداية قسطنطين . ومن وجهة نظر الكنيسة ، تشكل القرون الثلاثة الفاصلة بين بداية السلام مع الكنيسة واحتلال **المسلمين** للقدس و**انطاكية** والإسكندرية ، مرحلة الوحدة الداخلية والوفاق في الكنيسة» . وهذا هو عصر أثناسيوس و**باسيليوس** ، و**غريغوري** النزينزي ، و**غريغوري** النيسي ، و**أمبروزي** ، وهيرونيم ، و**أوغسطين** ، والذهبي الفم ، عصر نشوء وتطور حياة الرهبنة ، عصر العمارة والفن المسيحيين (باسيلقيات روما ، وباسيليقا الحكمة المقدسة في القسطنطينية ، وباسيليقيا رافينا) . « وفي الطور الأخير من هذه الحقبة ، أدى الصراع القائم بين الكنيسة الرسمية والإمبراطورية البيزنطية من جهة ، والقوميات الخاضعة لها من جهة ثانية ، إلى تأسيس الكنائس القومية التي رفضت العقائد الأرثوذكسية ، وانشقت عن **روما** والقسطنطينية في آن واحد . . . وفي نهاية المطاف ، انتهى عصر آباء الكنيسة ، بأن فقدت الكنيسة المسيحيين الشرقيين ، وبظهور قوة عالمية جديدة على مسرح الأحداث ، تمثلت في الإسلام » .

بدأت الحقبة الثالثة على نحو مأساوي . تعرضت الكنيسة في الشرق والغرب والجنوب للخطر الإسلامي ، وللخطر البربري في الشمال . ولكنها بالرغم من هذه المخاطر تمكنت من كسب الشمال ، والأهم من ذلك : قامت بتوسيع رقعة نفوذها في وسط القارة الأوربية . فقد أعادت بناء المسيحية ونشرها في الدول التي فقدتها من قبل نتيجة الضغوط الهمجية . ودخلت مناطق الأرياف من أوسع الأبواب ، بعد أن كان نشاطها مقتصراً على المدينة قبل ذلك الحين . كما قامت بتعميق جذور الحياة الرهبانية . وهذا هو عصر الرهبان ـ المبشرين العظام من أمثال : **كولومبان** ، وويلبرود ، وبونيفاسي ، **وميثوديوس** ، **وأدالبرت** . لكنَّ هذه الحقبة « انتهت بإنهيار الامبراطورية المسيحية الجديدة تحت تأثير ضغط الغزو البربري ، الذي أسفر عن السقوط في حالة من الهمجية هددت الكنيسة ذاتها » .

لا أعتقد بأن الفرضية الأخيرة صحيحة . لأنَّ انهيار الامبراطورية الغربية لم تكن نتيجة للغزو الخارجي ، بقدر ماكان ناجماً عن التفكك الداخلي . **فعملية نشوء الشعوب تمر عبر مرحلتين : الأولى ، هي تفكك بعيد المدى ، والثانية ـ التحام الأجزاء والتفافها حول فكرة ما** . اعتمدت فكرة **أوتو** ـ سلفستر على المرحلة الثانية ، لكنَّ أوروبا كانت لاتزال تعيش المرحلة الأولى . كان عصر الإقطاع على الأبواب . ولن يكون الحفاظ على بنية متلاحمة لدولة كبرى في القرون التالية بالأمر اليسير ، فما بالك بإنشاء كتل فيدرالية !

يبدو وكأن ملاحظات **داوصن** المثيرة للإهتمام حول الحقب التي كانت تبد وتنتهي بأزمات ، يمكن أن تطبق على كامل الألف سنة الأولى من تاريخ الكنيسة .

فقد تم الإنطلاق من العبارة التي تسد ظاهريا كافة الآفاق : يحظر اعتناق المسيحية ! لكنَّ المسيحية حطمت هذا الحاجز ، وعمَّت أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وانتصرت على الديانات الأخرى ، وقامت وسط صعوبات جمة بصياغة قانونها الذي عززته أخيراً بعقائدها .

لكنَّ الحياة المسيحية من ناحية أخرى ستتعثر باستمرار . فسوف تخرج الكنيسة من السراديب متناحرة تمزقها الخلافات . وسوف يسعى ممثلوها لكسب تعاطف الحكام وتحقيق بعض النفوذ في بلاطاتهم ، كما سيرفع رجال الدين السيوف في ايديهم .

ستجد الكنيسة نفسها مضطرة على الإصلاح مرة بعد مرة . ECCLESIA SEMPER REFORMANDA .

ولن تمر مرحلة واحدة يقوم فيها الناس بإخضاع أنشطتهم للأخلاقية المسيحية . وسيتداخل الشر دوماً مع الخير ، وستتعارض غرائز الإنسان المنحط دوماً مع فعل النعمة .

لكن النعمة ستفيض باستمرار . ومرة بعد مرة سيدوي صوت الله وسط أصداء الزمن . وستكتب يد الله دوماً باستقامة على أشد الخطوط انحناءً .

سيتوجب على الكنيسة أن تبعث ، ولكنها ستحصل دوماً على الطاقة التي تمكنها من ذلك .

مرَّت المسيحية بعد ظهورها بمختلف الحالات التي صادفناها في الألف سنة الأولى من تاريخها ،لكنَّها لم تتوقف عن الوجود أبداً . أما لحظات التجدد ، فقد كادت أن تأتي دوماً في المراحل الصعبة والخطرة ، في الأعوام التي كانت فيها الكنيسة تعيش حالة عزلة ويهددها الخطر من جميع الجهات . وهنا نجد الكاردينال جورنييه محقاً في قوله :

« نعتقد بإمكانية وجود حكمة التاريخ ، الحكمة التاريخية التي كان لها أن تتضمن «لاهوت» التاريخ المركز على أسرار الكنيسة ، دولة الله ، في علاقاتها مع العالم من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى «فلسفة» التاريخ المركزة على أسرار العالم في علاقاته مع الكنيسة ، ملكوت الله في حالة تواصل » .

فارصوفيا

١٩٦٥/٢/٢٢

الفهـــرس

الفصل الأول : الكنيسة في السراديب .

من إصدارات الدار

الفن عند الانسان البدائي	تأليف يان إيليك ، ترجمة : د. جمال الدين الخضور
علم الهارمونية	تأليف د. محمد عزيز شاكر
الحريم السياسي (النبي والنساء)	تأليف فاطمة المرنيسي ، ترجمة عبدالهادي عباس
السلطانات المنسيات	تأليف فاطمة المرنيسي ، ترجمة عبدالهادي عباس
العبودية	تأليف موريس لانجليه ، ترجمة وتقديم : الياس مرقص
العنف والمقدس	تأليف رينيه جيرار ، ترجمة عبدالهادي عباس
السيادة	تأليف عبدالهادي عباس
الفلسفة والطفل	تأليف غاريس ماتيوس ، ترجمة نورالدين البهلول
العشق الجنسي والمقدس	تأليف فيليب كامبي ، ترجمة عبدالهادي عباس
شكسبير والدراما	ليف تولستوي ، ترجمة د. محمد عبدو النجاري
قضايا الابداع في قصيدة النثر	تأليف : يوسف حامد جابر
مديح الاختلاف	تأليف البير جاكار ، ترجمة د. اياس حسن
ما هو الفن	تأليف ليف تولستوي ، ترجمة د. محمد عبدو النجاري
زمن النص	تأليف د. جمال الدين الخضور
مأساة العقل العربي	تأليف د. جمال الدين الخضور

بعد أن تجاوز الشرق عتبة الهمجية ودخل في رحاب البحث عن معنى الوجود وسرّه بدءاً من الأساطير مروراً بالروحانيات ومحاولة ايجاد تفسير الوجود ، وفي غمرة هذا الانشغال جاءه الرومان بغتة وسحقوه عسكرياً .

لكن الشرق لم يستسلم لهذا المتغطرس الهمجي . وبدأ هجومه المضاد على نطاق واسع مستخدماً ما لم يُفكر به الرومان ، مستخدماً أساطيره ، روحانياته ، فكره . وافلح الشرق في هجومه المضاد وروَّض الرومان وأدخلهم في نواميسه وعقّدهم . ومن بعدها راح الغرب الروماني يعج بالصراعات محاولاً الإهتداء الى أفضل المذاهب التي رماه بها الشرق . وفي غمرة ذلك بدأت سلسلة تفجر القماقم التي راحت تُطلق تباعاً المارد تلو الآخر . وقد تمثل ذلك في فيضانات الشعوب المحيطة من الشمال والشرق الأوربي التي جاءت تمارس بربريتها على اوسع نطاق . وراح الرومان بدورهم يتصدون للبربرية المغيرة . وحين كانت قوتهم العسكرية لا تفلح في المقاومة كانوا يستنجدون بأسلحة الشرق ، بروحانياته ليروِّضوا بربرية الآخرين .

ويأتي الشرق بفيضه الروحي ، الفكري الجديد ، انما هذه المرة مرتبطاً بالقوة المادية ، بقوة السلاح . انه **الإسلام** . وتزداد الرقعة اتساعاً ، رقعة الاحداث ؛ ويزداد أتونها ضراوة وتنوعاً . ويشهد تاريخ البشرية عبر قرون من الصراع حركة تداخل مرعبة .

نطّلعُ في هذا الكتاب /ربما/ على أغنى الاحداث في تاريخ البشر ، الاحداث التي حدَّدت مسار البشرية الى حد بعيد .

ويبقى **للمسيحية** الخارجة من رحم الشرق ، يبقى لها في خضم هذه الأحداث نصيباً بارزاً ، سواء لما كان بينها وبين اعدائها أو لما جرى في داخلها .

وبقدر ما هي أحداث هذا الكتاب غنية بقدر ما تساعد القارئ ـ باطلاعه عليها ـ في فهم السلوك البشري ، السياسي ، الاجتماعي ، الروحي ، فالأنانيّ بل لنقل والهمجي . لكن أيضاً السلوك النضالي الرفيع للمؤمنين الذي يبعث الدفء حين يحل صقيع وحشية الانسان .

الناشر

دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق
هاتف فاكس ـ ٢٢٤٦٣٢٦
ص. ب : ٤٤٩٠